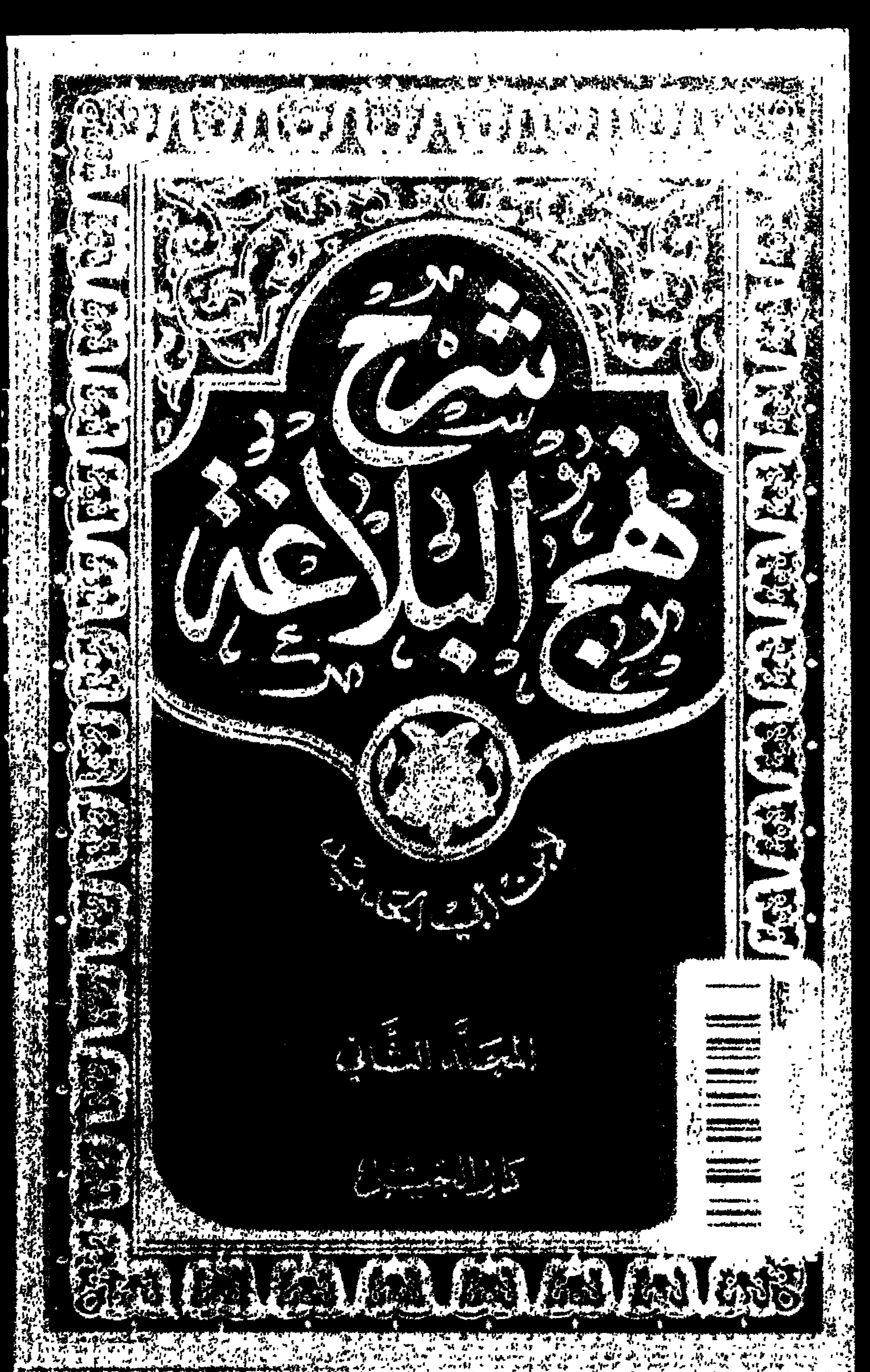

شرح
نهج البلاغة
لابن أبي الحديد
المجلد الثاني
دار الجيل





شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثالث

دار الجيل
بيروت

طبعة ثانية
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل الكريم .

واعلم أن الذى ذكره المرتضى رحمه الله تعالى ، وأورده على قاضى القضاة[1] جيد ولازم ؛ متى ادعى قاضى القضاة أن العدالة إذا ثبتت ظنا أو قطعا لم يجز العدول عنها والتبرؤ إلا بما يوجب القطع ، ويعلم به علما يقينيا زوالها ؛ فأما إذا ادعى أن المعلوم لا يزول إلا بما يوجب العلم ، فلا يرد عليه ماذكره المرتضى رحمه الله تعالى .

وله أن يقول : قد ثبتت بالإجماع إمامة عثمان ، والإجماع دليل قطعى عند أصحابنا ، وكل من ثبتت إمامته ثبتت عدالته بالطريق التى بها ثبتت إمامته ، لأنه لا يجوز أن تكون إمامته معلومة وشرائطها مظنونة ؛ لأن الموقوف على المظنون مظنون ، فتكون إمامته مظنونة ، وقد فرضناها معلومة ، وهذا خلف ومحال . وإذا كانت عدالته معلومة لم يجز القول بانتفائها وزوالها إلا بأمر معلوم .

والأخبار التى رويت فى أحداثه أخبار آحاد لا تفيد العلم ، فلا يجوز العدول عن المعلوم بها ، فهذا الكلام إذا رتب هذا الترتيب اندفع به مااعترض به المرتضى رحمه الله تعالى .

* * *

---

(١) انظر ص ٢٤ من الجزء الثانى ، وما بعدها .

[بقية رد المرتضى على ماأورده القاضى عبد الجبار من الدفاع عن عثمان][*]

فأمّا كلامُ المرتضى رحمه الله تعالى عَلَى الفصل الثانى من كلام قاضى القضاة ، وهو الفصلُ المحكىّ عن شيخنا أبى علىّ رحمه الله تعالى ، فنحن نورده . قال رحمه الله تعالى[1] :

أما قوله : لوكان ماذكرَ من الأحداث قادحاً لوجب من الوقت الذى ظهرت الأحداث فيه أن يطلبوا رجلًا ينصبونه فى الإمامة ، لأنّ ظهورَ الحدَث كموته، فلمّا رأيناهم طلبوا إماماً بعد قتله دلّ على بطلان ماأضافوه إليه من الأحداث . فليس بشىء معتمَد ؛ لأنّ تلك الأحداثَ وإن كانت مزيلةً عندهم لإمامته ، وفاسخةً لها ، ومقتضية لأنْ يعقدوا لغيره الإمامة ، [2]إلا أنهم لم يكونوا قادرين على أن يتفقوا على نَصْب غيره ،[2] مع تشبّثه بالأمر ؛ خوفا من الفتنة والتنازع والتجاذب ، وأرادوا أن يخلعَ نفسَه ، حتى تزولَ الشبهة، وينشَط مَنْ يصلُح للأمر لقبول العَقْد والتكفّل بالأمر . وليس يجرى ذلك مجرَى موته؛ لأنّ موته يَحْسِم الطمع فى استمرار ولايته ، ولاتبقى شبهة فى خلوّ الزمان من إمام . وليس كذلك حَدَثه الذى يَسُوغ فيه التأويل عَلَى بُعْده ، وتبقى معه الشّبهة فى استمرار أمره . وليس نقولُ[3] : إنهم لم يتمكنوا من ذلك كما سأل نفسَه ، بل الوجه فى عدولهم ماذكرناه من إرادتهم حَسْمَ[4] المواد وإزالة الشبهة وقطع أسباب الفتنة .

(*) تابع لما ورد فى الجزء الثانى ص ٣٢٨ وما بعدها .

(١) الشافى ٢٦٦ وما بعدها ؛ وعبارته فى أول هذا الفصل : « فأما عد الأحداث التى نقمت عليه ، فنحن نتكلم عليها وعلى ما أورده من المعاذير فيها بمشيئة الله تعالى عند ذكره لذلك ؛ فأما ماحكاه عن أبى على من قوله : لو كان ماذكره من الأحداث قادحا . . . . » . وانظر ص ٣٦٢ من الجزء الثانى .

(٢ - ٢) كذا فى ا ، ح . وفى ب والشافى : « فإنهم لم يقدموا على نصب غيره . . » .

(٣) الشافى : « ليس نقول » .

(٤) ا : « لحسم » ، وكذلك فى الشافى .

قال : فأمّا قوله : إنه معلوم من حال هـذه الأحداث أنّها لم تحصل أجمع فى الأيام التى حُصِر فيها وقُتِل ؛ بل كانت تقعُ حالاً بعد حال ، فلو كانت توجبُ الخلع والبراءة ، لما تأخّر من المسلمين الإنـكارُ عليه ، ولـكان المقيمون من الصحابة بالمدينة أوْلَى بذلك من الواردين من البلاد ؛ فلا شكّ أنّ الأحداثَ لم تحصُل فى وقت واحد ؛ إلّا أنه غيرُ منـكَر أن يكونَ نـكيرُهم إنّما تأخّر لأنهم تأوّلوا ماورد عليهم من أفعاله على أجمل الوجوه ؛ حتى زاد الأمرُ وتفاقم ، وبَعُدَ التأويل ، وتعذّر التخريج ، ولم يبق للظنّ الجميل طريق ، فحينئذ أنـكروا ، وهذا مستمرّ عَلَى ماقدّمنا ذكره ، من أنّ العدالة والطريقة الجميلة يُتأوّل لها فى الفعل والأفعال القليلة ، بحسب ماتقدّم من حُسْن الظن به ، ثم ينتهى الأمر [بعد ذلك][1] إلى بُعْدِ التأويل ، والعمل على الظاهر القبيح .

قال : عَلى أنّ الوجهَ الصحيح فى هذا الباب أنّ أهل الحقّ كانوا معتقدين بخلعه من أول حَدَث ، بل معتقدين أنّ إمامته لم تثبت وقتا من الأوقات ، وإنما منعهم من إظهار مافى نفوسهم ماقدّمناه من أسباب الخوف والتقيّة ؛ لأن الاعتذارَ بالوجَل[2] كان عامًّا ، فلما تبيّنَ أمره حالاً بعد حال ، وأعرضت الوجوهُ عنه، وقلّ العاذرُ له ، قويت الـكلمة فى خَلعه . وهذا إنما كان فى آخر الأمر دونَ أوّلهِ ، فليس يقتضى الإمساك عنه إلى الوقت الذى وقع الـكلام فيه نِسْبة الخطأ إلى الجميع ؛ على ماظنه .

قال : فأما دفعهُ بأن تكون الأمّة أجمعت على خلعه بخروجه[3] نفسه وخروج مَنْ كان فى حَيّزه عن القوم ، فليس بشىء ، لأنّه إذا ثبتَ أنّ مَنْ عَداه وعَدَا عبيده والرُّهَيط من فُجّار أهله وفُسّاقهم ، كمَرْوان ومَنْ جرى مجراه ، كانوا مجمعين على خلعه، فلاشبهة

---

(١) من كتاب الشافى .

(٢) كذا فى ج ، وفى حاشيتها : « يعنى أكثر الناس يعتذرون بالخوف » ، وفى ا ، ب : « لأن الإعذار بالرجل » ، وفى الشافى : « لأن الاغترار بالرجل » .

(٣) ب : « بإخراجه » .

فى أنّ الحقّ فى غير حَيِّزه ، لأنه لا يجوز أن يكون هو المصيب ، وجميعُ الأمة مبطِل؛ وإنّما يدّعى أنّه على الحق لمن ينازع فى إجماع مَنْ عداه ، فأمّا مع التسليم لذلك ، فليس يبقى شبهة ، وما نجد مخالفينا يعتبرون فى باب الإجماع بإجماع الشذّاذ والنفر القليل الخارجين من الإجماع ، ألا ترى أنّهم لا يحفِلون[1] بخلاف سعْدٍ[2] وأهله وولده فى بَيْعة أبى بكر لقلّتهم وكثرة مَنْ بإزائهم ؛ ولذلك لا يعتدُّون بخلاف مَن امتنع من بَيْعة أمير المؤمنين عليه السلام ، ويجعلُونَه شاذًّا ؛ لا تأثير بخلافه[3] ، فكيف فارقوا هذه الطريقة فى خَلْع عثمان! وهل هذا إلّا تقلّب وَتَلَوّن !

***

قلت : أما إذا احتجّ أصحابُنا على إمامة أبى بكر بالإجماع ، فاعتراض حُجّتهم بخلاف سعد وولده وأهله اعتراض جَيِّد ، وليس يقول أصحابنا فى جوابه : هؤلاء شذّاذ فلا نحفِل بخلافهم ؛ وإنما المعتبر بالكَثْرة التى بإزائهم . وكيف يقولون هذا ، وحجّتهم الإجماع ولا إجماعَ ! ولكنّهم يُجيبون عن ذلك بأنّ سعدا مات فى خلافة عمر ، فلم يبق مَنْ يخالف فى خلافة عمر ، فانعقد الإجماع عليها ، وبايع ولد سعد وأهله من قَبْل ؛ وإذا صَحّت خلافة عمر صَحّت خلافة أبى بكر ؛ لأنها فرع عليها ؛ ومحال أن يصحّ الفرع ، ويكون الأصلُ فاسدا ؛ فهكذا يجيب أصحابُنا عن الاعتراض بخلاف سعد إذا احتجّوا بالإجماع ؛ فأمّا إذا احتجُّوا بالاختيار فلا يتوجّــه نحوَهم الاعتراض بخلاف سعد وأهله وولده ؛ لأنّه ليس من شرط ثبوت الإمامة بالاختيار إجماعُ الأمة على الاختيار ؛ وإنما يكفى فيه بَيْعة خمسة من أهل الحلّ والعقد على الترتيب الذى رتَّب أصحابُنا الدّلالة عليه ؛ وبهذا الطريق يثبت عندهم إمامةُ علىّ عليه السلام ، ولم يُحفَل بخلاف معاوية وأهل الشام فيها .

***

(١) يقال : لم يحفل بالأمر ؛ إذا لم يبال به .

(٢) هو سعد بن عبادة الأنصارى ، وانظر حديث السقيفة فى تاريخ الطبرى (حوادث السنة الحادية عشرة).

(٣) ا ، ح : « لا تأثير له » .

قال رحمه الله تعالى : فأمّا قوله : إنّ الصحابة كانت بين فريقين : مَنْ نصره[١] كزيد بن ثابت وابن عمر وفلان وفلان ، والباقون ممتنعون انتظاراً لزوال العارض ولأنه ماضيّق عليهم الأمر فى الدفع عنه ، فعجيب ، لأنّ الظاهر أنّ أنصاره هم الذين كانوا معه فى الدار ، يقاتلون عنه[٢] ، ويدفعون الهاجمين عليه .

فأمّا مَنْ كان فى منزله ما أغنى عنه فتيلا ، فلا يُعدّ ناصرا ، وكيف يجوز ممّن أراد نُصرَته ، وكان معتقداً لصوابه ، وخطأ المطالبين له بالخلع ، أن يتوقّف عن النصرة طلبا لزوال العارض ! وهلْ تُرادُ النّصرة إلّا لدفع العارض ، وبَعْدَ زواله لا حاجة إليها ! وليس يحتاج فى نصرته إلى أن يضيّق هو عليهم الأمر فيها ، بل مَنْ كان معتقدا لها لا يحتاج حمله إلى إذنه فيها ، ولا يُحفَل بنهيه عنها ، لأنّ المنكر مماقد تقدّم أمر الله تعالى بالنهى عنه ، فليس يحتاج فى إنكاره إلى أمر غيره .

قال : فأمّا زيد بن ثابت ، فقد رُوِى ميلُه إلى عثمان ، وما يغنى ذلك وبإزائه جميعُ المهاجرين والأنصار ! ولميله إليه سبب معروف ، فإن الواقدى روى فى ''كتاب الدّار'' أنّ مَرْوان بن الحكم لما حُصِرَ عثمان الحصْر الأخير أتى زيدَ بن ثابت فاستصحبَه إلى عائشة ليكلّما فى هذا الأمر ، فمضيا إليها وهى عازمة على الحجّ ، فكلّماها فى أن تُقيمَ وتَذُبّ عنه ، فأقبلتْ على زيد بن ثابت ، فقالت : وما منعك يابن ثابت ولك الأشاريف قد اقتطعكها[٣] عثمان ، ولك كذا وكذا ، وأعطاك عُثْمان من بيت المال عشرة آلاف دينار ! قال زيد : فلم أرْجعْ عليها حرفا واحدا ، وأشارت إلى مروان بالقيام ، فقام مَرْوان وهو يقول :

---

(١) الشافى : « من ينصره » .
(٢) ب : « يقاتلون غيره » .
(٣) الشافى : « قد قطعها » .

حَرّق قَيْسٌ عَلَىّ البـلا دَ حتى إذا اضطرمَتْ أجذَما[1]

فناداه عائشة ، وقد خرج من العتبة : يابن الحـكم ، أعلىّ تُمثِّل الأشعار ! قد والله سمعتُ ماقلتَ ، أترانى فى شكّ من صاحبك ! والذى نفسى بيده لوددت أنّه الآن فى غِرارة من غرائرى تَخيط عليه ، فألقيه فى البحر الأخضر ، قال زيد بن ثابت : فخرجنا من عنْدها[2] على اليأس منها [2] .

ورَوى الواقدىّ أن زيد بن ثابت اجتمع عليه عِصابة من الأنصار ، وهو يدعوهم إلى نُصْرة عثمان . فوقف عليه جَبَلة بن عمرو بن حَبّة المازنىّ ، فقال له : وما يمنعُك يازيدُ أن تذُبّ عنه ؟ أعطـاك عشْرة آلاف دينـار وحدائق من نخل لم ترِثْ عن أبيك مثل حديقة منها .

فأمّا ابنُ عمر فإنّ الواقدىّ روَى أيضا عنه أنه قال : والله ما كانَ فينا إلا خاذلٌ أو قاتل . والأمر على هذا أوضحُ من أنْ يخفَى .

فأما ماذكره من إنفاذ أمير المؤمنين عليه السلام الحسَن والحسين عليهما السلام ، فإنما أنفذهما – إنْ كان أنفذَهما – ليمنعا من انتهاك حرِيمه وتعمّد قتله ، ومنع حُرمِه[3] ونسائه من الطعام والشراب ، ولم يُنفذهما ليمنعا من مطالبته بالخلع ، وكيف وهو عليه السلام مصرِّح بأنّه يستحقّ بأحْدَاثه الخلْع ، والقوم الذين سعَوْا فى ذلك إليه كانوا يغدُون ويروحون ، ومعلوم منه ضرورةً أنه كان مساعِداً على خلْعه ونقض أمره ، لا سيّما فى المرة الأخيرة .

فأما ادعاؤه أنّه عليه السلام لعَن قتلَته ، فهو يعلم مافى هذا من الروايات المختلفة التى

---

(١) الإجذام : الإقلاع ؛ والبيت للربيع بن زياد ؛ من أبيات فى الحماسة ٢ – ٤٨٤ – ٤٨٧ ، بشرح المرزوق . وفى الشطر الأول من البيت زحاف بالخرم ؛ وهو جائز فى أول المتقارب والطويل ، ورواية اللسان : « وحرق » ؛ بلا خرم . وقيس هو ابن زياد العبسى .

(٢ – ٢) الشافى : « على الناس » .

(٣) ب : « حريمه » ، وما أثبته من ا ، وكتاب الشافى .

هى أظهر من هذه الرواية ، وإن صحّت فيجوز أن تكون محمولة على لعن مَنْ قتله متعمّدا قتلَه ، قاصدا إليه ، فإنّ ذلك لم يكن لهم .

فأما ادّعاؤه أنّ طلحة رجعَ لما ناشده عثمان يوم الدّار ، فظاهرُ البطلان وغير معروف فى الرواية ، والظاهر المعروف أنه لم يكن على عثمان أشدّ من طلحة ، ولا أغلظَ منه .

قال : ولو حكينا من كلامه فيه ماقد رُوى لأفنينا قِطْعة كثيرة من هذا الكتاب ، وقد رُوِى أنّ عثمان كان يقول يوم الدار : اللهم اكفِنى طلحة ، ويكرّر ذلك ،علمًا بأنّه أشدُّ القوم عليه . ورُوِىَ أنّ طلحَة كانَ عليه يومَ الدار دِرْعٌ وهو يُرامى الناس ، ولم ينزعْ عن القتال حتى قتل الرّجُل[1] .

فأما ادّعاؤه الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله : «ستكون فتنة ، وإنّ عثمان وأصحابه يومئذ على الهدى » ، فهو يعلم أنّ هذه الرواية الشاذّة لا تكون فى مقابلة المعلوم ضرورة من إجماع الأمة على خَلْعه وخَذْله ، وكلام وجوه المهاجرين والأنصار فيه ،وبإزاء هذه الرواية مايملأُ الطروس عن النبىّ صلى الله عليه وآله وغيره ، مما يتضمّن ماتضمّنَتْه . ولو كانت هذه الرواية معروفةً لكان عثمانُ أوْلى الناس بالاحتجاج بهايوم الدار،وقد احتجّ عليهم بكلّ غثّ وسمين ،وقبل ذلك لما خُوصم وطولب بأنْ يخلع نفسه ،ولاحتجّ بها عنه بعض أصحابه وأنصاره ، وفى علمنا بأنّ شيئا من ذلك لم يكُنْ ، دلالة على أنّها مصنوعة موضوعة .

فأما مارواه عن عائشة من قولها: «قُتِل واللهِ مظلوما» فأقوال عائشة فيه معروفة ومعلومة، وإخراجُها قميصَ رسول الله صلى الله عليه وآله وهى تقول : « هذا قميصه لم يَبْلَ ، وقد أبْلَى عثمانُ سنّتَه » ، إلى غير ذلك مما لا يُحصى كثرة .

---

(١) ب : « الرجال » ، وما أثبته عن ا ، ج ، وكتاب الشافى .

فأما مدحُها له وثناؤُها عليه ؛ فإنّمـا كانا عَقِيب عِلْمِها بانتقال الأمر إلى مَن انتقل إليه ، والسببُ فيه معروف ، وقد وقفت عليه ، وقُوبل بين كلامها فيه متقدما ومتأخرا .

فأما قوله : لا يمتنع أن يتعلّق بأخبار الآحاد فى ذلك لأنّها فى مقابلة مايدّعونه ممـا طريقه أيضاً الآحاد ، فواضح البطلان ،لأن إطباق الصحابة وأهل المدينة ـ إلّا مَنْ كان فى الدار معه على خلافه ، فإنهم كانوا بين مجاهد ومقاتل مبارز ، وبين متقاعد خاذل ـ معلومٌ ضرورة لـكلّ مَنْ سمع الأخبار ، وكيف يدّعى أنّها من جهـة الآحاد حتى يعـارض بأخبار شاذة نادرة ! وهل هذا إلّا مكابرة ظاهرة !

فأمّا قوله : إنا لا نعدل عن ولايته بأمور محتَملة ، فقد مضى الكلام فى هذا المعنى ، وقلنا إن المحتمل هو مالا ظاهر له ، ويتجاذبه أموور محتملة ، فأمّا ماله ظاهر فلا يسمّى محتملا وإن سماه بهذه التسمية ، فقد بينا أنّه مما يُعْدَل من أجله عن الولاية ، وفصّلنا ذلك تفصيلا بيّناً .

وأما قوله : إنّ للإمام أن يجتهد برأيه فى الأمور المنُوطة به ، ويكون مصيبـا وإن أفضت إلى عاقبة مذمومة ، فأوّل مافيه أنّه ليس للإمام ولا غيره أن يجتهد فى الأحكام ، ولا يجوز أن يعمل فيها إلّا على النصّ ، ثم إذا سلّمنا الاجتهاد ، فلا شكّ أن هاهنا أموراً لا يسوغ فيها الاجتهاد ، حتى يكون مَنْ خبّرناعنه بأنه اجتهد فيها غير مصوّب[1] ، وتفصيل هذه الجملة يبيّن عند الكلام على ماتعاطاه من الأعذار عن إحداثه[2] على جهة التفصيل .

* * *

قلت : الـكلام فى هذا الموضع على سبيل الاستقصاء إنما يكون فى الـكتب الكلاميّة المبسوطة فى مسألة الإمامة ، وليس هذا موضع ذاك ، ولـكن يكفى قاضى القضاة أن يقول:

---

(١) كذا فى الأصول ، وفى كتاب الشافى : « غير مصدق » .
(٢) الشافى : « فى أحداثه » .

قد ثبت بالإجماع صحّة إمامة عثمان ؛ فلا يجوز الرجوع عن هذا الإجماع إلا بإجماع معلوم على خَلْعه وإباحة قَتْله ، ولم يُجمع المسلمون على ذلك ، لأنّه قد كان بالمدينة مَنْ يُنْكر ذلك وإنْ قَلّوا ، وقد كان أهلُ الأمصار يُنكِرُون ذلك ، كالشام والبَصْرة والحجاز واليمن ومكّة وخراسان ، وكثير من أهل الكوفة ، وهؤلاء مسلمون ، فيجب أن تُعتبَر أقوالهم فى الإجماع ، فإذا لم يدخلوا فيمن أجْلَب عليه لم ينعقد الإجماع على خلعه ولا على إباحة دمه ، فوجب البقاء على ما اقتضاه الإجماع الأوّل .

***

[ذكر المطاعن التى طُعِن بها على عثمان والردّ عليها]

فأمّا الكلام فى المطاعن المفصّلة التى طُعِن بها فيه ، فنحن نذكرها ، ونحكى ماذكره قاضى القضاة وما اعترضه به المرتضى رحمه الله تعالى [١] .

الطعن الأوّل :

قال قاضى القضاة فى " المغنى " : فممّا طُعِن به عليه قولهم : إنّه ولى أمورَ المسلمين مَنْ لا يصلحُ لذلك ولا يؤتَمَن عليه ، ومَنْ ظهر منه الفسق والفساد ، ومَنْ لا علمَ عنده ، مراعاةً منه لحرمة القرابة ، وعدولًا عن مراعاة حرمة الدّين والنظر للمسلمين ؛ حتى ظهر ذلك منه وتكرّر ؛ وقد كان عمرُ حَذّره من ذلك ؛ حيث وصفه بأنّه كلِفٌ بأقاربه ، وقال له : إذا وُلِّيتَ هذا الأمرَ فلا تسلّط بنى أبى مُعَيْطٍ على رقاب الناس . فوقع منه ماحذّره إياه ، وعُوتب فى ذلك فلم ينفع العتبُ ، وذلك نحو استعماله الوليد بن عُقْبة [٢] ، وتقليده إياه ،

---

(١) نقله المرتضى فى الشافى ٢٦٧ وما بعدها .

(٢) هو الوليد بن عقبة بن أبى معيط أخو عثمان لأمه ، وأمهما أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب ابن عبد شمس . ولاه عثمان الكوفة بعد عزل سعد بن أبى وقاص ؛ ثم عزله عنها بعد أن ثبت عليه شرب الخمر ؛ فى خبر مشهور . الإصابة ٣ : ٦٠١ .

حتى ظهر منه شربُ الخمر ؛ واستعمالُه سعيد بن العاص [١] حتى ظهرتْ منـه الأمور التى عندها أخرجَه أهل الـكوفة ، وتوليتُه عبد الله بن أبى سَرْح [٢] ، وعبد الله بن عامر بن كُريز [٣] ؛ حتى رُوِى عنه فى أمر ابن أبى سَرْح أنّه لما تظلّم منه أهلُ مصر وصَرَفه عنهم بمحمد بن أبى بكر ، كَاتَبه بأنْ يستمرّ على ولايته، فأبطن خلافَ ماأظهر، فِعْل من غرضه خلافالدين . ويقال : إنه كاتبَه بقتْل محمد بنأبى بكر وغيره ممّن يرِد عليه، وظفِر بذلك الـكتاب ، ولذلك عَظُم التظلّم من بعد ، وكَثُر الجمع ، وكان سبب الحصار والقتل ؛ حتى كان من أمرِ مَرْوان وتسلّطه عليه وعلى أموره ما قُتل بسببه ؛ وذلك ظاهر لا يمـكن دَفْعُه .

قال رحمه الله تعالى:وجوابُنا عن ذلك أن نقول:أمّا ما ذُكِر من تَوْليته مَنْ لايجوز أن يُسْتعمل،فقد علمنا أنّه لا يمكنُ أنْ يُدّعى أنه حين استعملَهم عَلِمَ من أحوالهم خلافَ الستر والصلاح؛لأنّ الذى ثبتَ عنهم من الأمور القَبيحة حَدَث من بعد،ولايمتنع كونُهم فى الأوّل مستورين فى الحقيقة أو مستورين عنده ؛ وإنّما كان يجب تخطئته لو استعملهم ؛ وهم فى الحال لا يصلحون لذلك ٠

فإنْ قيل ، فلمّا علم بحالهم كان يجب أن يعزلهم !

قيل : كذلك فَعَل ؛ لأنه إنما استعمل الوليد بن عُقْبة قبل ظهور شرب الخمر عنه

---

(١) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشى الأموى . ولاه عثمان الـكوفة بعد الوليد ابن عقبة ؛ ثم شكاه أهل الـكوفة ؛ لتجبر وغلظة فيه ، وكتبوا إلى عثمان : لا حاجة لنا فى وليدك ولا سعيدك ؛ فعزله . الاستيعاب لابن عبد البر ٦٢١ .

(٢) هو عبدالله بن سعد بن أبى سرح بن الحارث بن حبيب القرشى العامرى ، أخو عثمان من الرضاعة ؛ كان على الصعيد فى زمن عمر ، ثم ضم إليه عثمان مصر كلها ؛ وافتتح إفريقية ، الإصابة ٣ : ٣٠٩ .

(٣) هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى القرشى العبشمى ، ابن خال عثمان بن عفان. عزل عثمان أبا موسى الأشعرى عن البصرة وعثمان بن أبى العاص عن فارس ؛ وجمع ذلك كله لعبد الله بن عامر . الاستيعاب لابن عبد البر ٩٣١ .

فلما شُهِد عليه بذلك جَلَده الحدّ وصرَفه . وقد رُوِى مثلُه عن عمر ، فإنّه ولّى قُدامة بن مَظْعون بعضَ أعماله، فشهدوا عليه بشرب الخمر ، أشخصه وجلَده الحدّ ؛ فإذا عُدّ ذلك فى فضائلِ عمر لم يجزْ أن يعدّ ماذكروه فى الوليدِ من معايب عثمان . ويقال : إنّه لما أشخصه أقام عليه الحدّ بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام .

وقد اعتذر من عَزْله سعد بن أبى وقّاص بالوليد ؛ بأنّ سعداً شكاه أهلُ الكوفة ، فأدّاه اجتهادُه إلى عزله بالوليد .

فأمّا سعيد بن العاص فإنه عزله عن الكوفة وولّى مكانه أبا موسى، وكذلك عبد الله ابن أبى سَرْح عزله وولّى مكانه محمد بن أبى بكر، ولم يظهر له من مَرْوان(١) مايوجب أن يصرِفَه عمّا كان مستعملا فيه، ولو كان ذلك طَعْناً لوجب مثلُه فى كلّ مَنْ ولّى، وقد علمنا أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله ولّى الوليد بن عُقْبة ، فحدث منه ماحدث . وحَدَث من بعض أمراء أمير المؤمنين عليه السلام الخيانة ، كالقَعْقاع بن شور ، لأنه ولاه على مَيْسان فأخذ مالها ولحق بمعاوية، وكذلك فعل الأشعث بن قيس بمال أذْرَبيجان. وولّى أبا موسى الحكَم ، فكان منه ما كان، ولا يجب أن يُعاب أحد بفعل غيره ؛ وإذا لم يلحقه عيب فى ابتداء ولايته فقد زال العيبُ فيما بعده .

وقولهم : إنّه قسّم أكثر الولايات فى أقاربه، وزال عن طريقة الاحتياط للمسلمين، وقد كان عمر حذّره من ذلك، فليس بعيب ؛ لأنّ توليةَ الأقارب كتولية الأباعد؛ فى أنّه يحسُن إذا كانوا على صفات مخصوصة. ولو قِيلَ إنّ تقديمهم أولى لم يمتنع، إذا كان المولّى لهم أشدّ تمكنا من عزلهم، والاستبدال بهم ، وقد ولّى أمير المؤمنين عليه السلام عبد الله بن العباس البصرة، وعُبيدَالله بن العباس اليمن، وقُثَم بن العباس مكّة؛ حتى قال مالك الأشتر عند ذلك :

---

(١) كذا فى ج ، وفى ب والشافى : « فى باب مروان » .

عَلَى ماذا قتلنا الشيخ أمس ! فيما يُرْوَى ؛ ولم يكن ذلك بعيب إذا أدّى ماوجب عليه في اجتهاده .

فأمّا قولهم : إنّه كتب إلى ابن أبى سَرْح حيث ولّى محمد بن أبى بكر بأنّه يقتلُه ويقتل أصحابه ، فقد أنكرَ ذلك أشدّ إنكار ، حتى حلف عليه ، وبيّن أن الكتاب الذى ظهر ليس كتابه ولا الغلام غلامه ولا الراحلة راحلته ؛ وكان فى جُملة مَنْ خاطبه فى ذلك أميرُ المؤمنين عليه السلام ، فقبِل عذره . وذلك بيّن ؛ لأنّ قول كلّ أحد مقبول فى مثل ذلك ، وقد علم أنّ الكتاب يجوز فيه التزوير ، فهو بمنزلة الخبَر الذى يجوز فيه الكذب .

فإن قيل : فقد علم أنّ مروان هو الذى زَوّر الكتاب ، لأنه هو الذى كان يكتب عنه ، فهلّا أقام فيه الحدّ !

قيل : ليس يجب بهذا القدر أن يُقطَع على أنّ مروان هو الذى فعل ذلك ، لأنّه وإن غلب ذلك فى الظّنّ ، فلا يجوز أن يحكم به ، وقد كان القوم يسومونَه تسليمَ مروان إليهم ؛ وذلك ظلم ؛ لأنّ الواجب على الإمام أن يُقيم الحدّ على مَنْ يستحقه أو التأديب ، ولا يحلّ له تسليمُه إلى غيره ؛ فقد كان الواجب أن يُثبِتُوا عنده مايوجب فى مروان الحدّ والتأديب ليفعَله به ؛ وكان إذا لم يفعل والحال هذه يستحقّ التعنيف . وقد ذكر الفقهاء فى كتبهم أن الأمر بالقتل لا يُوجب قَوَداً ولا دية ولا حدّاً ، فلو ثبت فى مَرْوان ماذكروه لم يستحقّ القتل وإن استحق التعزير ، لكنّه عدل عن تعزيره ؛ لأنّه لم يثبت ؛ وقد يجوز أن يكونَ عثمانُ ظنّ أنّ هذا الفعل فِعْل بعض من يعادى مَرْوان تقبيحا لأمره ؛ لأن ذلك يجوز ، كما يجوز أن يكون من فعله ؛ ولا يعلَم كيف كان اجتهاده وظنّه ! وبعد فإنّ هذا الحدَث من أجل مانقَموا عليه ؛ فإن كان شىء من ذلك يُوجب خَلْع عثمان وقتله ؛ فليس إلّا هذا ؛ وقد علمنا أنّ هذا الأمرَ لو ثبت ما كان يُوجب القتل ؛ لأنّ الأمر بالقتل لا يوجب القتل ؛ سيما قَبْل وقوع القتل للمأمور به ؛ فنقول[1] لهم : لو ثبت ذلك على عُثمان أ كان يجبُ قتله ! فلا يمكنهم ادّعاء

(١) الشافى « فيقال لهم » .

ذلك ، لأنه بخلاف الدّين ؛ ولابد أن يقولوا : إنّ قتلَه ظلم ، وكذلك حَبْسُه فى الدار ، ومنعه من الماء ، فقد كان يجب أن يدفع القومُ عن كلّ ذلك ، وأن يقال : إنّ من لم يدفعْهم وينكر عليهم يكون مخطئاً .

وفى القول بأنّ الصحابة اجتمعوا على ذلك كلّهم تخطئة لجميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وذلك غير جائز ، وقد عُلِم أيضا أنّ المستحقّ للقتل والخلْع لايحلّ أن يُمنَع الطعامَ والشرابَ ، وعُلِم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يمنعْ أهل الشام من الماء فى صِفّين ؛ وقد تمكن من منعهم ؛ وكلّ ذلك يدلُّ على كَوْن عثمان مظلوما ، وأنّ ذلك من صُنْع الجهّال ، وأنّ أعيانَ الصحابة كانوا كارهين لذلك . وأيضا فإنّ قتله لو وجب لم يَجُزْ أن يتولّاه العوامُّ من الناس ؛ ولا شبْهَة أنّ الذين أقدَموا على قتله كانوا بهذه الصّفة ؛ وإذا صَحَّ أن قتله لم يكنْ لهم ، فمنعُهم والنّكيرُ عليهم واجب .

وأيضاً فقد عُلِم أنه لم يكن من عثمان مايستحقّ به القتل ؛ من كُفْرٍ بعد إيمان ، أوزِناً بعد إحصان ، أو قتلِ نفسٍ بغير حقّ ؛ وأنه لو كان منه ما يوجِب القتل لكان الواجبُ أن يتولّاه الإمام ؛ فقتلُه على كلِّ حالٍ منكَر ، وإنكارُ المنكرِ واجب .

وليس لأحدٍ أن يقولَ : إنّه أباح قتلَ نفسه ، من حيث امتنع من دَفْع الظلم عنهم ، لأنّه لم يمتنع من ذلك ؛ بل أنصفهم ، ونظر فى حالهم ، ولأنه لو لم يفعلْ ذلك لم يحلّ لهم قتلُه ، لأنه إنّما يحلّ قتلُ الظالم إذا كان على وجه الدّفع ؛ والمروِىّ أنهم أحرقوا بابه ، وهجموا عليه فى منزله ، وبَعَجُوه بالسيف والمشاقِص[(١)] ، وضربوا يَد زوجته لما وقعتْ عليه ، وانتهبوا متاعَ داره ؛ ومِثْلُ هذه القِتْلة لا تحلّ فى الكافر والمرتدّ ، فكيف يُظَنّ أنّ الصحابة لم ينكِرُوا ذلك ، ولم يعدّوه ظلما ؛ حتى يقال إنّه مستحقٌّ من حيث لم يَدْفع القوم عنه ! وقد تظاهَر الخبر بما جرَى من تجمّع القوم عليه ، وتوسّط أمير المؤمنين عليه السلام لأمرهم ، وأنّه

(١) المشاقص : جمع مشقص ؛ وهو النصل العريض .

بذل لهم ما أرادوه ، وأعتبهم(١) وأشهدَ على نفسه بذلك ؛ وإن الكتاب الموجودَ بعد ذلك المتضمّن لقتل القوم ، ووقف عليه ـ وممّن أوقفه عليه أمير المؤمنين عليه السلام(٢) ـ حلفَ أنّه ما كتبه ، ولا أمرَ به ؛ فقال له : فمَنْ تتّهم ؟ قال : ما أتّهم أحدا ، وإنّ للناس لحِيَلاً .

والرواية ظاهرة أيضا بقوله : إن كنت أخطأتُ أو تعمّدت فإنى تائب ومستغفر ؛ فكيف يجوز والحال هذه أن تُهتَك فيه حرمةُ الإسلام وحرمةُ البلد الحرام ! ولاشبهةَ فى أنّ القتل على وجه الغيلة لايحلّ فيمن يستحقّ القتل ، فكيف فيمن لايستحقّه ! ولولا أنّه كان يمنع من محاربة القوم ظنًّا منه أنّ ذلك يؤدّى إلى القتل الذّريع لكثْر أنصاره .

وقد جاء فى الرواية أن الأنصارَ بدأت معونته ونُصرته،وأنّ أمير المؤمنينعليه السلام قد بعث إليه ابنه الحسن عليه السلام ، فقال له : قل لأبيك فلْتأتنى ؛ فأراد أميرُ المؤمنين عليه السلام المصير إليه ، فمنعه من ذلك محمد ابنه ، واستعان بالنّساء عليه ، حتى جاء الصريخُ(٣) بقتل عثمان ، فمدّ يده إلى القبلة ، وقال : اللّهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان .

فإنْ قالوا : إنّهم اعتقدُوا أنه من المفسدين فى الأرضِ ، وأنّه داخل تحت آية المحاربين .

قيل : فقد كان يجب أن يتولّى الإمام هذا الفعل ، لأنّ ذلك يجرى مجرى الحدّ ، وكيف يُدّعى ذلك ، والمشهور عنه أنه كان يمنع من مقاتلتهم ، حتى رُوِى أنّه قال لعبيده ومواليه ، وقد همّوا بالقتال : مَنْ أغمد سيفه فهو حرّ ! ولقد كان مؤثراً لتكير ذلك الأمر بما لايؤدى إلى إراقة الدماء والفتْنة ، ولذلك لم يستعِنْ بأصحاب الرسولصلىاللهعليهوآله وإن كان لما اشتدّ الأمر ، أعانَه مَنْ أعان ، لأنّ عند ذلك تجِب النُّصْرة والمعونة ، لحيث

---

(١) أعتبهم : أرضاهم .

(٢) عبارة الشافى : « وذكر أن أمير المؤمنين عليه السلام واقفه على الكتاب » .

(٣) الصريخ : المستغيث .

كانت الحال متماسكة ، وكان ينهى عن إنجاده وإعانته بالحرب امتنعوا وتوقّفوا ، وحيثُ اشتدّ الأمر أعانه ونصره مَنْ أدركه ، دون من لم يغلِب ذلك فى ظنه .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هـذا الـكلام ، فقال[1]: أما قوله : لم يكن عالما بحال الفَسَقة الذين ولّاهم قبل الولاية ؛ فلا تعويلَ عليه ؛ لأنّه لم يولِّ هؤلاء النفَر إلّا وحالُهم مشهورة فى الخلاعة والمجانة والتجرّم والتّهتك ؛ ولم يختلف اثنان فى أنّ الوليد بن عُقْبة لم يستأنف التظاهر بشرب الخمر والاستخفاف بالدّين على استقبال ولايته للكوفة؛ بل هذه كانت سنّتَه والعادةَ المعروفة منه ؛ وكيف يخفَى عَلَى عثمان ـ وهو قريبه ولصيقُه وأخوه لأمّه ـ مِنْ حاله مالا يخفى عَلَى الأجانب الأباعد! ولهذا قال له سعد بن أبى وقاص ـ فى رواية الواقدىّ ، وقد دخل الكوفة ـ : ياأبا وهب[2]، أمير أم زائر ؟ قال : بل أمير ، فقال سعد : ماأدرى أحَمُقتُ بعدك أم كِسْتَ[3] بعدى ! قال : ماحَمُقتَ بعدى ولا كِسْتُ بعدك، ولكنّ القوم ملكوا[4] فاستأثروا ، فقال سعد : ماأُرَاكَ إلّا صادقا .

وفى رواية أبى مِخْنف لوط بن يحيى الأزدىّ أنّ الوليد لما دخل الكوفة مرّ عَلَى مجلس عمرو بن زُرارة النّخعىّ ، فوقف ، فقال عمرو : يامعشرَ بنى أسد ، بئسما استقبلَنا به أخوكم ابنُ عفّان ! أمِنْ عدله أن ينزِعَ عنّا ابنَ أبى وقاص ، الهيّن اللّين السّهل القريب ، ويبعثَ بدَله أخاه الوليد ، الأحمق للماجن الفاجر قديما وحديثا ! واستعظم الناسُ مقدَمه، وعَزْلَ سعد به ،وقالوا : أرادعثمان كرامةَ أخيه بهوان أمّة محمد صلى الله عليه ! وهذا تحقيقُ ماذكرناه من أنّ حاله كانتْ مشهورة قبل الولاية ، لاريب فيها عند أحد ، فكيف

(١) الشافى ص ٢٦٩

(٢) أبو وهب كنية الوليد بن عقبة .

(٣) من الكيس ، وهو خلاف الحمق .

(٤) كذا فى ح والشافى ، وفى ب : « ولوا » .

يقال : إنه كان مستوراً حتى ظهر منه ما ظهر ! وفى الوليد نزل قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ ﴾ (١) ، فالمؤمن ها هنا أمير المؤمنين عليه السلام ، والفاسق الوليد ، على ما ذكره أهل التأويل . وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (٢) ، والسبب فى ذلك أنه كذب عَلَى بنى المصطلق عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، وادّعى أنّهم منعوه الصَّدَقَة . ولو قصصْنا مخازِيَه المتقدّمة ومساوِيَه لطال بها الشرح.

وأما شربُهُ الخمر بالكوفة وسُكْره ، حتى دخل عليه [مَنْ دخل] (٣) وأخذ خاتَمه من إصبعه ، وهو لا يعلم ، فظاهر ، وقد سارت به الرّكبان . وكذلك كلامه فى الصلاة ، والتفاته إلى مَنْ يقتدى به فيها وهو سكران ، وقوله لهم : أأزيدكم ؟ فقالوا : لا ، قد قَضَيْنا صلواتنا ، حتى قال الحطيئة فى ذلك :

شَهِدَ الْحُطَيْئَةُ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ ... أَنَّ الْوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْعُذْرِ (٤)

---

(١) سورة السجدة ١٨ . (٢) سورة الحجرات ٦ .

(٣) تكملة من كتاب الشافى .

(٤) كذا وردت الرواية فى الأصول والشافى ؛ وروى صاحب الأغانى ٤ : ١٧٦ (ساسى) بسنده عن مصعب الزبيرى ، قال : قال الوليد بن عقبة بعدما جلد : اللهم إنهم شهدوا على بزور ، فلا ترضهم عن أمير ، ولا ترض عنهم أميراً ؛ فقال الحطيئة يكذب عنه :

شهد الحطيئةُ يومَ يلقى ربَّهُ ... أنَّ الوليدَ أحقُّ بالعُذْرِ
خلعوا عنانَك إذْ جريتَ ولَوْ ... تركوا عنانَك لم تزل تجرى
ورأوْا شمائل ماجدٍ أنِفٍ ... يُعطِى على الميسورِ والعُسْرِ
فنُزِعْتَ مكذوباً عليك ولمْ ... تنزَعْ إلى طمعٍ ولا فقرِ

فقال رجل من بنى عجل يرد على الحطيئة :

نادَى وقدْ تمّتْ صلاتُهمُ ... أأزيدكم - ثملاً - وما يَدْرِى
ليزيدكُمْ خيراً ولو قبلُوا ... لقرَنْتَ بين الشَّفْعِ والوِتْرِ =

نَادَى وَقَدْ نَفِدَتْ صلاتُهمُ أأزيدكم - ثَمِلاً - وما يدرى
ليزيدهمُ خَيْراً وَلَوْ قَبِلُوا منه لقادهمُ على عشرِ
فأبَوْا أبا وهبٍ ولو فعلوا لقرنتَ بين الشَّفْعِ والوَتْرِ
حَبَسُوا عِنانك إذ جريت ولو خَلَّوْا عِنانك لم تَزَلْ تجرى

وقال فيه أيضا :

تَكَلَّمَ فى الصَّلاةِ وَزَادَ فِيها عَلانِيَةً وجاهَرَ بالنفاق(١)
وَمَجَّ الخمرَ فِى سَنَنِ المصلَّى ونادَى والجميعُ إلى افتراق
أزيدكُمُ عَلَى أن تحمَدُونى فما لَكُمُ وما لِىَ مِنْ خَلَاقِ

وأما قوله : إنه جلده الحدّ وعزله ، فبعدَ أىّ شىء كان ذلك ، ولم يعزله إلّا بعد أن دافع ومانع ، واحتجّ عنه وناضل ! ولو لم يقهرْه أمير المؤمنين عليه السلام على رأيه لما عزَله ، ولا أمكن من جَلْده . وقد روى الواقدىّ أنّ عثمان لما جاءه الشهود يشهدون على الوليد بشرْب الخمر أو عدَهم وتهدّدهم .

قال الواقدىّ : ويقال إنه ضربَ بعضَ الشهود أيضاً أسواطاً ، فأتوْا أميرَ المؤمنين عليه السلام ، فشكوْا إليه ، فأتى عثمان ، فقال : عطّلت الحدود ، وضربت قوما شهدوا على أخيك ، فقلَبت الحُكْم ، وقد قال لك عمر : لا تحملْ بنى أمية وآل أبى مُعَيط على رقاب الناس ! قال : فما ترى ؟ قال : أرى أن تعزله ولا توليّه شيئا من أمور المسلمين ، وأن تسأل عن الشهود ؛ فإن لم يكونوا أهلَ ظِنّة ولا عداوة ، أقمت على صاحبك الحدّ . وتكلّم فى مثل ذلك طلحة والزُّبير وعائشة ، وقالوا أقوالا شديدة ، وأخذته الألسنُ من كلّ جانب ، فحينئذ عزَله ، ومكّن من إقامة الحدّ عليه .

= فأبَوْا أبا وهبٍ ولو فعلوا وصلتْ صلاتُهمُ إلى العشرِ
وانظر ديوان الحطيئة ٨٥ .
(١) ديوانه ١١٩

وقد روى[١] الواقدىّ أنّ الشهود لما شَهدوا عليه فى وجهه ،وأراد عثمان أن يحدّه ألبسه جُبّة خزّ ، وأدخله بيتا ، فجعل إذا بعث إليه رجلا من قريش ليضرِبه ،قال له الوليد: أنشدُكَ الله أن تقطَع رحمى وتُغضب أمير المؤمنين ! فلمّا رأى علىّ عليه السلام ذلك ، أخذَ السوطَ ودخل عليه ، فجلده به . فأىّ عذر لعثمان فى عزله وجلده بعد هـــذه الممانعة الطويلة ، والمدافعة الشديدة !

وقصّة الوليد ـ مع السّاحر الذى كان يلعبُ بين يديه ، ويغرّ الناس بمكرِهِ وخديعته ، وأن جُندَب بن عبد الله الأزدىّ امتعض من ذلك ودخل عليه فقتله ، وقال له: احيِ نفسك إن كنت صادقا ، وأن الوليد أراد أن يقتل جُندبا بالساحر ، حتى أنــكر الأزد ذلك عليه ، فحبسه وطال حبسُه حتى هرب من السجن ـ معروفة مشهورة .

فإن قيل : فقد ولّى رسول الله صلى الله عليه وآله الوليد بن عُقْبة هذا صَدَقةَ بنى المصْطَلق ، وولّاه عمر صــدقةَ تَغْلب ، فــكيف تدّعون أنّ حاله فى أنّه لا يصلح للولاية ظاهرة !

قلنا : لا جَرَم ، إنه غرّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكَذَب على القوم حتى نزلت فيه الآية التى قدمنا ذكْرها ، فعزله . وليس خَطْب ولاية الصدقة مثل خَطْب ولاية الــكوفة ، فأما عمر فإنه لما بلغه قوله :

إذا ماشــددتُ الرأس منى بِمِشْوَذٍ فويلكِ منى تغلبَ ابنةَ وائِل[٢]

عَزَلَه .

وأما عَزْلُ أمير المؤمنين عليه السلام بعضَ أمرائه لَمــا ظهر من الحدَث كالقَعْقاع ابن شُور وغيره ، وكذلك عَزْلُ عُمر قدامةَ بن مظعون لما شُهِد عليه بشرْب الخمر ، وجلْده له ؛ فإنه لا يشبِه ماتقدّم ؛ لأن كلّ واحد ممن ذكرناه لم يولَّ إلا مَن هو حَسَنُ الظاهر عنده وعند الناس ، غير معروف باللّعب ولا مشهور بالفساد. ثم لما ظهر منه ماظهر

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب والشافى : « وروى » .
(٢) اللسان ٥ : ٣١ وروايته : « فنبك » ، والمشوذ : العمامة .

لم يحامِ عنه ولا كذّب الشهودَ عليه وكابَرهم ، بل عزله مختارا غير مضطرّ ، وكلّ هذا لم يجرِ فى أمراء عثمان ، وقد بينّا كيف كان عَزْل الوليد وإقامة الحدّ عليه .

فأمّا أبو موسى فإنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يولِّه الحُكْم مختاراً ، لكنه غُلِب على رأيه وقُهِر عَلَى أمره ، ولا رأيَ لمقهور .

فأمّا قوله : إن ولايةَ الأقارب كولاية الأباعد ؛[(١] بل الأقارب أوْلى[١)] ؛ من حيث كان التمكّن من عزلهم أشدّ . وذكْر توليةِ أمير المؤمنين عليه السلام[(٢] أولادَ العباس رحمه الله تعالى[٢)] وغيرَهم ـ فليس بشىء ؛ لأنّ عثمان لم يُنقَمْ عليه توليةُ الأقارب من حيث كانوا أقاربَ ، بل من حيث كانوا أهل بيت الظِّنّة والتهمة ، ولهذا حذّره عمرُ وأشعرَ بأنه يحملهم عَلَى رقاب الناس . وأميرُ المؤمنين عليه السلام لم يولِّ مِنْ أقاربه متّهما ولا ظَنِينا ؛ وحين أحسّ من ابن العباس ببعض الرِّيبة لم يمهلْه ولا احتمله ، وكاتَبه بما هو شائع ظاهر ؛ ولو لم يَجِبْ على عثمان أن يعدِل عن ولاية أقاربه إلا من حيثُ جعل عمر ذلك سببَ عدوله عن النصّ عليه ، وشرط عليه يوم الشورى ألّا يحمل أقاربَه عَلَى رقاب الناس ، ولا يؤثرَهم لمكان القرابة بما لا يُؤْثِرُ به غيرَهم ـ لكان صارفًا قويًّا ، فضلا عن أن ينضاف إلى ذلك ما انضاف من خِصالهم الذميمة وطرائقهم القبيحة .

فأما سعيد بن أبى العاص ؛ فإنّه قال فى الكوفة : إنّما السوادُ بستانٌ لقريش، تأخذ منه ماشاءت وتترك، حتى قالوا له : أتجعلُ ما أفاء الله علينا بستانًا لك ولقومك ! ونابذوه، وأفضَى الأمر إلى تسييره مَنْ سَيّر عن الكوفة ؛ والقصة مشهورة ، ثم انتهى الأمر إلى منع أهل الكوفة سعيدا من دخولها ، وتكلّموا فيه وفى عثمان كلاما ظاهرا ، حتى

(١ ـ ١) كذا فى الأصول. وفى الشافى : « بل الأباعد أولى أن يقدم الأقارب عليهم » .

(٢ ـ ٢) الشافى : « عبد الله وعبيد الله وقثما بنى العباس وغيرهم » .

كادوا يخلعون عثمان ؛ فاضطُرحينئذ إلى إجابتهم إلى ولاية أبى موسى ، فلم يصرف سعيداً مختاراً ، بل ماصرفه جُمْلة ؛ وإنما صرَفه أهلُ الكوفة عنهم (١) .

فأما قوله : إنه أنكر الكتاب المتضمّن لقتل محمد بن أبى بكر وأصحابه ، وحلَف على أنّ الكتاب ليس بكتابه ، ولا الغلام غلامه، ولا الراحلة راحلته ، وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام قَبِل عذره ؛ فأوّل مافيه أنّه حكَى القصّة بخلاف ماجرت عليه ؛ لأنّ جميعَ مَنْ يروِى هذه القصة ذكر أنّه اعترف بالخاتَم والغلام والرّاحلة ، وإنما أنكر أن يكون أمرَ بالكتابة ؛ لأنه روى أنّ القوم لما ظَفِروا بالكتاب قَدِموا المدينة، فجمعوا أمير المؤمنين عليه السلام وطلحة والزبير وسعدا وجماعة الأصحاب، ثم فكّوا الكتاب بمحضر منهم، وأخبروهم بقصّة الغلام، فدخلوا على عثمان والكتاب مع أمير المؤمنين، فقال له : أهذا الغلامُ غلامك؟ قال : نعم ، قال : والبعيرُ بعيرك ؟ قال : نعم ، قال : أفأنت كتبتَ هذا الكتاب ؟ قال : لا ، وحلف بالله أنّه ما كتب الكتاب ، ولا أمَر به ؛ فقال له : فالخاتَم خاتَمك ؟ قال : نعم ، قال : فكيف يخرجُ غلامُك على بعيرك بكتاب عليه خاتَمك ، ولا تعلم به !

وفى رواية أخرى أنّه لما وَاقَفه عليه، قال عثمان: أما الخطّ فخط كاتبى، وأما الخاتَم فعلَى (٢) خاتَمِى ، قال : فمن تتّهم ؟ قال : أتّهمك وأتّهم كاتبى ؛ فخرج أميرُ المؤمنين عليه السلام مغضَبا ، وهو يقول : بل بأمرك ، ولزِم داره ، وبَعُد عن توسّط أمره ، حتى جرى عليه ماجرى .

وأعجبُ الأمور قوله لأمير المؤمنين عليه السلام: «إنّى أتّهمُك» وتظاهرُه بذلك وتلقّيه إياه فى وجهه بهذا القول ؛ مع بعده من التّهمة والظِّنة فى كلّ شىء ، وفى أمره خاصة؛ فإنّ القوم فى الدّفعة الأولى أرادوا أن يعجِّلوا له ما أخبروه ؛ حتى قام أمير المؤمنين عليه السلام بأمْره وتوسّطه وأصلحه ، وأشار عليه بأن يقارِبَهم ويعينَهم ؛ حتى انصرفوا عنه ، وهذا

---

(١) ساقطة من ا ، ج ، وهى فى ب والشافى .
(٢) ا : « فهو » .

فعل النّصيح المشفق الحدِب المتحنّن ، ولو كان عليه السلام – وحُوشِيَ من ذلك – متّهما عليه لما كان للتهمة عليه مجال فى أمر الكتاب خاصة؛ لأنّ الكتاب بخطّ عدوّه مرْوان[1]؛ وفى يد غلام عثمان ، ومحمول عَلَى بعيره ، ومختوم بخاتَمه ، فأىّ ظن تعلّق بأمير المؤمنين عليه السلام فى هذا المكان ، لولا العداوةُ وقلّة الشكر للنعمة !

ولقد قال له المصريون لما جَحَد أن يكون الكتاب كتابَه شيئا لا زيادة عليه فى باب الحجّة ؛ لأنّهم قالوا له : إذا كنتَ ما كتبتَ ولا أمرتَ به ، فأنت ضعيف ؛ من حيثُ تمّ عليك أنْ يَكتُبَ كاتبُك بما تختِمه بخاتَمك ، ويُنفذه بيد غلامك وعلى بعيرك بغير أمرك ؛ ومَنْ تمّ عليه ذلك لا يصلُح أن يكون واليا على أمور المسلمين . فاختلِعْ عن الخلافة على كلّ حال .

قال : ولقد كان يجب عَلَى صاحب " المغنى " أن يستحيىَ من قوله : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام قَبِلَ عذرَه ؛ وكيف يقبل عذرَ مَنْ يتّهمه ويستغِشّه ؛ وهو له ناصح ! وما قاله أمير المؤمنين عليه السلام بعد سماع هذا القول منه معروف .

وقوله : إنّ الكتاب يجوز فيه التزوير ، ليس بشىء ، لأنه لا يجوز التزويرُ فى الكتاب والغلام والبعير ؛ وهذه الأمور إذا انضاف بعضُها إلى بعض ، بَعُدَ فيها التزويرُ؛ وقد كان يجب عَلَى كل حالٍ أن يبحثَ عن القصّة وعمّن زوّر الكتاب ، وأنفذ الرسولَ، ولا ينام عن ذلك ؛ حتى يَعرِف من أين دُهِى ؛ وكيف تمّت الحيلة عليه ، فيحترِز من مثلها ، ولا يُغضى عن ذلك إغضاء ساترٍ له ، خائف من بحثه وكشفه .

فأما قوله : إنه وإن غلبَ عَلَى الظّن أنّ مرْوان كتب الكتاب ، فإنّ الحكم بالظنّ لا يجوزُ ، وتسليمه إلى القوم على ماسألوه إيّاه ظلم ، لأنّ الحدّ والأدب إذا وجبَ عليه ، فالإمام يُقيمه دونهم ؛ فتعلُّلٌ بما لا يجدِى ، لأنّا لا نعمل إلا على قوله فى أنّه لم يعلم أنّ

(١) الشافى : « بخط عدو الله وعدو رسوله وعدو أمير المؤمنين » .

مرْوان هو الذى كتب الـكتاب ، وإنما غلب على ظنّه ؛ أما كان يستحقّ مروان بهذا الظنّ بعض التعنيف والزجر والتّهديد ! أو ما كان يجب مع وقوع التّهمة عليه ، وقوة الأمارات فى أنّه جالب الفتنة وسببُ الفُرقة أن يُبْعِده عنــه ، ويطرُده مِن داره ويسلُبَه ما كان يخصّه به من إكرامه ! وما فى هذه الأمور أظهر من أن ينبّه له .

فأما قوله : إنّ الأمر بالقتل لا يوجب قَوَداً ولا دِيَةً ، سيّما قبل وقوع القتل المأمور به ، فهب أن ذلك على ما قال ، أما أوجبَ[(١)] الله تعالى على الأمر بقتل المسلمين تأديباً ولا تعزيراً ولا طردا ولا إبعادا !

وقوله : لم يثبت ذلك ، قد مضى ما فيه ، وبيّن أنه لم يستعمل فيــه مايجبُ استعماله من البحث والـكشف ، وتهديدِ المتّهم وطرْده وإبعاده والتبرُّؤ من التّهمة بما يُتبرّأ به من مثلها .

فأما قوله : إن قتله ظلم وكذلك حبسُه فى الدار ، ومنعه من المــاء ، وأنه لو استحق القتل أوالخلع لا يحلّ أن يُمنَع الطعامَ والشراب ، وقوله : إن من لم يدفع عن ذلك من الصّحابة يجب أن يكون مخطئا ، وقوله : إنّ قتله لو وجب لم يَجُزْ أن يتولّاه العوامّ من الناس ، فباطل ، لأنّ الذين قتلوه غيرُ منكَرٍ أن يكونوا تعمّدُوا قتله ، وإنما طالبوه بأنْ يخلَع نفسه لما ظهر لهم من إحْداثه ، ويعتزل عن[(٢)] الأمر اعتزالا يتمكّنون معه من إقامة غيره ، فلجّ وصممّ على الامتناع ، وأقام على أمرٍ واحد ؛ فقصد القوم بحصْرِه أن يُلْجِئُوه إلى خلع نفسه ، فاعتصَم بداره ، واجتمع إليــه نفر من أوْباش بنى أميّة ، يدفعون عنه ، ويرمون مَنْ دنا إلى الدار ، فانتهى الأمرُ إلى القتال بتدريج ؛ ثم إلى القتل ؛ ولم يكن القتال ولا القتل مقصوديْن فى الأصل ، وإنما أفضى الأمرُ إليهما على ترتيب ، وجرى ذلك مجرى

---

(١) الشافى : « يوجب »
(٢) ج والشافى : « يعتزل الأمر » .

ظالم غلب إنسانا على رَحْله أو متاعِه ، فالواجبُ على المغلوب أن يُمانعه ويدافعه ليخلُص مالَه من يده ، ولا يقصدَ إلى إتلافه ولا قتله ، فإنْ أفضى الأمرُ إلى ذلك بلا قصد كان معذورا ، وإنّما خاف القومُ ــ فى التأنى به ، والصبر عليه ، إلى أن يخلع نفسَه ــ من كُتُبِه التى طارت فى الآفاق ، يستنصر عليهم ويستقدِم الجيوش إليهم ، ولم يأمنوا أن يَرِدَ بعض مَنْ يدفع عنه فيؤدّى ذلك إلى الفتنة الكبرى والبليّة العظمى .

وأما منع المـاء والطعام فما فُعِل ذلك إلا تضييقا عليه ؛ ليخرُج ويَحوَج إلى الخلع الواجب عليه . وقد يُستعمل فى الشريعة مثل ذلك فيمن لجأ إلى الحرَم من ذوى الجنايات ، وتعذّر إقامة الحدّ عليه لمكانِ الحرَم . على أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد أنكر منعَ الماء والطعام ، وأنفذ مَنْ مكّن مَنْ حَمَل ذلك ، لأنّه قد كان فى الدار من الحُرَم والنّسوان والصبيان مَنْ لا يحلّ منعُه من الطعام والشراب . ولو كان حكم المطالبة بالخلع والتجمّع عليه والتضافر فيه حكم منْع الطعام والشراب فى القُبْحِ والمنكر ، لأنكره أميرُ المؤمنين عليه السلام ، ومَنَع منه كما منع من غيره ، فقد رُوى عنه عليه السلام أنّه لما بلَغه أنّ القوم قَدْ منعوا الدار من الماء ، قال : لا أرى ذلك ، إنّ فى الدار صبيانا وعِيالا ، لا أرى أن يُقتل هؤلاء عطشا بجُرْم عثمان . فصرّح بالمعنى الذى ذكرناه ، ومعلوم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام ما أنكر المطالبة بالخلْع ، بل كان مساعدا على ذلك ومشاوَرا فيه .

فأما قوله : إن قتل الظالم إنّما يحلّ على سبيل الدفع ؛ فقد بيّنا أنه لا ينكَر أن يكون قَتْله وقع على ذلك[1] الوجه ، لأنه فى تمسّكه بالولاية عليهم وهو لا يستحقها ، فى حكم الظالم لهم ، فمدافعته واجبة .

(١) ا : « هـذا » .

وأما قصّة الكتاب الموجود ؛ فلم يَحْكِها على الوجه ؛ وقد شرحنا نحن الرواية الواردة بها .

وأما قوله : إنّه قال : إنْ كنتُ أخطأتُ أو تعمّدت ؛ فإنى تائب مستغفر ؛ فقد أجابَهُ القوم عن هذا ، وقالوا : هكذا قُلْتَ فى المرّة الأولى ؛ وخطبْتَ على المِنْبَر بالتوبة والاستغفار ؛ ثم وجدْنا كتابَك بما يقتضى الإصرار على أقبح ماعتبنا منه[1] ؛ فكيفَ نثق بتوبتك واستغفارك !

فأما قوله : إنّ القتل على وجهِ الغِيلة لا يحلّ فيمن يستحقّ القتل ، فكيف فيمن لا يستحقه ! فقد بينا أنّه لم يكن على سبيل الغِيلة ؛ وأنه لا يمتنع أن يكونَ إنّما وقع على سبيل المدافعة .

فأمّا ادعاؤه أنّه مَنَع من نُصرته ، وأقسم على عبيده بترْك القتال ؛ فقد كان ذلك لعَمْرِى فى ابتداء الأمر ظنًّا منه أنّ الأمر ينصلِح ؛ والقوم يرجعون عمّا همّوا به ؛ فلما اشتدّ الأمر ، ووقع اليأس من الرجوع والنزوع ، لم يمنع أحداً من نُصْرَته والمحاربة عنه ، وكيف يمنع من ذلك ، وقد بعث إلى أمير المؤمنين عليه السلام يستنصِرُه ويستصرخه !

والّذى يدلّ على أنّه لم يمنع فى الابتداء من محاربتهم إلا للوجه الذى ذكرناه دون غيره ، أنّه لاخلافَ بينأهلِ الرواية فى أنّ كتبه تفرّقت فى الآفاق يستنصِرُ ويستدعِى الجيوش ؛ فكيف يرغب عن نُصرة الحاضر مَنْ يستدعى نصرة الغائب !

فأما قوله : إنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام أراد أن يأتيَه ، حتى منعه ابنه محمد ، فقولٌ بعيد مما جاءت به الرواية جدًّا ، لأنه لا إشكالَ فى أنّ أميرَ المؤمنين عليه السّلام لما واجهه عثمان بأنّه يتّهمه ويستغِشّه ، انصرف مغضَبا عامدا ، على أنه لا يأتيه أبدا ، قائلا فيه ما يستحقّه من الأقوال .

---

(١) ب « فيه » .

فأما قوله فى جواب سؤال مَنْ قال إنّهم اعتقدوا فيه أنّه من المفسدين فى الأرض؛ وأنّ آية المحاربة تتناوله ، وأنّه قد كان يجب أن يتولى الإمام ذلك الفعل بنفسه ؛ لأنّ ذلك يجرى مجرى الحدّ ؛ فطريف ؛ لأنّ الإمام يتولّى ما يجرى هذا المجرى إذا كان منصوبا ثابتا ، ولم يكن على مذهب القوم هناك إمامٌ يجوز أن يتولّى ما يجرِى مَجْرَى الحدود ؛ ومتى لم يكُنْ إمام يقوم بالدّفع عن الدين والذّبّ عن الأمّة ؛ جاز أن تتولّى الأمّة ذلك بنفوسها .

قال : وما رأيتُ أعجبَ من ادّعاء مخالفينا أنّ أصحابَ الرّسول صلى الله عليه وآله كانُوا كارِهين لما جرى على عثمان ، وأنّهم كانوا يعتقدونه منكرا وظُلما ، وهذا يجرى عند من تأمّله مجرَى دفع الضرورات قبل النظر فى الأخبار ، وسماع ما ورد من شَرْح هذه القصّة؛ لأنّه معلوم أنّ ما يكرهُهُ جميع الصحابة أو أكثرهم فى دار عِزّهم ، وبحيث ينفذُ أمرُهم ونهيهم لا يجوز أن يتمّ . ومعلوم أنّ نفرا من أهل مصر لا يجوز أن يقدّموا المدينة فيغلبوا جميعَ المسلمين على آرائهم ، ويفعلوا بإمامهم ما يكرهونه بمرأى منهم ومسمع ، وهذا معلومٌ بُطلانه بالبداهة والضرورات قبل تصفح الأخبار وتأمّلها . وقد رَوَى الواقدِىّ عن ابن أبى الزّناد ، عن أبى جعفر القارىّ مولى بنى مخزوم ، قال : كان المصريّون الذين حَصَروا عثمان ستمائة ، عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوىّ ، وكنانة بن بشر الكِنْدىّ ، وعمرو بن الحمِق الخزاعىّ . والذين قدموا المدينة من الكوفة مائتين ، عليهم مالك الأشتر النّخَعىّ . والذين قدِموا من البصرة مائة رجل ، رئيسهم حكيم بن جبلة العبدىّ ، وكان أصحابُ النبى صلى الله عليه وآله الذين خذلوه لا يروْن أنّ الأمر يبلغ به القتل ، ولعمرِى لو قام بعضُهم فحثا الترابَ فى وجوه أولئك لانصرفوا ، وهذه الرواية تضمّنت من عدد القوم الوافدين فى هذا الباب أكثر مما تضمّنه غيرها .

وروى شُعْبة بن الحجاج عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، قال : قلت له :

كيف لم يمنعْ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم عَنْ عثمان ؟ فقال : إنما قَتَلهأصحابُ رسول الله صلى الله عليه وآله .

ورُوِيَ عن أبى سعيد الخُدْرِيّ ، أنه سُئِل عن مقتل عثمان : هل شَهِده أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه ؟ فقال : نعم ، شهده ثمانمائة .

وكيف يقال : إن القوم كانوا كارهين ، وهؤلاء المصريون كانوا يَغْدُون إلى كل واحد منهم ،ويروحون ويشاورونه فيما يصنعونه ! وهذا عبد الرحمن بن عوف وهوعاقِدُ الأمرِ لعثمان ، وجالبه إليه ، ومُصَيِّرُه فى يده ، يقول ـ على مارواه الواقدىّ،وقدذُكِر له عثمانُ فى مرضه الذى مات فيه ـ : عاجلوه قبل أن يتمادَى فى مُلْكه ؛ فبلغ ذلك عثمانَ فبَعَث إلى بئرٍ كان عبدالرحمن يَسْقِى منها نَعَمه ، فمنع منها ، ووصّى عبدُ الرحمن ألّا يصلّىَ عليه عثمان ؛ فصلّى عليه الزبير ـ أو سعد بن أبى وقّاص ـ وقد كان حَلَف لما تتابعتْ أحداثُ عثمان ألّا يكلّمَه أبدا .

وروى الواقدىّ ، قال :لمّا تُوُفِّى أبو ذرّ بالرَّبَذة[1] تذاكر أميرُ المؤمنين عليه السلام وعبدُالرحمن فعلَ عثمان ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام له : هذا عملُكَ ! فقال عبدُ الرحمن: فإذا شئت فخذ سيفَك وآخذُ سيفى ، إنه خالف ماأعطانى .

فأما محمد بن مسلمة ؛ فإنه أرسلَ إليه عثمانُ يقول له عند قدوم المصريين فى الدّفعة الثانية : ارْدُدْ عنّى ، فقال : لا والله لا أكذبُ اللهَ فى سنة مرتين ؛ وإنما عَنَى بذلك أنه كان أحدَ من كلّم المصريين فى الدفعة الأولى ، وضمن لهم عن عثمان الرضا .

وفى رواية الواقدىّ أنّ محمد بن مسلمة ، كان يموت وعثمان محصور ، فيقال له:عثمان مقتول ، فيقول : هو قَتَلَ نفسه .

---

(١) الربذة : من قرى المدينة على ثلاثة أميال ؛ قريبة من ذات عرق ؛ على طريق الحجاز ؛ بها قبر أبى ذر الغفارى ـ واسمه جندب بن جنادة ، وقد كان خرج إليها مغاضبا لعثمان بن عفان رضى الله عنه ؛ فأقام بها إلى أن مات سنة ٣٢ . ياقوت .

فأمّا كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام ، وطلحة والزُّبير وعائشة ، وجميع الصحابة واحدا واحدا ؛ فلو تعاطينا ذِكْرَه لطال به الشَّرْح ؛ ومن أراد أن يقِف على أقوالهم مفصَّلة ، وما صرَّحوا به من خَلْعه والإجلاب عليه ؛ فعلَيْه بكتاب الواقديّ[1] ، فقد ذَكَرَ هو وغيرُه من ذلك مالا زيادة عليه .

***

الطعن الثاني :

كونه ردّ الحكَم بن أبي العاص[2] إلى المدينة ، وقدكان رسول الله صلى الله عليه وآله طرَده ، وامتنع أبو بكرٍ من ردّه ، فصار بذلك مخالفاً للسنّة ولسيرة مَنْ تقدّمه ، مدّعيا على رسول الله صلى الله عليه وآله ، عاملا بدعواه من غير بيِّنة .

قال قاضي القضاة رحمه الله : وجوابُنا عن ذلك أنّ المرويّ في الأخبار أنّه لما عُوتب في ذلك ذكر أنّه استأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم فيه ؛ وإنما لم يقبل أبو بكر وعمر قوله لأنه شاهد واحد ، وكذلك روي عنهما ، فكأنهما جعلا ذلك بمنزلة الُحقوق التي تختصّ ، فلم يقبلا فيه خَبَر الواحد ، وأجرياه مَجرى الشهادة ، فلما صار الأمر إليه حكَم بعلمه ، لأنّ للحاكِم أن يحكُم بعلمه في هذا الباب وفي غيره عند شيخينا ، ولا يفصلان بين حدّ وحق ، ولا بين أن يكونَ العلم قبل الولاية أو حال الولاية ، ويقولان : إنه أقوى من البيِّنة والإقرار .

وقال شيخنا أبو عليّ رحمه الله تعالى : إنّه لا وجهَ يقطع به على كذب روايته في إذن

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي ؛ نقل ابن النديم أنه خلف بعد وفاته ستمائة قمطر كتبا ؛ كل قمطر منها حمل رجلين ؛ وكان له غلامان مملوكان يكتبان الليل والنهار ؛ وقبل ذلك بيع له كتب بألفي دينار . ثم أورد أسماء كتبه ؛ منها كتاب التاريخ الكبير . توفي سنة ٢٠٧ . الفهرست ٩٨ ، ٩٩ .

(٢) هو الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس الأموي ، عم عثمان بن عفان ؛ وانظر ترجمته وأخباره في أسد الغابة ٣ : ٣٤ .

النبيّ صلى الله عليه وسلّم في ردّه ، ولابدّ من تجويز كونه صادقا ؛ وفى تجويز ذلك كونه معذورا .

فإن قيل : الحاكم إنما يحكم بعلمه مع زوال التهمة ، وقد كانت التهمة فى ردّ الحكم قوية لقرابته !

قيل : الواجب على غيره ألّا يتّهمه ؛ إذا كان لفعله وجه يصحّ عليه ؛ لأنه قد نصب منصبا يقتضى زوالَ التهمة عنه، وحَمْل أفعاله على الصحّة، ومتى طرقنا عليه التهمة أدّى إلى بطلان كثير من الأحكام . وقد قال الشيخ أبو الحسين الخيّاط رحمه الله تعالى : إنه لو لم يكن فى ردّه إذن من رسول الله صلى الله عليه وسلّم لجاز أن يكون طريقه الاجتهاد ؛ لأن النفىَ إذا كان صلاحا فى الحال لا يمتنع [1] أن يتغيّر حكمه باختلاف الأوقات وتغيّر حال المنفىّ ؛ وإذا كان لأبى بكر أن يستردّ عمرَ من جيش أسامة للحاجة إليه — وإن كان قد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلّم بنفوذه — من حيث تغيرت الحال ، فغير ممتنع مثله فى الحكم .

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى على هذا، فقال : أمّا دعواه أنّ عثمان ادّعى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أذن فى رَدّ الحكَم فشىء لم يُسمع إلا من قاضى القضاة ، ولا يُدْرَى من أين نقله ، ولا فى أىّ كتاب وجده ! والذى رواه الناس كلّهم خلاف ذلك ؛ روى الواقدىّ من طرق مختلفة وغيره أنّ الحكَم بن أبى العاص لما قدِم المدينة بعد الفتح، أخرجه النبي صلى الله عليه وسلّم إلى الطائف، وقال : لا تساكنّى فى بلد أبدا ، فجاءه عثمان فكلّمه فأبى ، ثم كان من أبى بكر مثل ذلك ، ثم كان من عمر مثل ذلك ، فلما قام عثمان أدخله ووصله وأكرمه ، فمشى فى ذلك علىّ والزبير وطلحة وسعد وعبدالرحمن بن عوف

---

(١) ب : « فلا يمتنع » .

وعمّار بن ياسر ؛ حتى دخلوا على عثمان فقالوا له : إنك قد أدخلتَ هؤلاء القوم ـ يعنون الحكَم ومن معه ـ وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلّم أخرجهم؛ وإنا نذكّرك الله والإسلام ومَعادك ؛ فإن لك معاداً ومُنقَلبا ، وقد أبت ذلك الولاةُ قبلك، ولم يطمع أحد أن يكلّمها فيهم ؛ وهذا شيء نخاف الله فيه عليك . فقال عثمان : إنّ قرابتَهم منّى ماتعلمون ؛ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم حيثُ كلّمته أطمَعنى فى أن يأذن لهم ، وإنما أخرجهم لكلمةٍ بلغتْه عن الحكَم ؛ ولم يضرّ كم مكانهم شيئا، وفى الناس مَنْ هو شرّ منهم. فقال علىّ عليه السلام : لا أجدُ شرّا منه ولا منهم، ثم قال : هل تعلم عمر يقول : والله ليحملَنّ بنى أبى مُعيط على رقاب الناس ! والله إن فعل ليقتلُنّه ، فقال عثمان : ما كان منكم أحد ليكون بينه وبينه من القرابة مابينى وبينه، وينال من المقدرة مانلتُ إلا قد كان سيُدخلُه، وفى الناس مَنْ هو شرّ منه.قال : فغضب علىّ عليه السلام ، وقال : والله لتأتينّا بشرّ مِنْ هذا إن سلِمت ، وسترى ياعثمان غِبّ ماتفعل ! ثم خرجوا من عنده .

وهذا كما ترى خلاف ما ادّعاه صاحب " المغنى " لأنّ الرجل لما احتفلَ ادّعى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان أطمَعه فى ردّه ، ثم صَرّح بأنّ رِعايته فيه القرابة هى الموجِبة لردّه ومخالفة الرسول عليه السلام . وقد روى من طرق مختلفة أنّ عثمان لمّا كلم أبا بكر وعمر فى ردّ الحكَم أغلظا له وزبَراه ، وقال له عمر : يخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلّم وتأمرنى أن أدخله ! والله لو أدخلته لم آمن أن يقول قائل : غيّر عهدَ رسول الله صلى الله عليه وسلّم،والله لأَنْ أشقّ باثنتين كما تُشقّ الأبلُمة[1] أحبّ إلىّ من أن أخالِف لرسول الله أمرا ، وإياك ياابن عفان أن تعاوِدَنى فيه بعد اليوم ؛ وما رأينا

---

(١) الأبلم : خوص المقل ؛ والمثل : « المـال بينى وبينك شق الأبلمة » مثل يضرب فى المساواة والمشاركة فى الأمر .

عثمان قال فى جواب هذا التعنيف والتوبيخ من أبى بكر وعمر: إنّ عندى عهداً من رسول الله صلى الله عليه وسلّم فيه، لاأستحقّ معه عتاباً ولا تهجيناً، وكيف تطيب نفس مُسلم موقّر لرسول الله صلى الله عليه وسلّم معظّم له، أنْ يأتىَ إلى عدوّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم، مصرّح بعداوته والوقيعة فيه ؛ حتّى بلغ به الأمرُ إلى أنْ كان يحكى مِشْيَتَه ، طردَه رسول الله ، وأبعده ولعنه؛ حتى صار مشهورا بأنه طريدُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم؛ فيكرِمه ويردّه إلى حيث أخرج منه ، ويصِلُه بالمال العظيم : إما من مال المسلمين أو مِنْ ماله ! إنّ هذا لعظيم كبير قبل التصفّح والتأمّل والتعلّل بالتأويل الباطل !

فأمّا قولُ صاحب "المغنى" : إنّ أبا بكر وعمر لم يقبلا قوله لأنّه شاهِد واحد، وجعلا ذلك بمنزلة الحقوق التى تخصّ، فأوّل مافيه أنّه لم يشهدْ عندهما بشىء واحد فى باب الحكم على مارواه جميع الناس ؛ ثم ليس هــذا من باب الذى يُحتاج فيه إلى الشاهديْن ، بل هو بمنزلة كلّ مايقبَلُ فيه أخبارُ الآحاد. وكيف يجوز أن يُجرِىَ أبو بكر وعمر مَجْرَى الحقوق ماليس منهــا ! وقوله : لابدّ من تَجوِيز كونه صادقا فى روايته ؛ لأنّ القطْعَ على كذب روايته لاسبيل إليه ليس بشىء ؛ لأنا قد بينّا أنّه لم يَرْوِعن الرسول صلى الله عليه وسلم إذنا، إنما ادّعى أنه أطمَعه فى ذلك . وإذا جوّزنا كونَه صادقا فى هــذه الرواية ؛ بل قطعْنا على صدقه لم يكن معذورا .

فأمّا قوله : الواجبُ على غيرِه ألّا يتّهِمَه إذا كان لفعله وجهٌ يصحّ عليه ؛ لانتصابه منصباً يُزِيل التّهمة ؛ فأوّل مافيه أنّ الحاكِم لايجوز أن يحكُم بعلمه مع التّهمة ، والتّهمة قد تــكون لها أمارات وعلامات ؛ فما وقع منها عن أمارات وأسباب تتّهم فى العادة كان مؤثّرا ؛ ومالم يكنْ كذلك فلا تأثيرَ له ، والحــكَم هو عمّ عثمان ، وقريبه ونسيبه ، ومن

قد تكلّم فى ردّه مرة بعد أخرى ، ولوالٍ بعد والٍ ؛ وهذه كلها أسباب التّهمة ، فقد كان يجب أنْ يتجنَّب الحكم بعلمه فى هذا الباب خاصّة ؛ لتطرّق التهمة إليه .

فأما ماحكاه عن أبى الحسين الخيّاط من أنّ الرسولَ صلى الله عليه وآله لولم يأذن فى رَدّه لجاز أن يَرُدّه إذا أدّاه اجتهادُه إلى ذلك ؛ لأنّ الأحوالَ قد تتغيّر ـ فظاهر البُطْلان ؛ لأن الرّسولَ عليه السلام إذا حَظر شيئا أو أباحه لم يكن لأحد أنْ يجتهدفى إباحة المحظور أو حَظْر المباح ، ومَنْ يجوِّز الاجتهادَ فى الشريعة لايُقْدم على مثلِ هذا ؛لأنّه إنما يجوز عندهم فيما لانصّ فيه . ولو سَوّغنا الاجتهادَ فى مخالفة ماتناوله النصّ لم يؤمَن أن يؤدّىَ اجتهاد مجتهد إلى تحليل الخمر وإسقاط الصلاة ، بأن تتغير الحال ، وهذا هَدْمٌ للشريعة . فأما الاستشهاد باسترداد عمر من جيش أسامة فالكلام فى الأمرَيْن واحد[1] .

* * *

الطعن الثالث :

أنه كان يؤثر أهلَ بيتِه بالأموال العظيمة التى هى عُدّة المسلمين ، نحو مارُوِى أنّه دفع إلى أربعة أنفسٍ من قريش زوّجهم بناتِه أربعمائة ألف دينار ، وأعطى مَرْوان مائة ألف عند فتح إفريقيّة ، ويروى خُمْس إفريقيّة ، وغير ذلك ، وهذا بخلاف سيرة مَنْ تقدمه فى القِسْمة على النّاس بقدر الاستحقاق ، وإيثار الأباعد على الأقارب .

قال قاضى القضاة : وجوابُنا عن ذلك أنّ من الظاهر المشهور أنّ عثمانَ كان عظيمَ اليَسار ، كثير المال ، فلا يمتنع أن يكون إنما أعطى أهلَ بيتِه من مالِه ، وإذا احتمل ذلك وجب حملُه على الصحّة .

وقد قال شيخُنا أبو علىّ رحمه الله تعالى : إنّ الذى رُوِى من دَفْعه إلى ثلاثة نفر من قريش زوّجهم بناتِه ؛إلى كلّ واحد منهم مائة ألف دينار ، إنما هو من ماله ، ولارواية

(١) بعدها فى الشافى ١٧٦ : « وقد مضى ما فيه » .

تصحّ أنه أعطاهم ذلك من بيت المال ، ولو صحّ ذلك لكان لا يمتنع أن يكونَ أعطاهم من بيت المال ليردّ عِوَضه من ماله ، لأنّ للإمام عند الحاجة أن يفعل ذلك ، كما له أنْ يُقرض غيره .

وقال شيخُنا أبو عليّ أيضا : إن ما رُوِىَ من دفعه خُمس إفريقيّة لمّا فُتِحت إلى مروان ؛ ليس بمحفوظ ولا منقول على وجهٍ يجب قبوله ؛ وإنما يَرْويه مَنْ يقصد التشنيع . وقد قال الشيخُ أبو الحسين الخياط : إن ابن أبى سَرْح لما غزا البحر ، ومعه مَرْوان فى الجيش ، ففتَح الله عليهم ، وغنموا غنيمةً عظيمة ، اشترى مَرْوان من ابن أبى سَرْح الخُمس بمائة ألف ، وأعطاه أكثرها ؛ ثم قَدِم على عثمان بشيراً بالفَتْح ، وقد كانتْ قلوب المسلمين تعلّقت بأمر ذلك الجيش ؛ فرأى عثمان أن يَهَب له مابقىَ عليه من المال ، وللإمام فِعلُ مثل ذلك ، ترغيبا فى مثل هذه الأمور .

قال : وهذا الصُّنْع كان منه فى السَّنَة الأولى من إمامته ، ولم يبرأ أحد منه فيها ، فلا وجهَ للتعلّق بذلك .

وذكر أبو الحسين الخياط أيضا فيما أعطاه أقاربه أنّه وصلهم لحاجتهم ، فلا يمتنع مثلُه فى الإمام إذا رآه صلاحا . وذكر فى إقطاعه القطائع لبنى أمية ، أنّ الأئمة قد تحصُل فى أيديهم الضِّياع لامالكَ لها ، ويعلمون أنّها لابدّ فيها ممّن يقوم بإصلاحها وعمارتها ، ويؤدّى عنها مايجب من الحقّ ، فله أن يصرف من ذلك إلى مَنْ يقوم به ، وله أيضا أن يهدّ بعضها على بعض بحسب مايعلم من الصلاح والتألّف ، وطريقُ ذلك الاجتهاد .

***

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : أما قوله : يجوز أن يكون إنما أعطاهم من ماله ، فالرواية بخلاف ذلك ، وقد صرّح الرجلُ بأنّه كان يعطِى من بيت المال

صلةً لرحمه ، ولما عوتب على ذلك لم يعتذر عنه بهذا الضَّرْب من العذر ، ولا قال : إنّ هذه العطايا من مالى ، فلا اعتراضَ لأحد فيها . روَى الواقدىّ بإسناده عن المِسْوَر بن عُتْبة ، قال : سمعتُ عثمانَ يقول : إنّ أبا بكرٍ وعمرَ كانا يتأوّلان فى هذا المال ظَلَفَ (١) أنفسهما وذَوِى أرحامهما ، وإنّى تأوّلتُ فيه صِلَةَ رحمى .

ورُوِى عنه أيضا أنه كان بحضرته زياد بن عبيد ، مولى الحارث بن كَلَدة الثقفىّ ، وقد بعث إليه أبو موسى بمال عظيم من البَصْرة ، فجعل عثمان يقسمه بين ولده وأهله بالصِّحاف ، فبكى زياد ، فقال: لا تبكِ ، فإنّ عمر كان يمنع أهلَه وذوى قرابته ابتغاء وجه الله ، وأنا أعطى أهلى وولدى وقرابتى ابتغاء وجه الله .

وقد رُوِىَ هذا المعنى عنه من عدة طرق بألفاظ مختلفة .

وروى الواقدىّ أيضا بإسناده ، قال : قَدِمَتْ إبلٌ من إبل الصدقة على عثمان ، فوهَبَها للحارث بن الحكَم بن أبى العاص .

وروى أيضا أنّه ولّى الحكم بن أبى العاص صدقاتِ قُضَاعة ، فبلغت ثلاثمائة ألف فوَهَبها له حين أتاه بها .

وروى أبو مِخْنف والواقدىّ أنّ الناس أنكروا على عثمان إعطاء سعيد بن العاص مائة ألف ، وكلّمه علىّ والزبير وطلحة وسعد وعبدالرحمن فى ذلك ، فقال : إن له قرابةً ورَحِماً ، قالوا : فما كان لأبى بكر وعمر قرابة وذَوُو رحم ؟ فقال : إن أبا بكر وعمر كان يحتسبان فى منع قرابتهما ، وأنا أحتسِبُ فى إعطاء قرابتى ، قالوا : فَهَدْيُهما — والله — أحبُّ إلينا من هَدْيِك .

وروى أبو مِخْنف أنّ عبد الله بن خالد بن أَسِيد بن أبى العِيص بن أمية ، قدم على عثمان من مكة ، ومعه ناس ، فأمر لعبدالله بثلاثمائة ألف ، ولكلّ واحد من القوم بمائة ألف

(١) ظلف نفسه عن الشىء : منعها ، وفى الأصول : « طلاق » ، والصواب ما أثبته من كتاب الشافى .

وصَكّ[١] بذلك على عبد الله بن الأرقم ـ وكان خازنَ بيت المال ـ فاستكثره وردّ الصكّ به . ويقال: إنه سأل عثمان أن يكتبَ عليه بذلك كتابا ، فأبى وامتنع ابن الأرقم أن يدفَع المال إلى القوم ، فقال له عثمان : إنّما أنت خازن لنا ، فما حملك على مافعلت ؟ فقال ابن الأرقم : كنت أرانى خازنَ المسلمين ، وإنما خازنك غلامُك ، والله لا أَلِى لك بيتَ المال أبدا ، وجاء بالمفاتيح فعلّقها على المِنبر ، ويقال : بل ألقاها إلى عثمان ، فرفعها إلى نائل مولاه .

وروى الواقدىّ أن عثمان أمر زيد بن ثابت أن يحمِل من بيت مال المسلمين إلى عبد الله بن الأرقم فى عَقِيب هذا الفعل ثلاثمائة ألف درهم ، فلما دخل بها عليه ، قال له : يا أبا محمد ، إن أميرَ المؤمنين أرسل إليك يقول : إنا قد شغلناك عن التجارة ، ولك ذَوو رحم أهلُ حاجة ، ففرّقْ هذا المال فيهم ، واستعنْ به على عيالك ، فقال عبد الله بن الأرقم : مالى إليه حاجة ، وما عملت لأنْ يُثيبَنى عثمان ، والله إن كان هذا من بيت مال المسلمين ما بلغ قَدْرُ عملى أنْ أُعطَى ثلاثمائة ألف ، ولئن كان من مال عثمان ما أحبُّ أنْ أرزأه[٢] من ماله شيئاً . وما فى هذه الأمور أوضحُ من أن يشار إليه ويُنبَّه عليه .

فأما قولُه : ولو صح أنه أعطاهم من بيت المال لجاز أن يكونَ ذلك على طريق القَرْض ؛ فليس بشىء ؛ لأنّ الروايات أولا تخالف ماذكره ، وقد كان يجبُ لمّا نقم عليه وجوهُ الصحابة إعطاء أقاربه من بيت المال، أنْ يقول لهم : هذا على سبيل القَرْض، وأنا أردّ عِوَضه ، ولا يقول ماتقدم ذكره ، من أنّنى أصِلُ به رَحِمِى ؛ على أنّه ليسَ للإمام أن يقترِض[٣] من بيت مال المسلمين إلا ماينصَرِف فى مصلحة لهم مهمّة ؛ يعودُ عليهم نفعها ، أو فى سَدّ خَلّة وفاقة لا يتمكنون من القيام بالأمر معها ؛ فأمّا أنْ يُقرِض المال ليتّسع به ،

(١) صك : كتب ، والصك : الكتاب .
(٢) ماأحب أن أرزأه ، أى ما أحب أن أصيب منه شيئاً .
(٣) أى يقترض هوليعطى ، وأن يدفع عوضه له من ماله ، وانظر س ١-٣ من ص ٣٤ من هذا الجزء

ويُصرِّح فيه مترَفي بنى أمية وفسَّاقهم فلا أحدَ يجيز ذلك .

فأما قوله حاكياً عن أبى علىّ : إنّ دَفْعه خُمس إفريقيّة إلى مروان ليس بمحفوظ ولا منقول ـ فباطل ؛ لأنّ العلم بذلك يجرى مجرى العلم بسائر ماتقدم ، ومَنْ قرأ الأخبار علم ذلك على وجه لا يعترض فيه شكّ ، كما يعلم نظائره .

روى الواقدىّ عن أسامة بن زيد ، عن نافع مولى الزبير ، عن عبد الله بن الزبير ، قال : أغزانا عثمان سنة سبع وعشرين إفريقيّة ، فأصاب عبدُ الله بن سعد بن أبى سَرْح غنائم جليلة ، فأعطى عثمانُ مَرْوان بن الحكم تلك الغنائم . وهذا كما ترى يتضمّن الزيادة على إعطاء الخمس ، ويتجاوزه إلى إعطاء الأصل .

وروى الواقدىّ ، عن عبد الله بن جعفر ، عن أم بكْر بنت المِسْوَر ، قالت : لمابنى مَرْوانُ داره بالمدينة ، دعا الناس إلى طعامه ، وكان المِسْوَر ممّن دعاه ، فقال مروان وهو يحدّثهم : والله ما أنفقتُ فى دارى هذه من مال المسلمين دِرْهما فما فوقه ، فقال المِسْوَر :لو أكلتَ طعامك وسكتّ كان خيرا لك . لقد غزوْت معنا إفريقيّة ، وإنك لأقلّنا مالا ورقيقا وأعوانا ، وأخفّنا ثقَلا ، فأعطاك ابنُ عمّكَ خُمُس إفريقيّة ، وعملت على الصدقات، فأخذت أموال المسلمين .

وروى الكلبىّ عن أبيه ،عن أبى مخنف أنّ مروان ابتاعَ خُمس إفريقيّة بمائتى ألف درهم ومائتى ألف دينار ، وكلّم عثمان ، فوهبها له ، فأنكر الناس ذلك على عثمان . وهذا بعينه هو الذى اعترف به أبو الحسين الخياط واعتذر عنه بأنّ قلوب المسلمين تعلّقت بأمر ذلك الجيش ، فرأى عثمان أن يهبَ لمروان ثمَن ماابتاعه من الخُمس لما جاءه بشيرا بالفتح على سبيل الترغيب . وهذا الاعتذار ليس بشىء ؛ لأنّ الذى رويناه من الأخبار فى هذا الباب خالٍ من البشارة ، وإنما يقتضى أنّه سأله ترْكَ ذلك عليه ، فتركه وابتدأ هو بصلته، ولو أتى بشيرا بالفتح كما ادّعَوْا لماجاز أن يترك عليه خمس الغنيمة العائدَ نفعهُ على المسلمين،

لأنّ تلك البشارة لاتبلغُ إلى أن يستحق البشير بها مائتى ألف درهم ، ولااجتهادَ فى مثل هذا ، ولا فرق بين من جَوّز أن يؤدىَ الاجتهاد إلى مثله ومَنْ جَوّز أن يؤدِّىَ الاجتهاد إلى دفع أصل الغنيمة إلى البشير بها ، ومن ارتكب ذلك ألزم جوازَ أن يُؤدىَ الاجتهاد إلى إعطاء هذا البشير جميعَ أموال المسلمين فى الشرق والغرب .

فأمّا قوله : إنه وصَلَ بنى عمِّه لحاجتهم ،ورأى فى ذلك صلاحا ؛فقد بيّنا أن صِلاته لهم كانت أكثرَ مما تقتضيه الخَلّة والحاجة ، وأنّه كان يصلُ فيهم المياسيرَ . ثم الصلاحُ الذى زعم أنّه رآه : لايخلُو إمّا أن يكون عائداً على المسلمين ، أو على أقاربه ؛ فإن كان على المسلمين فمعلومٌ ضرورةً أنّه لاصلاحَ لأحد من المسلمين فى إعطاء مَرْوان مائتى ألف دينار ، والحكَم بن أبى العاص ثلثمائة ألف درهم ، وابن أُسيد ثلثمائة ألف درهم ؛ إلى غير ماذكرنا ، بل على المسلمين فى ذلك غاية الضرر . وإن أراد الصَّلاح الراجع إلى الأقارب فليس له أن يُصلِح أمرَ أقاربه بفساد أمر المسلمين ، وينفعهم بما يضرّ به المسلمين .

وأما قوله : إنّ القطائعَ التى أقطَعها بنى أميّة ؛ إنما أقطعهم إياها لمصلحة تعودُ على المسلمين ؛ لأنّ تلك الضياع كانت خَرابا لاعامر لها ، فسلّمها إلى من يعمّرها ويؤدِّى الحقّ عنه ؛فأول مافيه أنّه لوكان الأمر على ماذكره، ولم تكن هذه القطائع على سبيل الصِّلة والمعونة لأقاربه لما خَفِىَ ذلك على الحاضرين ، ولكانوا لايعدّون ذلك من مثالبه ، ولا يوافقونه عليه فى جملة ماوافقوه عليه من إحداثه . ثم كان يجب لوفعلوا ذلك أن يكون جوابُه بخلاف ماروى من جوابه ؛ لأنّه كان يجب أن يقول لهم : وأىّ منفعة فى هذه القطائع عائدة على قَرابتى حتى تعدّوا ذلك من جملة صِلاتى لهم ؛ وإيصالى المنافع إليهم ! وإنما جعلتُهم فيها بمنزلة الأكَرَة الذين يُنتفع بهم أكثر من انتفاعهم أنفسهم ، وما كان

يجب أن يقول ما تقدمت روايته ؛ من أنى محتسب فى إعطاء قرابتى ، وأن ذلك على سبيل الصلة لرحمى ، إلى غير ذلك مما هو خالٍ من المعنى الذى ذكره .

* * *

الطعن الرابع :

أنه حَمَى الحِمَى عن المسلمين ، مع أن رسول الله صلى الله عليه وآله جعلهم سواء فى الماء والكلأ .

قال قاضى القضاة : وجوابنا عن ذلك أنّه لم يحمِ الكلأ لنفسه ، ولا استأثر به ، لكنّه حماه لإبل الصدقة التى منفعتُها تعود على المسلمين . وقد رُوى عنه هذا الكلام بعينه ، وأنه قال : إنما فعلت ذلك لإبل الصدقة ، وقد أطلقته الآن ، وأنا أستغفر الله ، وليس فى الاعتذار ما يزيد عن ذلك .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : أما أوّلا فالمروىّ بخلاف ماذكر ، لأنّ الواقدىّ روى بإسناده ،قال : كان عثمان يحمى الرَّبَذَة والشرف[1] والبقيع ، فكان لا يدخل الحمى بعيرٌ له ولا فرس ، ولا لبنى أمية حتى كان آخر الزمان ، فكان يحمى الشَّرف لإبله وكانت ألفَ بعير ، ولإبل الحكَم بن أبى العاص ، ويحمى الرَّبذة لإبل الصدقة ، ويحمى البَقِيع لخيل المسلمين وخيله وخَيْلِ بنى أُمية .

قال : على أنه لو كان إنّما حماه لإبل الصدقة لم يكنْ بذلك مصيبا ؛ لأنّ الله تعالى ورسولَه أباحَا الكلأ ؛ وجعلاه مشتركاً ؛ فليس لأحدٍ أن يغيِّر هذه الإباحة . ولو كان

---

(١) فى معجم البلدان : قال الأصمعى : « الشرف : كبد نجد ؛ وكانت من منازل بنى آكل المرار من كندة الملوك وفيها اليوم حمى ضرية ، وفيه الربذة ؛ وهى الحمى الأيمن » .

فى هذا الفعل مُصيبا ، وأنه إنما حماه لمصلحة تعود على المسلمين لما جاز أنْ يستغفر اللهَ منه ويعتذر ، لأن الاعتذار إنما يكون من الخطأ دون الصواب .

***

الطعن الخامس :

أنه أعطى من بيت مال الصدقة المقاتلة وغيرها ، وذلك مما لا يحلّ فى الدين .

قال قاضى القضاة : وجوابنا عن ذلك أنّه إنما جاز له ذلك لعلمه بحاجة المقاتلة ، واستغناء أهل الصدقة ، ففعل ذلك عَلَى سبيل الإقراض ، وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وآله مثلَه ، وللإمام فى مثل هذه الأمور أن يفعل ما جرَى هذا المجرى ؛ لأنّ عند الحاجة ربّما يجوز له أن يقترض[1] من الناس ، فأن يجوز له أن يتناول من مالٍ فى يده ، ليردّ عوَضه من المال الآخر أوْلَى .

***

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : إنّ المال الذى جعل الله تعالى له جهة مخصوصة ، لا يجوز أن يُعدَل به عن جهته بالاجتهاد ، ولو كانت المصلحة فى ذلك موقوفة عَلَى الحاجة لشرَطها الله تعالى فى هذا الحُكم ، لأنه سبحانه أعلمُ بالمصالح واختلافها منّا ، ولكان لا يجعل لأهل الصدقة منها القسْط مطلقا .

وأما قوله : إنّ الرسول صلى الله عليه وسلم فَعَل مثله ، فهى دَعْوَى مجرّدة من برهان ، وقد كان يجب أن يروِى ما ذُكر فى ذلك . وأما ما ذكره من الاقتراض، فأين كان عثمان عن هذا العذر لمّا وُوقف عليه !

***

الطعن السادس :

أنّه ضرب عبدَ الله بن مسعود حتى كَسرَ بعض أضلاعه .

(١) كذا فى ج ؛ وهو الصواب ، وفى ب : « يقرض » ، تحريف .

قال قاضي القضاة : قال شيخُنا أبو عليّ رحمه الله تعالى : لم يثبُتْ عندنا ولا صحّ عندنا ما يقال من طعْنِ عبد الله عليه ، وإكفاره له ، والذى يصحّ من ذلك أنّ عبد الله كَرِه منه جمعَه الناسَ على قراءة زيد بن ثابت وإحراقَه المصاحف ، وثقُل ذلك عليه كما يثقُل على الواحد منّا تقديمُ غيره عليه .

وقد قيل : إنّ بعضَ موالى عثمان ضربه لمّا سمع منه الوقيعة فى عثمان ، ولو صحّ أنه أمَرَ بضربه لم يكن بأنْ يكون طعناً فى عثمان بأوْلى من أن يكون طعْناً فى ابن مسعود ؛ لأنّ للإمام تأديبَ غيره ، وليس لغيره الوقيعةُ فيه إلا بعد البيان . وقد ذكر الشيخُ أبو الحسين الخيّاط أنّ ابن مسعود إنما عابه لعزْله إياه ؛ وقد رُوِى أنّ عثمان اعتذر إليه فلم يقبل عذرَه ، ولما أحضر إليه عطاءه فى مرضه ، قال ابن مسعود : منعتَنى إياه إذ كان ينفعُنى ، وجئتَنى به عند الموت ! لا أقبله . وأنه وسّط أم حبيبة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم ليزيل مافى نفسه فلم يجب ؛ وهذا يوجب ذمّ ابن مسعود إذ لم يقبل الندم ، ويوجب براءة عثمان من هذا العيب ، لو صحّ ما صحّ ما رووه من ضربه .

* * *

اعترض المرتضَى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : المعلوم المرويّ خلاف ما ذكره أبو عليّ ، ولا يختلف أهلُ النقل فى طعن ابن مسعود على عثمان ، وقوله فيه أشدّ الأقوال وأعظمها ، والعلْم بذلك كالعلم بكل ما يدّعى فيه الضرورة ، وقد رَوَى كلّ مَنْ رَوَى السيرة من أصحاب الحديث على اختلاف طرُقهم أنّ ابن مسعود كان يقول : ليتنى وعثمان برملِ عالِج(١) يحثُو عَلَيّ وأحثو عليه حتى يموتَ الأعجز منى ومنه !

ورووا أنه كان يطعن عليه ، فيقال له : ألا حرجْتَ عليه ، ليخرج معك ! فيقولُ : لَأنْ أزاولَ جَبلا راسيا أحبُّ إلىّ من أن أزاول مُلْكا مؤجلا .

---

(١) عالج : رمال بين فيد والقريات ، ينزلها بعض طيّ ، متصلة بالثعلبية . مراصد الاطلاع ٢ : ٩١١ .

وكان يقول كلّ يوم جمعة بالكوفة جاهراً معلنا : « إنّ أصدقَ القول كتابُ الله، وأحسنَ الهَدْى هدْىُ محمد ، وشرّ الأمور محدَثاتها ، وكلّ محدَث بِدْعة ، وكل بِدْعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » . وإنما كان يقول ذلك معرّضا بعثمان ، حتى غضِب الوليد ابن عُقْبة من استمرار تعريضه، ونهاه عن خطبته هذه ، فأبَى أن ينتهىَ، فكتب إلى عثمان فيه ، فكتب عثمان يستقدِمه عليه .

وروى أنّه لما خرج عبدُ الله بن مسعود إلى المدينة مزعَجا عن الكوفة خرج الناس معه يشيّعونه ، وقالوا له : يا أبا عبد الرحمن ، ارجع ، فوالله لا نوصله إليك أبدا ؛ فإنا لا نأمنه عليك ، فقال : أمر سيكون ، ولا أحبّ أن أكون أوّلَ مَنْ فتحه .

وقد روى عنه أيضا من طرق لا تحصى كثرةً أنه كان يقول : مايزنُ عثمانُ عندَ الله جَناح ذباب ، وتَعاطِى مارُوِىَ عنه فى هذا الباب يطول ، وهو أظهر من أن يحتاج إلى الاستشهاد عليه ؛ وإنه بلَغ من إصرار عبدالله على مظاهرته بالعداوة أنْ قال لما حضره الموت : مَنْ يتقبّلْ مِنّى وصيةً أوصِيه بها عَلَى مافيها ! فسكت القومُ ، وعرفوا الذى يريد ، فأعادها ، فقال عمّار بن ياسر رحمه الله تعالى: أنا أقبلها ، فقال ابن مسعود: ألّا يصلّىَ عَلَىّ عثمان ، قال : ذلك لك ، فيقال : إنّه لما دُفِن جاء عثمان منكِرا لذلك، فقال له قائل: إن عماراً ولِىَ الأمر، فقال لعمّار : ماحملك عَلَى أنْ لم تؤذِنّى؟ فقال : عهِد إلىّ ألّا أوذِنك، فوقف على قبره وأثنى عليه، ثم انصرف وهو يقول: رفعتم والله أيديَكم عن خَيْرِ مَنْ بَقِى، فتمثّل الزبير بقول الشاعر :

لَا أُلفينَّكَ بَعْدَ الموتِ تَنْدُبُنِى ... وفى حيــاتِىَ مازوّدْتَــنِى زَادِى [1]

ولما مَرِض ابنُ مسعود مرضَه الذى مات فيه ، أتاه عثمان عائدا ، فقال : ما تشتكى ؟ فقال : ذنوبى ، قال : فما تشتهى ؟ قال : رحمة ربى ، قال : ألا أدعو لك طبيبا ؟ قال :

(١) البيت لعبيد بن الأبرص ، ديوانه ٤٨ .

الطبيبُ أمرضنى ، قال : أفلا آمر لك بعطائك ؟ قال : منعتَنيه وأنا محتاج إليه ، وتُعطينيه وأنا مستغنٍ عنــه ! قال : يكونُ لولدك ، قال : رزقُهم على الله تعالى ، قال : استغفِرْ لى يا أبا عبد الرحمن ، قال : أسألُ اللهَ أنْ يأخذَ لى منك حَقّى .

قال : وصاحبُ '' المغنى '' قد حكَى بعض هذا الخبر فى آخر الفصل الذى حكاه من كلامه ، وقال : هذا يوجب ذَمّ ابن مسعود من حيث لم يقبل العذر ؛ وهذا منه طَرِيف؛ لأنّ مذهبَه لا يقتضى قبولَ كلّ عذر ظاهر ، وإنمــا يجب قبولُ العذر الصادق ، الذى يغلب فى الظّن أن الباطن فيــه كالظاهر ، فمن أينَ لصاحب '' المغنى '' أنّ اعتذار عثمانَ إلى ابن مسعود كان مستوفيا للشرائط التى يجب معها القبول ! وإذا جازَ ماذكرناه لم يكن عَلَى ابن مسعود لومٌ فى الامتناع من قبول عُذْره .

فأما قوله : إن عثمان لم يضربه ، وإنما ضَرَبه بعضُ مواليه لما سمع وقيعتَه فيه ، فالأمر بخلاف ذلك ، وكلّ مَنْ قرأ الأخبار عَلِم أنّ عثمان أمر بإخراجه عن المسجد على أعنفِ الوجوه ، وبأمرِه جرى ماجرى عليه ، ولو لم يكن بأمره ورضاه لوجب أن ينكر على مولاه كَسْر ضلعه ، ويعتذر إلى مَنْ عاتبه على فعله بابن مسعود بأن يقول : إنى لم آمر بذلك ، ولا رضيته من فاعله ، وقد أنــكرت عليه فعله .

وفى علمنا بأنّ ذلك لم يكن دليل على ماقلنا ، وقد روى الواقدىّ بإسناده وغيرُه أنّ ابن مسعود لما استقدم المدينة ، دخلها ليلة جمعة ، فلما علم عثمانُ بدخوله ، قال : أيّها الناس ، إنه قد طرقــكم الليلة دُوَيْبَّة ، مَنْ تمشى على طعامه يقِىء ويسلح . فقال ابن مسعود : لست كذلك ، ولــكنّنى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلّم يومَ بدر ، وصاحبُه يوم أُحُد ، وصاحبُه يوم بيعة الرضوان ، وصاحبُه يوم الخندق ، وصاحبُه يوم حُنين . قال : وصاحت عائشة : ياعثمان ! أتقول هذا لصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ! فقال عثمان : اسكتى ؛ ثم قال لعبد الله ابن زَمْعة بن الأسود بن المطلب بن عبد العُزّى بن قصىّ : أخرِجْه إخراجا عنيفا ، فأخذه

ابنُ زمعة ، فاحتمله حتى جاء به باب المسجد ، فضرب به الأرض ، فكسر ضِلَعاً من أضلاعه ، فقال ابن مسعود: قتلني ابنُ زمعة الكافر بأمر عثمان وفى رواية أخرى إنّ ابنَ زمعة الذى فعل به مافعل كان مولًى لعثمان أسود مُسَدَّماً[١] طُوالا. وفى رواية أخرى: إن فاعل ذلك يَحْمُوم مولى عثمان. وفى رواية، إنه لما احتمله ليخرجه من المسجد ناداه عبدالله: أنشدك الله، ألّا تخرجَنى من مسجد خليلى صلى الله عليه وسلّم.

قال الرّاوى: فكأنى أنظر إلى حُمُوشة[٢] ساقَىْ عبدالله بن مسعود ورجلاه تختلفان على عنق مولى عثمان حتى أُخرج من المسجد، وهو الذى يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «لَساقا ابن أمّ عبد أثقلُ فى الميزان يوم القيامة من جبل أُحُد».

وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القُرظىّ أن عثمان ضرب ابن مسعود أربعين سوطا فى دفنه أبا ذَرّ. وهذه قصة أخرى؛ وذلك أن أبا ذرّ رحمه الله تعالى لما حضرته الوفاة بالرَّبذة، وليس معه إلا امرأته وغلامُه عَهِد إليهما أن غَسِّلانى ثم كفِّنانى، ثم ضعانى على قارعة الطريق، فأوّل ركب يمرّون بكم قولوا لهم: هذا أبو ذَرّ صاحب رسول الله صلى الله عليه، فأعينونا على دَفْنِه، فلما مات فعلوا ذلك، وأقبل ابنُ مسعود فى ركب من العراق معتمرين، فلم يرعْهمْ إلا الجنازة على قارعة الطريق، قد كادت الإبل تطؤها، فقام إليهم العبد، فقال: هذا أبو ذَرّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فأعينونا على دفنه، فانهلّ ابنُ مسعود باكياً، وقال: صدق رسول الله صلى الله عليه، قال له: «تمشى وحدَك، وتموت وحدَك، وتُبْعث وحدَك»، ثم نزل هو وأصحابه، فواروْه.

قال: فأما قولُه إن ذلك ليس بأنْ يكون طعناً فى عثمان بأولى من أنْ يكون طعنا فى ابن مسعود، فواضح البطلان، وإنما كان طعناً فى عثمان دون ابن مسعود؛ لأنه لا خلاف

---

(١) المسدم: الأهوج.
(٢) الحموشة: دقة الساقين.

بين الأمة فى طهارة ابن مسعود وفضله وإيمانه ، ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وثنائه عليه ، وأنّه مات على الجُمْلة المحمودة منه ، وفى جميع هـذا خلاف بين المسلمين فى عثمان .

فأما قوله : إن ابن مسعود كَرِه جَمْعَ عثمان النّاس على قراءة زيد ، وإحراقَه المصاحف؛فلا شك أنّ عبد الله كره ذلك ، كما كرهه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وتكلّموا فيه ، وقد ذكر الرواة كلامَ كل واحد منهم فى ذلك مفصّلا ، وما كره عبدالله من ذلك إلا مكروهاً،وهو الذى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلّم فى حقه: «مَنْ سرّه أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أنزل،فليقرأه على قراءة ابن أم عبد».ورُوِىَ عن ابن عباس رحمه الله تعالى أنه قال: « قراءة ابن أم عبد هى القراءة الأخيرة »؛ إن رسول الله صلى الله عليه كان يُعرَض عليه القرآن فى كلّ سنة من شهر رمضان ، فلما كان العام الذى تُوفِّى فيه عُرِض عليه دفعتين ، فشهد عبد الله مانُسِخ منه ، وما صحّ فهى القراءة الأخيرة .

ورُوِىَ عن الأعمش ، قال : قال ابن مسعود : لقد أخذتُ القرآن مِنْ فِى رسول الله صلى الله عليه ، سبعين سُورة ، وإن زيد بن ثابت لغُلام فى الكتّاب ، له ذؤابة .

فأما حكايتُه عن أبى الحسين الخياط أنّ ابنَ مسعود إنما عاب عثمان لعزله إياه ، فعبد الله عِنْدَ كلّ مَنْ عرفه بخلاف هذه الصورة،وأنه لم يكن ممّنْ يخرج على عثمان ويطعن فى إمامته بأمرٍ يعود إلى منفعة الدنيا ، وإن كان عزلُه بما لاشبهة فيه فى دين ولا أمانة عيبا لاشكّ فيه .

* * *

الطعن السابع :

أنه جمع الناس على قراءة زيد بن ثابت خاصة ، وأحرق المصاحف ، وأبطل مالاشك أنه نزل من القرآن ؛ وأنه مأخوذ عن الرسول صلى الله عليه ، ولو كان ذلك مما يسوغُ لسبق إليه رسول الله صلى الله عليه ، ولفعله أبو بكر وعمر .

قال قاضي القضاة : وجوابُنـا عن ذلك أنّ الوجهَ فى جمع القرآن على قراءة واحدة تحصينُ القرآن وضبطه ، وقطع المنازعة والاختلافِ فيه . وقولهم : لوكان ذلك واجبـاً لفعله الرسول صلى الله عليه وسلّم غيرلازم ؛ لأنّ الإمام إذا فعله صار كأنّ الرسول صلى الله عليه وسلّم فعله ، ولأنّ الأحوال فى ذلك تختلف ، وقد روى أنّ عمر كان عزم على ذلك فمات دونه . وليس لأحد أن يقول : إن إحراقه للمصاحف استخفافٌ بالدين، وذلك لأنه إذا جاز من الرسول صلىّ الله عليه وسلم أن يخرب المسجد الذى بُنِى ضراراً وكفراً ، فغير ممتنع إحراق المصاحف .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الـكلام ، فقال : إن اختلاف الناس فى القراءة ليس بموجب لما صنعه ؛ لأنهم يروُون أنّ النبى صلى الله عليه وسلّم قال : « نزل القرآن على سبعة أحرف ، كلّها شافٍ كافٍ » ، فهذا الاختـلاف عندهم فى القرآن مباحٌ مسند عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فـكيف يحظر عليهم عثمان من التوسّع فى الحروف ماهو مباح ! فلو كان فى القراءة الواحدة تحصين القرآن كما ادّعى ؛ لما أباح النبى صلى الله عليه وسلم فى الأصل إلا القراءة الواحدة ؛ لأنه أعلم بوجوه المصالح من جميع أمته ، من حيث كان مؤيّدا بالوحى ، موفّقا فى كلٍّ مايأتى ويذَر . وليس له أن يقول : حَدَث من الاختلاف فى أيام عثمان مالم يكنْ فى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا ماأباحـــه ؛ وذلك لأنّ الأمر

لوكان على هذا لوجبَ أن ينهى عن القراءة الحادثة ، والأمر المبتدع ، ولا يحمله ماأحدث من القراءة على تحريم المتقدّم بلا شبهة .

وقوله : إن الإمام إذا فعل ذلك ؛ فكأنّ الرسول صلى الله عليه وسلّم فَعَلَه تعلّل بالباطل ؛ وكيف يكون كما ادّعى ، وهذا الاختلاف بعينه قد كان موجوداً فى أيام الرسول صلى الله عليه وسلّم ، فلوكان سبب الانتشار الزيادة فى القرآن ، وفى قطعه تحصين له ، لكان عليه السلام بالنهى عن هذا الاختلاف أوْلى من غيره ؛ اللهم إلا أن يقال : حدث اختلاف لم يكن ؛ فقد قُلْنا فيه ما كفى .

وأما قوله : إن عمر قد كان عزم على ذلك فمات دونه ؛ فما سمعناه إلا منه ؛ ولو فعل ذلك أىّ فاعل كان لكان مُنْكَراً .

فأما الاعتذار عن كون إحراق المصاحف لايكون استخفافاً بالدين ، بحمله إياه على تخريب مسجد الضِّرار ، فبيْن الأمرين بَوْنٌ بعيد ؛ لأنّ البنيان إنما يكون مسجدا وبيتا لله تعالى بنية البانى وقصده ، ولولا ذلك لم يكن بعضُ البنيان بأن يكون مسجدا أوْلى من بعض ، ولما كان قصد البانى لذلك الموضع غير القُرْبة والعبادة ، بل خلافُها وضدّها من الفساد والمكيدة . لم يكن فى الحقيقة مسجدا ، وإن سمى بذلك مجازا على ظاهر الأمر ، فهدْمُه لاحرجَ فيه ، وليس كذلك مابين الدّفّتين ؛ لأنه كلام الله تعالى الموقّر المعظّم ، الذى يجب صيانته عن البِذلة والاستخفاف ، فأىّ نسبة بين الأمرين !

* * *

الطعن الثامن :

أنه أقدم على عمار بن ياسر بالضّرب ، حتى حَدَث به فَتْق ، ولهذا صار أحد مَنْ ظاهر المتظلّمين من أهل الأمصار على قتله ، وكان يقول : قتلناه كافرا .

قال قاضى القضاة : وقد أجاب شيخُنا أبو على رحمه الله تعالى عن ذلك، فقال : إنّ ضرب عمار غير ثابت ، ولو ثبت أنّه ضربه للقول العظيم الذى كان يقوله لم يجب أن يكون طعناً عليه ؛ لأنّ للإمام تأديبَ مَنْ يستحق التأديب . وممّا يبعد صحة ذلك أنّ عمارا لا يجوز أن يكفِّره ، ولمّا يقعْ منه مايستوجب به الكفر ؛ لأنّ الذى يكفَّر به الكافر معلوم ؛ ولأنه لو كان قد وقع ذلك لكان غيرُه من الصحابة أوْلى بذلك، ولوجب أن يجتمعوا على خَلْعه، ولوجب أن يكون قتله مباحا لهم ، بل كان يجب أن يقيموا إماما ليقتله على ماقدمناه . وليس لأحدٍ أن يقول : إنما كفّره عمار من حيث وَثَب على الخلافة ، ولم يكن لها أهلا ؛ لأنّا قد بينّا القولَ فى ذلك ؛ ولأنّه كان منصوبا لأبى بكر وعمر على ماتقدّم ، وقد بينا أنّ صحة إمامتهما تقتضى صحةَ إمامة عثمان .

وقد روى أن عماراً نازع الحسن بن على عليهما السلام فى أمر عثمان فقال عمار : قتِل عثمان كافرا ، وقال الحسن عليه السلام : قتِل مؤمنا ؛ وتعلّق بعضهما ببعض ، فصارا إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال : ماذا تريد من ابن أخيك ؟ فقال : إنى قلتُ كذا، وقال كذا ، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : أتكفُر بربّ كان يؤمن به عثمان ! فسكت عمّار ؛ وقد ذكر الشيخ أبو الحسين الخياط أن عثمان لما نُقِمَ عليه ضَرْبه عمارا احتجّ لنفسه، فقال : جاءنى[1] سعد وعمّار، فأرسلا إلىّ أن ائتنا ، فإنّا نريد أن نذاكرك أشياء فعلتَها، فأرسلت إليهما : إنى مشغول ، فانصرِفا ، فموعدكما يوم كذا ، فانصرف سعد وأبَى عمار أنْ ينصرف ، فأعدت الرسولَ إليه فأبى أن ينصرف ، فتناوله بغير أمرى؛ ووالله ماأمرتُ به ولا رضيت ؛ وها أنا ، فليقتصّ منى .

قال : وهذا من أنصفِ قولٍ وأعدله .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : أما الدفع لضرب عمار ، فهو

(١) كذا فى الأصول وكتاب الشافى ٢٧٧ ، ولعل الصواب : « جاء سعد » .

كالإنكار لطلوع الشمس ظهورا وانتشارا ، وكلٌّ من قرأ الأخبار ، وتصفّح السيَر ، يعلم من هذا الأمر مالا تثنيه عنه مكابرةٌ ولا مدافعة ؛ وهذا الفعل ـ أعنى ضربَ عمار ـ لم تختلف الرواة فيه ؛ وإنما اختلفوا فى سببه ، فروَى عباس بن هشام الكلبىّ عن أبى مخنف ، فى إسناده أنه كان فى بيت المال بالمدينة سَفَط فيه حَلْى وجوهر ، فأخذ منه عثمان ماحَلّى به بعضَ أهله ، فأظهر الناسُ الطعنَ عليه فى ذلك ، وكلّموه فيه بكلّ كلام شديد ؛ حتى أغضبوه ، فخطب فقال : لنأخذَنّ حاجتنا من هذا الفىء ؛ وإن رَغِمَتْ به أنوف أقوام ! فقال له علىٌّ عليه السلام : إذَنْ تُمنعَ من ذلك ، ويحالَ بينك وبينه ، فقال عمار : أُشهِد اللهَ أنّ أنفِى أوّلُ راغم من ذلك ؛ فقال عثمان : أعلىّ يابن ياسر تجترئْ ! خذوه ، فأُخِذ ، ودخل عثمان ، فدعا به فضرب به حتى غُشِى عليه ، ثم أخرج فحمل حتى أُتِىَ به منزلَ أم سلمة رضى الله تعالى عنها ، فلم يصلّ الظهر والعصر والمغرب ، فلما أفاق توضّأ وصلّى ، وقال : الحمدُ لله ، ليس هذا أول يوم أوذِينا فى الله تعالى ! فقال هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومىّ ـ وكان عمّار حليفا لبنى مخزوم ـ : ياعثمان ، أمّا علىّ فاتقيتَه ، وأما نحن فاجترأت علينا ، وضربتَ أخانا حتى أشفَيْتَ به[1] على التلف ؛ أما والله لئن مات لأقتلَنّ به رجلا من بنى أُميّة عظيمَ الشأن ! فقال عثمان : وإنّك لهاهنا يابن القَسْريّة ، قال : فإنهما قَسْرِيتانِ ـ وكانت أم هشام وجدّته قَسْرِيّتين[2] من بَجيلة ـ فشتمه عثمان ، وأمرَ به فأخرج ، فأتى به أمّ سلمة رضى الله تعالى عنها ، فإذا هى قد غَضِبت لعمار ، وبلغ عائشة رضى الله تعالى عنها ماصَنَع بعمار ، فغضبتْ أيضا ، وأخرجت شَعْراً من شَعْر رسول الله صلى الله عليه وآله ، ونعلا من نعاله ، وثوبا من ثيابه ، وقالت : ماأسرع ماتركتُم سُنّة نبيكم ، وهذا شعْره وثوبه ونعله لم يبْلَ بعد !

---

(١) أشفيت به ، أى جعلته مشرفا على الهلاك . (٢) قسر : بطن فى بجيلة .

وروى آخرون أن السببَ فى ذلك أنّ عثمان مَرّ بقبر جديد ، فسأل عنه ، فقيل : عبد الله بن مسعود؛ فغضب عَلَى عمّار لكتمانه إياه موتَه ، إذ كان المتولّىَ للصلاة عليه، والقيام بشأنه ، فعندها وطِئ عثمان عمّاراً حتى أصابه الفتْق .

وروى آخرون أنّ المقداد وعمّارا وطلحة والزبير وعِدّة من أصحاب رسول الله صلى عليه وآله كَتَبُوا كتاباً عدّدوا فيه أحداث عثمان ، وخوّفوه به ، وأعلموه أنّهم مُواثبوه إن لم يُقْلِع ، فأخذ عمار الكتاب ، فأتاه به . فقرأ منه صَدْراً ، ثم قال له: أعلىّ تقدمُ من بينهم ! فقال : لأنى أنصحُهم لك ، قال : كذبت يابن سُمية ! فقال : أنا والله ابن سُمَيّة، وابن ياسر ! فأمر عثمان غِلْمانا له ، فمدّوا بيديْه ورجليه ، ثم ضربه عثمان برجليه — وهى فى الخفّين — على مَذا كِيره ، فأصابه الفتق ، وكان ضعيفا كبيراً فغُشِى عليه .

قال : فضرْبُ عمار عَلَى ماترى غير مختلف فيه بين الرواة ، وإنما اختلفوا فى سببه ، والخبرُ الذى رواه صاحب "المغنى" ، وحكاه عن أبى الحسين الخياط مانعرفه، وكتبُ السيرة المعلومة خالية منه ومن نظيره ، وقد كان يجب أن يُضيفه إلى الموضع الذى أخذه منه، فإنّ قوله وقول من أسند إليه ليس بحجة ؛ ولو كان صحيحا لكان يجب أن يقول بدل قوله: «ها أنا فليقتصّ منى» — إذا كان ما أمرَ بذلكَ ، ولا رضى عنه ، وإنما ضربه الغلام الجانى — « فليقتصّ منه » ، فإنّه أولى وأعدل .

وبعد ؛ فلا تنافىَ بين الروايتين لو كان مارواه معروفا ، لأنه يجوز أن يكونَ غلامه ضربه فى حال ، وضربه هو فى حال أخرى ، والروايات إذا لم تتعارضْ لم يجز إسقاط شىء منها .

فأما قوله : إن عمّارا لا يجوز أن يكفّره ، ولم يقع منه مايوجب الكفر ؛ فإنّ تكفيرَ عمّار وغير عمّار له معروف، وقد[1] جاءت به الروايات، وقد رُوِى من طرق مختلفة وبأسانيد كثيرة أنّ عمّارا كان يقول : ثلاثة يشهدون عَلَى عثمان بالكفر وأنا الرابع ، وأنا شرّ

(١) ا : « قد » .

الأربعة ، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[1] ، وأنا أشهد أنه قد حَكَم بغير ما أنزل الله .

وروى عن زيد بن أرقم من طرق مختلفة أنّه قيل له : بأىّ شىء كفَّرتم[2] عثمان ؟ فقال : بثلاث : جَعَل المالَ دُولةً بين الأغنياء ، وجَعَل المهاجرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزلة مَنْ حارب الله ورسوله ، وعَمِل بغير كتاب الله .

ورُوِىَ عن حُذَيفة أنّه كان يقول: مافى عثمان بحمدالله أشُكّ ، لكنى أشُكّ فى قاتله ، لا أدرى أكافر قتل كافرا ، أم مؤمن خاض إليه الفتنة حتى قتله؛ وهو أفضلُ المؤمنين إيمانا!

فأمّا مارَواه من منازعة الحسن عليه السلام عمّاراً فى ذلك ، وترافعهما إلى أمير المؤمنين عليه السلام ؛ فهو أوّلا غيرُ دافع لكون عمار مكفِّرًا له ، بل شاهد بذلك من قوله عليه السلام . ثم إنْ كان الخبر صحيحا فالوجهُ فيه أنّ عمّاراً كان يعلم من لَحْن كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وعُدوله عن أن يقضىَ بينهما بصريح من القول أنه متمسك بالتقيّة ، فأمسك عمار متابعة لغرضه[3] .

فأما قوله : لا يجوز أن يكفِّره من حيث وثب على الخلافة ، لأنّه كان مصوِّبا لأبى بكر وعمر لما تقدم من كلامه فى ذلك ؛ فإنا لا نسلّم له أن عمّارا كان مصوّبا لهما ، وما تقدّم من كلامه قد تقدّم كلامنا عليه .

فأما قوله عن أبى علىّ : إنه لو ثبت أنه ضربه للقول العظيم الذى كان يقوله فيه لم يكن طعنا ، لأنّ للإمام تأديبَ من يستحق ذلك ، فقد كان يجب أن يستوحش صاحب كتاب « المغنى » ، أو من حكى كلامه من أبى علىّ وغيره من أن يعتذر — من ضرب عمار وقذه حتى لحقه من الغَشْى ماترَكَ له الصلاة ، ووطئه بالأقدام امتهانا واستخفافا — بشىء من العذر ،

---

(١) سورة المائدة ٤٤ .
(٢) ا : « أكفرتم » .
(٣) الشافى : « لما فهم من غرضه » .

فلا عذر يُسمع من إيقاع نهاية المكروه بمن رُوِي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه : « عمار جِلْدة ما بين العين والأنف ومتى تُنْكَأ الجلدة يَدْمَ الأنف » . وروى أنه قال عليه السلام « ما لهم ولعمار ! يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » . وروى العوّام بن حَوْشب عن سلمة بن كُهَيل عن علقمة عن خالد بن الوليد أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « مَنْ عادى عمارا عاداه الله ، ومن أبغض عمارا أبغضه الله » ؛ وأىّ كلام غليظ سمعه عثمان من عمّار يستحق به ذلك المكروه العظيم الذى يجاوز مقدار مافرضه الله تعالى فى الحدود ! وإنما كان عمار وغيره أثبتُوا عليه أحداثه ومعايبه أحيانا على ما يظهر من سيئ أفعاله . وقد كان يجب عليه أحدُ أمرين : إما أن ينزع عمّا يواقف عليه من تلك الأفعال ، أو يبين مِنْ عذره عنها وبراءته منها ما يظهر ويشتهر ؛ فإن أقام مقيم بعد ذلك على توبيخه وتفسيقه زجَره عن ذلك بوعْظٍ أو غيره ، ولا يُقدم على ما يفعله الجبابرة والأكاسرة من شفاء الغيظ بغير ما أنزل الله تعالى وحَكم به .

* * *

الطعن التاسع :

إقدامه على أبى ذَرّ مع تقدّمه فى الإسلام ، حتى سيّره إلى الرَّبَذة ونفاه ، وقيل : إنه ضَرَبه .

قال قاضى القضاة فى الجواب عن ذلك : إنّ شيخنا أبا علىّ رحمه الله تعالى قال : إنّ الناس اختلفُوا فى أمر أبى ذَرّ رحمه الله تعالى . ورُوِىَ أنه قيل لأبى ذَرّ : عثمانُ أنزلك الرَّبَذة ؟ فقال : لا ؛ بل اخترتُ لنفسِي ذلك .

ورِوى أنّ معاوية كتب يشكُوه وهو بالشام ، فكتب عثمان إليه أنْ صِرْ إلى المدينة ، فلما صار إليها قال : ما أخرجَك إلى الشام ؟ قال : لأنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه

وسلم يقول : « إذا بلغتْ عِمارةُ المدينة موضعَ كذا فاخرج عنها » ؛ فلذلك خرجتُ ، فقال : فأىّ البلاد أحبُّ إليك بعد الشام ؟ قال : الرَّبَذة ، فقال : صِرْ إليها .

قال : وإذا تكافأتِ الأخبارُ لم يكن لهم فى ذلك حجّة ، ولو ثبت ذلك لكان لا يمتنع أن يُخرجه إلى الرَّبذة لصلاح يرجع إلى الدين ، فلا يكون ظُلْمًا لأبى ذرّ ؛ بل يكون إشفاقا عليه ، وخوفاً من أن يناله من بعضِ أهل المدينة مكروه ، فقد رُوِىَ أنه كان يُغْلِظ فى القول ويخشن الكلام ، فيقول : لم يبقَ أصحابُ محمد على ما عَهِد ، ويُنَفِّر(١) بهذا القول ؛ فرأى إخراجَه أصلحَ لما يرجع إليه وإليهم وإلى الدين ؛ وقد رُوِى أن عمر أخرَج عن المدينة نصرَ بن الحجاج لما خافَ ناحيته ، وقد ندَب اللهُ سبحانه إلى خفض الجناح للمؤمنين ، وإلى القول اللين للكافرين ، وبيّن للرسول صلى الله عليه وسلم أنه لو استعمل الفظاظة لانفضّوا من حوله ، فلما رأى عثمانُ من خُشونة كلام أبى ذرّ ، وما كان يُورِده مما يُخشَى منه التنفير فعَل ما فعَل .

قال : وقد رُوِى عن زيد بن وهب ، قال : قلتُ لأبى ذرّ رحمه الله تعالى ، وهو بالرَّبَذة : ما أنزلك هذا المنزل ؟ قال : أخبرُك ؛ إنى كنتُ بالشام فى أيام معاوية ، وقد ذكرت هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٢) ، فقال معاوية : هذه فى أهل الكتاب ، فقلت : هى فيهم وفينا ؛ فكتب معاوية إلى عثمان فى ذلك ، فكتب إلىّ أن اقدم عَلَىَّ ، فقدمت عليه ؛ فانثال الناسُ إلىّ كأنهم لم يعرفونى ، فشكوت ذلك إلى عثمان ، فخيّرنى وقال : انزِلْ حيث شئت ، فنزلت الرَّبَذة .

---

(١) ينفر : يصيح .
(٢) سورة التوبة آية ٣٤ .

وقد ذكر الشيخُ أبو الحسين الخياط قريباً مما تقدّم ، من أنّ إخراج أبي ذَرّ إلى الرّبذة كان باختياره ، وروى في ذلك خبرا ، قال : وأقلّ ما في ذلك أنْ تختلف الأخبار فتطرَح ، ويُرجع إلى الأمر الأوّل في صحة إمامة عثمان وسلامة أحواله .

***

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال :

أمّا قول أبي علىّ إنّ الأخبار في سبب خروج أبي ذَرّ إلى الرّبَذَة متكافئة ، فمعاذ الله أن تتكافأ في ذلك ! بل المعروفُ والظاهر أنّه نفاه أولاً إلى الشام ، ثم استقدمه إلى المدينة لما شكا منه معاوية ، ثم نفاه مِن المدينة إلى الرّبَذَة. وقد رَوَى جميعُ أهلِ السِّيَر عَلَى اختلاف طُرِقهم وأسانيدهم أنّ عثمانَ لما أعطى مَرْوان بن الحكم ما أعطاه ، وأعطى الحارث بن الحكم بن أبي العاص ثلثمائة ألف درهم ، وأعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم ، جعل أبو ذَرّ يقول : بشِّر الكانزين بعذاب أليم ، ويتلو قول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فرفع ذلك مَرْوان إلى عثمان ، فأرسل إلى أبي ذَرّ نائلًا مولاه : أنِ انْتَهِ عمّا يبلغني عنك ، فقال : أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله ، وعَيْب مَنْ ترك أمر الله ! فوالله لأن أرْضِيَ الله بسخَط عثمان أحبّ إلىّ وخيرٌ لي من أن أسْخِطَ الله برضاه . فأغضب عثمان ذلك ، وأحفظه فتصابر .

وقال يوما : أيجوز للإمام أن يأخذَ من المال ، فإذا أيْسَر قضى ؟ فقال كعبُ الأحبار : لا بأس بذلك ، فقال له أبو ذَرّ : يابن اليهوديين ، أتعلّمنا ديننا ! فقال عثمان : قد كثر أذاك لِي وتولُّعك بأصحابي ، الحقْ بالشام . فأخرجه إليها ، فكان أبو ذَرّ يُنكِر على معاوية أشياء يفعلها ، فبعث إليه معاوية ثلثمائة دينار ؛ فقال أبو ذَرّ : إنْ كانتْ هذه

من عطائى الذى حرمتمُونيه عامى هذا قبلتُها ، وإن كانتْ صـلةً فلا حاجة لى فيها ، وردّها عليه .

وبنى معاوية الخضراء بدمشق ، فقال أبو ذَرّ : يا معاوية ، إن كانت هذه من مال الله فهى الخيانة ، وإن كانتْ من مالك فهو الإسراف .

وكان أبو ذَرّ رحمه الله تعالى يقول : والله لقدْ حدثَتْ أعمالٌ ماأعرفها ، والله ماهى فى كتاب الله ولا سنة نبيه ، والله إنى لأرَى حقا يُطفَأُ وباطلا يُحْيا ؛ وصادقا مكذَّبا ، وأثَرَة بغير تقًى ، وصالحًا مستأثرًا عليه ؛ فقال حَبيب بن مسلمة الفِهْرىّ لمعاوية : إن أبا ذَرّ لَمفْسِدٌ عليكم الشام ، فتداركْ أهلَه إن كانت لكم حاجة فيه . فكتب معاوية إلى عثمان فيه ، فكتب عثمان إلى معاوية : أما بعد ؛ فاحمل جُنْدبًا[1] إلىّ على أغلظِ مَرْكب وأوعرِه ، فوجّه به مع مَنْ سار به الليل والنهار ؛ وحمله على شارف[2] ليس عليها إلا قَتَب[3] ، حتى قدِم به المدينة ، وقد سقط لحمُ فَخِذَيْه من الجهد ؛ فلما قدم أبو ذرّ المدينة ؛ بعث إليه عثمان أنِ الحقْ بأىّ أرضٍ شئت ، فقال : بمكة ؟ قال : لا ، قال : فبيت المقدس ؟ قال : لا ، قال : فأحدُ المِصْرين[4] ؟ قال : لا ؛ ولكنّى مسيِّرُك إلى الرَّبَذَة ، فسيّره إليها ، فلم يزلْ بها حتى مات .

وفى رواية الواقدىّ أنّ أبا ذَرّ لما دخل على عثمان ، قال له : لا أنعمَ الله بك عينا يا جُنَيْدِب ! فقال أبو ذَرّ : أنا جُنَيْدِب وسمّانى رسول الله صلى الله عليه عبدَ الله ، فاخترتُ اسمَ رسول الله الذى سمّانى به على اسمى ؛ فقال عثمان : أنت الذى تزعُم أنّا نقول إن يدَ الله مغلولة ؛ وإن الله فقير ونحن أغنياء ! فقال أبو ذَرّ : لو كنتم لا تزعمون لأنفقتم

---

(١) جندب : اسم أبى ذر الغفارى .
(٢) الشارف : الناقة المسنة الهرمة .
(٣) القتب : الإكاف الصغير على قدر سنام البعير .
(٤) المصران : هما الكوفة والبصرة .

مالَ الله على عباده ؛ ولـكنّي أشهدُ لسمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « إذا بلغ بَنو أبى العاص ثلاثين رجلا جعلوا مالَ الله دولًا ، وعبادَ الله خَوَلًا ، ودينَ الله دَخَلا » ، فقال عثمان لمَنْ حَضَره : أسمعتموها من نبيّ الله ؟ فقالوا : ماسمعناه ، فقال عثمان : ويلك يا أبا ذَرّ ! أتَكذِب على رسول الله ! فقال أبو ذَرّ لِمَنْ حَضَر : أما تظنّون أنى صدقت ! قالوا : لا والله ما ندرِى ، فقال عثمان : ادعُوا لى عليًّا ، فدعى ، فلما جاء قال عثمان لأبى ذَرّ : اقصُصْ عليه حديثك فى بنى أبى العاص ، فحدّثه ، فقال عثمان لعلىّ : هل سمعتَ هذا من رسول الله صلى الله عليه ؟ فقال علىّ عليه السلام : لا ، وقد صدق أبو ذَرّ ، قال عثمان : بِمَ[1] عرفتَ صِدْقه ؟ قال : لأنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه يقول : « ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء من ذى لَهْجة أصدَق من أبى ذرّ » ، فقال جميعُ مَنْ حَضَر من أصحاب النبى صلى الله عليه : لقد صدق أبو ذرّ ، فقال أبو ذرّ : أحدّثُكم أنى سمعتُ هذا من رسول الله صلى الله عليه ثم تتّهمونَنى ! ما كنت أظنّ أنى أعيشُ حتى أسمعَ هذا من أصحاب محمد صلى الله عليه !

وروى الواقدىّ فى خبر آخر بإسناده عن صَهْبان مولى الأسلميين ، قال : رأيتُ أبا ذرّ يوم دُخِلَ به على عثمان ، فقال له : أنتَ الذى فعلت وفعلت ! فقال له أبو ذَرّ : نصحتُكَ فاستغششتَنِى ، ونصحتُ صاحبك فاستغشّنى ؛ فقال عثمان : كذبت ؛ ولـكنك تريد الفتنة وتحبّها ، قد أنغَلْتَ[2] الشامَ علينا ، فقال له أبو ذَرّ : اتبعْ سُنّة صاحبَيْك ، لا يكن لأحدٍ عليك كلام ، قال عثمان : مالك وذلك لا أمّ لك ! قال أبو ذَرّ : والله ما وجدتُ لى عذرا إلا الأمرَ بالمعروف والنهىَ عن المنكر ؛ فغضب عثمان وقال : أشيروا علَىّ فى هذا الشيخ الـكذاب ، إمّا أن أضربَه أو أحبسه أو أقتله ؛ فإنه قَد فرّق جماعة المسلمين ، أو أنفيَه من أرض الإسلام . فتكلّم علىّ عليه السلام — وكان حاضرا — وقال : أشيرُ عليك

(١) الشافى : « كيف » .
(٢) أنغلت الشام : أى أفسدت أهله ؛ وأصله فى الأديم ؛ يقال : أنغل الأديم ؛ إذا أفسده فى الدباغ . وفى الشافى : « قلبت » .

بما قاله مؤمنُ آل فرعون: ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (١) ، قال : فأجابه عثمان بجوابٍ غليظ ، لا أحبّ ذكره ، وأجابه عليه السلام بمثله ، قال : ثمّ إن عثمانَ حَظَر على النّاس أن يقاعِدُوا أبا ذرّ ، أو يكلموه ؛ فمكث كذلك أياماً ، ثم أمرَ أن يؤتَى به ، فلما أُتِيَ به وقف بين يديه ، قال : ويحَك ياعثمان ! أما رأيتَ رسول الله صلى الله عليه ورأيتَ أبا بكر وعمر ! هل رأيتَ هذا هديَهم ! إنك لتَبْطِشُ بي بَطْشَ جبار ؟ فقال : اخرُج عنّا من بلادنا ، فقال أبو ذرّ: ماأبغض إليّ جوارك ! فإلى أين أخرج؟ قال : حيث شئتَ ، قال : فأخرج إلى الشامِ أرض الجهاد ؟ قال : إنما جلبتُك من الشام لِما قد أفسدتَها أفأردّك إليها ! قال: أفأخرُج إلى العراق ؟ قال : لا ، قال: ولم ؟ قال : تقدَم على قومٍ أهل شُبَهٍ وطعن فى الأئمة ، قال : أفأخرج إلى مصر ؟ قال : لا ، قال : فإلى أين أخرج ؟ قال: حيث شئت، قال أبو ذَرّ : فهو إذن التعرّب (٢) بعد الهجرة ؛ أأخرُج إلى نجد؟ فقال عثمان: الشرف الأبعدُ أقصَى فأقصَى ، امض على وجهك هذا ، ولا تعدوَنّ الرَّبذة .

فخرج إليها .

وروى الواقدىّ عن مالك بن أبى الرجال، عن موسى بن ميسرة أنّ أبا الأسود الدؤلىّ، قال : كنتُ أحبّ لقاء أبي ذرّ لأسأله عن سبب خُروجه ، فنزلت الرَّبذة ، فقلت له : ألا تخبرنى ؟ أخرجتَ من المدينة طائعا أم أُخرجت مكرَها ؟ فقال : كنت فى ثغر من ثغور المسلمين ، أُغنِي عنهم ، فأخرجتُ إلى مدينة الرسول عليه السلام ، فقلت : أصحابى ودارُ هجرتى ، فأخرجت منها إلى ماترى ، ثم قال : بينا أنا ذاتَ ليلة نائم فى المسجد إذ مرّ بى رسول الله صلى الله عليه، فضربنى برجْله وقال : لا أراك نائمًا فى المسجد، فقلت : بأبى أنت

---

(١) سورة غافر ٢٨ .

(٢) التعرب : الإقامة بالبادية .

وأمى ! غلبتْنى عينى، فنمتُ فيه ، فقال : كيف تصنع إذا أخرجوك منه؟فقلت : إذن ألحق بالشام ، فإنها أرض مقدسة، وأرض بقية الإسلام،وأرض الجهاد ؛ فقال : فكيف تصنع إذا أخرجت منها ؟ فقلت : أرجع إلى المسجد ، قال : فكيف تصنع إذا أخرجوك منه ؟ قلت : آخذ سيفى فأضرب به ، فقال صلى الله عليه وآله : « ألا أدلك على خيرٍ من ذلك،انْسَقْ معهم حيث ساقوك ، وتسمَعُ وتطيع » ، فسمعت وأطعت وأنا أسمع وأطيع؛ والله ليلقَيَنَّ اللهَ عثمان وهو آثم فى جَنْبى .

وكان يقول بالرَّبذة : ماترك الحقّ لى صديقا . وكان يقول : فيها رَدَّنى عثمانُ بعد الهجرة أعرابيا .

والأخبار فى هـذا الباب أكثر من أن تحصر وأوسع من أن نذكرها . ومايحمِلُ نفسَه على ادّعاء أنّ أبا ذرّ خرج مختارا إلى الرَّبَذة إلا مكابر . ولسنا ننكِر أن يكون ما أورده صاحب كتاب " المغنى " من أنه خرج مختارا قد رُوِىَ ، إلا أنه من الشاذّ النادر . وبإزاء هذه الرواية الفذّة كلّ الروايات التى تتضمّن خلافها ؛ ومن تصفّح الأخبار عَلِم أنّها غير متكافِئة على ماظنّ صاحب المغنِى ؛ وكيف يجوز خروجُه عن اختيار ! وإنما أشخِص من الشام على الوجه الذى أشخص عليه : من خشونة المركب ، وقُبْح السَّيْر به للموجدة عليه. ثم لما قدِم مُنِع الناس من كلامه، وأغلظ له فى القول؛وكلّ هذا لا يشبه أن يكون خروجه إلى الرَّبَذة باختياره . وكيف يظنّ عاقل أنّ أبا ذرّ يختار الرَّبذة منزِلًا مع جَدْبها وقَحْطها وبُعْدها عن الخيرات ؛ ولم تكن بمنزِل مثله !

فأما قوله : إنه أشفَق عليه من أن يناله بعضُ أهلِ المدينة بمكروه من حيث كان يُغلِظ لهم القول،فليس بشىء ؛ لأنه لم يكن فى أهل المدينة إلا من كان راضيا بقوله ، عاتبا بمثل عتْبه ؛ إلّا أنهم كانوا بين مجاهرٍ بما فى نفسه، ومخفٍ ماعنده ؛ ومافى أهلِ المدينة إلّا

من رثى لأبى ذرّ ممـا حدث عليـه ، ومن استفظعه ؛ ومَنْ رجع إلى كتب السيرة عرف ماذكرناه .

فأما قوله : إن عمر أخرج من المدينة نصر بن حجاج،فيابُعْدَ مابين الأمرين!وما كنا نظنّ أن أحداً يسوّى بين أبى ذرّ وهو وَجْهُ الصحابة وعينهم ، ومَنْ أجمع المسلمون على توقيره وتعظيمه،وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مدحه من صِدْق اللّهجة بما لم يمدحْ به أحداً،وبين نصر بن الحجّاج الحدَث الذى كان خاف عمر من افتتان النساء بشبابه؛ولا حَظّ له فى فَضْلٍ ولا دِين!على أنّ عمر قد ذُمّ بإخراجه نَصْر بن الحجاج من غير ذنب كان منه، فإذا كان مَنْ أخرج نصر بن حجاج مذموما ، فكيف مَنْ أخرج أبا ذرّ !

فأما قوله : إنّ الله تعالى والرسول قد نَدَبا إلى خفض الجناح ، ولين القول للمؤمن والـكافر ، فهو كما قال ؛ إلا أنّ هـذا أدب كان ينبغى أن يتأدّب به عثمان فى أبى ذرّ ، ولا يقابله بالتـكذيب ، وقد قطع رسول الله صلى الله عليه وآله على صِدْقه ؛ ولا يسمعه مكروهَ الـكلام؛فإنّما نصح له،وأهدى إليه عيوبَه،وعاتبه على مالو نزع عنه لـكان خيْراً له فى الدنيا والآخرة .

***

الطعن العاشر :

تعطيلُه الحدّ الواجب على عُبَيدالله بن عُمَرَ بن الخطاب ، فإنه قتَل الهُرْمُزان مُسْلِما فلم يقُدْه به ، وقد كان أميرُ المؤمنين عليه السلام يطلُبه لذلك .

قال قاضى القضاة فى الجواب عن ذلك : إنّ شيخنا أبا علىّ رحمه الله تعالى قال : إنّه لم يكن للهُرْمُزان ولىّ يطلب بدمه ، والإمام ولِىّ مَنْ لا ولِىّ له ، وللولىّ أن يعفوَ كما له أنْ يقتُل ، وقد رُوِىَ أنّه سأل المسلمين أن يعفُوا عنه ، فأجابوا عنه إلى ذلك .

قال : وإنما أراد عثمانُ بالعفو عنه مايعودُ إلى عزّ الدين ، لأنّه خاف أن يبلغ العدُوَّ قتلُه ؛ فيقال : قَتَلوا إمامهم وقتلوا ولَدَه ولا يعرفون الحال فى ذلك فيكون فيه شماتة ؛ وقد قال الشيخُ أبو الحسين الخيّاط : إن عامّة المهاجرين أجمعُوا على أنه لا يُقادبالْهرمزان، وقالوا لعثمان : هـذا دم سُفِك فى غير ولايتك ، وليس له ولىّ يطالب به ، وأمْرُهُ إلى الإمام ، فاقْبَل منه الدِّية ، فذلك صلاح للمسلمين .

قال : ولم يثبت أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام كان يطلُبه ليقتلَه بالْهرْمزان ، لأنّه لا يجوز قتلُ مَنْ عفا عنه ولىّ المقتول ؛ وإنما كان يطلبه ليضعَ من قدره ، ويصغِّر من شأنه .

قال : ويجوز أن يكون ماروُى عن علىّ عليه السلام من أنه قال : لو كنتُ بدَل عثمان لقتلته ، يعنى أنه كان يرى ذلك أقوَى فى الاجتهاد ، وأقرب إلى التشدد فى دين الله سبحانه .

***

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، قال :

أما قوله : لم يكن للهرْمزان ولىّ يطلب بدمه ، فالإمام يكون وليّه ، وله أن يعفوَ عنه، كما له أن يقتص ؛ فليس بمعتمَد ، لأنّ الهرمزان رجلٌ من أهل فارس ، ولم يكن له ولىّ حاضر يطالب بدمه ، وقد كان الواجب أن يبذَل الإنصاف لأوليائه ويؤمّنوا متَى حضروا، حتى إنه لو كان له ولىّ يريد المطالبة حضر وطالب . ثم لو لم يكن له ولىّ لم يكنْ عثمان ولىّ دمه ، لأنه قُتِل فى أيام عمر ، فصار عمر ولىّ دمه ، وقد أوصى عمر على ماجاءت به الروايات الظاهرة بقتل ابنه عبيدالله إن لم تقم البيّنة العادلة على الهرْمزان وجُفَينة ،[1] أنهما أمرا أبالؤلؤة غلامَ المغيرة بن شعبة بقتله ، وكانت وصيتُه بذلك إلى أهل الشورى ، فقال : أيُّكم ولى هذا الأمر فليفعل كذا وكذا مما ذكرناه، فلما مات عُمر ، طلب المسلمون إلى عثمان إمضاء

(١) جفينة ؛ كان نصرانيا من أهل الحيرة وكان ظئرا لسعد بن أبى وقاص ؛ أقدمه إلى المدينة للصلح الذى بينه وبينهم ؛ وليعلم بالمدينة الكتاب . تاريخ الطبرى ٥ : ٤٢ .

الوصيّة فى عبيد الله بن عمر ، فدافع عن ذلك وعلّلهم ؛ ولو كان هو ولىّ الدم على ماذكروا لم يكن له أن يعفوَ وأن يُبطِل حدًّا من حدود الله تعالى ، وأىّ شماتة للعدوّ فى إقامة حدّ من حدود الله تعالى ! وإنما الشماتةُ كلّها من أعداء الإسلام فى تعطيل الحدود . وأىّ حَرَج فى الجمع بين قَتْل الإمام وابنه ، حتّى يقال : كُرِه أن ينتشر الخبرُ بأنّ الإمام وابنَه قُتلا ، وإنّما قُتِل أحدُهما ظلما ، والآخر عَدْلا ، أو أحدهما بغير أمرِ الله ، والآخر بأمره سبحانه!

وقد روى زياد بن عبد الله البَكّائىّ عن محمّد بن إسحاق عن أبان بن صالح أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام أتى عثمان ؛ بعد ما استخلف ، فكلّمه فى عُبيد الله ولم يكلّمْه أحدٌ غيره؛ فقال : اقتُلْ هذا الفاسقَ الخبيث الذى قتل أميرا مسلما ؛ فقال عثمان : قَتَلوا أباه بالأمس ، وأقتله اليوم ! وإنما هو رجلٌ من أهل الأرض ؛ فلما أَبَى عليه مَرّ عُبيد الله على علىّ عليه السلام ، فقال له : إيهِ يافاسق! أما والله لئن ظفرتُ بك يوماً من الدهر لأضرِبَنّ عنقَك؛ فلذلك خرج مع معاوية عليه .

وروى القنّاد ، عن الحسن بن عيسى بن زيد ، عن أبيه ، أنّ المسلمين لما قال عثمان: إنّى قد عفوتُ عن عبيد الله بن عمر ، قالوا : ليس لك أن تَعفوَ عنه ، قال : بلى إنه ليس لجُفينة والهُرْمُزان قرابة من أهل الإسلام ؛ وأنا ولىّ أمر المسلمين ، وأنا أولى بهما ، وقد عفوتُ ، فقال علىّ عليه السلام: إنه ليس كما تقول، إنما أنت فى أمرهما بمنزلة أقصى المسلمين؛ إنه قَتَلهما فى إمرة غيرك ، وقد حَكم الوالى الذى قُتِلا فى إمارته بقتله ؛ ولو كان قَتَلهما فى إمارتك لم يكن لك العفو عنه ، فاتق الله ؛ فإنّ الله سائلُك عن هذا ! فلما رأى عثمان أنّ المسلمين قد أبوْا إلا قتلَ عبيد الله ، أمره فارتحل إلى الكوفة ، وأقطعه بها دارا وأرضا ؛ وهى التى يقال لها : كُوَيْفة[1] ابن عمر ، فعظُم ذلك عند المسلمين وأكبروه ؛ وكثر كلامهم فيه .

---

(١) الكويفة ، ذكرها ياقوت ، فقال : « كويفة ابن عمر منسوبة إلى عبيد الله بن عمر بن الخطاب ؛ نزلها حين قتل بنت أبى لؤلؤة والهرمزان وجفينة العبادى » . معجم البلدان ٧ : ٣٠٤ .

ورُوِىَ عن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام أنه قال: ما أمسى عثمان يَوْمَ وَلّى حتى نقَمُوا عليه فى أمر عبيد الله بن عمر ؛ حيث لم يقتله بالُهرمزان.

فأما قوله : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يطلبه ليقتلَه ؛ بل ليضَعَ من قَدْره ؛ فهو بخلاف ما صرّح به عليه السلام من أنّه إن تمكّن لَيضرِبنّ عنقه .

وبعد ؛ فإن ولىّ الدم إذا عَفَا عنه على ماادَّعَوْا لم يكن لأحدٍ أن يستخفّ به ، ولا يضعَ من قدرِه كما ليس له أن يقتله .

وأما قوله: إن أمير المؤمنين عليه السلام لا يجوزُ أن يتوعّده مع عفو الإمام عنه؛ فإنما يكون صحيحاً لو كان ذلك العفو مؤثرا ؛ وقد بيّنا أنه غير مؤثر .

وأما قوله : يجوز أن يكون عليه السلام رأى أنّ قتله أقوى فى الاجتهاد، وأقربُ إلى التشدد فى دين الله ؛ فلا شكّ أنه كذلك ، وهذا بناء منه على أنّ كلّ مجتهد مصيب ؛ وقد بينا أنّ الأمر بخلاف ذلك ؛ وإذا كان اجتهاد أمير المؤمنين عليه السلام يقتضِى قتلَه ، فهو الذى لا يسوغُ خلافُه .

* * *

الطعن الحادى عشر

وهو إجمالىّ ؛ قالوا : وجدنا أحوالَ الصحابة دالّةً على تصديقهم المطاعِنَ فيه ، وبراءتهم منه ؛ والدليل على ذلك أنّهم تركوه بعد قتلِه ثلاثة أيام لم يدفنوه، ولا أنكروا على مَنْ أجلب عليه من أهل الأمصار ؛ بل أسلموه ولم يدفعوا عنه ؛ ولكنهم أعانوا عليه، ولم يمنعوا من حَصْره ولا من مَنْع الماء عنه ؛ ولا من قَتْلِه ، مع تمكّنهم من خلاف ذلك، وهذا من أقوى الدّلائل على ماقلْناه ؛ ولو لم يدلّ على أمره عندهم إلا ما روى عن علىّ عليه السلام أنه قال : الله قتله وأنا معه ، وأنّه كان فى أصحابه عليه السلام مَنْ يصرّح بأنّه قتل

عثمان ؛ ومع ذلك لا يُقيدهم بل ولا ينكر عليهم ، وكان أهلُ الشام يصرِّحون بأنّ مع أمير المؤمنين قتلةَ عثمان ، ويجعلون ذلك مِنْ أوكد الشّبه ، ولا ينكَر ذلك عليهم ؛ مع أنّا نعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لو أراد أن يتعاضَد هو وأصحابُه على المنع عنه لما وقع في حقّه ماوقع ؛ فصار كَفُّه وكفُّ غيره عن ذلك من أدلّ الدلائل على أنّهم صدّقوا عليه مانسب إليه من الأحداث ؛ وأنهم لم يقبلوا منه ماجعله عذرا .

وأجاب قاضى القضاة عن هذا ، فقال :

أما تركه بعد القتل ثلاثة أيام لم يدفن فليس بثابت ، ولو صحّ لكان طعنا على مَنْ لَزِمه القيامُ به ، وقد قال شيخنا أبو عَلِيّ رحمه الله تعالى : إنّه لا يمتنع أن يشتغلوا بإبرام البيعة لأمير المؤمنين عليه السلام خَوْفاً على الإسلام من الفتنة ، فيؤخروا دفنَه .

قال : وبعيدٌ مع حضورِ قريش وقبائل العرب وسائر بنى أمية ومواليهم أن يُترَكَ عثمان ولا يُدفَن هذه المدة ، وبعيدٌ أن يكونَ أمير المؤمنين عليه السلام لا يتقدّم بدفنه ، ولو مات فى جواره يهودىّ أو نصرانىّ ولم يكن له مَنْ يواريه ماتركه أمير المؤمنين ألّا يدفن ، فكيف يجوز مثل ذلك فى عُثْمان ؛ وقد رُوِىَ أنه دفن فى تلك الليلة ؛ وهذا هو الأولى .

فأمّا التعلّق بأنّ الصحابة لم تنكر على القوم ، ولا دفعتْ عنه ، فقد سبق القول فى ذلك ؛ والصحيحُ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه تبرّأ من قَتْلِ عثمان ، ولَعَن قَتَلته فى البرّ والبحر والسّهل والجبل ؛ وإنما كان يجرى من جيشه هذا القول منه على جهة المجاز ؛ لأنّا نعلمُ أنّ جميعَ مَنْ كان يقول : نحن قتلناه لم يقتُله ؛ لأن فى الخبر أنّ العدد الكثير كانوا يصرِّحُون بذلك ؛ والذين دخلوا عليه وقتلوه اثنان أو ثلاثة ؛ وإنما كانوا يقصدون بهذا القول ؛ أى احسبوا أنّا قتلناه فما لكم ! وذلك أنّ الإمام هو الذى يقوم بأمر القوَد ، وليس للخارج عليه أنْ يطالب بذلك ؛ ولم يكن لأمير المؤمنين عليه السلام أن يقتُلَ قَتَلَتَه لو عرَفهم ببيّنة أو إقرار ، وميّزهم من غيرهم إلا عندَ مطالبة ولّى الدم، والذين كانو أولياء

الدّم لم يكونوا يطالبونه ، ولا كانتْ صفتهم صفة مَنْ يطالب ؛ لأنهم كانوا كلّهم أو بعضهم يدّعون أنّ عليا عليه السلام ليس بإمام ، ولا يحلّ لولىّ الدم مع هذا الاعتقاد أنّ يطالب بالقَوَد ، فلذلك لم يقتلهم عليه السلام ؛ هذا لو صَحّ أنه كان يميّزهم ، فكيف وذلك غير صحيح .

فأما مارُوِىَ عنه من قوله عليه السلام : « قتله الله وأنا معه » ! فإنْ صحّ فمعناه مستقيم ؛ يريد أنّ الله أماته وسُيميتنى وسائر العباد .

ثم قال سائلا نفسه : كيف يقول ذلك وعثمان ماتَ مقتولا من جهة المكلّفين ! وأجاب بأنّه وإن قُتِل ، فالإماتة من قِبَل الله تعالى . ويجوز أنْ يكون ماناله من الجراح لا يوجِبُ انتفاء الحياة لا محالة ، فإذا مات صَحّت الإماتة على طريق الحقيقة .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام فقال .

أما تضعيفُه أن يكونَ عثمانُ تُرِكَ بعد القَتْل ثلاثة أيام لم يُدْفن ؛ فليس بحجّة ؛ لأنّ ذلك قد رَواه جماعةُ الرواة ، وليس يخالف فى مثله أحدٌ يعرَف بالرواية ؛ وقد ذكر ذلك الواقدىّ وغيره ؛ وروى أنّ أهل المدينة مَنَعُوا الصلاة عليه ، حتى حُمِل بين المغرب والعَتمة ، ولم يشهد جنازته غير مَرْوان وثلاثة من مواليه ، ولما أحسّوا بذلك رَمَوْه بالحجارة وذكروه بأسوأ الذّكْر ، ولم يقع التمكنُ من دَفْنه إلا بعد أن أنكر أمير المؤمنين عليه السلام المنع من دَفْنه ، وأمر أهله بتولّى ذلك منه .

فأما قوله : إنّ ذلك إن صحّ كان طعناً على مَنْ لزمه القيامُ بأمره ، فليس الأمرُ على ماظنه ، بل يكون طعنا على عثمان من حيث لا يجوز أن يمنَع أهل المدينة - وفيها وجوهُ الصحابة - من دَفْنه والصلاة عليه إلا لاعتقادٍ قبيح ؛ أو لأنّ أكثرَهم وجُمهورهم يعتقد ذلك ؛ وهذا طعن لا شُبْهَة فيه ؛ واستبعاد صاحب "المغنى" لذلك ؛ مع ظهور الرواية به

لا يُلتفت إليه ؛ فأما أميرُ المؤمنين عليه السلام واستبعاد صاحب " المغنى " منه ألّا يتقدم بدفنه ؛ فقد بيّنا أنّه تقدم بذلك بعد مماكسة ومراوضة. وأعجب من كلّ شيء قولُ صاحب " المغنى " : إنهم أخّروا دفنه تشاغلا بالبَيْعة لأمير المؤمنين عليه السلام ؛ وأيّ شُغْل فى البيعة لأمير المؤمنين يمنع من دَفْنه، والدفْن فرضٌ على الكفاية،لو قام به البعضُ وتشاغل الباقون بالبيْعة لجاز ! وليس الدّفْنُ ولا البيعة أيضا مفتقرة إلى تشاغل جميع أهل المدينة بها.

فأما قوله: إنّه قد رُوِىَ أنّ عثمان دُفِن تلك الليلة،فما تُعرَفُ هذه الرواية ؛ وقد كان يجب أن يُسندها وَيعْزُوَها إلى راويها،أو الكتاب الذى أخذها منه؛فالذى ظَهر فى الرواية هو ماذكرناه .

فأمّا إحالته على ماتقدّم فى معنى الإنكارِ من الصّحابة على القوم المجْلِبين على عثمان؛ فقد سبق القول فى ذلك .

فأما روايته عن أمير المؤمنين عليه السلام تبرؤه من قَتْل عثمان،ولعنَه قَتَلتَه فى البَرّ والبحر، والسهل والجبل؛فلا شكّ فى أنّه عليه السلام كان بريئاً من قَتْله،وقد روى عنه عليه السلام أنه قال:والله ماقتلتُ عثمان،ولا مالأت فى قتله ؛ والمالأة هى المعاونة والموازرة، وقد صدق عليه السلام فى أنّه ماقَتَل ولا وَازر على القتل .

فأما لعنهُ قَتَلَته[1] فضعيف فى الرواية،وإن كان قد رُوِى؛فأظهر منه مارواه الواقدىّ، عن الحكَم بن الصَّلْت ، عن محمد بن عمار بن ياسر ، عن أبيه ، قال : رأيتُ عليًا عليه السلام على مِنْبر رسول الله صلى الله عليه وآله حِينَ قُتِل ، وهو يقول : ما أحببتُ قَتله ولا كرهتُه ، ولا أمرت به ، ولا نهيْت عنه .

وقد روى محمد بن سعد،عن عَفّان بن جرير بن بشير ، عن أبى جَلْدة ، أنّه سمع عليًّا

(١) ا ، ج : « قتلة عثمان » .

عليه السلام، يقول وهو يخطب ، فذكر عثمان ، وقال : والله الذى لا إله إلا هو ؛ ماقتلتُه ولا مالأتُ على قتله ولا ساءنى [1] .

وروى ابن بشير ، عن عُبيدة السلمانىّ ، قال : سمعت عليًّا عليه السلام يقول : مَنْ كان سائلى عن دم عثمان ؛ فإنّ الله قتَله وأنا معه . وقد رُوِىَ هذا اللفظ من طرُق كثيرة .

وقد روى شعبة عن أبى حمزة الضّبعىّ ، قال : قلتُ لابن عباس : إنّ أبى أخبرنى أنه سمع عليًّا ، يقول : ألَا مَنْ كان سائلى عن دم عثمان ، فإنّ الله قتله وأنا معه — فقال : صدق أبوك ؛ هل تَدرى ما معنى قوله ! إنما عَنَى : الله قتله وأنا مع الله .

قال : فإن قيل : كيف يصحّ الجمع بين معانى هذه الأخبار ؟

قلنا : لا تنافىَ بينها ، لأنه عليه السلام تبرّأ من مباشرة قتله والمؤازرة عليه ، ثم قال : ما أمرتُ بذلك ولا نهيتُ عنه ؛ يريد أنّ قاتِليه لم يرجِعُوا إلىّ ، ولم يكن منّى قول فى ذلك بأمر ولا نهى . فأما قوله : « الله قتله وأنا معه » ، فيجوز أن يكون المراد به : الله حَكَم بقتله وأوجبه وأنا كذلك ؛ لأنّ من المعلوم أنّ الله تعالى لم يقتله على الحقيقة ، فإضافةُ القتل إليه لا تكون إلا بمعنى الحُكم والرّضا ؛ وليس يمتنع أنْ يكونَ مِمّا حكم الله تعالى به ، مالم يتولّه بنفسه ، ولا آزر عليه ، ولا شايع فيه .

فإن قال قائل : هذا ينافِى مارُوِى عنه من قوله : « ما أحببت قتلَه ، ولا كرهتُه » ، وكيف يكون مِنْ حُكم الله وحكمه أن يُقتل وهو لا يحبّ قتْله !

قلنا : يجوز أن يريد بقوله : «ما أحببت قتله ولا كرهته» أنّ ذلك لم يكن منّى على سبيل التفصيل، ولا خطر لى ببال؛ وإن كان على سبيل الجملة يحبّ قتل مَنْ غلب المسلمين

---

(١) كذا فى ا ، ج ، والشافى ، وفى ب : « ولا سأل » .

على أمورهم، وطالبوه بأن يعتزل، لأنه (١ مستَوْلٍ عليهم بغير حقّ ١) فامتنع من ذلك، ويكون فائدة هذا الكلام التبرؤ من مباشرة قتله، والأمر به على سبيل التفصيل أو النهى عنه. ويجوز أنْ يريد أنّنى ما أحببتُ قتله؛ إن كانوا تعمّدوا القتل؛ ولم يقع على سبيل الممانعة وهو غير مقصود. ويريد بقوله: «ما كرهتُه» أنّى لم أكرهه على كل حال، ومن كلّ وجه.

فأما لعنه قتَلَتَه فقد بيّنّا أنّه ليس بظاهر ظهور ماذكرناه؛ وإن صحّ فهو مشروط بوقوع القتل على الوجه المحظور من تعمّدٍ له، وقصدٍ إليه وغير ذلك؛ على أن المتولّىَ للقتل على ماصحّت به الرواية كنانة بن بَشير التُّجيبيّ، وسُودان بن حمران المرادىّ؛ وما منهما مَنْ كان غرضُه صحيحا فى القتل، ولا له أن يقدم عليه، فهو ملعون به. فأما محمدُ بن أبى بكر؛ فما تولى قَتْله؛ وإنما رُوِى أنّه لما جَثَا بين يديه قابضا على لحيته، قال له: ياابن أخى؛ دَعْ لحيتى؛ فإن أباكَ لو كان حَيًّا لم يقعدُ منى هذا المَقعد؛ فقال محمد: إن أبى لو كان حيًّا ثم يراك تفعل ماتفعل لأنكره عليك، ثم وجأه(٢) بجماعة قِدَاح كانت فى يده فحَزّت فى جِلده ولم تَقْطَع، وبادره مَنْ ذكرناه فى قتله بما كان فيه قتلُه.

فأما تأويله قول أمير المؤمنين عليه السلام: «قتلَه الله وأنا معه»؛ على أنّ المراد به؛ الله أماته وسَيُميتنى؛ فبعيد من الصواب، لأن لفظة «أنا» لا تكونُ كناية عن المفعول، وإنما تكون كناية عن الفاعل؛ ولو أراد ماذكره لكان يقول: «وإياى معه»؛ وليس له أن يقول: إنّنا نجعل قوله: «وأنا معه» مبتدأ محذوف الخبر، ويكون تقدير الكلام: «وأنا معه مقتول»؛ وذلك لأنّ هذا تركٌ للظاهر وإحالة على ماليس فيه؛ والكلام إذا أمكن حملُه على معنى يستقلّ ظاهرُه به من غير تقدير وحذف كان أَوْلَى مما يتعلّق بمحذوف؛ على أنّهم إذا جعلوه مبتدأ وقدّروا خبراً لم يكونوا بأنْ يقدِّرُوا مايوافق مذهبَهم بأَوْلى من تقدير خلافه، ويجعل بدلا من لفظة «المقتول» المحذوفة لفظة «مُعين» أو «ظهير».

(١ ـ ١) ب: «لأنه مستول عليه بحق» وما أثبته من ا، ج وكتاب الشافى.
(٢) وجأه: ضربه.

وإذا تكافأ القولان فى التقدير وتعارضا سَقَطا،ووجب الرجوع إلى ظاهر الخبر ؛ على أنّ عثمان مضى مقتولا ، فكيف يقال : إنّ الله تعالى أماتَه ، والقتل كافٍ فى انتفاء الحياة ؛ وليس يحتاج معه إلى نافٍ للحياة يسمى موتا .

وقول صاحب "المغنى" : يجوز أن يكون مانالَه من الجراح لا يوجب انتفاء الحياة ؛ ليس بشىء ؛ لأنّ المروىّ أنه ضُرِب على رأسه بعمود عظيم من حديد ، وأنّ أحدَ قَتَلته قال : جلست على صدره فوجأته تسع طعنات،علمت أنه مات فى ثلاث ، ووجأته السِّتّ الأُخَر لما كان فى نفسى عليه من الحَنَق .

وبعد : فإذا كان جائزا ، فمن أين عَلِمَه أميرالمؤمنين عليه السلام حتى يقول : إن الله أماته؟وإنّ الحياة لم تَنْتَفِ بمافعله القاتلون[1]،وإنما انتفت بشىء زاد على فعلهم من قِبَل الله تعالى مِمّا[2] لا يعلمه على سبيل التفصيل إلّا علّامُ الغُيوب سبحانه .

***

والجوابُ عن هذه المطاعن على وجهين ؛ إجمالًا وتفصيلا :

أما الوجه الإجمالىّ ، فهو أننا لا نُنكر أنّ عثمان أحْدَث أحداثا أنكرَها كثيرٌ من المسلمين ، ولكنّا ندّعى مع ذلك أنّها لم تبلغْ درجة الفِسْق ، ولا أحبطَتْ ثوابَه ، وأنّها من الصغائر التى وقعت مكفَّرة[3] ؛ وذلك لأنّا قد علمنا أنه مغفور له ، وأنه مِنْ أهل الجنة لثلاثة أوجه :

أحدُها : أنّه من أهل بَدْر ،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ الله اطّلع على أهل بَدْر ، فقال : اعملوا ماشئتم ، فقد غفرت لكم » ؛ ولا يقال : إن عثمانَ لم يشهَدْ بدْراً ؛ لأنا نقول : صدقتم ، إنه لم يشهدْها ، ولكنه تخلّف على رُقَيّة ابنة رسول الله

(١) الشاق : « القتلة » ، وفى ب : « القائلون » تحريف .
(٢) كذا فى ا ، ح والشاق ، وفى ب : « فيما » .
(٣) الصغائر المكفرة : التى يمحى إثمها .

صلى الله عليه وآله بالمدينة لمرضها،وضرب له رسول الله صلى الله عليه وآله بسَهْمِه وأجْرِه باتفاق سائر الناس .

وثانيها : أنه من أهل بَيْعة الرضوان الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ (١) . ولا يقال : إنه لم يشهد البَيْعة تحت الشجرة ، لأنّا نقول : صدقتم ، إنه لم يشهدها،ولكنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسَله إلى أهل مكة ، ولأجله كانت بيعةُ الرضوان ، حيث أُرْجِفَ (٢) بأن قريشا قتلتْ عثمان،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «إن كانوا قَتَلُوه؛لأضرِمَنّها عليهم نارا» ؛ ثم جلس تحت الشجرة ، وبايع الناسَ على الموت ، ثم قال : « إن كان عثمان حيا فأنا أبايع عنه »،فصفح بشماله على يمينه ، وقال:«شمالى خير من يمين عثمان».روى ذلك جميعُ أرباب أهل السيرة متفقا عليه .

وثالثها : أنه من جملة العشرة الذين تظاهرت الأخبار بأنهم من أهل الجنّة .

وإذا كانت الوجوهُ الثلاثة دالةً على أنه مغفور له،وأنّ الله تعالى قد رَضِيَ عنه؛وهو من أهل الجنّة،بطل أن يكونَ فاسقا؛لأن الفاسق يخرُج عندنا من الإيمان ، ويُحْبَط (٣) ثوابه، ويُحْكم له بالنار ولا يُغفر له ، ولا يُرضَى عنه ، ولا يرَى الجنة ولا يدخلها ، فاقتضت هذه الوجوه الصحيحة الثابتة أنْ يُحْكَم بأنّ كلّ ماوقع منه فهو من باب الصّغائر المكفَّرة ، توفيقاً بين هذه الوجوه ، وبين روايات الأحداث المذكورة .

وأما الوجه التفصيليّ فهو مذكور فى كتب أصحابنا المطوّلة فى الإمامة ؛ فلْيُطْلَبْ من مَظانّه ، فإنهم قد استقصَوْا فى الجواب عن هذه المطاعن استقصاء لامزيد عليه .

---

(١) سورة الفتح ١٨

(٢) يقال : أرجف القوم ؛ إذا خاضوا فى الأخبار السيئة وذكر الفتن على أن يوقعوا الناس فى الاضطراب.

(٣) ب ، ج : « ينحبط » وما أثبته عن ا .

[بيعة جرير بن عبد الله البَجَلِيّ لعليّ]

فأما خبر جرير بن عبد الله البَجَلِيّ، وبعث أمير المؤمنين عليه السلام إياه إلى معاوية، فنحن نذكره نقلا من "كتاب صِفّين" لنصر بن مُزاحم بن بَشّار المِنْقَرِيّ ؛ ونذكر حالَ أميرِ المؤمنين عليه السلام ، منذ قَدِم الكوفة بعد وقعة الجمل ، ومراسلته معاوية وغيره ، ومراسلة معاوية له ولغيره، وما كان من ذلك في مبدأ حالتهما إلى أن سار عليٌّ عليه السلام إلى صفين .

قال نصر[1]: حدّثني محمد بن عُبيدالله عن الجرجانيّ ، قال : لما قَدِم عليّ عليه السلام الكوفة بعد انقضاء أمْرِ الجمل ، كاتَبَ العمّال ، فكتب إلى جرير بن عبدالله البَجَليّ مع زَحْر بن قيس الجُعْفيّ – وكان جرير عاملا لعثمان على ثغر هَمَذان – [2] :

أما بعد ، فـ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ [3] . وإني أخبرك عن نبإ [4] مَنْ سرنا إليه من جُموع طلحة والزبير ، عند نَكْثِهم بيعتي [5] ، وماصنعوا بعاملي عثمان ابن حُنَيْف . إني نهضت من المدينة بالمهاجرين والأنصار ؛ حتى إذا كنت بالعُذَيْب [6] ، بعثتُ إلى أهل الكوفة الحسنَ بن عليّ ، وعبدَ الله بن عباس ، وعَمّار بن ياسر ، وقيس ابن عبادة ، فاستنفرتُهم فأجابوا ، فسِرْت بهم حتى نزلت بظهر البصرة ، فأعذرت في

---

(١) وقعة صفين للمنقري ص ١٩ وما بعدها .
(٢) همذان ؛ بالإعجام : مدينة ببلاد الجبال من فارس .
(٣) سورة الرعد ١١ .
(٤) ب : « أنباء » .
(٥) كتاب صفين : « بيعتهم » .
(٦) العذيب : ماء عن يمين القادسية لبني تميم ، بينه وبين القادسية أربعة أميال (مراصد الاطلاع) .

الدعاء ، وأقلّتُ العَثْرة ، وناشدتهم عَهْدَ[1] بيعتهم ؛ فأبوْا إلا قتالى ، فاستعنتُ الله عليهم ، فقتِل مَنْ قتل ، وولّوا مدبرين إلى مصرهم ، وسألونى ما كنتُ دعوتهم إليه قبل اللقاء ، فقبلت العافية ، ورفعتُ السيف ، واستعملت عليهم عبدَ الله بن العباس ، وسرتُ إلى الكوفة ؛ وقد بعثت إليك زَحْر بن قيس ، فاسأله عمّا بدا لك . والسلام .

قال : فلما قرأ جريرٌ الكتاب ، قام فقال : أيها الناس ، هذا كتاب أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السّلام ؛ وهو المأمون على الدّين والدنيا ، وقد كان من أمْره وأمر عدوّه ما نَحْمَدُ الله عليه ، وقد بايعه الناس الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، ولو جُعِل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقّهم بها . ألَا وإنّ البقاء فى الجماعة ، والفَناء فى الفُرقة ، وإنّ عليّا حاملُكم على الحق ما استقمتم ؛ فإنْ ملتم أقام ميْلَكم .

فقال الناس : سمعا وطاعة ، رضينا رضينا .

فكتب جرير إلى علىّ عليه السلام جواب كتابه بالطاعة .

***

قال نصر : وكان[2] مع علىّ رجل من طيىء ، ابن أخت لجرير ، فحمّل زَحر بن قيس شعراً له إلى خاله جرير ؛ وهو :

جَريرَ بن عبدِ الله لا تردُدِ الهدَى ... وبايع عليّا إننى لك ناصِحُ
فإنّ عليّا خيرُ مَنْ وطِئ الحصا ... سوى أحمدٍ ، والموت غادٍ ورائحُ
وَدَعْ عنك قولَ النّاكثين فإنما ... أولاك ـ أبا عَمْرو ـ كلابٌ نوابح[3]
وبايعْ إذا بايعتَه بنصيحةٍ ... وَلَا يَكُ مِنْها فى ضَميرك قَادِحُ
فإنك إنْ تطلُبْ بها الدين تُعْطَهُ ... وإن تطلب الدنيا فإنك رَابح[4]

(١) صفين « عقد » .
(٢) صفين : ٢٠ ، ٢١ .
(٢) أبو عمرو ، كنية جرير بن عبد الله البجلى .
(٣) وقعة صفين : « فبيعك رابح » .

وإن قلتَ عثمان بن عفان حقُّــــه　　على عظيمٌ والشَّكُورُ مُناصِــحُ
فحقٌّ عليّ إذ وَليــــكَ كَحَقِّهِ　　وشكرك ما أوليتَ فى النَّاسِ صالحُ
وإن قلت لا أرضى عليًّا إمَامَنــا　　فدعْ عنك بحراً ضلَّ فيه السوابحُ
أبى الله إلا أنهُ خـــــيرُ دَهْرِه　　وأفضل مَنْ ضُمّتْ عَلَيْهِ الأباطحُ(١)

* * *

قال نصر : ثم إن جريراً قام فى أهل هَمَذان خطيبا ، فقال : الحمد لله الذى اختار لنفسه الحمد ، وتولّاه دون خَلْقه ؛ لا شريكَ له فى الحمد ، ولا نظير له فى الجَدْ ، ولا إله إلا الله وَحْدَه ، الدائم القائم ، إله السماء والأرض ؛ وأشهدُ أنّ محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالنور الواضح ، والحق الناطق ؛ داعياً إلى الخير ، وقائدا إلى الهُدَى ، ثم قال : أيّها الناس ؛ إنّ عليا قد كتبَ إليكم كتابا لا يقال بعده إلا رجيعٌ من القول ، ولكنْ لا بدّ من ردّ الكلام . إن الناس بايعوا عليا بالمدينة عَنْ غيرِ محاباة له ببيْعتهم ؛ لعلمه بكتاب الله وسنن الحق ؛ وإنّ طلحة والزُّبيرَ نقضا بيعتَه على غير محاباة حدثتْ(٢) ، وألّبا عليه الناس ، ثم لم يرضَيا حتى نَصَبا له الحرب ، وأخرجا أمّ المؤمنين ، فلقيَهما فأعذر فى الدعاء ، وأحسن فى البقيّة ، وحَمَل الناس على ما يعرفون ، فهذا عِيان ما غاب عنكم ؛ وإن سألتم الزيادة زدناكم ، ولا قوة إلا بالله ، ثم قال :

أَتَانا كِتَابُ عَــلِيّ فَلَمْ　　نَرُدَّ الكتاب بأرْضِ العَجَمْ
وَلَمْ نَعْصِ ما فيهِ لمّا أَتى　　وَلَمّـــا نُذَمَّ وَلَمّا نُلَمْ
وَنَحْنُ ولاةٌ علىٰ ثَغْرِنَا　　نَضِيمُ العزيزَ ونَحْمِي الذِّمَمْ
نُسَاقِيهِمُ الموتَ عِنْدَ اللقاء　　بكأسِ المنايا ونَشْفِي القَرَمْ

---

(١) يريد بهم قريش البطاح ؛ وهم الذين ينزلون بين أخشبي مكة ؛ والأخشبان جبلان بها .
(٢) ب : « على غير حدث » .

فصلّى الإلهُ على أحمــدٍ رسول المليك تمام النِّعَم(١)
رسول المليك ومن بعــده خليفتنا القــائم المدَّعَمْ
عَليًّا عنيتُ وصىَّ النبىِّ نُجالدُ عنه غُواةَ الأُمَمْ
له الفَضْلُ والسَّبْقُ والمكرُماتُ وبيت النبوَّة لا يُهْتَضَمْ

قال نصر : فسرّ الناسُ بخطبة جرير وشعره .

وقال ابن الأزور القَسْرىّ فى جرير يمدحه بذلك :

لَعَمْرُ أبيكَ والأنبــاء تَنْمِى لَقَدْ جَــلّى بخطبتِهِ جَرِيرُ
وَقَالَ مقــالةً جَدَعَتْ رِجَالاً من الحَيَّــيْنِ خطبهمُ كَبِيرُ
بدا بك قبــل أمته علىٌّ وَمُخُّكَ إِنْ رَدَدْتَ الحقَّ رِيرُ(٢)
أتاك بأمره زَحْر بن قَيْس وزَحْرٌ بالتى حَدَثَتْ خَبِــيرُ
فكنتَ لما أتاك به سميعاً وكدت إليه من فَرَحٍ تطــيرُ
فأنت بمــا سعدتَ به ولىّ وأنت لمــا تعدّ له نصيرُ
وأحرزتَ الثَّواب ورُبَّ حادٍ حَدَا بالركب ليس له بعيرُ(٣)

[بيعة الأشعث لعلىّ]

قال نصر:(٤) وكتب علىّ عليه السلام إلى الأشعث — وكان عامل عثمان على أذرَبيجان —

(١) لم يذكر هذا البيت فى كتاب صفين ، وذكر موضعه :

طَحَنَاهمُ طَحْنَــةً بالقَنَا وَضَرْبِ سُيوفٍ تُطيرُ اللِّمَمْ
مَضَيْنَا يقيناً على ديننــا ودينِ النبىِّ مُجَلِّى الظُّلَمْ
أمينِ الإلهِ وَبُرْهَانِهِ خليفتِنَا القــائمِ المدَّعَمْ

(٢) يقال : مخ رير ؛ إذا كان فاسدا .

(٣) بعده فى كتاب صفين :

ليَهْنِكَ ما سَبَقْتَ بِهِ رِجالاً من العلياء والفضلِ الكبيرِ

(٤) وقعة صفين ٢٤ .

يدعُوه إلى البَيْعة والطاعة ، وكتَب جرير بن عبد الله البجلىّ إلى الأشعث ، ، يحضّه على طاعة أمير المؤمنين عليه السلام ، وقبولِ كتابه : أما بَعْـد ؛ فإنى أتتْنِي بَيْعة علىّ ، فقبلتُها ولم أجِدْ إلى دفعها سبيلا ؛ لأنى نظرتُ فيما غابَ عَنِّى من أمر عثمان، فلم أجدْه يلزمنى، وقد شهد المهاجرون والأنصار ؛ فكان أوفقُ أمرهم فيه الوقوف ؛ فاقْبَلْ بيعَته ؛ فإنك لاتنقلِب إلى خير منه ؛ واعلم أنّ بيعةَ علىّ خيرٌ من مَصَارع أهل البصرة . والسلام .

قال نصر : فقبل الأشعثُ البيعة ، وسمِـع وأطاع ، وأقبل جريرٌ سائرا من ثَغْر هَمَذان حتى وَرَد علىٌّ عليه السلام الـكوفة فبايعه ، ودخل فيما دخل فيه الناس من[1] طاعته ولزوم أمره .

[دعوة علىّ معاويةَ إلى البيعة والطاعة ، وردّ معاويةعليه]

قال نصر :[2] فلما أرادَ علىّ عليه السلام أن يبعث إلى معاوية رسولاً ، قال له جرير : ابعثنى يا أمير المؤمنين إليه ؛ فإنه لم يَزَلْ لى مُسْتخِصا[3] ووُدًّا[4] ، آتيه[5] فأدعوه ؛ على أنْ يسلّم لك هذا الأمر ، ويجامعك على الحق ، على أن يكون أميرا من أمرائك ، وعاملا من عُمّالك ، ما عمِل بطاعة الله ، واتبع ما فى كتاب الله ، وأدعُو أهلَ الشام إلى طاعتك وولايتك ؛ فجُلّهم قومى وأهلُ بلادى ، وقد رجوت ألاّ يعصونى .

فقال له الأشتر : لاتبعثْه ولاتصدّقه ؛ فوالله إنى لأظنّ هواهُ هواهم ، ونيّته نيّتهم .

فقال له علىّ عليه السلام : دعْه حتى ننظر مايرجع به إلينا . فبعثه على عليه السلام ، وقال له عليه السلام حين أراد أن يبعثه : إنّ حولى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم من أهل الرأى والدِّين مَنْ قد رأيت ، وقد اخترتُك عليهم لقولِ رسول الله فيك :

---

(١) ب : « ق » .

(٢) وقعة صفين للمنقرى ٣٢ وما بعدها .

(٣) كذا فى الأصول ، وفى صفين . « مستنصحاً » .

(٤) ودا ، بضم الواو ؛ أى ذا ود ؛ على حذف المضاف .

(٥) كتاب صفين . « نأتيه » .

« إنّك من خير ذى يَمَن »(١) ، ائت معاوية بكتابى ، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون ، وإلا فانْبِذْ(٢) إليه وأعلِمْه أنّى لا أرضى به أميرا ، وأنّ العامّة لا ترضى به خليفة .

فانطلق جرير حتى أتى الشامَ ، ونزل بمعاوية ، فلما دخل عليه حَمِد الله وأثنى عليه ، وقال : أمّا بعد يامعاوية ، فإنه قداجتمع لابن عمّك أهلُ الحرَمين ، وأهلُ المِصْرين، وأهل الحجاز ، وأهل اليمن ، وأهل مِصر ، وأهل العَروض ، والعَروض عُمَان ـ وأهلُ البحرين واليمامة ؛ فلم يبق إلّا هذه الحصون التى أنت فيها ، لو سال عليها سيل من أوديته غرّقها ، وقد أتيتُك أدعوك إلى مايرشدُك ويهديك إلى مبايعة هذا الرجل . ودفع إليه كتابَ على عليه السلام ، وفيه :

أما بعدُ ؛ فإنّ بيعتى بالمدينة لزمتْك وأنت بالشام ، لأنّه بايعنى القومُ الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، على مابُويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولاللغائب أن يَرُدّ ؛ وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، إذا اجتمعوا عَلَى رجل فسمّوْه(٣) إماما، كان ذلك لله رضًا ؛ فإن خرج من أمرهم خارج بطعنٍ أو رغبة ردّوه إلى ماخرج منه ، فإن أَبَى قاتلوه على اتّباع سبيل المؤمنين ، وولّاه اللهماتولّى ، ويُصليه جهنّم وساءت مصيرا . وإنّ طلحةَ والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتى ، فكان نقضُهما كردّتهما ، فجاهدتُهما على ذلك، حتى جاء الحقّ ، وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخُلْ فيما دخل فيه المسلمون ، فإنّ أحبّ الأمور إلىّ فيك العافية ، إلا أن تتعرّض للبلاء ، فإن تعرّضت له قاتلتُك ، واستعنت بالله عليك. وقد أكثرتَ فى قَتَلةِ عثمان ، فادخُل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكِم القومَ إلىّ أحملك

---

(١) أى من خير أهل اليمن .

(٢) فانبذ إليه ؛ فى اللسان : « المنابذة : أن يكون بين فريقين مختلفين عهد وهدنة بعد القتال ؛ ثم أرادا نقض ذلك العهد ، فينبذ كل فريق منهما إلى صاحبه العهد الذى تهادنا عليه ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ .

(٣) ب : « وسموه » .

وإياهم على كتاب الله ؛ فأمّا تلك التى تُريدها نُخدْعة الصبىّ عن اللبن . ولَعمرى لئن نظرت بعقلك دون هواك ، لتجدنّى أبرأ قريش من دم عثمان . واعلم أنك من الطُّلَقاء[1] الذين لا يحلّ لهم الخلافة ، ولا تعرَض فيهم الشورى . وقد أرسلتُ إليك [وإلى من قِبَلك][2] جرير بن عبد الله البَجَلىّ ، وهو من أهل الإيمان والهِجْرة ، فبايع ، ولا قوة إلا بالله .

* * *

فلما قرأ الكتاب ، قام جرير فخطب ، فقال :

الحمد لله المحمود بالعوائد ، والمأمول منه الزوائد ، المرتجَى منه الثواب ، المستعان على النوائب ؛ أحمَده وأستعينهُ فى الأمور التى تحيّرُ دونها الألباب ، [وتضمحلّ عندها الأسباب][2] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كلّ شىء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترُجعون . وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله ، أرسلَه بعد فَتْرَةٍ من الرّسل الماضية ، والقرون الخالية ، [والأبدان البالية ، والجِبِلّة الطاغية][2] ، فبلّغ الرسالة ، ونصَح للأمة ، وأدّى الحق الذى استودعه الله ، وأمره بأدائه إلى أمته صلى الله عليه وسلّم ، من رسول ومبتَعث ومنتجَب[3] .

أيّها الناس ؛ إنّ أمرَ عثمان قد أعيا مَنْ شهده ، فكيف بمن غاب عنه ! وإنّ الناسَ بايعوا عليًّا غير واترٍ ولا موتور ؛ وكان طلحة والزبير ممّن بايعاه ثم نكثا بيعتَه على غير حَدَث ، ألا وإنّ هذا الدين لا يحتمل الفِتَن ؛ [ألا وإن العرب لا تحتمل الفتن][2] ، وقد كانتْ بالبصرة أمس روعة ملحمة إن يَشْفَع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس .

---

(١) الطلقاء : جمع طليق ؛ وهم الأسارى الذين أطلقهم الرسول عليه السلام يوم فتح مكة ولم يسترقهم .
(٢) تكملة من كتاب صفين .
(٣) المنتجب : المصطفى المختار .

وقد بايعت الأمة[1] عليًّا ، ولو ملّـكنا والله الأمور[2] ، لم نختر لها غيره [ومن خالف هذا استعتب][3] فادخل يامعاوية فيما دخل فيه الناس .

فإن قلت : استعملني عثمان ثم لم يعزلني ؛ فإن هذا قول لو جاز لم يقمْ لله دين ، وكان لـكل امرئ ما في يديه ؛ ولـكنّ الله جعل للآخر من الولاة حقّ الأول ، وجعل الأمورَ موطأة ينسخُ بعضُها بعضا .

ثم قعد .

* * *

قال نصر : فقال معاوية : أنظر وتنظر ؛ وأستطلع رأيَ أهل الشام .

فمضت أيام ، وأمرَ معاوية مناديا ينادى : الصلاة جامعة ! فلما اجتمع الناس صَعِد المنبر ، ثم قال :

الحمد لله الذى جعل الدعائم للإسلام أركانا ، والشرائع للإيمان برهانا ، يتوقّد قَبَسُه فى الأرض المقدّسة ؛ جعلها الله محلّ الأنبياء والصالحين من عباده ؛ فأحلّهم أرضَ الشام[4] ، ورضِيَهم لهـا ، ورضيهـا لهم ؛ لما سبق فى مكنون علمه مِنْ طاعتهم ومناصحتهم خلفاءه ، والقُوّام بأمره ، والذّابِّين عن دينه وحرُماته ، ثم جعلهم لهذه الأمة نظاما ، وفى سبيل الخيرات أعلاما ، يردع الله بهم الناكثين ، ويجمع بهم أُلفة المؤمنين ، والله نستعين على ماتشعّب من أمر المسلمين بعد الالتئام ، وتباعد بعد القرب . اللهم انصرْنا على أقوامٍ يوقظون نائمَنا ، ويُخيفون آمننا ، ويريدُون إراقة[5] دمائنا ، وإخافة سُبُلنا . وقد علم الله أنا لا نريد لهم[6] عِقابا ، ولا نهتِك لهم حجابا ، ولا نوطئهم زلَقا ، غير أنّ الله الحميد كسانا

---

(١) صفين : « العامة » .

(٢) صفين : « أمورنا » .

(٣) من صفين .

(٤) صفين : « فأحلها أهل الشام » .

(٥) صفين : « هراقة دمائنا » ، وهما بمعنى .

(٦) صفين : « لم نرد بهم عقابا » .

من الكرامة ثوْبا لن ننزِعه طوْعاً ؛ ما جاوَب الصَّدَى ، وسقَط الندى ،وعرِف الهدَى؛ حملهم على ذلك البغىُ والحسد ، فنستعين الله عليهم . أيها الناس ، قد علمتم أنى خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان عليكم ،وأنّى لم أقم رجلا منكم على خزاية[1] قطّ ، وأنى ولىُّ عثمان ، وقد قُتل مظلوما ، والله تعالى يقول :﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ﴾[2] ، وأنا أحبّ أن تُعلمونى ذاتَ أنفسكم فى قتل عثمان .

فقام أهل الشام بأجمعهم ، فأجابوا إلى الطلب بدم عثمان ، وبايعوه على ذلك،وأوثقوا له على أن يبذُلوا بين يديْه أموالهم وأنفسهم ؛ حتى يدركوا بثأره أو تلتحق أرواحهم بالله .

قال نصر : فلما أمسى معاوية اغتمّ بما هو فيه ، وجنّه الليل وعنده أهل بيته ، فقال :

تطَاوَلَ ليْلى واعْترَتْنِى وَسَاوِسِى ... لِآتٍ أتَى بالتُّرَّهاتِ الْبَسَابِسِ[3]
أتانى جريرٌ والحوادث جَمّةٌ ... بتلك التى فيها اجتداعُ المعاطسِ
أكايدُه والسيف بينى وبينَه ... ولست لأثوابِ الدنىْ بلَابِسِ
إنِ الشّامُ أعطتْ طاعةً يمنيّةً ... تَوَاصَفَهَا أشْيَاخُها فى الْمجَالِسِ
فإنْ يَفعلوا أصْدِمْ عليا بجبْهَةٍ ... تفتُّ عليه كلّ رطب ويابس
وإنى لأرجو خير مانال نائلٌ ... وما أنا مِنْ مُلْكِ العراق بآيس[4]

قلت : الجبهة هاهنا : الخيل ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله : « ليس فى الجبْهة صَدَقة » ، أى زكاة .

***

(١) أقامهم على الخزاية ؛ أى حملهم على أمر يستحيا منه .
(٢) سورة الإسراء ٣٣ .
(٣) البسابس : الأمور الباطلة . والأبيات والخبر فى الكامل ١ : ٣٢٦ .
(٤) الكامل : « بيائس » .

قال نصر : فاستحثّه[1] جرير بالبَيْعة ، فقال : يا جرير ؛ إنها ليست بخِلْسة ، وإنه أمر له ما بعده ؛ فأبلِغْني ريقي [حتى أنظر][2] ، ودعا ثقاته[3] ؛ فأشار عليه أخوه بعمرو ابن العاص ، وقال له : إنه مَنْ قد عرفتَ ، وقد اعتزل عثمانَ في حياته ؛ وهو لأمرك أشدّ اعتزالا إلا أن يثمّن له دينَه[3] .

وقد ذكرنا فيما تقدّم خبر استدعائه عمراً ، وما شَرَط له من ولاية مصر ، واستقدامِه شُرَحبيل بن السِّمط رئيس اليمنيّة وشيخها والمقدّم عليها ، وتدسيس الرجال إليه يُغرونه بعليّ عليه السلام ، ويشهدون عنده أنّه قتل عثمان ، حتى ملئوا صدرَه وقلبه حقْداً وَتِرَةً وإحْنة عَلَى عليّ عليه السلام وأصحابه بما لا حاجة إلى إعادته[4] .

* * *

قال نصر : فحدّثني محمد بن عُبيد الله عن الجرجانيّ ، قال :

[5] جاء شُرَحْبيل إلى حُصَين بن نُمير ، فقال : ابعث إلى جرير فليأتنا ، فبعث حُصين ابن نمير إلى جرير : أن زُرْنا فعندنا شُرحبيل ، فاجتمعا عند حصين ، فتكلّم شرحبيل ،

---

(١) وقعة صفين ٤٩ ٢

(٢) من كتاب وقعة صفين

(٣ — ٣)وقعة صفين : « فقال له عتبة بن أبي سفيان — وكان نظيره — :اجتمعن على هذا الأمر بعمرو ابن العاص ، وأثمن له بدينه ؛ فإنه من قد عرفت ، وقد اعتزل أمر عثمان في حياته ؛ وهو لأمرك أشد اعتزالا إلا أن يرى فرصة » .

(٤) الجزء الثاني في ص ٦١ وما بعدها .

(٥) صدر هــذا الخبر كما ورد في كتاب وقعة صفين ٥٢ : « لما قدم شرحبيل على معاوية تلقاه الناس فأعظموه ، ودخل على معاوية ؛ فتكلم معاوية فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ياشرحبيل ، إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة علي ، وعلي خير الناس لولا أنه قتل عثمان بن عفان ، وقد حبست نفسي عليك ؛ وإنما أنا رجل من أهل الشام ، أرضى مارضوا ، وأكره ما كرهوا ؛ فقال شرحبيل : أخرج فأنظر ؛ فخرج فلقيه هؤلاء النفر الموطئون له ؛ فكلهم يخبره بأن عليا قتل عثمان بن عفان . فخرج مغضبا إلى معاوية فقال : يامعاوية ؛ أبى الناس إلا أن عليا قتل عثمان ؛ ووالله لئن بايعت لنخرجنك من الشام أو لنقتلنك . قال معاوية :ما كنت لأخالف عليكم ؛ وما أنا إلا رجل أهل الشام . قال : فرد هذا الرجل إلى صاحبه إذا قال ، فعرف معاوية أن شرحبيل قد نفذت بصيرته في حرب أهل العراق ؛ وأن الشام كله مع شرحبيل ؛ فخرج شرحبيل فأتى حصين بن نمير ... » ؛ وقد نقله المؤلف مختصراً فيما سبق في الجزء الثاني ص ٥٢ — ٥٣ .

فقال : ياجرير أتيتنا بأمر ملفف[1] لِتُلْقِيَنا فى لَهَوَات الأسد ، وأردتَ أن تَخلِطَ الشام بالعراق ، وأطْريت[2] عليًّا ، وهو قاتل عثمان ، والله سائلك عمّا قلت يوم القيامة .

فأقبل عليه جريرٌ وقال : يا شُرَحبيل ، أما قولك : إنى جئت بأمر ملففٍ ؛ فكيف يكون ملففًا وقد اجتمع عليه المهاجرون والأنصار ، وقوتل على ردّه طلحة والزبير !

وأمّا قولك : إنى أُلقيك فى لَهَوات الأسْد ، ففى لَهَواتها ألقيتَ نفسك .

وأما خلطُ أهلِ الشام بأهلِ العِراق ، فخلطُهُما على حقّ خيرٌ مِنْ فُرقتهما على باطل .

وأما قولكُ : إنّ عليًّا قَتَل عثمان ، فوالله ما فى يديك من ذلك إلا القذْف بالغَيْبِ مِنْ مكان بعيد ؛ ولكنكَ مِلْتَ إلى الدنيا ؛ وشىء كان فى نفسك على زمن سعد ابن أبى وقّاص .

فبلَغ ما قالاه إلى معاوية ، فبعث إلى جرير فزجرَه . قال نصر : وكُتِب إلى شرحبيل كتاب لا يعرف كاتبه[3] فيه :

شُرَحْبيل يابنَ السِّمْط : لا تَتْبَع الهوَى ... فمالكَ فى الدُّنيا مِن الدِّين مِنْ بَدَلْ
وَلا تَكُ كالمُجْرَى إلى شَرِّ غايةٍ ... فقَدْ خُرِّقَ السِّرْبالُ واستَنْوَقَ الجملْ
وَقُلْ لابن حَرْبٍ : ما لكَ اليومَ خَلَّةٌ ... تَرومُ بها ما رُمْتَ واقْطَع لَهُ الأمل[4]
شُرَحْبيلُ : إنّ الحقّ قَدْ جَدَّ جِدُّهُ ... فكُنْ فيه مأمونَ الأديم من النَّغَلْ
وَأَرْوِدْ ولا تُفْرِطْ بشىء نَخافُهُ ... عَلَيْكَ ، ولا تَعْجَلْ ، فلا خَيْرَ فى العَجَلْ[5]

(١) أى جلب من هنا وهاهنا .
(٢) صفين : « أطرأت » ، وهما بمعنى : « مدحت » .
(٣) وقعة صفين : « وكتب جرير إلى شرحبيل » .
(٤) وقعة صفين : « مالك اليوم حرمة . . . واقطع » .
(٥) الإرواد : الإمهال ، والفرط : السبق .

مقالُ ابنَ هندٍ فى علىّ عضيهةٌ ... وَلَلَّهُ فِى صَدْرِ بن أبى طالبٍ أجَلّ[١]
وَمَا مِنْ علىّ فى ابن عفانَ سَقْطَةٌ ... بقولٍ ، ولا مالا عليه ولا قتلْ[٢]
وَمَا كَانَ إلّالازماً قَعْرَ بَيْتِهِ ... إلى أن أتى عثمانَ فى داره الأجَلْ
فَمَنْ قَال قَوْلًا غيرَ هذا فحسبُه ... من الزُّور والبهتان بعضُ الذى احْتَمَلْ[٣]
وصىّ رسول الله مِنْ دونِ أهلِهِ ... ومَنْ باسمِه فى فَضْلِهِ يُضْرَبُ المثلْ

قال نصر : فلما قرأ شُرَحْبيل الكتاب ذُعِر وفكَّر ، وقال :هذه نصيحةٌ لى فى دِينى ، ولا والله لاأعجّل فى هذا الأمر بشىء [وفى نفسى منه حاجة][٤] ، وكاد[٥] يحولُ عن نصر معاوية ويتوقف[٥] ، فَلَفّق[٦] له معاوية الرجالَ يدخلون إليه ويخرجون ، ويعظّمون عنده قتلَ عثمان ، ويرمُون به عليًّا ، ويقيمون الشهادة الباطلة ، والكتبَ المختلقة ؛ حتى أعادوا رأيَه ، وشحَذوا عزمه[٧] .

* * *

(١) العضيهة : الإفك والبهتان . وفى ب : « وقال ابن هند » ، والوجه ماأثبته من ج .
(٢) مالا عليه ، أصله : « مالأ » بالهمز ؛ والمالأة : المعاونة . وفى صفين : « ولا جلب عليه » .
(٣) فى صفين :

* من الزّورِ وَالْبُهتَانِ قَوْلُ الّذى احْتَمَلْ *

(٤) من كتاب وقعة صفين .
(٥ ـ ٥) فى وقعة صفين : « واستمر له القوم » .
(٦) كذا فى ح ، وفى ا ، ب ، « فلقوله » تصحيف ، وفى صفين : « فلفف » .
(٧) بقية الخبر فى كتاب كتاب وقعة صفين : « وبلغ ذلك قومه ، فبعث ابن أخته له من بارق ـ وكان يرى رأى على بن أبى طالب ـ فبايعه بعد ، وكان ممن لحق من أهل الشام ، وكان ناسكا ، فقال :

لعمرُ أبى الأشقى ابنِ هندٍ لقدرَمَى ... شرَحْبيلَ بالسَّهْم الذى هو قاتِلُهْ
وَلَفّفَ قوماً يَسْحَبُونَ ذيولَهُمْ ... جميعاً وأوْلَى الناسِ بالذنبِ فاعِلُهْ
فَألْفَى يمانيًّا ضعيفاً نخاعُهُ ... إلى كلّ مايَهْوَوْنَ تَحْدُى رواحِلُهْ
فَطَاطا لَهَا لمّا رَمَوْه بثِقْلِها ... ولا يرزقُ التقوى منَ الله خاذِلُهْ =

قال نصر : وحـدثنا[1] عمر بن سعد بإسناده قال :[2] بعث معاوية إلى شُرَحْبيل ابن السِّمْط :

إنّه قـد كان من إجابتك إلى الحقّ ، وما وقع فيه أجرُك على الله ، وقَبِله عنـكَ صُلَحاء الناس ماعلمت ؛ وإنّ هـذا الأمر الذى نحن فيه لايتِمّ إلا برضا العامّة ، فسِرْ فى مدائن الشام ، ونادِ فيهم بأنّ عليا قَتَل عثمان ، وأنه يجب على المسلمين أن يطلبوا بدمه .

فسار شُرَحبيل ، فبدأ بأهل حِمْص ، فقام فيهم خطيبا ـ وكان مأمونًا فى أهل الشام ناسكا مُتألِّها ، فقال :

أيّها الناسُ ، إن عليا قتل عثمان ، فغضِب له قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه، فلقيَهم فهزم الجمع ، وقتل صلحاءهم وغلب على الأرض، فلم يبق إلا الشام ؛ وهو واضع سيفه على عاتقه ، ثم خائض غمراتِ[3] الموت ، حتى يأتيَكم أو يحدث الله أمرا ، ولا نجد أحدا أقوى على قتاله من معاوية ، فجِدّوا وانهضوا .

فأجابه الناس كلّهم إلا نُسّاكا من أهـل حِمْص ؛ فإنهم قالوا له : بيوتُنـا قبورنا ومساجدنا ، وأنت أعلم بما ترى .

قال : وجعل شُرَحبيل يستنهض مدائن الشام حتى استفرغها ، لايأتى على قوم إلّاقبلوا

=ليأكل دنيـا لابن هندٍ بدينِهِ ... ألا وابنُ هندٍ قبلَ ذلكَ آكِلُهْ
وقالوا علىٌّ فى ابن عفان خـدعةً ... ودَبّتْ إليـه بالشنان غوائلُهْ
وَلَا والّذى أرسَى ثبيراً مـكانَهُ ... لَقَدْ كَفّ عنـهُ كفّهُ ووسائلُهْ
وَمَا كانَ إلا من صحـابِ محمّدٍ ... وَكُلّهُمْ تغلِى عَلَيْهِ مراجِـلُهْ

فلما بلغ شرحبيل هذا القول قال : هذا بعيث الشيطان ؛ الآن امتحن الله قلبى ؛ والله لأسيرن صاحب هذا الشعر او ليفوتنى ؛ فهرب الفتى إلى الكوفة ـ وكان أصله منها ـ وكاد أهل الشام أن يرتابوا .

(١) صفين ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) فى صفين : « محمد بن عبيد الله وعمر بن سعد بإسناده ، قال » .

(٣) صفين : « غمار الموت » .

ماأتاهم به ، فبعث إليه النجاشيّ بن الحارث[1] ــ وكان له صديقا :

شُرَحْبِيلُ ماللدِّين فارقتَ ديننا[2] ولكِنْ لبغض المالكيِّ جرير
وَشَحْنَاء دَبَّتْ بين سعد وبَيْنَهُ فأصبحتَ كالحادِى بغير بَعير
[وما أنت إذ كانت بجيلة عاتبتْ قريشًا فيالله بُعْد نصير][3]
أتفصل أمراً غِبْتَ عنه بشبهةٍ وقد حارَ فيه عقلُ كلّ بَصير
بِقَوْلِ رجالٍ لم يكونوا أئمةً ولا للتى لَقَّوْكَهَا بحضور
[وما قولُ قَوْمٍ غائبين تقاذفوا من الغيب مادَلّاهمُ بغرورِ][3]
وتترك أنّ الناسَ أعطَوْا عهودهُم عليًّا على أنسٍ به وسرور
إذا قيل هاتُوا واحدا يقتدى به[4] نظيراً له لم يُفصِحُوا بنظير
لعلك أن تشقى الغداة بحربه فليس الذى قد جئته بصغير

***

قال نصر: وحدّثنا[5] عمر بن سعدعن نُمَيْر بن وعلة، عن الشّعبيّ، أن شُرَحبيل بن السِّمْط ابن الأسود بن جَبَلة [الكندىّ][3] دخل على معاوية ، فقال له : أنت عاملُ أمير المؤمنين وابن عمّه ، ونحن المؤمنون ، فإن كنتَ رجلا تُجاهِد عليا وقتلة عثمان حتى ندرك ثأرنا أو تذهب أرواحُنا استعملناك علينا ؛ وإلّا عزلْناك واستعملنا غيرَك ممن نريد ، ثم جاهَدْنا معه حتى ندرك بدم عثمان أو نهلِك .

فقال جرير بن عبد الله ــ وكان حاضرا : مهلًا ياشُرَحْبيل ؛ فإن الله قد حَقَن الدِّماء، ولَمّ الشعث ، وجَمع أمر الأمة ، ودنا من هذه الأمة سكون ؛ فإياك أنْ تُفْسِد بين الناس،

(١) فى حواشى صفين : « والمعروف فى شعرائهم النجاشى الحارثى ؛ واسمه قيس بن عمرو بن مالك ؛ من بنى الحارث بن كعب ؛ وهو ممن حده أمير المؤمنين على بن أبى طالب لشربه الخمر » .
(٢) وقعة صفين : « أمرنا » .
(٣) من كتاب وقعة صفين .
(٤) وقعة صفين : « تقتدونه » .
(٥) وقعة صفين ٥٧ ، ٥٨ .

وأمسِكْ عن هذا القول قبل أن يشيعَ ويظهر عنك قولٌ لا تستطيع رَدّه ، فقال : لا والله لا أسِرّه أبدا . ثم قام فتكلّم به ، فقال الناس : صدق صدق ! القولُ ما قال ، والرأى ما رأى . فأيس جرير عند ذلك مِنْ معاوية ومن عوامّ أهل الشام .

* * *

قال نصر :[١] وحدثنى محمد بن عبيدالله ، عن الجرجانىّ ، قال : كان معاوية قد أتى جريراً قبل ذلك فى منزله ، فقال له : ياجرير ؛ إنى قد رأيت رأياً ، قال : هاته، قال: اكتب إلى صاحبك يجعل لى الشام ومصر جباية ،فإذا حضرتْه الوفاة لم يجعلْ لأحد بعده فى عنقى بيعة ، وأسلِّم له هذا الأمر؛ وأكتب إليه بالخلافة . فقال جرير : اكتُب ماأردتَ أكتب معك[٢] .

فكتب معاوية بذلك إلى علىّ ، فكتب علىّ عليه السلام إلى جرير :

أما بعد ، فإنما أراد معاوية ألّا يكون لى فى عنقه بَيْعة ، وأن يختار من أمره ما أحبّ ، وأراد أنْ يُرِيثَك ويُبْطئك حتى يذوقَ أهل الشام ؛ وإنّ المغيرة بن شعبة قد كان أشار علىّ أن أستعملَ معاوية على الشام ، وأنا حينئذ بالمدينة ، فأبيتُ ذلك عليه ، ولم يكن الله ليرانى أتخذ المضلِّين عَضُدا، فإن بايَعك الرجل ؛وإلّا فأقبِل والسلام.

* * *

قال نصر : وفشا[٣] كتابُ معاوية فى العرب ، فبعثَ إليه الوليد بن عُقْبة :

معاوىَ إنّ الشامَ شامُك فاعتصِمْ ... بشامِك لا تُدْخِلْ عليكَ الأفاعيَا
وحامِ عليهـــا بالصَّوارم والقَنا ... ولا تكُ مَوهونَ الذِّراعين وَانِيا[٤]
وإنّ عليًّا ناظرٌ ما تجيبُه ... فأهدِ له حَرْبًا تُشِيب النَّواصيا

---

(١) وقعة صفين ٥٨ .
(٢) صفين : « اكتب بما أردت وأكتب معك » .
(٣) صفين ٥٩ ، ٦٠ .
(٤) صفين : « بالقنابل . . . محشوش الذراعين » .

وإلّا فسلمٌ إنّ في السِّلم راحةً ... لمن لا يريدُ الحربَ فاخترْ مُعاويا
وإنّ كتابا يابنَ حربٍ كتبتَه ... على طمعٍ ، يُزْجى إليك الدّواهيا
سألتَ عليًّا فيه ما لَنْ تنالَه ... ولَوْ نلتَه لم يبْقَ إلا لَياليا
وَسَوْفَ تَرَى منه التي ليس بعدها ... بقاءٌ ، فلا تكثر عليك الأمانيا
أمِثْلَ عَليٍّ تعتريه بخُدْعَةٍ ... وقد كان ما جرَّبتَ من قبل كافيا !

قال : وكتب الوليد بن عُقْبة إلى معاوية أيضاً يُوقظه ويشير عليه بالحرب، وألا يكتب جواب جرير :

معاويَ إنّ المُلكَ قد جُبّ غاربُهْ ... وأنت بما في كفّك اليومَ صاحبُهْ
أتاك كتابٌ من عَليٍّ بخُطّةٍ ... هي الفصلُ فاخترْ سِلْمَه أو تُحارِبُهْ
فلا ترجُ عند الواترينَ مَوَدّةً ... ولا تأمَن اليومَ الذى أنت راهبُهْ
وحاربْه إن حاربْتَ حربَ ابنِ حُرّةٍ ... وإلّا فسِلْمٌ لا تدبّ عقارِبُهْ(١)
فإنّ عليًّا غيرُ ساحبِ ذَيْلِهِ ... عَلَى خُدعةٍ ما سوّغَ الماء شارِبُهْ
[وَلاَ قابلٍ ما لا يريدُ وهذهِ ... يقوم بها يوماً عليه نوادبه](٢)
فَلاَ تَدَعَنّ المُلكَ والأمرُ مُقبلٌ ... وتطلبَ ما أعيتْ عليكَ مذاهبُهْ(٣)
فإنْ كنتَ تنوي أنْ تُجيبَ كتابَه ... فقُبّحَ مُمليه وقُبّحَ كاتبُهْ
وإن كنتَ تَنْوِي أن تردّ كِتَابَهُ ... وأنت بأمرٍ لا محالةَ راكبُهْ
فألْقِ إلى الحيّ اليمانينَ كِلْمَةً ... تنالُ بها الأمرَ الّذى أنت طالبُهْ
تقول : أميرُ المؤمنين أصابَهُ ... عدوٌّ ومالاهم عليه أقاربُهْ
أفانينُ مِنْهُمْ قاتِلٌ وَمُحَرِّضٌ ... بلا تِرَةٍ كانتْ ، وآخرُ سالبُهْ

---

(١) ب : « حرا بن حرة » ، والصواب ما أثبته من ا ، ج وكتاب صفين .
(٢) من كتاب صفين .
(٣) ب : « عليه » ، والصواب ما أثبته من ج وصفين .

وكنتُ أميراً قَبْلُ بالشامِ فيكمُ ... فحسبى وإياكم من الحق واجِبُهْ
فجيئوا ، ومَنْ أرسَى ثَبِيراً مكانَه ... نُدافِع بحراً لا تُرَدّ غوارِبُهْ (١)
فأقلِلْ وأكثِرْ مالها اليوم صاحبٌ ... سواك، فصرِّحْ لستُ مِمَّنْ تُوارِبُهْ

قال نصر : وخرج (٢) جرير يوما يتجسّس الأخبار ؛ فإذا هو بغلام يتغنّى على قَعود له ، وهو يقول :

حُكَيمٌ وعَمّارُ الشَّجا ومحمدٌ ... وأشترُ والمكشوحُ جَرّوا الدّواهيَا (٣)
وَقَدْ كَانَ فيها للزُّبيرِ عَجاجَةٌ ... وصاحبُه الأدنى أثاروا الدواهيا (٤)
فأما علىٌّ فاستجارَ ببيتِه ... فلا آمرٌ فيها ولم يكُ ناهِيا
فقُلْ فى جَميعِ النَّاسِ ما شِئْتَ بَعْدَهُ ... فلو قلتَ : أخطا الناسُ لم تكُ خاطِياَ
وإن قلت : عَمّ القومُ فيه بِفِتْنَةٍ ... فحسْبُكَ مِنْ ذاك الّذى كانَ كافيا
فقولا لأصحابِ النبىِّ محمدٍ ... وَخُصّا الرجالَ الأقربين الأدانيا :
أيُقْتَلُ عثمان بن عفّان بَيْنَكُمْ ... عَلَى غَيْرِ شىء ليس إلّا تعاميا
فلا نومَ حتى نستبيحَ حَرِيمَكُمْ ... ونخضِبَ من أهلِ الشَّنَآنِ العواليَا

فقال جرير : يا بن أخى ، مَنْ أنت ؟ فقال : غلام من قريش ، وأصلى من ثَقِيف ، أنا ابن المغيرة بن الأخنس بن شُرَيق ، قُتل أبى مع عثمان يوم الدّار . فعجب جريرٌ

(١) كذا فى ج ، وصفين وفى ا ، ب : « تجيبوا » ؛ والغوارب : أعالى الموج .
(٢) وقعة صفين ٦٠ .
(٣) حكيم بن جبلة بن حصن العبدى ، كان عثمان بعثه إلى السند ؛ ثم نزل البصرة ، وقتل بها يوم الجمل . وعمار بن ياسر ، ومحمد بن أبى بكر الصديق ؛ والأشتر : مالك بن الحارث . والمكشوح المرادى، واسمه هبيرة بن هلال ، ونسبه فى بجيلة .
(٤) صفين : « أشاب النواصيا » .

من شعره وقوله ، وكتب بذلك إلى علىّ عليه السلام ، فقال علىّ : والله ما أخطأ الغلام شيئا .

* * *

قال نصر :[1] وفى حديث صالح بن صَدقة ، قال : أبطأ جريرٌ عند معاوية حتى اتّهمه النّاس ، وقال علىّ عليه السلام : قد وقّتُّ لجرير وقتا لا يُقيم بعده إلا مخدوعا أو عاصيا ، وأبطأ عَلَى علىّ حتى أَيِس منه .

قال : وفى حديث محمد وصالح بن صدقة ، قالا : فكتب علىّ عليه السلام إلى جرير بعد ذلك :

إذا أتاك كتابى هذا فاحمل معاوية عَلَى الفَصْل ؛ ثم خيّره وخذه بالجواب بين حربٍ مُخزية[2] أو سِلْم مُحْظية ، فإن اختارَ الحرب فانبذ إليه ، وإن اختار السّلم فخذه ببيعته . والسلام .

قال : فلما انتهى الكتابُ إلى جرير أتى معاوية ، فاقرأه الكتاب ، وقال له : يامعاوية ، إنّه لا يطبع على قلب إلّا بذنب ، ولا يُشرَح صَدْر إلا بتوبة ، ولا أظنّ قلبَك إلّا مطبوعا عليه ، أُراك قد وقفت بين الحقّ والباطل ، كأنك تنتظر شيئا فى يد غيرك .

فقال معاوية : ألقاك بالفَصْل[3] فى أول مجلس إن شاء الله .

فلما بايع معاوية أهلُ الشام بعد أن ذاقهم ، قال : ياجرير الحق بصاحبك ، وكتب إليه بالحرْب ، وكتب فى أسفل الكتاب شعر كعب بن جُعَيل :

أرَى الشّامَ تَكْرَهُ أهلَ العراقِ   وَأهْـــــلُ العِراق لهم كارهونا

---

(١) وقعة صفين ٦١ .

(٢) صفين : « مجلية » .

(٣) صفين : « بالفيصل » .

وقد ذكرنا هذا الشعر فيما تقدم .

* * *

وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد فى كتاب " الكامل " [1] : إن عليّا عليه السلام لما أراد أن يبعث جريراً إلى معاوية ، قال : والله ياأميرَ المؤمنين ما أدّخِرُك من نُصْرَتى شيئا ، وما أطمع لك فى معاوية . فقال علىّ عليه السلام : إنما قصدى حُجّة أقيمها [عليه] . [2] فلما أتى جرير معاوية دافعه بالبيْعة ، فقال له جرير : إنّ المنافقَ لا يصلّى حتى لا يجدَ مِنَ الصلاة بُدّا . فقال معاوية : إنها ليست بخُدْعة الصبىّ عن اللّبن ، فأبلغنى ريقى [3] ، إنه أمر له مابعده .

قال : وكتب مع جرير إلى علىّ عليه السلام جوابا عن كتابه إليه : من معاوية بن صَخْر إلى علىّ بن أبى طالب ؛ أما بعد فلعمْرِى لو بايَعك القومُ الذين بايَعوك وأنت برىء من دم عثمان كنتَ كأبى بكر وعمر وعثمان ؛ ولكنّك أغريْت بعثمان المهاجرين ، وخَذّلت عنه الأنصار ، فأطاعَك الجاهلُ ، وقَوِىَ بك الضعيف ، وقد أبى أهلُ الشام إلّا قتالك؛ حتى تدفَعَ إليهم قَتَلَةَ عثمان، فإن فعلتَ كانت شورى بين المسلمين. ولعمْرِى [4] ليس حُجَجُكَ علىّ كحججك على طلحة [4] والزبير ، لأنهما بايعاك ولم أبايعْك ، وما حجتك على أهل الشام كحجّتك على أهل البصرة ، لأنّ أهلَ البصرة أطاعوك ولم يُطِعْك أهلُ الشام . فأمّا شرفُك فى الإسلام، وقرابتُك من النبى صلى الله عليه وموضِعُك من قريش ، فلست أدفعُه .

---

(١) الكامل ٣ : ٢٠٩ وما بعدها ـ بشرح المرصفى ؛ مع تصرف فى الخبر .
(٢) من كتاب الكامل .
(٣) أى أنظرنى بمقدار ما أبلع ريقى .
(٤ ـ ٤) الكامل : « ماحجتك على كحجتك على طلحة . . . » .

ثم كتب فى آخر الكتاب شعرَ كعب بن جعيل الذى أوله :

أرَى الشَّامَ تَكرهُ أهلَ العراقِ وَأَهْلُ العراق لهمْ كارِهُونا

* * *

قال أبو العباس المبرّد[1] رحمه الله تعالى : [2] فكتب إليه علىّ عليه السلام جوابا عن كتابه هذا :

من أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب إلى معاوية بن صخر بن حرب[2] :

أما بعد ؛ فإنه أتانى منك كتابُ امرئٍ ليس له بَصَرٌ يهديه ، ولا قائدٌ يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ؛ وقاده الضلال فاتّبعه ، زعمتَ أنك إنما أفسد عليك بَيْعتى خطيئتى فى عثمان ، ولعَمْرِى ما كنتُ إلا رجلا من المهاجرين ، أوردتُ كما أوردوا ، وأصدرت كما أصدروا ؛ وما كان الله ليجمعهم عَلَى الضلال ، ولا ليضربهم بالعمَى . وبعد ، فما أنت وعثمان ! إنما أنتَ رجل من بنى أميّة ، وبنو عثمان أوْلَى بمطالبةِ دَمه ، فإن زعمتَ أنك أقوى عَلَى ذلك ، فادْخُل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكم القومَ إلىّ . وأما تمييزُك بينكَ وبين طلحة والزبير ، وبين أهل الشام وأهل البَصْرة ، فلعمرِى ما الأمرُ فيما هناك إلا سواء ؛ لأنها بيعة شاملة لايستثنَى فيها الخيار ، ولا يستأنف فيها النَّظَر . وأمّا شَرَفِى فى الإسلام وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه ، وموضعى من قريش ، فَلعمرى لو استطعت دفعه لدفعته .

قال : ثم دعا النَّجاشىَّ ، أحد بنى الحارث بن كعب ، فقال له : إنَّ ابنَ جُعَيل شاعرُ أهل الشام ، وأنت شاعر أهل العراق ، فأجِبِ الرّجل . فقال : ياأميرَ المؤمنين ، أسمعنى قوله ، قال : إذن أسمعك شِعْر شاعر ، ثم أسمعه ، فقال النجاشىُّ يجيبه :

---

(١) فى الكامل ٣ : ٢٢٤ – بشرح المرصفى ؛ وذكره المنقرى فى كتاب صفين ٦٤ ، ٦٥ .

(٢ – ٢) فى الكامل : فكتب إليه أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه جواب هذه الرسالة : بسم الله الرحمن الرحيم من على بن أبى طالب إلى معاوية بن صخر » .

دَعاً يامُعاوِىَ مالنْ يكونا فَقَدْ حَقّقَ اللهُ ماتحذرونا
أتاكُمْ علىٌّ بأهلِ العراقِ وأهلِ الحجاز فما تصنعونا ![1]
عَلَى كل جَرْداء خَيْفَانَةٍ وَأشْعَثَ نَهْدٍ يَسُرّ الْعُيونا[2]
عَلَيْها فوارسُ مخشيّةٌ كأسْد الْعَرين حَمَيْنَ الْعَرينا
يَرَوْنَ الطِّعانَ خِلالَ الْعَجاجِ وَضَرْبَ الفوارسِ فى النَّقْعِ دِينا[3]
هُمُ هَزَمُوا الجمعَ جَمْعَ الزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ وَالْمَعْشَرَ النّاكِثينا
وآلوا يميناً عَلَى حَلْفَةٍ لنُهْدِى إلى الشّامِ حَرْباً زَبُونا[4]
تُشيبُ النّواهِدَ قبلَ المَشيبِ وتُلْقِى الحواملُ مِنْها الجَنِينا[5]
فإن تكرهوا المُلكَ مُلْكَ العِراقِ فَقَدْ رَضِىَ القَوْمُ ماتكْرَهُونا
فقُل للمضلّلِ مِنْ وائلٍ وَمَنْ جَعَلَ الْغَثّ يوماً سَمِينا
جَعَلتُمْ عَلِيًا وَأشْياعَهُ نَظيرَ ابْنِ هِنْدٍ ، أمَا تَسْتَحُونا !
إلى أفضلِ النّاسِ بعد الرسول وصِنْو الرسولِ مِنَ العالمينا
وَصِهْرِ الرسول وَمَنْ مِثْلُهُ إذا كانَ يومٌ يُشيب القُرُونا !

قلت : أبيات كعب بن جُعيل خيرٌ من هذه الأبيات ، وأخبث مقصدا وأدهى وأحسن .

وزاد نصر بن مزاحم فى هذه الرسالة بعد قوله : « ولا ليضربهم بالعمى » : « وماألَبْت[6] فتلزمنى خطيئة الآمر ، ولا قتلت فيجب عَلَىَّ القصاص . وأما قولك إنّ

---

(١) لم يذكر المبرد فى الكامل سوى البيتين الأولين ، وقال : « وبعد هذا ماأمسك عنه » .
(٢) الجرداء : الفرس القصيرة الشعر . والخيفانة : الخفيفة الوثابة . والنهد من الخيل : الجسيم المشرف
(٣) النقع : التراب .
(٤) صفين : « وقالوا » . والإيلاء : الحلف .
(٥) صفين : « تشيب التواهد » .
(٦) ما ألبت ، أى ماحرضت . وفى صفين : « وما أمرت » .

أهل الشام هم الحكام عَلَى أهلِ الحجاز ، فهات رجلاً من أهل الشام يقبل فى الشورى ، أو تحلُّ له الخلافة ، فإنْ زعمتَ ذلك كَذَّبك المهاجرون والأنصار ؛ وإلا أتيتُك به من قريش الحجاز . وأما وَلُوعك بى فى أمر عثمان ، فما قلت ذلك عن حقّ العيان ، ولا يقين الخُبر[1] .

وهذه الزيادة التى ذكرها نصر بن مزاحم تقتضى أنه كان فى كتاب معاوية إليه عليه السلام أنّ أهل الشام همُ الحكام عَلَى أهل الحجاز ؛ وما وجدنا هذا الكلام فى كتابه .

* * *

[أخبار متفرقة]

وروى نصر بن مزاحم ، قال : لما[2] قُتِل عثمانُ ضَرَبت الرّكبان إلى الشام بقتله ، فبينا معاوية يوما إذا أقبل رجل متلفّف ، فكشف عن وجهه، وقال لمعاوية: ياأميرَ المؤمنين، أتعرفنى ؟ قال : نعم ؛ أنت الحجاج بن خزيمة بن الصِّمة ، فأين تريد ؟ قال إليك القُربان، أنعَى ابن عفان ، ثم قال :

إن بنى عمِّك عَبْد المطَّلِبْ ... هُمْ قتلوا شيخكمُ غَيرَ كَذِبْ
وأنت أولَى الناس بالوثْبِ فثِبْ ... واغْضَبْ معاوى للإله واحْتسِبْ
وَسِرْ بنا سَيْرَ الجرير المتلئبْ ... وانْهَضْ بأهل الشام تَرْشُدْ وتُصِبْ
* ثم اهْزُزِ الصَّعْدة للشأس الشَّغِبْ[3] *

قال : يعنى عليا عليه السلام .

قلت : المتلئبّ المستقيم المطّرد ، يقال : هذا قِياسٌ متلئبٌ ، أى مستمرٌ مطّرد .

---

(١) الخبر : العلم .
(٢) وقعة صفين ٨٦ ، ٨٧ .
(٣) الصعدة ، بالفتح : القناة المستوية .

ويقال : مكان شَأْس ، أى غليظ صلب . والشَّغِب : الهائج للشرّ ، ومن رواه : «الشاسى» بالياء فأصله « الشاصى » بالصاد ؛ وهو المرتفع ، يقال : شصا السحابُ إذا ارتفع ، فأبدل الصاد سينا ، ومراده هنا نسبة علىّ عليه السلام إلى التيه والترفّع عن الناس .

قال نصر : فقال له معاوية : أفيك مَهَزّ ؟ فقال : نعم ، فقال أخْبِر الناس ، فقال الحجاج : ياأميرَ المؤمنين — ولم يخاطَب معاويةُ بـ «أمير المؤمنين» قبلها — إنّى كنتُ فيمَنْ خرج مع يزيد بن أسدٍ القسْرِىّ ، مغيثا لعثمان ، فقدمْتُ أنا وزفر بن الحارث ، فلقِينا رجلا زعم أنه مِمّن قتل عثمان ، فقتلْناه ؛ وإنى أخبرك ياأمير المؤمنين أنك لَتقوَىٰ على علىّ بدون مايقوَى به عليك ؛ لأنّ معك قوما لايقولون إذا قلت ، ولا يسألون إذا أمرت ؛ وإن مع علىّ قوما يقولون إذاقال ، ويسألون إذا أمر ؛ فقليلٌ ممّن معك خيرٌ من كثير ممن معه . واعلمْ أنه لا يرضى علىّ إلابالرضا ، وأنّ رضاه سَخَطك ، ولستَ وعلىّ سواء؛علىّ لا يرضى بالعراق دون الشام ، وأنت ترضى بالشام دون العراق .

قال نصر : فضاق معاوية صدرا بما أتاه ، ونَدِم على خِذلان عثمان[1] وقال :

أتانِىَ أمرٌ فيه للنفس غمةٌ ... وَفِيه بكاءٌ لِلعُيُونِ طَوِيلُ
وفيه فناءٌ شاملٌ وخَزَايةٌ ... وفيه اجتداعٌ للأنوف أصيلُ
مصابُ أمير المؤمنين وهَدّةٌ[2] ... تكاد لها صمّ الجبالِ تزُولُ
فلله عَيْنا مَنْ رَأى مِثْلَ هَالكٍ ... أصيبَ بلا ذَنْبٍ وَذَاكَ جَلِيلُ !
تَدَاعَتْ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ عُصْبَةٌ ... فَرِيقَانِ مِنْهُمْ قَاتِلٌ وخَذُولُ
دَعَاهُمْ فَصَمّوا عنه عِنْدَ دُعَائِهِ ... وَذَاكَ عَلَى مافِى النفُوسِ دَلِيلُ
ندِمتُ على ما كانَ مِنْ تَبعِىَ الْهوَى ... وقَصْرِىَ فيه حَسْرَةٌ وعويلُ[3]

(١) وقعة صفين ٨٨ ، وفيه : « وقال معاوية حين أتاه قتل عثمان » .
(٢) ج : « وهذه » .
(٣) قصرى فيه ؛ أى حسبى .

سَأبغِى أبا عمرٍو بكُلِّ مُثقَّفٍ ... وبيضٍ لهَا فى الدَّارِعِينَ صَلِيل[1]
تركتُكَ للقومِ الذين همُ همُ ... شَجاكَ فماذا بعد ذاك أقول ؟
فلستُ مقيماً ماحييتُ ببلدةٍ ... أجرّ بها ذَيْلِى وأنت قتيل
فلا نوم حتى تُشْجَرَ الخيلُ بالقنا ... وَيُشْفَى من القوم الغُواة غَلِيل[2]
وَنَطْحَنَهُمْ طحنَ الرَّحَا بِثفالِهَا ... وَذَاكَ بما أسْدَوْا إليك قليل[3]
فأمّا الّتى فيها مودّةُ بيننا ... فليس إليها مَاحَيِيتُ سَبِيل
سأُلقِحُها حَرْباً عَوَاناً مُلِحّةً ... وإنّى بِهَا مِنْ عَامِنَا لَكَفِيلُ

قال نصر : وافتخَرَ الحجّاج على أهل الشام بما كان من تسليمه على معاوية بإمرة المؤمنين .

***

قال نصر :[4] وحدثنا صالح بن صدقة ، عن ابن إسحاق ، عن خالد الخزاعىّ وغيره ممن لا يُتّهم ، أن عثمان لما قُتِلَ وَأُتِىَ معاوية بكتاب على عليه السلام بعزله عن الشام ، صعِد المنبر ونادى فى الناس أن يحضرُوا ، فحضروا ، فخطبَهم . فحمِد اللهَ وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ، ثم قال : يأهلَ الشام ، قد علمتم أنّى خليفةُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة عثمان ، وقد قتِلَ وأنا ابن عمه ووليّه ، والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾[5] وأنا أحبّ أن تعلِمُونى ما فى نفوسكم من قَتْل خليفتكم .

---

(١) وقعة صفين : « سأنعى » ، وسأبغى . أى سأطلب ثأره ؛ وأبو عمرو كنية عثمان .
(٢) تشجر الخيل : تطعن .
(٣) الثفال : جلد يبسط فتوضع فوقه الرحا ليسقط عليه الدقيق . وفى اللسان : « وفى حديث على : وتدقهم الفتن دق الرحا بثفالها ، هو من ذلك : والمعنى أنها تدقهم دق الرحا للحب ؛ إذا كانت مثفلة ، ولا تثفل إلا عند الطحن » .
(٤) وقعة صفين ٩١ .
(٥) سورة الإسراء ٣٣

فقام مُرّة بن كعب[1] ؛ وفى المسجد يومئذ أربعمائة رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وآله أو نحوها ، فقال : والله لقد قمتُ مقامى هذا ، وإنّى لأعلمُ أنّ فيكم مَنْ هو أقدم صحبةً لرسول الله صلى الله عليه منّى ؛ ولكنّى شهدتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم نصفَ النهار فى يوم شديد الحرّ ، وهو يقول : « لتكونَنّ فتنة حاضرة » ، فمرّ رجل مُقنّع ، فقال رسول الله : وهذا [المقنع][2] يومئذٍ على الهُدَى ، فقمت فأخذت بمنكبه ، وحَسَرْتُ عن رأسه ؛ فإذا عثمان ، فأقبلتُ بوجهه على رسول الله صلى الله عليه ، وقلت : هذا يا رسول الله؟ فقال : نعم :

فأصفق أهلُ الشام مع معاوية حينئذ ، وبايعوه على الطلب بدم عثمان أميراً لا يطمع فى الخلافة ثم الأمر شورى .

***

وروى إبراهيم بن الحسن بن دِيزيل فى "كتاب صفين" عن أبى بكر بن عبد الله الهذلىّ أن الوليد بن عقبة كتب إلى معاوية يستبطئه فى الطلب بدم عثمان ، ويحرّضه وينهاه عن قطع الوقت بالمكاتبة :

ألا أبلغْ معاويةَ بن حَرْبٍ ... فإنّك مِنْ أخى ثقةٍ مُليمُ[3]

قطعتَ الدهر كالسّدِم المعنّى ... تُهدِّرُ فى دمشقَ ولا تريمُ[4]

---

(١) وقعة صفين : « كعب بن مرة السلمى » .

(٢) من صفين .

(٣) من أبيات ، فى اللسان ١٥ : ٣٦ ، ٣٧ . ومليم ، من قولهم : ألام الرجل ؛ إذا أتى ما يلام عليه.

(٤) السدم : الفحل غير الكريم يكره أهله أن يضرب فى إبلهم ؛ فيقيد ولا يسرح فى الإبل رغبة عنه ؛ فهو يصول ويهدر ، أى يصيح . والمعنى أصله : « المعن » من العنة ، فأبدلت إحدى النونين ياء ؛ كما قالوا : تظنى ، وأصله : « تظنن » ، وفى المثل : « كالهدر فى العنة » . وانظر مجمع الأمثال للميدانى ٢ : ١٤١ .

فإنك والكتابَ إلى عليّ ... كدابغة وقد حَلِم الأديم (١)
لك الويلاتُ أقحِمها عليهم ... فخير الطالبي التِّرةِ الغَشُومُ (٢)

قال : فكتب معاوية إليه الجواب بيتاً من شعر أوس بن حَجر :

وَمُسْتَعْجِبٍ مِمّا يَرَى مِنْ أناتِنا ... وَلَوْ زَبَنَتْه الحرْبُ لَمْ يَتَرَمْرَمِ (٣)

* * *

وروى ابن ديزيل قال: لما عَزَم عليّ عليه السلام على المسير إلى الشام ، دعا رجلا ، فأمره أن يتجهّز ويسير إلى دمشق ، فإذا دخلَ أناخَ راحلتَه بباب المسجد ، ولا يُلقِي من ثياب سفره شيئا ؛ فإن الناس إذا رأوه عليه آثار الغُرْبة سألوه ، فليقل لهم : تركتُ علياً قد نَهَدَ (٤) إليكم بأهل العراق . فانظر مايكون من أمرهم .

ففعل الرجل ذلك ، فاجتمع الناس وسألوه ، فقال لهم ، فكثروا عليه يسألونه فأرسل

---

(١) الحلم ، بالتحريك : أن يفسد الجلد فى العمل ويقع فيه دود فيتثقب ؛ تقول منه حلم ، بالكسر ، والحلمة : دودة تقع فى الجلد فتأكله ؛ فإذا دبغ وهى موضع الأكل ، فبقى رقيقا؛ تقول منه : حلم الأديم ؛ ومعنى البيت : أنت تسعى فى إصلاح أمر قد تم فساده كهذه المرأة التى تدبغ الأديم الحلم الذى وقعت فيه الحلمة فنقبته وأفسدته فلا ينتفع به . كذا فسره صاحب اللسان واستشهد بالبيت .

(٢) فى اللسان بعد هذا البيت :

فقومُكَ بالمدينة قَدْ تردَّوْا ... فهم صَرْعَى كأنهمُ الهشِيمُ
فلو كنتَ المصابَ وكان حَيًّا ... تجرّدَ لا ألفّ ولا سَئُومُ
يهنّيكَ الإمارةَ كل ركب ... من الآفاق سـيرهمُ الرسيمُ

وزاد الطبرى بعد البيت الثانى من زيادات اللسان :

ولا نِكلٌ عن الأوتارِ حَتّى ... يبىء بها ولا برمٌ جَثومُ

وذكر الضبى فى الفاخر ٣٠ بعض هذه الأبيات ونسبها إلى مروان بن الحكم .

(٣) ديوانه ٢٧ ، ومقاييس اللغة ٢ : ٣٨٠ ، ٤ : ٢٤٤ ؛ ولم يترمرم ؛ أى ماحرك فاه بالكلام ؛ كذا فسره ابن فارس واستشهد بالبيت . وانظر اللسان ١٥ : ١٤٧ .

(٤) يقال : نهد لعدوه ؛ إذا أسرع لقتاله .

إليه معاوية بالأعور السّلمىّ يسأله ، فأتاه فسأله ، فقال له ، فأتى معاوية فأخبره ، فنادى : الصلاة جامعة ، ثم قام فخطب الناس ، وقال لهم إنّ عليا قد نَهَدَ إليكم فى أهل العِراق ، فما ترون ؟ فضربَ الناس بأذقانهم على صدورهم ؛ لا يتكلّمون ، فقام ذو الكَلاع الحِميرىّ فقال : عليكَ أمْ رأىُ وعلينا أم فعالُ ؛ وهى لغة حِمْير[1] .

فنزل ، ونادَى فى النّاس بالخروج إلى معسكرهم ، وعاد إلى علىّ عليه السلام ،فأخبره فنادى: الصلاة جامعة ،ثم قام فخطب الناس ، فأخبرهم أنّه قَدِم عليه رسول كان بعثه إلى الشام، وأخبره أنّ معاوية قد نَهَدَ إلى العراق فى أهل الشام ، فما الرأى ؟

قال : فاضطرب أهل المسجد ؛ هذا يقول : الرأى كذا ، وهذا يقول : الرأى كذا ، وكثُر اللّغط واللّجَب ، فلم يفهمْ علىّ عليه السلام من كلامهم شيئا ، ولم يَدْرِ المصيبَ من المخطئ ، فنزل عن المِنبر ، وهو يقول : إنّا لله وإنا إليه راجعون ! ذهب بها ابن آكلة الأكباد[2] ـ يعنى معاوية .

* * *

وروى ابن ديزيل عن عُقْبة بن مكرّم ، عن يونس بن بكير ، عن الأعمش ، قال : كان أبو مريم صديقاً لعلىّ عليه السلام ، فسمع بما كان فيه علىّ عليه السلام من اختلاف أصحابه عليه ، فجاءه ، فلم يَرُعْ عليا عليه السلام إلا وهو قائم على رأسه بالعِراق ، فقال له : أبا مريم، ما جاء بك نحوى ؟ قال : ما جاء بى غيرُك ؛ عهدِى بك لو ولِّيت أمرَ الأمة كفيتَهم ، ثم سمعت بما أنت فيه من الاختلاف ! فقال : يا أبا مريم ؛ إنى مُنيتُ بِشرار خَلْق الله، أريدُهم على الأمر الذى هو الرأى ، فلا يتّبعوننى .

* * *

(١) وهى لغة نقلت عن طيء أيضا ؛ وعليها ورد الحديث : « ليس من امبر امصيام فى امسفر » . مغنى اللبيب لابن هشام ١ : ٤٨ .

(٢) آكلة الأكباد ؛ هى هند بنت عتبة بن ربيعة ، زوج أبى سفيان وأم معاوية .

وروى ابن ديزيل عن عبد الله بن عمر ، عن زيد بن الحباب ، عن علاء بن جرير العنبرىّ ، عن الحكم بن عمير الثمالىّ — وكانت أمّه بنت أبى سفيان بن حرب — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم لأصحابه ذات يوم : كيف بك ياأبا بكر إذا وليت ؟ قال : لا يكونُ ذلك أبدا ، قال : فكيف بك ياعُمَر إذا وليت ؟ (١فقال : آكل حجَراً١) ، لقد لقيت إذَنْ شرًّا ، قال : فكيفَ بك ياعثمان إذا وُلّيت ؟ قال : آكلُ وأطعِم وأقسِّم ولا أظلم ، قال : فكيف بك ياعلىّ إذا وليت ؟ قال : آكل القوتَ وأحمى الجَمْرة ، وأقسِّم التمرة ، وأخفى الصور — قال : أىّ العورة — فقال صلى الله عليه وسلّم : « أما إنكم كلّكم سَيَلِى ، وسيرى الله أعمالكم » ، ثم قال : يامعاوية ، كيف بك إذا وليت ؟ قال : الله ورسوله أعلم فقال : « أنت رأس الحطم ، ومفتاح الظلم ، حصبا وحقبا ، تتخذ الحسَن قبيحا ، والسيئة حسنة ، يربو فيها الصّغير ، ويهرَم فيها الكبير ؛ أجلك يسير ، وظلمك عظيم » .

* * *

وروى ابن ديزيل أيضا عن عمر بن عون ، عن هشيم ، عن أبى فلج ، عن عمرو بن ميمون ، قال : قال عبد الله بن مسعود : كيف أنتم إذا لَقِيتْكم فتنة يَهرَم فيها الكبير ، ويربُو فيها الصغير ، تجرى بين الناس ، ويتخذونها سُنّة ، فإذا غُيِّرت قيل : هذا مُنْكَرا

* * *

وروى ابن ديزيل ، قال : حدثنا الحسَن بن الرّبيع البَجلىّ ، عن أبى إسحاق الفزارىّ عن حُمَيد الطويل ، عن أنس بن مالك ، فى قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴾ (٢) . قال : أكرَم الله تعالى نبيَّه عليه السلام أن يريَه فى أمته مايكره رفعه إليه ، وبَقِيت النّقمة .

(١-١) فى ا ، ج : « فقال حجرا » ، وفى حاشية ج : « يحتمل أن يكون بسكون الجيم ، يعنى المنع » .
(٢) سورة الزخرف ٤١ ، ٤٢ .

قال ابن ديزيل : وحدثنا عبد الله بن عمر ، قال : حدثنا عمرو[1] بن محمد ،قال: أخبرنا أسباط ، عن السدّى ، عن أبى المنهال ، عن أبى هريرة ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « سألتُ ربّى لأمتى ثلاث خلال ، فأعطانى اثنتين، ومنعنى واحدة: سألته ألّا تكفرَ أمتى صَفقة واحدة فأعطانيها، وسألته ألّا يعذبهم بما عذّب به الأمم قبلهم فأعطانيها ، وسألته ألّا يجعلَ بأسهم بينهم فمنعنيها » .

* * *

قال ابن ديزيل : وحدّثنا يحيى بن عبد الله الكرابيسىّ ، قال : حدثنا أبو كُريب ، قال : حدثنا أبو معاوية ، عن عمار بن زُرَيق ، عن عمّار الدُّهنىّ ، عن سالم بن أبى الجَعْد قال : جاء رجلٌ إلى عبدالله بن مسعود ، فقال : إنّ الله تعالى قد آمَنَنَا أن يظلمنا، ولم يؤمنّا أن يَفْتِنَنا ، أرأيت إذا أنزلتْ فتنة ، كيف أصنع ؟ فقال : عليكَ كتابَ الله تعالى، قال: أفرأيت إن جاء قومٌ كلّهم يدعو إلى كتاب الله تعالى ؟ فقال ابنُ مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا اختلف النّاس كان ابن سُمَيّة مع الحقّ » ، يعنى عمّارا .

* * *

وروى ابن ديزيل ، قال : حدثنا يحيى بن زكريا[2] ، قال : حدّثنا علىّ بن القاسم، عن سعيد بن طارق ، عن عثمان بن القاسم ، عن زيد بن أرقم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « ألا أدلّكم على ما إن تَساءلتم عليه لم تَهْلِكوا ؟ إنّ وَلِيّكم الله ، وإن إمامكم علىّ بن أبى طالب ، فناصحوه وصدّقوه ، فإن جبريل أخبرنى بذلك » .

فإن قلت : هذا نصّ صريح فى الإمامة ، فما الذى تصنع المعتزلة بذلك ؟

قلت : يجوز أن يريدَ أنّه إمامهم فى الفتاوَى والأحكام الشرعيّة ، لا فى الخلافة . وأيضا فإنا قد شرحنا من قول شيوخنا البغدادين ما محصّله : إنّ الإمامة كانت لعلىّ

---

(١) ب : « عمر » . (٢) ب : « زكريا بن يحيى » .

عليه السلام إن رغب فيها ونازع عليها ، وإن أقرّها فى غيره وسكتَ عنها تولّينا ذلك الغير ، وقلنا بصحة خلافته ، وأميرُ المؤمنين عليه السلام لم ينازع الأئمة الثلاثة ، ولا جرّد السيف ، ولا استنجد بالناس عليهم ؛ فدلّ ذلك على إقراره لهم على ما كانوا فيه ؛ فلذلك تولّيناهم ، وقلنا فيهم بالطهارة والخير والصلاح ، ولو حارَبهم وجَرّد السيف عليهم ، واستصرخ العرَب على حَرْبهم لقلنا فيهم ما قلناه فيمن عامله هذه المعاملة ، من التفسيق والتضليل .

***

قال ابن ديزيل : وحدّثنا عمرو بن الربيع ، قال : حدثنا السّرىّ بن شيبان ، عن عبد الكريم ، أنّ عمر بن الخطاب قال لما طُعِن : ياأصحابَ محمد تناصحوا ؛ فإنكم إن لم تفعلوا غَلَبكم عليها عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان .

قلت : إنّ محمد بن النعمان المعروف بالمُفيد أحد الإمامية قال فى بعض كتبه : إنّما أراد عمر بهذا القول إغراء معاوية وعمرو بن العاص بطلب الخلافة وإطماعَهما فيها ، لأنّ معاوية كان عامله وأميره على الشام ، وعمرو بن العاص عامله وأميره عَلَى مصر ، وخاف أن يَضْعف عثمان عنها ، وأن تَصير إلى علىّ عليه السلام ، فألقَى هذه الكلمةَ إلى الناس لتنقل إليهما ـ وهما بمصر والشام ـ فيتغلبا عَلَى هَذَيْن الإقليمين إن أفضَتْ إلى علىّ عليه السلام .

وهذا عندى من باب الاستنباطات التى يُوجبها الشنآن والحَنَق ، وعمر كان أتْقَى لله من أن يخطُر له هذا ، ولكنه من فراسته الصادقة التى كان يعلم بها كثيرا من الأمور المستقبلة ؛ كما قال عبد الله بن عباس فى وصفه : والله ما كان أوس بن حَجَر عَنَى أحدا سواه بقوله :

الألمعىّ الذِى يظنّ بكَ الظّنّ كأنْ قَدْ رَأى وَقَدْ سَمِعَا[1]

***

(١) ديوانه ١٣ .

وروى ابن دِيزيل ، عن عَفّــان بن مسلم ، عن وهب بن خالد ، عن أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أبي الأشعث ، عن مُرة بن كعب ، قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله فتنة فقرّبها ، فمرّ رجل قد تقنّع بثوبه ، فقال عليـه السلام : « هذا وأصحابه يومئذ عَلَى الحقّ » ، فقمت إليه فأخذت بمنكبه ، فقلت : هو هذا ؟ فقال : نعم ، فإذا هو عثمان ابن عفان .

قلت : هذا الحديث قد رواه كثير من محقّقى أصحاب الحديث، ورواه محمد بن إسماعيل البخاريّ فى " تاريخه الكبير " بعدة روايات . وليس لقائل أن يقول : فهذا الحديث إذا صححتموه كان حُجّة للسُّفيانية ؛ لأنا نقول : الخبرُ يتضمن أن عثمانَ وأصحابه على الحقّ، وهذا مذهبنا ، لأنا نذهب إلى أنّ عثمان قتل مظلوما ، وأنه وناصِرِيه يوم الدار عَلَى الحقّ ؛ وأنّ القوم الذين قتلوه لم يكونوا عَلَى الحقّ ؛ فأما معاويةُ وأهل الشام الذين حاربوا عليًّا عليه السلام بِصِفّين فليسوا بداخلين فى الخبر ؛ ولا فى ألفاظ الخــبر لفظ عموم يتعلّق به ، ألا ترى أنّه ليس فيه كلّ مَنْ أظهر الانتصار لعثمان فى حياته وبعد وفاته فهو عَلَى الحقّ ، وإنّما خلاصته أنه ستقوم فِتْنة ، يكون عثمان فيها وأصحابه عَلَى الحقّ ، ونحن لا نأبَى ذلك ، بل هو مذهبنا .

* * *

وروى نصر بن مزاحم فى كتاب " صفّين " قال : [1] لما قَدم عبيدُ الله بن عمر ابن الخطاب عَلَى معاوية بالشام ، أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص : إنّ الله قد أحيا لك عمر بن الخطاب بالشّام بقدوم عبيدالله بن عمر ، وقد رأيتُ أن أقيمه خطيبا يشهد عَلَى علىّ بقتل عثمان ، وينالُ منه ، فقال : الرأىُ ما رأيتَ ، فبعث إليه ، فأتاه ، فقال له معاوية : يابن أخى ، إنّ لك

---

(١) وقعة صفين ٩٢ — ٩٤

اسمَ أبيك فانظر بملء عينيك ، وانطق بملء فيك ، فأنت المأمون المصدّق ، فاصعدِ المنبر واشتِم عليًّا ، واشهد عليه أنّه قتل عثمان .

فقال : أيها الأمير ، أما شتمهُ ؛ فإن أباه أبو طالب ، وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، فما عسى أن أقول فى حسبه ! وأمّا بأسُه فهو الشجاع المطرِق ، وأما أيامُه فما قد عرَفت ؛ ولـكنى ملزِمُه دمَ عثمان ، فقال عمرو بن العاص : قد وأبيك إذَنْ نـكأت القرْحة .

فلما خرج عبيد الله بن عمر ، قال معاوية : أما والله لولا قتلُه الهُرْمزان ، ومخافَتُه عليًّا عَلَى نفسه ما أتانا أبدا ؛ ألا ترى إلى تقريظه عليًّا ! فقال عمرو : يا معاوية ، إن لم تَغْلب فاخْلُب ، قال : وخرج حديثهما إلى عبيد الله ، فلما قام خطيبا تـكلّم بحاجته ، فلما انتهى إلى أمرِ علىّ أمسك ولم يقل شيئا ، فلما نزل بعث إليه معاوية : يابن أخى ؛ إنك بين عِىّ وخيانة ، فبعث إليه : إنى كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان ، وعرفت أنّ الناس محتملوها عنّى فتركتها .

قال : فهجَره معاوية واستخفّ به وفسّقه ، فقال عبيد الله :

مُعَاوِىَ لم أحْرَضْ بخُطْبَةِ خاطبٍ ... ولم أكُ عيًّا فى لُوَىٍّ بن غالبِ(١)
ولـكنّنِى زاولتُ نفسا أبيّـــةً ... على قَذْفِ شيخٍ بالعراقين غائب
وقذفى عليًّا بابن عفّانَ جَهْرَةً ... كِذابٌ ، وما طِبّى سَجَايا المُكاذِبِ(٢)
ولـكنّه قد قرّب القوم جُهدَه ... ودبُّوا حواليْه دبيبَ العقاربِ
فمَا قالَ : أحْسَنتم ولا قد أســأتمُ ... وَأطرَق إطراق الشُّجاع المواثب

---

(١) لم أحرض : لم أكل ولم أعى . وفى صفين : « لم أخرس » ، أى لم أكذب .
(٢) رواية كتاب صفين :

* يُجدّعُ بالشّحْنَا أنوفَ الأقاربِ *

فأمّا ابن عفـــانٍ فأشْهَدُ أنه أصيبَ بريئا لابساً ثوبَ تائبِ[١]
وَقَدْ كانَ فيها للزبير عَجَاجَــةٌ وطلحةُ فيها جاهدٌ غـــير لاعبِ
وَقَدْ أظْهَرَا مِنْ بَعْدِ ذَلكَ تَوْبَةً فياليت شِعْرِى ما هُما فى العواقب !

قال : فلما بلغ معاوية شعره بعث إليه فأرضاه ، وقال : حسبى هذا منك .

* * *

وروى نصر ، عن عبيد الله بن موسى ، قال : سمعتُ سُفيان بن سعيد المعروف بسُفْيان الثورىّ ، يقول : ما أشكّ أنّ طلحة والزبير بايعا عليًّا ، وما نقما عليه جَوْراً فى حُكْم ولا استئثارا بفىء ؛ وما قاتل عليّا أحدٌ إلا وعلىٌّ أولى بالحق منه .

وروى نصر بن مُزاحم أنّ عليا عليه السلام قدِم من البصرة فى غُرّة شهر رجب من سنة ست وثلاثين إلى الكوفة ،وأقام بها سبعة عشر شهرا ، تجرى الكتُب بينه وبين معاوية وعمرو بن العاص ، حتى سار إلى الشام .

قال نصر :[٢] وقد رُوِى من طريق أبى الكنود وغيره أنه قَدِم الكوفة بعد وقعة الجمل ، لاثنتى عشرة ليلة خَلَتْ من شهر رجب سنة ست وثلاثين .

قال نصر : فدخل الكوفَةَ ومعه أشراف الناس من أهل البصرة وغيرهم ، فاستقبله أهلُ الكوفة ، وفيهم قرّاؤهم وأشرافُهم ، فدعوْا له بالبَرَكة ، وقالوا : يا أمير المؤمنين ، أين تنزل ؟ أتنزل القصر ؟ قال : لا ، ولكنى أنزل الرّحبة ، فنزلها وأقبل حتى دخل المسجدَ الأعظم ، فصلّى فيه ركعتين ، ثم صعِد المنبر فحمد الله ، وأثنى عليه وصلّى على رسوله ، ثم قال :

---

(١) بعده فى كتاب صفين :
حَرَامٌ عَلَى آهالِهِ نَتْفُ شَعْرِهِ فكيفَ وَقَدْ جَازَوْهُ ضَرْبَةَ لازِبِ
(٢) وقعة صفين ٥ ـ ٨ .

أما بعد يا أهل الكوفة ؛ فإنّ لكم فى الإسلام فَضْلا ما لم تبدِّلوا وتغيّروا ، دعوتُكم إلى الحق فأجبتم ، وبدأتم بالمنكر فغيّرتم ، ألا إنّ فضلكم فيما بينكم وبين الله ، فأمّا فى الأحكام والقَسْم فأنتم أسوة غيركم ممن أجابكم ، ودخل فيما دخلتم فيه . ألا إنّ أخوَف ما أخاف عليكم اتباعُ الهوى ، وطول الأمل ؛ أما اتّباعُ الهوَى فيصدّ عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة ؛ ألا إنّ الدنيا قد ترَحَّلَتْ مدبرة ، وإن الآخرة قد ترَحّلت مقبلة ؛ ولكلّ واحدة منهما بنون ؛ فكونوا من أبناء الآخرة . اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل ؛ الحمد لله الّذِى نَصَر وليَّه ، وخَذَل عدوّه ، وأعزّ الصادق المحق ، وأذلّ الناكِث المبطل .

عليكم بتقوَى الله وطاعة مَنْ أطاع الله من أهل بيت نبيّكم ، الذين هم أولى بطاعتكم فيما أ اعوا الله فيه من المستحلّين المدّعين القابلين[1] إلينا ؛ يتفضلون بفضلنا ، ويجاحدوننا أمرَنا ، وينازعوننا حقّنا ، ويُباعدوننا عنه ، فقد ذاقُوا وَبَال ما اجترحوا فسوف يلقوْن غيّا . ألا إنه قد قَعَدَ عن نصْرَتى رجال منكم ؛ وأنا عليهم عاتبٌ زارٍ ؛ فاهجرُوهم وأسمعوهم ما يكرهون ، حتى يُعتِبُوا[2] ليعرف بذلك حزبُ الله عند الفرقة .

فقام إليه مالك بن حبيب اليربوعىّ — وكان صاحبَ شُرطته — فقال : والله إنى لأرى الهُجْر وسماع المكروه لهم قليلا ، والله لو أمرتنا لنقتلنّهم . فقال على عليه السلام : سبحان الله يا مالِ ! جُزْت المَدَى ، وعَدَوْت الحدّ ، فأغرقت[3] فى النّزْع . فقال : ياأمير المؤمنين ، لَبَعْض الغَشْم أبلغُ فى أمرٍ يَنُوبُك من مهادنة الأعادى ؛ فقال علىّ عليه السلام : ليس هكذا قضى الله ، يا مالِ ، قال سبحانه : ﴿ النَّفْسَ بالنَّفْسِ ﴾[4] فما بالُ ذِكْرِ الغَشْم !

---

(١) كذا فى ج وصفين ، وفى ا ، ب : « القائلين إلينا » .
(٢) الإعتاب : إعطاء العتبى ، وهى الرضا (٣) ا ، ج : « وأغرقت » .
(٤) سورة المائدة ٤٥ .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ ﴾(١). والإسراف فى القتل أن تقتل غيرَ قاتلك ، فقد نَهى الله عنه ، وذاك هو الغَشْم .

فقام إليه أبو بُرْدة بن عوْفٍ الأزدىّ ـ وكان ممّن تخلّف عنه ـ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أرأيت القتْلى حول عائشةَ وطلحةَ والزبير ، علام قُتِلوا ؟ ـ أوقال : بم قتلوا ؟ ـ فقال علىّ عليه السلام : قُتِلوا بما قَتَلُوا شِيعتى وعُمّالى ، وقتلوا أخا ربيعة العبدىّ فى عِصابة من المسلمين ، قالوا : إنّا لا نَنْكُث كما نكثتم ، ولا نَغْدِر كما غدرتم ؛ فوثبوا عليهم فقتلوهم ، فسألتهم أنْ يدفعوا إلىّ قَتَلَة إخوانى أقتلهم بهم ، ثم كتابُ الله حَكَمٌ بينى وبينهم ، فأبوْا علىّ ، وقاتلونى ـ وفى أعناقهم بَيْعتى ، ودماء قريب من ألف رجل مِنْ شيعتى ـ فقتلتُهم ، أفى شكّ أنتَ من ذلك ! فقال : قد كنتُ فى شَكّ ، فأمّا الآن فقد عرَفْتُ ، واستبان لى خطأ القوم ، وإنك المهتدِى المصيب .

قال نصر : وكان أشياخ الحىّ يذكرون أنه كان عُثمانيًّا ، وقد شَهِد على ذلك صِفّين مع علىّ عليه السلام ، ولكنّه بعد ما رجع كان يكاتِبُ معاوية ، فلما ظهر معاوية أقطعه قطيعةً بالفلُّوجة(٢) ، وكان عليه كريما .

قال : ثم إنّ عليًّا عليه السلام تهيّأ لينزل ، وقام رجالٌ ليتكلّموا ، فلما رأوْه نَزَل جلسوا وسكتوا .

قال : ونزل علىٌّ عليه السلام بالكوفة على جَعْدة بن هبيرة المخزومىّ .

قلت : جَعْدة ابن أخته أم هانئ بنت أبى طالب ، كانت تحت هُبيرة بن أبى وهب المخزومىّ ، فأولدها جَعدة ، وكان شريفا .

* * *

(١) سورة الإسراء ٣٣ .

(٢) فى مراصد الاطلاع : الفلوجة الكبرى والفلوجة الصغرى : قريتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر . قلت : والمشهور هى هذه التى على شاطئ الفرات ، عندها فم نهر الملك من الجانب الشرقى .

قال نصر : ولما[١] قدم عليّ عليه السلام إلى الكوفة نزل على باب المسجد ، فدخلَ فصلّى ، ثم تحوّل فجلس إليه الناس ، فسأل عن رجل من الصحابة كان نزل الكوفة ، فقال قائل : استأثر الله به ، فقال عليّ عليه السلام : إن الله تبارك وتعالى لا يستأثر بأحد من خَلْقه ؛ إنما أراد الله جلّ ذكره بالموت إعزازَ نفسه ؛ وإذلالَ خَلْقه ،وقرأ :﴿ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾[٢] ؛ قال نصر : فلما لحقه عليه السلام ثَقَلُه قالوا : أَنَنْزِل القصر ؟ فقال : قصر الخبال ، لا تنزلوا فيه[٣] .

* * *

قال نصر : ودخل[٤] سليمان بن صُرَد الخزاعيّ على عليّ عليه السلام ؛ مرجِعَه[٥] من البَصْرة ، فعاتبه وعَذَله ، وقال له : ارتبتَ وتربّصت وراوغْت ؛ وقد كنتَ من أوثق الناس في نفسي ، وأسرعهم فيما أظنّ إلى نُصْرتي ؛ فما قَعَدَ بكَ عن أهل بيت نبيّك ؟ وما زهدك في نصرتهم ؟

فقال: ياأمير المؤمنين ، لا تردّنّ الأمور على أعقابها، ولا تؤنّبْني بما مضى منها،واستبقِ مودّتي تخلصْ لك نصيحتي ؛ فقد بقيت أمورٌ تعرف فيها عدوّك من وَلِيّك .

فسكتَ عنه ، وجلس سليمانُ قليلا ، ثم نهض ، فخرج إلى الحسن بن عليّ عليه السلام؛ وهو قاعد في باب المسجد ، فقال : ألا أُعجِّبُك من أمير المؤمنين ، وما لقيتُ منه من التوبيخ والتبكيت ؟ فقال الحسن : إنما يعاتَبُ مَنْ تُرجَى مودّته ونصيحتُه ، فقال : لقد وَثَبَتْ أمور سَتُشْرَع فيها القَنا ، وتُنتضَى فيها السيوف ، ويحتاجُ فيها إلى أشباهي ، فلا

---

(١) كتاب صفين ٨ .
(٢) سورة البقرة ٢٨ .
(٣) صفين : « لاتنزلونيه » .
(٤) وقعة صفين ٩
(٥) وقعة صفين : « بعد رجعته » .

تستغِشُّوا عَتْبي[١] ، ولا تتّهموا نصحى .

فقال الحسن : رحمك الله ، ماأنتَ عندنا بظَنين[٢] .

قال نصر : ودخل عليه سعيد بن قيس الأزدِىّ ، فسلّم عليه ، فقال : وعليك السلام وإنْ كنتَ من المتربّصين ! قال : حاش لله ياأمير المؤمنين ! فإنى لست من أولئك .

فقال : لعلّ الله فعل ذلك .

* * *

قال نصر : وحدثنا[٣] عمر بن سعد ، قال : حدّثنا يحيى بن سعيد ، عن محمد بن مِخْنف ، قال : دخلتُ مع أبى علَى علىّ عليه السلام ، مقدَمه[٤] من البصرة ، وهو عام بلغتُ الحُلُمَ ؛ فإذا بين يديه رجال يؤنّبهم ، ويقول لهم : ماأبطأ بكم عنّى، وأنتم أشرافُ قومكم ! والله إن كان من ضَعْف النيّة وتقصير البصيرة ؛ إنكم لَبُور[٥] ، وإن كان من شكّ فى فضلى ومظاهرة علىّ ؛ إنكم لعدوّ .

فقالوا : حاش لله ياأمير المؤمنين ! نحن سِلْمك وحَرْب عدوّك . ثم اعتذر القوم فمنهم من ذَكَر عذرا ، ومنهم من اعتلّ بمرض ؛ ومنهم من ذكر غيبة ؛ فنظرت إليهم فعرفتهم ؛ فإذا عبد[٦] الله المعتمّ العبسىّ ؛ وحنظلة بن الرّبيع التميمىّ ؛ وكلاهما كانت له صحبة؛ وإذا أبو بُرْدة بن عوف الأزدىّ ؛ وإذا غريب بن شُرَحبيل الهَمْدانىّ .

قال : ونظر علىّ عليه السلام إلى أبى ، فقال : ولكن مِخْنف بن مسلم وقومه لم يتخلّفوا، ولم يكن مَثَلُهم كمثَلِ القوم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فإنْ

(١) لاتستغشوا عتبي ؛ أى لاتظنوا عتابى لكم غشا .
(٢) الظنين : المتهم ؛ وأصله : « مظنون » .
(٣) وقعة صفين ١٠
(٤) وقعة صفين : « حين قدم » .
(٥) لبور ؛ أى هالكون ، جمع بلفظ المفرد .
(٦) فى الأصول : « عبيد الله » صوابه من صفين .

أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (١) .

قال نصر : ثم (٢) إن علياً عليه السلام مكث بالكوفة ، فقال الشنّيّ فى ذلك، [شن بن عبد القيس] (٣) :

قُلْ لِهذا الإمَامِ قَدْ خَبَتِ الْحَرْ ... بُ وتَمَّتْ بذلِكَ النَّعْمَــــاء
وَفَرَغْنَا مِنْ حَرْبِ مَنْ نَقَضَ الْعَهـــدَ ... وبالشـامِ حَيَّــة صَمَّاء
تَنفُثُ السّمَّ مالِمَنْ نَهَشَتْه ... ـ فارْمِها قبل أن تَعَضَّ ـ شِفــاء (٤)
إنه ـ والّذى يحجُّ له النَّا ... سُ ومِنْ دُونِ بَيْتِهِ البَيْـداء
لَضَعِيفُ النُّخَاعِ إنْ رُمِىَ اليو ... مَ بخيـــلٍ كأنها أشْلَاء (٥)
تَتَبَارَى بكلّ أصيــد كالفحْ ... لِ بكفّيــهِ صَعْــدةٌ سَمْـرَاء (٦)
إنْ تَذَرْهُ فمـا معـاويةُ الدّهْ ... رَ بمعطيكَ ما أَراكَ تَشَــاء
وَلَنَيْلُ السَّماء أقربُ مِنْ ذا ... كَ ونجمُ العَيُّوقِ والعوّاء (٧)
فَاعْــدُ بالْجِدِّ والحديدِ إليهمْ ... ليسَ واللهِ غيرَ ذاكَ دَوَاء

---

(١) سورة النساء ٧٢ ، ٧٣ . (٢) كتاب صفين ١١ ، ١٢ .
(٣) تكملة من كتاب وقعة صفين ؛ وهو الأعور الشنى ، واسمه بشر بن منقذ ، أحد بنى شن بن أقصى بن عبد القيس . وانظر المؤتلف والمختلف للآمدى ٣٨ .
(٤) فى اللسان : « قيل للحية التى لاتجيب الراقى صماء ؛ لأن الرقى لاتنفعها » .
(٥) أشلاء الإنسان : أعضاؤه ، وبعده فى كتاب صفين :

جانِحاتٍ تحتَ العجاجِ سِخَالاً ... مُجْهَضَاتٍ تخالُها الأشْلَاء

(٦) الصعدة : القناة المستوية التى لاتحتاج إلى التثقيف .
(٧) العيوق : نجم أحمر مضىء فى طرف المجرة الأيمن ، يتلو الثريا لايتقدمها . والعواء : منزل للقمر .

قال نصر : وأتمّ علىّ عليه السلام صلاته يوم دخل الكوفة ، فلما كانت الجمعة خطب الناس ، فقال :

الحمدُ لله الذى أحمَده[١] وأستعينه وأستهديه ، وأعوذُ بالله من الضلالة ؛ مَنْ يَهْدِ الله فلا مُضِلَّ له ، ومَنْ يُضْلِل فلا هادىَ له ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، انتجبه لأمره ،واختصّه بنبوّته . أكرمُ خَلْقه عليه ، وأحبُّهم إليه ، فبلّغ رسالة ربّه ، ونصح لأمته ، وأدّى الذى عليه .

أوصيكم بتقوى الله، فإنّ تقوى الله خيرُ ماتَوَاصَى به عبادُ الله ، وأقربُه إلى رضوان الله، وخيرُه فى عواقب الأمور عند الله ، وبتقوى الله أُمِرْتُم ، وللإحسان والطاعةِ خلقتم ؛ فاحذروا من الله ماحذّرَكم من نفسه ، فإنه حذّر بأساشديدا، واخشوا خشية ليست بتعذير[٢] واعملوا فى غير رياء ولا سُمْعة ؛ فإنّه من عمل لغير الله وَكَلَه الله إلى ماعمل له ، ومن عمل لله مخلصا تولّى الله أجرَه . أشفقوا مِن عذاب الله ؛ فإنه لم يخلقكم عَبثا ، ولم يترك شيئاً من أمركم سُدًى ؛ قد سمّى آثاركم ، وعلِم أعمالكم ، وكتب آجالكم ؛ فلا تغترّوا بالدنيا فإنّها غرّارة لأهلها ،مغرور مَنْ اغترّ بها ، وإلى فَنَاءٍ ماهى ، وإن الآخرة هى دارُ الحيوان لو كانوا يعلمون . أسأل الله منازلَ الشهداء ، ومرافقةَ الأنبياء ، ومعيشة السعداء ، فإنما نحن به وله[٣] .

قال نصر : ثم[٤] استعمل على عليه السلام العمّال وفرّقهم فى البلاد ؛وكتب إلى معاوية مع جَرير بن عبد الله البَجَلىّ ماتقدم ذكره .

---

(١) صفين : « إن الحمد لله أحمده » .
(٢) التعذير هنا : الإهمال والتقصير .
(٣) صفين ١٣ .
(٤) كتاب صفين ١٤ ؛ وفيه : « ثم إن عليا أقام بالكوفة واستعمل العمال » .

قال نصر:(١) وقال معاوية لعمرو بن العاص ، أيام كان جريرٌ عنده ينتظر جوابَه: إنّى قد رأيتُ أن نُلقِىَ إلى أهل مكّة وأهلِ المدينة كتاباً، نذكر فيه أمْرَ عثمان ؛ فإمّا أن ندرِك به حاجتنـا ، أو نـكفّ القوم عنا ، فقال له عمرو : إنما تـكتب إلى ثلاثة نفر : رجلٍ راضٍ بعلىّ فلا يزيده كتابُك إلا بصيرة فيـه ، أو رجلٍ يهوَى عثمان ؛ فلن يزيدَه كتابُك على ماهو عليه ، أو رجلٍ معتزلٍ ، فلست فى نفسه بأوثقَ من علىّ .

قال : علىّ ذاك ، فـكتبا :

أما بعد ؛ فإنه مهما غابَ عَنّا من الأمور فلم يغب عنّا أن عليا قتل عثمان ؛ والدليلُ على ذلك مكانُ قتلتــه منه ؛ وإنّما نطلب قتلته ؛ حتى يُدفعوا إلينــا ، فنقتُلَهم بكتاب الله عَزّ وجلّ ، فإن دفعهم علىّ إلينا كَفَفْنا عنه ؛ وجعلناها شورى بين المسلمين على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب . فأمّا الخلافة فلسنا نطلُبها ، فأعينونا على أمرنا هـذا ، وانهضوا من ناحيتـكم ؛ فإنّ أيدينا وأيديـكم إذا اجتمعت على أمر واحد هاب علىّ ماهو فيه ، والسلام .

فـكتب إليهما عبد الله بن عمر :

أما بعدُ ، فلعمرى لقد أخطأتُما موضع النُّصرة وتناولتُماها من مكان بعيد ؛ ومازاد الله من شكّ فى هذا الأمر بكتابكما إلا شكّاً ،وما أنتما والمشورة ،وما أنتما والخلافة!أمّاأنتَ يامعاوية فطَليق ، وأما أنت ياعمرو فظَنين(٢)، ألا فـكفّا أنفسكما ، فليس لـكم فينا ولىّ ولا نصير . والسلام .

قال نصر : وكتب(٣) رجل من الأنصار إليهما مع كتاب عبد الله بن عمر :

---

(١) كتاب صفين ٧٠ ، ٧١ .
(٢) كتاب صفين : « فظنون » ، والظنين والظنون بمعنى المتهم .
(٣) صفين ٧١ .

مُعَاوِىَ إنّ الحقَّ أبلجُ واضحٌ ... وليس بما رَبَّصْتَ أنتَ ولا عَمْرُو
نصبتَ ابن عفانٍ لنا اليوم خُدْعةً ... كما نُصِبَ الشيخان إذ قُضِىَ الأمر[١]
ـ يعنى طلحة والزبير رحمهما الله ـ
فَهذَا كَهذَاكَ البلا حَذْوَ نَعْلِه ... سواءٌ كَرَقْرَاقٍ يَغُرُّ به السَّفْرُ[٢]
رَمَيْتُمْ عَلِيًّا بالّذى لَا يَضِيرُهُ ... وإنْ عَظُمَتْ فيهِ المَكيدةُ والمَكْرُ[٣]
وَمَا ذَنْبُهُ إن نالَ عثمانَ معشرٌ ... أتوْه من الأحْيَاء تجمعُهُمْ مِضَرُ
فثار إليه المسلونَ ببيْعةٍ ... علانيةً ما كان فيها لهم قسْرُ
وَبايعهُ الشَّيْخان ثم تحمّلَا ... إلى العُمْرَةِ العُظْمَى وباطنُها الغَدْرُ
فكانَ الّذِى قد كان مما اقتصاصُه ... يطولُ ؛ فيالله ماأحْدَثَ الدّهْرُ[٤]
وَمَا أنتما والنّصرَ مِنّا وأنْتما ... بَعيثا حُرُوب مايبوخُ لها جَمْرُ[٥]
وما أنتما لله دَرُّ أبيكُما ... وذِكْرَكما الشُّورَى وقدوَضَحَ الفَجْرُ[٦]

* * *

قال نصر[٧] : وقام عدىّ بن حاتم الطائىّ إلى علىّ عليه السلام، فقال : ياأميرَ المؤمنين، إن عندى رجلًا لايوازَى[٨] به رجل ، وهو يريد أن يزورَ ابن عمّه حابس بن سَعْد الطائىّ بالشام ، فلو أمرناه أن يلقَى معاوية لعلّه أنْ يكسره ويكسر أهلَ الشام ، فقال على

---

(١) كتاب صفين : « إذ زخرف الأمر » .
(٢) الرقراق : مايتراءى للمسافر من رمال الصحراء كأنها الماء .
(٣) كتاب صفين : « لايضره » .
(٤) اقتصاصه : قصه وحكايته ، وفى صفين : « رجيع فيا لله ما أحدث الدهر » .
(٥) يبوخ الجمر : ينطفئ .
(٦) صفين : « وقد فلج الفجر » .
(٧) صفين ٧١ ـ ٧٤ .
(٨) صفين : « لايجارى به » .

عليه السلام : نعم ، فأمَره عدىّ بذلك[١] ـ وكان اسمُ الرجل خُفافَ بن عبدالله .

فقدم على ابن عمّه حابس بن سعد بالشام ـ وحابس سيد طَيّ بها ـ فحدث خُفاف حابسا أنه شهد عثمان بالمدينة ، وسار مع علىّ إلى الكوفة ، وكان خُفاف لسان وهيئة وشِعْر ، فغدا حابس بخُفاف إلى معاوية ، فقال : إنّ هذا ابنُ عمّ لى ، قدم الكوفة مع علىّ ، وشهد عثمان بالمدينة،وهو ثقة. فقال له معاوية : هات ، حدّثنا عن عثمان ، فقال: نعم حصره المكشوح [وحُكّم فيه حُكيم ، ووليه عمار ، وتجرد فى أمره ثلاثة نفر : عدىّ بن حاتم] [٢] والأشتر النخعىّ ، وعمرو بن الحمق ، وجدّ فى أمره رَجُلان وطلحة والزُّبير، وأبرأ الناس منه علىّ . قال: ثم مَهْ ، قال : ثم تهافَتَ الناس على علىّ بالبيعة تهافُتَ الفَراش ،حتى ضاعت النعل[٣] وسقط الرّداء ، ووُطِئَ الشيخ . ولم يذكر عثمان ولم يُذكر له ، ثم تهيّأ للسير ، وخفّ معه المهاجرون والأنصار ، وكره القتال معه ثلاثة نفر : سعد ابن مالك،وعبدالله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، فلم يستكره أحداً ، واستغنى بمن خَفّ معه عَمّن ثَقُل . ثم سار حتى أتى جبل طيْ ، فأتته منّا جماعة كان ضاربا بهم الناس ؛ حتى إذا كان ببعض الطريق أتاه مسيرُ طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة ، فسرّح رجالا إلى الكوفة يدعونهم؛ فأجابوا دعوته ، فسار إلى البصرة ، فإذا هى فى كفّه ،ثم قدم الكوفة فحمِل إليه الصبىّ ، ودبّت إليه العجوز ، وخرجت إليه العَرُوس فرحاً به وشوقاً إليه ؛ وتركته وليس له همة إلا الشام .

فذعِر معاوية من قوله ، وقال حابس : أيها الأمير ، لقد أسمعنى شعرا غيَّر به حالى فى عثمان ، وعظم به عليا عندى .

---

(١) صفين : « فره بذلك » .

(٢) مابين العلامتين تكملة من كتاب صفين .

(٣) صفين : « حتى ضلت النعل » .

فقال معاوية : أسمعنيه يا خُفاف ، فأنشده شعرا أوله :

قُلْتُ وَاللَّيلُ ساقِطُ الأكْنافِ ... وَلِجَنْبِي عَنِ الْفِرَاشِ تَجَافِ

ـ يذكر فيه حال عثمان وقتله ، وفيه إطالة عدلنا عن ذكره [١] ... ومن جملته :

قَدْ مَضَى مَا مَضَى وَمَرَّ به الدَّهْــرُ كما مَرَّ ذاهبُ الأسْلافِ [٢]

إنني والذى يَحُجُّ لَهُ النَّــا ... سُ على لُحَّقِ البُطون عِجافِ [٣]

تَتَبارَى مثل القِسِيِّ من النَّبْــعِ بشُعْثٍ مثلِ السِّهامِ نِحافِ [٤]

ارهَب اليَوم إن أتاكم علىٌّ ... صيْحةً مثل صَيْحَةِ الأحقافِ

إنه الليث غادياً وشُجَـاعٌ ... مُطْرِقٌ نافث بِسُمٍّ زُعافِ [٥]

واضعُ السيفِ فوق عاتقه الأيْـ ... ـمَن يَفْرِى به شئون القِحافِ [٦]

سَوَّمَ الخيـلَ ثم قال لقوم ... بايعوه إلى الطعان خِفافِ [٧]

استعدّوا لحربِ طاغية الشّا ... م فلبّوْه كاليدينْ اللطـافِ

ثم قالوا أنتَ الجناح لك الرِّيـ ... ـشُ القُدامى ونحن منه الخوافى [٨]

فانظُر اليوم قبل بادرة القو ... م بسلمٍ تَهمّ أم بخلاف [٩]

قال : فانكسر معاوية ، وقال : ياحابس ، إنى لأظنّ هذا عَيناً لعلىّ ، أخرجه عنك لئلا يُفسِد علينا أهل الشام .

---

(١) كلمة غير واضحة فى جميع الأصول .

(٢) القصيدة كاملة فى كتاب صفين ٧٣ ـ ٧٥ .

(٣) اللحق : جمع لاحق ؛ وهو الضامر من الخيل .

(٤) صفين : « مثل الرصاف » .

(٥) الشجاع هنا : الحية .

(٦) القحاف : عظام الجماجم . والشئون : مجتمع قبائل الرأس . وفى صفين : « يذرى » .

(٧) سوم الخيل : أعلمها بعلامة .

(٨) القدامى : الريشات التى تكون فى مقدمة الجناح ، الواحدة قادمة . والخوافى : ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت . وفى المثل : « ليس القوادم كالخوافى » .

(٩) صفين : « نادية القوم » .

قال نصر : وحدّثنا عطية بن غَنِيّ[١] ، عن زياد بن رستَم ، قال :[٢] كتب معاوية إلى عبدالله بن عمر خاصّة ، وإلى سعد بن أبى وقّاص ، وإلى محمد بن مسلمة ، دُونَ كتابه إلى أهل المدينة ، فكان كتابه إلى عبد الله بن عمر :

أما بعد ، فإنه لم يكن أحدٌ من قريش أحبَّ إلىّ أن يجتمعَ عليه الناس[٣] بعد قتل عثمان منك ، ثم ذكرتُ خَذلك إياه ، وطعنَك على أنصاره ، فتغيّرتُ لك ؛ وقد هوّن ذلك علىّ خلافُك عَلَى علىّ ، ومحا عنك بعضَ ما كان منك ، فأعِنّا ـ رحمك الله ـ عَلَى حقّ هذا الخليفة المظلوم ؛ فإنى لست أريد الإمارة عليك ، ولكنى أريدُها لك ؛ فإن أبيتَ كانت شورى بين المسلمين[٤] .

فأجابه عبد الله بن عمر :

أمّا بعد، فإنّ الرأى الذى أطمعك فىّ، هو الذى صيّرك إلى ماصيّرك إليه . أترُكُ عَليًّا فى المهاجرين والأنصار ، وطلحة والزبير وعائشة أمّ المؤمنين ، وأتّبعك ! وأمّا زعمُك أنى طعنتُ عَلَى علىّ ، فلعمرى ماأنا كعلىّ فى الإيمان والهجرة ، ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونكايته فى المشركين ؛ ولكنّى عهد[٥] إلىّ فى هذا الأمر عهدٌ ، ففزِعْت فيه إلى الوقوف وقلت : إن كان هذا هُدًى ففضلٌ تركتُه ، وإن كان ضلالًا فشرٌّ نجوت منه ، فأغْنِ عَنّا نفسَك ، والسلام[٦] .

---

(١) كذا فى ا ، وصفين ، وفى ب : « عناء » ، وفى ج : « مغنى » .

(٢) كتاب صفين ٧٩ ، ٨٠ .

(٣) صفين : « الأمة » .

(٤) ذكر فى كتاب صفين أبياتا مطلعها :

أَلَا قُلْ لعبدِ اللهِ وَأَخْصُصْ مُحَمَّدًا ... وَفَارِسَنَا الْمَأْمُونَ سَعْدَ بْنَ مَالِكِ

(٥) صفين : « ولكن حدث أمر لم يكن من رسول الله إلىّ فيه عهد » .

(٦) فى كتاب صفين : « ثم قال لابن أبى غزية : أجب الرجل ـ وكان أبوه ناسكا ، وكان من أشعر قريش فقال » . . . وذكر أبياتا مطلعها :

مُعَاوِيَ لَا تَرْجُو الَّذِى لَسْتَ نَائِلًا ... وحاولْ نَصيراً غير سعدِ بن مالك

قال : وكان كتاب معاوية إلى سعد :

أما بعدُ ؛ فإنّ أحقّ الناس بنصر عثمان أهلُ الشورَى من قريش ؛ الذين أثبتُوا حَقّه واختاروه على غيره ، وقد نَصَرَه طلحة والزبير ، وهما شريكان فى الأمر ، ونظيراك فى الإسلام ، وخَفّت لذلك أمّ المؤمنين ، فلا تكرهَنّ ما رضُوا ، ولا تردّنّ ما قبلوا ، فإنّا نردّها شورى بين المسلمين[١] .

فأجابه سعد :

أما بعدُ ؛ فإن عُمر لم يُدخِل فى الشّورى إلّا مَنْ تَحِلّ له الخلافةُ من قريش ؛ فلم يكن أحد منا أحقّ بها من صاحبه إلّا بإجماعنا[٢] عليه ؛ ألّا إن عليًّا كان فيه ما فينا ، ولم يكن فينا ما فيه ؛ وهذا أمر قد كرهتُ أولَه ، وكرهتُ آخره ؛ فأما طلحةُ والزبير فلو لزما بيوتَهما لكان خيراً لهما ، والله يغفر لأمّ المؤمنين ما أتت . والسلام[٣] .

قال : وكان كتاب معاوية إلى محمد بن مسلمة :

أما بعدُ ، فإنّى لم أكتبْ إليك وأنا أرجو مبايعتَك[٤] ؛ ولكنى أردتُ أن أذكّرك النّعمةَ التى خرجتَ منها ، والشكّ الذى صرت إليه ؛ إنك فارسُ الأنصار ، وعُدّة المهاجرين ؛ وقد ادّعيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرا لم تستطع إلا أن تمضىَ عليه؛ وهو أنّه نهاك عن قتال أهل القِبْلة[٥] ، أفلا نهيتَ أهلَ القبلة[٥] عن قتال بعضهم بعضا!

(١) فى كتاب صفين : ٨٣ « وقال شعرا » ؛ وذكر أبياتا أولها :

ألَا يا سَعْدُ قَدْ أَظْهَرْتَ شَكًّا وَشكُّ المرْءِ فِى الْأَحْداثِ دَاءُ

(٢) كتاب صفين : « باجتماعنا » .

(٣) فى كتاب صفين ٨٤ : « ثم أجابه فى الشعر » ، وذكر أبياتا أولها :

معاوِىَ داؤكَ الدّاءُ الْعياءُ فليسَ لما تجىءُ بهِ دَوَاءُ

(٤) كتاب صفين : « متابعتك » .

(٥) كتاب صفين : « الصلاة » .

فقد كان عليك أن تكرَه لهم ما كره رسول الله صلى الله عليه ، ألم تر عثمانَ وأهلَ الدار من أهل القبلة (١) ! فأما قومك فقد عَصَوُا الله ، وخذلوا عثمان ، والله سائلهم وسائلك عما كان يوم القيامة . والسلام .

قال : فكتب إليه محمد بن مسلمة :

أما بعد ، فقد اعتزلَ هذا الأمر مَنْ ليس فى يده من رسول الله صلى الله عليه مثل الذى فى يده ؛ قد أخبرنى رسول الله صلى الله عليه بالذى هو كائن قبل أن يكون ، فلما كان كسرتُ سيفى ، وجلست فى بيتى ، واتّهمت الرأىَ على الدّين ؛ إذ لم يصح لى معروف آمر به ، ولا منكر أنهى عنه. وأمّا أنت فلعمرى ماطلبت إلا الدنيا ، ولا اتّبعت إلا الهوى وإن تنصر عثمان ميّتاً فقد خذلته حيّاً ، والسلام (٢) .

***

[مفارقة جرير بن عبد الله البَجَلىّ لعلىّ]

قد أتينا علَى ما أردنا ذكره من حالِ أمير المؤمنين عليه السلام ، مذ قدم من حرب البصرة إلى الكوفة ، وما جرَى بينه وبين معاوية من المراسلات ، وماجرى بين معاوية وبين غيره من الصحابة من الاستنجاد والاستصراخ ؛ وماأجابوه به ؛ ونحن نذكرُ الآن ما جرى لجرير بن عبدالله عند عَوْده إلى أمير المؤمنين من تهمة الشيعة له بمالأة معاوية عليهم ، ومفارقته جنبةَ أمير المؤمنين .

قال نصر بن مُزاحم :(٣) حدثنا صالح بن صدقة ، بإسناده ، قال : قال لما رجع جريرٌ

(١) كتاب صفين : « الصلاة » .
(٢) تتمة الرسالة كما فى كتاب صفين ٨٦ : « فما أخرجنى الله من نعمة ، ولا صيرنى إلى شك ؛ إن كنت أبصرت خلاف ماتحبنى به ومن قبلنا من المهاجرين والأنصار ، فنحن أولى بالصواب منك » .
(٣) كتاب صفين ٦٦ — ٦٨ .

إلى عليّ عليه السلام ، كَثُر قول الناس فى التّهمة لجرير فى أمر معاوية ، فاجتمع جريرٌ والأشتر عند عليّ عليه السلام ، فقال الأشتر : أمَا والله يا أميرَ المؤمنين ، أن لو كنت أرسلتَنى إلى معاوية ، لـكنتُ خيراً لك من هذا الذى أرخَى خِناقة (١) ، وأقام عنده ؛ حتى لم يدعْ بابا يرجُو فتْحَه إلّا فتَحه ، ولا بابا يخاف أمرَه إلّا سدّه .

فقال جرير : لو كنتَ والله أتيتَهم لقتلوك — وخوّفه بعمرو ، وذى الكَلاع ، وحَوْشب —(٢) وقال : إنهم يزعمون أنك من قَتَلة عثمان .

فقال الأشتر: والله لو أتيتُهم ياجرير لم يُعيِنى جوابها ، ولم يثقل عليّ تَحمُلها ، ولحملت معاوية على خُطة أُعجِلهُ فيها عن الفِكْر .

قال : فائـتِهم إذاً . قال : الآن وقد أفسدتَهم ووقَع بينهمُ الشرّ !

وروى نصر ، عن عُمير بن وعلة ، عن الشعبى قال :(٣) اجتمع جرير والأشتر عند عليّ عليه السلام ، فقال الأشتر: أليس قد نهيتُك ياأميرَ المؤمنين أن تبعث جريرا ، وأخبرتُك بعداوته وغشّه ! وأقبل الأشتر يشتِمه، ويقول : ياأخا بَجيلة ،إنّ عثمان اشترى منك دينَك بهمَدان(٤)، والله ما أنت بأهلٍ أن تُترك تمشى فوق الأرض؛ إنما أتيتَهم لتتَّخِذَ عندهم يداً بمسيرِك إليهم ، ثم رجعتَ إلينا من عندهم ، تهددنا بهم ، وأنت والله منهم ، ولاأرى سعيَك إلا لهم ؛ لئن أطاعنى فيك أميرُ المؤمنين لَيحبسنّك وأشباهك فى حبس لاتخرجون منه حتى تَستَتِمّ هذه الأمور ، ويُهلِك الله الظالمين .

قال جرير : وددت والله أن لَوْ كنتَ مكانى بُعِثْتَ ؛ إذن والله لم ترجع .

---

(١) صفين : « من خناقه » . (٢) صفين : « وحوشب بن ظليم » .
(٣) كتاب صفين ٦٧ ، ٦٨ .
(٤) كذا فى ب وصفين ، وفى ج : « بهمذان » .

قال : فلما سمع جرير مثل ذلك من قوله ، فارقَ عليًّا عليه السلام ، فلحِق بقَرْقِيسياء[١] ولحق به ناس من قَسْر[٢] من قومه ، فلم يشهد صِفّين من قَسْر غير تسعة عشر رجلا ؛ ولكن شهدها من أحمس[٣] سبعمائة رجل .

قال نصر : وقال الأشتر فيما كان من تخويف من جرير إياه بعمرو وحَوْشب [وذى الكَلاع][٤] :

لعمرُك ياجريرُ لَقول عَمْرو وصاحبه معاوىَ بالشآم
وذى كَلَعٍ وحَوْشبَ ذى ظَلِيمٍ أخفُّ علىَّ من رِيشِ النعام[٥]
إذا اجتمعوا علىَّ فخلِّ عنهم وعن بازٍ مخالبُه دوامى
ولَسْتُ بخائفٍ ماخوّفونى وكيف أخاف أحلام النيامِ !
وهَمُّهمُ الذى حاموا عليه من الدّنيا ، وهَمّى ما أمامى[٦]
فإنْ أسْلَمْ أعمَّهُم بحرْبٍ يَشِيب لهولها رأسُ الغلامِ
وإنْ أهلِكْ فقد قدّمْتُ أمراً أفوز بفَلْجِه يومَ الخصامِ[٧]
وقد زادُوا علىّ وأوْعَدونى وَمَنْ ذا ماتَ من خَوْفِ الكلامِ !

* * *

[نسب جرير بن عبد الله البَجَلىّ وبعض أخباره]

وذكر ابن قتيبة فى " المعارف " ، أنّ جريراً قدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) قرقيسياء : بلد بالخابور عند مصبه .
(٢) قسر : رهط جرير بن عبد الله البجلى .
(٣) أحمس : بطن فى بجيلة .
(٤) من كتاب صفين .
(٥) صفين : « من زف النعام » . والزف : صغار ريش النعام .
(٦) ب : « وهمهما » .
(٧) الفلج : الفوز والانتصار .

سنة عشرٍ من الهجرة فى شهر رمضان ، فبايعه وأسلم ، وكان جريرٌ صبيح الوجه جميلا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « كأنَّ على وجهه مَسْحةَ ملَك. وكان عمر يقول : جرير يوسف هذه الأمة . وكان طُوالا يفتل فى ذِرْوة البعير من طوله ، وكانت نعله ذراعا، وكان يخضب لحيته بالزعفران من الليل ويغسِلُها إذا أصبح ، فتخرجُ مثلَ لون التِّبر . واعتزل عليًّا عليه السلام ومعاوية ، وأقام بالجزيرة ونواحيها حتى توفِّىَ بالشَّراة سنة أربعٍ وخمسين فى ولاية الضحاك بن قيس على الكوفة[1] .

* * *

فأما نسبه فقد ذكره ابن الكلبىّ فى " جمهرة الأنساب " ، فقال : هو جرير بن عبد الله ابن جابر بن مالك بن نضر بن ثعلب بن جُشَم بن عُوَيْف بن حرب بن علىّ بن مالك ابن سعد بن بدير بن قَسْر — واسمه ملك — بن عبقر بن أنمار بن أراش ابن عمرو بن الغوث بن نَبْت بن زيد بن كَهْلان .

ويذكر أهل السِّيَر أن عليًّا عليه السلام هدَم دار جرير ودور قوم ممّن خرج معه، حيث فارق عليًّا عليه السلام ، منهم أبو أراكة بن مالك بن عامر القَسْرى ، كان خَتَنه على ابنته ، وموضع داره بالكوفة كان يعرف بدار أبى أراكة قديما، ولعله اليوم نُسِى ذلك الاسم.

(١) المعارف ٢٩٢ ، وانظر طبقات فقهاء اليمن للجعدى ٤٥ ، ٤٦ .

(٤٤)

ومن كلام له عليه السلام لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيبانىّ إلى معاوية ، وكان قد ابتاع سبْىَ بنى ناجية من عامل أمير المؤمنين عليه السلام وأعتقه ، فلما طالبه بالمال خاس به وهرب إلى الشام، فقال :

الأصْـلُ :

قَبَحَ اللهُ مَصْقَلَةَ ! فَعَلَ فِعْلَ السَّادَةِ ، وَفَرَّ فِرَارَ الْعَبِيدِ ، فَمَا أَنْطَقَ مَادِحَهُ حَتَّى أَسْكَتَهُ ، وَلَا صَدَّقَ وَاصِفَهُ حَتَّى بَكَّتَهُ ، وَلَوْ أَقَامَ لَأَخَذْنَا مَيْسُورَهُ ، وَانْتَظَرْنَا بِمَالِهِ وُفُورَه .

الشَّـرْحُ :

خاس به يَخِيس ويخوس : أى غَدَرَ به ، وخاسَ فلان بالعهد : أى نكث .

وقَبَح الله فلانا : أى نحاه عن الخير ، فهو مقبوح .

والتبكيت ، كالتقريع والتعنيف . والوُفور . مصدر وَفَر المال : أى تمّ ، ويجىء متعدّيا . ويروى «موفوره» ، والموفور : التامّ ، وقد أخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

يَا مَنْ مَدَحْنَاهُ فأَكْذَبَنَا   بِفَعاله   وأثابنا خَجَلا
بُرداً قَشِيبا من مدائحنا   سُرْبِلْتَ فارْدُدْه لَنَا سَمَلا[1]
إنّ التّجارِب تَهتِك المستورَ مِنْ   أبنائها   وتُبَهْرِج الرَّجُلا

---

(١) السمل : الثوب البالى .

[نسب بنى ناجية]

فأمّا القول فى نَسَب بنى ناجية ؛ فإنّهم ينسبون أنفسَهم إلى سامة بن لؤىّ بن غالب ابن فهر بن مالك بن النَّضْر بن كنانة بن خُزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار ابن معدّ بن عدنان . وقريش تدفعهُم عن هذا النسب ، ويسمّونهم بنى ناجية — وهى أمهم — وهى امرأة سامة بن لؤىّ بن غالب ، ويقولون : إن سامة خرج إلى ناحية البحرين مُغاضِبا لأخيه كعب بن لؤىّ فى مُماظّة[1] كانت بينهما ، فطأطأت ناقتُه رأسَها لتأخذ العُشْب ، فعَلِق بِمِشْفَرِها أفعى ، ثم عطفت على قَتَبها فحكّته به ، فدبّ الأفعى على القَتَب حتى نهش ساق سامة فقتله ، فقال أخوه كعب بن لؤىّ يرثيه[2] :

عينُ جُودى لسامةَ بنَ لُؤَىّ ... عَلِقَتْ ساقَ سامةَ ألْعَلاقَهْ[3]

رُبّ كأسٍ هرَقْتَها ابن لُؤَىّ ... حَذَرَ الموتِ لم تَكُنْ مُهَراقَهْ

قالوا : وكانت معه امرأتُه ناجية ، فلما مات تزوّجَتْ رجلا فى البحرين ، فولدت منه الحارث ، ومات أبوه وهو صغير ، فلما ترعرع طمِعت أمه أنْ تُلْحِقه بقريش ، فأخبرتْه أنّه ابنُ سامة بن لؤى بن غالب ، فرحل من البحرين إلى مكة ومعه أمه ، فأخبر كعب ابن لؤى أنه ابن أخيه سامة ، فعرف كعبٌ أمّه ناجية ، فظنّ أنه صادق فى دعواه ، فقبِله ومكث عنده مدة ؛ حتى قَدِم مكةَ ركبٌ من البحرين ؛ فرأوا الحارث ، فسلّموا عليه ، وحادثوه ، فسألهم كعب بن لؤى : من أين يعرفونه ؟ فقالوا : هذا ابنُ رجلٍ من بلدنا يُعْرَف بفلان ، وشرحوا له خَبَره ، فنفاه كعب عن مكّة ونفى أمّه ، فرجعا إلى البحرين ، فكانا هناك ، وتزوّج الحارث ، فأعقب هذا العَقِب .

---

(١) المماظة : المخاصمة والمنازعة .

(٢) ويروى أن قائلة هذا الشعر امرأة أزدية كان سامة نزل بزوجها ، فى خبر وأبيات أخرى ذكره صاحب اللسان فى ١٢ : ١٩٥ (٣) العلاقة : المنية .

وقال هؤلاء : إنه رُوِىَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال : « عَمِّى سامة لم يُعقِب »[١] .

وزعم ابنُ الكلبيّ أن سامَةَ بن لؤىّ ولَدَ غالب بن سامة ، والحارث بن سامة — وأم غالب ابن سامة ناجية — ثم هَلَكَ سامة ، فخلف عليها ابنُه الحارث بن سامة ، نِكاحَ مَقْت[٢] ، ثم هلك ابنا سامة ولم يُعْقِبا ؛ وإنّ قوما من بنى ناجية بن جَرْم بن ربّان بن عِلاف ، ادّعوا أنهم بنو سامةَ بن لؤىّ ، وأنّ أمهم ناجية هذه ، ونسبوها هذا النسب ، وانتموا إلى الحارث بن سامة ، وهم الذين باعهم علىّ عليه السلام على مَصْقَلة بن هُبيرة . وهذا هو قول الهيثم بن عدىّ . كل هذا ذكره أبو الفرج الأصفهانى فى "كتاب الأغانى الكبير"[٣] .

ووجدت أنا فى "جمهرة النسب" لابن الكلبىّ كلاما قد صرّح فيه بأنّ سامة بن لؤىّ أعقَب ، فقال : ولَدَ سامة بن لؤىّ الحارث — وأمه هند بنت تَيم — وغالب بن سامة — وأمه ناجية بنت جَرْم بن بابّان ، من قُضاعة ، فهلك غالب بعد أبيه ؛ وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، فولد الحارث بن سامة لؤيا وعبيدة وربيعة وسعدا ، وأمهم سَلْمى بنت تَيم بن شَيْبان ابن محارب بن فهر وعبد البيت ، وأمه ناجية بنت جَرْم ، خَلَف عليها الحارث بعد أبيه بنكاح مَقْت ، فهم الذين قتلهم علىّ عليه السلام .

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : أما الزّبير بن بكّار ، فإنه أدخلهم فى قريش ؛ وهم قريش العازبة ، قال : وإنما سُمّوا العازبة ؛ لأنهم عَزَبوا عن قومهم فنُسِبوا إلى أمهم ناجية بنت جَرْم بن ربّان بن عِلاف ، وهو أول من اتّخذ الرّحال العِلافيّة ، فنسبت إليه ،

(١) بقية الخبر كما فى الأغانى : « وكان بنو ناجية ارتدوا عن الإسلام ، ولما ولى على بن أبى طالب رضى الله عنه الخلافة دعاهم إلى الإسلام ، فأسلم بعضهم وأقام الباقون على الردة ، فسباهم واسترقهم ، فاشتراهم مصقلة ابن هبيرة منه ، وأدى ثلث ثمنهم وأشهد بالباقى على نفسه ، ثم أعتقهم وهرب من تحت ليله إلى معاوية ، فصاروا أحراراً ، ولزمه الثمن ، فشعث على بن أبى طالب شيئا من داره ، وقيل بل هدمها . فلم يدخل مصقلة الكوفة حتى قتل على بن أبى طالب رضى الله عنه » .

(٢) نكاح المقت : أن يتزوج الرجل امرأة أبيه إذا طلقها أو مات عنها ؛ وكان يفعل فى الجاهلية وحرمه الإسلام .

(٣) الأغانى ١٠ : ٢٠٥ — ٢٠٧ (طبعة الدار) .

واسم ناجية ليلى ؛ وإنمـــا سميت ناجية ، لأنها سارت مع سَامَة فى مفازة ، فعطِشت ، فاستسقته ، فقال لها : الماء بين يديك ، وهو يُريها السراب ؛ حتى أتت إلى الماء فشَرِبت ، فسميت ناجية .

قال أبو الفرج : وللزبير بن بكار فى إدخالهم فى قريش مذهب ؛ وهو مخالفة أمير المؤمنين علىّ عليه السلام ، وميله إليهم ، لإجماعهم على بُغْضه عليه السلام ، حسب المشهور المأثور من مذهب الزُّبير فى ذلك .

***

[نسب علىّ بن الجهم وذكر طائفة من أخباره وشعره]

ومن المنتسبين إلى سامة بن لؤىّ علىّ بن الجهم الشاعر ، وهو علىّ بن الجَهم بن بدر بن جَهْم بن مسعود بن أسيد بن أذينْة بن كَرّاز بن كعب بن جابر بن مالك ابن عُتْبة(١) بن الحارث بن عبدالبيت بن سامة بن لؤىّ بن غالب .

هكذا ينسُب نفسَه ، وكان مبغِضاً لعلىّ عليه السلام ، ينحو نحو مروان بن أبى حفصة فى هجاء الطالبيّين وذمّ الشيعة ، وهو القائل :

وَرَافِضَةٍ تقول بِشِعْبِ رَضْوَى : إمام ، خابَ ذلكَ مِن إمام ! (٢)
إمامٌ من له عشرون ألفا من الأتراك مُشْرَعة السهام !

وقد هجاه أبو عبادة البحترىّ ، فقال فيه :

إذا مَا حُصِّلَتْ عُلْيَا قُرَيْشٍ فَلاَ فِى العِـيرِ أنْتَ وَلاَ النَّفِيرِ (٣)
وَلَوْ أعطـــاكَ رَبّكَ ماتمَنَّى لزاد الخَلْقَ فى عِظَمِ الأيُورِ

(١) فى الأغانى : « عينبة » .
(٢) الأغانى ١٠ : ٢٠٥ .
(٣) ديوانه ٢ : ١٠٣٨ (دار المعارف) ، والأغانى ١٠ : ٢٠٦ .

وما الجَهْمُ بنُ بَدْرٍ حِينَ يُعْزَى ... من الأقمارِ ثَمَّ ولا البُدُورِ (١)
عَلاَمَ هجوتَ مجتهداً عَلِيًّا ... بِما لَفَّقْتَ مِنْ كَذِبٍ وَزُورِ!
أَمَالَكَ فِي اسْتِكَ الوَجْعاءِ شُغْلٌ ... يكفُّك عَنْ أذى أهْلِ القُبُورِ!

* * *

وسمع أبو العيناء عليّ بن الجهم يوما يطعُن على أمير المؤمنين ، فقال له: أنا أدرِى لم تطعن على أمير المؤمنين! فقال: أتعنى قِصّة بَيْعه أهلى من مصقلة بن هُبيرة؟ قال: لا ، أنت أوْضع من ذلك؛ ولكنّه عليه السلام قتَل الفاعل مِنْ قوم لوط ، والمفعول به ، وأنت أسفلهما .

ومن شعر عليّ بن الجهم لما حبسه المتوكل (٢) :

ألمْ ترَ مُظهِرِينَ عَلَيّ عَتْباً (٣) ... وَهُمْ بالأمسِ إخْوانُ الصّفَاء
فَلَمّا أنْ بُلِيتُ غَدَوْا وَراحُوا (٤) ... عَلَيّ أشَدَّ أسْبَاب البَلاَء
أبتْ أخطارُهم أنْ ينْصُرونى ... بمالٍ أو بجاهٍ أو بِرَاء (٥)
وَخَافُوا أنْ يقال لهمْ: خَذَلْتمْ ... صَدِيقا ، فادّعَوْا قِدَمَ الجفاء
تظافرتِ الروافضُ والنّصارى ... وأهلُ الإعتزال عَلَى هجائى

---

(١) الديوان والأغانى : « ومارغثاؤك » وفى حواشي الأغانى : « الرغثاء أصلها عصب أو عرق فى الثدى يدر اللبن ؛ واستعملها البحترى هنا فى الأب » .

(٢) من قصيدة طويلة فى ديوانه ٨١ ـ ٨٥ ؛ وفى الأغانى ١٠ : ٢٠٦ ـ ٢٠٨ : « كان على بن الجهم قد هجا بختيشوع ، فسبه عند المتوكل ، فحبسه المتوكل ، فقال على بن الجهم فى حبسه عدة قصائد كتب بها إلى المتوكل ، وأطلقه بعد سنة ثم نفاه بعد ذلك إلى خراسان . فقال أول ماحبس قصيدة كتب بها إلى أخيه ؛ أولها قوله :

توكّلْنا على رَبِّ السّماء ... وَسَلّمْنَا لأسبابِ القَضَاء

ثم أورد القصيدة .

(٣) الأغانى : « عيبا » ، والديوان : « غشا » .

(٤) الديوان : « بليت بنكبة فعدوا وراحوا » .

(٥) الديوان : « براء » ، وقال فى شرحه : الراء : الرأى .

وَعَابُونى وَمَا ذَنْبِي إِلَيهِمْ ... سِوَى عِلْمِي بأَوْلَادِ الزِّنَاء

يعنى بالروافض : نجاح بن مسلمة[١] ، والنصارى بَخْتيشُوع[٢] ، وأهل الاعتزال علی[٣] بن يحيى بن المنجّم[٤] .

قال أبو الفَرَج : [٥] وكان علىُّ بنُ الجهم من الحَشْوِيّة[٦] ، شديدَ النَّصْب[٧] عدوًّا للتوحيد والعدْل ؛ فلما سَخِط المتوكّل على أحمد بن أبى دُوَاد وكفأه[٨] ، شَمِت به علىّ بن الجهم ، فهجاه ، وقال فيه[٩] :

يا أحمدُ بنَ أبى دُوَادٍ دعوة ... بعَثَتْ عليكَ جَنادِلًا وَحَدِيدا[١٠]

ما هـذهِ البِدَعُ التى سميتَها ... بالجهل منكَ العدْلَ والتوحيدا

أفسَدْتَ أمْرَ الدّين حين وَليتَهُ ... وَرَمَيْتَه بأبى الوليد وليدا

---

(١) نجاح بن مسلمة ؛ كان على ديوان التوقيع والتتبع على العمال فى عهد المتوكل ؛ فكان جميع العمال يتقونه ؛ وكان المتوكل ربما نادمه ؛ وتوفى منكوباً سنة ٢٤٥ . تاريخ الطبرى (وفيات سنة ٢٤٥).

(٢) هو بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع الأكبر المتطبب .

(٣) على بن يحيى بن أبى متصدر المنجم ، نديم المتوكل وأحد خواصه المتقدمين عنده ؛ توفى سنة ٢٧٥. ابن خلكان ١ : ٣٥٦ .

(٤) فى طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٢٠ : « وإنما عنى بالروافض الطاهريين ؛ وبأهل الاعتزال بنى دواد ، وبالنصارى بختيشوع بن جبريل ؛ فإنه كان يعاديه » .

(٥) الأغانى ١٠ : ٢١٧ .

(٦) الحشوية : فرقة من المرجئة يقولون : حكم الأحاديث كلها واحد ؛ وعندهم أن تارك النفل كتارك الفرض ، تفسير القرطبي ٤ : ١٦٢ .

(٧) النواصب : قوم يتدينون ببغضة على . (٨) كفأه ، أى طرده وأبعده .

(٩) ذكر صاحب الأغانى فى هذا الخبر أنه لما حبس المتوكل على بن الجهم مدح أحمد بن أبى دواد عدة مدائح ، وسأله أن يقوم بأمره ؛ منها قوله :

يا أحمدُ بنَ أبى دُوَادٍ إنّما ... تُدْعى لكلِّ عَظِيمَةٍ يا أحمدُ

أبلغْ أميرَ المؤمنينَ ودُونَهُ ... خوضُ الرّدى ومخاوفٌ لاتنفَدُ

أنتمْ بَنو عمّ النبيِّ محمدٍ ... أوْلَى بما شرعَ النبيُّ محمد

فلم يفعل وقعد عنه ؛ فلما نفى المتوكل أحمد بن أبى دواد شمت به على بن الجهم ، وهجاه بهذه الأبيات

(١٠) ديوانه ١٢٥ ، ١٢٦ .

ـ أبو الوليد بن أحمد بن أبى دواد ، وكان رتّبه قاضيا(١) ـ

لَا مُحْكَمًا جَلْدًا ولا مُسْتَظْرَفًا   كَهلًا ولا مُسْتَحْـدَثًا مَحْمُودَا(٢)
شَرِهًا إذا ذُكِرَ المكارمُ والعُلَا   ذَكَرَ القَلَايَا مُبدئا ومعيدا(٣)
وَيَوَدّ لو مُسِخَتْ ربيعةُ كُلُّها   وَبنُو إيادٍ صَحْفَةً وَثَرِيدَا
وإذا تَرَبَّعَ فى المجالسِ خِلْتَهُ   ضَبُعًا وَخِلْتَ بنى أبيه قُرُودَا
وإذا تبسَّمَ ضاحِكًا شَبَّهْتَهُ   شَرِقًا تَعَجَّلَ شُرْبَهُ مَزْدُودا
لَا أَصْبَحَتْ بالخيرِ عَيْنٌ أَبْصَرَتْ   تِلْكَ المنَاخِرَ والثَّنَايَا السُّودَا

وقال يهجوه لما فُلِـجَ(٤) :

لَمْ يَبْقَ مِنْكَ سِوَى خيالك لامعًا   فَوْقَ الفِرَاشِ مُمَهَّدًا بِوِسَادِ
فرحتْ بمصْرَعِك البَرِيَّةُ كُلُّها   مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُوقِنًا بمعَادِ
كَم مجلسٍ لله قَدْ عطَّلْتَهُ   كى لا يُحدِّثَ فيه بالإسْنَادِ
وَلَكَمْ مصابيحٍ لنا أطْفَأْتَهـا   حَتّى تَحِيدَ عن الطريق الهـادى(٥)
ولكم كريمةِ مَعْشَرٍ أرمَلْتَها   ومُحدِّثٍ أوثَقْتَ فى الأقيادِ
إنّ الأسارى فى السُّجون تفرَّجُوا   لمـا أتتكَ مَواكِبُ العُوَّادِ
وَغَدَا لمصرعك الطبيبُ فلم يَجِدْ   لدواء دائِكَ حِيلَةَ المرتادِ
فذقِ الهوانَ معجَّلا ومؤجَّـلًا   والله ربُّ العَرْشِ بِالْمِرصَادِ
لا زال فَالِجُكَ الذى بك دائمًا   وفُجِعْتَ قبل الموت بالأولادِ

---

(١) وكان يتولى المظالم سرا بسا مراء ، وعزله المتوكل سنة ٢٣٧ .
(٢) الديوان والأغانى : « لا محكماً جزلا » والجزل هنا : الجيد الرأى .
(٣) القلايا : المقليات ؛ مفرده قلية .
(٤) ديوانه ١٢٨ ، ١٢٩ ، والأغانى ١٠ : ٢٢٩ .
(٥) الأغانى : « حتى يزول عن الطريق الهادى » .

وروى أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب «الأغانى» فى ترجمة مروان بن أبى حفصة(١) الأصغر أنّ علىّ بن الجهم خطب امرأة من قريش، فلم يزوّجوه، وبلغ المتوكلَ ذلك، فسألَ عن السبب، فحدِّث بقصة بنى سامة بن لؤىّ، وأن أبا بكر وعمر لم يُدْخِلاهم فى قريش، وأنّ عثمان أدخلهم فيها، وأنّ عليًّا عليه السلام أخرجَهم منها، فارتدّوا، وأنّه قتَل من ارتدّ منهم، وسَبَى بقيّتَهم، فباعهم من مَصْقلة بن هُبيرة، فضحك المتوكل، وبعث إلى علىّ بن الجهْم فأحضره، وأخبره بما قال القوم، وكان فيهم مَرْوان بن أبى حفصة المكنّى أبا السّمط وهو مَرْوان الأصغر، وكان المتوكّل يغريه بعلىّ بن الجهم، ويضعه على هجائه وثَلْبه، فيَضحك منهما، فقال مروان:

إنّ جَهْماً حين تَنْسُبُـه ... لَيْسَ مِنْ عُجْمٍ وَلَا عَرَبِ
لَجّ فى شَتْمِى بِلَا سَبَبٍ ... سارق للشِّعر والنَّسَبِ
مِنْ أناسٍ يدّعون أبا ... مَالَهُ فى النّاس مِنْ عَقِبِ

فغضب علىّ بن الجهم، ولم يجبه، لأنه كان يستحقره، فأومأ إليه المتوكّلُ أن يزيده، فقال:

أأنتم يابْنَ جَهْمٍ مِنْ قُرَيْشٍ ... وقد باعوكُمُ ممّن تُرِيدُ
أترجو أن تكاَثِرَ ناجِهاراً ... بأصْلِكُمُ وقد بيع الجُدُودُ

فلم يجبه ابن الجهم، فقال فيه أيضا:

علىّ تعرّضْتَ لِى ضلّةً ... لجهلك بالشِّعر يامائِق(٢)
تَرُومُ قُرَيْشًا وَأَنْسَابَهَا ... وأَنْتَ لأنْسَابِهَا سَارِقُ
فإنْ كان سامةُ جَدًّا لكُمْ ... فأمُّك مِنّى إذاً طـالِقُ

(١) لم أجد هذا الخبر وهذا الشعر فيما طبع من كتاب الأغانى.
(٢) المائق: الأحمق.

[نسب مَصْقلة بن هبيرة]

فأمّا نَسَبُ مَصْقَلة بن هُبيرة ، فإنّ ابنَ الـكلبي ، قد ذكره في " جمهرة النسب "
فقال : هو مَصْقَلة بن هُبيرة بن شِبْل بن يثربيّ بن امرئ القيس بن ربيعة بن مالك بن
ثعلبة بن شَيْبان بن ثعلبة بن عُـكابَة بن صَعْب بن عليّ بن بكر بن وائل بن قاسط بن
هِنْب بن أفْصَى بن دُعْمِيّ ، بن جَدِيلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معدّ بن عدنان .

***

[خبر بني ناجية مع عليّ]

وأما خبر بني ناجية مع أمير المؤمنين عليه السلام ، فقد ذكره إبراهيم بن هلال الثقفي
في كتاب " الغارات " قال :

حدثني محمد بن عبدالله بن عثمان ، عن نصر بن مزاحم ، قال : حدّثني عمر بن سعد ،
عمّن حدثه ممن أدرك أمْرَ بني ناجية ، قال : لما بايع أهلُ البصرة عليًّا بعد الهزيمة ، دخلوا
في الطاعة غَيْرَ بني نَاجية ، فإنهم عَسْكَرُوا ، فبعث إليهم عليّ عليه السلام رجلًا من
أصحابه في خيل ليقاتِلَهم ، فأتاهم ، فقال : ما بالُكم عسكرتم ، وقد دخل الناس في الطاعة
غيركم ؟ فافترقوا ثلاث فرق : فرقة قالوا : كنّا نصارى فأسلمنا ، ودخلنا فيما دخل الناس فيه
من الفِتْنة ، ونحن نبايع كما بايع الناس ؛ فأمرهم فاعتزلوا . وفرقة قالوا : كنّا نصارى فلم نسلم ،
وخرجنا مع القوم الذين كانوا خَرَجوا ؛ قهرونا فأخرجونا كُرْها ، فخرجنا معهم فهُزِموا ،
فنحن ندخل فيما دخل الناس فيه ، ونعطيكم الجزية كما أعطيناهم ؛ فقال : اعتزلوا فاعتزلوا .
وفرقة قالوا : كنّا نصارى فأسلمنا فلم يُعْجِبنا الإسلام ، فرجَعْنا إلى النصرانية ، فنحن نعطيكم
الجزية كما أعطاكم النصارى . فقال لهم : توبوا وارجعوا إلى الإسلام ، فأبوا ، فقتل مُقاتِلتَهم
وسَبَى ذراريّهم ، وقدم بهم على عليّ عليه السلام .

[قصة الخرّيت بن راشد الناجىّ وخروجه على علىّ]

قال ابن هلال الثقفىّ : وروى محمد بن عبدالله بن عثمان ، عن أبى سيف ، عن الحارث ابن كعب الأزدىّ ، عن عمّه عبد الله بن قُعَين الأزدىّ ، قال : كان[1] الخرِّيت بن راشد النّاجِىّ ، أحد بنى ناجِيَة ، قد شهد مع على عليه السلام صِفّين، فجاء إلى علىّ عليه السلام بعد انقضاء صِفّين ، وبعد تحكيم الحكَمين فى ثلاثين من أصحابه، يمشى بينهم حتى قام بين يديه ، فقال : لا والله لا أطِيعُ أمرَك ، ولا أصلّى خَلْفَك ، وإنى غدا لمفارق لك ؛ فقال له: ثَكِلَتْك أمّك ! إذاً تنقض عهدَك، وتَعْصِى رَبّك، ولا تضرّ إلا نفسَك، أخبِرْنى لِمَ تفعلُ ذلك ! قال: لأنّك حكّمت فى الكتاب، وضعُفْت عن الحق إذ جَدّ الجِدّ، وركنت إلى القوم الّذين ظلموا أنفسَهم ، فأنا عليك رادّ ، وعليهم ناقم ، ولكم جميعا مباين .

فقال له علىّ عليه السلام : وَيْحَك ! هلمّ إلىّ أدارِسْك وأناظرْك فى السُّنن، وأفاتحْك أموراً من الحق أنا أعلم بها منك ؛ فلعلك تعرف ما أنت الآن له منكر، وتُبصر ما أنت الآن عنه عَمٍ وبه جاهل ، فقال الخِرّيت : فإنى غادٍ عليك غدا . فقال علىّ عليه السلام : اغْدُ ولا يستهوينّك الشيطان ، ولا يتقحّمَنّ بك رأىُ السوء ، ولا يستخفّنّك الجهلاء الذين لا يعلمون ؛ فوالله إن استرشدتَنى واستنصحتنى وقبلت مِنّى لأهدينّك سبيل الرشاد .

فخرج الخرِّيت من عنده مُنصرفا إلى أهله .

قال عبد الله بن قُعَين : فعجلت فى أثره مُسْرِعا ، وكان لى من بنى عمّه صديق ، فأردت أن ألْقَى ابنَ عمه فى ذلك ، فأعلمه بما كان من قوله لأمير المؤمنين ، وآمر ابنَ عمه أن يشتدّ بلسانه عليه، وأنْ يأمرَه بطاعة أمير المؤمنين ومُناصحته ، ويخبره أنّ ذلك خير له فى عاجل الدنيا وآجل الآخرة .

قال : فخرجتُ حتى انتهيت إلى منزله ــ وقد سبقنى ــ فقمت عند باب دار فيها رجال من أصحابه ، لم يكونوا شهدوا معه دخوله على أمير المؤمنين عليه السلام ، فوالله مارَجَع

(١) وانظر الخبر أيضاً فى تاريخ الطبرى ٥ : ١١٣ وما بعدها .

ولا ندِم على ماقال لأمير المؤمنين وما رَدّ عليه ، ولكنه قال لهم : ياهؤلاء ، إنى قد رأيت أنْ أفارِق هذا الرجل ، وقد فارقته على أن أرجع إليه من غدٍ ، ولا أرى إلا المفارقة؛ فقال له أكثرُ أصحابه : لا تفعلْ حتى تأتيَه ، فإن أتاك بأمرٍ تعرفه قبلتَ منه ، وإن كانت الأخرى فما أقدرك على فراقه ! قال لهم : نِعمَ مارأيتم ؛ قال : فاستأذنت عليهم فأذنوا لِى ، فأقبلت على ابن عمّه ـ وهو مدرك بن الريّان النّاجىّ،وكان من كُبراء العرب ـ فقلت له : إن لك علىّ حقًّا لإحسانك ووُدّك وحقّ المسلم على المسلم[1] . إنّ ابن عمك كان منه ماقد ذُكِر لك ، فاخلُ به فاردد عليه رأيَه وعظِّم عليه ما أتى ؛ واعلم أنى خائف إن فارق أمير المؤمنين أن يقتلك ونفسه وعشيرته فقال : جزاك الله خيرا من أخٍ ! إن أراد فراق أمير المؤمنين عليه السلام ففى ذلك هلاكه ، وإن اختار مُناصحته والإقامة معه ففى ذلك حظه ورُشْده .

قال : فأردت الرجوعَ إلى علىّ عليه السلام ، لأعلِمه الذى كان ؛ ثم اطمأننتُ إلى قول صاحبى، فرجعت إلى منزلى ، فبتّ ثم أصبحت،فلما ارتفعَ النهارُ أتيتُ أمير المؤمنين عليه السلام ، فجلست عنده ساعة ، وأنا أريدُ أنْ أحدِّثه بالذى كان على خَلْوة ، فأطلتُ الجلوسَ ، ولا يزدادُ الناس إلّا كثرة ، فدنَوْت منه ، فجلست وراءه ، فأصغى إلىّ برأسه، فأخبرتُه بما سمعته من الخرِّيت ، وما قلتُ لابن عمه وما ردّ علىّ ، فقال عليه السلام : دَعْه ؛ فإن قَبِل الحقّ ورجع عرفنا له ذلك وقبلناه منه ، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ، فلمَ لا تأخذه الآن فتستوثقَ منه ؟ فقال : إنّا لو فعلنا هذا بكلّ مَنْ يُتّهم من الناس ملأنا السجون منهم ، ولا أرانى يسعُنى الوثوب بالناس والحبس لهم وعقوبتهم حتى يُظهِروا لى الخلاف .

قال : فسكتُّ عنه وتنحّيت ، فجلستُ مع أصحابى هُنيهة ، فقال لى عليه السلام :

(١) فى الطبرى : « بعد حق المسلم على المسلم » .

ادْنُ مِنّى ، فدنوت ، فقال لى مُسِرًّا : اذهب إلى منزل الرجل فاعلَمْ مافعل ؛ فإنه قلّ يومٌ لم يكن يأتينى فيه قبل هذه الساعة ، فأتيتُ إلى منزله،فإذا ليس فى منزله منهم دَيّار ، فدُرْتُ على أبواب دور أخرى ، كان فيها طائفة من أصحابه ، فإذا ليس فيها داعٍ ولا مجيب.فأقبلتُ إلى أمير المؤمنين عليه السلام،فقال لى حين رآنى:أوَطنوا[1] فأقاموا،أم جبنوا فظعنوا ؟ قلت:لا بل ظَعَنوا ، فقال : أبعدَهم الله كما بَعِدت ثمود ! أما والله لو قد أُشْرِعَتْ لهم الأسِنّة ، وصُبّت على هامِهم السيوف ، لقد نَدِموا؛إن الشيطان قد استهواهم وأضلّهم، وهو غداً متبرئٌ منهم ، ومُخلٍّ عنهم؛ فقام إليه زياد بن خَصَفة ، فقال : يا أميرَ المؤمنين؛ إنّه لو لم يكن من مَضَرّة هؤلاء إلّا فراقُهم إيّانا لم يعظُم فقدُهم علينا ، فإنّهم قلّما يزيدون فى عددنا لو أقاموا معنا،وقلّما ينقُصون من عددنا بخروجهم منّا،ولكنّا نخاف أن يُفسِدوا علينا جماعة كثيرة ممّن يقدَمون عليهم من أهل طاعتك؛فائذَنْ لى فى اتّباعهم حتى أردّهم عليك إن شاء الله .

فقال له عليه السلام : فاخرُج فى آثارهم راشداً ؛ فلما ذهب ليخرج قال له:وهل تدرى أين توجّه القوم؟قال : لا والله ؛ ولكنّى أخرج فأسأل وأتبَعُ الأثر،فقال : اخرج رحمك الله حتى تنزل ديْرَ أبى موسى ثم لا تبرحْه حتى يأتيَك أمرى ؛ فإنهم إن كانوا خرجوا ظاهرين بارزين للناس فى جماعة ؛ فإنّ عمالى ستكتب إلىّ بذلك ، وإن كانوا متفرقين مستخفِين ؛ فذلك أخفى لهم ، وسأكتب إلى من حَوْلى من عُمّالى فيهم .

فكتب نسخةً واحدة وأخرجها إلى العمال :

من عبدِ الله على أمير المؤمنين إلى من قُرِئَ عليه كتابى هذا من العمال ، أمّا بعد،فإن رجالًا لنا عندهم تبعة،خرجوا هُرّابا نظنّهم خرجوا نحو بلادِ البصرة، فاسأل عنهم أهلَ بلادك ، واجعَل عليهم العيون فى كلّ ناحية من أرضك ، ثم اكتب إلىّ بما ينتهى إليك عنهم . والسلام .

(١) وطن بالمكان ، أى أقام ، وانظر تاريخ الطبرى ٥ : ١١٥ .

فخرج زياد بن خَصَفة حتّى أتى داره ، وجمع أصحابه فحمِد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال: يامعشرَ بكْر بن وائل؛ إن أميرَ المؤمنين ندَبنى لأمرٍ من أموره مُهِمّ له، وأمرنى بالانكماش فيه بالعشيرة ؛ حتى آتىَ أمره ؛ وأنتم شيعتُه وأنصاره ، وأوثق حَىّ من أحياء العرب فى نفسِه، فانتدِبوا معى الساعة، وعجّلوا . فوالله ما كان إلا ساعة حتى اجتمع إليه مائة وثلاثون رجلا ، فقال : اكتفينا لا نريد أكثر من هؤلاء ؛ فخرج حتى قطع الجِسْر ، ثم أتى دير أبى موسى فنزله ، فأقام به بقية يومه ذلك ، ينتظر أمرَ أمير المؤمنين عليه السلام .

قال إبراهيم بن هلال : فحدّثنى محمد بن عبد الله ، عن ابن أبى سيف ، عن أبى الصّلت التيمىّ ، عن أبى سعيد ، عن عبد الله بن وأل التَّيْمىّ ، قال : إنّى لعند أمير المؤمنين؛ إذا فيجٌ[1] قد جاءه يسعَى بكتاب مِنْ قَرَظة بن كعب بن عمرو الأنصارىّ ــ وكان أحدَ عماله ــ فيه :

لعبد الله على أمير المؤمنين من قَرظة بن كعب ، سلام عليك ؛ فإنّى أحْمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ؛ أما بعد :

فإنى أخبرُ أميرَ المؤمنين، أنّ خيلاً مَرّتْ من قِبَل الكوفة متوجّهة [نحو نِفَّر][2] وأنّ رجلا من دهاقين أسفل الفرات قد أسلم وصلّى، يقال له : زاذان فروخ ؛ أقبل من عند أخوال له فلقُوه ، فقالوا له: أمسلم أنت أم كافر ؟ قال : بل مسلم، قالوا : فما تقول فى علىّ ؟ قال: أقول فيه خيرا ؛ أقول : إنه أمير المؤمنين عليه السلام وسيّد البشر ووصىّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم . فقالوا : كفرت ياعدوّ الله ! ثم حملتْ عليه عصابة منهم ، فقطّعوه بأسيافهم، وأخذوا معه رجلاً من أهل الذمة يهوديًّا ، فقالوا له : ما دينك ؟ قال : يهودىّ ، فقالوا:

---

(١) الفيج : رسول السلطان على رجله ؛ فارسى معرب « پيك » . تاج العروس ٢ : ٨٩ .
(٢) تكملة من تاريخ الطبرى . ونفر : بلدة على نهر النرس .

خَلُّوا سبيلَ هـذا ، لاسبيلَ لـكم عليه ، فأقبل إلينا ذلك الذّمىّ ، فأخبرنا الخبر ، وقد سألت عنهم ، فلم يخبرنى أحد عنهم بشىء ، فليكتبْ إلىّ أمير المؤمنين فيهم برأيِ أنتهِ إليه ، إن شاء الله .

فـكتب إليه أميرُ المؤمنين عليه السلام :

أمابعد ؛ فقد فهمتُ ما ذكرتَ مَن أمر العصابة التى مَرّت بعملك ، فقتلَتِ البَرّ المسلم ،وأمن عندهم المخالف المشرك[1] ؛ وإنّ أولئك قوم استهواهم الشيطان فضلُّوا ، كالذين حسبوا ألّا تكون فتنة فعمُوا وصمُّوا ، فأسمعْ بهم وأبْصِرْ يوم تُخْبَر[2] أعمالهم ! فالزم عَمَلك وأقبِلْ عَلَى خراجك ؛ فإنّك كما ذكرت فى طاعتك ونصيحتك ، والسلام .

قال : فـكتب علىّ عليـه السلام إلى زياد بن خَصَفة ، مع عبد الله بن وأل التيمىّ ، كتابا نسخته :

أما بعد ، فقد كنتُ أمرتك أن تنزل دَيْر أبى موسى حتى يأتيَك أمرى ؛ وذلك أنّى لم أكن علمتُ أين توجّه القوم ، وقد بلغنى أنّهم أخذوا نحو قرية من قُرى السّواد ، فاتّبع آثارهم وسلْ عنهم ؛ فإنّهم قد قتلوا رجلا من أهل السّواد مسلما مُصَلّيا ، فإذا أنتَ لحقتَ بهم فارددهم إلىّ ، فإنْ أبَوْا فناجِزْهم ، واستعِنْ بالله عليهم ؛ فإنّهم قد فارقوا الحقّ ، وسفكوا الدم الحرام ، وأخافوا السبيل . والسلام .

قال عبد الله بن وأل : فأخذتُ الـكتاب منه عليه السلام — وأنا يومئذ شابّ — فمضيت به غيرَ بعيد ثم رجعت إليـه ، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ، ألا أمضى مع زيـاد بن خَصَفة إلى عدوّك ، إذا دفعتُ إليه كتابك ؟ فقال : يابن أخى ، افعل ، فوالله إنّى لأرجو أن تكونَ من أعوانى على الحقّ وأنصارى على القوم الظالمين . قال : فوالله ماأحبّ أنّ لى بمقالته

---

(١) الطبرى : « الـكافر » .

(٢) كذا فى ج والطبرى ، وفى ا ، ب : « تحشر » .

تلك حُمْرَ النَّعم ، فقلت له : ياأميرَ المؤمنين ، أنا والله كذلك مِن أولئك ؛ أنا والله حيث تحبّ .

ثم مضيت إلى زياد بالكتاب ، وأنا على فَرَس رائع كريم ، وعلىّ السلاح ، فقال لى زياد : يابن أخى، والله مالى عنك من غنًى[١]، وإنى أحبُّ أن تكونَ معى فى وجهى هذا، فقلت : إنّى قد استأذَنتُ أميرالمؤمنين فى ذلك فأذِن لى، فَسُرَّ بذلك ، ثم خرجنا حتّى أتينا الموضعَ الذى كانوا فيه ، فسألنا عنهم ، فقيل : أخذوا نحو المدائن فلحقْناهم ؛ وهم نزول بالمدائن ، وقد أقاموا بها يوماوليلة ، وقد استراحوا وعَلَفوا خيولهم ،فهم جامّون مريحون، وأتيناهم وقد تقطّعنا ولغِبناو نصِبنا ؛ فلما رأَوْنا وثبوا على خيولهم، فاستووا عليها ، فجئناحتى انتهينا إليهم ؛ فنادى الخرّيت بن راشد : ياعميان القلوب والأبصار ، أمعَ الله وكتابه أنتم أم مع القوم الظالمين؟فقال له زياد بن خَصَفة :بل مع الله وكتابه وسُنّة رسوله، ومعمَن الله ورسوله وكتابه آثرُ عنده من الدنيا ثوابا ولو أنّها منذ يوم خلقت إلى يوم تَفْنى لآثرالله عليها . أيّها العُمْى الأبصار ، الصمُّ الأسماع !

فقال الخرّيت : فأخبرونا ماتريدون ؟ فقال له زياد ـ وكان مجرّبا رَفيقا : قد ترى ما بنا من النَّصَب واللّغوب[٢]، والذى جئنا له لايصلح فيه الكلام عَلَانية على رءوس أصحابك ؛ ولكن تنزلون و ننزل ، ثم نخلو جميعا ، فنتذاكر أمرَنا وننظر فيه ؛ فإن رأيتَ فيما جئنا له حظًّا لنفسك قبلتَه ، وإن رأيت فيما أسمع منك أمراً أرجو فيه العافية لنَا ولك لم أردّه عليك .

فقال الخرّيت : انزل، فنزل ، فأقبل إلينا زياد ، فقال: انزلوا عَلَى هذا الماء،فأقبلناحتى انتهينا إلى الماء ،فنزلنا به ، فما هو إلّاأنْ نزلنا فتفرقنا ،فتحلّقْنا عشرةوتسعة وثمانيةوسبعة، تضع كلُّ حلْقة طعامها بين أيديها ، لتأكل ثم تقوم إلى الماء فتشرب .

---

(١) الطبرى : « غناء » .   (٢) الطبرى : « من السغوب واللغوب » .

وقال لنا زياد : علّقوا على خيولكم ، فعلّقنا عليها مخالِيَها ، ووقف زياد فى خمسة فوارس ؛ أحدُهم عبد الله بن وأل بيننا وبين القوم ، وانطلق القوم فتنحَّوْا ، فنزلوا وأقبل إلينا زياد ، فلما رأى تفرُّقنا وتحلُّقنا ، قال : سبحان الله ! أنتم أصحاب حرب ! والله لو أنّ هؤلاء جاءوكم الساعة على هذه الحالة ماأرادوا من غِرّتكم أفضلَ من أعمالكم التى أنتم عليها ؛ عجِّلوا ، قوموا إلى خيولكم . فأسرعنا فمِنّا من يتوضأ ، ومنا مَنْ يشرب ، ومنّا مَنْ يسقى فرسَه ؛ حتى إذا فرغنا من ذلك أتينا زيادا ، وإنّ فى يده لعَرْقًا[1] ينهسُه ، فنهس منه نهستين أو ثلاثة ، ثم أتى بإداوة فيها ماء ، فشرب ثم ألقى العَرْق من يده ، وقال : ياهؤلاء ؛ إنا قد لَقِينا العدوّ ، وإنّ القوم لفى عُدّتكم ، ولقد حَزَرْتُهم فما أظنّ أحدَ الفريقين يزيد على الآخر خمسة نفر ؛ فإنّى أرى أمركم وأمرهم سيصير إلى القتال ؛ فإن كان ذلك فلا تكونوا أعجزَ الفريقين .

ثم قال : ليأخذْ كلُّ رجل منكم بعِنان فرسه ، فإذا دنوتُ منهم وكلّمت صاحبَهم ، فإن تابعنى على ماأريد ؛ وإلّا فإذا دعوتُكم فاستَوُوا على مُتُون خيلكم ، ثم أقبلوا معًا غيرَ متفرّقين . ثم استقدَم أمامنا وأنا معه ، فسمعتُ رجلًا من القوم يقول : جاءكم القومُ وهم كالّون مُعْيون ، وأنتم جامُّون[2] مُرِيحُون[3] ؛ فتركتُموهم حتى نزَلُوا فأكلوا وشربوا ، وأراحوا دوابَّهم ؛ هذا والله سوء الرأى .

قال : ودعا زيادٌ صاحبَهم الخِرّيت ، فقال له : اعتزلْ ننظر فى أمرنا ، فأقبل إليه فى خمسة نفر ؛ فقلتُ لزياد : أدعو لك ثلاثةَ نفَر من أصحابنا ؛ حتى نَلْقاهم فى عَدَدهم ؟ فقال : ادع مَنْ أحببتَ . فدعوت له ثلاثة ؛ فكنا خمسة وهم خمسة .

فقال له زياد : ماالذى نقَمت على أمير المؤمنين وعلينا حتى فارقتنا ؟ فقال : لم أرضَ

(١) العرق بالفتح : العظم بلحمه ، ويقال : نهش اللحم ، أى أخذه بمقدم أسنانه .
(٢) جم ، من الجمام ، وهو الراحة .
(٣) مريحون ؛ من قولهم : أراح فلان : إذا رجعت إليه نفسه بعد الإعياء .

صاحبَكم إماما ، ولم أرضَ بسيرتكم سيرة، فرأيتُ أنْ أعتزِل، وأكونَ معمَنْ يدعو إلى الشورى بين الناس ؛ فإذا اجتمع الناسُ على رجل هو لجميع الأمة رِضًا كنتُ مع الناس .
فقال زياد : ويحك ! وهل يجتمع الناس على رجل يُدانى عليًّا عالمًا بالله وبكتابه وسنة رسوله ، مع قرابته وسابقتِه فى الإسلام ! فقال الخِرِّيت: هو ما أقول لك، فقال: ففيم قتلتم الرجل المسلم ؟ فقال الخِرِّيت : ما أنا قتلتُه ؛ قتلته طائفة من أصحابى ، قال : فادفعهم إلينا قال : ما إلى ذلك من سبيل ، قال : أو هكذا أنت فاعل ! قال : هو ما تسمع .

قال : فدعوْنا أصحابنا ، ودعا الخِرِّيت أصحابَه ، ثم اقتتلنا ؛ فوالله ما رأيت قتالا مثله منذ خلقنى الله، لقد تطاعَنَّا[1] بالرماح حتى لم يبقَ فى أيدينا رُمْح، ثم اضطربنا بالسيوف حتى انحنت ، وعُقِرت[2] عامّة خلِنا وخَيْلهم ، وكَثُرَت الجِراح فيما بيننا وبينهم ، وقُتِل منَّا رجلان : مولًى لزياد كانت معه رايتُه يدعى سويدا ، ورجل من الأبناء يدعى واقد بن بكْر ، وصُرِع منهم خمسة نَفَر ، وحالَ الليلُ بيننا وبينهم؛ وقد والله كرِهُونا وكرهناهم، وهَرِئونَا وهَرِرْنَاهم[3] ، وقد جرح زياد وجُرِحْت . ثم إنا بِتْنا فى جانب وتنحَّوْا ، فمكثُوا ساعة من الليل ثم مضوْا ،فذهبوا وأصبَحْنا، فوجدناهم قد ذهبوا؛ فوالله ما كرهنا ذلك؛ فمضينا حتى أتينا البَصْرة، وبلغنا أنهم أتوا الأهْواز[4] ، فنزلوا فى جانب منها، وتلاحقَ بهم ناسٌ من أصحابهم نحو مائتين كانوا معهم بالكوفة ، لم يكن لهم من القوّة ما ينهضُون به[5] معهم حين نَهَضوا ؛ فاتبعوهم من بَعْد لحوقهم بالأهواز ، فأقاموا معهم .

قال : وكتَب زياد بن خَصَفة إلى علىّ عليه السلام :

أما بعد ، فإنا لقينا عدوّ الله النّاجىّ وأصحابه بالمدائن ؛ فدعوناهم إلى الهُدَى والحقّ وكلمة

(١) الطبرى : « اطعنا » .
(٢) عقرت الدابة ؛ إذا قطعت قوائمها بالسيف .
(٣) هزونا وهززناهم ؛ أى كرهونا وكرهناهم .
(٤) الأهواز : سبع كور بين البصرة وفارس .
(٥) الطبرى : « ماينهضهم » .

السواء ؛ فتولّوا عن الحقّ وأخذتهم العزة بالإثم ، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل ؛ فقصَدُونا وصمدْنا صَمْدَهم ، فاقتتلنا قتالا شديدا ما بين قائم الظهر إلى أن دَلَكت[1] الشمس ، واستشهد منّا رجلان صالحان ، وأصيب منهم خمسة نفر ، وخلّوْا لنا المعركة ، وقد فشت فينا وفيهم الجراح . ثم إنّ القوم لمّا أدركوا الليل خرجوا من تحته متنكّرين إلى أرض الأهواز ؛ وقد بلغنى أنّهم نزلوا من الأهواز جانبا . ونحن بالبصرة نداوى جراحنا ، وننتظر أمرك رحمك الله ؛ والسلام .

فلما أتاه الكتاب ، قرأه على الناس ، فقام إليه معقل بن قَيْس الرِّياحىّ ، فقال : أصلحك الله يا أمير المؤمنين ! إنّما كان ينبغى أن يكون مكان كلّ رجل من هؤلاء الذين بعثتَهم فى طلبهم عشرة من المسلمين ، فإذا لحقوهم استأصلوا شأفتهم[2] ، وقطعوا دابرهم ؛ فأمّا أن تلقاهم بأعدادهم ؛ فلعمرى ليصبرُنّ لهم ، فإنّهم قوم عرب ، والعُدّة تصبر للعدّة ، فيقاتلون كل القتال .

قال : فقال عليه السلام له : تجهّزْ يا معقل إليهم ، ونَدَب معه ألفين من أهل الكوفة ، فيهم يزيد بن معقل ، وكتب إلى عبدالله بن العباس بالبصرة رحمه الله تعالى :

أمّا بعد ، فابعثْ رجلا من قِبَلك صَلِيباً شجاعا ، معروفاً بالصلاح فى ألفَىْ رجل من أهل البَصْرة ، فليتّبع معقل بن قيس ؛ فإذا خرج من أرض البَصْرة ، فهو أميرُ أصحابه حتى يلقى معقلا ؛ فإذا لَقيَه فمعقل أميرُ الفريقين ، فليسمع[3] منه وليُطِعْه ولا يخالفه ؛ ومُرْ زياد بن خَصَفة فليُقْبِلْ إلينا ، فنعم المرء زياد ؛ ونعم القَبِيلُ قبيله ! والسلام .

---

(١) دلكت الشمس : اصفرت وجنحت للمغيب .

(٢) الشأفة فى الأصل : قرحة تخرج فى أسفل القدم فتكوى فتذهب ؛ وإذا قطعت مات صاحبها ؛ وقولهم : استأصل الله شأفته ؛ أى أذهبه كما تذهب القرحة ، ومعناه أزاله من أصله .

(٣) الطبرى : « فليسمع من معقل » .

قال : وكتب عليه السلام إلى زياد بن خَصَفة :

أما بعد ، فقد بلغنى كتابُك ، وفهمت ماذكرت به الناجِىّ وأصحابه، الذين طَبَع الله على قلوبهم ، وزَيّن لهم الشيطانُ أعمالهم ؛ فهم حَيَارى عَمُون ، يَحْسِبون أنهم يُحْسِنون صُنْعا ؛ ووصفْتَ مابلغ بك وبهم الأمر؛ فأما أنت وأصحابك فلله سعيُكم وعليه جزاؤكم ! وأيسرُ ثواب الله للمؤمن خَيرٌ له من الدنيا التى يُقْبل الجاهلون بأنفسهم عليها ، فـ ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [١] : وأما عدوّكم الذين لقيتم فحسبُهم خروجهم من الهُدَى ، وارتكاسُهم فى الضّلالة، وردُّهم الحقّ، وجِماحُهم فى التّيه، فذرْهم ومايفترون، ودَعْهم فى طُغيانهم يعمهون، فأسْمِع بهم وأبصر؛ فكأنّك بهم عن قليل بين أسير و قَتِيل، فأقْبِل إلينا أنت وأصحابُك مأجورين ، فقد أطعتم وسمعتم ، وأحسنتم البلاء . والسلام .

قال : ونزل الناجِىّ جانبا من الأهواز ، واجتمع إليه علوجٌ كثير من أهلها ؛ ممّن أراد كَسْر الخراج ومن اللصوص ، وطائفة أخرى من الأعراب ترى رأيه .

قال إبراهيم بن هلال : فحدثنا محمد بن عبدالله ، قال : حدثنى ابن أبى سَيف ، عن الحارث بن كَعْب ، عن عبدالله بن قُعَين ، قال : كنت أنا وأخى كَعْب بن قُعَين فى ذلك الجيش مع مَعْقل بن قيس ، فلما أراد الخروج أتى أميرَ المؤمنين [٢] عليه السلام يودّعه ، فقال : يامعقل بن قيس ؛ اتّقِ الله مااستطعت ؛ فإنّه وصية الله للمؤمنين؛ لاَ تَبْغِ على أهل القِبْلة ، ولا تَظْلِمْ أهلَ الذّمة ولا تتكبّر؛ فإنّ الله لا يحبُّ المتكبّرين . فقال معقل : الله المستعان ، فقال : خيرُ مستعان .

---

(١) سورة النحل ٩٦ .

(٢) الطبرى : « أقبل إلى على » .

ثم قام فخرج ، وخرجنا معه ؛ حتى نزل الأهواز ، فأقمنا ننتظر بَعْثَ البصرة،فأبطأ علينا ، فقام مَعْقِل فقال : أيُّها الناس ؛ إنّا قد انتظرنا أهلَ البَصْرة ، وقد أبطئوا علينا، وليس بنا بحمد الله قِلّة ولا وَحْشة إلى الناس ؛ فسيروا بنا إلى هذا العدوّ القليل الذّليل؛ فإنى أرجو أن ينصرَكم الله ويُهلكهم . فقام إليه أخى كعب بن قُعَين فقال :أصبتَ إن شاء الله رأينا رأيك ، وإنى لأرجو أن ينصرنا الله عليهم ؛ وإن كانت الأخرى ؛فإنّ فى الموت على الحقّ لتعزيةً عن الدنيا . فقال: سيروا على بركة الله . فسِرْنا،فوالله مازال معقل ابن قيس لى ولأخى مُكْرِماً وادًّا ، مايعدِلُ بنا أحداً من الجند ، ولا يزال يقول لأخى: كيف قلت : إن فى الموتِ على الحقّ لتعزيةً عن الدنيا ! صدقت والله وأحسنت ،ووفقت وفّقك الله ! قال : فوالله ماسِرْنا يوما ؛ وإذا بفيْج[1] يشتدّ بصحيفة فى يده.

من عبد الله بن عباس إلى مَعْقل بن قيس ، أما بعد ؛ فإنْ أدركك رسولى بالمكان الذى كنتَ مقيما به ، أو أدركك وقد شَخَصْت منه ؛ فلا تبرحَنّ من المكان الذى ينتهى إليك رسولى وأنت فيه ، حتى يقدَم عليك بعثُنا الذى وجّهناه إليك ، فقد وجّهْت إليك خالد بن معدان الطائِىّ ، وهو من أهل الدّين والصلاح والنجدة ، فاسمع منه واعرِف ذلك له إن شاء الله . والسلام .

قال : فقرأه معقِل بن قيس على أصحابه . فسرُّوا به ، وحَمِدوا الله ، وقد كان ذلك الوجه هَالَهم . وأقمنا حتى قَدِم علينا خالد بن معدان الطائىّ ، وجاءنا حتى دخَلَ على صاحبنا ، فسلّم عليه بالإمْرة ، واجتمعنا جميعا فى عسكر واحد ، ثم خرجنا إلى الناجىّ وأصحابه ، فأخذوا يرتفعون نحو جِبال رَامَهُرْمُز ، يريدون قلعة حصينة ، وجاءنا أهلُ البلد،فأخبرونا بذلك ، فخرجنا فى آثارهم فلحقناهم ، وقد دنَوْا من الجبل ، فصففنا لهم ، ثم أقبلنا نحوهم ، فجعل مَعْقِل على ميمنته يزيد بن المعقل الأزدىّ ، وعلى ميسرته منجاب بن راشد الضبىّ ،ووقف

(١) انظر الحاشية ١ ص ١٣١ من هذا الجزء .

الخِرّيت بن راشد الناجيّ بمن معه من العَرب ، فكانوا ميمنة ، وجعلَ أهلَ البلد والعلُوجَ[1] ومَنْ أراد كسر الخراج وجماعة من الأكراد ميسرة .

قال : وسار فينا مَعْقِل يحرّضنا، ويقول : ياعبادالله ، لا تبدءوا القوم، وغُضُّوا الأبصار، وأقلّوا الكلام ، ووطنوا أنفسكم على الطعن والضَّرْب ، وأبشروا فى قتالهم بالأجر العظيم، إنما تقاتلون مارقةً مَرَقَتْ وعلُوجاً[1] منعوا الخراج ، ولصوصا وأكراداً ، فما تنتظرون ! فإذا حملتُ فشدّوا شِدّة رجل واحد .

قال : فمرّ فى الصفّ يكلّمهم ، يقول هذه المقالة ، حتى إذا مَرّ بالناس كلّهم أقبل فوقف وسط الصفّ فى القَلْب ، ونظرنا إليه مايصنع ، فحرّك رأسَه تحريكتين ، ثم حَمَل فى الثالثة ؛ وحَمَلْنا معه جميعا ، فوالله ماصَبَرُوا لنا ساعة حتى ولّوا وانهزموا، وقتلنا سبعين عَرَبيًّا من بنى ناجية ، ومن بعضِ من اتبعه من العرب ، ونحو ثلثمائة من العلُوج والأكراد .

قال كعب : ونظرتُ ، فإذا صديقى مدرك بن الرّيان قتيلا ، وخرج الخِرّيت منهزما، حتى لحق بِسيف[2] من أسْياف البحر ؛ وبها جماعةٌ من قومه كثير ، فما زال يسيرُ فيهم ويدعوهم إلى خلاف علىّ عليه السلام ، ويزّين لهم فِراقه ، ويخبرهم أن الهُدَى فى حربه ومخالفته ، حتى اتّبعه منهم ناس كثير .

وأقام معقل بن قيس بأرض الأهواز ، وكتب إلى أمير المؤمنين عليه السلام بالفَتْح ، وكنتُ أنا الذى قَدِم بالكتاب عليه ، وكان فى الكتاب :

لعبد الله علىّ أمير المؤمنين ، من مَعقل بن قيس . سلام عليك ، فإنى أحْمَد إليك الله الذى لا إله إلّا هو . أما بعدُ، فإنّا لقينا المارقين ؛ وقد استظهروا علينا بالمشركين ؛

---

(١) العلوج : كفار العجم ؛ واحده علج .

(٢) السيف ، بالكسر : ساحل البحر .

فقتلْنا منهم ناساً كثيرا ولم نَعْدُ فيهم سيرتك فلم نقتلْ منهم مُدْبِرا ولا أسيرا ؛ ولم نُذَفِّفْ[1] منهم على جريح ، وقد نصركَ الله والمسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

قال : فلما قدمتُ بالكتاب على عليّ عليه السلام ، قرأه على أصحابه ، واستشارهم فى الرأى ، فاجتمع رأىُ عامّتهم على قول واحد . قالوا : نرى أنْ تكتُبَ إلى معقل بن قيس ؛ يَتْبع آثارهم ، ولا يزال فى طلبهم حتى يقتلَهم أو ينفيَهم من أرض الإسلام ؛ فإنا لا نأمن أن يُفْسِدوا عليك الناس .

قال : فردّنى إليه ، وكتب معى :

أما بعد ؛ فالحمدُ لله على تأييده أولياءه ، وخَذْله أعداءه ، جزاكَ الله والمسلمين خيرا ؛ فقد أحسنتم البلاء ، وقضيْتم ما عليكم ، فاسأل عن أخى بنى ناجية ، فإنْ بَلَغَكَ أنه استقرّ فى بلد من البلدان ، فسِرْ إليه حتى تقتله أو تنفيَه ، فإنه لم يزل للمسلمين عدوًّا ، وللفاسقين وليًّا ، والسلام .

قال : فسأل مَعْقل عن مسيره والمكان الذى انتهى إليه ، فنُبِّئَ بمكانه بسِيف البحر بفارس ، وأنه قد ردّ قومه عن طاعة علىّ عليه السلام ، وأفسد مَنْ قِبلَه من عبد القيس ، ومَنْ والاهم من سائر العرب ، وكان قومه قد منعوا الصدقة عام صِفّين ، ومنعوها فى ذلك العام أيضا ، فسار إليهم معقِل بن قيس فى ذلك الجيش من أهل الكوفة والبصرة ، فأخذوا على أرض فارس ، حتى انتهوْا إلى أسياف البحر ؛ فلما سمع الخِرّيتُ بن راشد بمسيره ، أقبل على من كان معه من أصحابه ، ممّن يرى رأىَ الخوارج ، فأسَرّ إليهم : إنى أرى رأيَكم ، وإن عليًّا ما كان ينبغى له أن يُحَكِّم الرجال فى دين الله ، وقال لمن يرى رأىَ عثمان وأصحابه : إنّا على رأيكم ، وإنّ عثمان قُتِل مظلوما معقولا ؛ وقال لمن منع الصّدَقه :

---

(١) ذفف على الجريح : أجهز عليه .

شُدّوا أيديَكم على صدقاتكم ، ثم صِلُوا بها أرحامكم ، وعودوا إن شئتم على فقرائكم ؛ فأرضَى كلّ طائفة بضرب من القول ؛ وكان فيهم نصارى كثير ، وقد كانوا أسلموا ؛ فلما رأوْا ذلك الاختلاف ، قالوا : والله لَدِيننا الذى خرجنا منه خيرٌ وأهْدَى من دين هؤلاء الذين لا ينهاهم دينُهم عن سفك الدماء ، وإخافة السُّبل ؛ فرجعوا إلى دينهم .

فلقى الخِرِّيت أولئك ، فقال : وَيْحكم ! إنّه لا يُنْجيكم من القتل إلا الصبر لهؤلاء القوم ولقتالهم ، أتدرون ما حُكم علىّ فيمن أسلم من النصارى ثم رجع إلى النصرانية ؟ لا والله لا يسمعُ له قولا ، ولا يَرَى له عذرا ، ولا يَقبل منه توبة ، ولا يدعوه إليها ؛ وإنّ حكمه فيه أن يُضْرَب عنقه ساعة يَسْتَمْكِن منه ؛ فما زال حتى خَدَعهم وجاءهم مَنْ كان من بنى ناجية فى تلك الناحية ومن غيرهم ؛ فاجتمع إليه ناس كثير ، وكان مُنْكرا داهياً .

قال : فلما رجع مَعْقِل ، قرأ على أصحابه كتابا من علىّ عليه السلام فيه :

مِن عبد الله علىّ أميرِ المؤمنين إلى مَن قُرِئ عليه كتابى هذا ؛ مِنَ المسلمين والمؤمنين والمارقين والنصارى والمرتدين . سلامٌ على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وكتابه ، والبعث بعد الموت وافيا بعهد الله ؛ ولم يكن مِن الخائنين ؛ أما بعدُ فإنى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ؛ وأنْ أعملَ فيكم بالحقّ وبما أمر الله تعالى فى كتابه ، فَمَنْ رجع منكم إلى رَحْله وكفّ يده ، واعتزل هذا المارق[1] الهالك المحارِب[2] ؛ الذى حارب الله ورسوله والمسلمين ، وسعى فى الأرض فسادا ، فله الأمان على ماله ودمِه . وَمَن تابعه على حربِنا والخروج مِن طاعتِنا ، استعنّا بالله عليه ، وجعلناه بيننا وبينه ، وكفى بالله وليًّا . والسلام .

قال : فأخرج معقل رايةَ أمانٍ فنصبها ، وقال : مَنْ أتاها مِنَ الناس فهو آمن إلا الخِرّيت وأصحابه الذين نابذوا أوّل مرة ، فتفرق عن الخِرّيت كلُّ من كان معه مِن غير قومه ، وعَبّأ معقل بن قيس أصحابه ، ثم زحَف بهم نحوه ، وقد حَضر مع الخِرّيت جميع

---

(١) ا : « الفاسق » .

(٢) ساقطة من ج .

قومه ! مسلمهم ونَصرانيّهم؛ومانعى الصدقة منهم،فجعل مسلميهم يَمْنة ، والنصارى ومانعى الصدقة يَسْرة،وجعل يقول لقومه : امنعُوا اليوم حريمَكم،وقاتلوا عن نسائكم وأولادِكم، والله لئن ظهروا عليكم ليقتُلنّكم وليَسْلُبنّكم .

فقال له رجل منْ قومه : هـذا والله ماجرّتْهُ علينا يدُك ولسانُك ، فقال لهم : قاتلوا فقد سبقَ السيفُ العذَل .

قال : وسار معقِل بن قيس يحرّض أصحابَه فيما بين الميمنة والميسرة ، ويقول : أيّها الناس ، ماتدرون ما سِيق إليكم فى هـذا الموقف من الأجر العظيم ! إنّ الله ساقكم إلى قوم مَنَعُوا الصدقة،وارتدّوا عن الإسلام ، ونكثوا البيعة ظلما وعدوانا ؛ إنى شهيد لمن قُتِل منكم بالجنة ، ومن عاش بأن الله يُقِرّ عينه بالفتح والغنيمة ؛ ففعل ذلك حتى مَرّ بالناس أجمعين ، ثم وقف فى القَلْب برايته ، وبعث إلى يزيد بن المعقل الأزدىّ ، وهو فى الميمنة ؛ أن احمِلْ عليهم ، فحمل ، فثبتوا له ، فقاتل طويلا وقاتلوه ، ثم رجع حتى وقف موقِفَه الذى كان فيه من الميمنة ، ثم بعث إلى المنجاب بن راشد الضبىّ ، وهو فى الميسرة : أن احمِل عليهم ؛ فحمل فثبتوا له ، فقاتل طويلا وقاتلوه ، ثم رجع حتى وقف موقفه الذى كان فى الميسرة ، ثم بعث معقل إلى ميمنته وميسرته : إذا حملتُ فاحملوا جميعا . ثم أجرى فرسَه وضربها ، وحمل أصحابه ، فصبروا لهم ساعة .

ثم إنّ النعمان بن صهبان الراسبىّ بَصُر بالخرّيت ، فحمل عليه ، فصرَعه عن فرسه ، ثم نزل إليه وقد جرَحه ، فاختلفا بينهما ضربتين ، فقتله النعمان وقُتِل معه فى المعركة سبعون ومائة ، وذهب الباقون فى الأرض يمينا وشمالا ، وبعث معقِل الخيل إلى رحالهم ، فسبىَ[1] من أدرك فيها رجالا ونساء وصبيانا،ثم نظر فيهم ، فَمَنْ كان مسلما خلّاه وأخذ

---

(١) السبى : الأسر .

بيعتَه ، وخلَّى سبيل عيالِه ، ومَنْ كان ارتدّ عن الإسلام عَرَض عليه الرجوعَ إلى الإسلام وإلّا القتل ؛ فأسلموا . فخلّى سبيلَهم،وسبيلَ عيالاتهم ؛ إلا شيخا منهم نصرانيا يقال له : الرماحس [١] بن منصور ؛ فإنه قال : والله مازلت [٢] مصيبا مذ عَقَلْت ؛ إلا فى خروجى من دينى ؛ دين الصدق ، إلى دينكم ، دين السوء ؛ لا والله لا أدَعُ دينى ولا أقرَبُ دينكم ماحييت .

فقدّمه معقِل فضرب عنقه ، وجمع الناس ، فقال : أدّوا ماعليكم فى هذه السنين من الصَّدَقة ، فأخذ من المسلمين عِقالين،وعَمَد إلى النصارى وعِيالاتهم فاحتملهم معه ، وأقبل المسلمون الذين كانوا معهم ؛ يشيّعونهم، فأمر معقل بردّهم ؛ فلما ذهبوا لينصرفوا،تصايحوا ودعا الرجال والنساء بعضَهم إلى بعض .

قال : فلقد رحِمتُهم رحمة مارحمتُها أحداً قبْلهم ولا بعدهم . وكتب معقل إلى علىّ عليه السلام :

أما بعد ؛ فإنى أخبر أميرَ المؤمنين عن جُنْده وعن عدوه أنّا دفعنا إلى عدونا بأسْياف البحر ، فوجدْنا بها قبائلَ ذات حَدّ وعدد ؛ وقد جمعوا لنا،فدعوناهم إلى الجماعة والطاعة، وإلى حُكْم الكتاب والسنة ؛ وقرأنا عليهم كتاب أمير المؤمنين عليه السلام ، ورفعنا لهم راية أمان ؛ فمالت إلينا طائفة منهم،وثبتت طائفة أخرى،فقبِلْنا أمرَ التى أقبلت، وصَمَدْنا إلى التى أدبرتْ ، فضرب الله وجوههم ، ونَصَرَنا عليهم ؛ فأما مَنْ كان مسلما ؛ فإنّا مننّا عليه ، وأخذنا بيعته لأمير المؤمنين،وأخذنا منهم الصدقةالتى كانت عليهم؛ وأمّا مَنْ ارتدّ فعرَضْنا عليهم الرجوع إلى الإسلام ؛ وإلاقتلناهم ؛ فرجعوا إلى الإسلام؛غيرَ رجل واحد فقتلناه ؛ وأمّا النصارى ؛ فإنّا سبيْناهم وأقبلنا بهم ؛ ليكونوا نَكالا لمن بعدهم من أهل الذِّمة ، كى لا يمنعوا الجزية ، ولا يجترئوا على قتال أهل القِبْلة ؛ وهم للصَّغار والذلة

(١) كذا فى تاريخ الطبرى ٥ : ١٢٨ ، وفى الأصول : « الرملحس » ، تحريف .

(٢) وفى الأصول : « ماظلت » ، والصواب ماأثبته من الطبرى .

أهلٌ . رحمك الله يا أمير المؤمنين ، وعليك الصلاة والسلام ، وأوجب لك جنات النعيم . والسلام .

قال : ثم أقبل بالأسارى حتى مرّ على مَصْقلة بن هُبيرة الشيبانىّ،وهو عامل لعلىّ عليه السلام على أردَشير خُرّة [١] وهم خمسمائة إنسان ، فبكى إليه النساء والصبيان ، وتصايح الرجال : يا أبا الفضل ، ياحامل الثِّقَل [٢]، يامُؤوى الضعيف ، وفَكاك العصاة،امنن علينا فاشترِنا وأعتِقْنا . فقال مصقلة:أقْسم بالله لأتصدقَنّ عليهم ، إن الله يجزى المتصدّقين.فبلغ قولُه معقلَ بن قيس ، فقال : والله لو أعلمه قالها توجُّعا لهم وإزراء علىّ لضربتُ عنقه ، وإن كان فى ذلك فَناء بنى تميم وبكر بن وائل .

ثم إن مصقلة بعث ذُهل بن الحارث الذهلىّ إلى معقل ، فقال : بِعْنى نصارى ناجية، فقـال : أبيعكهم بألف ألف درهم ؛ فأبى عليه ، فلم يزلْ يُراوده حتى باعه إياهم بخمسمائة ألف درهم،ودفَعهم إليه،وقال : عَجِّل بالمال إلى أمير المؤمنين عليه السلام،فقال مصقلة : أنا باعث الآن بصَدْر منه ، ثم أتبعك بصَدْرٍ آخر ، ثم كذلك حتى لا يَبْقى منه شىء.وأقبل معقل إلى أمير المؤمنين عليه السلام ؛ فأخبره بما كان من الأمر ، فقال له : أحسنْتَ وأصبت وَوُفقت .

وانتظر علىّ عليه السلام مصقلة أن يبعث بالمال ، فأبطأ به . وبلغ عليًّا عليه السلام أنّ مصقلة خلَّى الأسارى ولم يسألهم أن يُعينوه فى فَكاك أنفسهم بشىء ، فقـال : ما أرى مصقلة إلا قد حمـل حمالة ، ولا أراكم إلا سترَوْنه عَنْ قريب مُبَلْدَحاً [٣] ، ثم كتب إليه :

---

(١) أردشير خرة ، بالفتح ثم السكون وفتح الدال المهملة وكسر الشين المعجمة وياء ساكنة وراء ، وخاء معجمة مضمومة ، وراء مفتوحة مشددة وهاء : من كورفارس (مراصد الاطلاع) .
(٢) الثقل . متاع الإنسان وحشمه .
(٣) المبلدح : الملقى على الأرض من الضرب .

أما بعد ؛ فإنّ من أعظم الخيانة خيانة[١] الأمة ، وأعظم الغِشّ على أهل المِصر غِشّ الإمام ، وعندك من حَقّ المسلمين خمسمائة ألف درهم ، فابعث بها إلىّ حين يأتيك رسولى؛ وإلا فأقبِلْ إلىّ حين تنظر فى كتابى ؛ فإنى قد تقدّمت إلى رسولى ألّا يدعَك ساعة واحدة تقيم بعد قدومه عليك ؛ إلا أن تبعث بالمال ، والسلام .

وكان الرسول أبو جُرّة الحنفىّ ، فقال له أبو جُرّة : إن تبعث بهذا المال وإلا فاشخَصْ معى إلى أمير المؤمنين . فلما قرأ كتابه أقبل حتى نزل البَصرة، وكان العمال يحملون المال من كُور البصرة إلى ابن عباس ؛ فيكونُ ابن عباس هو الذى يبعثُ به إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، ثم أقبل من البَصرة حتى أتى عليا عليه السلام بالكوفة ، فأقرّه أياما لم يذكر له شيئاً ، ثم سأله المال ، فأدّى إليه مائتى ألف درهم ، وعَجَز عن الباقى .

قال : فروى ابن أبى سيف ، عن أبى الصَّلت ، عن ذَهل بن الحارث ، قال : دعانى مَصْقَلة إلى رَحْله ، فقدّم عشاء فطعمنا منه ، ثم قال : والله إنّ أمير المؤمنين عليه السلام يسألنى هذا المال ، ووالله ماأقدر عليه ، فقلت له : لوشئت لم يمضِ عليك جُمعة حتى تجمعَ هذا المال ، فقال : ما كنت لأحمّلها قومى ، ولا أطلب فيها إلى أحد .

ثم قال : والله لو أنّ ابن هند مُطالِبى بها ، أو ابن عفّان ، لتركها لى ؛ ألم تر إلى عثمان كيف أعطَى الأشعثَ مائة ألف درهم من خراج أذْرَبيجان فى كل سنة ! فقلت : إنّ هذا لايَرى ذلك الرأى ، وما هو بتاركٍ لك شيئا . فسكت ساعة ، وسكتُّ عنه ؛ فمامكث ليلة واحدة[٢] بعد هذا الكلام حتى لحق بمعاوية .

فبلغ ذلك عليًّا عليه السلام فقال : ماله ترّحَهُ الله ! فعل فِعْل السّيّد وفرّ فرار العبد، وخان خيانة الفاجر ؛ أما إنه لو أقام فعجز مازدنا على حَبْسه ، فإن وجدنا له شيئاً أخذناه،

(١) كلمة « خيانة » ساقطة من ا ، ب ؛ ثابتة فى ج والطبرى .

(٢) الطبرى : « فلا والله ما مكث إلا ليلة واحدة » .

وإن لم نجد له مالًا تركناه . ثم سار علىٌّ عليه السلام إلى داره فهدمها .

وكان أخوه نعيم بن هبيرة الشيبانىّ شيعةً لعلى عليه السلام ، مناصحًا ، فكتب إليه مصقلة من الشام مع رجل من نصارى تَغْلِب ، يقال له حُلْوان :

أما بعدُ ؛ فإنى كلمتُ معاوية فيك ، فوعدَك الكرامة ، ومنّاك الإمارة ، فأقبِل ساعة تلقى رسولى . والسلام .

فأخذه مالك بن كعب الأرحبىّ فسرح به إلى علىّ عليه السلام ، فأخذ كتابه فقرأه ثم قدمه فقطع يده ، فمات . وكتب نعيم إلى [أخيه] مصقلة شعرا لم يردّه عليه[١] :

لا ترمينّ هَداكَ الله معترضا ... بالظنّ منك فما بالى وحُلْوانا
ذاكَ الحريصُ على مانالَ من طَمَعٍ ... وَهُوَ البعيدُ فَلَا يُورِثْك أحزانا[٢]
مَاذَا أرَدْتَ إلى إرسالِهِ سَفَهـاً ... تَرْجُو سِقَاطَ امرئٍ لم يُلْفَ وَسْنَانَا
عَرَّضْتَه لِعَلِيٍّ إنه أَسَدٌ ... يَمْشِى العِرَضْنَةَ مِنْ آسادِ خَفَّانا[٣]
قَدْ كُنْتَ فى خَيْرِ مُصطافٍ وَمُرْتَبَعٍ ... تَحْمِى العِرَاقَ وتُدْعَى خَيْرَ شَيْبَانا[٤]
حَتَّى تَقَحَّمْتَ أمراً كُنْتَ تكرهُهُ ... لِلرَّاكِبينَ لَهُ سِرًّا وَإِعْلاَنَا
لَوْ كُنْت أدّيْتَ مال الله مصطبرا ... للحقّ زَكَّيت أحْيَانَا ومَوْتانا[٥]
لَكِنْ لَحِقْتَ بأهْلِ الشَّام ملتمِساً ... فَضْلَ ابن هندٍ فَذَاكَ الرأىُ أشْجَانَا
فاليَوْمَ تقرَعُ سِنَّ العَجْزِ من ندمٍ[٦] ... مَاذَا تقولُ وقَدْ كَان الذى كانا !
أصْبَحْتَ تبْغِضكَ الأحياء قاطبـةً ... لم يَرْفَعِ اللهُ بالمضْيان إنسانا[٧]

(١) الأبيات فى تاريخ الطبرى ٥ : ١٣٠ وما بعدها .
(٢) الطبرى : « فلا يحزنك إذ خانا » .
(٣) العرضنة : البغى فى المشى من النشاط . وخفان : مأسدة قرب الكوفة .
(٤) الطبرى : « قد كنت فى منظر عن ذا ومستمع » .
(٥) رواية الطبرى :

لَوْ كُنْتَ أدَّيْتَ مَا لِلقَوْمِ مُصْطَبِراً ... لِلْحَقِّ أحْيَيْتَ أحْيَانَا وَمَوْتَانَا

(٦) الطبرى : « سن الندم » .
(٧) الطبرى : « بالبغضاء إنسانا » .

فلما بلغ الكتاب إليه علم أنّ النصرانىّ قد هلك[١] ، ولم يلبَث التغلبيّون إلا قليلا حتى بلغهم هلاكُ صاحبهم ، فأتوا مَصقلة ، فقالوا : أنت أهلكت صاحبنا ؛ فإما أن تجيئنا[٢] به ، وإما أن تَدِيَهُ ؛ فقال : أما أنْ أجِيءَ[٣] به ، فلست أستطيع ذلك ؛ وأما أنْ أدِيَه فنعم ، فوَدَاه .

قال إبراهيم : وحدثنى ابن أبى سيف ، عن عبد الرحمن بن جندب ، عن أبيه ، قال: قيل لعلىّ عليه السلام حين هرب مَصْقلة : اردد الذين سُبُوا ولم تستوف أثمانَهم فى الرِّقّ ؛ فقال : ليس ذلك فى القضاء بحق ؛ قد عَتَقوا إذ أعتقهم الذى اشتراهم ، وصار مالى دينا على الذى اشتراهم .

وروى إبراهيم أيضا ، عن إبراهيم بن ميمون ، عن عمرو بن القاسم بن حبيب التّمار ، عن عمار الدُّهنى ، قال : لما هرب مصقلة قال أصحابُ علىّ عليه السلام له : ياأميرَ المؤمنين ، فَيئنا ! قال : إنه قد صار على غَرِيم من الغرماء ، فاطلبوه .

وقال ظبيان بن عُمارة ، أحد بنى سعد بن زيد مناة فى بنى ناجية :

هَلّا صَبَرْت للقِرَاعِ ناجيـاً ... والمرْهَفَاتِ تَخْتَلِى الهَوادِيا[٤]
والطَّعْنِ فى نُحورِكم تَوَاليـا ... وصائباتِ الأسهمِ القواضيـا

وقال ظَبْيان أيضا :

ألا فاصبرُوا للطعن والضَّرْب ناجيا ... وللمرهفَـات يختلين الهوادِيا
فقد صَبَّ ربُّ الناس خِزْياً عليكُمُ ... وَصَيَّرَكُمْ مِنْ بَعْدِ عِزٍّ مواليا

(١) الطبرى : « فلما وقع الكتاب إليه علم أن رسوله قد هلك » .
(٢) الطبرى : « تحييه » .
(٣) الطبرى : « أحييه » .
(٤) تختلى : تجز ، والهوادى هنا : الأعناق .

سَمَا لَكُمُ بالخَيْلِ جُرْداً عواديا   أخو ثقة لا يبرح الدهر غازيا
فصبّحكمْ فى رَحْلِكم وخُيولكم   بِضَرْبٍ يُرى منه المدَجَّجُ هاوياً
فَأَصْبَحتُمْ من بعد عِزٍّ وكَثرةٍ   عبيدَ العصا لا تمنعون الذَّرَاريا

قال إبراهيم بن هلال : وروى عبد الرحمن بن حبيب ، عن أبيه ، أنه لما بلغ علياً عليه السلام مصابُ بنى ناجية ، وقتلُ صاحبهم، قال : هوتْ أمّه ! ما كان أنقصَ عقله وأجرأه ! إنه جاءنى مرة فقال : إن فى أصحابك رجالًا قد خشيت أن يفارقوك ، فما ترى فيهم ؟ فقلت : إنى لا آخذُ على التهمة ، ولا أعاقب على الظّن ، ولا أقاتل إلا مَنْ خالفنى وناصبَنى ، وأظهر العداوة لى ؛ ثم لست مقاتلَه حتى أدعوَه وأُعذِرَ إليه[1] ؛ فإن تاب ورجع قبلنا منه ، وإن أبى إلا الاعتزامَ على حربنا استعنّا بالله عليه ، وناجزناه . فكفّ عنى ما شاء الله ، ثم جاءنى مرة أخرى ، فقال لى : إنّى قد خَشِيتُ أن يفسد عليك عبدالله بن وهب وزيد بن حصين الطائىّ ، إنى سمعتهما يذكرانك بأشياء لو سمعتهما لم تفارقهما حتى تقتلهما أو توثقهما ، فلا يزالان بمحبسك أبدا . فقلت له : إنّى مستشيرُك فيهما ، فماذا تأمرنى به ؟ قال : إنى آمرك أن تدعوَ بهما فتضرب رقابَهما ، فعلمت أنّه لا ورعَ له ولا عقل . فقلت له : والله ما أظنّ لك ورعا ولا عقلا ، لقد كان ينبغى لك أنْ تعلم أنى لا أقتل مَنْ لم يقاتلنى ، ولم يظهر لى عداوته للذى كنت أعلمتُكَه من رأيى ، حيث جئتنى فى المرة الأولى ؛ ولقد كان ينبغى لك ـ لو أردتُ قتلهم ـ أن تقول لى : اتق الله ! بم تستحلّ قتلهم ولم يقتلوا أحدا ، ولم ينابذوك ولم يخرجوا من طاعتك !

* * *

فأمّا مايقوله الفقهاء فى مثل هذا السّبى ، فقبل أن نذكر ذلك نقول : إنّ الروايةَ قد

---

(١) أى يكون لى عنده عذر .

اختلفت فى المرتدّين من بنى ناجية ، فالرواية الأولى التى رواها محمد بن عبد الله بن عثمان، عن نصر بن مزاحم،تتضمّن أنّ الأمير الذى من قِبَل علىّ عليه السلام قتل مقاتلةالمرتدين منهم بعــد امتناعهم من العوْد إلى الإســلام ، وسَبَى ذراريّهم ، فقدم بها على علىّ عليه السلام ؛ فعلى هذه الرواية يكون الذين اشتراهم مَصْقَلة ذرارىّ أهل الرِّدّة .

والرواية الثانية التى رواها محمد بن عبدالله ، عن ابن أبى سيف،تتضمّن أن معقِل بن قيس،الأمير من قِبَل على عليه السلام لم يقتل من المرتدّين من بنى ناجية إلا رجلا واحدا، وأمّا الباقون فرجعوا إلى الإسلام،والاسترقاقُ إنما كان للنصارى الذين ساعدوا فى الحرب وَشَهروا السيف على جيش الإمام ؛ وليسوا مرتدِّين ؛ بل نصارى فى الأصل ، وهم الذين اشتراهم مَصْقلة .

فإن كانت الرواية الأولى هى الصحيحة ففيها إشكال؛لأنّ المرتدّين لايجوز عند الفقهاء استرقاقُهم،ولا أعرف خلافا فى هذه المسألة ، ولا أظنّ الإماميّة أيضا[١] تخالف فيها ؛ وإنما ذهب أبو حنيفة إلى أنّ المرأة المرتدّة إذا لحقت بدار الحرب جاز استرقاقُها،وسائر الفقهاء على خلافه ؛ ولم يختلفوا فى أنّ الذكور البالغين من المرتدّين لا يجوز استرقاقُهم ، فلا أعلم كيف وقع استرقاق المرتدّين من بنى ناجية على هــذه الرواية ! على أنى أرى أنّ الرواية المذكورة لم يصرّح فيها باسترقاقهم ، ولا بأنهم بيعوا على مَصْقلة ، لأن لفظ الراوى : «فأبوا ، فقتَل مقاتلتهم وسبى ذراريّهم فقدم بهم على علىّ عليه السلام»؛وليس فى الرواية ذكر استرقاقهم ولا بَيْعهم على مصقلة؛ بل فيها ماينافى بَيْعهم على مصقلة،وهو قوله: « فقدم بهم على علىّ عليه السلام » ؛ فإنّ مصقلة ابتاعَ السَّبْى من الطريق فى أَرْدَشِيرخُرّة قبل قُدومه على علىّ عليه السلام ؛ ولفظ الخبر : « فقدِم بهم على علىّ عليه السلام » .

وإنما يبقى الإشكال على هــذه الرواية أن يقال : إذا كان قد قدم بهم على علىّ عليه

(١) ساقطة من ج .

السلام ، فصقلة من اشترى ! ولا يمكن دفع كون مصقلة اشترى قوما فى الجملة ، فإن الخبر بذلك مشهور جدا يكاد يكون متواترا .

فإن قيل: فما قولكم فيما إذا ارتدّ البالغون من الرجال والنساء، ثم أولدوا ذرّية صغارا بعد الردّة ؟ هل يجوز استرقاق الأولاد ؟ فإن كان يجوز ، فهلّا حملتم الخبر عليه !

قيل : إذا ارتدّ الزوجان فحملت منه فى حال الردّة وأتت بولد كان محكوما بكفره؛ لأنه ولد بين كافرين .

وهل يجوز استرقاقه ؟ فيه للشافعىّ قولان ؛ وأما أبو حنيفة فقال : إنْ ولد فى دار الإسلام لم يجز استرقاقه، وإن وُلِد فى دار الحرب جاز استرقاقُه ، فإن كان استرقاقُ هؤلاء الذرية موافقا لأحد قولَىِ الشافعى ، فلعلّه ذاك .

وأما الرواية الثانية، فإن كانت هى الصحيحة ـ وهو الأولى ـ فالفقه فى المسألة أن الذمّى إذا حارب المسلمين فقد نقضَ عهده ، فصار كالمشركين الذين فى دار الحرب ، فإذا ظَفِر به الإمام جازَ استرقاقُه وبيعُه ؛ وكذلك إذا امتنع من أداء الجزْية أو امتنع من التزام أحكام الإسلام .

واختلف الفقهاء فى أمور سبعة: هل ينتقضُ بها عهدهم، ويجوز استرقاقهم أم لا ؛ وهى أن يزنىَ الذمّى بمسلمة، أو يصيبها باسم نكاح ، أو يفتن مسلما عن دينه، أو يقطع الطريق على المسلمين ، أو يؤوى[1] للكفار عينا ، أو يدلّ على عورات المسلمين ، أو يقتل مسلما.

فأصحاب الشافعىّ يقولون : إن شرط عليهم فى عَقْد الذمّة الكفّ عن ذلك ، فهل ينقض عهدهم بفعله ؟ فيه وجهان . وإن لم يشترط ذلك فى عقد الذمّة ، لم ينتقض عهدهم بذلك .

وقال الطحاوىّ من أصحاب أبى حَنيفة : ينتقض عهدهم بذلك ، سواء شورطوا عن

---

(١) ب : « يؤدى » ، تحريف .

الكفّ عنه فى عقد الذّمة ، أو لم يشارطوا عليه .

فنصارى بنى ناجية على هذه الرواية قد انتقض عهدُهم بحرب المسلمين، فأبيحت دماؤهم، وجاز للإمام قتلهم وجاز له استرقاقهم كالمشركين الأصليين فى دار الحرب ؛ وأما استرقاق أبى بكر بن أبى قُحافة لأهل الرِّدة وسَبْيُه ذراريّهم ؛ فإن صحّ كان مخالفا لما يقول الفقهاء من تحريم استرقاق المرتدّين ، إلا أن يقولوا إنه لم يَسْبِ المرتدّين ، وإنما سَبَى مَنْ ساعدهم وأعانهم فى الحرب من المشركين الأصليين .

وفى هذا الموضع نظر .

(٤٥)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأَصْلُ :

اَلْحَمْدُ لِلهِ غَيْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَا مَخْلُوٍّ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَلَا مَأْيُوسٍ مِنْ مَغْفِرَتِهِ، وَلَا مُسْتَنْكَفٍ عَنْ عِبَادَتِهِ ؛ الذِي لَا تَبْرَحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ ، وَلَا تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَةٌ .

وَالدُّنْيَا دَارٌ مُنِيَ لَهَا الْفَنَاءُ ، وَلِأَهْلِهَا مِنْهَا الْجَلَاءُ ، وَهِيَ حُلْوَةٌ خَضِرة ، وَقَدْ عَجِلَتْ لِلطَّالِبِ، وَالْتَبَسَتْ بِقَلْبِ النَّاظِرِ ؛ فَارْتَحِلُوا مِنْهَا بِأَحْسَنِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ، وَلَا تَسْأَلُوا فِيهَا فَوْقَ الْكَفَافِ ، وَلَا تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ الْبَلَاغِ .

***

الشَّرْحُ :

مُنِي لها الفناء ، أى قُدِّر . والجلاء ، بفتح الجيم : الخروج عن الوطن ، قال سبحانه: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ ﴾ (١) .

وحلوة خَضِرة ؛ مأخوذ من قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « إنّ الدنيا حُلْوة خَضِرة ، وإنّ الله مستخلِفكم فيها فناظر كيف تعملون » .

والكَفاف من الرزق : قَدْر القُوت ؛ وهو ما كَفّ عن الناس ، أى أغنى .

والبلاغ والبُلْغة من العيش : ما يُتَبَلَّغُ به .

***

(١) سورة الحشر ٣ .

واعلم أنّ هذا الفصل يشتمِلُ على فصلين من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : أحدُهما حَمْد الله والثناء عليه إلى قوله : « ولا تُفْقَدُ له نِعْمة » ، والفصل الثانى ذكر الدنيا إلى آخر الكلام . وأحدُهما غيرُ مختلط بالآخر ولا مَنْسُوق عليه ؛ ولكنّ الرضىّ رحمه الله تعالى يلتقط كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام التقاطاً ، ولا يقفُ مع الكلام المتوالى ؛ لأن غرضَه ذكرُ فصاحتِه عليه السلام لا غير ، ولو أتى بخُطَبِه كلّها على وجهها لكانت أضعافَ كتابه الذى جَمَعه .

***

[فصل بلاغىّ فى الموازنة والسجع]

فأما الفصل الأول ، فيشتملُ من علم البيان على باب كبير يعرف بالموازنة ، وذلك « غيرمقنوط » فإنه وازنه فى الفقرة الثانية بقوله : « ولا مخلوّ » . ألا ترى أنّ كلّ واحدة منهما على وزن « مفعول » ، ثم قال فى الفقرة الثالثة : « ولا مأيُوس » ، فجاء بها عَلَى وزن « مفعول » أيضا ؛ ولم يمكنْه فى الفقرة الرابعة ما أمكنه فى الأولى ، فقال : « ولا مستنكَف » فجاء به على وزن « مستفعل » وهو وإن كان خارجاً عن الوزن ؛ فإنه غيرُ خارج عن المفعولية ، لأن « مستفعل » « مفعول » فى الحقيقة ، كقولك : زيد مستحسَن ، ألا ترى أنّ « مستحسنا » من استحسنه ، فهو أيضا غير خارج عن المفعولية .

ثم وازن عليه السلام بين قوله : « لا تبرح » وقوله : « لا تفقد » ، وبين « رحمة » و « نعمة » ؛ فأعطت هذه الموازنات الكلام من الطّلاوة والصنعة مالا تجده عليه لو قال : « الحمد لله غير مخلوّ من نعمته ، ولا مبعَد من رحمته » لأنّ « مبعد » بوزن « مفعل » ، وهو غير مطابق ولا مماثل لمفعول ، بل هو بناء آخر .

وكذلك لو قال : « لا تزول منه رحمة » ، فإنّ « تزول » ليست فى المماثلة والموازنة

لـ « تفقد » كـ « تبرح » ألا ترى أنها معتلة ، وتلك صحيحة ! وكذلك لو قال : «لاتبرح منه رحمة ولا يفقد له إنعام » فإن « إنعاما » ليس فى وزن « رحمة » ،والموازنة مطلوبة فى الـكلام الذى يقصد فيه الفصاحة ، لأجل الاعتدال الذى هو مطلوب الطبع فى جميع الأشياء . والموازنة أعمّ من السّجع ، لأن السجع تماثل أجزاء الفواصل لو أوردها على حرف واحد ، نحو القريب ، والغريب ، والنسيب ، وماأشبه ذلك . وأما الموازنة فنحو القريب والشديد ، والجليل ؛ وما كان على هذا الوزن وإن لم يكن الحرف الآخر بعينه واحداً ، وكلّ سجع موازنة ، وليس كل موازنة سجعا ؛ ومثال الموازنة فى الـكتاب العزيز : ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْـكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[1] ؛ وقوله تعالى : ﴿ لِيَـكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَيَـكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ ، ثم قال : ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ ثم قال : ﴿ نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾[2] فهذه الموازنة .

ومما جاء من المثال فى الشعر قوله :

بأشدّهِمْ بَأْسًا عَلَى أعْدَائِهِمْ   وَأعَزِّهم فَقْدًا عَلَى الأصحاب

فقوله : « وأعزهم » بإزاء « أشدهم » ، وقوله : « فقدا » بإزاء « بأسا » .

والموازنة كثيرة فى الـكلام وهى فى كتاب الله تعالى أكثر .

***

[نبذ من كلام الحـكماء فى مدح القناعة وذم الطمع]

فأما الفصلُ الثانى فيشتمل على التحذير من الدنيا ، وعلى الأمر بالقناعة ، والرضا بالـكفاف ؛ فأما التحذيرُ من الدنيا فقد ذكرنا ونذكر منه مايحضرنا ؛ وأمّا القناعة فقد ورَد فيها شىء كثير .

---

(١) سورة الصافات ١١٧ ، ١١٨ .   (٢) سورة مريم ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأخوين من الأنصار : « لا تيئسا من روح الله ما تَهَزْهَزَتْ رُءوسكما ، فإنّ أحدكم يولد لا قِشْر عليه ، ثم يكسوه الله ويرزقه » .

وعنه صلى الله عليه وسلم — ويُعْزَى إلى أمير المؤمنين عليه السلام — : « القناعة كنز لا يَنفَد » .

وما يقال إنه من كلام لقمان الحكيم : « كفى بالقناعةِ عزّا ؛ وبطيب النفس نعيما » .

ومن كلام عيسى عليه السلام : اتخِذُوا البيوت منازلَ ، والمساجد مساكن ، وكلوا من بَقْل البريّة ، واشربوا من الماء القراح ، واخرجوا من الدنيا بسلام . لعمرى لقد انقطعتم إلى غير الله فما ضيّعكم ، أفتخافون الضَّيْعة إذا انقطعتم إليه !

وفى بعض الكتب الإلهية القديمة : يقول الله تعالى : يابن آدم ، أتخاف أن أقتلك بطاعتى هزْلا ، وأنت تتفتّق بمعصيتى سِمَنًا !

قال أبو وائل : ذهبتُ أنا وصاحب لى إلى سَلمان الفارسىّ ، فجلسنا عنده ، فقال : لولا أنّ رسول الله صلى الله عليه نهى عن التكلّف لتكلّفت لكم ، ثم جاء بخبز ومِلْح ساذج لا أبزار عليه ، فقال صاحبى : لو كان لنا فى مِلْحنا هذا سَعْتر[1] ! فبعث سلمان بمِطْهَرته ، فرهنها على سعتر ، فلما أكلنا قال صاحبى : الحمد لله الذى قنّعنا بما رزقَنا ، فقال سلمان : لو قنعتَ بما رزقك لم تكن مِطْهرتى مرهونة !

عباد بن منصور : لقد كان بالبصرة مَنْ هو أفقهُ من عَمْرو بن عُبَيد وأفصح ؛ ولكنه كان أصبَرهم عن الدينار والدرهم ، فسادَ أهلَ البَصْرة .

قال خالد بن صفوان لعمرو بن عبيد : لم لا تأخذ مِنّى ؟ فقال : لا يأخذُ أحدٌ من أحدٍ إلّا ذلّ له ؛ وأنا أكره أن أذِلّ لغير الله .

---

(١) السعتر : نبات طيب الرائحة حريف زهره أبيض إلى الغبرة .

كان معاشُ عمرو بن عُبَيد من دارٍ وَرِثَها ، كان يأخذ أجرتَها فى كل شهر دينارا واحدا فيتبلَّغ به .

الخليل بن أحمد : كان الناس يكتسبُون الرَّغائب بعلْمِه ، وهو بين أخصاص البَصْرة ، لا يلتفت إلى الدنيا ولا يطلُبها .

وهب بنُ منبِّه : أرْمَلْتُ مرَّة حتى كدت أقنَط ، فأتانى آتٍ فى المنام ومعه شبه لوزة ، فقال : افضُضْ ، ففضضتُها ، فإذا حريرة فيها ثلاثة أسطر : لا ينبغى لمن عقَل عن الله أمره ، وعرف لله عدله ، أن يستبطئَ الله فى رزقه ، فقنعت وصَبَرت ، ثم أعطانى الله فأكثر .

قيل للحسن عليه السلام : إنّ أبا ذرّ كان يقول : الفقرُ أحبّ إلىّ من الغنى ، والسُّقم أحبّ إلىّ من الصحة ، فقال : رحم الله أبا ذرّ ، أما أنا فأقول : من اتَّكل إلى حُسْنِ الاختيار من الله لم يتمنّ أنه فى غير الحال التى اختارها الله له ، لعمرى يابن آدم ، الطير لا تأكل رَغَداً ، ولا تخبأ لغد ، وأنت تأكل رغدا ، وتخبأ لغدٍ ، فالطيرُ أحسنُ ظناً منك بالله عزّ وجلّ .

حَبَس عمر بن عبد العزيز الغَدَاء عن مَسْلَمة ، حتى برَّح به الُجوع ، ثم دعا بسَوِيق فسقاه ، فلما فرَغ منه لم يقدِرْ على الأكل ، فقال : يا مسلَمة ، إذا كفاك من الدّنيا ما رأيت ، فعلامَ التّهافت فى النار !

عبد الواحد بن زيد : ما أحسِب شيئا من الأعمال يتقدَّم الصبر إلا الرضا والقناعة ، ولا أعلم درجةً أرفع من الرضا ، وهو رأس المحبّة .

قال ابن شُبْرُمة فى محمد بن واسع : لو أنّ إنساناً اكتفى بالتراب لاكتفى به .

يقال من جملة ما أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : قل لعبادِى المتسخِّطين لرزق ، إياكم أنْ أغْضَب فأبْسُط عليكم الدنيا .

كان لبعض الملوك نديم ، فَسَكِر ، ففـاتَتْه الصلاة ، فجاءت جارية له بجَمْرة نار ، فوضعتْها على رجله، فانتبه مذعورا ، فقالت : إنك لم تصبر على نَار الدنيا ، فكيف تصبر على نار الآخرة ! فترك الدنيا وانقطع إلى العبادة ، وقعد يبيع البقل ، فدخل عليه الفُضَيل وابن عُيَيْنَة ؛ فإذا تحت رأسه لبنة ، وليس تحت جَنْبه حصير ، فقالا له : إنا رَوَيْنَا أنّه لم يَدَعْ أحدٌ شيئا لله إلا عَوّضه خيرا منه ، فما عوّضك ؟ قال : القناعة والرضا بما أنا فيه .

أصابت داود الطائىّ ضائقة شديدة ، فجاء حماد بن أبى حنيفة بأربعمائة درهم من تركة أبيه ، فقال داود : هى لعَمْرِى من مال رجل ما أقدِّم عليه أحداً فى زهده وورعه وطيب كسبه ، ولو كنتُ قابلا من أحدٍ شيئا لقبلتُها إعظاما للميت، وإيجاباً للحىّ، ولكنى أحبُّ أن أعيشَ فى عِزّ القناعة .

سفيان الثورىّ : ما أكلتُ طعام أحدٍ قطّ إلا هُنْت عليه .

مِسْعر بن كِدَام : مَنْ صَبَر على الخلّ والبَقْل لم يُسْتَعْبَدْ .

فُضَيل: أصلُ الزهد الرضا بمارزقك الله ، ألا تراه كيف يصنع بعَبْدِه ماتصنع الوالدة الشفيقة بولدها ! تطعمه مَرّة خبيصا[1] ، ومرة صَبِراً ، تريد بذلك ما هو أصلح له .

المسيح عليه السلام : أنا الذى كببت الدنيا عَلَى وَجْهها ، وقدرتُها بقدرها ، ليس لى ولد يموت ، ولا بيت يَخْرَب ؛ وِسادى الحجر ، وفراشى المَدَر ، وسراجى القَمَر .

أمير المؤمنين عليه السلام : أكل تَمْرَ دَقَل[2] ، ثم شرب عليه ماء ، ومسح بطنه ، وقال : من أدخلته بطنُه النار ، فأبعده الله ، ثم أنشد :

فإنّك إنْ أعْطَيْتَ بَطْنَكَ سُؤْلَهُ ... وَفَرْجَكَ نَالَا مُنْتَهَى الذّمّ أجْمَعا[3]

---

(١) الخبيص : التمر المعمول من السمن والعسل .

(٢) الدقل : أردأ التمر .

(٣) البيت لحاتم الطائى ، ديوانه ١٧/١ (طبع بيروت) .

فى الحديث الصحيح المرفوع: « إن رُوح القُدُس نَفَثَ فى رُوعى أنّه لن تموتَ نفس حتى تستكمل رزقَها ، فأجملوا فى الطَّلَب » .

من كلام الحكماء : من ظفر بالقناعة فقد ظَفِر بالكيمياء الأعظم .

الحسن : الحريص الراغب ، والقانع الزاهد كلاهما مستوفٍ أجلَه ، مستكمل أكْلَه ؛ غير مُزداد ولا منتقَص ٍمما قُدِّر له ، فعلام التقحّم فى النار !

ابن مسعود، رفعه : « إنّه ليس أحد بأكْيَس من أحد ؛ قد كُتِب النصيب والأجل، وقُسِمَتْ المعيشة والعمل ؛ والناس يجرُون منهما إلى منتهًى معلوم » .

المسيح عليه السلام: انظروا إلى طير السماء تغدُو وتروح ، ليس معها شىء ،من أرزاقها، لا تحرث ولا تحصُد ؛ والله يرزقها ، فإن زعمتم أنكم أوسع بطونا من الطير ؛ فهذه الوحوش من البقر والحُمُر ، لا تحرث ولا تحصد ؛ والله يرزقها .

سويد بن غفلة : كان إذا قيل له : قد وَلِى فلان ، يقول : حسبى كِسْرتى ومِلْحى .

وفد عروة[1] بن أذينة على هِشام بن عبد الملك فشكا إليه خَلّته ، فقال له : ألست القائل :

لقَدْ علِمْتُ وما الإشراف من خُلُقِى ... أنّ الّذى هُوَ رِزْقِى سَوْفَ يأتينى[2]
أسعَى له فيعنّينى تَطَلُّبُه ... ولو قعَدتُ أتانى لا يُعنّينى

فكيف خرجت من الحجاز إلى الشام تطلب الرزق ! ثم اشتغل عنه ، فخرج وقعد على ناقته ونَصّها راجعا إلى الحجاز ، فذكره هشام فى الليل ، فسأل عنه فقيل : إنه رَجَع إلى الحجاز ، فتذمّر ونَدِم ، وقال : رجل قال حِكْمة ، ووفد علَىّ مستجديا ، فجبهته ،

(١) الخبر فى الشعر والشعراء ٥٦ .
(٢) الإشراف . الحرص ، كذا فسره صاحب اللسان واستشهد بالبيت .

ورددتُه ! ثم وجّه إليه بألفَىْ درهم ، فجاء الرسول وهو بالمدينة ،فدَفعها إليه ، فقال له : قل لأمير المؤمنين ، كيف رأيت ! سعيتَ فأ كْدَيْتَ ، وقعدت فى منزلى فأتانى رزقى .

عمر بن الخطاب : تعلّمْ أنّ الطمع فقْر ؛ وأن اليأس غنى ، ومن يئس من شىء استغنى عنه .

أهدِى لرسول الله صلى الله عليه وسلم طائران ، فأ كل أحدهما عشيّة ، فلما أصبح طلب غداء ، فأتته بعضُ أزواجه بالطائر الآخر ، فقال : « ألم أنهك أن ترفعى شيئاً لغدٍ ، فإنّ مَنْ خَلَقَ الغَدَ خلق رزقه » .

وفى الحديث المرفوع : « قد أفلَح مَنْ رُزِق كفافا وقنّعه الله بما آتاه » .

من حكمة سليمان عليه السلام : قد جرّبنا لِين العَيْش وشِدّته ، فوجـدنا أهنأه أدناه .

وهب ، فى قوله تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾[١]، قال : القناعة .

بعض حكماء الشعراء :

فَلَا تَجْزَعْ إذَا أعْسَرْتَ يَوْماً ... فَقَـدْ أيْسَرْتَ فى الدَّهْرِ الطَّوِيلِ
وَلَا تَظُنَنْ برَبِّكَ ظَنَّ سَوْء ... فإنّ الله أولَى بالجميـــلِ
وإن العُسْر يَتْبَعُهُ يَسَـــارٌ ... وقيلُ الله أصْدَقُ كلِّ قِيلِ
وَلَوْ أنّ العقول تجرُّ رِزْقاً ... لَكَانَ المَالُ عِنْدَ ذَوِى الْعُقُولِ

عائشة : قال لى رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « إنْ أردْتِ اللّحُوق بى فيـكفيك من الدنيا زادُ الراكب ؛ ولا تُخْلِقِى ثوبا حتى ترَقّعية ؛ وإياك ومجالسة الأغنياء » .

---

(١) سورة النحل ٩٧ .

يقال : إنّ جبرائيل عليه السلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم بمفاتيح خزائن الدنيا ، فقال : « لا حاجة لى فيها ، بل جَوْعتان وشَبْعة » .

وُجِد مكتوبا على صخرة عادِيّة[١] : يابنَ آدم ، لست ببالغ أملَك ، ولا سابِقٍ أجلَك ، ولا مغلوبٍ على رزقك ، ولا مرزوق ما ليس لك ، فعلامَ تقتل نفسك !

الحسين بن الضحاك :

يارَوْحُ مَنْ عَظُمَتْ قَناعَتُه حَسَمَ المطامعَ مِنْ غدٍ وَغدِ[٢]
مَنْ لم يَكُنْ لِلّهِ مُتَّهِماً لَمْ يُمْسِ مُحْتاجاً إلى أحَدِ

أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : أتدرِى لِمَ رزقتُ الأحمق ؟ قال : لا ، قال : ليعلم العاقلُ أنّ طلبَ الرزق ليس بالاحتيال .

قَنَطَ[٣] يوسف بن يعقوب عليه السلام فى الُجبّ لجوعٍ اعتراه ، فأوحى إليه : انظر إلى حائط البئر ، فنَظَر فانفرج الحائط عن ذَرّةٍ على صخرة ، معها طعامها ، فقيل له : أترانى لا أغْفُلُ عن هذه الذّرّة ، وأغفلُ عنك ، وأنت نبىّ ابن نبىّ !

دخل علىّ عليه السلام المسجِد ، وقال لرجل : أمْسِكْ علىّ بغلتى ، فخلع لجامها ، وذهب به ، فخرج علىّ عليه السلام بعد ما قَضَى صلاتَه ، وبيده درهمان ليدفَعهما إليه مكافأة له ، فوجد البغلة عُطُلا ، فدفع إلى أحد غلمانه الدرهمَيْن ؛ ليشترىَ بهما لجاما ، فصادف الغلام اللجام المسروق فى السوق ؛ قد باعه الرجل بدرهمين ، فأخذه بالدّرهمين وعاد إلى مولاه ، فقال علىّ عليه السلام: « إنّ العبدَ ليحرِمُ نفسَه الرزق الحلال بترك الصبر،

---

(١) عادية ، أى قديمة ؛ نسبة إلى قبيلة عاد البائدة .

(٢) من أبيات فى الحيوان ٥ : ٤٨٠ ؛ قال الجاحظ : « وهذا شعر رويته له على وجه الدهر ، وزعم حسين بن الضحاك أنه له ، وكان يدعى ماليس له » .

(٣) قنط قنوطا ؛ أى يئس .

ولا يزاد على ما قُدّر له .

سليمان بن المهاجر البَجَلي :

كَسَوْتُ جَميلَ الصَّبْرِ وَجْهِى فَصَانَهُ ... بِهِ اللهُ عَنْ غِشْيانِ كُلِّ بَخيلِ

فَلَمْ يتبذّلنى البخيلُ ولم أقُمْ ... عَلَى بابِهِ يَوْماً مقــام ذَليلِ

وإنّ قليلا يَستُر الوجهَ أن يُرَى ... إلى النــاس مبذولاً لَغيرُ قليـل

وقف بعض الملوك على سُقراط وهو فى المَشْرقة[١] ، فقال له : سَلْ حاجتَك ، قال : حاجتى أنْ تُزِيل عَنِّى ظلَّك ، فقد منعتَنى الرِّفْق[٢] بالشمس ؛ فأحضرَ له ذهبا وكُسوة دِيباج، فقال : إنه لاحاجةَ بسقراط إلى حجارةالأرض ولُعاب الدود ؛ إنما حاجتُه إلىأمر يَصحَبُه حيثما توجَّه .

صلّى معروف الكرخيّ خَلْف إمام ؛ فلما انفتل سأل ذلك الإمام معروفاً : من أين تأكل ؟ قال : اصبِر علىّ حَتّى أعيدَ ما صليتُه خَلْفك ؛ قال : لماذا ؟ قال : لأنّ مَنْ شَكّ فى الرزق شكّ فى الرازق ، قال الشاعر :

وَلَا تُهْلِكَنَّ النَّفسَ وَجْداً وَحَسْرَةً ... عَلَى الشيء أَسْدَاهُ لغيرِكَ قادِرُهْ[٣]

ولَا تَيْأَسنْ من صالحٍ أن تَنَالَهُ ... وإنْ كان نهباً بَيْنَ أيدٍ تُبادِرُهْ

فإنّك لا تُعطِى امرأً حَظَّ نَفْسِهِ ... ولا تمنع الشّق الذى الغيثُ ناصِرُهْ

قال عمر بن الخطاب لعلىّ بن أبى طالب عليه السلام : قد ملأتُ الناسَ ، وأحببتُ أن ألحقَ بصاحبىّ ، فقال : إن سَرّك اللُّحوق بهما فقَصِّر أملَك ، وكُلْ دون الشِّبَع ، واخصِف النَّعْل[٤] وكن كَمِيشَ[٥] الإزار ، مرقوع القميص ، تلحق بهما .

---

(١) المشرقة : موضع القعود فى الشمس فى الشتاء . (٢) الرفق بالشىء : الانتفاع به .
(٣) ا : « سداه لغيرك » ؛ أى أعطاه . (٤) خصف النعل : خرزها بالمخصف .
(٥) يقال : كمش إزاره ؛ إذ قصره وشمره .

وقال بعض شعراء العجم :

غَلَا السِّعْرُ فى بغــدادَ مِنْ بَعْدِ رُخْصِهِ وإنِّى فى الحالَيْن بالله واثِقُ
فلَسْتُ أخافُ الضِّيقَ والله واسِعٌ غِنـــاهُ ، ولا الحِرْمانَ والله رَازِقُ

قيل لعلىٍّ عليه السلام : لو سُدَّ على رَجُلٍ باب بيت وتُرِكَ فيه ، من أين كان يأتيه رزقه ؟ قال : مِنْ حيث كان يأتيه أجلُه .

قال بعض الشعراء :

صَبَرْتُ النفسَ لاأجزَ ع من حادثةِ الدهرِ
رأيتُ الرّزق لايُكْسَ بُ بالعُرْفِ ولا النُّكْرِ
ولا بالسّلفِ الأمثا لِ أهـلِ الفَضْل والذِّكْرِ
وَلَا بالسُّمُرِ الُّلدْنِ ولا بالْخُذُمِ البُتْرِ(١)
وَلَا بالعَقْلِ والدِّينِ وَلَا الجَاهِ وَلَا القَدْرِ
وَلَا يُدْرَكُ بالطَّيْشِ وَلَا الجَهْلِ وَلَا الهَذْرِ
وَلَكِنْ قِسَمٌ تجْرِى بمَا نَدْرِى وَلَا نَدْرِى

جاء فتح بن شَخْرف إلى منزله بعد العِشاء ، فلم يجدْ عندهم مايتعشّى به ، ولا وَجَدَ دُهْناً للسراج وهم فى الظلمة ، فجلَس ليلةً يبكى من الفرح ، ويقول : بأىّ يد قد كانت منّى، بأىّ طاعةٍ تنعم علىّ بأن أترَكَ على مثل هذه الحال !

لقى هَرِم بن حَيّان أُوَيساً القَرَنِىّ ، فقال : السلام عليك ياأويسَ بن عامر ! فقال : وعليك السّلام ياهَرِم بن حيّان ، فقال هَرِم : أما إنّى عَرَفْتُك بالصِّفة ، فكيف عرفتنى؟ قال : إنّ أرواح المؤمنين لَتُشام كما تشام الخيل ، فيعرف بعضُها بعضاً . قال : أوصِنى ،

---

(١) السمر : جمع أسمر ؛ وهو الرمح اللدن اللين . والخذم : جمع خاذم ؛ أى قاطع .

قال : عليك بسِيف البحر ، قال : فمن أين المعاش ؟ قـال : أفّ لك ! خالطت الشكّ الموعظة ، أتفرّ إلى الله بدينك وتتهمه فى رزقك !

منصور الفقيه :

الموْتُ أسْهَلُ عِندِى بين القَنَا وَالأسِنّـه
والخيلُ تجرِى سِراعاً مقطّعــاتِ الأعنّة
مِنْ أن يـكون لِنَذْلٍ عَلَىَّ فَضْـلٌ وَمِنّـه

أعرابىّ :

أتيْئسُ أنْ يقارِنَكَ النّجَاحُ فأين اللهُ والْقَدَرُ المُتاحُ[1]

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصنى ، قال : « إيّاكَ والطمع ؛ فإنّه فقر حاضر ، وعليك باليأس مِمّا فى أيدِى الناس » .

حـكيم : أحسنُ الأحوال حال يَغبِطُكَ بهـا مَنْ دونك ، ولا يحقِرُكَ بهـا مَن فوقك .

أبو العلاء المعرىّ :

فإن كُنْتَ تَهْوَى العيش فابغِ توَسُّطاً فعندَ التنـاهى يَقصُر المتطَـاوِلُ[2]
تُوَقَّى البدورُ النّقصَ وَهْىَ أهِلّةٌ ويُدْرِكها النُّقصان ، وهْىَ كَوامِلُ

خالد بن صفوان : كن أحسنَ ماتـكون فى الظاهر حالًا ، أقلّ ماتـكون فى الباطن مآلا ؛ فإنّ الـكريمَ مَنْ كَرُمت عند الحاجة خَلّته[3] ، واللئيم من لؤمت عند الفاقة طعمته .

---

(١) المتاح : المهيأ . (٢) شروح سقط الزند ٥٥٢
(٣) الخلة : الحاجة .

شعر :

وَكَمْ مَلِكٍ جانبتهُ مِنْ كَرَاهَةٍ   لإغلاقِ بابٍ أو لِتَشْدِيد حاجِبِ
ولى فى غِنَى نفسِى مَرَادٌ ومَذْهَبٌ   إذا أُبْهِمَتْ دُونِى وُجُوهُ المذاهب[1]

بعض الحكماء : ينبغى للعاقل أن يكون فى دنياه كالمدعوّ إلى الوليمة ، إن أتته صحفة تناولها ، وإن جازته لم يرصدها ولم يطلبها .

(٤٦)

ومن كلام له عليه السلام عند عزمه على المسير إلى الشام :

الأصل :

اَللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ ، فِى الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ . اَللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِى السَّفَرِ ، وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِى الْأَهْلِ ؛ وَلاَ يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ ؛ لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لاَ يَكُونُ مُسْتَصْحَباً ، وَالْمُسْتَصْحَبُ لاَ يَكُونُ مُسْتَخْلَفاً .

* * *

قال الرضىّ رحمه الله :

وابتداء هذا الكلام مروىٌّ عن رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وقد قفّاه أميرُ المؤمنينَ عليه السّلامُ بأبلغَ كلامٍ ، وتمّمَهُ بأحسن تمام ، من قوله : « ولا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ » ، إلى آخرِ الفصل .

* * *

الشرح :

وَعْثَاء السفَرِ : مشقّتُه ، وأصل الوَعْث المكان السّهل الكثير الدّهس ، تَغيبُ فيه الأقدام ، ويشقّ على مَنْ يمشى فيه ، أوْعَثَ القوم ، أىْ وقعوا فى الوعَثْ . والكآبة : الحزن . والمنقلَب ، مصدر من انقلب منقلَبا ، أى رَجَع ، وسوء المنظر : قُبْح المرأى .

وصدر الكلام مرويّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم فى المسانيد الصحيحة ، وختَمه أميرُ المؤمنين عليه السلام وتمّمه بقوله : « ولا يجمعهما غَيْرُكَ » ؛ وهو الصحيح ؛ لأنّ مَنْ يُسْتَصْحَبُ لا يكون مستخلَفا ؛ فإنه مستحيل أنْ يكونَ الشىء الواحد فى المكانين مقيما وسائرا ؛ وإنما تصِحّ هذه القضية فى الأجسام ؛ لأنّ الجسم الواحد لا يكون فى جهتين فى وقت واحد ؛ فأمّا ما ليس بجسم وهو البارئ سبحانه ؛ فإنه فى كلّ مكان ؛ لا عَلَى معنى أنّ ذاتَه ليست مكانيّة ؛ وإنما المراد علمه وإحاطتُه ونفوذ حكمه وقضائه وقدَره ؛ فقد صدق عليه السلام أنّه المستخلَف وأنه المستصحب ؛ وأنّ الأمرَيْن مجتمعان له جلّ اسمه .

وهذا الدعاء دَعَا به أمير المؤمنين عليه السلام بعد وَضْعِ رجله فى الركاب ، من منزله بالكوفة متوجّها إلى الشام لحرب معاوية وأصحابه ؛ ذكره نَصْر بن مزاحم فى كتاب " صفين [(١)] " وذكره غيره أيضا من رواة السيرة .

***

[أدعية علىّ عند خروجه من الكوفة لحرب معاوية]

قال نصر : لما وَضَع علىّ عليه السلام رِجْلَه فى رِكاب دابّته يوم خرج من الكوفة إلى صِفّين ، قال : بسم الله ؛ فلمّا جلس على ظهرها ، قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ ، [(٢)] اللهمّ إنّى أعوذ بك من وَعْثاء السفر ... إلى آخر الفصل . وزاد فيه نصر : « ومِنَ الْحَيْرَةِ بعد اليقين » . قال : ثم خرج أمامه الحرّ بن سهم بن طَريف ، وهو يرتجز ويقول :

يا فَرَسِى سِيرِى وَأُمِّى الشَّامَا   وَقَطِّعِى الحُزُونَ والأَعْلَامَا [(٣)]
وَنَابِذِى مَنْ خَالَفَ الإمَامَا   إنِّى لأَرْجُو إنْ لَقِينَا الْعَامَا

---

(١) كتاب صفين ١٤٩ .   (٢) سورة الزخرف ١٣ ، ١٤ .

(٣) صفين : « وأقطعى » ، والحزون : جمع حزن ، وهو ضد السهل من الأرض .

جَمْعَ بنِي أميّةَ، الطَّغَامَا[1] أن نقتل العاصِيَ والهُمَامَا

* وَأَنْ نُزِيلَ مِنْ رِجَالٍ هَامَاً *

قال : وقال حبيبُ بن مالك ، وهو على شُرْطَة علىّ عليه السلام ، وهو آخذٌ بعِنان دابّته : ياأمير المؤمنين ، أتخرجُ بالمسلمينَ فيُصيبوا أجْرَ الجهاد بالقتال ، وتخلّفنى بالكوفة لحِشْرِ الرجال ! فقال عليه السلام : إنهم لَنْ يُصيبوا من الأجر شيئا إلا كنتَ شريكَهم فيه ؛ وأنت هَا هُنا أعظم غَناء عنهم منك لو كُنْتَ معهم . فخرج علىّ عليه السلام ، حتى إذا حَاذَى الكوفة صلّى ركعتين[2] .

قال : وحدّثنا عمرو بن خالد ، عن أبى الحُسين زيد بن علىّ عليه السلام ، عن آبائه : أنّ[3] عليا عليه السلام خرج وهو يريد صِفّين ؛ حتى إذا قطع النَّهْر ، أمر مناديَه، فنادى بالصلاة ؛ فتقدّم فصلّى ركعتين ؛ حتى إذا قضى الصلاة ، أقبلَ على الناس بوجهه ، فقال : أيّها الناس ؛ ألا مَنْ كان مُشَيِّعا أو مقيما فليتِمّ الصلاة ؛ فإنا قوم سَفْر ، ألا ومَنْ صَحِبَنا فلا يصومَنّ المفروض . والصلاة المفروضة ركعتان .

قال نصر : ثم خرج حتى نزل دير أبى موسى ـ وهو من الكوفة على فرسخين ـ فصلّى به العصر ، فلما انصرف من الصلاة ، قال : سبحان الله ذى الطَّوْل والنعم ! سبحان الله ذى القدْرة والإفضال ، أسأل الله الرِّضا بقضائه ، والعملَ بطاعته، والإنابة إلى أمره؛ إنه سميع الدعاء[3] .

قال نصر : ثم[4] خَرَج عليه السلام حتى نزل على شاطئ نَرْس[5] بين موضع حَمّام أبى بُرْدة وحَمّام عمر، فصلّى بالناس المَغْرب ، فلما انصرف، قال : الحمدُ لله الذى يُولِجُ

(١) الطغام : أوغاد الناس .

(٢) كتاب صفين ١٥٠ : « حتى إذا جاز حد الكوفة » .

(٣) كتاب صفين ١٥٠

(٤) كتاب صفين ١٥١ .

(٥) نرس، بالفتح ثم السكون وآخره سين مهملة : نهر حفره نرسى بن بهرام بنواحى الكوفة ؛ مأخذه من الفرات ، وعليه عدة قرى . (مراصد الاطلاع) .

اللّيل فى النهار ، ويولج النّهار فى الليل ؛ والحمد لله كلما وَقَبَ ليل وغَسَق ؛ والحمدُ لله كُلمّا لاح نجم وخَفَق .

ثم أقام حتى صلى الغداة ، ثم شخص حتى بلغ إلى قبة قُبِّين[١] ، وفيها نخل طُوال إلى جانب البِيعة من وراء النهر ، فلما رآها ، قال : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقاتٍ لَهاَ طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ . ثم أقحم دابته النهر ، فعبر إلى تلك البِيعة فنزلها ، ومكث قَدْر الغداء .

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن محمد بن مِخْنَف بن سليم[٢] قال : إنى لأنظر إلى أبى وهو يساير عليًّا عليه السلام ، وعلىّ يقول له : إنّ بابل أرضٌ قد خُسِفَ بها ، فحرِّكْ دابّتك لعلّنا نصلّى العصر خارجا منها . فحرّك دابّته ، وحرّك الناس دوابهم فى أثره ؛ فلما جاز جِسْر الفرات[٣] ، نزلَ فصلّى بالناس العَصْر .

قال : حدثنى عمر بن عبدالله بن يعلى بن مرة الثقفىّ ، عن أبيه ، عن عبد خَير ، قال : كنت مع علىّ أسير فى أرض بابل ، قال : وحضرتِ الصلاة صلاة العصر ، قال : فجعلنا لا نأتى مكانا إلا رأيناه أفْيَحَ[٤] من الآخر ؛ قال : حتى أتينا على مكانٍ أحسن ما رأينا ؛ وقد كادت الشمسُ أن تغيب . قال : فنزل علىٌّ عليه السلام ، فنزلت معه ، قال : فدعا الله ، فرجعت الشمس كمقدارها من صلاة العصر . قال : فصليت العصر ، ثم غابت الشمس ، ثم خرج حتى أتى دير كعب ، ثم خرج منه فبات بساباط ، فأتاه دهاقينها يعرضون عليه النُّزُل[٥] والطعام ، فقال : لا ، ليس ذلك لنا عليكم . فلما أصبح وهو بمُظْلِم ساباط[٦] ،

---

(١) قبين ، بالضم ثم الكسر والتشديد ؛ قال صاحب مراصد الاطلاع : « ولاية بالعراق » .
(٢) صفين ١٥١ ، والسند هناك : نصر : عمر ، عن رجل — يعنى أبا مخنف ، عن عمه ابن مخنف » .
(٣) صفين : « جسر الصراة » ؛ والصراة من أنهار الفرات .
(٤) أفيح ، من الفيح وهو السعة .
(٥) النّزل : طعام الضيف .
(٦) مظلم ساباط ؛ موضع مضاف إلى ساباط التى بقرب المدائن ؛ قليل الضوء : مراصد الاطلاع ١٢٨٦

قرأ : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾[١] .

قال نصر : وبلغ عمرو بن العاص مسيرُه فقال :

لَا تَحْسَبَنِّى يا علىُّ غَافِلَا   لأُورِدَنَّ الكُوفَةَ الْقَنَابِلا[٣]

* بِجَمْعِيَ العامَ وَجَمْعِى قَابِلا *

قال : فبلغ ذلك عليًا عليه السلام ، فقال :

لَأُورِدَنَّ العاصىَ ابنَ الْعَاصِى   سَبْعِين ألفًا عَاقِدِى النَّوَاصِى

مُسْتَحْقِبِينَ حَلَقَ الدِّلَاصِ[٤]   قَدْ جَنَبُوا الخَيْلَ مَعَ الْقِلَاصِ[٥]

* أُسُودَ غِيلٍ حِينَ لَا مَنَاصِ *

***

[نزول علىّ بكربلاء]

قال نصر : وحدثنا منصور بن سلام التميمىّ ، قال : حدّثنا حيان التَّيْمىّ ، عن أبى عبيدة ، عن هرثمة بن سليم ، قال[٦] : غزوْنا مع علىّ عليه السلام صِفّين ، فلما نزل بكَرْبَلاء صلّى بنا ، فلما سلّم رفع إليه من تُربتها فشمّها ، ثم قال : واهًا لك يا تُرْبة[٧] ! ليُحشَرَنّ منك قومٌ يدخلون الجنّة بغير حساب .

قال : فلما رجع هَرْثمة من غزاته[٨] إلى امرأته جَرْداء بنت سمير — وكانتْ من شيعة علىّ عليه السلام — حدّثها هرثمة فيما حدّث، فقال لها : ألا أُعجِّبُك من صديقك أبى حسن !

---

(١) سورة الشعراء ١٢٨   (٢) صفين ١٥٣

(٣) القنابل : جماعات الخيل والناس .

(٤) مستحقبين : حاملين ، والدلاص : الدروع اللينة .

(٥) يقال : جنب الرجل الفرس إذا قاده إلى جنبه . والقلاص : جمع قلوص ؛ وهى الشابة من الإبل ؛ بمنزلة الجارية من النساء .

(٦) كتاب صفين ١٥٧ .   (٧) صفين : « واهالك أيتها التربة » .

(٨) صفين : « من غزوته » .

قال : لما نزلنا كَرْبلاء ،وقد أخذ حَفْنَة مِنْ تربتها فشمّها، وقال : «واهاً لك أيتها التُّربة! ليُحشَرَنّ منك قومٌ يدخلون الجنّة بغير حساب » :وماعِلْمه بالغيب ؟فقالت المرأة له :دَعْنا منك أيها الرجل ؛ فإنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يقُلْ إلا حقًّا .

قال : فلما بَعَث عُبيد الله بن زياد البَعْث الذى بَعَثه إلى الحسين عليه السلام ، كنتُ فى الخيل التى بَعَثَ إليهم ؛ فلما انتهيت إلى الحسين عليه السلام وأصحابه، عَرَفْتُ المنزل الذى نزَلْنا فيه مع علىّ عليه السلام ، والبُقْعة التى رفع إليه من تُرْبَتها والقول الذى قاله ، فكرِهْتُ مسيرى ، فأقبلت على فرَسِى حتى وقفت على الحسين عليه السلام فسلّمت عليه، وحدّثته بالذى سمعت من أبيه فى هذا المنزل ؛ فقال الحسين : أمعنا أم علينا ؟ فقلت : يابنَ رسول الله ، لامعك ولاعليك ؛ تركتُ ولدى وعِيالى[1] أخاف عليهم من ابن زياد ، فقال الحسين عليه السلام : فولِّ هربا حتى لاترى مقتلنا[2]؛ فوالذى نفس حسين[3] بيده لايرى اليوم مقتلنا أحدٌ ثم لايعيننُا[4] إلا دخل النار .

قال : فأقبلتُ فى الأرض أشتدّ هرباً ، حتى خَفِىَ علىّ مقتلهم .

***

قال نصر : وحدثنا مُصعب ، قال : حدثنا الأجلح بن عبد الله الكِندىّ عن أبى جُحيفة ، قال : جاء[5] عُروة البارقىّ إلى سعد بن وهب ، فسأله فقال : حديث حَدّثتناه[6] عن علىّ بن أبى طالب ، قال : نعم بعثنى مِخْنف بن سليم إلى علىّ عند توجّهه إلى صِفّين ، فأتيته بكَرْبَلاء ، فوجدته يُشير بيده ، ويقول: هاهنا ، هاهنا ! فقال له

(١) صفين : « تركت أهلى وولدى » .
(٢) صفين : « حتى لاترى لنا مقتلا » .
(٣) صفين : « فو الذى نفس محمد » .
(٤) صفين : « لا يغيثنا ».
(٥) صفين ١٥٨ .
(٦) صفين : « حدثتنيه » .

رجل : وما ذاك يا أميرَ المؤمنين؟فقال : ثَقَلٌ لآل محمد ينزل هاهنا ، فويل لهم منكم ، وويل لكم منهم ! فقال له الرجل : مامعنى هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : ويل لهم منكم تقتلونهم ، وويلٌ لكم منهم يدخلكم الله بقتلهم النار .

قال نصر : وقدروى هذا الكلام على وجه آخر،أنه عليه السلام قال : « فويلٌ لكم منهم ، وويل لكم عليهم » ؛ فقال الرجل أمّا « ويلٌ لنا منهم » ، فقد عرفناه ؛ فويل لنا عليهم ، مامعناه ! فقال : ترَوْنَهم يُقتلون لا تستطيعون نُصْرتهم .

قال نصر : وحدثنا سعيد بن حكيم العبسيّ ، عن الحسن بن كثير ، عن أبيه ، أنّ عليًّا عليه السلام أتى كَرْبلاء ، فوقف بها ، فقيل له : يا أميرَ المؤمنين ، هذه كَرْبَلاء ، فقال : « ذات كَرْب وبلاء » ؛ ثم أومأ بيده إلى مكان ، فقال : هاهنا موضع رِحالهم ، ومُناخ ركابهم ؛ ثم أومأ بيده إلى مكان آخر ، فقال : هاهنا مَرَاقُ دمائهم ، ثم مضى إلى ساباط (١) .

* * *

[خروج عليّ لحرب معاوية وما دار بينه وبين أصحابه]

وينبغي أن نذكرهاهنا ابتداء عزمه عَلَى مفارقة الكوفة،والمسير إلى الشام وماخاطب به أصحابه ، وما خاطبوه به ، وما كاتب به العمال وكاتبوه جوابا عن كتبه ؛ وجميع ذلك منقول من كتاب نَصْر بن مزاحم .

قال نصر : حدثنا عمر بن سعد ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن عبدالرحمن بن عبيد أبي الكنود ، قال : لما أراد عليّ عليه السلام للسيرَ إلى الشام ، دعا مَنْ كان معه من المهاجرين والأنصار ، فجمعهم ؛ ثم حَمِد الله وأثنى عليه ، وقال : أما بَعْد ؛ فإنكم ميامين

(١) صفين ١٠٨

الرأى ، مَرَاجيح الحِلْم ، مبارَكو الأمر ، ومقاويل بالحقّ؛ وقد عزَمْنا عَلَى المسير إلى عَدُوّنا وعدوّكم ؛ فأشيروا علينا برأيكم .

فقام هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال : أما بعدُ يا أمير المؤمنين ؛ فأنا بالقوم جِدّ خَبِير ؛ هم لك ولأشياعك أعداء ؛ وهم لمن يَطْلب حَرْثَ الدنيا أولياء ؛ وهم مقاتلوك ومجادلوك [١] لا يُبقون جَهْدا ، مشاحّة على الدنيا ، وَضَنًّا بما فى أيديهم منها؛ ليس لهم إرْبة غيرها ؛ إلّا مايخدعون به الجهالَ من طلب دم ابن عفّان؛ كذبوا ليس لدمه ينفِرون، ولكنّ الدنيا يطلبون ؛ انهض بنا إليهم؛ فإن أجابوا إلى الحقّ فليس بعد الحقّ إلا الضلال ؛ وإن أبَوْا إلا الشقاق ؛ فذاك ظنّى بهم [٢] ؛ والله ما أراهم يُبايعون وقد بَقِىَ فيهم أحد ممّن يُطاع إذا نَهى ؛ ويُسمع إذا أمَر [٣] .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الحارث بن حصيرة ، عن عبدالرحمن بن عبيد أبى الكنود أنّ عمار بن ياسر قام فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ، إن استطعت ألّا تُقيم يوما واحدا فافعل ، اشخص بنا قبل استعارِ نار الفَجَرة ، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة ، وادْعُهم إلى حَظِّهم ورشدهم ؛ فإن قَبِلُوا سَعِدُوا ؛ وإنْ أبَوْا إلّا حربَنا، فوالله إنّ سَفْكَ دمائهم ، والجِدّ فى جهادهم ، لَقُربة عند الله ، وكرامة منه [٤] .

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أميرَ المؤمنين ، انكَمِش [٥] بنا إلى عدوّنا ولا تعرّج [٦] ؛ فوالله لجهادهم أحبُّ إلىّ من جهاد الترك

---

(١) صفين : « يجاهدوك » .
(٢) صفين : « فذلك الظن بهم » .
(٣) كتاب صفين ١٠٣
(٤) صفين : « وهو كرامة منه » .
(٥) الانكماش : الجد فى السير .
(٦) صفين : « لا تعرد » والتعريد : الفرار .

والروم ؛ لإدهانهم[١] فى دين الله،واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله، من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، إذا غَضِبُوا على رجـل حَبَسوه وضربوه وحرموه وسيّروه ، وفيئنا لهم فى أنفسهم حلال ، ونحن لهم فيما يزعمون قَطِين [٢] ـ قال : يعنى رقيق .

فقال أشياخ الأنصار ، منهم خُزيمة بن ثابت وأبو أيوب ؛ وغيرهما : لِمَ تقدّمْتَ أشياخَ قومك وبدأتَهم بالـكلام ياقيس ؟ فقال : أما إنّى عارف بفضلـكم ، معظّم لشأنـكم ؛ ولـكنّى وجـدتُ فى نفسى الضِّغْن الذى فى صدوركم جاش حين ذكرتِ الأحزاب .

فقال بعضهم لبعض : ليقُمْ رجلٌ منكم فلْيُجبْ أميرَ المؤمنين عن جماعتـكم ، فقام سهل بن حُنَيف ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ نحن سِلْمٌ لمن سالَمْتَ، وحَرْب لمن حاربت،ورأينا رأيُك ، ونحن[٣] يمينُك،وقد رأينا أن تقوم [بهذا الأمر][٤] فى أهل الـكوفة فتأمرَهم بالشُّخوص،وتخبرهم بما صنع لهم فى ذلك من الفضل ، فإنهم أهلُ البـلد وهم الناس ؛ فإن استقاموا لك استقام لك الذى تُريد وتطلب ؛ فأما نحن فليس عليك خلاف منّا ، متى دعوتَنا أجبناك ، ومتى أمرتنا أطعناك[٥] .

قال نصر : فحدّثنا عمر بن سعد ، عن أبى مِخْنف ، عن زكريا بن الحارث ، عن أبى خُشيش ، عن مَعبد ، قال : قام علىٌّ عليه السلام خطيبا عَلَى مِنْبره ، فـكنتُ تحت المنبر، أسمع تحريضه[٦] النـاس وأمرَه لهم بالمسير إلى صِفّين لقتال أهل الشام ، فسمعته يقول :

(١) الإدهان : الغش والخديعة .
(٢) القطين : الخدم والأتباع.
(٣) صفين : « ونحن كف يمينك » .
(٤) من صفين
(٥) صفين ١٠٥
(٦) صفين : « حين حرض الناس » .

سيروا إلى أعداء الله ، سيروا إلى أعداء القرآن والسُّنَن ، سيروا إلى بقية الأحزاب وقَتَلَة المهاجرين والأنصار . فقام رجل من بنى فَزَارة ، فقال له : أتريد أن تسير بنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلَهم لك ، كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلتهم ! كلاّ ، ها اللهِ (١) إذاً لا نفعل ذلك .

فقام الأشتر ، فقال : مَنْ هذا المارق ! (٢)

فهرب الفزارىّ ، واشتدّ الناس عَلَى إثره ، فلحِق فى مكانٍ من السوق تُباَع فيه البراذين ، فوطئوه بأرجلهم ، وضربوه بأيديهم ونعال سيوفهم حتى قُتِل ؛ فأتى علىّ عليه السلام ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، قُتِل الرجل ، قال : ومَنْ قَتَله ؟ قالوا : قتلته هَمْدان ومعهم شَوْب من الناس ، فقال : قتيلُ عِمِّيَّة (٣) ، لا يُدْرَى مَنْ قتله ! ديته من بيت مال المسلمين ؛ فقال بعض بنى تيم اللات بن ثعلبة (٤) :

أعوذُ بربِّى أنْ تكونَ مَنِيَّتى كما مَاتَ فى سُوقِ البَرَاذِينِ أرْبَدُ
تَعَاوَرَه هَمْدانُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إذا رُفِعَتْ عنه يدٌ وُضِعَتْ يَدُ

فقام الأشتر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا يهدّنك ما رأيت ، ولا يُؤيِسَنَّكَ مِنْ نصرنا ما سمعت من مقالة هذا الشقىّ الخائن ؛ إنّ جميعَ مَنْ ترى من الناس شيعتُك ، لا يرغبون بأنفسهم عن نفسك ، ولا يحبّون البقاء بعدك ، فإنْ شئت فسِرْ بنا إلى عدوّك ، فوالله ما ينجو من الموت مَنْ خافه ، ولا يعطَى البقاء مَنْ أحبّه ، وإنا لَعَلَى بَيِّنة من رَبِّنا ؛ وإنّ أنفسَنا لن تَمُوت حتى يأتِىَ أجلُها . وكيف لا نقاتلُ قوماً هم كما وصف أمير المؤمنين ، وقد وثبتْ عصابة منهم على طائفة من المسلمين بالأمس ، وباعوا خَلاقهم بعَرَضٍ من الدنيا يسير !

---

(١) الهاء هنا للتنبيه يقسم بها .

(٢) صفين : « من لهذا أيها الناس » .

(٣) قتيل عمية ، أى ميتة فتنة وجهالة .

(٤) صفين : « فقال علاقة التيمى » .

فقال علىّ عليه السلام : الطريق مُشْتَرك ، والناس فى الحقّ سواء ، ومَن اجتهد رأيه فى نصيحة العامة ، فقد قضى ما عليه . ثم نزل فدخل منزله [١] .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : حدثنى أبو زهير العبسىّ ، عن النضر بن صالح أن عبد الله بن المعتمّ العبسىّ وحنظلة بن الربيع التميمىّ ؛ لما أمر علىّ عليه السلام الناس بالمسير إلى الشام دَخَلا عليه فى رجال كثير من غَطَفان و بنى تميم ، فقال له حنظلة : يا أمير المؤمنين ؛ إنا قَدْ مشينا إليك فى نَصيحة فاقبلها ، ورأينَا لك رأيا فلا تردّنه علينا ، فإنّا نظرنا لك ولمن معك ؛ أقِمْ وكاتِبْ هذا الرجل ، ولا تعجَلْ إلى قتال أهل الشام ؛ فإنا والله ما نَدْرِى ولا تدرى لِمَنْ تكون الغَلَبة إذا التقيتم ؛ ولا على مَنْ تكونُ الدَّبْرة !

وقال ابن المعتم مثل [٢] قوله ، وتكلّم القوم الذين دخلوا معهما بمثل كلامِهما ، فحمِد علىّ عليه السلام الله وأثنى ، ثم قال :

أما بعدُ فإن الله وارثُ العباد والبلاد ، وربّ السموات السبع ، والأرضين السبع ، وإليه ترجعون ، يؤتى المُلْكَ مَنْ يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعزّ مَنْ يشاء ، ويذِلّ من يشاء . أما الدَّبْرة ، فإنها على الضالّين العاصين ظفِروا أو ظُفِر بهم ؛ وايمُ الله إنى لأسمع كلام قوم ما أراهم يعرفون معروفاً ، ولا ينكرون منكراً .

فقام إليه مَعْقِل بن قيس الرّياحىّ ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنّ هؤلاء والله ما آثروك بنُصْح ، ولا دخلوا عليك إلا بغِشّ ، فاحذرهم فإنهم أدنى العدوّ .

وقال له مالك بن حبيب : إنه بلغنى يا أميرَ المؤمنين أنّ حنظلة هذا يكاتِبُ معاوية ، فادْفَعْه إلينا نحبِسْه حتى تنقضىَ غَزاتك ، وتنصرف .

---

(١) صفين ١٠٧

(٢) صفين : « وقام المعتم فتكلم » .

وقام من بنى عبس قائد بن بكير وعيّاش بن رَبيعة العبْسيّان ، فقالا : ياأميرَ المؤمنين إنّ صاحبَنا عبد الله بن المعتمّ قد بلغنا أنّه يكاتب معاوية ، فاحبِسْه أو مَكِّنّا من حَبْسه ؛ حتى تنقضِىَ غزاتك ثم تنصرف .

فقالا : هذا جزاء لمن نظر لكم ، وأشار عليكم بالرأى فيما بينكم وبين عَدُوّكم .

فقال لهما علىّ عليه السلام : الله بينى وبينكم ، وإليه أَكِلُكم ، وبه أستظهرُ عليكم ، اذهبوا حيث شئتم [١] .

قال نصر : وبعث على عليه السلام إلى حَنْظلة بن الربيع المعروف بحنظلة الكاتب ، — وهو من الصحابة — فقال له : ياحنظلة ، أنت عَلَىّ أم لى ؟ فقال : لا لك ولا عليك ؛ قال : فما تريد ؟ قال: اشخص إلى الرُّها [٢] ، فإنه فَرْج من الفروج ، اصمِد له حتى ينقضىَ هذا الأمر .

فغضب من قوله خيار بنى عمرو بن تميم وهم رهطه ، فقال : إنكم والله لا تغرّونى من دينى ، دعونى فأنا أعلم منكم ، فقالوا : والله إنْ لم تخرج مع هذا الرجل لا ندعُ فُلانة تخرج معك — لأم ولده — ولا وَلَدَها ، ولئن أردت ذلك لنقتلنّك .

فأعانه ناس من قومه واخترطوا سيوفهم ، فقال : أجّلونى حتى أنظر . ودخل منزله وأغلق بابه ؛ حتى إذا أمسى هرب إلى معاوية ، وخرج من بعده إليه من قومه رجال كثير ، وهرب ابن المعتمّ أيضا ، حتى أتى معاوية فى أحد عشر رجلا من قومه .

وأما حنظلة فخرج إلى معاوية فى ثلاثة وعشرين رجلا من قومه ؛ لكنّهما لم يقاتلا مع معاوية ، واعتزلا الفريقين جميعا [٣] .

---

(١) صفين : ١٠٧ ، ١٠٨

(٢) الرها : مدنية بالجزيرة بين الموصل والشام .

(٣) صفين ١٠٩

وقال : وأمر علىٌّ عليه السلام بهدْم دار حنظلة ، فهدمت ؛ هَدَمها عريفُهم شبَث بن رِبْعِىّ وبكر بن تميم ؛ فقال حنظلة يهجوهما :

أيا راكباً إمّا عَرَضْتَ فبلِّغَنْ مُغَلْغَـلَةً عَنِّى سَرَاةَ بنى عَمْرو
فأُوصيـكمُ بالله والبِرّ والتقى ولا تنظروا فى النّائبات إلى بَكْرِ
ولا شَبثٍ ذى المَنْخَرَيْن كأنه أزبّ جِمالٍ قد رغا ليلة النفْرْ[1]

وقال أيضاً يحرّض معاوية بن أبى سفيان :

أبلغْ معاوية بن حَرْب خُطّةً ولـكل سائلةٍ تَسيلُ قرارُ
لَا تَقْبلَنّ دَنيّةً تَرْضَوْنَها[2] فى الأمر حتى تُقتلَ الأنصارُ
وَكَما تبوء دماؤهمْ بدمائِكمْ وَكَما تُهَـدَّمُ بالدِّيار ديار
وتَرى نساؤهمُ يَجُلْنَ حَواسِراً ولهنّ من ثُكل الرجال جُؤارُ[3]

قال نصر : حدّثنا عمر بن سعد ، عن سعد بن طريف ، عن أبى المجاهد ، عن المحلّ ابن خليفة ، قال: قام عدىّ بن حاتم الطائىّ بين يدى علىّ عليه السلام ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال :[4] يا أمير المؤمنين ، ما قلتَ إلا بعلم ، ولا دعوتَ إلا إلى حقّ ، ولا أمرتَ إلا برُشْد ؛ ولـكنْ إذا رأيت[5] أن تستأنىَ هؤلاء القوم وتستديمهم ــ حتى تأتيَهم كتبُك ، ويقْدَمَ عليهم رُسُلك ــ فعلت . فإن يقبلوا يُصيبوا رُشْدَهم[6] ، والعافية أوسعُ لنا ولهم ؛

---

(١) الأزب : الـكثير شعر الوجه والعثنون ، وفى صفين :

* أزَبُّ جِمالٍ فى مُلاَحِيَةٍ صفْرِ *

(٢) صفين : « تعطونها » .
(٣) صفين : « ولهن من ثـكل الرجال خوار » .
(٤) صفين ١١٠
(٥) صفين : « فإن رأيت » .
(٦) صفين : « فإن يقبلوا يصيبوا ويرشدوا » .

وإن يتمادَوْا فى الشِّقاق ولا ينزِعوا عن الغىّ فسرْ إليهم . وقد قدّمنا إليهم بالعذر[١] ، ودَعَوْناهم إلى ما فى أيدينا من الحق ؛ فو الله لهم من الحق أبعد ، وعلى الله أهون ؛ من قوم قاتلناهم أمس بناحية البصرة لمّا دعوناهم إلى الحق فتركوه ، ناوجْنَاهم بُرَاكاء القتالِ[٢] ؛ حتى بلغنا منهم ما نحب ، وبلّغ الله منهم رضاه .

فقام زيد بن حُصين الطائىّ ـ وكان من أصحاب البرانس[٣] المجتهدين ـ فقال : الحمدُ لله حتى يرضى ، ولا إله إلا الله ربنا ، أما بعد : فو الله إنْ كنّا فى شك من قتال مَنْ خالفنا ، ولا تصلح لنا النيّة فى قتالهم حتى نستديمَهم ونستأنيَهم ـ ما الأعمال إلا فى تبَاب ، ولا السعى إلا فى ضلال ، والله تعالى يقول : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[٤] ؛ إننا والله ما ارتبنا طَرْفة عين فيمن يتبعونه[٥] ، فكيف بأتباعه القاسية قلوبهم ، القليل من الإسلام حظّهم ، أعوانِ الظّلَمة وأصحاب الجوْر والعدوان[٦] ؛ ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار ، ولا التابعين بإحسان .

فقام رجل من طيّئ فقال : يا زيد بن حصين ، أ كلام سيدنا عدىّ بن حاتم تُهجِّن[٧] ! فقال : زيد ما أنتم بأعْرَف بحقّ عدى منّى ، ولكنى لا أدَعُ القول بالحقّ وإن سَخِط الناس .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الحارث بن حصين قال[٨] : دخل أبو زينب

---

(١) صفين : « المنذر » .

(٢) البراكاء : الابتراك فى الحرب ؛ وهو أن يجثو القوم على ركبهم . ، ويقال : وجن به ، أى ضرب به الأرض ، وفى صفين : « ناوخناهم » .

(٣) جمع برنس ؛ وهو قلنسوة طويلة كان يلبسها فى صدر الإسلام النساك والزهاد .

(٤) سورة الضحى ١١ .

(٥) صفين : « يبتغون دمه » .

(٦) صفين : « ومسددى أساس الجور والعدوان » .

(٧) فى صفين بعد هذه الكلمة : « قال : فقال عدى بن حاتم : الطريق مشترك ، والناس فى الحق سواء ؛ فمن اجتهد رأيه فى نصيحة العامة فقد قضى الذى عليه » .

(٨) صفين ١١٢ : « الحارث بن حصيرة » .

ابن عوف ، عَلَى علىّ عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لئن كنّا على الحق لأنت أهدانا سبيلا، وأعظمُنا فى الخير نصيبا ؛ ولئن كنا على ضلال، إنّك لأثقلُنا ظهراً وأعظمنا وِزْراً ؛ قد أمرتنا بالمسير إلى هذا العدوّ ، وقد قطعْنا مابيننا وبينهم من الولاية ، وأظهرْنا لهم العداوة ؛ نريد بذلك ما يعلمه الله تعالى من طاعتك ؛ أليس الذى نحن عليه هو الحقّ المبين ، والذى عليه عَدُوُّنا هو الحوْب الكبير!

فقال عليه السلام : بَلَى ، شهدتُ أنّك إنْ مضيت معنا ناصراً لدعوتنا، صحيح النية فى نصرنا، قد قطعتَ منهم الولاية ، وأظهرت لهم العداوة كما زعمت؛ فإنك ولى الله، تَسْبَح[(١)] فى رضوانه ، وتركُض فى طاعته ، فأبشر أبا زينب .

وقال له عمار بن ياسر : اثبُت أبا زينب ، ولا تشكّ فى الأحزاب ، أعداء[(٢)] الله ورسوله .

فقال أبو زينب : ما أحبّ أن لى شاهدين من هذه الأمة شهدا لى عما سألت من هذا الأمر الذى أهمنى — مكانكما .

قال : وخرج عمار بن ياسر ، وهو يقول :

سِيرُوا إلى الأحْزَابِ أعداء النبىّ   سِيرُوا فخيرُ النّاس أتباعُ علىّ

هذا أوان طابَ سلُّ المشرَفىّ   وقوْدُنا الخيلَ وَهَزُّ السَّمْهرِىّ[(٣)]

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن أبى رَوْق ، قال :[(٤)] دخل يزيد بن قَيْس الأرحَبِىّ عَلَى علىّ عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين؛ نحن أولو جِهاز وعدّة، وأكثر

---

(١) صفين : « تسيح » .

(٢) صفين : « عدو الله ورسوله » .

(٣) السيوف المشرفية : منسوبة إلى مشارف الشام ؛ قرى من أرض العرب . والسمهرى : الرمح الصلب ، منسوب إلى سمهر زوج ردينة ، وكانا مثقفين للرماح . (٤) صفين ١١٣ .

الناس أهلَ قوّة ، ومَنْ ليس به ضَعْف(١) ولا عِلّة ، فمُرْ منادِيَك ؛ فليناد الناس يخرج إلى معسكرهم بالنُّخَيْلة ؛ فإنّ أخا الحرب ليس بالسئوم ولا النّئوم ، ولا مَنْ إذا أمكنته الفرص أجّلها ، واستشار فيها ؛ ولا مَنْ يؤخّر عمل الحرب فى اليوم لغَدٍ وبعد غَدٍ .

فقال زياد بن النّضر : لقد نصحَ لكَ يزيدُ بن قيس يا أمير المؤمنين، وقال مايعرف فتوكّل على الله ، وثِقْ به ، واشخَصْ بنا إلى هذا العدوّ راشداً معاناً ؛ فإن يُرِد اللهُ بهم خيراً لا يتركوك رغبة عنك(٢) إلى مَنْ ليس له مِثْلُ سابقتك وقدَمِك(٢) ؛ وإلّا يُنيبوا ويقبلوا ويأبوا إلا حربنا نجد حربهم علينا هيّنا ؛ ونرجو أن يصرعهم الله مصارعَ إخوانهم بالأمس .

ثم قام عبدُ الله بن بُدَيلِ بن وَرْقاء الخُزاعىّ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّ القوم لو كانوا اللهَ يريدون ، ولله يعملون ، ما خالفونا ؛ ولكنّ القَوم إنما يقاتلوننا فراراً من الأسوة وحبًّا للأَثَرَة ، وضَنًّا بسلطانهم ، وكُرها لفراق دنياهم التى فى أيديهم ، وعلى إحَنٍ فى نفوسهم، وعداوة يجِدُونها فى صدورهم، لوقائع أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم قديمة قتلتَ فيها آباءهم وأعوانهم(٣) .

ثم التفت إلى الناس ، فقال : كيف يُبَايع معاوية عليًّا ، وقد قَتَل أخاه حنظلة ، وخالَه الوليد ، وجدّه عُتْبة فى موقف واحد ؛ والله ما أظنّهم يفعلون(٤) ، ولن يستقيموا لكَ دون أن تُقْصَفَ فيهم قَنَا المُرّان(٥) ، وتقطع على هامهم السُّيوف ، وتنثَر حواجبهم بعَمَد الحديد ، وتكون أمورٌ جمّة بين الفريقين .

---

(١) صفين : « ومن ليس بمضعف » .
(٢-٢) صفين : « إلى من ليس مثلك فى السابقة مع النبى صلى الله عليه وآله والقدم فى الإسلام » .
(٣) صفين : « وإخوانهم » . (٤) صفين : « ما أظن أن يفعلوا » .
(٥) صفين : « تقصد » ، وهى بمعنى « تقصف » والمران : الرماح اللدنة .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد عن الحارث بن حصين عن عبد الله بن شَرِيك ، قال[١] : خرج حُجْر بن عدىّ وعَمْرو بن الحَمِق ، يُظهران البراءة من أهل الشام ؛ فأرسل علىّ عليه السلام إليهما أنْ كُفّا عمّا يبلغنى عنكما ، فأتياه ، فقالا : يا أمير المؤمنين ، ألسنا محقّين ؟ قال : بلى ؛ قالا : أو ليسُوا مُبطِلين ؟ قال : بلى ؛ قالا : فلِم منعتَنا مِنْ شتمِهم ؟ قال : كرهتُ لكم أن تكونوا لَعّانين شتّامين تشتِمون وتتبرّءون ؛ ولكن لو وصفتم مساوئَ أعمالهم فقلتم : مِنْ سيرتِهم كذا وكذا ، ومِنْ أعمالهم كذا وكذا ، كان أصوبَ فى القول ، وأبلغَ فى العذر ؛ وقلتم مكان لَعنكم إياهم ، وبراءتكم منهم : اللهمّ احقِنْ دماءهم ودماءنا ، وأصلِحْ ذات بينهم وبيننا ، واهْدِهم من ضلالتهم حتى يعرف الحقَّ منهم مَنْ جَهِله ، ويرعوِىَ عن الغىّ والعُدْوان مِنْهم من لَهِج به ـ لكانَ أحبّ إلىّ وخيراً لكم .

فقالا : يا أميرَ المؤمنين ، نقبَلُ عِظَتك ، ونتأدَّب بأدبك .

قال نصر : وقال له عمرو بن الحمِق يومئذ : والله يا أميرَ المؤمنين إنّى ما أحببتُك ولا بايعتُك عَلَى قَرابةٍ بينى وبينك ، ولا إرادة مال تؤْتينيه ، ولا التماسِ سلطان ترفع ذِكرى به ؛ ولكنّنى أحببتك بخصال خمس : أنك ابنُ عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، ووصيُّه ، وأبو الذرّية التى بقيَتْ فينا من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأسبقُ الناس إلى الإسلام ، وأعظمُ المهاجرين سَهْما فى الجهاد ؛ فلو أنّى كُلِّفْتُ نقلَ الجبالِ الرّواسى ، ونزحَ البحور الطوامى ؛ حتى يأتِىَ علىّ يومى فى أمرٍ أقوِّى به وليّك ، وأهينُ عدوك ؛ ما رأيت أنّى قد أدّيت فيه كلّ الذى يحقّ علىّ من حقك .

فقال علىّ عليه السلام : اللهم نَوِّرْ قلبه بالتقى ، واهدِه إلى صراطك المستقيم[٢] ،

---

(١) صفين ١١٥ ، ١١٦ .

(٢) صفين : « إلى صراط مستقيم » .

ليتَ أنّ فى جُنْدِى مائة مثلك ، فقال حُجْر : إذاً والله يا أميرَ المؤمنين ، صَحّ جندُك، وقلّ فيهم مَنْ يغشّك .

قال نصر : وقام حُجْر بن عدىّ ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، نحن بنو الحرْب وأهلُها الذين نُلقِحها ونَنْتِجُها، قد ضارستْنا وضارسناها[1] ؛ ولنا أعوانٌ وعشيرةٌ ذات عدد ورأى مجرّب ، وبأس محمود ، وأزمّتُنا منقادة لك بالسمع والطاعة ، فإن شرّقت شرّقنا ، وإنْ غرّبت غرّبنا ، وما أمرتَنا به من أمرٍ فعلنا . فقال علىّ عليه السلام : أكلّ قومك يرى مثلَ رأيك ؟ قال : ما رأيتُ منهم إلا حُسْنا ، وهذه يدى عنهم بالسمع والطاعة وحسن الإجابة . فقال له علىّ عليه السلام خيرا .

* * *

قال نصر : حدّثنا عمر بن سعد ، قال : كتب عليه السلام إلى عماله حينئذ يستفزّهم ، فكتب إلى مخنف بن سليم :

سلامٌ[2] عليك ؛ فإنى أحمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنّ جهاد مَنْ صَدَف عن الحقّ رغبة عنه ، وعبّ فى نُعاس العَمى والضلال ، اختياراً له ـ فريضةٌ على العارفين . إنّ الله يَرْضَى عمّن أرضاه ، ويسخَط عَلَى من عصاه ، وإنا قد هممنا بالسّيْر إلى هؤلاء القوم الذين عَمِلوا فى عباد الله بغير ما أنزل الله ، واستأثروا بالفئ ، وعطّلوا الحدود ، وأماتوا الحقّ ، وأظهروا فى الأرض الفساد ، واتخذوا الفاسقين وليجَةً من دون المؤمنين ؛ فإذا ولىّ لله أعظَمَ أحداثَهم أبغضوه وأقصَوْه وحرَموه ، وإذا ظالم ساعدَهم عَلَى ظُلْمهم أحبوه ، وأدنَوْه وبرّوه ؛ فقد أصرّوا على الظُّلم ، وأجمعوا على الخلاف ؛ وقديماً ما صدّوا عن الحقّ ، وتعاونوا على الإثم ، وكانوا ظالمين . فإذا أُتيتَ بكتابى هذا ، فاستخلِفْ على عَمَلِك أوثقَ أصحابك فى نفسك ، وأقبِلْ إلينا ، لعلك تَلْقَى معنا هذا العدوّ

---

(١) ضارست الأمور : جربتها .

(٢) كتاب صفين : ١١٦ ، ١١٧ .

المحِلّ ، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتجامع الحقّ ، وتباين الباطل ؛ فإنه لا غَناء بنا ولا بك عن أجر الجهاد ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وكتبه عبيد الله[1] بن أبي رافع في سنة سبع وثلاثين .

قال : فاستعمل مِخْنف على أصبهان الحارث بن أبي الحارث بن الربيع ، واستعمل عَلَى هَمَذان سعيد بن وهب ، وكلاهما من قومه ، وأقبل حتى شهد مع عليّ عليه السلام صفين.

قال نصر : وكتب عبدُ الله بن العباس من البصرة إلى علي عليه السلام يذكر له اختلافَ أهل البصرة ، فكتب إليه عليّ عليه السلام : [من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن عباس][2] :

أما بعدُ ؛ فقد قَدِم عليّ رسولُك ، وقرأتُ كتابَك ، تذكُرُ فيه حالَ أهل البصرة واختلافَهم بعد انصرافي عنهم ، وسأخبرك عن القوم ؛ وهم بين مقيمٍ لرغبة يرجوها ، أو خائف مِنْ عُقوبة يخشاها ، فأرْغِب راغبَهم بالعدل عليه ، والإنصاف له والإحسان إليه؛ واحلُلْ عُقْدة الخوف عن قلوبهم ، وانتهِ إلى أمرى ولا تعدُه ، وأحسِنْ إلى هذا الحيّ من ربيعة وكلَّ مَنْ قبلَك فأحسن إليه مااستطعت إن شاء الله .

قال نصر : وكتب إلى أمراء أعْماله كلِّهم بنحو ما كتب به إلى مخنف بن سليم ، وأقام ينتظرهم .

قال : فحدثنا عمر بن سعد، عن أبي رَوْق، قال[3] : قال زياد بن النضر الحارثيّ لعبدالله ابن بُديل : إن يومَنا اليوم عَصَبْصَب[4] مايصبر عليه إلا كل مشيَّع[5] القلب ، الصادق

(١) صفين : « عبد الله » .

(٢) من صفين .

(٣) صفين ١٢٤–١٢٨ .

(٤) العصبصب : الشديد ، وفي صفين : « عصيب » .

(٥) المشيع القلب : القوى الجاد الشجاع .

النّية ، رابط الجأش(١)؛ وايم الله ماأظنّ ذلك اليوم يبقى منهم ؛ ولا منا إلا الرُّذَال(٢)

فقال عبد الله بن بُديل : أنا والله أظنّ ذلك . فبلغ كلامُهما عليًّا عليه السلام ، فقال لهما : ليكُنْ هذا الكلام مخزونا فى صُدُوركما لاتظهراه ولا يسمعه منكما سامع ؛ إن الله كتبَ القتل على قوم والموتَ على آخرين ، وكلٌّ آتيه منيّتُه كما كتب الله له ، فطوبى للمجاهدين فى سبيله ، والمقتولين فى طاعته !

قال نصر : فلما سمع هاشم بن عُتْبة ماقالاه ، أتى عليا عليه السلام ، فقال : سر بنا ياأمير المؤمنين إلى هؤلاء القوم ، القاسيةقلوبهم ، الذين نَبذوا كتابَ الله وراء ظهورهم ، وعَمِلوا فى عباد الله بغير رضا الله ، فأحلُّوا حرامه ، وحرموا حلاله ، واستوى بهم(٣) الشيطان ، ووعدَهم الأباطيل ، ومنّاهم الأمانىّ ، حتى أزاغهم عن الهدى ، وقَصَد بهم قَصْد الرّدَى ، وحبّب إليهم الدنيا فهم يقاتلون على دنياهم رغبة فيها ؛ كرغبتنا فى الآخرة وانتجاز مَوْعد ربنا . وأنت ياأمير المؤمنين أقربُ الناس مِنْ رسول الله صلى الله عليه رحما ، وأفضلُ الناس سابقة وقَدَمًا ؛ وهمْ ياأميرَ المؤمنين يعلمون منك مثل الذى نعلم ؛ ولكنْ كُتِب عليهم الشقاء ، ومالت بهم الأهواء ، وكانوا ظالمين ، فأيدينا مبسوطة لك بالسمع والطاعة ، وقلوبنا منشرحةٌ لك ببذْل النصيحة ، وأنفسُنا تنصُرك عَلَى مَنْ خالفك ، وتولى الأمر دونك جَذِلةً ، والله ماأحبّ أنّ لى ماعلى الأرض ممّا أقلّت ، ولا ماتحت السماء ممّا أظلّت ؛ وأنى واليتُ عدوا لك ؛ أو عاديتُ وليا لك !

فقال عليه السلام : اللهمّ ارزقه الشهادة فى سبيلك ، والمرافقة لنبيك(٤) .

قال نصر : ثم إن عليا عليه السلام صَعِد المنبر فخطب الناس ، ودعاهم إلى الجهاد، فبدأ بحمد الله والثناء عليه ، ثم قال :

(١) الجأش : القلب ؛ وفلان رابط الجأش ؛ أى شجاع لا يضطرب قلبه خوفاً .
(٢) الرذال ، والرذيل : ما انتقى جيده وبقى أخسه وأدونه .
(٣) صفين : « واستولاهم » .
(٤) كذا فى صفين ، وفى الأصول : « الموافقة »

إن الله قد أكرمكم بدينه، وخلقكم لعبادته ، فأنصبوا أنفسكم فى أداء حقّه ، وتنجَّزُوا موعوده ، واعلموا أنّ الله جعل أمْرَاس الإسلام متينة ، وعراه وثيقة ؛ ثم جعل الطاعة حظّ الأنفس ورضا الرب ، وغنيمة الأكياس عند تفريط العجزة[١] ، وقد حُمِّلت أمر أسْودِها وأحمرها ، ولاقوة إلا بالله ! ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سَفِهَ نفسه ، وتناول ماليس له ومالا يدركه معاوية وجنده ، الفئةِ الطاغية الباغية ، يقودهم إبليس ، ويُبرق لهم ببارق تسويفه ، ويدلّيهم بغروره ؛ وأنتم أعلم الناس بالحلال والحرام ؛ فاستغنوا بما علمتم ، واحذروا ماحذّركم الله من الشيطان ، وارغبوا فيما عنده من الأجر والكرامة ؛ واعلموا أنّ المسلوب مَنْ سُلِب دينَه وأمانتَه ، والمغرور مَنْ آثر الضلالة على الهدى ، فلا أعرفَنّ أحداً منكم تقاعَس عَنّي ، وقال : فى غيرى كفاية ؛ فإن الذَّوْد إلى الذَّوْد إبل ، ومَنْ لا يَذُدْ عن حوضه يتهدم . ثم إنى آمركم بالشدة فى الأمر ، والجهاد فى سبيل الله ، وَألّا تغتابوا مسلما ، وانتظروا النصر العاجل من الله إن شاء الله .

قال نصر : ثم قام ابنهُ الحسن بن علىّ عليهما السلام ، فقال :

الحمدُ لله لا إله غيرُه ولا شريك له .

ثم قال : إنّ مما عَظّم الله عليكم من حَقِّه ، وأسبَغ عليكم من نعمه مالا يحصى ذكره ؛ ولا يؤدّى شكره ، ولا يبلُغه قولٌ ولا صفة ؛ ونحن إنما غضِبنا لله ولكم ؛ إنه لم يجتمع قوم قطّ على أمر واحد إلا اشتدّ أمرُهم ، واستحكمت عُقْدتهم . فاحتشِدوا فى قتال عدوّكم معاوية وجنوده ، ولا تخاذلوا ، فإنّ الخذلان يقطعُ نياط القلوب ؛ وإن الإقدام على الأسِنّة نخوة وعِصْمة ، لم يتمنّع[٢] قوم قطّ إلا رفع الله عنهم العِلّة ، وكفاهم جوائح الذلة ، وهداهم إلى معالم الملة ، ثم أنشد :

---

(١) صفين : « الفجرة » .

(٢) صفين : « لم يمتنع » ، والتمنع والامتناع : العز والقوة .

والصُّلحُ تأخُذُ منه مارضيتَ به ... والحربُ يكفيكَ من أنفاسها جُرَعُ (١)

ثم قام الحسينُ بن عليّ عليه السلام ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : ياأهلَ الكوفة، أنتم الأحبّة الكُرَماء ، والشِّعار دون الدِّثار ، جِدُّوا في إطفاء مادَثَر بينكم، وتسهيل (٢) ماتوعّر عليكم . ألا إنّ الحربَ شرُّها ذَريع وطعمها فظيع ؛ فمن أخذ لها أُهْبَتها ،واستعدّ لها عدّتها ، ولم يألمْ كلُومَها قبل حلولها ، فذاك صاحبُها ، ومَنْ عاجلها قبل أوان فُرْصَتها ، واستبصار سعيه فيها ، فذاك قَمِنٌ ألّا ينفع قومَه ، وأن يُهلِك نفسَه ، نسأل الله بقوته أن يَدْعمكم بالفيئة (٣) ثم نزل .

قال نصر : فأجاب عليّا عليه السلام إلى السير جُلُّ الناس ؛ إلا أنّ أصحابَ عبد الله بن مسعود أتوْه ، فيهم عُبيدة السَّلْمانيّ وأصحابه ، فقالوا له : إنا نخرج معكم، ولا نترك عسكرَكم ونعسكر على حِدَة ، حتى ننظر في أمركم وأمر أهلِ الشام؛فمن رأيناه أراد مالا يحلّ له أو بَدَا لَنَا منه بَغْيٌ كُنَّا عليه . فقال لهم عليٌّ عليه السلام : مَرْحَباً وأهلا ؛ هذا هو الفقهُ في الدين ، والعلم بالسنّة ، مَنْ لم يرضَ بهذا فهو خائن جبار (٤) .

وأتاه آخرُون من أصحاب عبد الله بن مسعود ؛ منهم الربيع بن خُثَيْم ؛ وهم يومئذ أربعمائة رجل، فقالوا : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنّا قد شككنا في هذا القتال ؛ على معرفتنا بفضلك ، ولا غَناء بنا ولا بك ولا بالمسلمين عمّن يقاتلُ العدوّ ؛ فولِّنَا بعض هذه الثغور نكُن (٥) ثم نقاتل عن أهله ؛ فوجّه عليّ عليه السلام بالربيع بن خُثَيم إلى ثغر الرَّيّ ، فكان أولُ لواء عَقَده عليه السلام بالكوفة لواء الربيع بن خُثَيم .

* * *

---

(١) البيت للعباس بن مرداس السلمى ، الخزانة ٢ : ٨٢

(٢) صفين : « إسهال » .

(٣) صفين : « بألفته » .

(٤) صفين : « جائر » .

(٥) صفين : « تكون به » .

قال نصر : وحدّثنى عمر بن سعد ، عن يوسف بن يزيد ، عن عبد الله بن عَوْف ابن الأحمر ؛ أن[1] علياعليه السلام لم يبرح النُّخَيْلة ، حتى قَدِم عليه ابنُ عباس بأهل البصرة.
قال : وكان كتاب علىّ عليه السلام إلى ابن عباس :

أما بعدُ ، فاشخَصْ إلىّ بمَنْ قِبَلَك من المسلمين والمؤمنين ، وذكِّرهم بلائى عندهم ، وعَفْوِى عنهم فى الحرب ، وأعلِمْهم الذى لهم فى ذلك من الفَضْل . والسلام .

قال : فلما وصلَ كتابُه إلى ابن عباس بالبصرة ، قام فى الناس ، فقرأ عليهم الكتابْ ، وحَمِد الله وأثنى عليه ، وقال :

أيّها الناس ، استعدُّوا للشُّخُوص إلى إمامكم ، وانفِروا خِفَافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ؛ فإنّكم تقاتلون المحلِّين القاسطين ؛ الذين لا يقرءون القرآن ، ولا يعرِفون حكم الكتاب ، ولا يَدِينون دينَ الحق ؛ مع أميرِ المؤمنين ، وابن عمّ رسول الله ، الآمرِ بالمعروف ، والناهى عن المنكَر ، والصادع بالحقّ ، والقيِّم بالهدى ، والحاكِم بحكم الكتاب ، الذى لا يرتشِى فى الحُكْم ، ولا يُداهِن الفُجّار ، ولا تأخذُه فى الله لومةُ لائم .

فقام إليه الأحنفُ بن قيس ، فقال : نعم والله لنجيبَنّك ، ولنخرجَنّ معك على العُسْر واليسر ، والرضا والكُرْه ، نحتسب فى ذلك الأجْر ، ونأملُ به من الله العظيم حسنَ الثواب.

وقام خالد بن المعمر السَّدُوسِىّ فقال : سمِعْنا وأطعنا ؛ فمتى استَنْفرْتَنا نَفَرْنا ، ومتى دعوتَنا أجبنا .

وقام عمرو بن مرجوم العبدىّ ، فقال : وفّقَ الله أميرَ المؤمنين ، وجمع له أمرَ المسلمين ،

---

(١) كتاب صفين ١٣٠ .

ولمن المحلّين القاسطين، لا يقرءون القرآن ؛ نحن والله عليهم حنقون ، ولهم فى الله مفارقون ؛ فمتى أردتَنا صحبك خيلُنا[1] ورجالُنا إن شاء الله .

قال : وأجابَ الناسُ إلى المسير ، ونَشطوا وخَفّوا ؛ فاستعمل ابنُ عباس على البَصْرة أبا الأسود الدُّؤلىّ وخرج حتى قدم على علىّ عليه السلام بالنُّخَيْلة .

* * *

[كتاب محمد بن أبى بكر إلى معاوية وجوابه عليه]

قال نصر : وكتب[2] محمد بن أبى بكر إلى معاوية :

من محمد[3] بن أبى بكر إلى الغاوى معاوية بن صخر ، سلامٌ على أهل طاعة الله ممّن هو سِلْم[4] لأهل ولاية الله . أما بعد فإن الله بجلاله وعظمته وسلطانه وقدرته، خَلَق خَلْقاً بلا عَبَث ولا ضعف فى قوته ؛ لا حاجة به إلى خَلْقهم ، ولكنه خَلَقهم عبيدا ، وجعل منهم شقيا وسعيدا ، وغويًّا ورشيدا ، ثم اختارهم على عِلْمِه ، فاصطفى وانتخب منهم محمدا صلى الله عليه وآله ، فاختصّه برسالته ، واختاره لوحيه ، وائتمنه على أمره ، وبعثه رسولا مصدّقا لما بين يديه من الكتب، ودليلاً على الشرائع ؛ فدعا إلى سبيل أمره بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ فكان أوّلَ مَنْ أجاب وأناب ، وصدّق [ووافق][5] فأسلم وسلّم أخوه وابنُ عمّه ـ على بن أبى طالب عليه السلام ، فصدّقه بالغيب المكتوم ، وآثره على كلّ حميم ، ووقاه كلّ هَوْل، وواساه بنفسه فى كلّ خوف ؛ فحارب حَرْبه ، وسالم سِلْمه ؛ فلم يبرَحْ مبتذِلا لنفسه فى ساعات الأَزْل[6] ، ومقامات الرَّوْع ؛ حتى برّز سابقا

(١) صفين : « ورجالنا » (٢) صفين ١٣٢ ـ ١٣٥

(٣) فى صفين : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن أبى بكر .

(٤) صفين : « مسلم » .

(٥) من صفين

(٦) الأزل : الشدة والضيق .

لا نظير له فى جهاده ، ولا مقاربَ له فى فعله ؛ وقد رأيتُك تساميه وأنت أنت ؛ وهو هو السابق المبرّز فى كلّ خير ؛ أوّلُ النّاس إسلاما ، وأصدق الناس نِيّة ، وأطيَبُ الناس ذُرِّيّة ، وأفضلُ الناس زَوْجَة ، وخير الناس ابن عَمّ . وأنت اللعينُ ابن اللعين، لم تزَلْ أنت وأبوك تَبْغِيان لدين الله الغوائل ، وتجتهدان على إطفاء نور الله ؛ وتجمَعان على ذلك الجموع ، وتبذُلان فيه المال ، وتحالفان فى ذلك القبائل ؛ عَلَى هذا مات أبوك ، وعلى ذلك خَلَفْتَه ، والشاهدُ عليك بذلك مَنْ يأوى ويلجأ إليك ؛ من بقيّة الأحزاب ورءوس النفاق والشقاق لرسول الله صلى الله عليه وآله ؛ والشاهد لعلىّ مع فضله وسابقته القديمة أنصارُه الذين ذكرهم الله تعالى فى القرآن ، ففضّلهم وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار ؛ فهم معه كتائب وعصائب ؛ يجالدون حولَه بأسيافهم ، ويُهَرِيقون دماءهم دونه ؛ يرون الفضل فى اتّباعه ، والشِّقَاق والعصيان فى خلافه ؛ فكيف ـ يالك الويل ـ تعدِلُ نفسك بعلىّ ، وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيه وأبو ولده ، وأوّلُ النّاسِ له اتباعا، وآخرهم به عهدا ، يخبرُه بسرِّه ، ويُشرِكه فى أمره ؛ وأنت عدوّه وابن عدوّه ؛ فتمتّع ما استطعتَ بباطِلك ، وليمددك لك ابن العاص فى غَوايتك ؛ فكأن أجلَك قد انقضى ، وكيدك قد وَهَى ، وسوف تستبين لمن تكون العاقبة العليا . واعلم أنّك إنما تكايد رَبّك الذى قد أمِنْتَ كيده ، وأيستَ من روحه ، وهُوَ لكَ بالمرْصاد ؛ وأنت منه فى غرور . وبالله وبأهل بيت رسوله عنك الغَناء ! والسلام على من اتبع الهدى .

فكتب إليه مُعاوية(١) :

من معاوية بن أبى سفيان ، إلى الزّارى على أبيه محمد بن أبى بكر . سلام على أهل طاعة الله ، أما بعد ؛ فقد أتانى كتابُك تذكر فيه ما الله أهلُه فى قدرته وسلطانه، وما أصفَى به نَبيّه ، مع كلام ألّفته ووضعته ؛ لرأيك فيه تضعيف ؛ ولأبيك فيه تعنيف؛ ذكرتَ حقّ

(١) بعدها فى صفين : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

ابن أبى طالب وقديمَ سابقته ، وقرابتَه من نبى الله ونصرتَه له ، ومواساته إياه ؛ فى كلِّ خوف وهَوْل ؛ واحتجاجَك علىّ ، وفخرك بفضل غيرِك لا بفضلك . فاحمد إلهًا صرف ذلك الفضل عنك، وجعله لغيرك ؛ فقد كُنّا وأبوك معنا فى حياة نبينا ؛ نرى حقّ ابن أبى طالب لازِما لنا ،وفضله مبرزاً علينا ؛ فلما اختار الله لنبيه ماعنده ، وأتمّ له ماوَعَده،وأظهر دعوتَه ، وأفلج حُجَّتَه ، قبضه الله إليه ، فكان أبوك وفاروقُه ، أوّل من ابتزّه وخالفه،على ذلك اتّفقا واتسقا[1] ؛ثم دعَوَاه إلى أنفسهما فأبطأ عنهما ،وتلكأ عليهما،فهمَّا به الهموم ؛ وأرادا به العظيم، فبايعهما وسلّم لهما ، لا يشركانه فى أمرهما ، ولا يطلعانه على سرّهما،حتى قبضا وانقضى أمرهما . ثم أقاما بعدهما ثالثَهما عثمان بن عفان ، يهتدى بهديهما ،ويسير بسيرتهما، فعبتَه أنت وصاحبُك ، حتى طمع فيه الأقاصى من أهل المعاصى ،وبطنتُما وظهرتما[2] ، وكشفتُما له عداوتَكما وغِلَّكما ،حتى بلغتُما منه مناكما ، فخذ حذرَك يابن أبى بكر، فسترى وبالَ أمرك ، وقِسْ شبرَك بفترك ، تقصُرْ عن أن تساوىَ أو توازىَ مَنْ يزِنُ الجبال حلمه ، ولا تَلِينُ على قَسْرٍ قَنَاتُه ولا يُدرِك ذو مَدًى أناتَه ، أبوك مَهّد له مِهادَه ، وبنَى مُلْكه وشاده ، فإن يكنْ مانحن فيه صوابا فأبوك أوله ، وإن يكن جوْراً فأبوك أسّه[3] ونحن شركاؤه ، فبهَدْيِه أخذنا ، وبفعله اقتدينا ، رأينا أباك فعل مافعلَ ، فاحتذينا مثاله ، واقتدينا بفعالِه ، فعِبْ أباك بما بدا لك ، أو دَعْ . والسلام على من أنابَ ،ورجع من غوايته وناب .

* * *

قال : وأمر علىٌّ عليه السلام الحارث الأعور أن ينادِىَ فى الناس:اخرُجوا إلى معسكركم

---

(١) صفين : « وانشقا » .
(٢) صفين : « أظهرتما » .
(٣) صفين : « أسسه » .

بالنُّخَيلة ، فنادى الحارث فى الناس بذلك ، وبعث إلى مالك بن حبيب اليربوعىّ صاحب شرطته ، يأمره أن يحشُر الناس إلى المعسكر ، ودعا عُقْبة بن عمرو الأنصارىّ ، فاستخلفه على الكوفة ـ وكان أصغر أصحاب العَقَبة السبعين ، ثم خرج عليه السلام ، وخرج الناس معه .

قال نصر : ودعا على عليه السلام زياد بن النَّضْر وشريح بن هانئ ـ وكانا على مَذْحِج والأشعريين ـ فقال : يازياد ، اتّقِ الله فى كل مُمْسَى ومُصْبَح ، وخَفْ على نفسك الدنيا الغَرور ؛ ولا تأمنها على حال. واعلم أنك إن لم تزَعْها عن كثير مما تحبّ مخافة مكروهه، سَمَتْ بك الأهواء إلى كثير من الضّرر ، فكن لنفسك مانعاً وازعاً من البغى والظلم والعدوان ؛ فإنى قد وليتك هذا الجُنْد ، فلا تستطيلنّ عليهم ؛ إنّ خيرَكم عند الله أتقاكم ؛ تعلّم مِن عالمهم ؛ وعَلّم جاهلهم ، واحلم عن سَفيههم ؛ فإنك إنما تدرك الخير بالحِلْم وكفّ الأذى والجهل (١) .

فقال زياد : أوْصَيْتَ يا أمير المؤمنين حافظا لوصيّتك، مؤديا لأرَبك؛ يرَى الرُّشْد فى نفاذِ أمرك ، والغَىّ فى تضييع عهدك .

فأمرهما أن يأخذا فى طريق واحد ولا يختلفا ، وبعثهما فى اثنى عشر ألفا على مقدّمته ، وكلٌّ واحد منهما على جماعة من ذلك الجيش ، فأخذ شريح يعتزلُ بمن معه من أصحابه على حدَة ، ولا يقرب زيادا ، فكتب زياد إلى على عليه السلام مع مَوْلًى له يقال له شوذب :

لعبد الله علىّ أمير المؤمنين ؛ من زياد بن النَّضْر :

سلام عليك ؛ فإنى أحْمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ؛ فإنك ولّيْتنى أمرَ

(١) الجهل هنا : السفاهة والغضب .

الناس ؛ وإن شُرَيحاً لا يرى لى عليه طاعة ولا حقا؛وذلك من فعله بى استخفاف بأمرك، وترك لعهدك ، والسلام .

وكتب شريح بن هانئ إلى علىّ عليه السلام :

لعبد الله علىّ أمير المؤمنين من شُرَيح بن هانئ ، سلام عليك ؛ فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ؛ فإنّ زياد بن النضر حين أشركتَه فى أمرك ، ووليته جنداً من جنودك،طَغى واستكبر ، ومال به العُجْب والُخيَلاء والزّهْو إلى مالا يَرْضَى الله تعالى به من القَوْل والفعل ؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين عليه السلام أن يعزِلَه عنّا ويبعث مكانه مَنْ يحبّ فليفعل ؛ فإنا له كارهون ، والسلام .

فكتب علىّ عليه السلام إليهما :

من عبد الله علىّ[1] أمير المؤمنين إلى زياد بن النَّضْر وشُرَيح بن هانئ . سلامٌ عليكما، فإنّى أحمَد إليكما الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد ؛ فإنى قد وَلَّيتُ مقدّمتى زيادَ ابن النضر،وأمّرته عليها،وشُرَيح بن هانئ عَلَى طائفة منها أمير؛فإن انتهى جمعكما إلى بأس، فزياد بن النَّضر عَلَى الناس كلّهم ؛ وإن افترقتما فكلٌّ واحدٍ منكما أميرُ الطائفة التى وليّناه أمرَها. واعلما أنّ مقدّمة القوم عُيونُهم، وعيونُ المقدّمة طلائعهم، فإذا أنتما خرَجْتُما من بلادكما فلا تسأما من توْجيه الطّلائع ، ومن نَفْضِ الشِّعاب[2] والشّجر والخَمَر[3] فى كلّ جانب ، كى لا يغترّكما عدوّ ، أو يكون لهم كمين . ولا تسيّرنّ الكتائبَ والقبائل من لَدُنْ الصّباح إلى المساء إلا على تعبئة،فإنْ دهمَكم عدوّ أو غشيَكم مكروه، كنتم قد تقدمتم فى التعبئة ، فإذا نزلتم بعدوّ أو نزل بكم فليكنْ معسكرُكم فى قُبُل الأشراف أو سِفاح[4]

(١) صفين : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله ... » .

(٢) يقال : نفض المكان ينفضه ؛ إذا نظر جميع ما فيه حتى يعلم منه ؛ ومنه قول زهير :

وتنفض عَنْهَا غيبَ كلِّ خَمِيلةٍ ... وَتَخْشَى رماةَ الغوْث من كلِّ مَرْصَدِ

والشعاب : جمع شعبة ؛ وهى ما انشعب وتفرع من الوادى .

(٣) الخمر : ما وارى الإنسان من شجر ونحوه .

(٤) الأشراف : جمع شرف ؛ وهى الأماكن العالية . وسفاح الجبال : أسافلها .

الجبال وأثناء الأنهار ؛ كيما يكون ذلك لـكم رِدْءا ، وتـكون مقاتلتـكم من وَجْهٍ واحد أو اثنين ؛ واجعلوا رقباءكما[١] فى صياصى الجبال ، وبأعالى الأشراف ، ومناكب الأنهار يرون لـكم ، كى لا[٢] يأتيكم عدوٌّ من مكان مخافةٍ أو أمن . وإيّاكم والتفرّق : فإذا نزلتم فانزلوا جميعا ، وإذا رحلتم فارحلوا جميعا ؛ فإذا غشيَـكم الليل فنزلتم فحُفّوا عسكرَكم بالرماح والتِّرَسة[٣] ، ولتـكن رماتكم من وراء ترَسِكم ورماحكم يَلُونهم . وما أقمتم فكذلك فافعلوا كى لا تصـابَ لـكم غَفْلة ، ولا تُلْفَى لـكم غِرّة ، فما قوم يحفُّون عسكرَهم برماحهم وترَسَتهم من ليل أو نهار إلا كانوا كأنّهم فى حصون . واحرُسا عسكركما بأنفسكما ، وإياكما أن تذوقا نَوْماً حتى تُصْبحا إلا غِرَارا أو مَضْمضة[٤] . ثم ليـكن ذلك شأنَـكما ودأبَـكما حتى تنتهيا إلى عدوّكما ؛ وليكن كلّ يوم عندى خبرُكما ورسولٌ مِنْ قِبَلِـكما . فإنى — ولا شىء إلا ماشاء الله — حثيثُ السَّيْر فى أثَرِكما . عليكما فى جَرْيِكما[٥] بالتُّؤَدة ، وإياكما والعَجَلة ؛ إلّا أن تمكّنـكما فرصة بعد الإعذار والحجّة ، وإياكما أن تقاتلا حتى أقدم عَلَيْـكُما ، إلا أن تُبدآ ، أو يأتيَـكما أمرى ، إن شاء الله[٦] .

قال نصر :[٧] وكتبَ علىّ عليه السلام إلى أمراء الأجناد — وكان قد قسّم عسكرَه أسْباعاً ، فجعل عَلَى كل سُبْعٍ أميرا ، فجعل سعد بن مسعود الثقفىّ على قَيْس وعبد القيس ، ومعقِل بن قيس اليربوعىّ على تَميم وضَبّة والرِّباب وقريش

(١) صفين : «رقباءكم» .
(٢) كذا فى ا ، وفى ب ، ج بحذف «كى» .
(٣) الترسة : جمع ترس ؛ وهو صفحة من الفولاذ مستديرة ، ويجمع على تراس أيضا .
(٤) الغرار : القليل من النوم . وقوله : «مضمضة» ؛ لما جعل للنوم ذوقا ، أمرهم ألا ينالوا منه إلا بألسنتهم ولا يسيغوه ؛ فشبهه بالمضمضة بالماء وإلقائه من الفم من غير ابتلاع ؛ كذا فسره صاحب اللسان (٩ : ١٠) ؛ وأورد كلام الإمام .
(٥) صفين : «حربكما» .
(٦) صفين ١٣٨ — ١٤٠
(٧) صفين ١٣٢ ، ١٤٠ — ١٤١ .

وكنانة وأسد ، ومخنف بن سُلَيم عَلَى الأزد وبجيلة وخَثْعم والأنصار وخُزاعة ، وحُجْر ابن عدىّ الكندىّ على كِنْدة وحَضَرموت وقُضاعة ، وزياد بن النَّضْر على مَذْحِج والأشعريين ، وسعيدَ بن مُرّة الهَمْدانىّ على هَمْدان ومَنْ معهم من حِمْير ، وعدىّ بن حاتم الطائىّ على طَيّء ؛ تجمعهم الدعوة مع مَذْحِج ، وتختلف الرايتان : راية مذحِج مع زياد بن النضر ، وراية طَيّئ مع عدىّ بن حاتم ؛ هذه عساكر الكوفة . وأما عساكر البَصْرة فخالد بن معمر السّدوسىّ على بكر بن وائل ، وعمرو بن مرجوم العبدىّ على عبْد القيس ، وابن شَيْبان الأزدىّ[1] على الأزد ، والأحنف على تَميم وضبّة والرِّباب ، وشريك ابن الأعور الحارثىّ على أهل العالية :

أما بعد ، فإنى أبرأ إليكم من مَعَرّة الجنود[2] [إلّا من جوعة إلى شبعة ، ومن فقر إلى غنًى ، أو عمًى إلى هدًى ؛ فإن ذلك عليهم][3] . فأَغْرِبوا[4] الناس عن الظلم والعُدْوان، وخذوا على أيدى سفهائكم، واحترسوا أن تعملوا أعمالًا لا يرضى الله بها عنّا فيردّها علينا وعليكم دعاءنا ؛ فإنه تعالى يقول : ﴿ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾[5] .

وإن الله إذا مَقَت قوما من السماء هلكوا فى الأرض، فلا تألُوا أنفسكم خيرا ، ولا الجند حسن سيرة ، ولا الرعية معونةً ولا دين الله قوة ؛ وأَبلُوا فى سبيله ما استوجب عليكم ؛ فإنّ الله قد اصطَنَع عندنا وعندكم ما يجب علينا أن نشكره بجهدنا ، وأن ننصُرَه ما بلغت قوتنا ولا قوة إلا بالله .

---

(١) فى صفين : «صبرة بن شيبان» .

(٢) قوله : « أبرأ إليكم من معرة الجيش » ، نسبه صاحب اللسان هذا القول إلى عمر بن الخطاب ، وقال : « وأما معرة الجيش التى تبرأ منها عمر رضى الله عنه ؛ فهى وطأتهم من مروا به من مسلم أو معاهد ، وإصابتهم إياهم فى حريمهم وأموالهم وزروعهم بما لم يؤذن لهم فيه » ؛ وفى صفين : « معرة الجيش » .

(٣) تكملة من كتاب صفين .

(٤) أغربوا الناس ، أى نحوهم ، وفى صفين « فاعزلوا الناس » .

(٥) سورة الفرقان ٧٧

قال : وكتب عليه السلام إلى جنوده يخبرهم بالّذى لهم وعليهم :

أما بعد ؛ فإنّ الله جعلكم فى الحقّ جميعاً سواء ؛ أسودكم وأحمركم ، وجعلكم من الوالى وجعل الوالى منكم بمنزلة الوالد من الولد ، و [بمنزلة][1] الولد من الوالد ، [الذى لا يكفيه منعه إياهم طلب عدوّه والتهمة به ، ما سمعتم وأطعتم وقضيتم الذى عليكم][1]. فحقّكم عليه إنصافكم والتعديل بينكم ، والكفّ عن فيئكم ؛ فإذا فعل معكم ذلك ، وجبتْ عليكم طاعته فيما وافق الحقّ ، ونصرتُه والدفع عن سلطان الله ، فإنّكم وَزَعة الله فى الأرض ، فكونوا له أعوانا ، ولدينه أنصارا ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، إن الله لا يحب المفسدين [2] .

***

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : حدّثنا سعد بن طريف ، عن الأصبغ ابن نُباتة ، قال : قال علىّ عليه السلام : ما يقول الناس فى هذا القبر ؟ ـ وفى النُّخَيلة ، وبالنُّخَيلة قبر عظيم يدفن اليهود موتاهم حوله ـ فقال الحسن بن علىّ عليهما السلام : يقولون هذا قبر هود لما عصاه قومه ، جاء فمات هاهنا ، فقال : كذبوا ؛ لأنا أعلم به منهم ؛ هذا قبر يهودَا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، بِكْر يعقوب ؛ ثم قال : أهاهنا أحد من مَهَرَة[3] ؟ فأُتِىَ بشيخ [كبير][1] ، فقال : أين منزلُك ؟ قال : على شاطئ البحر ، قال : أين أنت من الجبل[4] ؟ قال : أنا قريب منه ، قال : فما يقول قومك فيه ؟ قال : يقولون : إن فيه قبرَ ساحر ، قال : كذبوا ، ذاك قبر هود النبىّ عليه السلام ، وهذا قبر يهودا بن يعقوب . ثم قال

---

(١) تكملة من كتاب صفين .
(٢) صفين ١٤١ ، ١٤٢ .
(٣) مهرة : حى من اليمن .
(٤) صفين : « أين من الجبل الأحمر » .

عليه السلام : يُحشَر من ظهر الكوفة سبعون ألفا على غُرّة[1] الشمس ، يدخلون الجنة بغير حساب .

قال نصر : فلما نزَل علىّ عليه السلام النُخَيْلة متوجّها إلى الشام ، وبلغ معاويةَ خبرهُ، وهو يومئذ بدمشق ، قد ألبَس منبر دمشق قميصَ عثمان مختضباً بالدم ، وحول المِنبر سبعون ألف[2] شيخ يبكون حوله، لا تجفّ دموعهم عَلَى عثمان ، خطبهم ، وقال :

ياأهل الشام ، قد كنتم تكذّبونني فى علىّ ، وقد استبان لكم أمرُه ؛ والله ما قتَل خليفتَكم غيرُه . وهوأمرَ بقتله ، وألّبَ الناس عليه، وآوى قَتَلَتَهُ ، وهم جنده وأنصاره وأعوانه ، وقد خرج بهم قاصدا بلادكم ودياركم لإبادتكم . يا أهل الشام ، اللهَ اللهَ فى دم عثمان ! فأنا وليُّه وأحقّ مَنْ طلب بدمه ؛ وقد جعل الله لولىّ المقتول ظلما سلطانا، فانصروا خليفتَكم المظلوم ، فقد صنع القوم به ما تعلمون ، قتلوه ظُلْماً وبغيا ؛ وقد أمر الله تعالى بقتال الفئة الباغية حتى تفىء إلى أمر الله .

ثم نزل .

قال نصر : فأعطوه الطاعة وانقادوا له ، وجمع إليه أطرافه ، واستعد للقاء علىّ عليه السلام[3] .

---

(١) غرة الشمس : مطلعها .
(٢) كذا فى الأصول وفى كتاب صفين .
(٣) كتاب صفين ١٤٢ ، ١٤٣

(٤٧)

ومن كلام له عليه السلام فى ذكر الكوفة :

الأصْلُ :

كَأَنِّى بِكِ يَا كُوفَةُ تُمَدِّينَ مَدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَاظِىِّ ؛ تُعْرَكِينَ بِالنَّوَازِلِ ، وَتُرْكَبِينَ بِالزَّلَازِلِ ، وَإِنِّى لَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكِ جَبَّارٌ سُوءاً إِلَّا ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِشَاغِلٍ أَوْرَمَاهُ(١) بِقَاتِلٍ .

* * *

الشَّرْحُ :

عُكاظ : اسم سُوق للعرب بناحية مكة ، كانوا يجتمعون بها فى كلّ سنة ، يقيمون شهرا ويتبايعون ويتناشدون شعرا ويتفاخرون ، قال أبو ذُؤَيْب :

إذا بُنِىَ القِبابُ عَلَى عُكَاظٍ وَقَامَ الْبَيْعُ وَاجْتَمَعَ الأُلُوفُ(٢)

فلما جاء الإسلام هدم ذلك ؛ وأكثر ما كان يُباع الأديم بها ، فنسب إليها .

والأَديم واحد والجمع أُدُم ، كما قالوا : أفيق للجلد الذى لم تَتِمّ دباغته ، وجمعه أُفُق . وقد يجمع أديم على آدِمة ، كما قالوا : رغيف وأرغفة .

والزلازل هاهنا : الأمور المزعجة ، والخطوب المحرّكة .

---

(١) مخطوطة النهج : « ورماه » .

(٢) ديوان الهذليين ١ : ٩٨ ؛ وفى شرحه « على عكاظ ، يريد بعكاظ ، ويقال : فلان نازل على فلان ، وعلى ضريبة ، أى بها . قام البيع ، يريد : قامت السوق » .

وقوله عليه السلام : « تُمَدّين مَدّ الأديم » ، استعارة لما ينالها من العَسْف والخبط .
وقوله : « تُعْرَكين » ؛ من عركَتِ القومَ الحرب إذا مارستهم حتى أتعبتهم .

* * *

[فصل فى ذكر فضل الكوفة]

وقد جاء فى فضل الكوفة عن أهل البيت عليهم السلام شىء كثير ، نحو قول أمير المؤمنين عليه السلام : نعمت المَدَرة .

وقوله عليه السلام : إنه يُحشر من ظهرها يوم القيامة سبعون ألفا ، وجوهُهم عَلَى صُورة القمر .

وقوله عليه السلام : هذه مدينَتُنا و محَلّتنا ، ومقرّ شيعتنا .

وقول جعفر بن محمد عليه السلام : اللهم ارْمِ من رَماها ، وعادِ مَنْ عاداها .

وقوله عليه السلام : تربةٌ تحبُّنا ونحبُّها .

فأمّا ماهمّ به الملوك وأرباب السلطان فيها من السوء ، ودفاع الله تعالى عنها ؛ فكثير .

قال المنصور لجعفر بن محمد عليهما السلام : إنى قد هممتُ أن أبعثَ إلى الكوفة مَنْ ينقضُ منازِلَها ، ويُجمِّر (١) نخلَها ، ويستصفى أموالها ، ويقتل أهل الرِّيبة منها ؛ فأشِرْ علىّ . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن المرء ليقتدِى بسلَفه ، ولك أسلاف ثلاثة : سليمان أُعطِىَ فشكر ، وأيوب ابتُلِىَ فصبر ، ويوسف قَدَر فغفر ؛ فاقتد بأيّهم شئت . فصمَت قليلا ، ثم قال : قد غفرت .

---

(١) جمر النخلة ؛ أى قطع جمارها .

وروى أبو الفرج عبد الرحمن بن علىّ بن الجوزىّ فى كتاب " المنتظم " أن زياداً لما حَصَبَهُ أهلُ الكوفة ، وهو يخطب على المِنْبَر ، قطع أيدى ثمانين منهم ، وهمّ أن يخرّب دورَهم ، ويُجَمِّرَ نخلَهم ، فجمعهم حتى ملأ بهم المسجد والرَّحَبة ، يعرضهم على البراءة من علىّ عليه السلام ؛ وعلم أنّهم سيمتنعون ، فيحتجّ بذلك على استئصالهم ، وإخراب بلدهم .

قال عبد الرحمن بن السائب الأنصارىّ : فإنى لَمَعَ نفرٍ من قومى ، والناس يومئذ فى أمر عظيم ؛ إذْ هَوّمت تهويمةً [1] ، فرأيت شيئاً أقبل ، طويل العنق ، مثل عُنُق البعير أهدر أهدل [2] ، فقلت : ما أنت ؟ فقال : أنا النَّقّاد ذو الرقبة ، بُعِثت إلى صاحب هذا القصر ، فاستيقظت فزعا ، فقلت لأصحابى : هل رأيتم ما رأيت ؟ قالوا : لا ؛ فأخبرتُهم ، وخرج علينا خارج من القصر ، فقال: انصرفوا ، فإن الأمير يقول لكم : إنى عنكم اليوم مشغول ؛ وإذا بالطاعون قد ضربه ، فكان يقول : إنّى لأجِد فى النِّصْف من جسدى حرّ النار حتى مات ، فقال عبد الرحمن بن السائب :

مَا كَانَ مُنْتَهِياً عَمّا أرادَ بِنَا ... حَتَّى تَنَاوَلَهُ النَّقَّادُ ذُو الرَّقَبَهْ

فأثْبتَ الشِّقَّ منهُ ضربةٌ عَظُمَتْ ... كما تناول ظُلْماً صاحب الرَّحَبَهْ [2]

قلت : قد يظن ظان أن قوله : « صاحب الرّحبة » يمكن أن يحتجّ به من قال : إنّ قبر أمير المؤمنين عليه السلام فى رَحَبة المسجد بالكوفة ؛ ولا حجة فى ذلك ، لأنّ أمير المؤمنين كان يجلس معظم زمانه فى رَحَبة المسجد ، يحكم بين الناس ، فجاز أن ينسب إليه بهذا الاعتبار .

---

(١) التهويم : هز الرأس من النعاس .

(٢) يقال :هدر البعير ؛ صوت فى غيرشقشقة ، والجمل الأهدل: المسترخى المشفر .

(٤٨)

ومن خطبة له عليه السلام عند المسير إلى الشام :

الأصل :

الْحَمْدُ لِلهِ كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ وَغَسَقَ، وَالْحَمْدُ لِلهِ كُلَّمَا لَاحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ، وَالْحَمْدُ لِلهِ غَيْرَ مَفْقُودِ الْإِنْعَامِ، وَلَا مُكَافَإِ الإِفْضَالِ . أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي، وَأَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هَذَا الْمِلْطَاطِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ النُّطْفَةَ إِلَى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ، مُوطِنِينَ أَكْنَافَ دِجْلَةَ، فَأُنْهِضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ، وَأَجْعَلَهُمْ مِنْ أَمْدَادِ الْقُوَّةِ لَكُمْ .

* * *

قال الرضيّ رحمه الله :

يعني عليه السلام بالمِلطاط هاهنا السَّمْتَ الذي أمرَهم بلزومه ؛ وهو شاطئ الفُرات، ويقال ذلكَ أيضاً لشاطئ البحر، وأصله ما استوى منَ الأرض ؛ ويعني بالنُّطفةِ ماء الفُرات، وهو من غريب العبارات وعجيبها .

* * *

الشرح :

وقب الليل ؛ أي دخل، قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾[1] .

وغسق، أي أظلم . وخفق النجم، أي غاب .

---

(١) سورة الفلق ٣

ومقدِّمة الجيش ، بكسر الدال : أوله ؛ ومايتقدّم منه على جمهور العسكر ؛ ومقدَّمة الإنسان ، بفتح الدال : صدره .

والمِلْطاط : حافّة الوادى وشَفِيرُه ، وساحل البحر ، قال رؤبة :

* نَحْنُ جَمَعْنَا النَّاسَ بِالْمِلْطَاطِ *

قال الأصمعىّ : يعنى به ساحلَ البحر ، وقول ابن مسعود : هـذا المِلطاط طريق بقيّة المؤمنين ، هُرّابا من الدَّجّال ـ يعنى به شاطىء الفرات .

فأما قول الرضىّ رحمه الله تعالى : « الملطاط : السّمْت الذى أمرهم بلزومه وهو شاطئ الفرات ، ويقال ذلك لشاطئ البحر » ، فلا معنى له ؛ لأنه لافرق بين شاطئ الفرات وشاطىء البحر ، وكلاهما أمر واحـد ، وكان الواجب أن يقول : المِلْطاط : السمت فى الأرض ، ويقال أيضاً لشاطئ البحر .

والشِّرْذمة : نفر قليلون .

وموطنين أكناف دجلة ، أى قد جعلوا أكنافها وَطَناً ، أوطنت البُقعة .

والأكناف : الجوانب ، واحدهـا كَنَف . والأمداد : جمع مَدَد ، وهو مايُمَدُّ به الجيش تقوية له .

وهذه الخطبة خطب بها أميرُ المؤمنين عليه السلام وهو بالنُّخَيلة خارجا من الكوفة ومتوجِّها إلى صِفِّين لخمس بقين من شوال سنة سبع وثلاثين ؛ ذكرها جماعة من أصحاب السير ، وزادوا فيها : « وقد أمّرْت على المِصر عُقْبة بن عمرو الأنصارىّ ، ولم آلكم ولا نفسى[1] ؛ فإيّاكم والتخلّف والتربّص ؛ فإنى قد خلّفت مالك بن حبيب اليربوعىّ ، وأمرتُه ألّا يترك متخلّفا إلا ألحقه بكم عاجلا ، إن شاء الله»[2] .

---

(١) يقال : مايألو الشىء ، أى مايتركه . (٢) صفين ١٤٨

وروى نصر بن مزاحم عوض قوله : « فأنهِضهم معكم إلى عَدُوِّكم » « فأنهِضهم معكم إلى عدو الله »[1].

قال نصر : فقام إليه مَعْقِل بن قيس الرِّياحيّ ، فقال : ياأمير المؤمنين ؛ والله مايتخلّف عنك إلّا ظَنِين ، ولا يتربّصُ بك إلا منافق ، فَمُرْ مالكَ بن حبيب فليضرِبْ أعناقَ المتخلّفين . فقال : قد أمَرْتُه بأمرى ، وليس بمقصِّر إن شاء الله[2].

* * *

[أخبار عليّ فى جيشه وهو فى طريقه إلى صفين]

قال نصر بن مزاحم : ثم سار عليه السلام حتى انتهى إلى مدينة بَهُرَسِير[3] ؛ وإذا رجل من أصحابه يقال له حُرّ بن سهم بن طَرِيف ، من بنى رَبِيعة بن مالك ، ينظر إلى آثار كسرى ؛ ويتمثل بقول الأسود بن يَعْفُر :

جَرَتِ الرِّياحُ على محلّ ديارِهمْ فكأنما كانوا على ميعادِ[4]

فقال له عليه السلام : ألا قلت : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾[5] ؛ إنّ هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا مورَّثين ، ولم يشكروا النّعمة ، فسلِبُوا دنياهم بالمعصية . إياكُم وكُفْرَ النِّعم ، لاتحلّ بكم النِّقم ، انزلوا بهذه الفَجْوة[6].

---

(١) صفين : « إلى أعداء الله » .

(٢) صفين ١٤٨

(٣) بهرسير : بلد قرب المدائن .

(٤) من قصيدة له فى المفضليات ٢١٦ ـ ٢٢٠

(٥) سورة الدخان ٢٥ ـ ٢٩

(٦) الفجوة : المكان المتسع فى الأرض ؛ وفى صفين ١٥٩ « النجوة » ؛ وهو المكان المرتفع .

قال نصر : وحدّثنا[1] عمر بن سعد ، عن مسلم الأعور عن حَبّة العُرنىّ ، قال : أمر علىّ عليه السلام الحارث الأعور ؛ فصاح فى أهل المدائن : مَنْ كان من المقاتلة فليوافِ أميرَ المؤمنين عليه السلام صلاةَ العصر. فوافوْه فى تلك الساعة ، فحمِد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعدُ ؛ فإنى قد تعجّبْت مِنْ تخلّفكم عن دَعْوتكم ، وانقطاعكم عن أهل مِصْركم فى هذه المساكن الظالم أهلها ، الهالك أكثر ساكنيها ، لا معروف يأمرون به ، ولا منكَر ينهوْن عنه .

قالوا : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّا ننتظِر أمرَك ، مُرْنا بما أحببت . فسارَ وخلّف عليهم عدىّ بن حاتم ، فأقام عليهم ثلاثا ثمّ خرج فى ثمانمائة رجل منهم ، وخلّف ابنه زيدا بعده ، فلَحِقه فى أربعمائة رجل منهم .

وجاء علىّ عليه السلام حتى مَرّ بالأنبار ، فاستقبله بنو خُشْنُوشَكْ[2] ؛ دهاقينها .
ـ قال نصر : الكلمة فارسية ، أصلها « خُشْ » أى الطيب[3] ـ

قال : فلما استقبلوه ، نزلوا عن خيولهم ، ثم جاءوا يشتدّون معه ، وبين يديه ومعهم براذِين قد أوقفوها فى طريقه ، فقال : ماهذه الدّوابّ التى معكم ؟ وماأردتم بهذا الذى صنعتم ؟ قالوا : أمّا هذا الذى صنعنا فهو خُلُق مِنّا نعظّم به الأمراء ؛ وأمّا هذه البراذين فهدّية لك ، وقد صنعنا للمسلمين طعاما ، وهيّأنا لدوابّكم عَلَفا كثيراً .

فقال عليه السلام : أما هذا الذى زعمتم أنّه فيكم خُلُق تعظّمون به الأمراء فوالله ما ينفع ذلك الأمراء ؛ وإنّكم لتشقّون به على أنفسكم وأبدانكم ، فلا تعودوا

---

(١) صفين ١٦٠ ، ١٦١
(٢) فى الأصول « خشوش » ، وماأثبته من كتاب صفين .
(٣) العبارة كما فى كتاب صفين : « قال سليمان : خش : طيب . نوشك : راض ، يعنى بنى الطيب الراضى ، بالفارسية » .

له . وأما دوابّكم هذه ؛ فإنْ أحببتم أن آخذَها منكم ، وأحسبها لكم من خَراجِكم أخذناها منكم . وأما طعامكم الذى صنعتم لنا ؛ فإنا نكرهُ أن نأكلَ من أموالكم إلا بثمن . قالوا : ياأمير المؤمنين ، نحن نقوّمه ثم نقبل ثمنه ، قال : إذاً لا تقوّمونه قيمته ، نحن نكتفى بما هو دونه . قالوا : يا أمير المؤمنين ؛ فإنّ لنا من العرب مواليَ ومعارف ؛ أتمنعنا أن نُهْدِيَ لهم أو تمنعهم أن يقبلوا منا ؟ فقال : كلُّ العرب لكمُ موالٍ ، وليس ينبغى لأحد من المسلمين أن يقبل هديتَكم ، وإن غَصَبكم أحد فأعلمونا . قالوا : ياأمير المؤمنين ؛ إنّا نحب أن تُقْبَل هديتُنا وكرامتنا . قال : وَيْحَكم ! فنحن أغنى منكم . وتركهم وسار .

قال نصر : وحدثنا[1] عبد العزيز بن سياه ، قال : حدّثنا حبيب بن أبى ثابت ، قال : حدثنا [أبو][2] سعيد التيمىّ المعروف بعَقِيصَى ، قال: كُنّا مع علىّ عليه السلام فى مسيره إلى الشام ؛ حتى إذا كُنّا بظهر الكوفة من جانب هذا السّواد ، عطش الناس واحتاجوا إلى الماء ، فانطلق بنا علىّ عليه السلام حتى أتى [بنا][2] إلى صخرة ضِرْس[3] فى الأرض؛ كأنها رُبْضَةُ عنز[4]؛ فأمرنا فاقتلعناها، فخرج لنا من تحتها ماء، فشرب الناس منه ، وارتووْا. ثم أمرنا فأكفأناها عليه . وسار الناس حتى إذا مضى قليلا ، قال عليه السلام : أمِنكم أحدٌ يعلم مكان هذا الماء الذى شربتم منه ؟ قالوا : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : فانطلقوا إليه ، فانطلق مِنّا رجالٌ ركبانا ومشاة ، فاقتصصنا الطريق إليه ؛ حتى انتهينا إلى المكان الذى نرى أنه فيه ، فطلبناه ، فلم نقدر على شىء ، حتى إذا عِيلَ علينا انطلقنا إلى دَيْرٍ قريب

---

(١) صفين ١٦١ ، ١٦٢ .
(٢) من صفين والقاموس .
(٣) الضرس : الأكمة الخشنة .
(٤) الربضة ، بضم الراء ويقال بكسرها ؛ مقدار جثة العنز إذا ربضت ؛ وفى الأثر : « جاء بثريد كأنه ربضة أرنب » أى جثتها . راجع اللسان .

مِنّا ، فسألناهم : أين هذا الماء الذى عندكم ؟ قالوا : ليس قُرْبَنا ماء ، فقلنا : بلى إنّا شربنا منه ، قالوا : أنتم شَرِبتم منه ! قلنا : نعم ، فقال صاحب الدَّيْر : والله ما بُـنِى هذا الدير إلا بذلك الماء ، وما استخرجه إلّا نبىّ أو وصىّ نبىّ .

قال نصر : ثم مضى عليه السلام ؛ حتى نزل بأرضِ الجزيرة ، فاستقبله بنو تَغْلِب والنَّمِر بن قاسط بجَزُور (١) ، فقال عليه السلام ليزيد بن قيس الأرحبىّ : يا يزيد ، قال : لَبيك يا أمير المؤمنين ! قال : هؤلاء قومُك ؛ من طعامهم فاطْعَم ، ومن شرابهم فاشرب .

قال : ثم سار حتى أتى الرَّقّة ـ وجلّ أهلها عثمانية ، فَرّوا من الكوفة إلى معاوية ـ فأغلقوا أبوابَها دونه ، وتحصّنوا ، وكان أميرهم سماك بن مخرقة الأسدىّ فى طاعة معاوية ، وقد كان فارق عليا عليه السلام فى نحو من مائة رجل من بنى أسد ، ثم كاتب معاوية ، وأقام بالرَّقّة حتى لَحِق به سبعمائة رجل .

قال نصر : فروى حَبّة أن عليًّا عليه السلام لما نزل على الرَّقة ، نزل بموضع يقال له البَلِيخ على جانب الفرات ، فنزل راهب هناك من صَوْمعته ، فقال لعلىّ عليه السلام : إنّ عندنا كِتابا توارثناه عن آبائنا ، كتبه أصحابُ عيسى بن مريم ، أعرِضه عليك ؟ قال : نعم ، فقرأ الراهب الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم . الذى قضى فيما قضى ، وسَطّر فيما كتب (٢) : أنه باعثٌ فى الأمّيين رسولا منهم ؛ يعلّمهم الكتابَ والحكمة ، ويدلّهم على سبيل الله ، لا فظٌّ ولا غليظ ؛ ولا صَخّابٌ فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، بل يعفُو ويصفح ، أمّته الحَمّادون الذين يحمَدون الله على كل نَشَز (٣) ، وفى كل صَعود وهَبوط ، تذِلّ ألسنتهم

(١) الجزور : الناقة التى تنحر ؛ وفى صفين : « بالجزيرة » .
(٢) صفين : « فيما سطر » .
(٣) النشز : المكان المرتفع ، كالنشاز .

بالتكبير والتهليل ، والتسبيح ؛ وينصرُه الله على من ناوأه ؛ فإذا توفّاه الله ، اختلفت أمتهُ من بعده ؛ ثم اجتمعت ، فلبثت ما شاء الله ، ثم اختلفت ، فيمرّ رجل من أمته بشاطىء هذا الفُرات ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويقضي بالحقّ ولا يركس[1] الحكم ، الدنيا أهون عليه من الرّماد فى يوم عصفت به الريح ، والموت أهون عليه من شُرب الماء على الظمآن[2] . يخاف الله فى السرّ ، وينصح له فى العلانية ، لا يخاف فى الله لومةَ لائم ؛ فمن أدرك ذلك النبيّ مِنْ أهل هذه البلاد فآمن به كان ثوابه رضوانى والجنة ، ومَنْ أدرك ذلك العبد الصالح فلينصرْه ؛ فإنّ القتل معه شهادة .

ثم قال له : أنا مصاحبُك ، فلا أفارقُك حتى يصيبنَى ما أصابك . فبكى عليه السلام ، ثم قال : الحمد لله الذى لم أكُنْ عنده منسيًّا ، الحمد لله الذى ذكرنى عنده فى كُتُب الأبرار .

فمضى الراهب معه ، فكان فيما ذكروا يتغدّى مع أمير المؤمنين ويتعشّى ، حتى أصيب يوم صفين ؛ فلما خرج الناس يدفنون قتلاهم قال عليه السلام : اطلبوه ، فلما وجدوه صلّى عليه ودفنه . وقال : هذا مِنّا أهلَ البيت ، واستغفر له مرارا[3] .

روى هذا الخبر نصر بن مزاحم فى كتاب " صفين " عن عمر بن سعد ، عن مسلم الأعور ، عن حبّة العُرَنىّ . ورواه أيضا إبراهيم بن ديزيل الهمدانىّ ، بهذا الإسناد عن حبّة أيضا فى كتاب صفين .

***

وروى ابن ديزيل فى هذا الكتاب ، قال : حدثنى يحيى بن سليمان ، قال : حدّثنى يحيى بن عبد الملك بن حُميد بن عتيبة ، عن أبيه ، عن إسماعيل بن رَجاء ، عن أبيه ومحمد

(١) الركس : رد الشيء مقلوبا ، وفى صفين : « ولا يرتشى فى الحكم » .
(٢) صفين : « الظماء » .
(٣) كتاب صفين لنصر ١٦٤ ، ١٦٥ .

ابن فُضَيل ، عن الأعمش ، عن إسماعيل بن رَجاء ، عن أبي سَعِيد الخُدْرِيّ ، رحمه الله قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، فانقطع شِسْعُ[1] نعلِه ، فألقاها إلى عليّ عليه السلام يُصلحها، ثم قال : « إنّ منكم مَنْ يقاتل على تأويل القرآن ، كما قاتلتُ على تنزيله »، فقال أبو بكر الصديق: أنا هو يارسول الله ؟ فقال: لا ، فقال عمر بن الخطاب: أنا هو يارسول الله ؟ قال : « لا ، ولكنه ذاكُم خَاصِفُ النعل » ـ ويَدُ عليّ عليه السلام على نَعْل النبيّ صلى الله عليه وآله يصلحها .

قال أبو سعيد: فأتيتُ عليًّا عليه السلام فبشّرته بذلك فلم يحفِل به ، كأنه شيء قد كان علمه من قبل .

* * *

وروى ابن ديزيل فى هذا الكتاب أيضاً ، عن يحيى بن سليمان ، عن ابن فُضَيل ، عن إبراهيم الهَجَرِيّ ، عن أبي صادق ، قال : قَدِم علينا أبو أيوب الأنصاريّ العِراق ، فأهْدَت له الأزد جُزرا[2] ، فبعثوها معى ، فدخلت إليه فسلّمت عليه ، وقلت له : ياأبا أيوب ، قد كرّمك الله عزّ وجلّ بصحبة نبيه صلّى الله عليه وسلّم ، ونزوله عليك ، فمالِي أراك تستقبل الناس بسيفك ، تقاتلهم هؤلاء مرة وهؤلاء مرة ! قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله عَهِد إلينا أن نقاتل مع عليّ الناكثين، فقد قاتلناهم،وعهد إلينا أن نقاتلَ معه القاسطين ؛ فهذا وَجْهُنا إليهم ـ يعنى معاوية وأصحابه ـ وعهد إلينا أن نقاتل معه المارقين، ولم أرهم بعد .

ورروى ابن ديزيل أيضا فى هذا الكتاب ، عن يحيى،عن يَعْلى بن عُبيد الحنفيّ ، عن إسمعيل السّدىّ ، عن زيد بن أرقم ، قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وهو

---

(١) الشسع : قبال النعل ؛ وهو زمام بين الإصبع الوسطى والتى تليها .
(٢) الجزر : جمع الجزور ؛ وهو مايذبح من الإبل .

فى الُحجْرة يُوحَى إليه ونحن ننتظره حتى اشتدّ الحرّ ، فجاء على بن أبى طالب ومعه فاطمة وحسن وحسين عليهما السلام ؛ فقعدوا فى ظل حائط ينتظرونه ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله ، رآهم فأتاهم وَوَقَفْنا نحن مكاننا ، ثم جاء إلينا وهو يظلهم بثوبه ، ممسكا بطَرَف الثوب ، وعلىّ ممسكٌ بطَرَفِه الآخر ؛ وهو يقول : « اللهم إنى أحبّهم ، فأحبّهم ؛ اللهم إنى سِلْم لمن سالَمهم ، وحرب لمن حاربهم » قال : فقال ذلك ثلاث مرات .

قال إبراهيم فى الكتاب المذكور : وحدثنا يحيى بن سليمان ، قال : حدثنا ابن فُضَيل ، قال : حدثنا الحسن بن الحكَم النَّخَعىّ ، عن رباح بن الحارث النخعىّ ، قال : كنت جالسا عند على عليه السلام ، إذ قَدِم عليه قوم متلثِّمُون ، فقالوا : السلام عليكَ يامولانا ، فقال لهم : أوَ لَسْتُم قوماً عرَبا ! قالوا : بلى ، ولكنّا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يوم غَدِير خُمّ : « مَنْ كنت مولاه فعلىّ مولاه ، اللهم والِ مَنْ والاه ، وعادِ مَنْ عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » ، قال : فلقد رأيتُ علياً عليه السلام ضحك حتى بدت نواجذُه ، ثم قال : اشهدوا .

ثم إنّ القومَ مضوْا إلى رحالهم فتبعتُهم ، فقلت لرجل منهم : مَنِ القوم ؟ قالوا : نحنُ رَهْطٌ من الأنصار ، وذاكَ — يعنون رجلا منهم — أبو أيوب ، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : فأتيته فصافَحته .

***

قال نصر : وحدثنى عمر بن سعد ، عن نمير بن وعلة ، عن أبى الوَدّاك ، أنّ[1] علياً عليه السلام بعث مِنَ المدائن مَعْقل بن قيس الرياحى ، فى ثلاث آلاف ، وقال له : خُذْ عَلَى

---

(١) كتاب صفين ١٦٥ — ١٦٦

الموصل، ثم نَصيبين ، ثم القَنى بالرَّقة ، فإنى موافيها . وسكِّن الناس وأمِّنهم ، ولا تقاتل إلا مَنْ قاتلك ، وسِر البَرْدَيْن[1] ، وغوِّرْ بالناس[2] . أقم الليل ، ورفِّه فى السير ، ولا تَسِرْ أوّلَ الليل ؛ فإن الله جعله سكنا ، أرِحْ فيه بدنَك وجندَك وظهرك ، فإذا كان السَّحَر ، أو حين يتبلج[3] الفجر ، فسر.

فسار حتى أتى الحديثة ـ وهى إذ ذاك منزل الناس ، وإنما بَنَى مدينة الموصل بعد ذلك محمد بن مروان ـ فإذا بكبشين ينتطحان ، ومع معقل بن قيس رجل من خَثْعم يقال له شداد بن أبى ربيعة[4] ـ قتل بعد ذلك مع الحَرُورِيَّة ـ فأخذ يقول : إيه ، إيهِ ! فقال معقِل : ما تقول ؟ فجاء رجلان نحو الكبشين ، فأخذ كلٌّ واحد منهما كبشا وانصرفا ، فقال الخثعمىّ لمعقِل : لا تَغْلِبون ولا تُغْلَبون ؛ فقال معقِل : من أين علمت ؟ قال : أمَا أبصرت الكبشين ، أحدهما مشرِّق والآخر مغرِّب ، التقيا فاقتتلا وانتطحا ، فلم يزل كلّ واحد من مصاحبه منتصفا ، حتى أتى كلّ واحد منهما صاحبُه فانطلق به ! فقال معقل : أو يكون خيرا مما تقول يا أخا خثعم ! ثم مضى حتى وافى عليًّا عليه السلام بالرَّقة .

قال نصر : وقالت طائفة من أصحاب علىّ عليه السلام له : ياأمير المؤمنين ، اكتب إلى معاوية ومَنْ قِبَله من قومك ، فإن الحجة لا تزداد عليهم بذلك إلا عِظَما . فكتب إليهم عليه السلام : [بسم الله الرحمن الرحيم][5] ، من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية ومن قِبَله من قريش :

---

(١) البردان : الغداة والعشى .
(٢) غور بالناس ، أى انزل بهم فى الغائرة ؛ وهى القائلة ؛ أو نصف النهار .
(٣) صفين : « ينبطح » ، وفى ب : « ينبلج » .
(٤) كذا فى صفين ، ا ، ج ، وفى ب : « شرار بن أبى ربيعة » .
(٥) من صفين .

سلام عليكم، فإنّى أحمَد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنّ لله عباداً آمنوا بالتنزيل ، وعرَفوا التأويل ، وفقُهوا فى الدين ، وبيَّن الله فضلَهم فى القرآن الحكيم ، وأنتم فى ذلك الزمان أعداءٌ للرسول، تكذِّبون[1] بالكتاب، مجمعون على حرب المسلمين ، من ثقِفتُم منهم حبستموه أوعذبتموه أوقتلتموه؛ حتى أراد الله تعالى إعزازَ دينه ،وإظهارَ أمره ، فدخلت العرب فى الدِّين أفواجا ، وأسلمت له هذه الأمة طوعا وكرها ، فكنتم فيمن دخل فى هذا الدين ؛ إمّا رغبة وإما رهبة ؛ على حين فاز أهل السَّبْق بسبقهم ، وفاز المهاجرون الأولون بفضلِهم . ولا ينبغى لمن ليست له مثل سوابقهم فى الدين ، ولا فضائلهم فى الإسلام ؛ أن ينازعهم الأمرَ الذى هم أهلُه وأوْلَى به ، فيجور[2] ويظلم ، ولا ينبغى لمن كان له عقل أن يجهل قدرَه ، ويعدو طورَه ، ويُشْقِى نفسه بالتماس ما ليس بأهله ؛ فإنّ أولى الناس بأمر هذه الأمة قديما وحديثا أقربُها من الرسول ، وأعلمُها بالكتاب ، وأفقهُها فى الدين ، أوّلُها إسلاما ، وأفضلها جهادا ، وأشدّها بما تحمله الأئمة من أمر الأمة اضطلاعا ؛ فاتقوا الله الذى إليه ترجعون ، ولا تَلْبِسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون .

واعلموا أنّ خيار عباد الله الذين يعملون بما يعلمون ، وأنّ شرارهم الجهال الذين ينازِعون بالجهل أهلَ العلم ؛ فإنّ للعالم بعلمه فضلا ، وإن الجاهلَ لا يزداد بمنازعته العالم إلا جهلا . ألا وإنى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيّه ، وحَقْن دماء هذه الأمة ؛ فإن قبلتم أصبتُم رُشْدكم ، واهتديتم لحظّكم ، وإن أبيتم إلا الفرقة وشَقّ عصا هذه الأمة ؛ لم تزدادوا من الله إلا بعدا ، ولا يزداد الربّ عليكم إلا سخطا والسلام .

فكتب إليه معاوية جوابَ هذا الكتاب ، سطرا واحدا ؛ وهو : أما بعد فإنه

---

(١) ا : « مكذبون »

(٢) ب وصفين : « يحوب » .

لَيْسَ بيني وَبَيْنَ قَيْسٍ عِتَـــابُ   غَيْر طَعْنِ الـكُلَى وضَرْبِ الرِّقابِ

فقال علىّ عليه السلام لما أتاه هذا الجواب : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[1] .

قال نصر : وقال علىّ عليـه السلام لأهل الرَّقة : جَسِّروا لى جسرا أعبُر عليه من هذا المـكان إلى الشـام ؛ فأبَوْا ، وقد كانوا ضَمُّوا السفن إليهم ؛ فنهض من عنـدهم ليعبرَ على جِسْر مَنْبِـج ، وخلَّف عليهم الأشتر ، فقال : يا أهلَ هذا الحصن ؛ إنى أقسم بالله إن مَضَى أمير المؤمنين عليه السلام ولم تجسِّروا له عند مدينتـكم حتى يَعْبُرَ منها؛ لأجَرِّدَنّ فيكم السيف ، فلأقتلَنّ مقاتِلَـكم ، ولأخرِبَنّ أرضكم ، ولآخذنّ أموالـكم .

فلقىَ بعضهم بعضا ، فقالوا : إنّ الأشتر يَفِى بما حلَف عليه ، وإنما خلّفه علىّ عندنا ليأتيَنا بشرّ، فبعثوا إليه : إنّا ناصبون لـكم جِسرا ، فأقبلوا . فأرسل الأشتر إلى علىّ عليه السلام، فجاء ، ونصبوا له الجسر، فعبر الأثقال والرجال، وأمر الأشتر فوقف فى ثلاثة آلاف فارس ؛ حتى لم يبق من الناس أحد إلا عبر ، ثم عبر آخر الناس رجلا .

قال نصر: وازدحمت الخيلُ حين عَبَرت ، فسقطت قَلَنْسُوة عبد الله بن أبى الحصين، فنزل فأخذها ، وركب، ثم سقطتْ قلنسوة عبد الله بن الحجاج ، فنزل فأخذها ، ثم ركب فقال لصاحبه :

فإنْ يَكُ ظَنُّ الزّاجرى الطيرَ صادقاً   كما زعموا ، أُقتَلْ وشيكا وتُقْتَل

فقـال عبـد الله بن أبى الحصين : ما شىء أحبّ إلىّ ممـا ذكرت ، فقتلا معا يوم صفين[2] .

---

(١) سورة القصص ٥٦ .

(٢) صفين ١٦٩ .

قال نصر : فلما[1] قطع عليّ عليه السلام الفُرات ، دعا زياد بن النضر وشُرَيح بن هانئ فسرّحهما أمامه نحو معاوية ، على حالهما الذى كانا عليه حين خرجا من الكوفة ، فى اثنى عشر ألفا ، وقد كانا حيث سرحهما من الكوفة مقدّمة له أخذا على شاطئ الفرات من قِبَل البرّ ، مما يلى الكوفة حتى بلغا عانات[2] ، فبلغهم أخذُ عليّ عليه السلام طريقَ الجزيرة ، وعلما أنّ معاوية قد أقبل فى جنود الشام من دمشق لاستقباله ، فقالا : والله ما هذا برأى ، أن نسير وبيننا وبين أمير المؤمنين هذا البحر ، وما لنا خيرٌ فى أنْ نلقى جموعَ الشام فى قلّة من العدد ، منقطعين عن المدد . فذهبوا ليعبرُوا من عانات ، فنعهم أهلُها ، وحبسوا عنهم السفن ، فأقبلوا راجعين حتى عَبرُوا من هِيت ، ولَحِقُوا عليا عليه السلام بقرية دون قِرْقِيسيا ، فلما لحقوا عليا عليه السلام تَعجّب ، وقال : مقدّمتى تأتى من ورائى ! فقام له زياد وشُريح ، وأخبراه بالرأى الذى رأيا . فقال : قد أصبتُما رُشْدكما . فلما عَبَرُوا الفرات قدّمهما أمامه نحو معاوية ، فلما انتهيا إلى معاوية ، لقيهما أبو الأعور السُّلَمِيّ فى جنود من أهل الشام ، وهو على مقدّمة معاوية ، فدعواه إلى الدُّخول فى طاعة أمير المؤمنين عليه السلام فأبى ، فبعثوا إلى عليّ عليه السلام : إنّا قد لقينا أبا الأعور السلمىّ بسور الروم فى جند من أهل الشام ، فدعوناه وأصحابه إلى الدخول فى طاعتك ، فأبَى علينا ، فمرنا بأمرك .

فأرسل عليٌّ عليه السلام إلى الأشتر ، فقال : يا مال ، إن زيادا وشُريحا أرسلا إلىّ يعلمانِنى أنهما لقيا أبا الأعور السلمىّ فى جند من أهل الشام بسور الروم ، ونَبّأنى الرسول أنه تركهم متواقفين ؛ فالنَّجَاء النجاء إلى أصحابك ؛ فإذا أتيتهم فأنت عليهم ؛ وإياك أن تبدأ القوم بقتال إن لم يبدءوك ، والقهم واسمع منهم ، ولا يجرِمَنَّكَ شنآنُهم على قتالهم قبل

(١) صفين ١٧٠ وما بعدها .　　(٢) عانات : قرية من قرى الفرات .

دعائهم والإعذار إليهم مرة بعد مرة ، واجعلْ على ميمنتك زيادا ، وعلى ميسرتك شُرَيحا ، وقِفْ من أصحابك وسَطًا ، ولا تدنُ منهم دنوَّ مَنْ يريد أن يُنشِب الحرب ، ولا تتباعدْ عنهم تباعدَ مَنْ يهاب الناس ؛ حتى أقدم عليك ؛ فإنى حثيث السير إليك إن شاء الله .

قال : وكتب علىٌّ عليه السلام إليهما ــ وكان الرسول الحارث بن جمهان الجعفىّ ــ: أما بعد ؛ فإنى قد أمّرْت عليكما مالكاً ، فاسمعا له وأطيعا أمره ؛ وهو ممن لا يُخاف رهَقُه ولاسِقاطه(١) ، ولا بُطؤه عمّا الإسراع إليه أحزم ، ولا إسراعُه إلى ما البطء عنه أمثل؛ وقد أمرتُه بمثل الذى أمرتكما ، ألّا يبدأ القوم بقتال حتى يلقاهم ويدعوهم ، ويُعذِر إليهم إن شاء الله .

قال : فخرج الأشتر حتى قدِم على القوم ، فاتّبع ماأمره به على عليه السلام، وكفَّ عن القتال ، فلم يزالوا متواقفين(٢) ؛ حتى إذا كان عند المساء ، حمل عليهم أبو الأعور فثبتوا له واضطربوا ساعة . ثم إن أهلَ الشام انصرفوا ، ثم خرج هاشم بن عُتبة فى خيل ورجالٍ حَسَنٍ عُدّتها وعددها ، فخرج إليهم أبو الأعور السلمىّ ، فاقتتلوا يومَهم ذلك ، تحمل الخيلُ على الخيل ، والرجالُ على الرجال ، وصبرَ بعضُهم لبعض ؛ ثم انصرفوا . وبكَّر عليهم الأشتر ؛ فقتِل من أهل الشام عبدالله بن المنذر التَّنُّوخىّ ، قتله ظَبْيان بن عُمارة التميمىّ ، وماهو يومئذ إلا فتى حديث السنّ . وإن كان الشامىّ لفارس أهلِ الشام ، وأخذ الأشتر يقول : ويْحَكم أرونى أبا الأعور !

ثم إن أبا الأعور دعا الناس ، فرجعوا نحوه فوقف على تلّ من وراء المكان الذى كان فيه أوّلَ مرة ، وجاء الأشتر حتى صَفَّ أصحابه فى المكان الذى كان فيه أبو الأعور أوّلَ مرة ، فقال الأشتر لسنان بن مالك النّخعىّ . انطلق إلى أبى الأعور ، فادعُه إلى المبارزة ،

---

(١) الرهق : الطيش والنزق . والسقاط : الخطأ . (٢) متواقفين : وقف بعضهم أمام بعض فى الحرب

فقال : إلى مبارزتى أم إلى مبارزتك ؟ فقال : أَوَلَوْ أمرتُك بمبارزته فعلت ؟ قال : نعم ؛ والذى لا إله إلا هو ؛ لو أمرتنى أن أعترِض صفَّهم بسيفى لفعلتُ حتى أضرِبَه بالسيف . فقال : يابن أخى، أطال الله بقاءك ! قد واللهِ ازددتُ فيك رغبة ، لا ما أمرتُك بمبارزته ، إنما أمرتُك أنْ تدعوَه لمبارزتى ؛ فإنه لا يبارز ـ إن كان ذلك من شأنه ـ إلا ذوِى الأسنان والكفاءة والشرف ، وأنت بحمد الله من أهل الكفاءة والشرف ؛ ولكنك حديثُ السنّ ، وليس يبارز الأحداث ؛ فاذهب فادعه إلى مبارزتى .

فأتاهم فقال : أنا رسول فأمّنونى ، فجاء حتى انتهى إلى أبى الأعور .

قال نصر : فحدثنى[1] عمر بن سعد ، عن أبى زهير العبسىّ ، عن صالح بن سنان، عن أبيه ، قال: فقلت له : إن الأشتر يدعوك إلى المبارزة ، قال : فسكت عنى طويلا ، ثم قال : إنّ خفة الأشتر وسوء رأيه وهوانَه ؛ دعاه إلى إجلاء عمال عُثمان ، وافترائه عليه ، يقبّح محاسنه ، ويجهل حقه ، ويُظهر عداوته . ومن خفّة الأشتر وسوء رأيه أنّه سار إلى عثمان فى داره وقراره ، فقتَلَه فيمن قتله ، وأصبح متَّبَعا[2] بدمه ، لا حاجة لى فى مبارزته .

فقلت : إنّك قد تكلّمت فاسمع حتى أجيبَك ، فقال : لا حاجةَ لى فى جوابك ولا الاستماع منك ، اذهب عنّى ؛ وصاح بى أصحابه فانصرفت عنه ، ولو سمع لأسمعتُه عذرَ صاحبى وحجته .

فرجعت إلى الأشتر ، فأخبرته أنه قد أبى المبارزة ، فقال : لنفسه نظر .

قال : فتواقفنا ، فإذا هم قد انصرفوا . قال : وصبّحنا علىّ عليه السلام غُدْوةً سائرا نحو معاوية ، فإذا أبو الأعور قد سبق إلى سهولة الأرض وَسَعَة المنزل ، وشريعة الماء، مكان

---

(١) كتاب صفين ١٧٣

(٢) صفين : « مبتغى » .

أفيح ؛ وكان أبو الأعور على مقدّمة معاوية ، واسمه سفيان بن عمرو ، وقد جعل على ساقته بُسْر بن أرطاة العامرىّ ، وعلى الخيل عبيدالله بن عمر بن الخطاب ، ودفع اللواء إلى عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ، وجعل على ميمنته حبيب بن مسلمة الفهرىّ ، وعلى رجّالته من الميمنة يزيد بن زَحْر الضبّىّ ، وعلى الميسرة عبدالله بن عمرو بن العاص ، وعلى الرّجالة من الميسرة حابس بن سعيد الطائىّ ، وعلى خيلِ دمشق الضّحاك بن قيس الفهرىّ ؛ وعلى رَجّالة أهل دمشق يزيد بن أسد بن كُرْز البجلىّ ، وعلى أهل حِمْص ذا الكَلاع ، وعلى أهل فلسطين مَسلمة بن مَخلد ، وكان وصول على عليه السلام إلى صِفّين لثمان بقين من المحرم من سنة سبع وثلاثين .

(٤٩)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

اَلْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى بَطَنَ خَفِيّاتِ الأُمُور ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُور ، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ البَصِيرِ ؛ فَلَا عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ ، وَلَا قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ .

سَبَقَ فِى العُلُوِّ فَلَا شَىْءَ أَعْلَى مِنْهُ ، وَقَرُبَ فِى الدُّنُوِّ فَلَا شَىْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ ؛ فَلَا اسْتِعْلَاؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَىْءٍ مِنْ خَلْقِه ، وَلَا قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِى الْمَكَانِ بِهِ .

لَمْ يُطْلِعِ العُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِه ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ ؛ فَهُوَ الَّذِى تَشْهَدُ لَهُ أَعْلَامُ الوُجُود ، عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِى الْجُحُود ، تَعَالَى اللّهُ عَمَّا يَقُولُهُ الْمُشَبِّهُونَ بِهِ وَالجَاحِدُونَ لَهُ عُلُوًّا كَبِيراً !

* * *

الشرح :

بطنتُ سِرّ فلان ، أى أخفيتُه .

والأعلام : جمع علَم ، وهو المنارُ يهتدى به ؛ ثم جعل لكلّ مادل على شىء ؛ فقيل لمعجزات الأنبياء أعلام ، لدلالتها على نبوّتهم . وقوله عليه السلام : « أعلام الظهور » ، أى الأدلة الظاهرة الواضحة .

وقوله فيما بعد : « أعلام الوجود » أى الأدلة الموجودة ، والدلالة هى الوجود نفسه ، وسيأتى شرح ذلك .

وقوله : « وامتنع على عين البصير » ، يقول : إنه سبحانه ليس بمرئىّ بالعين ؛ ومع

ذلك فلا يمكِنُ مَنْ لم يَرَهُ بعينه أن ينكره ؛ لدلالة كلّ شيء عليه ، بل لدلالته سبحانه على نفسه..

ثم قال : « ولا قلب من أثبته يبصره » ، أى لاسبيل لمن أثبت وجودَه أن يحيطَ علما بجميع أحواله ومعلوماته ومصنوعاته ؛ أو أراد أنه لا تُعلم حقيقة ذاته ؛ كما قاله قوم من المحققين .

وقد رُوِىَ هذا الكلام على وجه آخر ، قالوا[1] فى الخطبة : « فلا قلبُ مَنْ لم يَرَهُ ينكِره ، ولا عينُ مَنْ أثبته تبصره » ، وهذا غير محتاج إلى تفسير لوضوحه .

وقوله عليه السلام: « فلا استعلاؤه باعده » ، أى ليس علوّه ولاقربه كما نعقله من العلوّ والقرب المكانيّين ، بل هو علوّ وقرب خارج من ذلك ، فليس علوّه يقتضى بعدَه بالمكان عن الأجسام ، ولا قربُه يقتضى مساواته إياها فى الحاجة إلى المكان والجهة .

والباء فى « به » متعلقة بـ« ساواهم » ، معناه : ولا قربُه ساواهم بِهِ فى الحاجة إلى المكان ؛ أى لم يقتض قربه مماثلته ومساواته إيام فى ذلك .

***

[فصول فى العلم الإلهى]

وهذا الفصل يشتمل على عدّة مباحث من العلم الإلٰهى :

أولها : كونه تعالى عالما بالأمور الخفيّة .

والثانى : كونه تعالى مدلولا عليه بالأمور الظاهرة ؛ يعنى أفعاله .

والثالث : أن هويّته تعالى غير معلومة للبشر .

والرابع : نفى تشبيهه بشىء من مخلوقاته .

---

(١) كذا فى جميع الأصول .

والخامس : بيان أنّ الجاحد لإثباته مكابر بلسانه ، وعارف به بقلبه .

ونحن نذكر القول فى جميع ذلك على سبيل اقتصاص المذاهب والأقوال ، ونحيل فى البرهان على الحقّ من ذلك وبطلان شبَه المخالفين فيه ، على ماهو مذكور فى كتبنا الكلامية ، إذ ليس هذا الكتاب موضوعا لذلك ، وإنْ كنّا قد لا نخلِى بعض فصوله من إشارة إلى الدليل موجَزة ، وتلويح إلى الشبهة لطيف ؛ فنقول: أمّا

* * *

الفصـــــل الأول

وهو الكلام فى كونه تعالى عالما بالأمور الخفية

فاعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام إنما قال : « بَطَن خفيّات الأمور » وهـذا القدر من الكلام يقتضى كونه تعالى عالما ، يعلَم الأمورَ الخفيّة الباطنة ؛ وهذا منقسم قسمين :

أحدهما : أن يعلم الأمور الخفية الحاضرة .

والثانى : أن يعلم الأمور الخفية المستقبلة .

والكلام من حيث إطلاقه يحتمل الأمرين ، فنحمله عليهما معاً . فقد خالف فى كلّ واحدة من المسألتين قوم ؛ فمِنَ الناس مَنْ نَفَى كونه عالما بالمستقبَلات ، ومِنَ الناس مَنْ نَفَى كونَه عالما بالأمور الحاضرة ؛ سواء كانت خفيّة أو ظاهرة ؛ وهذا يقتضينا[1] أن نشرحَ أقوال العقلاء فى هذه المسائل ، فنقول : إنّ الناس فيها عَلَى أقوال :

القول الأول : قولُ جمهور المتكلّمين ، وهو أنّ البارئَ سبحانه يعلم كلّ معلوم : الماضى والحاضر والمستقبل ؛ ظاهرها وباطنها ، ومحسوسها وغير محسوسها ؛ فهو تعـالى العالم بما كان وما هو حاضر ، وما سيكون ومالم يكنْ ، أن لو كان كيف كان يكون، كقوله

---

(١) ب : « يقتضى » .

تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾[١] ، فهذا علم بأمرٍ مقدّرٍ على تقديرِ وقوعِ أصله الذى قد علم أنه لا يكون .

القول الثانى : قولُ مَن زعم أنه تعالى لا يعلم الأمور المستقبَلة ، وشبّهوه بكونه مدركا ، قالوا : كما أنّه لا يدرك المستقبلات ، فكذلك لا يعلم المستقبَلات . وهو قول هِشام ابن الحكم[٢] .

القول الثالث : قولُ مَنْ زعم أنه لا يعلم الأمور الحاضرة ؛ وهذا القول نقيض القول الثانى ؛ وشبهوه بكونه قادرا ، قالوا : كما أنه لا يقدر على الموجود ، فكذلك لا يعلم الموجود ؛ ونسب ابن الراوندىّ هذا القول إلى معَمر بن عبّاد[٣] ، أحد شيوخنا ، وأصحابُنا يكذّبونه فى ذلك ، ويدفعون الحكاية عنه .

القول الرابع : قول مَنْ زعم أنّه تعالى لا يعلم نفسَه خاصّة ، ويعلم كل ما عدا ذاته ، ونسب ابنُ الراوندىّ هذه المقالةَ إلى مَعْمَر أيضا ، وقال : إنه يقول : إن العالم غير المعلوم ، والشىء لا يكون غير نفسه ؛ وأصحابنا يكذّبون ابن الراوندىّ فى هذه الحكاية ، وينزّهون معمراً عنها .

القول الخامس : قول مَنْ قال إنه تعالى لم يكن فيما لم يزَلْ عالما بشىء أصلا ؛ وإنما أحدث لنفسه علما عَلِم به الأشياء ، وهو قول جَهْم بن صفوان[٤] .

القول السادس : قول مَنْ قال إنه تعالى لا يعلم كلّ المعلومات على تفاصيلها ؛ وإنما يعلم ذلك إجمالا وهؤلاء يسمون المسترسِليّة ؛ لأنهم يقولون : يسترسِل علمه على المعلومات

---

(١) سورة الأنعام ٢٨

(٢) هو هشام بن الحكم ؛ من متكلمى الشيعة ، وصاحب المقالة فى التشبيه ؛ وإليه تنسب الهشامية ؛ إحدى الفرق الغالية ؛ ذكره الشهرستانى وبسط آراءه فى الملل والنحل ١ : ١٦٤ – ١٦٦

(٣) معمر بن عباد السلمى القدرى ؛ وانظر آراءه فى الملل والنحل للشهرستانى ١ : ٦٥ – ٦٧

(٤) جهم بن صفوان ؛ وإليه تنسب الفرقة الجهمية ؛ من الجبرية ؛ ظهرت بدعته بترمذ ، وقتله سالم بن أحوز المازنى بمرو ؛ فى آخر ملك بنى أمية ، الشهرستانى ١ : ٧٩ – ٨١ .

إجمالا لا تفصيلا ، وهو مذهب الجُوَينِيّ(١) من متكلّمى الأشعريّة .

القول السابع : قول مَنْ قال إنه تعالى يعلم المعلومات المفصلة ما لم يُفضِ القولُ به إلى محال ؛ وزعموا أن القول بأنّه يعلَم كلّ شىء يُفضى إلى محال ؛ وهو أنْ يعلم ويعلم أنه يعلم، وهلمّ جرا إلى مالانهاية له ؛ وكذلك المحال لازم إذا قيل إنه يعلم الفروع ، وفروع الفروع ولوازمها ولوازم لوازمها إلى ما لا نهاية له . قالوا : ومحـال اجتماع كلٍّ هذه العلوم غير المتناهية فى الوجود ، وهذا مذهب أبى البركات البغدادىّ صاحب المعتبر(٢) .

القول الثـامن : قولُ مَنْ زعم أنه تعالى لا يعلم الشخصيّات الجزئية ؛ وإنمـا يعلم الـكلّيات التى لا يجوز عليها التغيير ؛ كالعلم بأنّ كل إنسان حيوان ؛ ويعلم نفسه أيضاً ؛ وهذا مذهب أرسطو وناصرى قوله من الفلاسفة كابن سينا وغيره .

القول التاسع : قول مَنْ زعم أنه تعالى لا يعلم شيئا أصلا ؛ لا كليا ولا جزئيا ؛ وإنما وجد العالم عنه لخصوصيّة ذاته فقطْ من غير أن يعلمه ؛ كما أنّ المغناطيس يجذب الحديد لقوّة فيه من غير أن يعلم بالجذب ؛ وهذا قول قوم من قدماء الفلاسفة .

فهذا تفصيل المذاهب فى هذه المسألة .

واعلم أن حجّة المتـكلمين على كونه عالما بكل شىء ؛ إنما تتّضح بعد إثبات حدوث العالم ،وأنه فعله بالاختيار ؛ فحينئذ لابدّ من كونه عالما ؛ لأنه لولم يكن عالما بشىء أصلا لما صحّ أن يحدث العالم على طريق الاختيار ؛ لأنّ الإحداث على طريق الاختيار ؛ إنمايكون بالغرض والداعى ، وذلك يقتضى كونه عالما ، فإذا ثبت أنّه عالم بشىء أفسدوا حينئذ أن يـكونَ عالما بمعنى اقتضى له العالمية ، أو بأمر خارج عن ذاته ؛ مختارا كان أو غير مختار ؛

(١) هو الإمام أبو المعـالى عبـد الملك بن يوسف الجوينى ، إمام الحرمين ، المتوفى سنـة ٤٧٨ . (ابن خلـكان) .

(٢) كتاب المعتبر فى الحـكمة ، طبع فى حيدر آباد ؛ لأبى البركات على بن ملـكا البغدادى، توفى سنة ٥٦٠ وانظر أخبار العلماء للقفطى ٣٤٣ .

فحينئذ ثبت(١) لم أنه إنما علم لأنه هذه الذات المخصوصة لا لشيء أزيد منها؛ فإذا كان لم ذلك وَجَب أن يكون عالما بكل معلوم ؛ لأنّ الأمر الذى أوجب كونَه عالما بأمر ما ؛ هو ذاته يوجب كونه عالما بغيره من الأمور ؛ لأنّ نسبة ذاته إلى الـكلّ نسبة واحدة .

فأمّا الجواب عن شُبه المخالفين فمذكور فى المواضع المختصّة بذلك ، فليطلب من كتبنا الـكلامية .

***

الفصل الثانى

فى تفسير قوله عليه السلام : « ودَلّت عليه أعلام الظهور »

فنقول : إنّ الذى يستدلّ به على إثبات الصانع يمكن أن يكون من وجهين ؛ وكلاهما يصدق عليه أنه أعلام الظهور ؛ أحدهما الوجود والثانى الموجود .

أما الاستدلال عليه بالوجود نفسه فهى طريقة المدقّقين من الفلاسفة ، فإنهم استدلّوا على أنّ مسمّى الوجود مشترك ، وأنه زائد على ماهيّات الممكنات ، وأنّ وجودَ البارئ لا يصحّ أن يكون زائدا على ماهيّته ، فتكون ماهيّته وجودا ؛ ولا يجوز أن تكون ماهيته عارية عن الوجود ؛ فلم يبقَ إلّا أن تكون ماهيته هى الوجود نفسه ، وأثبتوا وجوبَ ذلك الوجود ، واستحالةَ تطرّق العدم إليه بوجه ما ، فلم يفتقروا فى إثبات البارئ إلى تأمّل أمرٍ غير نفس الوجود .

وأمّا الاستدلالُ عليه بالموجود لا بالوجود نفسه ؛ فهو الاستدلال عليه بأفعاله ، وهى طريقة المتكلمين . قالوا : كلّ ما لم يُعلَم بالبديهة ولا بالحسّ ؛ فإنما يُعلم بآثاره الصادرة عنه ؛ والبارئ تعالى كذلك ؛ فالطريق إليه ليس إلا أفعاله ، فاستدلّوا عليه بالعالَم ، وقالوا تارة : العالم محدَث وكلّ محدَث له محدِث. وقالوا تارة أخرى : العالَم ممكن ، فله مؤثّر .

(١) ج : « يثبت » .

وقال ابن سينا : إنّ الطريقة الأولى وهى الاستدلال عليه بالوجود نفسه أعْلَى وأشرف ، لأنه لم يحتج فيها إلى الاحتجاج بأمر خارج عن ذاته ، واستنبط آيةً من الكتاب العزيز فى هذا المعنى ؛ وهى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١) .

قال ابن سينا : أقول : إنّ هذا حُكْم لقوم ـ يعنى المتكلمين وغيرهم ؛ ممن يستدل عليه تعالى بأفعاله ؛ وتمام الآية : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

قال : هذا حكمُ الصِّدِّيقين الذين يستشهدون به لا عليه ؛ يعنى الذين استدلوا عليه بنفس الوجود ، ولم يفتقروا إلى التعلق بأفعاله فى إثباتِ ربوبيته .

* * *

الفصل الثالث

فى أن هويّته تعالى غير هوية البشر

وذلك معنى قوله عليه السلام : « وامتنعَ عَلَى عَيْن البصير » ، وقوله : « ولا قلبُ من أثبته يبصره » ، وقوله : « ولم يُطْلع العقولَ على تحديد صفته » ؛ فنقول : إنّ جمهورَ المتكلمين زعموا أنا نعرف حقيقة ذات الإله، ولم يتحاشوا من القول بأنّه تعالى لا يعلم من ذاته إلا مانعلمه نحن منها .

وذهب ضِرار(٢) بن عمرو : أنّ لِله تعالى ماهيةً لا يعلمها إلا هو ؛ وهذا هو مذهب

---

(١) سورة فصلت ٥٣

(٢) هو ضرار بن عمرو ، صاحب مذهب الضرارية من فرق الجبرية ؛ كان فى بدء أمره تلميذاً لواصل ابن عطاء المعتزلى ؛ ثم خالفه فى خلق الأعمال وإنكار عذاب القبر . الفرق بين الفرق ٢٠١

الفلاسفة . وقد حُكِيَ عن أبى حنيفة وأصحابه أيضا ؛ وهو الظاهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الفصل .

* * *

الفصل الرابع

فى نفى التشبيه عنه تعالى

وهو معنى قوله عليه السلام : « بَعُد وقرُب » ، أى فى حال واحدة ، وذلك يقتضى نفىَ كونه تعالى جسما ؟ وكذلك قوله عليه السلام : « فلا استعلاؤه باعدَه ، ولا قرُبه ساواهم فى المكان به » ، فنقول : إنّ مذهبَ جُمهور المتكلمين نفىُ التشبيه ، وهذا القول يتنوّع أنواعا :

النوع الأول : نفى كونه تعالى جسما مركبا ، أو جوهرا فردا غير مركب ، والمراد بالجوهر هاهنا الجِرم والحجم . وهو قول المعتزلة، وأكثر محققى المتكلّمين من سائر الفرق، وإليه ذهبت الفلاسفة أيضاً .

وقال قوم منْ مستضعفى المتكلّمين خلافَ ذلك ، فذهب هشام بن الحكم إلى أنه تعالى جسم مركب كهذه الأجسام ، واختلفت الحكاية عنه ، فروى عنه أنه قال : إنه يشبُر نفسَه سبعة أشبار . وروى عنه أنه قال : إنه على هيئة السّبيكة . وروى عنه أنه قال: إنّه على هيئة البِلّورة الصافية المستوية الاستدارة من حيث أتيتَها رأيتَها على هيئة واحدة ، وروى عنه أيضاً قال : إنه ذو صورة . وأصحابُه من الشيعة يدفعون اليومَ هذه الحكايات عنه ، ويزعمون أنه لم يزِدْ على قوله : إنه جسم لا كالأجسام ، وإنه إنما أراد بإطلاق هذا اللفظ عليه إثباته .

وصدّقوا عنه أنه كان يطلق عليه كونَه نورا ، لقول الله سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ ﴾[1] .

وحكىَ عن محمد بن النعمان الأحول، المعروف بشيطان الطاق ، وهشام بن سالم المعروف بالجواليقىّ ، وأبى مالك بن الحضرمىّ ، أنه نورٌ على صورة الإنسان ، وأنكروا مع ذلك أنْ يكون جسماً ؛ وهذه مناقضة ظاهرة .

وحُكِىَ عن على بن ميثم مثله . وقد حكى عنه أنه كان يقول بالصورة والجسم .

وحكى عن مقاتل بن سليمان ، وداود الجواربىّ ، ونعيم بن حمّاد المصرى ، أنه فى صورة الإنسان ، وأنه لحم ودم، وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ولسان ورأس وعينين؛ وهو مع ذلك لا يشبه غيره ، ولا يشبهه غيره ، وافقهم على ذلك جماعة من العامّة ومَنْ لا نظر له .

وحُكِىَ عن داود الجواربىّ أنه قال : اعفونى من الفرْج واللّحية وسلُونى عمّا وراء ذلك . وحكى عنه أنه قال : هو أجوف من فيه إلى صدره ، وما سوى ذلك مصمت .

وحكى أبو عيسى الوراق أنّ هشام بن سالم الجواليقىّ كان يقول : إن له وفرة سوداء.

وذهب جماعة من هؤلاء إلى القول بالمؤانسة والخلْوة والمجالسة والمحادثة .

وسئل بعضهم عن معنى قوله تعالى : ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[2] ، فقال: يُقْعَد معه عَلَى سريره ويغلفه بيده .

وقال بعضهم : سألت مُعاذاً العنبرىّ ، فقلت : أله وجه ؟ فقال : نعم ؛ حتى عددت

(١) سورة النور ٣٥
(٢) سورة القمر ٥٥

جميع الأعضاء من أنف وفم وصدر وبطن ؛ واستحييت أن أذكر الفرج ؛ فأومأت بيدى إلى فرجى ، فقال : نعم ، فقلت أذكر أم أنثى ؟ فقال : ذكر .

ويقال : إنّ ابنَ خزيمة أشكل عليه القولُ فى أنه : أذكر أم أنثى ، فقال له بعض أصحابه : إنّ هذا مذكورٌ فى القرآن ؛ وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾[1] ، فقال : أفدتَ وأجدت ؛ وأودعه كتابه .

ودخل إنسان على مُعاذ بن معاذ يوم عِيد ، وبين يديه لحم فى طَبِيخ سِكْباج ، فسأله عن البارئ تعالى فى جملة ماسأله ، فقال : هو والله مثلُ هذا الذى بين يدىّ ، لحم ودم .

وشهد بعضُ المعتزلة عند معاذ بن معاذ ، فقال له : لقد هممتُ أنْ أسقطك ؛ لولا أنى سمعتُك تلعن حمّاد بن سلمة ، فقال : أمّا حماد فلم ألعنه ، ولكنى ألعن من يقول : إنه سبحانه ينزل ليلةَ عرفة من السماء إلى الأرض على جمل أحمر فى هَوْدج من ذهب ؛ فإن كان حمّاد يروى هذا أو يقوله فعليه لعنة الله . فقال : أخرجوه ، فأخرج .

وقال بعضهم : خرجْنا يوم عيد إلى المصلّى ، فإذا جماعة بين يدى أمير[2] ، والطبول تضرب والأعلام تخفق فقال واحد مِنْ خلفنا : اللهم لا طَبْلَ إلا طبلُك ! فقيل له : لا تقل هكذا ، فليس لله تعالى طبل ، فبكى ، وقال : أرأيتم هو يجىء وحده ولا يُضرب بين يديه طَبْل ، ولا ينصَب على رأسه عَلَم ، فإذَنْ هو دون الأمير !

وروى بعضهم أنّه تعالى أجْرَى خيلا ، فخلق نفسه من مثلها .

وروى قوم منهم أنه نظر فى المرآة فرأى صورةَ نفسه ، فخلق آدم عليها .

ورووا أنه يضحك حتى تبدو نواجذُه .

---

(١) سورة آل عمران ٣٦

(٢) ب « أمير المؤمنين » ، والأجود ماأثبته عن ا ، ج .

ورووا أنّه أمرد جَعْد قَطَطٌ[1] ، فى رجليه نعلان من ذَهب ، وأنّه فى روضة خضراء عَلَى كرسىّ تحمله الملائـكة .

ورووا أنه يضع رجلاً على رِجْل ، ويستلقى فإنّها جِلسة الربّ .

ورَوَوْا أنه خَلَق المـلائـكةَ مِنْ زَغَبِ ذراعيـه ، وأنه اشتـكى عينَـه فعـادته الملائـكة ، وأنه يُتصوّر بصورة آدم ، ويحـاسِب الناس فى القيامة ؛ وله حُجّاب من الملائـكة يحجُبونه .

ورووا عن النبى صلى الله عليه وسلّم أنه قال : « رأيت ربّى فى أحسنِ صورة ،فسألته عمّا يختلف فيـه المـلأُ الأعلى ، فوضـع يدَه بين كتِفىّ ، فوجـدت بَرْدَها ، فعلمت ما اختلفوا فيه » .

ورووا أنّه ينزل إلى السماء الدنيا فى نصف شعبان ؛ وأنه جالس على العرش قد فضل منه أربع أصابع من كل جانب . وأنه يأتى النـاسَ يوم القيامة ، فيقول : أنا ربُّـكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ؛ فيقول لهم : أفتعرفونه إن رأيتموه؟ فيقولون: بيننا وبينه علامة؛ فيكشف لهم عن ساقه ، وقد تحوّل فى الصورة التى يعرفونها ، فيخرّون له سجدا .

ورووا أنه يأتى فى غَمام ، فوقه هواء ، وتحته هواء .

وكان بِطَبَرِسْتان قاصّ من المشبّهة ، يقصّ على الناس ، فقال يوما فى قَصَصه : إنّ يوم القيـامة تجىء فاطمة بنت محمد ، معها قميص الحسين ابنهـا تلتمس القِصاص من يزيدَ ابن معاوية ، فإذا رآها الله تعالى مِنْ بعيد ، دعا يزيد وهو بين يديه،فقال له : ادخل تحت قوائم العرش ؛ لا تظفرْ بك فاطمة ، فيدخل[2] ويختبىء ، وتحضر فاطمة ، فتتظلّم وتبكى، فيقول سبحانه : انظرى يافاطمة إلى قدمى ، ويخرجها إليها ، وبه جُرْح من سهم نمرود ،

---

(١) قطط : قصير .

(٢) ب : « فيدخل يزيد » ، وماأثبته عن ا ، ج

فيقول : هذا جرح نمرود فى قدمى، وقد عفوت عنه ، أفلا تعفين أنت عن يزيد افتقول. هى : اشهد يارب أنى قد عفوت عنه .

وذهب بعضُ متكلّمى الجسّمة إلى أنّ البارىْ تعالى مركّب من أعضاء على حروف المعجم .

وقال بعضهم : إنه ينزل على حمار فى صورة غلام أمرد ، فى رجليه نعلان من ذهب، وعلى وجهه فراش من ذهب يتطاير .

وقال بعضهم : إنه فى صورة غلام أمْرَد صبيح الوجه ، عليه كساء أسود ، ملتحف به.

وسمعت أنا فى عصرى هذا مَنْ قال فى قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ﴾ (١) : إنّهم قيام على رأسه بسيوفهم وأسلحتهم ، فقال له آخر على سبيل التهكّم به : يحرسونه من المعتزلة أن يفتكوا به ! فغضب وقال : هذا إلحاد .

ورووا أنّ النار تزفر وتتغيّظ تغيظا شديدا ، فلا تسكن حتى يضع قدمَه فيها، فتقول: قَطْ قَطْ ، أى حسبى حسبى . ويرفعون هذا الخبر مسندا . وقد ذكر شبيه به فى الصّحاح.

وروى فى الكتب الصّحاح أيضا : « أنّ الله خَلَق آدم على صورته »؛ وقيل : إن فى التوراة نحو ذلك فى السِّفر الأول .

واعلم أنّ أهل التوحيد يتأولون مايحتمِل التأويل من هذه الروايات على وجوه محتملة غير مستبعدَة ، وما لا يحتمل التأويل منها يقطعُون ببطلانه ؛ وبأنه موضوع ؛ وللاستقصاء فى هذا المعنى موضعٌ غير هذا الموضع .

وحكى أبو إسحاق النظّام ومحمد بن عيسى برغوث أنّ قوماً قالوا : إنّه تعالى الفضاء نفسُه ، وليس بجسم ؛ لأنّ الجسم يحتاج إلى مكان ونفسه مكان الأشياء .

---

(١) سورة الزمر ٧٥

وقال بُرْغوث : وطائفة منهم يقولون : هو الفضاء نفسُه ، وهو جسم تحلّ الأشياء فيه ؛ وليس بذى غاية ولا نهـاية ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَجَاهِـدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ (١) .

فأما مَنْ قال : إنّه جسم لا كالأجسام ؛ على معنى أنّه بخلاف العَرَض الذى يستحيل أن يُتوهّم منه فعل ، ونفوْا عنه معنى الجِسْميّة ، وإنما أطلقوا هذه اللفظة لمعنى أنّه شىء لا كالأشياء ، وذات لا كالذوات ؛ فأمْرُهم سهل ؛ لأنّ خلافهم فى العبارة ، وهم : علىّ ابن منصور ، والسكاك ، ويونس بن عبد الرحمن ، والفضل بن شاذان ، وكلّ هؤلاء من قُدَماء رجال الشيعة . وقد قال بهذا القول ابن كرّام وأصحابه ؛ قالوا : معنى قولنا فيـه سبحانه إنه جسم ، أنّه قائم بذاته لا بغيره .

والمتعصّبون لهشام بن الحـكم من الشّيعة فى وقتنا هذا يزعمون أنه لم يقل بالتّجسيم المعنوىّ ؛ وإنما قال إنه جسم لا كالأجسام ، بالمعنى الذى ذكرناه عن يونس والسكاك وغيرهما ، وإن كان الحسن بن موسى النُّوبَخْتِىّ ـ وهو من فضلاء الشيعة ـ قد رُوى عنه التجسيم المَحْض فى كتاب "الآراء والديانات" .

* * *

النوع الثانى : نفىُ الأعضاء والجوارح عنه سبحانه ؛ فالذى يذهب إليه المعتزلة وسائر المحقّقين من المتكلّمين نفىُ ذلك عنه ، وقد تأوّلوا ماورد فى القرآن العزيز من ذلك ، من نحو قوله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ (٢) ، وقوله سبحانه : ﴿ عَلَىٰ مَافَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ (٣) وغير ذلك ، وحملوه على وجوه صحيحة جائزة فى اللغة العربية .

وأطلقت الكرّامية عليه سبحانه لفظ « اليدين والوجه » ، وقالوا : لا نتجاوز الإطلاق ،

---

(١) سورة الحج ٧٨

(٢) سورة ص ٧٥ .

(٣) سورة الزمر ٤٦

ولا نفسر ذلك ولا نتأوله ؛ وإنما نقتصر على إطلاق ماورد به النصّ .

وأثبت الأشعريّ اليدين صفة قائمة بالبارئ سبحانه ؛ وكذلك الوجه من غير تجسيم.

وقالت المجسّمة : إنّ لله تعالى يدين ؛ هما عضوان له ، وكذلك الوجه والعين، وأثبتوا له رِجْلين قد فضَلتا عن عرشه، وساقَين يكشف عنهما يوم القيامة ، وقَدَماً يضعُها فى جهنم فتمتلئ ؛ وأثبتوا له ذلك معنى لا لفظا ، وحقيقة لا مجازا .

فأما أحمد بن حنبل فلم يثبت عنه تشبيه ولا تجسيم أصلاً ، وإنما كان يقول بترك التأويل فقط ، ويطلق ما أطلقه الكتاب والسنّة ، ولا يخوض فى تأويله ؛ ويقف على قوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [1] ، وأكثر المحصّلين من أصحابه على هذا القول .

***

النوع الثالث : نفى الجهة عنه سبحانه ؛ فالذى يذهب إليه المعتزلة وجمهورُ المحقّقين من المتكلّمين أنه سبحانه ليس فى جهةٍ ولا مكان؛ وأنّ ذلك من توابع الجسْمية أو العرضية اللّاحقة بالجسمية، فإذا انتفى عنه كونُه جسما وكونه عَرَضا لم يكن فى جهة أصلا؛ وإلى هذا القول يذهب الفلاسفة .

وذهبت الكَرّامية والحَشَوِيّة [2] إلى أنّ الله تعالى فى جهة فَوْق ، وإليه ذهب هشام ابن الحكم ، وعلىّ بن منصور ، ويونس بن عبد الرحمن ، وهشام بن سالم الجَواليقىّ ، وكثير من أهل الحديث .

وذهب محمد بن الهيصَم ، متكلّم الكَرّامية إلى أنه تعالى ذاتٌ موجودة منفردة بنفسها عن سائر الموجودات، لا تحلّ شيئا حلول الأعراض، ولا تمازج شيئا ممازجة الأجسام

(١) سورة آل عمران ٧

(٢) الكرامية : أصحاب محمد بن كرام ؛ والحشوية طائفة من المشبهة ؛ سموا بذلك لأنهم لا يتحاشون من إظهار الحشو . راجع شفاء العليل ١٠٥

بل هو مباينٌ للمخلوقين ؛ إلا أنّه فى جهة فَوْق ، وبينه وبين العرش بعـد لا يتناهَى .

هكذا يحكِى المتكلمون عنه،ولم أره فى شىء من تصانيفه.وأحالوا ذلك؛لأنّ مالا يتناهَى لا يكون محصورا بين حاصرين ؛ وأنا أستبعِد عنه هذه الحكاية ؛ لأنّه كان أذ كى مِنْ أن يذهبَ عليه فساد هذا القول . وحقيقةُ مذهب مثبِتِى المكان أنّه سبحانه متمكّن على العرش ، كما يتمكن الملِك على سريره ، فقيل لبعض هؤلاء : أهو أ كبرُ من العرش ، أم أصغر ، أم مساوٍ له ؟ فقال : بل أ كبر من العرش ، فقيل له : فكيف يحمله ؟ فقال : كما تَحمِلُ رجلا الكركىّ جسمَ الكركىّ وجسمه أ كبر من رجليه . ومنهم مَنْ يجعلُه مساوياً للعرش فى المقدار ، ولا يمتنع كثير منهم من إطلاق القول بأن أطرافه تفضُلُ عن العرش ؛ وقد سمعت أنا مَنْ قال منهم : إنه مستوٍ على عرشه كما أنا مستوٍ على هذه الدَّكة[1] ورجلاه على الكرسِىّ الذى وسع السموٰات والأرض، والكرسىّ تحت العرش ، كما يجعل اليوم الناس تحت أسرتهم كراسىّ يستريحون بوضع أرجلهم عليها .

وقال هؤلاء كلُّهم : إنه تعالى ينزل ويصعَد حقيقة لا مجازا ، وإنه يتحرك وينزل؛فمن ذلك نزولُه إلى السماء الدنيا ، كما ورد فى الخبر ؛ ومن ذلك إتيانُه ومجيئه ، كما نطَق به الكتاب العزيز فى قوله سبحانه : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[3] .

وأطلق ابن الهيصم عليه هذه الألفاظ اتباعا لما ورد فى الكتاب والسنة،وقال : لا أقول بمعانيها ، ولا أعتقد حركته الحقيقية ؛ وإنما أرسلها إرسالا كما وردت . وأما غيره فاعتقد معانيها حقيقة .

وقال ابن الهيصم فى كتاب " المقالات " : إن أ كثر الحشويّة يُجيز عليه تعالى العدْوَ والهرولة .

(١) الدكة : بناء يسطح أعلاه للجلوس عليه .
(٢) سورة البقرة ٢١٠
(٣) سورة الفجر ٢٢

وقال قوم منهم : إنّه تعالى يجوزُ أن ينزلَ فيطوف البلدان ، ويدور فى السّكك .

وقال بعض الأشعريّين : إنّ سائلاً سأل السّكّاك فقال : إذا أجزْتَ عليه الحركة ، فهلا أجزتَ عليه أن يطفر ! فقال :لا يجوز عليه الطّفْر ، لأن الطّفْر إنما يكون فِرارا من ضدّ ، أو اتصالا بشكل . فقال له : فالحركة أيضاً كذلك ! فلم يأت بفرق .

فأما القول بأنّه تعالى فى كلّ مكان ؛ فإنّ المعتزلةَ يقولون ذلك ، وتريد [1] به أنّه وإن لم يكن فى مكان أصلاً ، فإنه عالم بما فى كلّ مكان ، ومدبّر لما فى كلّ مكان ، وكأنه موجود فى جميع الأمكنة لإحاطته بالجميع .

وقال قوم من قدماء الفلاسفة: إنّ البارئ تعالى روح شديد فى غاية اللطافة ، وفى غاية القوة ، ينفذُ فى كلّ العالم. وهؤلاء يطلقون عليه أنّه فى كلِ مكانٍ حقيقة لا تأويلا ؛ ومِن هؤلاء من أوضحَ هذا القول؛ وقال : إنه تعالى سارٍ فى هذا العالم سرَيان نفسِ الواحد مِنّا فى بدنه ، فكما أنّ كلّ بدن منا له نفس سارية فيه تدبره ، كذلك البارئ سبحانه هو نفس العالم ، وسارٍ فى كل جزء من العالم ؛ فهو إذاً فى كلّ مكان بهذا الاعتبار ، لأنّ النفس فى كلّ جزء من البدن .

وحكى الحسن بن موسى النوبختيّ عن أهلِ الرّواق من الفلاسفة ؛ أنّ الجوهرَ الإلهيّ سبحانَه رُوح ناريّ عقليّ؛ ليس له صورة ، لكنّه قادر على أن يتصوّر بأىّ صورة شاء ، ويتشبّه بالكلّ ، وينفذ فى الكلّ بذاته وقوته ؛ لا بعلمه وتدبيره .

* * *

النوع الرابع : نفى كونه عَرَضاً حالاً فى المحلّ ؛ فالذى تذهب إليه المعتزلة وأكثر المسلمين والفلاسفة نفيُ ذلك القول باستحالته عليه سبحانه لوجوب وجوده ، وكونِ كلّ حالّ فى الأجسام ممكنا بل حادثا .

---

(١) ب : « فإن المعتزلة يقولون ذلك ويريدون .. » .

وذهبت الحلولية من أهل الملّة وغيرها، إلى أنه تعالى يحلّ فى بعض الأجسام دون بعض كما يشاء سبحانه ، وإلى هذا القول ذهب أكثر الغلاة فى أمير المؤمنين . ومنهم من قال بانتقاله من أمير المؤمنين عليه السلام إلى أولاده ، ومنهم من قال بانتقاله من أولاده إلى قوم من شيعته وأوليائه ؛ واتبعهم على هـذه المقـالة قوم من المتصوّفة كالحلاّجية والبِسْطامية وغيرهم .

وذهبت النّسْطُورية [١] من النّصارى إلى حلول الـكلمة فى بدن عيسى عليه السلام؛ كحلول السّواد فى الجسم .

فأما اليعقوبية [٢] من النّصارى ، فلا تثبت الحلول ؛ وإنما تثبت الاتحاد بين الجوهر الإلهىّ والجوهر الجسمانى ؛ وهو أشدّ بُعْداً من الحلول .

* * *

النوع الخامس : فى نفى كونه تعـالى محلاّ لشىء ؛ ذهبت المعتزلة وأكثر أهل الملّة والفلاسفة إلى نفى ذلك ؛ والقول باستحالته على ذاته سبحانه .

وذهبت الـكرّامية إلى أنّ الحوادث تحلّ فى ذاته ، فإذا أحدث جسماً أحدث معنى حالاً فى ذاته؛وهو الإحداث،فحدثَ ذلك الجسم مقارنا لذلك المعنى أو عَقيبه،قالوا : وذلك المعنى هو قول « كن » وهو المسمى خَلْقا،والخلق غير المخلوق؛قال الله تعالى:﴿ مَاأَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾[٣]،قالوا:لـكنّه قد أشهدَنا ذواتها،فدلّ على أنّ خلقها غيرها .

---

(١) النسطورية :أصحاب نسطور الحـكيم ؛ ظهر فى زمن المأمون ، وتصرف فى الأناجيل برأيه. وانظر الملل والنحل للشهرستانى ١ : ٢٠٥ ــ ٢٠٦

(٢) اليعقوبية أصحاب يعقوب ؛ قالوا بالأقانيم الثلاثة ، إلا أنهم قالوا : انقلبت الـكلمة لحما ودماً ؛ فصار الإله هو المسيح . . . . الشهرستانى ١ : ٢٠٦ ــ ٢٠٨

(٣) سورة الـكهف ٥١

وصرح ابن الهيصم فى كتاب "المقالات" بقيام الحوادث بذات البارئ فقال: إنه تعالى إذا أمرَ أو نهى ، أو أراد شيئا كان أمرُه ونهيه وإراداته كائنة بعد أنْ لم تكن؛ وهى قائمة به ، لأنّ قوله منه يسمع ، وكذلك إرادته منه توجد .

قال : وليس قيامُ الحوادث بذاته دليلا على حدوثه ، وإنما يدلّ على الحدوث تعاقبُ الأضداد التى لايصحّ أن يتعطّل منها ، والبارى تعالى لاتَتعاقب عليه الأضداد .

وذهب أبو البركات البغدادىّ صاحب "المعتبر" إلى أن الحوادث تقوم بذات البارئ سبحانه ؛ وأنه لايصحّ إثبات الإلٰهية إلا بذلك . وقال : إنّ المتكلّمين ينزهونه عن ذلك ، والتنزيه عن هذا التنزيه ، هو الواجب .

وذهب أصحابُنا وأكثر المتكلّمين إلى أنّ ذلك لايصحّ فى حق واجب الوجود ، وأنّه دليل على إمكان ذاته ؛ بل على حدوثها. وأجازوا مع ذلك عليه أن يتجدّد له صفات ـ يعنون الأحوال لاالمعانى ـ ؛ نحو كونه مدركا بعد أنْ لم يكن . وكقول أبى الحسين: إنه يتجدّد له عالمية بما وجد ؛ وكان من قبل عالما بأنه سيوجد ؛ وإحدى هاتين الصفتين غير الأخرى .

وقالوا : إن الصفاتِ والأحوال قيلٌ[١] مفرد عن المعانى ،والمحالُ إنما هو حلول المعانى فى ذاته لاتجدّد الصفات لذاته ؛ وللكلام فى هذا الباب موضع هو أليَق به .

* * *

النوع السادس : فى نفى اتحاده تعالى بغيره ؛ ذهب أكثرُ العقلاء إلى استحالة ذلك؛ وذهبت اليعقوبيّة من النصارى إلى أنّ الكلمة اتّحدت بعيسى ، فصارتْ جوهراً من جوهرين : أحدهما إلهىّ ، والآخر جسمانىّ . وقد أجاز الاتحاد فى نفس الأمر لافى ذات

---

(١) قيل ، أى قول .

البارئ قومٌ من قدماء الفلاسفة ، منهم فرفريوس . وأجازه أيضاً منهم من ذهب إلى أنّ النفس إنما تعقل المعقولات ؛ لاتحادها بالجوهر المفارق المفيض للنفوس على الأبدان؛ وهو المسمى بالعقل الفعّال .

* * *

النوع السابع : فى نفيِ الأعراض الجسمانيّة عنه من التّعب والاستراحة، والألم واللّذة، والغمّ والسرور ؛ ونحو ذلك .

وذهبت المعتزلةُ وأكثر العُقلاء من أهلِ الملّة وغيرهم إلى نفيِ ذلك؛ والقول باستحالته عليه سبحانه .

وذهبت الفلاسفة إلى جواز اللّذة عليه ؛ وقالوا : إنّه يلتذ بإدراك ذاته وكماله؛ لأنّ إدراك الكمال هو اللّذة أو سبب اللذة ؛ وهو تعالى أكمل الموجودات ، وإدراكه أكمل الإدراكات ؛ وإلى هذا القول ذهب محمد الغزالىّ[1] من الأشعرية .

وحكى ابن الرّاوندىّ عن الجاحظ أنّ أحد قدماء المعتزلة ـ ويعرف بأبى شعيب ـ كان يجوّز عليه تعالى السرور والغمّ ، والغَيْرة والأسف ؛ ويذكر فى ذلك ما روى عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال : « لا أحد أغيرُ من الله ، وأنه تعالى يفرح بتوبة عبده ويسرّ بها » . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾[2] ، وقال مقال التحسّر[3] على الشىء: ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾[4] ، وحُكِى عنه أيضا أنه يُجَوِّز عليه أن يتعب ويستريح ؛ ويحتجّ بقوله : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾[5] .

---

(١) هو الإمام محمد بن محمد أبو حامد الغزالى صاحب الإحياء .
(٢) سورة الزخرف ٥٥
(٣) كذا فى ا ، ج ، وفى ب ، ا « حكاية عن التحسر » .
(٤) سورة يس ٣٠
(٥) سورة ق ٣٨

وهـذه الألفاظ كلّها عند أصحابنا متأوّلة محمولة على محامل صحيحة ؛ تشتمل على شرحها الـكتب المبسوطة .

* * *

النوع الثامن : فى أنّه تعالى ليس بمتلوّن . لم يصرح أحد من العقلاء قاطبة بأن الله تعالى متلوّن ؛ وإنما ذهب قوم من أهل التشبيه والتّجسيم إلى أنّه نور ؛ فإذا أبصرته العيون وأدركته أبصرت شخصا نُورانيًّا مضيئا ؛ لم يزيدوا على ذلك ، ولم يصرّحوا بإثبات اللون بهذه العبارة ؛ وإن كان كلّ مضىء ملوّنا .

* * *

النوع التاسع : فى أنه تعالى لا يشتهِى ولا ينفِر ؛ ذهب شيوخنا المتكلّمون إلى أنّه سبحانه لا يصحّ عليـه الشهوة والنُّفرة ؛ لأنهما إنما يصحّان على مايقبل الزيادة والنقصان بطريق الاغتذاء والنموّ ، والبارئُ سبحانه وتعالى يتعالَى عن ذلك ؛ وماعرفتُ لأحدٍ من الناس خلافا فى ذلك ؛ اللهم إلا أنْ يطلق هاتان اللفظتان على مسمّى الإرادة والـكراهيَة ؛ على سبيل المجاز .

* * *

النوع العاشر : فى أنّ البارئَ تعالى غير متناهى الذات قالت المعتزلة : لما كان البارئُ تعالى ليس بجسم ولا جسمانىّ ، وكانت النهاية من لواحق الأشياء ذوات المقادِير ؛ يقال : هذا الجسم متناهٍ ، أى ذو طَرَفٍ .

قلنا : إن ذاتَ البارئ تعالى غيرُ متناهية ؛ لا على معنى أنّ امتداد ذاته غير متناهٍ ؛ فإنه سبحانه ليس بذى امتدادٍ ، بل بمعنى أن الموضوع الذى يصدُق عليه النّهاية ليس بمتحقّق فى حقه سبحانه ؛ فقلنا : إن ذاتَه غير متناهية ؛ كما يقول المهندس : إنّ النقطة غير متناهية ؛ لا على معنى أنّ لها امتدادا غير متناهٍ ، فإنها ليست بممتدّة أصلا ؛ بل على معنى أنّ الأمر

الذى تصدُق عليه النهاية ـ وهو الامتداد ـ لا يصدق عليها ؛ فإذن صدق عليها أنها غيرُ متناهية . وهذا قولُ الفلاسفة وأكثر المحققين .

وقالت الكرّامية : البارئُ تعالى ذاتٌ واحدة منفردة عن العالَم قائمة بنفسها ، مباينة للموجودات ، متناهية فى ذاتها ؛ وإن كنا لا نطلق عليها هذا اللفظ لما فيه من إيهام انقطاع وجودها ، وتصرّم بقائها .

وأطلق هِشام بن الحكم وأصحابُه عليه تعالى القولَ بأنه متناهى الذات ؛ غير متناهى القدرة .

وقال الجاحظ : إن لى قوماً زعموا أنه تعالى ذاهبٌ فى الجهات الستّ ، التى لا نهايةَ لها .

* * *

النوع الحادى عشر : فى أنه تعالى لا تصحّ رؤيته . قالت المعتزلة : رؤية البارئ تعالى مستحيلة فى الدنيا والآخرة ؛ وإنما يصحّ أن يُرَى المقابل ذو الجهة .

وقالت الكرّامية والحنابلة والأشعريّة : تصح رؤيتُه ويُرى فى الآخرة ؛ يراه المؤمنون ؛ ثم اختلفوا ، فقالت الكرّامية والحنابلة : يُرى فى جهة فوق ، وحكى عن مضر وكهمس وأحمد الجبي[1] أنهم أجازوا رؤيتَه فى الدّنيا ، وملامسته ومصافحته ؛ وزعموا أنّ المخلصين يعانقونه متى شاءوا ، ويسمّون الحبّية .

وحكى شيخنا أبو الحسين فى " التصفّح " عن أيوب السجستانىّ من المرجئة ، أن البارئ تعالى تصحّ رؤيته ولمسه .

وذهب قوم إلى أنهم لا يزالون يرون الله تعالى ، وأن الناس كلّهم كافرهم ومؤمنهم يرونه ؛ ولكن لا يعرفونه .

---

(١) كذا فى ا ، وفى الحاشية نقلا عن القاموس : أحمد بن عبد الله الجبى ، ويقال : الجبابى ، لبيعه الجباب ، محدث ، وفى ب : « الجمى » .

وقال مَنْ ترفّع عن هذه الطبقة منهم : لا يجوز أن يُرى بعين خلقت للفناء ؛ وإنما يرى فى الآخرة بعين خلقت للبقاء .

وقال كثير من هؤلاء : إن محمدا صلى الله عليه وآله رأى ربّه بعينىْ رأسه ليلة المعراج .

وروَوْا عن كعب الأحبار أنّ الله تعالى قسّم كلامه ورؤيتَه بين موسى ومحمد عليه السلام .

وروَوْا عن المبارك بن فضالة أنّ الحسن كان يحلف بالله : قد رأى محمدٌ ربه .

وتعلق كثير منهم بقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى(1)﴾ ، وقالوا : كلّمه موسى عليه السلام مرتين ، ورآه محمد صلى الله عليه وآله مرتين .

وأنكر ابن الهيصم مع اعتقاده أقوالَ الكرّامية ذلك ، وقال : إنّ محمدا صلى الله عليه وآله لم يَرَهُ ، ولكنه سوف يراه فى الآخرة .

قال : وإلى هذا القول ذهبتْ عائشة وأبو ذرّ وقتادة ؛ وقد روى مثله عن ابن عباس وابن مسعود .

واختلف من قال : إنه يُرى فى الآخرة ؛ هل يجوز أن يراه الكافر ؟ فقال أكثرهم : إنّ الكفارَ لا يروْنه ؛ لأنّ رؤيتة كرامة ، والكافر لا كرامةَ له . وقالت السالمية وبعض الحشَوّية : إنّ الكفار يروْنه يوم القيامة ؛ وهو قول محمد بن إسحاق بن خزيمة ؛ ذكر ذلك عنه محمد بن الهيصم .

فأما الأشعرىّ وأصحابه ؛ فإنهم لم يقولوا كما قال هؤلاء : إنه يُرى كما يُرى الواحد منّا ، بل قالوا : يُرى ؛ وليس فوقًا ولا تحتا ولا يمينا ولا شمالا ولا أماما ولا وراء ؛ ولا يرى كلّه ولا بعضه ؛ ولا هو فى مقابلة الرائى ولا منحرفًا عنه ؛ ولا تصحّ الإشارة إليه إذا رُئِىَ ،

---

(١) سورة النجم ١٣

وهو[1] مع ذلك يرى ويبصر . وأجازوا أيضا عليه أن تُسمع ذاته ، وأن تشمّ وتذاق وتحسّ، لا على طريق الاتصال ، بل تتعلق هذه الإدراكات كلّها بذاته تعلقًا عاريًا عن الاتصال .

وأنكرت الكرّامية ذلك ولم يُجيزوا عليه إلا إدراك البصر وحدَه ، وناقضهم شيخنا أبو الحسين في " التصفّح " وألزمهم أحد أمرين : إما نفي الجميع أو إثبات إدراكه من جميع الجهات ، كما يقوله الأشعرية .

وذهب ضرار بن عمرو ، إلى أنّ الله تعالى يُرى يوم القيامة بحاسّة سادسة لا بهذا البصر. وقيل ذلك عن جماعة غيره .

وقال قوم : يجوز أن يحوّل اللهُ تعالى قُوّة القلب إلى العين ، فيُعلم الله تعالى بها ، فيكون ذلك الإدراك علما باعتبار أنه بقوّة القلب ، ورؤية باعتبار أنّه قد وقع بالمعنى الحالّ في العيْن .

فهذه الأنواع الأحد عشر هي الأقوال والمذاهب التي يشتمل قوله عليه السلام بنفي التشبيه عليها ؛ وسيأتي من كلامه عليه السلام في نفي التشبيه ماهو أشدّ تصريحًا من الألفاظ التي نحن في شرحها .

الفصل الخامس

في بيان أن الجاحد له مكابر بلسانه ومثبت له بقلبه

وهو معنى قوله عليه السلام : « فهو الذى تَشهد له أعلام الوجود ، على إقرار قلب ذى الجحود » .

لا شبهة في أنّ العلم بافتقار المتغيّر إلى المغيّر ضروريّ ؛ والعلم بأنّ المتغير ليس هو المغيّر

(١) ب : « ومع ذلك » .

إما أن يكون ضروريا أو قريبا من الضرورىّ ، فإذاً قد شهدت أعلام الوجود على أنّ الجاحد لإثبات الصانع ؛ إنما هو جاحد بلسانه لا بقلبه ؛ لأنّ العقلاء لا يجحدون الأوليات بقلوبهم ، وإن كابروا بألسنتهم ؛ ولم يذهب أحدٌ من العقلاء إلى نفى الصانع سبحانه .

وأمّا القائلون بأنّ العالم وجد عن طبيعة ، وأنّ الطبيعة هى المدبرّة له ، والقائلون بتصادم الأجزاء فى الخَلاء الذى لا نهاية له ؛ حتى حَصَل منها هذا العالم . والقائلون بأن أصل العالم وأساس بنيته هو النّور والظلمة ، والقائلون بأنّ مبادئ العالم هى الأعداد المجرّدة ، والقائلون بالهَيُولَى القديمة ؛ التى منها حَدَث العالم ، والقائلون بعِشْق النفس للهَيُولَى ؛ حتى تكونت منها هذه الأجسام ؛ فكلّ هؤلاء أثبتوا الصانع ، وإنما اختلفوا فى ماهيته وكيفية فعله .

وقال قاضى القضاة: إن أحداً من العقلاء لم يذهب إلى نفى الصانع للعالم بالكلّيّة، ولكن قوما من الورّاقين اجتمعوا ووضعوا بينهم مقالة ؛ لم يذهب أحد إليها ؛ وهى أنّ العالم قديم لم يزل على هيئته هذه، ولا إله للعالم ولا صانع أصلا ؛ وإنما هو هكذا مازال ، ولا يزال من غير صانع ولا مؤثر .

قال : وأخذ ابن الراوندىّ هذه المقالة فنصرّها فى كتابه المعروف بكتاب " التاج " قال : فأما الفلاسفة القدماء والمتأخّرون ، فلم ينفوا الصانع؛ وإنما نفوْا كونَه فاعلا بالاختيار؛ وتلك مسألة أخرى . قال : والقول بنفِي الصانع قريب من القول بالسّفْسطة ؛ بل هو هو بعينه ؛ لأنّ من شَكّ فى المحسوس أعذر ممّن قال : إن المتحركات تتحرك من غير محرك حرّكها .

وقول قاضى القضاة هذا ، هو محضُ كلام أمير المؤمنين عليه السلام وعينُه ، وليس قول الجاحظ هو هذا ، لأنّ الجاحظ يذهب إلى أنّ جميع المعارف والعلوم الإلٰهية ضرورية، ونحن ماادّعينا فى هذا المقام إلا أنّ العلم بإثبات الصانع فقط هو الضرورىّ ، فأين أحدُ القولين من الآخر !

(٥٠)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصلُ :

إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ ، وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللهِ ، وَيَتَوَلَّى عليها رِجَالٌ رِجَالاً ؛ عَلَى غَيْرِ دِينِ اللهِ ، فَلَوْ أَنَّ البَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ ؛ وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ البَاطِلِ ، انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِين ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ ، فَيُمْزَجَانِ ، فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ، وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحُسْنَى .

الشَّرحُ :

المرتاد : الطالب . والضِّغث من الحشيش : القبضة منه ، قال الله تعالى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾[1] .

يقول عليه السلام : إنّ المذاهب الباطلة والآراء الفاسدة التي يفتتن الناس بها ، أصلها اتباع الأهواء ، وابتداع[2] الأحكام التي لم تعرف يخالف فيها الكتاب ، وتحمل العصبيّة والهوى على تولّي أقوام قالوا بها ، على غير وثيقة من الدّين . ومستندُ وقوع هذه الشبهات امتزاجُ الحقّ بالباطل في النّظر الذي هو الطريق إلى استعلام المجهولات ، فلو أنّ النظر تُخلّص مقدماته وترتّب قضاياه من قضايا باطلة ، لكان الواقع عنه هو العلم المحض ، وانقطع عنه ألسن المخالفين ، وكذلك لو كان النظرُ تخلص مقدماته من قضايا صحيحة ، بأن كان كله مبنيًّا

(١) سوررة ص ٤٤

(٢) كذا في ج ، وفي ا ، ب : « اتباع » .

على الفساد ، لظهر فســادُه لطلبة الحقّ ، وإنمــا يقع الاشتباه لامتزاج قضاياه الصادقة بالقضايا الـكاذبة .

مثال ذلك احتجاجُ مَنْ أجاز الرؤية بأنّ البارئَ تعالى ذاتٌ موجودة، وكلّ موجود يصحّ أن يُرَى ، فإحدى المقدمتين حقّ ، والأخرى باطل ، فالتبس أمرُ النتيجة على كثير من الناس .

ومثال مايكون المقدّمتان جميعا باطلتين ، قول قوم من الباطنية : البارئُ لاموجود ولا معدوم ؛ وكلّ مالا يكون موجودا ولا معدوما يصحّ أن يكون حيا قادرا ، فالبارئ تعالى يصحّ أن يكون حيًّا قادرا ؛ فهاتان المقدمتان جميعا باطلتان . لاجَرَم أنّ هذه المقالة مرغوبٌ عنها عند العقلاء !

ومثال ماتــكون مقدّماته حقا كلّها: العالم متغيّر ، وكلّ متغيّر ممكن ؛ فالعالم ممكن، فهذا مما لا خلافَ فيه بين العقلاء .

فإن قيل: فما معنى قوله عليه السلام : « فهنالك يستولى الشيطان على أوليائه ، وينجُو الّذين سبقتْ لهم من الله الحسنى » ، أليسَ هذا إشعاراً بقول المجبِرة وتلويحا به ؟

قيل : لا إشعار فى ذلك بالجبْر ، ومراده عليــه السلام أنه إذا امتزج فى النظر الحقّ بالباطل، وتركبت المقدمات من قضايا صحيحة وفاسدة، تمــكّن الشيطان من الإضلال والإغواء، ووسوس إلى المــكلّف، وخيّل له النتيجة الباطلة ، وأماله إليها ، وزيّــنها عنده، بخلاف ما إذا كانت المقدّمات حقا كلّها ، فإنه لا يقدِر الشيطانُ على أن يخيّل له مايخالف العقل الصّريح ؛ ولا يكون له مجال فى تزيين الباطل عنده ، ألا ترَى أنّ الأوّليات لا سبيل للإنسان إلى جَحْدها وإنكارها ، لا بتخييل الشيطان ولا بغير ذلك !

ومعنى قوله : « على أوليائه » ،أى على مَنْ عنده استعداد للجهل ، وتمرّن على اتباع الهوى ، وزهدفى تحقيق الأمور العقليةعلى وجهها ،تقليداً للأسلاف ،ومحبّةً لاتباع المذهب المألوف ، فذاك هو الذى يستولى عليه الشيطان ويضلّه ، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وهم الذين يتّبعون محض العقل ، ولا يركنون إلى التقليد ، ويسلُكون مسلك التحقيق ، وينظرون النظر الدقيق[1] ، يجتهدون فى البحث عن مقدّمات أنظارهم ، وليس فى هذا الكلام تصريح بالجَبْر ، ولا إشعار به على وجه من الوجوه ، وهذا واضح .

وحَمَل الراوندىّ قوله عليه السلام :« فلو أنّ الباطل خَلَص... » إلى آخره ، على أنّ المراد به نفى القياس فى الشرع ، قال :لأنّ القائسين يحملون المسكوت عنه على المنطوق ، فيمتزج المجهول بالمعلوم ، فيلتبس ويُظَنّ لا متزاج بعضه ببعض حَقًّا ، وهذا غير مستقيم ، لأن لفظ الخطبة أنّ الحق يمتزج بالباطل ، وأصحاب القياس لا يسلمون أنّ استخراج العلّة من الحكم المعلوم باطل ، بل يقولون إنه حقّ ، وإن الدليلَ الدالّ على ورود العبارة بالقياس ، قد أمّنهم من كونه باطلا .

***

واعلم أنّ هذا الكلامَ الذى قاله عليه السلام حقّ إذا تأملته ، وإن لم تفسره على ماقدمناه من التفسير ، فإنّ الذين ضلّوا من مقلّدة اليهود والنصارى وأرباب المقالات الفاسدة من أهل الملّة الإسلامية وغيرها ، إنما ضلَّ أكثرهم بتقليد الأسلاف ، ومَن يحسنُ الظنّ فيه من الرؤساء وأرباب المذاهب ، وإنما قلّدهم الأتباع ، لما شاهدوا من إصلاح ظواهرهم ، ورفضهم الدنيا وزهدهم فيها ، وإقبالهم على العبادة ، وتمسّكهم بالدِّين ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وشدّتهم فى ذات الله ، وجهادهم فى سبيله ، وقوّتهم فى

---

(١) ا ، ج : « النظر التام » .

مذاهبهم ، وصلابتهم في عقائدهم ، فاعتقد الأتباع والخلف والقرون التي جاءت بعدهم أنّ هؤلاء يجب اتّباعهم ، وتحرُم مخالفتهم ، وأنّ الحق معهم ، وأنّ مخالِفَهُم مبتدع ضالّ ، فقلدوهم في جميع ما نقل إليهم عنهم ، ووقع الضلال والغلط بذلك ، لأنّ الباطل استتر وانغمر بما مازجه من الحقّ الغالب الظاهر المشاهد عِيانا ، أو الحكم الظاهر ، ولولاه لما تروّج الباطل ، ولا كان له قبول أصلا .

(٥١)

ومن كلام له عليه السلام لما غلب أصحاب معاوية أصحابَه عليه السلام على شريعة الفرات بصِفّين ومنعوهم من الماء :

الأصْلُ :

قَدِ ٱسْتَطْعَمُوكُمُ ٱلْقِتَالَ ، فَأَقِرُّوا عَلَى مَذَلَّةٍ ، وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ ، أَوْ رَوُّوا ٱلسُّيُوفَ مِنَ ٱلدِّمَاءِ تَرْوَوْا مِنَ ٱلْمَاءِ ؛ فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ ، وَٱلْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ .

أَلَا وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ قَادَ لُمَةً مِنَ ٱلْغُوَاةِ ، وَعَمَّسَ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَرَ ، حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاضَ ٱلْمَنِيَّةِ .

* * *

الشَّرْحُ :

استطعموكم القِتال، كلمة مجازية ،ومعناها : طلبوا القتال منكم ؛ كأنه جعل القتال شيئا يُستطعم ، أي يُطلب أكله ، وفي الحديث : « إذا استطعمكم الإمام فأطعموه » ، يعني إمام الصلاة ، أي إذا أُرتِجَ فاستفتحكم فافتحوا عليه . وتقول :فلان يستطعمني الحديث ؛ أي يستدعيه منّي ويطلبه .

واللُّمَة ، بالتخفيف : جماعة قليلة .

وعَمّس عليهم الخبر ؛ يجوز بالتشديد ، ويجوز بالتخفيف ، والتشديد يعطي الكثرة ويفيدها ؛ ومعناه أبهم عليهم الخبر ،وجعله مظلما. ليلٌ عَمَاس ،أي مظلم، وقد عَمِس الليل نفسه

بالكسر ؛ إذا أظلم وعمّسه غيره ، وعمّست عليه عَمْساً ، إذا أريته أنّك لاتعرف الأمر وأنت به عارف .

والأغراض : جمع غَرَض وهو الهدف .

وقوله : « فأقرّوا على مذلّة وتأخير مَحَلّة » ، أى اثبتوا على الذلّ وتأخر الرتبة والمنزلة ، أو فافعلوا كذا وكذا .

ونحو قوله عليه السلام : « فالموت فى حياتكم مقهورين » قول أبى نصر بن نُباتة :

والحسينُ الذى رأى الموت فى العِزِّ حياة والعيشَ فى الذّلّ قتْلا

وقال التِّهامىّ :

وَمَنْ فَاتَه نَيلُ العُلَا بعُلُومِه   وَأَقْلاَمِه فَلْيَبْغِهَا بِحُسَامِهِ[1]

فوتُ الفتى فى العزّ مثلُ حياته   وعِيشتُه فى الذّلّ مثلُ حِمامِه

***

[الأشعار الواردة فى الإباء والأنَف من احتمال الضيم]

والأشعار فى الإباء الأنَف من احتمال الضيْم والذلّ والتّحريض على الحرْب كثيرة ؛ ونحن نذكر منها هاهنا طَرَفاً ؛ فمن ذلك قول عمرو بن برّاقة الهَمْدانىّ :

وَكَيفَ يَنامُ اللّيلَ مَنْ جُلُّ مَالِه   حُسَامٌ كلون الملح أبيضُ صارمُ[2]

كَذَبْتُمْ وبيتِ اللهِ لاتأخذُونَها   مراغَمَةً مادامَ للسّيْفِ قائمُ

وَمَنْ يَطْلُبِ المالَ الممنّع بالقَنا   يَعِشْ ماجداً أو تخترِمْه الخوارمُ[3]

---

(١) ديوانه ٣٣

(٢) من أبيات له فى الأغانى ٢١ : ١١٣ ، ١١٤ (ساسى) .

(٣) الأغانى : « المخارم » .

ومثله :

ومن يطلبِ المالَ الممنَّعَ بالقَنا ... يَعِشْ مَاجِداً أو يُؤذَ فيما يُمَارِسُ

وقال حرب بن مِسْعر :

عَطَفْتُ عَلَيْهِ المُهرَ عَطْفَةَ باسِلٍ ... كَمِيٍّ ومَنْ لَايَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ
فَأوجَرْتُهُ لَدْنَ الكُعُوبِ مُثَقَّفاً ... فخرَّ صريعاً لليَدَيْنِ ولِلفَمِ

وقال الحارث بن الأرقم :

وَمَاضَاقَ صَدْرِي يَاسُلَيْمَى بِسُخْطِكُمْ ... وَلَكِنَّنِي فِي الحَادِثَاتِ صَلِيبُ
تَرُوكٌ لدارِ الخَسْفِ والضَّيْمِ، مُنْكِرٌ ... بَصِيرٌ بفعلِ المكرُمات أريبُ
إذَا سَامَنِي السُّلْطَانُ ذُلًّا أبيتُهُ ... ولم أعطِ خَسْفاً مَا أقَامَ عَسِيبُ

وقال العباس بن مِرْداس السُّلَمِيّ :

بأبِي فَوارسَ لَا يَعْرَى صَوَاهِلُها ... أنْ يَقْبَلُوا الخَسْفَ مِنْ مَلْكٍ وإنْ عَظُما
لَاوالسيوفُ بأيْدِينا مُجَرَّدَةً ... لَا كَانَ مِنَّا غَدَاةَ الرَّوْعِ مُنْهَزِما

وقال وهب بن الحارث :

لَا تحسبنّي كَأقْوَامٍ عَبَثْتَ بِهِمْ ... لن يأنفُوا الذُّلَّ حتى تَأْنَفَ الحُمُرُ
لاتُعلقَنّي قَذاةً لستُ فاعلَها ... واحذر شَبَاتِي فقِدْماً يَنْفَع الحذَرُ
فقدْ عَلِمْتَ بأنّي غيرُ مُهتَضَمٍ ... حَتّى يلوحَ ببطنِ الرّاحةِ الشَّعَرُ

وقال المسيّب بن عَلَس :

أبْلِغْ ضُبَيعةَ أنّ البِلا ... دَ فيها لذي قُوّةٍ مُغْضَبُ(١)

---

(١) ديوان الأعشين ٣٤٩ ، مع اختلاف فى الرواية .

وقدْ يقعـــدُ القومُ فى دارهمْ   إذا لم يُضامُوا وإنْ أجْدَبُوا
وَيرْتحِلُ القومُ عِنـــدَ الهوَا   ن عَنْ دارهِمْ بَعْدَ ما أخصبُوا
وَقَدْ كَانَ سامَةُ فى قَوْمِـــهِ   لَهُ مَـــطْعَمٌ وَلَهُ مَشْرَبُ
فَسامُوهُ خَسْفاً فَلَمْ يرْضَــهُ   وَفِى الأَرْضِ عَنْ ضَيْمِهِمْ مَهْرَبُ

وقال آخر :

إنّ الهوانَ حِمَارُ القـــوم يَعْرِفُه   والحرُّ ينكِرهُ والرَّسْلَةُ الأجُدُ[1]
وَلَا يُقِيمُ عَلَى خَسْفٍ يُرَادُ بِهِ   إلّا الأذَلّان عَيْرُ الحىِّ وَالْوتِدُ[2]
هَذَا عَلَى الخسْفِ مَشْدُودٌ بِرُمّتِه   وَذَا يُشَجُّ فَلَا يأوِى له أحَدُ[3]
فإنْ أقمْتُمْ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِـكُم   فإنّ رَحْـــلِى لَهُ والٍ وَمُعْتَمَدُ
وفى البلاد إذا ما خفتُ بادرَةً   مكروهةً عن ولاة السُّوء مُفْتَقَدُ

وقال بعض بنى أسد :

إنّى امرؤٌ من بنى خُزَيمة لا   أطعمُ خسفاً لناعِب نَعَبا
لستُ بمعـــطٍ ظُلامةً أبدا   عُجْماً ولا أتقى بها عرَبا

دخل مويلك السَّدوسىّ إلى البصرة يبيع إبلا ، فأخذ عامل الصدقة بعضها ، فخرج إلى البادية وقال :

ناقُ إنى أرَى الْمُقَامَ على الضَّيْـــم عَظِيماً فى قُبَّةِ الإسْلَامِ
قَدْ أرانى وَلِى مِن الْعَامِلِ النَّصْـفُ بحدّ السِّنَان أوْ بالْحُسَامِ

---

(١) المتلمس ، معاهد التنصيص ٢ : ٣٠٦ . الرسلة : الناقة السهلة السير . والأجد : الموثقة الخلق .

(٢) العير ، بفتح العين : الحمار ، وغلب على الوحشى ؛ والمراد به هنا الأهلى .

(٣) الرمة : القطعة من الحبل ، وأوى له ، أى رق .

وقال يزيد بن مفرّغ الحميرى :

لاذعرتُ السَّوامَ فى فَلَقِ الصُّبْـ ... ـحِ مُغِيراً وَلَا دُعِيتُ يَزِيدَا[١]

يَوْمَ أُعْطِى مِنَ الْمَخَافَةِ ضَيْماً ... والمنايا يَرْصُـدْنَنِى أنْ أحِيدَا[٢]

وقال آخر :

لا تحسبينى يا أما ... مة عاجزاً دَنِساً ثيابُهْ

إنى إذا خفتُ الهوا ... نَ مُشَيَّعٌ ذُلُلٌ رِكابُهْ[٣]

مثله قول عنترة :

ذُلُلٌ رِكَابِى حَيْثُ شئتُ مُشايِعِى ... لُبِّى وأحْفِزُهُ برأىٍ مُبْرَمِ[٤]

وقال آخر :

أخَشْيَةَ الموتِ دَرَّ دَرُّكُمُ ... أعطيتم القوم فوقَ ما سألوا

إنّا لَعَمْرُ الإله تأبى الذى قَا ... لوا وَلَمَّا تَقَصَّفُ الأسَـلُ

نَقْبَلُ ضَيْماً وَنَحْنُ نَعْرِفُهُ ... ما دام مِنّا بِظَهْرِها رَجُـلُ

وقال آخر :

وَرُبَّ يَوْمٍ حَبَسْتُ النَّفْسَ مُكْرَهَةً ... فيه لأكْبِتَ أعـداءً أحاشِيها

آبى وآنفُ من أشياء آخُذُها ... رَثُّ القُوى ، وضعيفُ القومِ يُعْطِيها

مثله للشدّاخ :

أبَيْنَا فلا نُعْطِى مليـكاً ظُلَامَةً ... ولا سُوقة إلا الوَشِيجَ المُقَوَّما[٥]

---

(١) السوام : الإبل الراعية .

(٢) يرصدننى : يراقبننى .

(٣) المشيع : الشجاع .

(٤) من المعلقة ٢٠٥ — بشرح التبريزى . ذلل : جمع ذلول ؛ وهو من الإبل وغيرها ضد الصعب ؛ والمشايع : الشجاع ؛ مثل المشيع ؛ كأن قلبه لا يخذله فهو يشيعه . وأحفزه : أدفعه . والمبرم : المحكم .

(٥) يعنى بالوشيج الرمح .

وإلا حُسامًا يَبْهَرُ العَيْنَ لَمْحُـهُ ... كصاعقةٍ في عارضٍ قد تَبَسَّمَا

***

[أُباة الضيم وأخبارهم]

سيّد أهل الإباء ، الذى علّم الناس الحَمِيّة والموت تحت ظلال السيوف ، اختياراً له على الدنيّة ، أبو عبد الله الحسينُ بن علىّ بن أبى طالب عليهما السلام ؛ عُرِض عليه الأمان وأصحابه ، فأنِفَ من الذّل ، وخاف من ابن زياد أن يناله بنوعٍ من الهوان ؛ إن لم يقتُله ، فاختار الموت على ذلك .

وسمعت النقيب أبا زيد يحيى بن زيد العلوىّ البصرىّ ، يقول : كأنّ أبيات أبى تمام فى محمد بن حُميد الطائى[1] ما قيلت إلا فى الحسين عليه السلام :

وَقَدْ كَانَ فَوْتُ الموتِ سَهلاً فَرَدَّهُ ... إليـه الحفاظُ المُرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ

ونفسٌ تعـاف الضَّيْمَ حتّى كأنّه ... هو الكفرُ يوم الرَّوْعِ أو دُونَهُ الكُفْرُ

فأثبتَ فى مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلَهُ ... وقال لها : من تحت أخمصك الحَشْرُ

تَرَدَّى ثيـابَ الموتِ حُمْراً فـما أتَى ... لَهَا الليل إلا وَهْىَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ

لما فرّ أصحابُ مصعب عنـه ، وتخلّف فى نفر يسير من أصحـابه ، كسر جَفْنَ سيفه ، وأنشد :

فإنّ الأُلَى بالطَّفّ مِنْ آل هـاشمٍ ... تَأَسَّوْا فَسَنُّوا لِلْكِرَامِ التَّآسِيـا[2]

فعلم أصحابُه أنّه قد استقتل .

ومن كلام الحُسين عليه السلام يوم الطفّ ، المنقول عنه ، نقله عنه زينُ العابدين علىّ ابنُه عليـه السلام : « ألا وإنّ الدعىّ ابن الدعىّ ، قد خـيّرنا بين اثنتين : السّلة[3]

---

(١) ديوانه ٣٦٨ ـ طبع بيروت .

(٢) لسليمان بن قتة . الكامل ١ : ١٤ ؛ والطف : من ضاحية الكوفة ؛ كان فيها مقتل الحسين عليه السلام .

(٣) السل : انتزاعك الشىء وإخراجك إياه فى رفق ؛ وعند السلة ؛ أى عند استلال السيوف .

أو الذِّلة، وهيهات منّا الذلة ! يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون ،و حجور طابتْ،وحُجُزٌ طَهُرت[1] ، وأنوفٌ حَمِيّة ، ونفوس أبية » .

وهذا نحو قول أبيه عليه السلام ، وقد ذكرناه فيما تقدم : « إنّ امرأ أمكن عدوًّا من نفسه ، يعرُق لحمه ، ويفرى جِلده ، ويهشِم عظمه ، لعظيمٌ عجزُه ، ضعيفٌ ما ضُمّت عليه جوانح صدره ؛ فكن أنت ذاك إن شئت؛ فأما أنا فدون أن أعطِىَ ذلك ضربٌ بالمشرفيّة تطير منه فَراش الهام ، وتطيح السواعد والأقدام » .

* * *

وقال العباس بن مرداس السُّلَمىّ :

مقال امرئٍ يُهدى إليك نَصيحَةً ... إذا معشرٌ جادوا بعرضِك فابْخَلِ[2]

وإن بوّءوك منزلا غير طائلٍ[3] ... غليظاً فلا تنزل به وتحوّلِ

ولا تَطْعَمَنْ ما يعلِفونَك إنّهمْ ... أتوك على قُرْباهُمُ بالمُثَمَّلِ[4]

أراك إذاً قد صرتَ للقوم ناضحاً ... يقال له بالغَرْب أدْبِرْ وأقبِلِ[5]

فخُذْها فليستْ للعزيز بخُطّةٍ ... وفيها مقامٌ لامرئٍ مُتَذَلّلِ

---

(١) الحجز : جمع حجزة ، حيث يثنى طرف الإزار ، كناية عن العفة .

(٢) من أبيات فى الحماسة ٢ : ١١ — بشرح التبريزى ، مطلعها :

ألا أبْلِـغْ أبا سَلْمَى رَسُولاً يَرُوعُهُ ... وَلَوْ حَلّ ذَا سِدْرٍ وأهْلِي بِمَسْجَلِ

(٣) الحماسة : « مبركا غير طائل » .

(٤) قال التبريزى : المثمل : هو السم الذى قد خلط به ما يقويه ويهيجه ليكون أنفذ ، أى سقوك السم وإن كانوا أقرباءك فلا تغتر بهم وكن ذا أنفة » . وبعده فى رواية التبريزى :

أبعد الإزارِ مُجَسَّدًا لكَ شاهِدًا ... أتيتَ به فى الدار لم يتزيّلِ

(٥) الناضح : البعير الذى يستقى عليه الماء ، قال التبريزى : « يقول : أبعد الإزار مخضوبا بالدم أتيت به فى الدار شاهدا تصالحهم ! فإن فعلت ذلك صرت كالناضح للقوم انقيادا لهم » .

وله أيضا :

لحاربْ فإنْ مولاكَ حارد نَصْرُهُ ... ففى السَّيف مولى نصرُه لا يحارِدُ[١]

وقال مالك بن حَرِيم الهَمْدانىّ :

وَكُنتُ إذا قومٌ غزَوْنِى غزَوْتُهمْ ... فَهلْ أنا فِى ذَا يالَ هَمْدَانَ ظَالِمُ[٢]

مَتَى تجمَعِ القَلبَ الذَّكِىّ وَصارِماً ... وَأنفاً حَمِيًّا تجتنِبْك المظالِمُ

وقال رُشَيْد بن رُمَيْض العنزىّ :[٣]

باتوا نِياما وابنُ هند لم يَنَمْ ... بَاتَ يقاسيها غُلَامٌ كالزُّلَمْ.[٤]

خَدَلَّجُ السَّاقَيْن خَفّاق القَدَمْ[٥] ... قد لَفَّها اللّيلُ بِسَوّاقٍ حُطَمْ.[٦]

ليسَ براعِى إبلٍ وَلَا غَنَمْ ... وَلَا بجزّارٍ عَلَى ظَهرِ وَضَمْ.[٧]

* مَنْ يَلْقَنِى يُودِ كَمَا أوْدَتْ إرَمْ *

وقال آخر :

وَلَسْتُ بمبتاعِ الحَياةِ بِسُبَّةٍ ... وَلَا مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ الموتِ سُلَّمَا[٨]

وَلَمّا رأيتُ الودَّ ليسَ بنافِعِى ... عَمَدْتُ إلى الأمرِ الّذِى كانَ أحْزَمَا

* * *

(١) ديوان الحماسة ٢ : ١٥ — بشرح التبريزى : وحارد نصره ؛ أى امتنع ؛ والمحاردة فى الأصل قلة اللبن ، واستعير هنا .

(٢) من قصيدة له فى الأغانى ٢١ : ١١٣ ، ١١٤ وحريم ، ضبطه البكرى فى اللآلى ٧٤٨ « بالحاء والراء المهملتين ، الحاء مفتوحة ، والراء مكسورة » ، وقال : « ومن روى حزيم ،بالزاى فقد صحف » .

(٣) ديوان الحماسة ١ : ٣٣٣ — بشرح التبريزى ؛ من وصف غارة .

(٤) الزلم : القدح . يقاسيها ، أى يعانى الغارة كيف يوقعها ويدبرها .

(٥) خدلج الساقين : ممتلئهما . خفاقالقدم : سريع الخطو ؛ ضراب بها للأرض .

(٦) قد لفها ، أى الإبل ؛ وجعل الفعل لليل على المجاز . والحطم : الذى لا يبقى من السير شيئا ؛ والمعنى أنه جمعها برجل متناهى القوة ، عنيف السوق .

(٧) الوضم : كل ما قطع عليه اللحم .

(٨) للحصين بن حمام المرى ، المفضليات ٦٥ مع اختلاف فى الرواية .

ومن أباة الضيم يزيد بن المهلب ؛ كان يزيد بن عبد الملك يشنؤه قبل خلافته ؛ لأسباب ليس هذا موضع ذكرها ، فلما أفضَتْ إليه الخلافة ، خلعه يزيد بن المهلّب ، ونزع يده من طاعته ، وعلم أنّه إنْ ظَفِر به قتله وناله من الهوان ما القتل دونه ، فدخل البصرة ومَلَكها عَنْوَةً ، وحبس عديّ بن أرطاة عامل يزيد بن عبد الملك عليها ، فسرّح إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً كثيفا ، ويشتمل على ثمانين ألفا من أهل الشام والجزيرة ، وبعث مع الجيش أخاه مَسْلمة بن عبد الملك ، وكان أعرَف الناس بقيادة الجيوش وتدبيرها ، وأيمنَ الناس نَقِيبةً في الحرب ، وضمّ إليه ابنَ أخيه العبّاس بن الوليد بن عبد الملك ، فسار يزيد بن المهلّب من البصرة ، فقدِم واسطَ ، فأقام بها أياما ، ثم سار عنها فنزل العَقْر[1] ، واشتملت جريدة جيشه على مائة وعشرين ألفاً ، وقدِم مسلمة بجيوش الشام ، فلما تراءى العسكران ، وشبّت الحربُ ، أمرَ مسلمة قائدا من قوّاده أن يحرق الجسور التي كان عَقَدها يزيد بن المهلّب فأحرقها ، فلما رأى أهلُ العراق الدخان قد علا انهزموا ، فقيل ليزيد ابن المهلّب : قد انهزم الناس ، قال : ومِمّ انهزموا ؟ هل كان قتال ينهزم الناس مِنْ مثله ؟ فقيل له : إنّ مسلمة أحْرَق الجسور فلم يثبتوا ، فقال : قبحهم الله ! بقّ دُخّن عليه فطار ! ثم وقف ومعه أصحابه ، فقال : اضربوا وجوهَ المنهزمين ، ففعلوا ذلك حتى كَثُروا عليه ، واستقبله منهم أمثال الجبال ، فقال : دعوهم قبّحهم الله ! غنمٌ عَدَا في نواحيها الذئب . وكان يزيد لا يحدّث نفسه بالفرار ، وقد كان أتاه يزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفيّ بواسط ، فقال له :

فعِشْ مَلِكاً أومُتْ كريما فإنْ تَمُتْ وسيفك مشهور بكفّك تُعْذَرِ

فقال : ما شعرت ، فقال :

---

(١) قال ابن خلكان : «هي عقر بابل ؛ وهي عند الكوفة بالقرب من كربلاء ؛ الموضع الذي قتل فيه الحسين رضي الله عنه» .

إن بنى مروان قد بادَ ملكُهُمْ   فإن كنت لم تشعر بذلك فاشْعُرِ

فقال : أما هذا فسى . فلما رأى يزيد انهزامَ أصحابه ، نزل عن فرسه ، وكسر جَفْن سيفه واستقتَل ، فأتاه آت فقال : إن أخاك حبيباً قد قُتِل، فزاده ذلك بصيرة فى توطينه نفسه على القتال ؛ وقال : لاخير فى العَيْش بعد حبيب ! والله لقد كنت أبغَضُ الحياةَ بعد الهزيمة ؛ وقد ازددتُ لها بغضا ؛ امضوا قُدُماً . فعلم أصحابه أنه مستميت ، فتسلّل عنه مَنْ يكره القتال ، وبَقِيَ معه جماعة خشية ، فهو يتقدم كلما مرّ بخيل كشَفها ، وهو يقصد مسلمة ابن عبدالملك لا يريد غيره ، فلما دنا منه ، أدنَى مسلمةُ فرسَه ليركبَ ، وحالت خيولُ أهل الشام بينهما ، وعطفت على يزيد بن المهلب ؛ فجالدهم بالسيف مصلَتا[1] ؛ حتى قتل وحُمِل رأسُه إلى مسلمة ، وقتل معه أخوه محمد بن المهلب ؛ وكان أخوهما المفضّل بن المهلب ؛ يقاتل أهل الشام فى جهة أخرى ، ولا يعلَمُ بقتْل أخويه يزيد ومحمد ؛ فأتاه أخوه عبد الملك بن المهلب ، وقال له : ماتصنع وقد قتل يزيد ومحمد ، وقبلهما قتل حبيب ، وقد انهزم الناس!

وقد روى أنه لم يأته بالخبَر على وجهه ، وخاف أن يخبره بذلك فيستقتل ويُقتل ، فقال له : إنّ الأمير قد انحدر إلى واسط ، فاقتصّ أثره ، فانحدر المفضّل حينئذ ، فلما علم بقتل إخوته ، حَلَف ألا يكلم أخاه عبد الملك أبدا : وكانت عين المفضّل قد أصيبت من قبل فى حرب الخوارج ، فقال : فضحنى عبد الملك فضحه الله ! ما عذرى إذا رآنى الناس فقالوا : شيخ أعور مهزوم ، ألا صدقنى فقتلت ! ثم قال :

وَلَا خَيْرَ فِى طَعْنِ الصَّنَادِيدِ بِالْقَنَا   وَلَا فِى لِقَاءِ النَّاسِ بَعْدَ يَزِيدِ

فلما اجتمع مَنْ بقى من آل المهلب بالبصرة بعد الكسرة ، أخرجوا عدىّ بن أرطاة أمير البصرة من الحبْس ، فقتلوه وحملوا عيالهم فى السفن البحريّة ، ولجّجوا فى البحر ؛ فبعث إليهم مسلمة بن عبد الملك بعثا عليه قائد من قواده ، فأدركهم فى قَنْدَابيل[2] ؛ فحاربهم

(١) مصلتا ، أى مجردا من غمده .

(٢) قندابيل : مدينة بالسند .

وحاربوه ، وتقدّم بنو المهلب بأسيافهم ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ، وهم : المفضّل بن المهلّب ، وزياد بن المهلب ، ومروان بن المهلب،وعبد الملك بن المهلب ، ومعاوية بن يزيد ابن المهلّب،والمنهال بن أبي عُيينة بن المهلب،وعمرو والمغيرة ابنا قبيصة بن المهلب؛وحملت رءوسهم إلى مسلمة بن عبد الملك ؛ وفى أذن كلّ واحد منهم رقعة فيها اسمه ، واستؤسر الباقون فى الوقعة ، فحملوا إلى يزيد بن عبد الملك بالشام؛وهم أحدَ عشر رجلا، فلما دخلوا عليه قام كُثَيِّر بن أبى جمعة ، فأنشد :

حَلِيمٌ إذا مانَالَ عاقَبَ مُجْمِلاً أشدَّ العقاب أو عفا لم يُثَرِّبِ
فعفواً أميرَ المؤمنين وحِسْبَـــةً فَمَا تَأْتِهِ مِنْ صَالِحٍ لك يكتبِ
أساءوا فإن تصفحْ فإنك قادرٌ وأفضل حلم حسبةً حلمُ مغضَبِ

فقال يزيد : أطّت [1] بك الرحم ياأبا صخر ! لولا أنهم قَدَحوا فى الملك لعفوت عنهم ؛ ثم أمر بقتلهم فقتلوا ، وبقى منهم صبيّ صغير ، فقال : اقتلونى فلست بصغير، فقال يزيد بن عبد الملك : انظروا هل أنبت ! فقال : أنا أعلم بنفسى ، قد احتلمتُ ووطئت النساء فاقتلونى ؛ فلا خيرَ فى العيش بعد أهلى ! فأمر به فقتل .

قال أبو عبيدة معمر بن المثنّى : وأسماء الأسارى الذين قتلوا صبرا ــ وهم أحد عشر مُهَلّبيًّا : المعارك وعبد الله والمغيرة والمفضّل والمنجاب ؛ بنو يزيد بن المهلب . ودُرَيد والحجاج وغسان وشبيب والفضل ؛ بنو المفضل بن المهلب لصلبه. والفضل بن قبيصة بن المهلب . قال:ولم يبق بعد هذه الوقعة الثانية لأهل المهلّب باقية إلا أبو عيينة بن المهلب. وعمر بن يزيد بن المهلب ، وعثمان بن المفضّل بن المهلب ، فإنهم لحقوا برِتْبيل [2] ، ثم أومِنُوا بعد ذلك .

* * *

(١) أطت بك الرحم : رقت وحنت .
(٢) رتبيل : من ملوك الترك .

وقال الرضيّ الموسويّ رحمه الله تعالى :

أَلا لله بادرةُ الطِّلاَبِ　　وَعَزْمٌ لا يُرَوَّعُ بِالْعِتَابِ[1]

وكلّ مشمّر البُرْدَيْن يهوى　　هُوِيّ المصلتَات إلى الرقابِ

أعاتِبهُ عَلَى بُعْدِ التنائي　　فيعذِلُنِى عَلَى قُرْبِ الإيابِ

رأيتُ العَجْزَ يخضعُ لِلَّيالِي　　ويرضى عن نوائبها الغِضَابِ

وآمل أنْ تطاوعَنِي اللّيالِي　　وينشب فى المُنَى ظفري ونابي

ولولا صولة الأقدارِ دُونِي　　هَجَمْتُ عَلَى الْعُلا مِنْ كلّ بابِ

وقال أيضا :

لا يُبْذَ الهمومَ إلاّ غُـلامٌ　　يَرْكَبُ الهَوْلَ والحُسامُ رَدِيفُ[2]

مايذِلّ الزّمانُ بالفقرِ حُرًّا　　كيفما كان فالشريفُ شريفُ

وقال أيضا رحمه الله تعالى :

وَلَسْتُ أَضِلُّ فى طُرُقِ الْمَعَالى　　وَنَارُ العِزِّ عَالِيَـــةُ الشُّعَاعِ[3]

وَدُونَ الْمَجْدِ رَأْىٌ مُسْتَطِيلٌ　　وَبَاعٌ غَـــيْرُ مَجْبُوبِ الذِّرَاعِ

وَيُعْجِبُنِى البِعادُ كَأَنَّ قَلْبِي　　يحدّث عن عـديّ بن الرّقاعِ

فَرِدْ يَهْوَى العلاء بلا رقيبٍ　　وشمّر فى الأُمُورِ بِلا نِزاعِ

وَلا تَغْرُرْكَ قَعْقَعَةُ الأعادى　　فذاكَ الصَّخْرُ خَرٌّ من اليَفَاعِ

وَنَحْنُ أحقُّ بالدُّنْيا وَلَكِنْ　　تُخَيَّرتِ القَطُوفُ عَلَى الوَسَاعِ[4]

***

(١) ديوانه لوحة ٧٧ ، من قصيدة يفتخر ويمدح فيها آل البيت ويذكر قبورهم ويتشوقها .

(٢) ديوانه ، لوحة ١٨٩ .

(٣) ديوانه ، لوحة ٣٦ من قصيدة يمدح فيها أباه ويهنئه .

(٤) القطوف : الدابة البطيئة السير . والفرس الوساع : الجواد ذو السعة فى خطوه .

وقال حارثة بن بدر الغُدانىّ :

أهـــانُ وأقصى ثم ينتصحُونَنى وَمَنْ ذَا الَّذِى يُعْطِى نصيحتَه قَسْرَا !

رأيتُ أكفَّ المصلتين عليــــكُمُ مِلاءً وكفِّى من عطــائــكمُ صِفْرَا

مَتَى تســـألونى مَا عَلَىَّ وَتَمْنَعُوا الـ ذِى لِىَ ، لا أستطيعُ فى ذاكُمُ صَبْرَا

وقال بعض الخوارج :

تُعَيِّرُنى بالحرب عِرْسِى وَمَا دَرَتْ بأنِّى لها فى كل ما أُمِرَتْ ضِدّ

لَحَا اللهُ قوماً يَقْعُـدونَ وَعِندَهُمْ سُيُوفٌ ولم يعصب بأيديهمُ قِدّ

وقال الأعشى :

أبالموت خَشَّتْـنِى عِبَادٌ وإنَّمـا رأيتُ منايا القوم يَسْعَى دليلها(١)

وما موتة إنْ مِتُّها غير عاجزٍ بعارٍ إذا ما غالتِ النفسَ غولُها

وقال آخر :

فلا أسْمَعَنْ فيـكم بأمر هَضيمةٍ وضيمٍ ولا تسمعْ به هامتى بَعْدِى

فإنّ السنانَ يَركب المرءُ حَدَّه من الضّيم،أو يعدُوعلى الأسَدِالْوَرْدِ

ومثله :

إذا أنت لم تُنْصِفْ أخـــاك وَجَدْتَه على طرف الهِجْرانِ إن كانَ يَعْقِلُ(٢)

وَيَرْكَبُ حَدَّ السَّيْفِ مِنْ أنْ تَضِيمَهُ إذا لم يكن عن شَفْرَةِ السَّيْفِ مَعْدِلُ

---

(١) ديوانه ١٢٥ .

(٢) لمعن بن أوس ، ديوانه ٥٩ .

وقال آخر :

كَرِهُوا الموتَ فاسْتُبِيح حِمَاهُمْ   وأقامُوا فعلَ اللئيم الذَّليلِ

أمن الموت تهربون فإنّ الـ   موْتَ الذَّليل غيرُ جميلِ

وقال بشامة بن الغدير :

وإنّ الّتى سامَكُم قومُكُمْ   هُمُ جعلُوها عليكم عُدُولا[1]

أخِزْىُ الحياةِ وكُرْه الممات   فكلاًّ أراهُ طَعَاما وَبِيلاَ

فإن لم يكن غيرُ إحداهما   فسيرُوا إلى الموت سَيْراً جميلا

وَلَا تَقْعُدُوا وَبِكُمْ مُنّةٌ   كَفَى بالحوادث للمرء غُولا

* * *

قال يزيد بن المهلّب فى حرب جُرجان لأخيه أبى عيينة : ماأحسنُ منظرٍ رأيتَ فى هذه الحرب ؟ قال : سيف بن أبى سَبْرة وبيضته ؛ وكان عبدُ الله بن أبى سَبْرة حَمَل على غلام تركىّ قد أفرج الناس له ، وصدوا عنه لبأسه وشجاعته ، فتضاربا ضَرْبتَيْن ، فقتله ابن أبى سبرة بعد أن ضربه التركىّ فى رأسه ، فنشب سيفُه فى بيضة ابن أبى سَبْرة ، فعاد إلى الصفّ وسيفه مصبوغ بدم التركىّ وسيف التركى ناشب فى بيضته كجزء منها يَلْمَع ، فقال الناس : هذا كوكب الذنب ، وعجبوا من منظره .

وقال هُدْبة بن خَشْرم :

وإنى إذ ماالموتُ لم يكُ دُونَهُ   قِدى الشبر أحمى الأنف أن أتأخّرا[2]

ولكنّنِي أُعطِى الحفيظَة حَقَّهَا   فأعرِفُ معروفاً وأنكر منكرا

وقال آخر :

إنى أنا المرء لايُغضِى عَلَى تِرَةٍ   ولا يقرّ على ضَيْمٍ إذا غُشِما

(١) مختارات ابن الشجرى ١٦ ، المفضليات ٥٩

(٢) قدى الشبر : قدره ، والبيت فى اللسان (٢٠ : ٣٢) .

ألقى المنيةَ خَوْفاً أن يقال فتًى أمسى ـ وقد ثبت الصّفان ـ منهزما

وقال آخر :

قَوِّضْ خيامَك والتمِسْ بَلَداً تنأى عن الغاشيك بالظلْمِ
أو شُدّ شدة بَيْهَسٍ فعسَى أن يتَّقُوك بصفحة السِّلْمِ (١)

استنصر سبيع بن الخطيم التيمىّ من بنى تيم اللات بن ثعلبة زيدَ الفوارس الضبىّ فنصره ، فقال :

نَبَّهتُ زيداً فلم أفْزَعْ إلى وَكَلٍ رثٍّ السلاحِ ولا فى الحىّ مغمورِ
سالَتْ عليه شعابُ الحىّ حين دَعَا أنصارَه بوجوهٍ كالدّنانيرِ

وقال أبو طالب بن عبد المطلب :

كذبتم وبيت الله نُخْلِي مُحَمَّداً ولما نطاعِنْ دونه ونُنَاضِلِ (٢)
وَنَنْصُره حتى نُصَرَّعَ حوله ونَذْهَلَ عن أبنائنا والحلائلِ

* * *

لما برز علىّ وحمزةُ وعبيدة عليهم السلام يوم بَدْر إلى عُتْبة وشيبة والوليد ، قَتَلَ علىّ عليه السلام الوليدَ ، وقتل حمزةُ شيبة، على اختلاف فى روايةذلك : هل كان شيبة قِرنَه أم عتبة ؟ وتجالَدَ عُبيدة وعُتْبة بسيفيهما، فجرحَ عُبيدةعُتْبة فى رأسه ، وقطع عُتبة ساقَ عُبَيدة، فكرّ علىّ وحمزة عليهما السلام على صاحبهما ، فاستنقذاه من عُتْبة ، وخبطاه بسيفيهما حتى قتلاه واحتملا صاحبَهما ، فوضعاه بين يدىْ رسول الله صلى الله عليه وآله فى العَرِيش ، وهو يجود بنفسه ، وإنّ مُخّ ساقه لَيسِيلُ ، فقال : يارسول الله ، لو كان أبو طالب حيًّا لعلم أنى أولى منه بقوله :

---

(١) البيهس : الشجاع .
(٢) ديوانه ١١٠ ، ١١١ مع اختلاف فى الرواية

كَذَبْتُم وبيتِ الله نُخلِي مُحَمّداً　　وَلَمّا نطَاعِنْ دُونَهُ وَنُنَاضِلِ
وننصره حتى نصرَّعَ حولَه　　ونذهلَ عن أبنائنا والحلائلِ

فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : اللهم أنجزْ لى ماوعدتنى ! اللهمّ إن تهلِكْ هذه العصابة لاتُعبد فى الأرض » .

***

لما قدم جيش الحرّة إلى المدينة ، وعلى الجيش مُسلم بن عقبة المرىّ ، أباح المدينة ثلاثا ، واستعرض أهلَها بالسيف جَزْراً كما يَجْزُرُ القصّاب الغنم ؛ حتى ساخت الأقدام فى الدّم ، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار وذريّة أهل بدر ، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كلّ من استبقاه من الصحابة والتابعين ؛ على أنّه عبدٌ قِنّ لأمــير المؤمنين يزيد بن معاوية ؛ هكذا كانت صورة المبايعة يوم الحرّة ، إلا علىّ بن الحسين بن علىّ عليهم السلام ، فإنه أعظمه وأجلسه معه على سريره ، وأخذ بيعته على أنّه أخو أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وابن عمه ، دفعا له عمّا بايع عليه غيره ، وكان ذلك بوصاةٍ من يزيد بن معاوية له ، فهرب علىّ بن عبد الله بن العباس رحمه الله تعالى إلى أخواله من كِنْدة ، فحَمَوْه من مُسلم بن عقبة ، وقالوا : لايبايع ابنُ أختنا إلا على مابايع عليه ابنُ عمه علىّ بن الحسين ، فأبى مسلم ابن عقبة ذلك ، وقال : إنى لم أفعل مافعلت إلا بوصاةِ أمير المؤمنين ، ولولا ذلك لقتلتهُ ، فإن أهل هذا البيت أجْدَرُ بالقتل ، أو لأخذت بيعته على ماأخذتُ عليه بيعة غيره . وسَفَر السُّفراء بينه وبينهم ، حتى وقع الاتفاق على أن يبايعَ ويقول : أنا أبايع لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية ، وألتزم طاعته ، ولا يقول غير ذلك ؛ فقال علىّ بن عبد الله بن العباس :

أبى العباسُ رأسُ بنى قصىّ　　وأخوالِى المُلُوكُ بَنُو وَليعَهْ
هُمُ منعوا ذِمارِى يوم جاءت　　كتائبُ مُسرفٍ وبَنُو اللّكِيعَهْ

أراد بِيَ التى لا عِزّ فيها فحالت دونه أيدٍ مَنِيعهْ

مُسرِف كناية عن مُسلم ، وأم علىّ بن عبد الله بن العباس زُرعة بنت مشرّح بن معدى كربَ بن وليعة بن شُرَحْبيل بن معاوية بن كِنْدة .

قال الحصين بن الحمام :

وَلَسْتُ بمبتاعِ الحَياةِ بِسُبَّةٍ وَلَا مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ الموتِ سُلّمَا(١)

تأخّرتُ أستبقى الحياة فلم أجدْ لنفسى حياةً مثلَ أن أتقدّما

فلسنا على الأعقاب تدْمى كلومُنا ولكن على أقدامِنا تقطُر الدّمَا

نفلّق هاماً من رجالٍ أعزّةٍ علينا ، وهمْ كانوا أعقّ وأظلَمَا

أبَى لابن سلمى أنه غيرُ خالد مُلاقِى المنايا أىَّ صَرْفٍ تيمّمَا

ابن سلمى يعنى نفسه ، وسَلمى أمه .

وقال الطرمّاح بن حكيم :

وَمَا مُنِعَتْ دارٌ ولا عَزّ أهلُها مِنَ النّاسِ إلّا بالقَنا والقَنابِل(٢)

وقال آخر :

وإن التى حدثتها فى أنوفِنَا وأعناقنا من الإباء كَمَا هِيَا

وقال آخر :

فإنْ تَكُنِ الأيّام فينَا تَبَدّلتْ ببؤسَى ونُعمى والحوادثُ تَفْعَلُ(٣)

فَمَا لَيّنَتْ مِنّا قَنَاةً صَلِيبَةً وَلَا ذَلّلتنا للتى ليس تجمُلُ

وَلَكِنْ رَحَلْنَاها نُفُوساً كريمةً تُحمّل مالا يستطاع فتحمِلُ

---

(١) المفضليات ٦٨ ، ٦٩

(٢) ديوانه ١٥٩

(٣) لإبراهيم بن كنيف النبهانى ، ديوان الحماسة ١ — ٢٥١ — بشرح التبريزى .

وقال آخر :

إذا جانبٌ أعياك فاعمِد لجانبٍ   فإنك لاقٍ فى البلاد مُعوَّلا[1]

وقال أبو النشناش :

إذا المرء لم يَسْرَحْ سواما ولم يُرِحْ   سَوَامًا ولم تَعطِفْ عَلَيْهِ أقارِبُهْ[2]
فَلَلْمَوتُ خيرٌ للفتى من قُعودِهِ   عديمًا ومِنْ مَوْلًى تَدِبُّ عَقَارِبُهْ
ولم أرَ مثل الهمّ ضاجَعَهُ الفتَى   ولا كسَوادِ الليل أخفَقَ طالبُهْ
فعِشْ معدِمًا أومُتْ كريمًا فإنَّنى   أرى الموتَ لاينجُو من الموتِ هارِبُهْ

* * *

وفد يحيى بن عُرْوة بن الزُّبير عَلَى عبد الملك ، فجلس يوما على بابه ينتظر إذنَه ، فجرى ذكرُ عبدالله بن الزُّبير ، فنال منه حاجب عبد الملك ، فلطَم يحيى وجهَه حتى أدْمَى أنفه ، فدخل على عبد الملك ودمه يجرى من أنفه ، فقال : مَنْ ضربك ؟ قال : يحيى ابن عُرْوة ، قال : أدخله — وكان عبد الملك متّكئا فجلس — فلما دخل قال : ما حملك على ما صنعت بحاجبى ؟ قال : ياأمير المؤمنين، إن عمّى عبدالله كان أحسنَ جوارًا لعمتك منك لنا ، والله إن كان لَيُوصِى أهلَ ناحيته ألّا يُسْمِعوها قَذَعًا[3] ، ولا يذكروكم عندها إلا بخير ؛ وإن كان لَيقولُ لها : مَنْ سبّ أهلك فقد سبّ أهله ، فأنا والله المعمّ المُخْوِل، تفرّقت العرب بين عمّى وخالى ، فكنت كما قال الأول :

يَدَاهُ أصابَتْ هذهِ حَتْفَ هذهِ   فلم تجد الأخرى عليها مُقَدَّما

فرجع عبد الملك إلى متّكئه ، ولم يزل يُعرَف منه الزيادة فى إكرام يحيى بعدها .

---

(١) لجابر بن ثعلب الطائى ، ديوان الحماسة ١ : ٢٩٣ — بشرح التبريزى .
(٢) ديوان الحماسة ١ : ٣٠٢ — بشرح التبريزى
(٣) القذع : الفحش .

وأمّ يحيى هذه ابنة الحكم بن أبي العاص عمّة عبد الملك بن مروان .

وقال سعيد بن عمر الحَرَشيّ أمير خراسان :

فلستُ لعامرٍ إنْ لَمْ تَرَوْني   أمامَ الخَيْلِ أطعَنُ بالعوالي[١]
وأضربُ هامةَ الجبّار مِنْهمْ   بماضي الغَرْب حُودِثَ بالصقالِ[٢]
فما أنا في الحروب بمستكينٍ   ولا أخشى مصاوَلةَ الرجالِ
أبَى لي وَالدي من كلّ ذمٍ   وخالِي حين يُذكَرُ خيرُ خالِ

* * *

قال عبدالله بن الزبير لما خطب حين أتاه نعي مُصْعَب : أما بعد ؛ فإنه أتانا من العراق خَبرٌ أفرحَنا وأحزننا ؛ أتانا خبرُ قتل المصعَب ؛ فأما الذي أحزَنَنا فلوعة يجدُها الحميم عند فراق حميمه ؛ ثم يرعوي بعدها ذو اللُّبّ إلى حسن الصبر وكرم العزاء .

وأما الذي أفرَحَنا ، فإنّ ذلك كان له شهادة ، وكان لنا وله خِيرة ؛ إنا والله مانموت حَبَجاً[٣] كما يموت آل أبي العاص ؛ ما نموت إلا قتلاً قَعْصاً[٤] بالرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف ؛ فإنْ يهلك المصعب ؛ فإن في آل الزبير خَلَفاً .

وخطب مرة أخرى فذكره فقال : لودِدْت والله أنّ الأرض قاءتْني عنده حين لفظ غُصّته وقضى نَحْبَه .

شعر :

خُذِيه فَجُرّيه ضِبَاعَ وأبْشِرِي   بلحمِ امرئٍ لم يشهَدِ اليومَ ناصرُهُ

---

(١) العوالي : جمع عالية ؛ وهي أعلى القناة .

(٢) غرب السيف : حده : ويقال : حادث السيف ؛ إذا جلاه ؛ وصقال السيف : جلاؤه .

(٣) الحبج : أن يأكل البعير لحاء العرفج فيرم بطنه سمنا وربما قتله ذلك ؛ وفي اللسان (٣ : ٤٨) . بعد أن ذكر كلام ابن الزبير : « يعرض ببني مروان لكثرة أكلهم وإسرافهم في ملاذ الدنيا ، وأنهم يموتون بالتخمة » وفي ج : « جنحا » .

(٤) القعص : الموت السريع ؛ ويقال : مات قعصا ؛ أي أصابته ضربة أورمية فمات مكانه .

وقال الشدّاخ بن يعمُر الكِنانيّ :

قاتِلُوا القومَ يا خُزَاع ولا يَدْخُلْكُمْ مِنْ قِتَالِمْ فَشَلُ(١)
القوم أمثالكم لَهُمْ شَعَرٌ في الرأس لا يُنشرون إنْ قُتلوا

وقال يحيى بن منصور الحنفيّ :

ولما نأتْ عَنّا العشيرةُ كلها أنَخْنا فحالَفْنا السيوفَ على الدَّهْرِ(٢)
فما أسلمتْنا عند يوم كريهةٍ ولا نحن أغضينا الجُفُون على وِتْرِ

قيل لرجل شهد يوم الطّفّ مع عمر بن سعد : ويحك ! أقتلتم ذريةَ رسول الله صلى الله عليه وآله ! فقال : عَضَضْتَ بالجَنْدَل ؛ إنك لو شهدت ما شَهِدْنا لفعلت ما فعلنا ، ثارت علينا عِصابة، أيديها فى مقابض سيوفها كالأسود الضارية تحطِم ُالفرسان يمينا وشمالا ، وتُلْقِي أنفسها على الموت ؛ لا تقبل الأمان ، ولا ترغب فى المال ، ولا يحول حائل بينها وبين الوُرُود على حياض المنية ، أو الاستيلاء على الملك ؛ فلو كَفَفْنا عنها رويدا لأتَتْ على نفوس العسكر بحذافيرها ؛ فما كنا فاعلين لا أمّ لك !

***

السخاء من باب الشجاعة ، والشجاعة من باب السخاء ؛ لأنّ الشجاعة إنفاق العمر وبذلُه فكانت سخاء ، والسخاء إقدام على إتلاف ما هو عَدِيل المهجة ؛ فكان شجاعة .

أبو تمام فى تفضيل الشجاعة على السخاء :

كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ إنمــا نفقاتُهُمْ مالٌ وقومٍ يُنْفِقُون نُفُوسا(٣)

***

(١) ديوان الحماسة لأبى تمام ١ : ١٨٩ ــ بشرح التبريزى، والفشل : الجبن والضعف .
(٢) ديوان الحماسة ــ بشرح التبريزى ١ : ٣١٠
(٣) ديوانه ٢ : ٢٦٧

قيل لشيخنا أبي عبد الله البصريّ رحمه الله تعالى : أتجد في النّصوص ما يدلّ على تفضيل عليّ عليه السلام ؛ بمعنى كثرة الثواب لا بمعنى كثرة مناقبه ؛ فإنّ ذاك أمرٌ مفروغ منه ؟ فذكر حديثَ الطائر المشويّ[1] ؛ وأنّ المحبّة من الله تعالى إرادة الثواب . فقيل له : قد سبقك الشيخُ أبو عليّ رحمه الله تعالى إلى هذا ؛ فهل تجدُ غير ذلك؟ قال : نعم قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾ ، فإذا كان أصل المحبة لمن ثبت كثبوت البنيان المرصوص ، فكل مَنْ زاد ثباته ؛ زادت المحبة له ؛ ومعلوم أن عليًّا عليه السلام ما فرّ في زحفٍ قطّ ، وفرّ غيرُه في غير موطن .

* * *

وقال أبو تمام :

السَّيفُ أصدقُ أنباءً من الكُتُبِ ... في حدِّه الحدُّ بينَ الجدِّ واللّعبِ[2]

بيضُ الصفائحِ لا سُودُ الصَّحائفِ في ... مُتونِهنّ جلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ[3]

وَالعِلْمُ في شُهُبِ الأرْماحِ لامعةً ... بين الخميسَيْنِ لا في السَّبْعةِ الشُّهُبِ[4]

وقال أبو الطيب المتنبّي :

حتّى رَجعْتُ وأقلامي قوائلُ لي: ... المجدُ للسَّيفِ ليسَ المجدُ للقلمِ[5]

---

(١) يشير إلى ما رواه الترمذي في باب المناقب (١٣ : ١٧٠) ، بسنده عن أنس بن مالك ، ولفظه : « كان عند النبي صلى الله عليه وسلم طير فقال : اللهم ائتني بأحب خلقك إليك ؛ يأكل معي هذا الطير . فجاء علي فأكل معه . وانظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٧

(٢) ديوانه ١ : ٤٥ ؛ من قصيدة يمدح بها المعتصم بالله ؛ ويذكر فتح عمورية ، وكان المنجمون قد حكموا أن المعتصم لا يفتح عمورية ؛ وراسلته الروم بأنا نجد في كتبنا أنه لا تفتح مدينتنا إلا وقت إدراك التين والعنب ؛ وبيننا وبين ذلك الوقت شهور يمنعك من المقام فيهـا الثلج والبرد ، فأبى أن ينصرف وأكب عليها ففتحها ، فأبطل ما قالوا .

(٣) الصفائح : جمع صفيحة ؛ وهي الحديدة العريضة ؛ ويقال للسيف العريض كذلك .

(٤) يرد على المنجمين ما حكموا به ؛ لأن الظفر كان قبل حكمهم . ويعني بشهب الأرماح أسنتها ، ويعني بالسبعة الشهب الطوالع التي أرفعها زحل وأدناها القمر .

(٥) ديوانه ٤ : ١٥٩

اكْتُبْ بِنا أبداً بعد الكِتاب بهِ   فإنما نحن للأسْيافِ كالخدَمِ
أسْمَعْتنى وَدَوَائى ماأشَرْتُ بهِ   فإنْ غَفَلْتُ فدائى قِلَّةُ الفَهَمِ
مَنِ اقْتَضَى بسوى الهندىّ حاجَتَهُ   أجاب كلَّ سؤالٍ عن «هَلٍ» بِلَمِ

***

قال عطاف بن محمد الألوسىّ :

أمكابدَ الزّفَرَات مؤصَـدة   تلتـذّ خوف القطع بالشَّلَلِ
صَرّفْ همُومَكَ تَنْتَدِبْ هِمَمًا   فالشُّكْرُ يُعْقِبُ نشوَةَ الثَّملِ
ولِلَيْلةٍ لليــلادِ مُفرَحَةٌ   تُنسى الحواملَ أشهرَ الحَبَلِ
سِرْ فى البلادَ تخوضها لُجَجاً   فالدُّرّ ليس يُصابُ فى الوَشَلِ(١)
واجْعَل لصبوَتك الظُّبا سَكَنا   والدّور أكواراً على الإبلِ
والعيشُ والوطن المهد فى   غَرَبِ الحُسام وغارب الجملِ
واشْدُدْ عَلَيْكَ وَخُذْ إليك وَدَعْ   ضَعَة الخمول وَفَتْرَةَ الكَسَلِ
وَارْمِ العُدَاةَ بِكُلِّ صَائِبَةٍ   مَا الرّمْىُ مَوْقُوفاً عَلَى ثُعَلِ(٢)
لاتحْسَبِ النّكَبات مَنقصةً   قَدْ يُستجادُ السّيفُ بالفَلَلِ

***

وقال عُرْوة بن الورد :

لَحَا اللهُ صُعلوكاً إذا جَنّ ليلُهُ   مُصَافى الْمُشَاشِ آلفاً كلَّ مجزَرِ(٣)

(١) الوشل : الماء القليل .
(٢) ثعل : أبو حى من طيء ؛ اشتهروا بالرمى .
(٣) ديوانه ٩٣ (ضمن دواوين الشعراء الخمسة) . الصعلوك : الفقير ، والمصافى : من المصافاة ؛ وهى الاختيار والملازمة . والمشاش : العظم الممكن مضغه ، والمجزر : موضع نحر الإبل .

يَعُدُّ الغِنى مِنْ نَفسه كلَّ ليـــــلةٍ أصَابَ قِراها مِنْ صَدِيق مُيَسَّر (١)
يَنَامُ عِشاء ثُمَّ يُصْبِحُ نَاعِساً يحُتُّ الحصاَ مِنْ جَنْبِه المتعفِّرِ (٢)
يُعِـــينُ نِساءَ الحىِّ ما يَستعِنَّهُ وَيُمْسِي طَلِيحاً كالبعيرِ المحَسَّرِ (٣)
ولـكنَّ صُعْلُوكاً صَفِيحَةُ وَجْهِهِ كَضَوْءِ شِهاب القابِس المُتَنَوِّرِ
مُطِلًّا عَلَى أعْدَائِهِ يَزْجُرُونَه بِساحَتِهِمْ زَجْرَ المَنِيحِ المُشَهَّرِ (٤)
وإن قَعَـــدُوا لا يأمنون اقترابَه تَشَوُّفَ أهلِ الغائبِ المتنظِّرِ (٥)
فذلك إن يَلْقَ المنِيَّــــةَ يَلْقَهَا حَمِيداً وإن يَسْتَغْنِ يوماً فأجْــدِرِ

***

وقال آخر :

ولستُ بمولى سَوْءَةٍ أُدَّعى لها فإنَّ لسوآتِ الأمور مَواليا (٦)
وسِيانِ عِندِي أنْ أمُوتَ وأنْ أرى كَبعضِ رجالٍ يُوطِنُونَ المخازيا
ولن يجِدَ النَّاسُ الصديقَ ولا العِدَا أديمى إذا عَدَّوا أدِيمَ وَاهِيا
وإنَّ نجارِى يابن غَنْمٍ مُخالِفٌ نجارَ لئامٍ فابغِنِي مِن وَرَائِيا (٧)
وَلَسْتُ بِهيَّابٍ لِمَنْ لا يهابُنى وَلَسْتُ أرَى للمرء مالا يَرَى لِيَا
إذا المرء لم يُحْبِبْكَ إلا تـكرُّهاً عِرَاضَ العَلُوقِ لم يكُنْ ذَاكَ باقِيا (٨)

***

(١) الميسر : الذى قد نتج إبله فـكثر خيره ؛ يقول : من صفات ذلك الصعلوك أنه إذا أصاب القرى فى كل ليلة من صديق غنى ؛ عد ذلك لنفسه غنى وخيرا .
(٢) يحت الحصا : يفركه ، والناعس : الذى يأتى عليه الصباح وهو ناعس لخوله وانحطاط همته .
(٣) البعير الطليح : المعي ؛ وكـذلك المحسر .
(٤) أطل على أعدائه : أوفى عليهم . والمنيح والسفيح والرغد : قداح لا أنصباء لها ، وإنما يكثر بها القداح فهى تجال أبدا ، وتزجر حالا بعد حال ، فشبه الصعلوك به (من شرح التبريزى) .
(٥) الديوان : « فإن بعدوا يأمنون اقترابه » .
(٦) لطرفة الجذمى، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٣٨٩ ، مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات
(٧) النجار : الأصل .
(٨) العلوق: الناقة التى ترأم ولدها وتلمسه حتى يأنس بها، فإذا أراد ارتضاع اللبن منها ضربته وطردته.

نَهار بن توسعة فى يزيد بن المهلّب :

وَمَا كُنَّا نُؤَمِّلُ مِنْ أميرٍ ... كما كُنَّا نُؤَمِّلُ مِنْ يزيدِ
فأخطأ ظَنُّنَا فيـه وَقِدْماً ... زَهِدْنا فى معاشرة الزَّهيدِ
إذا لم يعطِنا نصَفاً أميرٌ ... مشينا نحوه مَشْىَ الأسُودِ

* * *

كان هُذْبة اليشكرىّ ـ وهو ابن عمّ شوذب الخارجىّ اليشكُرىّ ـ شجاعا مقداما، وكان ابنُ عمه بِسْطام الملقب شوْذباً الخارج فى خلافة عمر بن عبـد العزيز ويزيد بن عبد الملك ، فأرسل إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً كثيفا فحاربه ، فانـكشفت الخوارج ، وثبتَ هُذْبة وأبَى الفرار ، فقاتل حتى قُتل ، فقال أيوب بن خوْلىّ يرثيه :

فَيَا هُذْبَ لِلْهَيْجَا وَيَا هُذْبَ للنَّدَى ... وَيَا هُذْبَ لِلْخَصْمِ الألَدِّ يُحَارِبُهْ(١)
وَيَا هُذْبَ كَمْ مِنْ مَلْحَمٍ قَدْ أَجَبْتَهُ ... وَقَدْ أَسْلَمَتْهُ لِلرِّمَاحِ كَتَائِبُهْ(٢)
تَزَوَّدْتَ مِنْ دُنْيَاكَ دِرْعاً وَمِغْفَراً ... وَعَضْباً حُسَاماً لم تَخُنْك مَضَارِبُهْ(٣)
وَأَجْرَدَ مَحْبُوكَ السَّراةِ كَأَنَّهُ ... إذا انْفَضَّ وافى الرِّيش حُجْنٌ مَخَالِبُهْ(٤)

* * *

كانت وصايا إبراهيم الإمام وكتبه تَرِدُ إلى أبى مسلم بخراسان : إن استطعت ألّا تَدَعَ بخُرسان أحداً يتكلّم بالعربية إلا وقتلته فافعل ، وأيّما غلام بلغَ خمسة أشبـار تتّهمه

---

(١) الأبيات مع ذكر الخبر مفصلا فى تاريخ الطبرى ٢ : ١٣٧٦ ـ ١٣٧٨ (طبع أوربا) .
(٢) الملحم : الذى أسر وظفر به أعداؤه ، وفى ج : « ملجم » تصحيف .
(٣) الطبرى : « تزود . . . لم تخنه » .
(٤) أجرد ، من وصف الفرس ، والجرد قصر شعر الجلد فيه ، وهو من الأوصاف المحمودة . السراة : الظهر ، ومحبوك السراة ، أى شديد الخلق . حجن مخالبه ، يريد صقرا ، والحجن . الاعوجاج .

فاقتله ؛ وعليك بمُضَر ؛ فإنهم العدُوّ القريب الدار ، فأَبِدْ خَضْرَاءهم[1] ، ولا تَدَعْ على الأرض منهم ديّارا .

* * *

قال المتنبيّ :

لاَ يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأَذَى ... حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوانِبِه الدَّمُ[2]

وله :

وَمَنْ عَرَفَ الأَيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا ... وَبِالنَّاسِ رَوَّى رُمْحَهُ غَيْرَ رَاحِمِ[3]

فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إِذَا ظَفِرُوا بِهِ ... وَلاَ فِي الرَّدَى الجارِى عَلَيْهِمْ بِآثِمِ

وقال المتنبي أيضا :

رِدِى حِيَاضَ الرَّدَى يَا نَفْسُ وَاطَّرِحِي ... حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ وَالنَّعَمِ[4]

إِنْ لَمْ أَذَرْكِ عَلَى الأَرْمَاحِ سَائِلَةً ... فَلاَ دُعِيتُ ابنَ أُمِّ المَجْدِ وَالكَرَمِ

* * *

ومن أباة الضيم قُتيبة بن مسلم الباهليّ أمير خراسان وما وراء النهر ؛ لم يصنعْ أحدٌ صنيعه في فتح بلاد الترك ، وكان[5] الوليد بن عبد الملك أراد أن ينزع أخاه سليمان بن عبد الملك من العَهْد بعده ، ويجعلَه في ابنه عبد العزيز بن الوليد ، فأجابه إلى ذلك قُتيبة بن مسلم وجماعة من الأمراء ، فلما مات الوليد قبل إتمام ذلك ، وقام سليمان بالأمر بعده — وكان

---

(١) في الأساس : أباد الله خضراءهم ، أي شجرتهم التي تفرعوا منها .

(٢) ديوانه ٤ : ١٢٥

(٣) ديوانه ٤ : ١١٢

(٤) ديوانه ٤ : ٤٣

(٥) الطبري (حوادث سنة ٩١) .

قتيبةُ أشدّ الناس فى أمر سليمان وخلعِه عن العهد ـ علم أنه سيعزِله عن خراسان ويولّيها يزيدَ بن المهلبِ ، لودٍّ كان بينه وبين سليمان ، فكتب قتيبة إليه كتابا يهنئه بالخلافة ، ويذكُر بلاءه وطاعتَه لعبد الملك وللوليد بعده ، وأنه على مثل ذلك إن لم يعزْله عن خُراسان ، وكتب إليه كتابا آخر يذكّره فيه بفتوحه وآثاره ، ونكايتِه فى الترك ، وعِظَم قدره عند ملوكهم ، وهيبة العجم والعرب له وعِظَم صيته فيهم ، ويذمّ آل المهلب ، ويحلف له بالله : لئن استعمل يزيد بن المهلب على خراسان ليخلعنّه ، وليملأنّها عليه خيلا ورَجلا ، وكتب كتابا ثالثا فيه خَلع سليمان ، وبعثَ بالكُتُب الثلاثة مع رجل من قومه من باهلة يثق به ، وقال له : ادْفَعْ الكتاب الأول إليه ، فإن كان يزيدُ بن المهلب حاضراً عنده ، فقرأ الكتاب ثم دفعه إلى يزيد فادْفع إليه هذا الثانى ، فإن قرَأه وألقاه إليه أيضا فادفع إليه الثالث ؛ وإن قرأ الكتاب الأول ولم يدفعه إلى يزيد ؛ فاحتبس الكتابين الآخرَيْن معك .

فقدِم الرسولُ على سليمان، ودخل عليه وعنده يزيدبن المهلّب ، فدفع إليه الكتاب الأول ، فقرأ وألقاه إلى يزيد ، فدفع إليه الكتابَ الثانى ، فقرأه وألقاه إلى يزيد أيضا ، فدفع إليه الكتاب الثالث ، فقرأه وتغيّر لونه وطواه ، وأمسكه بيده ، وأمر بإنزال الرسول وإكرامه ، ثم أحضره ليلا ، ودفع إليه جائزته ، وأعطاه عَهْد قتيبة على خُراسان ، وكان ذلك مكيدةً من سليمان يسكنه ليَطمئنّ ثم يعزله ، وبعث مع رسوله رسولا ، فلما كان بحُلْوان بلغه خَلْعُ قتيبة سليمان بن عبد الملك ، فرجع رسول سليمان إليه ، فلما اختلفتِ العربُ على قتيبة حينَ أبدَى صفحته لسليمان ، وخلع رِبقَة الطاعة ، بايعوا وكيعَ بن أبى سود التميمىّ على إمارة خراسان ، وكانت أمراء القبائل قد تنكّرَتْ لقتيبة لإذلاله إياهم ، واستهانته بهم واستطالته عليهم ، وكرهوا إمارته ، فكانت بيعة وكيع فى أوّل الأمر

سرًّا ، ثم ظهر لقتيبة أمرُه ، فأرسل إليه يدعوه ، فوجده قد طلاً رِجْلَه بمَغْرة[1] وعلّق في عنقه خَرَزاً ، وعنده رجلان يَرْقيَان رجلَه ، فقال للرسول: قد ترى ما برجلي ! فرجع وأخبر قتيبة ، فأعاده إليه ، فقال : قل له ليأتيني محمولا ، قال : لا أستطيع . فقال قتيبة لصاحب شرطته : انطلق إلى وكيع فأتني به ؛ فإن أبَى فاضرِبْ عنقَه، وأْتني برأسه ،ووجّه معه خيلا .فقال وكيع لصاحب الشرطة: البَثْ قليلا تلحق الكتائب، وقام فلبس سلاحه ، ونادى في الناس فأتوه ، فخرَج فتلقاه رجل ، فقال : ممن أنت ؟ فقال : من بنى أسد ، فقال : ما اسْمُك ؟ فقال ضِرْغام ، فقال : ابن مَنْ ؟ قال : ابن لَيْث ، فتيمّن به وأعطاه رايته ، وأتاه الناس أرسالا من كل وجه ، فتقدّم بهم ، وهو يقول :

قَرْمٌ إذا حُمِّل مَكْرُوهَةً شَدَّ الشَّرَاسِيفَ لَهَا والحَزِيمْ[2]

واجتمع إلى قتيبة أهلُه وثقاته ، وأكثرُ العرب ألسنتُهم له وقلوبهم عليه . فأمر قتيبة رجلا فنادى : أين بنو عامر ؟ وقد كان قتيبة جَفَاهم في أيام سُلطانه ـ فقال له مُجْفِر[3] ابن جزء الكلابيّ : نادِهم حيثُ وضعتَهم ، فقال قتيبة : أنشُدُكم الله والرحِم ـ وذلك لأن باهلة وعامراً من قيس عيلان ـ فقال مجفر : أنت قطعتَها، قال : فلكم العُتْبى، فقال مجفر : لا أقالنا الله إذا ، فقال قتيبة :

يا نَفْسُ صَبْراً عَلَى ما كَانَ مِنْ أَلَمٍ إذْ لم أجِدْ لِفُضُول العيش أقْرَانا

ثم دعا[4] ببرذون له مُدَرَّب[5] ليركبه ،فجعل يمنعه الركوب حتى أعيا. فلما رأى ذلك

---

(١) المغرة : طين أحمر .

(٢) البيت في اللسان ١٥ : ٢١ ، من غير نسبة. القرم: السيد . والشراسيف : أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن . والحزيم : موضع الحزام من الصدر والظهر كله .

(٣) في الطبري : « محصن » .

(٤) في الطبري : « ودعا بعمامة ، وكانت أمه بعثت بها إليه : فاعتم بها ،وكان يعتم بها في الشدائد ، ودعا ببرذون . . . » .

(٥) المدرب : المؤدب الذي ألف الركوب وعود المشي .

عاد إلى سريره فجلس ، وقال : دعوه ؛ فإنّ هذا أمرٌ يُراد . وجاء حيان النَّبَطِيّ ـ وهو يومئذ أمير الموالى ، وعدتهم سبعة آلاف ، وكان واجدا على قُتيبة ـ فقال له عبد الله بن مسلم أخو قتيبة : احمل ياحيان ، فقال : لم يأن بعد ، فقال له: ناولْنِي قوسَك ، فقال حيان: ليس هذا بيوم قوس . ثم قال حيان لابنه : إذ رأيتَنِي قد حوّلت قلنسوتى ، ومضيتُ نحو عسكر وكيع فمِلْ بمن معك من العجم إلىّ ، فلما حَوّل حيان قلنسُوتَه ومضى نحو عسكر وكيع ، مالت الموالى معه بأسْرها ، فبعث قتيبة أخاه صالح بن مسلم إلى الناس ، فرماه رجلٌ من بنى ضَبّة فأصاب رأسه ، فحُمل إلى قتيبة ورأسه مائل ، فوضَعه على مصلّاه ، وجلس عند رأسه ساعة ، وتهايج الناسُ ، وأقبل عبد الرحمن بن مسلم أخو قتيبة نحوهم ، فرماه الغوغاء وأهلُ السوق فقتلوه ، وأشِير على قتيبة بالانصراف ، فقال: الموتُ أهونُ من الفرار . وأحرق وكيع موضعا كانت فيه إبل قُتيبة ودوابّه ، وزحَفَ بمن معه حتى دنا منه ، فقاتل دونه رجل من أهله قتالا شديدا ، فقال له قتيبة : انجُ بنفسِك ، فإنّ مثلك يُضَنّ به عن القتل ، قال: بئسما جزَيْتُك به أيها الأمير إذاً ، وقد أطعمتَنِي الجَرْدَق ، وألبستنى النُّمرق[1] . وتقدّم الناس حتى بلغوا فُسطاط قتيبة ، فأشار عليه نُصحاؤه بالهرب ، فقال : إذاً لست لمسلم بن عمرو ! ثم خرَج إليهم بسيفِه يجالدهم ، فجرح جراحات كثيرة ، حتى ارتُثّ[2] وسقط ، فأكبّوا عليه ، فاحتزُّوا رأسه ، وقُتِل معه من اخوته عبد الرحمن ، وعبد الله وصالح ، والحصين ، وعبد الكريم ، ومسلم ؛ وقُتِل معه جماعة من أهلِه وعدّة مَنْ قتل معه من أهله وإخوته أحد عشر رجلا . وصعد وكيع بن أبى سود المنبر وأنشد :

* مَنْ يَنِكِ الْعَيْرَ يَنِكْ نَيِّا كا *[3]

---

(١) الجردق : الرغيف ، معرب فارسيته : « كرده » . والنمرق : الميثرة .
(٢) ارتث ، بالبناء للمجهول : حمل من المعركة جريحا وبه رمق .
(٣) مثل ؛ قاله خضر بن شبل الخثعمى ، فى خبر ذكره صاحب مجمع الأمثال ٢ : ٣٠٥

إنّ قتيبة أراد قتلي ، وأنا قتّال الأقران ، ثم أنشد :

قَدْ جَرَّبُونِي ثُمَّ جَرَّبُونِي مِنْ غَلْوَتَيْن وَمِنَ الْمِئِين
حَتَّى إذا شبْتُ وَشَيَّبُونِي خَلَّوا عِنانى ثم سَيَّبُونِي(١)
حَذارِ منى وتنكَّبونِي فإنّنى رامٍ لِمَنْ يَرْمِينِي

ثم قال : أنا أبو مطرّف ، يكررها مرارا ، ثم قال :

أنا ابنُ خِنْدِف تنميني قبائلُها للصّالحات وعَمّى قَيْسُ عَيْلانا

ثم أخذ بلحيته ، وقال : إنّي لأقتلنّ ثم لأقتلنّ ولأصلبنّ ثم لأصلبنّ ؛ إن مَرْزُبانكم(٢) هذا ابن الزانية ، قد أغلى أسعاركم ؛ والله لَئِنْ لم يَصِرْ القفيز(٣) بأربعة دراهم لأصلبنّه ، صلّوا على نبيكم .

ثم نزل وطلبَ رأس قتيبة وخاتَمه ، فقيل له : إنّ الأزد أخذته ؛ فخرج مُشْهراً(٤) ، وقال : والله الذى لا إله إلّا هوَ لا أبرحُ حتى أوتى بالرأس ، أو يذهب رأسى معه ، فقال له الحُصَين بن المنذر : يا أبا مطرّف فإنك تؤتَى به . ثم ذهب إلى الأزد ، فأخذ الرأس وأتاه به ، فسيّره إلى سُليمان بن عبد الملك ، فأدخِل عليه ومعه رءوس إخوته وأهله ، وعنده الهُذَيل ابن زُفَر بن الحارث الكلابيّ ، فقال : أساءك هذا يا هذيل؟ قال : لو ساءنى لساء ناسا كثيرا . فقال سليمان : ما أردت هذا كلّه ، وإنما قال سليمان ذلك للهُذيل ، لأنّ قيس عَيْلان تجمع كِلاَبا وباهلة ، قالوا : ما وَلِيَ خُراسان أحدٌ كقُتيبة بن مسلم ؛ ولو كانت باهلة فى الدناءة والضّعة واللؤم إلى أقصى غاية ، لكان لها بقتيبة الفَخْر على قبائل العرب .

(١) أصله فى الدابة ، يقال : سيب الدابة ، إذا تركها تذهب حيث شاءت ، وفى تاريخ الطبرى :

حتّى إذا شبت وشَيّبُونى خَلّوا عِنانى وتَنَكّبُونى

وانظر أمالى القالى ١ : ٢٨٦

(٢) المرزبة : رياسة الفرس ، وهو مرزبانهم .

(٣) الطبرى : « والله ليصيرن القفيز فى السوق غدا بأربعة » .

(٤) أى مشهرا سيفه .

قال رؤساء خراسان من العجم لما قتِل قتيبة : يامعشرَ العرب ، قتلتم قتيبة ،والله لو كان مِنّا ثم مات لجعلناه فى تابوت، فكنّا نستفتح به إذا غَزَوْنا .

وقال الأصبهبذ[1] : يامعشر العرب ، قتلتم قُتيبة ويزيد بن المهلّب ، لقد جئتم شيئا إدًّا ! فقيل له : أيُّهما كان أعظمَ عندكم وأهيبَ ؟ قال : لو كان قُتيبة بأقصى حُجْرةٍ[2] فى المغرب ، مكبّلا بالحديد والقيود ، ويزيد معنا فى بلدنا والٍ علينا ، لكان قتيبة أهيَبَ فى صدورنا وأعظم .

وقال عبد الرحمن بن جمانة الباهليّ يرثى قُتيبة :

كأنَّ أبا حفص قُتيبة لم يَسِرْ ... بجيشٍ إلى جيشٍ ولَمْ يَعْلُ مِنْبَرا

ولم تَخْفِق الرّاياتُ والجيش حَوْلهُ ... صُفوفا ولم يشهد له الناسُ عَسْكَرا

دَعَتْهُ المنايا فاستجابَ لربّه ... ورَاحَ إلى الجنّات عَفًّا مُطَهّرا

فما رُزِئَ الإسلامُ بَعْدَ محمدٍ ... بمثلِ أبى حَفْصٍ ، فَبَكِّيه عَبْهَرَا

عَبْهر: أمّ ولد له .

***

وفى الحديث الصحيح : « إنّ من خَيْرِ النّاسِ رَجُلًا ممسكا بعِنان فرسه فى سبيل الله، كلّما سمع هَيْعَة[3] طار إليها » .

كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد : واعلم أنّ عليك عُيونًا من الله تَرْعاك وتَراك، فإذا لقيت العدوّ ؛ فاحرِص على الموت تُوهَبْ لك الحياة ، ولا تغسِّل الشهداء من دمائهم ؛ فإنّ دم الشهيد يكون له نورا يوم القيامة .

---

(١) الأصبهبذ فى الديلم : كالأمير فى العرب .

(٢) الحجرة : الناحية .

(٣) الهيعة : الصوت أو الصياح .

عمر : لا تزالون أصحاء ما نزعتم ونزوتم ؛ يريد : ما نزعتم في[1] القوس ، ونزوتم على الخيل .

بعض الخوارج :

وَمَنْ يَخْشَ أظفارَ المَنَايا فإننا ... لَبِسْنا لهنّ السابغاتِ مِنَ الصَّبْرِ

وإنّ كريهَ الموتِ عذبٌ مذاقُهُ ... إذا ما مزجناه بطيبٍ مِنَ الذِّكْرِ

حضّ منصور بن عمّار في قصصه على الغزْو والجهاد ، فطرِحَتْ في المجلس صُرّة فيها شيء ، ففُتِحَتْ فإذا فيها ضفيرتا امرأة ، وقد كتبت : رأيتُك يابن عمّار تحضّ على الجهاد ، ووالله إني لا أملك لنفسي مالا ، ولا أملك سوى ضفيرتيّ هاتين ، وقد ألقيتُهما إليك ، فتالله إلا جعلتَهما قَيْدَ فرسٍ غازٍ في سبيل الله ، فلعل الله أنْ يرحمني بذلك .

فارتجّ المجلس بالبكاء والضجيج .

* * *

لبعض شعراء العجم :

وَاسَوءتَا لامْرِىءٍ شَبِيبَتُهُ ... في عُنْفُوَانٍ وَمَاؤُهُ خَضِلُ !

رَاضٍ بِنَزْرِ المعاشِ مُضْطَهَدٍ ... عَلَى تراثِ الآباءِ يَتَّكِلُ

لاَ حَفظَ اللهُ ذَاكَ مِنْ رَجُلٍ ... وَلاَ رَعَاهُ مَا أطّتِ الإبِلُ

كلاّ وَرَبِّي حَتّى تكون فتًى ... قد نهكتْهُ الأسفارُ والرِّحَلُ

مُشَمِّرًا يطلبُ الرِّياسةَ أوْ ... يُضرَبُ يَوْمًا بِهُلْكِهِ المَثَلُ

حَتى مَتى تتبعُ الرِّجالَ وَلاَ ... تُتْبَعُ يوماً ، لأمِّكَ الهَبَلُ !

* * *

(١) يقال : نزع في القوس نزعاً ، إذا جذب الوتر بالسهم .

عبد الله بن ثعلبة الأزدىّ :

فلئن عمرتُ لأشفينّ النفس من تلك المساعى
ولأعلمنّ البطن أنّ الزّادَ ليس بمُستَطاعِ
أمّا النهارُ فقد أرى قومى بمرقبةٍ يفاعِ[1]
فى قرّة هلاكٍ وشو كٍ مثل أنيابِ الأفاعى[2]
تردُ السِّباعُ معى فتحسبنى السِّباعُ من السِّباعِ

* * *

مجير الجراد أبو حنبل حارثة بن مرّ الطائىّ ، أجارَ جراداً نزل به ومنعَ من صيده، حتى طار من أرضه ، فسمِّى مجيرَ الجرادِ .

وقال هلال بن معاوية الطائىّ :

وبالجبلين لنا معقلٌ صَعَدْنا إليه بِصُمّ الصِّعادِ
ملكناهُ فى أوليات الزّما نِ من قبلِ نوحٍ ومن قبلِ عادِ
ومنّا ابنُ مرّ أبو حنبلٍ أجارَ من الناس رَجْلَ الجرادِ
وزيدٌ لنا ولنا حاتمٌ غياث الورى فى السّنين الشداد

* * *

وقال يحيى بن منصور الحنفىّ :

ولمّا نأت عنّا العشيرةُ كلُّها أنخنا فحالفنا السُّيوفَ على الدّهرِ[3]
فما أسلمتنا عند يومِ كريهةٍ ولا نحن أغضينا الجفونَ على وِترِ

(١) اليفاع : التل .
(٢) ما يصيب الإنسان من البرد .
(٣) ديوان الحماسة ٣٢٦ — بشرح المرزوق .

وقال آخر :

أَرِقَّ لأرْحَامٍ أرَاها قَرِيبَةً ... لحارِ بن كعبٍ لا لجَرْمٍ وَرَاسِبِ [1]

وإنا نَرَى أقدامَنَا فى نعالِهِمْ ... وآنُفَنا بين اللِّحَى والحواجبِ

وإقدامَنا يَوْمَ الوَغَى وإباءنا ... إذا ما أبَيْنا لا نُدِرّ لعاصِبِ

***

حاصرت التّرك مدينة بَرْذَعة من أعمال أذْرَبيجان فى أيام هشام بن عبد الملك حصارا شديدا ، واستضعفتْها وكادت تملكها ، وتوجّه إليها لمعاونتها سعيد الحرَشىّ من قِبَل هشام بن عبد الملك فى جُيوش كثيفة ، وعلم الترك بقربه منهم فخافوا ، وأرسل سعيد واحداً من أصحابه إلى أهل بَرْذَعة سِرًّا يعرّفهم وصوله ، ويأمرهم بالصبر خوفا ألّا يدركهم ، فسار الرجلُ ، ولقيَه قومٌ من الترك ، فأخذوه وسألوه عن حاله ، فكتَمهم فعذّبوه ، فأخبرهم وصدقهم فقالوا : إن فعَلْتَ ما نأمُرك به أطلقناك ، وإلا قتلناك ، فقال : ماتريدون ؟ قالوا : أنت عارف بأصحابك ببرذَعة وهم يعرفونك ، فإذا وصلتَ تحت السُّور فنادِهم : إنه ليس خَلْفى مَدَد ، ولا من يكشف ما بِكُم ، وإنما بُعثت جاسوسا . فأجابهم إلى ذلك ، فلما صار تحت سورها ، وقف حيث يسمع أهلُها كلامه ، وقال لهم : أتعرفوننى؟ قالوا : نعم ، أنت فلان ابن فلان ، قال : فإنّ سعيداً الحرَشىّ قد وصل إلى مكان كذا فى مائة ألف سيف ؛ وهو يأمرُكم بالصبر وحفظ البلد ، وهو مصبِحكم أو ممسّيكم ، فرفع أهل برذعة أصواتهم بالتكبير ، وقتلت الترك ذلك الرجل ، ورحلوا عنها ووصل سعيد فوجد أبوابها مفتوحة وأهلها سالمين .

وقال الراجز :

مَنْ كان ينوِى أهلَه فلا رَجَعْ ... فَرّ من الموت وفى الموتِ وَقَعْ

(١) ديوان الحماسة ١ : ٣٢٨ بشرح المرزوقى ، ونسبها إلى بعض بنى عبس .

أشرف معاوية يوما فرأى عسكر علىّ عليه السلام بِصفّين فهاله ، فقال : مَنْ طلب عظيما خاطر بعظيمته .

وقال الكلحبة :

إذَا المرْءُ لم يَغْشَ المكارهَ أوشكت ... حِبالُ الهوينَى بالفتى أنْ تقطّعا(١)

* * *

ومن شعر الحماسة :

أقولُ لها وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعاً ... مِنَ الأبطالِ وَيحَكِ لا تُرَاعِي(٢)

فإنّكِ لَوْ سَألتِ بَقَاءَ يَوْمٍ ... عَلَى الأجلِ الّذى لكِ لم تُطَاعِي

فصبراً فى مجالِ الموتِ صَبْراً ... فَمَا نَيْلُ الخلودِ بِمُسْتَطاعِ

وَلَا ثَوْبُ البقاءِ بِثَوْبِ عِزٍّ ... فيطوَى عَنْ أخى الخَنَعِ اليراعِ(٣)

سَبيلُ الموتِ غَايَةُ كلّ حَيٍّ ... فداعيهِ لأهْلِ الأرض دَاعِ

وَمَنْ لا يُعْتَبَطْ يَسْأمْ وَيَهْرَمْ ... وَتُسْلِمْهُ المنونُ إلى انقطاعِ

وما للمرءِ خَيْرٌ فى حياةٍ ... إذا مَاعُدَّ مِنْ سَقَطِ المتَاعِ

ومنه أيضا :

وفى الشرِّ نجاةٌ حين لاَ يُنْجِيك إحْسَانُ(٤)

ومنه أيضا :

وَلم نَدْرِ إنْ جِضْنا عَنِ الموت جَيْضةً ... كَمِ العمرُ باقٍ والمدى مُتَطاوِلُ(٥)

---

(١) المفضليات ٣٢

(٢) لقطرى بن الفجاءة . ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٩٦

(٣) أخو الخنع : الذليل . واليراع : الرجل الجبان ؛ كأنه لا قلب له ؛ تشبيها له بالقصبة الجوفاء .

(٤) للفند الزمانى ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٢٦

(٥) لجعفر بن علبة الحارثى ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٤٨ . جضنا : عدلنا وانحرفنا .

ومنه أيضا :

وَلَا يَكْشِفُ الغَمَّاءَ إلا ابنُ حُرَّةٍ ... يَرَى غَمَراتِ الموتِ ثُمَّ يَزُورُها(١)

ومنه أيضا :

فَلَا تَحْسَبِي أَنِّي تَخَشَّعْتُ بَعْدَكُمْ ... لِشَيءٍ وَلَا أَنِّي مِنَ المَوْتِ أَفْرَقُ(٢)

وَلَا أَنَّ نَفْسِي يَزْدَهِيها وَعِيدُكُمْ (٣) ... وَلَا أَنَّنِي بالمشى فى القَيْدِ أَخْرَقُ

ومنه أيضا :

سَأَغْسِلُ عَنِّى العارَ بالسَّيْفِ جَالِبًا ... عَلَىَّ قضاءُ اللهِ مَا كَانَ جالبا(٤)

وأَذْهَلُ عن دارِي وأَجْعَلُ هَدْمَها ... لِعِرْضِيَ مِنْ باقى المَذَمَّةِ حَاجِبَا

وَيَصْغُرُ فى عينى تلادِى إذا انْثَنَتْ ... يمينى بإدراكِ الَّذى كنتُ طالبا

فإنْ تَهْدِمُوا بالغدرِ دارى فإنَّها ... تراثُ كريمٍ لَا يُبَالِى العواقبا

أَخِى عَزَماتٍ لا يُطِيعُ على الَّذى ... يَهُمُّ به مِنْ مُقْطِعِ الأمرِ عاتِبا

إذا هَمَّ أَلْقَى بين عينيهِ عزمَهُ ... ونَكَّبَ عن ذِكْرِ العواقبِ جانبا

فيا لَرِزَامٍ رَشِّحُوا بِى مُقَدَّمًا ... إلى الموتِ خوَّاضًا إليه السَّبَاسِبَا

إذا هَمَّ لم تُرْدَعْ عَزِيمةُ هَمِّه ... ولم يأتِ ما يأتى مِنَ الأَمْرِ هائِبا

وَلَمْ يَسْتَشِرْ فى أمره غَيْرَ نفسِه ... وَلَمْ يرضَ إلا قائمَ السيفِ صاحبا

ومنه أيضاً :

هُمَا خُطَّتَا إمَّا إسارٌ وَمِنَّةٌ ... وإمَّا دمٌ، والقتلُ بالحرِّ أجدرُ(٥)

---

(١) لجعفر بن علبة أيضا، ديوان الحماسة — بشرح التبريزى ١ : ٥٠

(٢) له أيضا، ديوان الحماسة — بشرح التبريزى ١ : ٥٤ . (٣) وفى الشرح: ويروى «وعيدهم».

(٤) لسعد بن ناشب، ديوان الحماسة — بشرح التبريزى ١ : ٧٠

(٥) لتأبط شرا، ديوان الحماسة — بشرح التبريزى ١ : ٧٨

ومنه أيضا :

وإنّا لَقَوْمٌ لَا نَرَى القتل سُبّةً إذا مَارَأَتْهُ عامِرٌ وَسَلُولُ(١)

يقصِّر حبُّ الموتِ آجالَنَا لنا وتكرهُه آجالُهم فتطولُ

وَمَا مات مِنّا سيدٌ حَتْفَ أنفِه وَلَا طُلَّ مِنّا حيثُ كان قَتِيلُ

تَسِيلُ عَلَى حدِّ الظُّبَاةِ نفوسُنَا وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ السُّيوفِ تَسِيلُ

ومنه أيضا :

لَا يَرْكَنَنْ أحدٌ إلى الإحْجَامِ يَوْمَ الوَغى مُتَخَوِّفًا لِحِمَامِ(٢)

فَلَقَدْ أرَانِى للرِّمَاحِ دَرِيئَةً مِنْ عَنْ يمينى تارَةً وأمَامِى

حَتّى خَضَبْتُ بما تحدَّر مِنْ دَمِى أكنافَ سَرْجِى أو عِنانَ لِجامِى

ثم انصرفتُ وقد أصبتُ ولم أُصَبْ جَذَعَ البصيرةِ قارِحَ الإقدامِ

ومنه أيضا :

وإنّى لدَى الحربِ الضَّروس موكَّلٌ بإقدامِ نَفْسٍ لا أريدُ بقاءَها(٣)

متى يأتِ هذا الموتُ لا تُلْفَ حَاجَةٌ لنفسِيَ إلا قد قَضَيْتُ قضاءَها

***

كتب عبدُ الحميد بن يحيى عن مَرْوان بن محمد إلى أبى مسلم كتابًا ، حُمِل على جَمَلٍ لعظَمه وكثرته . وقيل : إنّه لم يكن فى الطول إلى هذه الغاية ، وقد حُمِل على جمل تعظيما لأمره ، وقال لمروان بن محمد : إنْ قرأه خاليا نَخِبَ(٤) قلبه ، وإن قرأه فى ملإٍ من

---

(١) للسموءل ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ١١١
(٢) لقطرى بن الفجاءة ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ١٣٠
(٣) لقيس بن الخطيم ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ١٨١
(٤) نخب : جبن .

أصحابه ثبّطهم وخذلهم ، فلما وصل إلى أبي مسلم أحرقه بالنار ولم يقرأه ، وكتب على بياض كان على رأسه وأعاده إلى مروان :

مَحَا السَّيْفُ أسطارَ البلاغة وانتحتْ إليك ليوثُ الغاب من كلِّ جانب(١)

فإن تقدموا نُعمِلْ سيوفًا شحيذةً يهون عليها العَتْبُ من كلِّ عاتب(٢)

ويقال : إنّ أول الكتاب كان : لو أراد الله بالنّملة صلاحا ، لما أنبتَ لها جناحا .

وكتب أبو مسلم إلى نصر بن سيّار ، وهو أول كتاب صَدَر عن أبي مُسلم إلى نَصْر ، وذلك حين لبس السواد ، وأعلن بالدّعوة في شهر رمضان من سنة تسع وعشرين ومائة: أما بعد فإن الله جلّ ثناؤه ذكر أقواما فقال : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى من إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إلا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾(٣)

فلما ورد الكتابُ إلى نصر تعاظمه أمرُه ، وكسَر له إحْدَى عينيه ، وقال : إنّ لهذا الكتاب لأخوات ، وكتب إلى مَرْوان يستصرخه ، وإلى يزيد بن هبيرة يستنجده ، فقعدا عنه حتى أفضى ذلك إلى خروج الأمر عن بني عبد شمس .

* * *

الرّضيُّ الموسويّ رحمه الله تعالى :

سأَمْضِي لِلَّتِي لا عيبَ فيها وإنْ لم أستفِدْ إلا عنَاء(٤)

---

(١) انتحت : قصدت .

(٢) شحيذة : مسنونة .

(٣) سورة فاطر ٤٢ ، ٤٣ .

(٤) ديوانه لوحة ٧٥ ـ ٧٦

وأطْلُبُ غايةً إنْ طوَّحَتْ بِي أصابَتْ بِي الحِمَامَ أو العَلَاء
نَمَانِي مِنْ أباةِ الضيم آبٍ[1] أفاضَ عليَّ تلك الكِبْرِياء
وَمِنَّا كُلّ أغلبَ مُستميتٍ إذا أنْتَ لَدَدْتَه بالذلِّ قاء[2]
إذَا ماضِيمَ نَمَّرَ صَفْحَتَيْهِ وَقَامَ عَلَى بَرَاثِنِهِ إباء[3]
ونأبى أنْ يُنَالَ النَّصْفُ مِنَّا وأنْ نُعطى مقارِعَنا السَّواء
ولَوْ كان العِداءُ يسوغُ فينا لَمَا سُمْنَا الورى إلّا العَدَاء

وله :

سَيُقطِعُك المهنَّد ماتمنَّى ويُعطيك المثقفُ ماتشاء[4]
وما ينجى من الغَمَرات إلا طِعانٌ أو ضِرابٌ أو رِماء

***

ومن أهل الإباء الذين كرهوا الدنيّة واختاروا عليها المنيّة، عبدُ الله بن الزبير، تفرّق عنه ــ لما حاربه الحجّاج بمكة، وحصرَه في الحرم ــ عامّة أصحابه، وخرج كثير منهم إلى الحجّاج في الأمان؛ حتى حَمْزَة وخُبَيْبٌ ابناه، فدخل عبد الله على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، وكانت قد كُفّ بصرُها، وهي عجوز كبيرة، فقال لها: خَذَلني النّاس حتى ولدي وأهلي، ولم يبق معي إلّا من ليس عنده من الدّفع أكثرُ من ساعة، والقوم يُعطونني من الدّنيا ماسألتُ، فما رأيك؟ فقالت: أنت يابنيَّ أعلمُ بنفسك، إنْ كنت تعلم أنك على حقّ وإليه تدعو فامضِ له، فقد قُتِل أكثرُ أصحابك، فلا تمكّن من رَقَبتك يتلاعب بها غِلمانُ بني أميّة، وإن كنت إنما أردتَ الدنيا فبئس العبد أنت! أهلكتَ

---

(١) الديوان: « تام ».
(٢) الأغلب: الشجاع، وأصله في الأسد.
(٣) الصفحتان: جانبا العنق، ونمّرهما: جعلهما يشبهان صفحة النمر.
(٤) ديوانه لوحة ١٧٦

نفسك ، وأهلكت مَنْ قُتِل معك ، وإن كنت قاتلتَ على الحقّ ، فما وهنَ أصحابُك إلا ضعفت ، فليس هذا فعلَ الأحرار ولا أهلِ الدين . وكم خلودك فى الدّنيا ! القتلُ أحسن .

فدنا عبد الله منها فقبّل رأسها ، وقال : هذا والله رأيى ، والله ماركنتُ إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضبُ لله تعالى عزّ وجلّ أنْ تُستَحلّ محارمُه ، ولكننى أحببتُ أن أعلم رأيك ، فقد زِدْتِنى بصيرة ، فانظرى ياأماه ، إنى مقتول يومى هذا ، فلا يشتدُّ جَزَعُك ، وسلّمى لأمر الله ، فإنّ ابنَك لم يتعمّدْ إتيان منكر ، ولا عملا بفاحشة ، ولم يجُرْ فى حكم الله، ولم يظلِمْ مسلماً ولا معاهَدا، ولا بلغنى ظلمٌ عن عامل من عُمّالى فرضيتُ به بل أنكرتُه ، ولم يكن شىء عندى آثرَ من رضا الله . اللهمّ إنى لاأقول هذا تزكيةً لنفسى ، أنتَ أعلم بى ؛ ولكنّى أقولُه تعزيةً لأمى لتسلوَ عَنّى. فقالت : إنّى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حَسَناً إن تقدمتَنى ؛ فاخرج لأنظُرَ إلى ماذا يصير أمرك ! فقال : جَزَاكِ الله خيرا ياأمى ! فلا تَدَعى الدّعاء لى حيًّا وميتا . قالت : لاأدَعُه أبدا ، فمن قُتِل على باطلٍ فقد قتلت على حق ، ثم قالت : اللهم ارحمْ طولَ ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيبَ فى الظلماء ، وذلك الصوم فى هواجِر مكة والمدينة ، وبرّه بأبيه وبى ؛ اللهمّ إنى قد أسلمتُ لأمرك ، ورضيتُ بما قضيت فيه ، فأثِبْنى عليه ثوابَ الصابرين .

وقد رُوِىَ فى قصّة عبد الله مع أمّه أسماء رواية أخرى ، أنّه لما دخل عليها وعليه الدِّرْع والمِغفر — وهى عمياء لاتبصر — وقف فسلّم ، ثم دنا فتناول يدَها فقبّلها ، قالت : هذا ودَاع فلا تَبْعُدْ ، فقال : نعم ، إنما جئتُ مودِّعا ، إنّى لأرى هذا اليوم آخرَ أيامى من الدنيا ، واعلمى ياأمّى أنى إذا قتلتُ فإنما أنا لحم لايضرُّنى ماصنع بى ، فقالت: صدقت يابنىّ ! أقِمْ على بصيرتك ،ولا تمكّن ابن أبى عقيل مِنْك ، ادنُ منى لأودّعك ، فدنا منها فقبّلته

وعانقته ، فوجدت مسّ الدِّرْع ، فقالت : ماهذا صنع من يريد ماتريد . فقال: إنما لبسته لأشدّ منك ، قالت : إنه لايشدّ منى ، ثم انصرف عنها ، وهو يقول :

إنى إذا أعرفُ يَوْمِى أصبرُ إذْ بعضهم يعرف ثم ينكِرُ

وأقام أهلُ الشام على كل باب من أبواب الحرَم(١) رجالا وقائدا ، فكان لأهل حِمْص الباب الذى يواجه باب الكعبة ، ولأهلِ دمشق باب بنى شَيْبة ، ولأهل الأردنّ باب الصّفا ، ولأهل فلسطين باب جُمَح ، ولأهل قِنَّسْرِين باب بنى سَهْم . وخرج ابنُ الزبير فمرة يحمل هاهنا ومرة يحمل هاهنا ، وكأنه أسد لا يُقْدم عليه الرجال ، وأرسلتْ إليه زوجته: أأخرج فأقاتل معك ؟ فقال : لا ، وأنشد :

كُتِبَ الْقَتْل والقِتالُ عَلَيْنا وعَلَى الْمُحْصَناتِ جَرُّ الذُّيولِ(٢)

فلما كان الليل ، قام يصلّى إلى قريب السَّحَر ثم أغفى محتبيا بحمائل سيفه ، ثم قام فتوضأ وصلّى ، وقرأ ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ، ثم قال بعد انقضاء صلاته: مَنْ كان عنّى سائلا فإنى فى الرَّعِيل الأول ، ثم أنشد :

وَلَسْتُ بمبتاع الحياة بِسُبَّةٍ ولا مرتقٍ مِنْ خَشْيَةِ الموتِ سُلَّما(٣)

ثم حَمَل حتى بلغ الحجون ، فرُمِىَ بآجرّة ، فأصابت وجهه فَدَمِى ، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه ، أنشد :

وَلَسْنا عَلَى الأعْقاب تَدْمَى كُلُومُنَا وَلَكِنْ عَلَى أقْدامِنا تقْطُر الدِّما(٣)

ثم حمل على أهل الشام فغاص فيهم ، واعتوروه بأسيافهم حتى سقط ، وجاء الحجاج

---

(١) كذا فى ج ، وهو الصواب ، وفى ب : « مكة »

(٢) ينسب إلى عمر بن أبى ربيعة ، ملحق ديوانه ٤٩٨ .

(٣) للحصين بن الحمام المرى ، من مفضليته ص ٦٤ — ٦٩

فوقف عليه وهو ميت ، ومعه طارق بن عمرو ، فقال : ما ولدت النساء أذكر من هذا ! وبعث برأسه إلى المدينة ، فنُصب بها ، ثم حمل إلى عبد الملك .

***

أبو الطيب المتنبي :

أطاعِنُ خَيْلاً مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ ... وحيداً وما قولِى كَذَا وَمَعِى الصَّبْرُ ! [1]

وأشجَعُ مِنّى كلَّ يوم سَلَامَتِى ... وَمَا ثَبَتَتْ إلا وفى نفسها أمْرُ

تَمَرَّسْتُ بالآفاتِ حَتّى تركتُها ... تقولُ : أماتَ الموتُ ؟ أم ذُعِرَ الذُّعْرُ ؟

وَأَقْدَمْتُ إقدَام الأبى كأنَّ لى ... سِوَى مُهْجَتِى أو كان لِى عِنْدَهَا وِتْرُ [2]

ذَرِ النَّفْسَ تأخذْ حَظَّها قَبْلَ بَيْنِها ... فمفترِقٌ جاران دارهُمَا العمرُ !

ولا تَحسبنَّ المَجْدَ زِقًّا وقَيْنَةً ... فما المجدُ إلا السَّيْفُ والفَتْكَةُ البِكْرُ [3]

وَتَضْرِيبُ هامَاتِ الملوكِ وأنْ تُرَى ... لكَ الهَبواتُ السُّودُ والعسكرُ المَجْرُ [4]

وتَرْكُكَ فى الدُّنيا دَوِيًّا كأنما ... تداوَلَ سَمْعَ المرءِ أنْمُلُهُ العَشْرُ

***

وقال ابن حَيُّوس :

ولستُ كَمَنْ أخْفَى عَلَيْهِ زمانه ... فظلَّ عَلَى أحْداثِهِ يتعتَّبُ [5]

تَلَذُّ لهُ الشَّكْوى وإن لم يُفِدْ بهَا ... صَلاحاً كما يلتذُّ بالحكِّ أجْرَبُ

ولكننى أحمِى ذِمارِى بعزمةٍ ... تنوبُ منابَ السَّيفِ والسَّيفُ مقضَبُ [6]

---

(١) ديوانه ١ : ١٤٨

(٢) فى الديوان : « إقدام الأتى » ، والأتى : السيل الذى لا يرده شىء .

(٣) القينة : المغنية والزق : ظرف الخمر . والفتكة البكر : التى لم يسبق إلى مثلها .

(٤) الهبوات : جمع هبوة ؛ وهى الغبرة المظيمة . والمجر : الجيش العظيم .

(٥) ديوانه ١ : ٣٥ .

(٦) المقضب : السيف القطاع .

وليس الفتى مَنْ لم تسم جسمَه الظُّبا ... ويُحْطَمُ فيهِ مِنْ قَنا الخطِّ أَكْعُبُ(١)

وله أيضا :

أخفَق المترَف الجنوحُ إلى الخفْـ ... ـضِ وفاز المخاطرُ المِقْدَامُ(٢)

وإذا ما السُّيوف لم تشهد الحر ... بَ فسيّانِ صارمٌ وكَهَامُ

***

ومن تَقَيَّل مذاهبَ الأسلاف فى إباء الضيم وكراهية الذلّ ، واختار القتلَ على ذلك وأن يموتَ كريما ؛ أبو الحسين زيد بنُ علىّ بن الحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام، أمه أم ولد ، وكان السببُ فى خروجه وخلعه طاعةَ بنى مروان، أنه كان يخاصِم عبدَ الله بن حسن بن حسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام فى صدقاتِ علىّ عليه السلام ، هذا يخاصِم عن بنى حسين ، وهذا عن بنى حسن ؛ فتنازعا يوماً عنـد خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحـكم أمير المدينة، فأغلظ كلٌّ واحد منهما لصاحبه ، فسُرَّ خالد بن عبدالملك بذلك ، وأعجبه سِبابهما ، وقال لهما حين سكتا : أغدُوَا علىّ ، فلستُ بابن عبد الملك إنْ لم أفصِلْ بينـكما غدا ، فباتت المدينة تَغْلِي كالمِرْجل ، فمن قائل يقول : قال زيد كذا ، وقائل يقول : قال عبد الله كذا ، فلما كان الغد جلس خالد فى المسجد ، وجمع الناس ؛ فمن بين شامتٍ ، ومغموم ، ودعا بهما وهو يحبّ أن يتشاتما ، فذهب عبدُ الله يتكلّم، فقال زيد: لا تعجل ياأبا محمد ، أعتقَ زيد ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبدا ، ثم أقبل على خالد ، فقال له : أجمَعْتَ ذرّية رسول الله صلى الله عليه وآله لأمرٍ ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عمر ، فقال خالد : أما لهذا السفيه أحدٌ يكلّمه !

فتكلّم رجل من الأنصار من آل عمرو بن حَزْم ، فقال : يابن أبى تراب ، ويابن

---

(١) الديوان : « تسم جسمه » .

(٢) ديوانه ٢ : ٥٦٦

حسين السفيه ! أما ترَى عليك لوالٍ حقا ولا طاعة ! فقال زيد : اسكت أيها القحطانىّ، فإنّا لانجيب مثلك ، فقال الأنصارىّ: ولم ترغبُ عنى ! فوالله إنّى لخيرٌ منك ، وأبى خير من أبيك ، وأمّى خير من أمك ! فتضاحك زيد ، وقال : يامعشر قريش ؛ هذا الدين قد ذهب ، أفذهبت الأحساب ! فتكلّم عبدالله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فقال : كذبت أيها القحطانىّ ، والله لَهُوَ خيرٌ منك نفسا وأباوأما ومَحْتِداً ، وتناوله بكلام كثير ، وأخذ كفًّا من الحصا ، فضرب به الأرض ، وقال : إنه والله مالَنَا على هذا من صبر ، وقام .

فقام زيد أيضا ، وشخص من فوره إلى هشام بن عبدالملك ، فجعل هِشامٌ لا يأذن له وزيد يرفع إليه القِصص، وكلّمارفع إليه قصة كتب هشام فى أسفلِها : ارجِعْ إلى أرضِك، فيقول زيد : والله لا أرجع إلى ابن الحارث أبدا . ثم أذن له بعد حَبْسٍ طويل وهشام فى عِلِّية له ، فرقىَ زيد إليها ، وقد أمر هشام خادما له أن يتبعه حيث لا يراه زيد ،ويسمع ما يقول . فصعد زيد — وكان بادنا — فوقف فى بعض الدرجة ، فسمعَه الخادم ، وهو يقول : ماأحبّ الحياة إلا مَن ذلّ ! فأخبر الخادم هشاما بذلك ، فلما قعد زيد بين يدى هشام وحدّثه حلَف له على شىء ، فقال هشام :لاأصدّقك ، فقال زيد : إن الله لا يرفع أحداً عن أن يرضى بالله ، ولم يضع أحداً عن أن يرضى بذلك منه . قال له هشام : إنّه بلغنى أنّك تذكر الخلافة وتتمنّاها ، ولستَ هناكَ ! لأنّك ابنُ أمة ، فقال زيد : إنّ لك جوابا ، قال : تكلّم ، قال : إنه ليس أحد أوْلَى بالله ، ولا أرفعَ درجة عنده من نبىّ ابتعثه ؛ وهو إسماعيل بن إبراهيم، وهو بن أَمَة ، قد اختاره الله لنبوّته ، وأخرج منه خير البَشَرِ ، فقال هشام : فما يصنعُ أخوكالبقرة ! فغضب زيد ، حتى كاد يخرج من إهابِه، ثم قال : سّماه رسول الله صلى الله عليه وآله الباقر وتسميه أنت البقرة ! لشدّما اختلفتما ! لتخالفنّه فى الآخرة ، كما خالفته فى الدنيا ، فيرد الجنة ، وتَرد النار .

فقال هشام : خُذُوا بيد هذا الأحمق المائق ، فأخرجوه ، فأخذ الغلمان بيده فأقاموه ، فقال هشام : احملوا هــذا الخائن الأهوج إلى عامله ، فقال زيد : والله لئن حملتَنى إليه لاأجتمع أنا وأنت حَيَّيْن ، وليموتَنّ الأعجل مِنّا . فأخرج زيد وأشخص إلى المدينة ، ومعه نفر يسيّرونه حتى طردُوه عن حدود الشام ، فلما فارقوه عَدَل إلى العراق ، ودخل الكوفة ، وبايعَ لنفسه ، فأعطاه البيعة أكثر أهلها ، والعاملُ عليها وعلى العراق يومئذ يوسف بن عمر الثقفىّ ، فكان بينهما من الحرب ماهو مذكور فى كتب التواريخ . وخذل أهلُ الكوفة زيدا ، وتخلّف معه ممّن تابعه نفر يسير ، وأبلى بنفسه بلاء حسناً وجهادا عظيما ، حتى أتاه سَهْم غربٍ[1] ، فأصاب جانب جَبْهته اليُسرى ، فثبت فى دماغه فحين نزع منه مات عليه السلام .

* * *

عنّف محمد بن عمر بن على بن أبى طالب عليه السلام زيداً لما خرج ، وحذّره القتل ، وقال له : إنّ أهل العراق خَذَلوا أباك عليًّا وحسنا وحسينا عليهم السلام ؛ وإنك مقتول ، وإنهم خاذلوك ، فلم يَثْنِ ذلك عَزْمه وتمثّل :

بَكَرَتْ تخوّفنى الحُتُوف كأنّنِى ... أصبحتُ عَنْ غَرَضِ الحُتُوف بمعزلِ[2]
فأجبتُها إنّ المنيّــة منْهَلٌ ... لابُــدَّ أنْ أُسْقَى بِذَاكَ المَنْهَلِ
إن المنيّـــة لو تمثّل مُثِّلَتْ ... مِثْلِى ، إذا نزلوا بضَيْقِ المَنزِلِ[3]
فاقْنَىْ حَيـــاءك لاأبالك واعلمى ... أنى امرؤ سأموت إنْ لم أقتلِ[4]

* * *

(١) سهم غرب ، على الإضافة : لا يدرى راميه .
(٢) لعنترة ، ديوانه ٤٢ ، (من مجموعة العقد الثمين) .
(٣) فى الديوان : « ضنك المنزل » .
(٤) اقنى حياءك : الزميه .

العلوىّ البصرىّ صاحب الزّنج يقول :

وإذا تُنَازِعُنِي أقولُ لهــا قَرِى   مَوْتُ الملوكِ عَلَى صُعُود المِنْبَرِ
مَاقَدْ قَضَى سَيَــكُونُ فاصطبرِى له   ولكِ الأمان مِنَ الَّذِى لَمْ يُقْدَرِ

وقال أيضا :

إنى وقومىَ فى أنْسَابِ قَوْمِهِمُ   كمسجدِ الخَيْف فى بُحْبُوحة الخَيْفِ
ماعُلّق السيفُ مِنّــا بابن عاشرةٍ   إلا وعزمتُه أمضَى من السّيْفِ

بعض الطالبيين :

وإنّا لَتُصْبِحُ أسيــافُنَا   إذامااُنتُضِين لِيَوْمٍ سَفُوكِ
مَنَابِرُهُنّ بطونُ الأكُفّ   وأغمــادُهُنّ رءوس الملوكِ

بعض الخوارج يصف أصحابه :

وَهُمُ الأسودُ لَدَى العَرِينِ بَسَالَةً   وَمِنَ الخُشُوعِ كَأَنَّهُمْ أحْبَارُ
يَمضُون قد كَسَرُوا الجُفُون إلى الدعا   مُتَبَسِّمِينَ وفيهمُ اسْتِبْشَــارُ
فكأنما أعداؤُهُمْ أحبــابُهُمْ   فَرَحًا إذا خَطَرَ القَنَــا الخَطَّارُ
يَرِدُون حَوْمَاتِ الحِمَامِ وإنَّهــا   تَاللهِ عِنْــدَ نُفُوسِهِمْ لَصِغَــارُ
وَلَقَدْ مَضَوْا وأنا الحبيبُ إليهمُ   وهُمُ لدىّ أحبّـــــةٌ أبْرَارُ
قَدَرٌ يخلِّفُنِي ويُمْضِيهِمْ به   يالهفَ كيف يفوتنى المقدار !

وفى الحديث المرفوع « خُلُقان يحبّهما الله : الشجاعة والسخاء » .

***

كان بِشر بن المعتمر من قدماء شيوخنا رحمه الله تعالى يقول بتفضيل علىّ عليه السلام

ويقول : كان أشجعهم وأسخاهم ، ومنه سَرَى القولُ بالتفضيل إلى أصحابنا البغداديين قاطبة ، وفى كثير من البصريين .

دخل النّضر بن راشد العبدىّ على امرأته فى حَرْب الترك بخُراسان فى ولاية الجنيد ابن عبد الرحمن المرّىّ فى خلافة هشام بن عبد الملك ، والناس يقتتلون ، فقال لها : كيف تكونين إذا أُتيتِ بى فى لِبْدٍ قتيلا مُضَرّجا بالدماء ؟ فشقّت جيبَها ، ودعتْ بالويل ، فقال : حسبك ! لوأعولَتْ عَلَىّ كلّ أنثى لعصيتُها شوقا إلى الجنة . ثم خرج فقاتل حتى قُتل ، وحمل إلى امرأته فى لِبْد ودمه يقطر من خلاله .

***

قال أبو الطيب المتنبىّ :

إِذَا غَامَرْتَ فى شَرَفٍ مَرُومٍ ... فَلَا تَقْنَعْ بما دُونَ النُّجُومِ(١)
فطعمُ الموتِ فى أمرٍ حقيرٍ ... كَطَعْمِ الموتِ فى أمْرٍ عَظِيمِ
يَرَى الْجُبَنَاء أنّ الْجُبْنَ حَزْمٌ ... وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبْعِ اللَّئِيمِ
وكلّ شجاعةٍ فى المرء تُغْنِى ... ولا مثلَ الشَّجَاعةِ فى الحَكِيمِ

وقال :

إذا لم تجِدْ ما يَبتُرُ العُمْرَ قاعداً ... فقمْ واْطلبِ الشىء الذى يَبْتُر العُمْرَا(٢)

وقال :

أهُمُّ بشىء والليالى كأنّها ... تُطَارِدُنى عن كَوْنه وَأُطارِدُ(٣)
وَحِيداً من الخلاّن فى كلّ بَلْدَةٍ ... إذَا عَظُمَ المطلوبُ قَلّ المساعِدُ

***

(١) ديوانه ٤ : ١١٩
(٢) ديوانه ٢ : ١١٤
(٣) ديوانه ١ : ٢٧٠

قيل لأبى مسلم فى أيام صباه : نراك تنظر إلى السماء كثيراً كأنك تسترق السمع ، أو تنتظر نزولَ الوحى ؟ قال : لا ، ولكن لى همة عالية ، ونفس تتطلّع إلى معالى الأمور ، مع عيش كعيش الهمَج والرّعاع ، وحال متناهية فى الاتّضاع . قيل : فما الذى يَشفى علّتَك ، ويُرْوِى غُلتك ؟ قال : المُلك ، قيل : فاطلب الملك ، قال : إن المُلك لايطلب هكذا . قيل : فما تصنع وأنت تذوب حَسَراً[1] ، وتموت كمدا ؟ قال : سأجعل بعض عقلى جَهْلاً ، وأطلب به مالا يطلب إلا بالجهل ، وأحرس بالباقى مالا يحرس إلا بالعقل ، فأعيش بين تدبير ضِدَّيْن ، فإن الخمول أخو العُدْم ، والشهرة أخت الكون .

* * *

قال ابن حيُّوس :

أمْواتُهُمْ بالذِّكْرِ كالأحياء ... وحيُّهمْ فَضْلٌ عَلَى الأَحْيَاءِ[2]

نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ المروءة وامتطَوْا ... بالبأسِ ظَهْرَ العزّة القَعْسَاءِ

والعزّ لا يَبْقَى لغير معوّدٍ ... أن يكشف الغمّاء بالغمّاء

لَا تَحْسَبِ الضَّراء ضَرّاء إذا ... أفضَتْ بصاحِبها إلى السَّرّاء

وقال :

وهى الرياسةُ لاتبوحُ بسرِّها ... إلا لأرْوَعَ لايُباح ذِمارُهُ[3]

يَحْمى حِمَاهُ قَلْبُهُ ولسانُهُ ... وتذودُ عنه يمينُه ويسارُهُ

لاالعذلُ ناهِيه ، ولا الحِرْصُ الذِى ... أمَرَ النُّفُوسَ بِشُحِّها أمَّارُهُ

فليعلمِ الساعى ليبلغ ذَا المدى ... أنّ الطريق كثيرةٌ أخطارُه

* * *

(١) يقال حسر عليه حسراً وحسرة ، أى تلهف .

(٢) ديوانه ١ : ١٢ – ١٩ (٣) ديوانه ١ : ٢٩٨ – ٢٩٩

كان ثابت قُطْنة فى خيل عبد الله بن بِسْطام فى فتح شكند من بلاد الترك فى أيام هشام بن عبد الملك ، فاشتدّت شوكةُ الترك ، وانحاز كثيرٌ من المسلمين واستؤسر منهم خَلق ، فقال ثابت : والله لاينظرُ إلىَّ بنو أميّة غداً مشدوداً فى الحديد ، أطلُب الفداء؛ اللهمّ إنِّى كنتُ ضيف ابن بِسْطام البارحة ، فاجعلنى ضيفَك الليلة ، ثم حمل وحمل معه جماعة ، فكسرتْهم الترك ، فرجع أصحابُه وثبت هو ، فرُمِىَ بِرْذَوْنُه فشبّ ، وضربه فأقدم ، فصرِع ثابت وارْتُثّ ، فقال: اللهم إنّك استجبْتَ دعوتى وأنا الآن ضيفك ، فاجْعَلْ قِرَاىَ الجنة ؛ فنزل تركىّ فأجهز عليه .

* * *

قال يزيد بن المهلّب لابنه خالد ، وقد أمّره على جيش فى حَرْب جرجان : يابنىّ ، إن غُلِبْتَ على الحياة فلا تُغْلَبَنَّ على الموت ، وإياكَ أنْ أراكَ غداً عندى مهزوما !

عن النبى صلى الله عليه وسلّم : « الخيرُ فى السَّيف ، والخير مع السيف ، والخير بالسيف » ، كما يقال : المنيّة ولا الدنيّة ، والنار ولا العار ، والسيف ولا الحَيْف .

قال سيفُ بن ذى يَزَن لأنوشِرْوان حين أعانه بوَهْرز الديلمىّ ومن معه : أيهاالملك، أين تقع ثلاثة آلاف من خمسين ألفا ؟ فقال : ياأعرابىّ ، كثيرُ الحطَب يكفيه قليل النار .

* * *

لما حبَس مَرْوان بن محمد إبراهيم الإمام خرج أبو العباس السَّفاح ، وأخوه أبو جعفر ، وعبد الوهاب ومحمد ابنا إبراهيم الإمام ، وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد أبناء علىّ بن عبد الله بن العباس ، وعيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد الله ابن العباس ، ويحيى بن جعفر بن تمام بن العباس ، من الحُمَيْمَة من أرض السَّراة ، يطلبون الكوفة ، وقد كان داود بن علىّ بن عبد الله بن العباس وابنُه موسى بن داود بالعراق ، فخرجا يطلبان الشام ، فتلقّاهما أبو العباس وأهلُ بيته بدُومة الجَندَل ، فسألهم داودُ عن

خروجهم ، فأخبروه أنّهم يريدون الكوفة لَيظهرُوا بها ، ويَدْعُوا إلى البيعة لأبي العباس . فقال : ياأبا العباس ، يظهر أمرك الآن بالكوفة ، ومَرْوان بن محمد شيخ بني أمية بحرّان مُطِلٌّ على العراق في جيوش أهل الشام والجزيرة ، ويزيد بن عمر ابن هبيرة شيخ العرب بالعِراق في فُرْسان العرب ! فقال : ياعمّ مَنْ أحبّ الحياة ذلّ ، ثم تمثّل بقول الأعشى :

فما ميتة إن مِتُّها غَـيْرَ عاجزٍ   بعارٍ إذا ما غالَتِ النَّفْسَ غُولُهَا(١)

فقال داود لابنه موسى : صدقَ ابن عمّك ، ارجع بنا معه ، فإمّا أن نهلك أو نموت كراما .

وكان عيسى بن موسى يقول بعد ذلك إذا ذكر خروجهم من الحُمَيْمَة يريدون الكوفة : إن ثلاثة عشر رجلا خرجوا من ديارهم وأهليهم يطلبون ماطلَبْنا لعظيمةٌ هِمَمُهم ، كبيرة نفوسهم ، شَديدة قلوبهم .

***

أبو الطيب المتنبي :

وإذا كانَتِ النُّفُوسُ كِبَاراً   تَعِبَتْ في مُرَادِهَا الأجْسَامُ(٢)

وله :

إلى أيّ حينٍ أنت في زِيّ مُحْرِمٍ   وَحَتّى مَـتى في شِقْوَةٍ وإلَى كَمِ(٣)

وإلّا تَمُتْ تحتَ السُّيُوفِ مكرّماً   تَمُتْ وتقاسي الذُّلّ غير مُكَرَّمِ

فثِبْ واثقا بالله وَثْبَةَ ماجِدٍ   يَرَى الموتَ في الهيجا جَنَى النَّحْلِ في الفَمِ

---

(١) ديوانه ١٢٥ .
(٢) ديوانه ٣ : ٣٤٥
(٣) ديوانه ٤ : ٣٣

وقال آخر :

إنْ تقتلونى فآجالُ الرجالِ كما ... حُدِّثتُ قتلٌ وما بالقتلِ مِنْ عارِ
وإن سلِمتُ لوقتٍ بعده فعسى ... وكلّ شىء إلى حدٍّ ومِقْدارِ

* * *

خطب الحجاجُ ، فشكا سوء ضاعة أهل العراق ، فقام إليه جامع المحاربىّ ، فقال : أيها الأمير ، دَعْ مايباعِدهُم منك إلى ما يقرّبهم إليك ، والتمس العافية ممّن دونك تُعْطَها ممّن فوقك ، فلو أحبُّوك لأطاعوك ؛ إنهم ماشنئوك بنسبك ولا لبأوك ،ولكن لإيقاعك بعدَ وعيدِك ، ووعيدِك بعد وَعْدك .

فقال الحجاج : ماأرانى أرُدّ بنى اللكيعة(١) إلى طاعتى إلا بالسيف ، فقال جامع : أيّها الأمير ، إنّ السيف إذا لاقى السيفَ ذهب الخيار ، فقال الحجاج : الخيار يومئذ لله ، فقال : أجل ، ولكنك لاتدرى لمن يجعله الله ، فقال : ياهناه ، إيهاً فإنك من مُحارب ، فقال جامع :

وللحَرْبِ سُمِّينا فكُنّا محاربًا ... إذا ما القنا أمسى مِنَ الطَّعْنِ أحْمَرا

* * *

ومن الشعر الجيد فى تحسين الإباء والحميّة والتّحْريض على النهوض والحرْب وطلب المُلك والرياسة ، قصيدة عُمارة اليمنىّ شاعر المصريين فى فخر الدين توران شاه بن أيوب ، التى يغريه فيها بالنُّهوض إلى اليمن ، والاستيلاء على مُلْكها ، وصادفت هذه القصيدة محلًّا قابلا ، ومَلَك تورانشاه اليمن بما هزّت هذه القصيدة من عطفه ، وحركت من عزمه ، وأولها :

---

(١) اللكيعة : الأمة اللئيمة .

العِلمُ مُذْ كانَ محتاجٌ إلى العَلَمِ ... وَشَفْرةُ السَّيفِ تستغنِي عنِ القَلَمِ[1]

وَخَيرُ خيلِكَ إنْ غامَرْتَ في شَرَفٍ ... عَزْمٌ يفرّق بين السّاقِ والقَدَمِ

إنّ المعالي عَرُوسٌ غيرُ واصلةٍ ... مالم تخلّق رِدَاءيها بنَضْحِ دَمِ

ترَى مَسامعَ فَخْرِ الدّينِ تَسْمَعُ ما ... أمْلاهُ خاطرُ أفكارِى عَلَى قلَمِى

فإنْ أصبتُ فلي حظُّ المصيبِ وإنْ ... أخطأت قَصْدَكَ فاعذِرْنِى وَلَا تَلُمِ

كم تتركُ البيضَ فى الأجْفَانِ ظامئةً ... إلى الموارِدِ فى الأعناقِ والقِمَمِ

ومقلةَ المجدِ نحو العزمِ شاخِصَةً ... فاتركْ قعودكَ عن إدراكها وَقُمِ

فعمّك الملكُ المنصور سَوَّمَها ... من الفُرَاتِ إلى مصرٍ بلا سأمِ

واخلُقْ لنفسك أمراً لا تضافُ به ... إلى سواكَ ، وأورِ النارَ فى العلَمِ

وانْهَ المشيرين إنْ لَجّتْ نصيحتُهُمْ ... أولا ، فأنتم على العُمْيانِ بالصَّمَمِ

واعزِمْ وَصَمّمْ فقد طالتْ وقد سَمُجَتْ ... قضيّة لفظتْها ألسنُ الأممِ

فربّ أمرٍ يهابُ النّاسُ غايتَهُ ... والأمرُ أهونُ فيه مِنْ يدٍ لِفَمِ

فكيف إن نهضتَ فيما همَمْتَ به ... أُسْدٌ نسير من الخطّىّ فى أجَمِ

لا يدركُ المجدَ إلّا كلّ مقتحمٍ ... فى مَوْجِ ملتطمٍ أو فوجِ مُضْطَرِمِ

لا ينقض الخطْوة الأولى بثانيةٍ ... ولا يفكّر فى العُقْبى مِنَ النَّدَمِ

كأنما السَّيفُ أفتاهُ بقتلِهِمُ ... فى فَتْحِ مكّة حَلَّ القتلُ فى الحرمِ

ولم يراعُوا لعثمانٍ ولا عمرٍ ... ولا الحُسَيْنِ ذمامَ الأشْهرِ الحُرُمِ

فما ترومُ سوى فتحٍ صوارِمُه ... يُضحِكْنَ فى كلّ يومٍ عابسَ البُهَمِ

حتى كأنّ لسانَ السَّيفِ فى يده ... يروى الشريعةَ عن عادٍ وعَنْ إرمِ

---

(١) النكت العصرية ٣٥٢ .

هذا ابن تومرتَ قد كانَتْ بدايته فيما يقول الورَى لحما على وَضَمِ
وقد ترقّى إلى أنْ صار طَالِعُهُ من الكواكب بالأنفاس والكظَمِ
وكان أوّلُ هذا الدين مِنْ رجل سعى إلى أن دَعَوْهُ سيِّدَ الأممِ

ـ كذب ، لم يظهر الدين الحنيف المقدّس على الأديان بسعى البشر؛ بل بالتأييد الإلهى، والسر الربانىّ ، صلوات الله وسلامه على القائم به ، والمتحمّل له ـ

والبدرُ يبدُو هلالا ثم يكشف بالأ نوارِ ما سترته ظُلمَةُ الظُّلَمِ
والغيثُ فَهْو كما قد قيل أوّله قَطْرٌ وبدء خراب السّد بالعَرِم
تَنْمُو وتقوى الشيء بالتّدْريج إن رزقت لُطفًا ويقوى شرارُ النار بالضّرَمِ
حاسِبْ ضميرَك عن رأى أتاكَ وَقُلْ نصيحة وَرَدَتْ من غيرِ مُتَّهَمِ
أقسمت ما أنتَ ممّنْ جُلُّ همّته ما راقَ من نعم أورَقَ مِنْ نِعمِ
وإنمـــا أنت مرجوٌّ لواحدةٍ بنى بها الدهر مَجْداً غيرَ مُنْهَدِمِ
كأننى بالليــــالى وهى هاتِفَةٌ قد صمّ سمع رجال دُونَهَا وعَمِى
وبالعلا كلّمـــا لاقتك قائلة أهلا بِمُنْشِرِ آمالى مِنْ الرِّمَمِ

* * *

ومن أباة الضَّيْم الذين اختارُوا القتلَ على الأسر ، والموت على الدنيّـة ، مُصْعب بن الزبير ، كان أميرَ العراقين من قِبَل عبدالله بن الزبير ، وكان قد كَسَر جيوش عبد الملك مِرارا ، وأعياهُ أمره ؛ فخرج إليه من الشام بنفسه ؛ فلِيمَ فى ذلك ، وقيل له : إنّك تغرّر بنفسك وخلافتك ، فقال: إنه لا يقوم لحرْب مُصْعَبٍ غيرى ؛ هذا أمر يحتاج إلى أن يقومَ به شجاع ذُو رأى ، وربّما بعثت شجاعا ولا رَأْى له ، أو ذا رَأْيٍ ولا شجاعة عنـده ، وأنا بصير بالحرب ، شجاع بالسيف ؛ فلمـا أجمع على الخروج إلى حرب مُصْعب ، جاءته

امرأته عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فالتزمته ، وبكت لفراقه ، وبكى جواريها حولها، فقال عبد الملك : قاتل الله ابن أبى جُمْعة[1] ! كأنه شاهد هذه الصورة حيث يقول :

إذَا هَمّ بالأعداء لَمْ يَثْنِ عَزْمَهُ   حَصَانٌ عَلَيْهَا نَظْمُ دُرٍّ يَزِينُهَا
نَهَتْهُ فَلَمَّا لم ترَ النَّهْيَ عاقَهُ   بَكَتْ فَبَكَى مِمّا عَرَاهاقَطِينُهَا

فسار عبدُ الملك حتّى إذا كان بمَسْكِن من أرض العراق ، وقد دنا منه عَسْكر مصعب ، تقاعد بمُصعب أصحابُه وقُوّاده وخذلوه ، فقال لابنه عيسى : الحقْ بمكة فانج بنفسك ، وأخبر عمّك عبد الله بما صنع أهلُ العراق بى ، ودعنى فإنى مقتول ، فقال : لاتتحدّث نساء قريش أنى فررت عنك ، ولكن أقاتل دونك حتى نقتل ، فالفرار عار، ولا عار فى القتل ، ثم قاتل دونه حتى قُتِل . وخفّ مَنْ يحامى عن مُصعب من أهل العراق ، وأيقن بالقتل ، فأنفذ عبد الملك إليه أخاه محمد بن مروان ، فأعطاه الأمان وولاية العراقين أبدا مادام حيًّا ، وألفى ألف درهم صلة ، فأبى وقال : إنّ مثلى لاينصرف عن هذا المكان إلا غالبا أومقتولا ، فشدّ عليه أهل الشام ورموْه بالنَّبْل فأثخنوه ، وطعنه زائدة ابن قيس بن قدامة السعدىّ ، ونادى : يالثارات المختار ! فوقع إلى الأرض ، فنزل إليه عبد الملك بن زياد بن ظَبْيان ، فاحتزّ رأسه ، وحمله إلى عبد الملك .

لما حُمِل رأسُ مصعب إلى عبد الملك بكى وقال : لقد كان أحبّ الناس إلىّ وأشدّهم مودّة لى ، ولكن الملك عقيم .

كتب مصعب إلى سُكَيْنة بنت الحسين عليه السلام ، وكانت زوجته لما شخص إلى حرب عبد الملك وهى بالكوفة بعد ليال من فراقها :

وكان عزيزاً أن أبيتَ وبيننـا   حِجابٌ فقد أصبحتِ منّى عَلَى عَشْرِ

---

(١) هو كثير بن عبد الرحمن بن أبى جمعة .

وأبكاهمـــا والله للعين فاعلِمِي إذا ازددت مثليها فَصِرْتُ عَلَى شَهْرِ
وأنــكَى لقلبِي منهُمَـــا اليومَ أنّنِي أخاف بألّا نلتقِى آخر الدهرِ

ثم أرسل إليها وأشخصها ، فشهدتْ معه حربَ عبد الملك ، فدخل عليها يوم قُتِل ، وقد نزع ثيابه ثم لَبِس غُلالة ، وتوشّح بثوب واحد ، وهو محتضِنٌ سيفه ، فعلمتْ أنه غيرُ راجع ، فصاحت : واحزناه عليك يامصعب ! فالتفت إليها ، وقال : إنّ كل هذا فى قلبك ! قالت : وما أخفِى أكثر . قال : لو كنت أعلم هذا لـكان لى ولك شأن ، ثم خرج فلم يرجع .

فقال عبد الملك يوما لجلسائه: مَنْ أشجعُ الناس؟ فقالوا: قطرىّ ، شبيب ، فلان وفلان ، قال عبد الملك : بل رجل جَمَع بين سُـكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، وأمَة الحميد بنت عبدالله بن عامر بن كريز ، وقُلابة ابنة زبّان بن أنيف الـكلبىّ سيد العرب ، وولىَ العراقين خمس سنين ، فأصاب كذا وكذا ألف درهم ، وأُعطِى الأمان على ذلك كلّه وعلى ولايته وماله فأبى ، ومشى بسيفه إلى الموت حتى قُتِل ، ذاك مصعب بن الزبير ، لا مَنْ قطع الجسور مرة ها هنا ومرة ها هنا !

سُئِل سالم بن عبد الله بن عمر ، أىّ ابنَى الزبير أشجع ؟ فقال : كلاهما جاءه الموت ، وهو ينظر إليه .

لما وضِع رأس مصعب بين يدى عبد الملك أنشد :

لقد أرْدَى الفوارسُ يومَ حِسْيٍ غُلاماً غيرَ مَنّـــاعِ المتاعِ[1]
ولا فرِحٍ بخيرٍ إنْ أتاه وَلَا هَلِعٍ من الحَدَثان لَاعِ
ولا وقافَةٌ والخيل تَرْدِى ولا خالٍ كأُنبوبِ اليَرَاعِ

---

(١) من أبيات نسبها ابن الشجرى فى أماليه ٨٥ إلى طفيل الغنوى .

كان ابن ظبيان ، يقول : ماندِمْتُ على شيء نَدَمى على ألّا أكونَ لمّا حَمَلت إلى عبد الملك رأسَ مصعب فسجَد قتلتُه فى سَجْدَته ، فأكون قد قتلت مَلِكَي العرب فى يوم واحد .

قال رجل لعبدالله بن ظَبْيان : بماذا تحتجّ عند الله عزّ وجلّ غداً ، وقد قتلتَ مصعبا؟ قال : إن تُركت أحتجّ كنت أخطبَ من صعصعة بن صوحان !

كان مصعب لما خرج إلى حرب عبد الملك سأل عن الحسين بن على عليه السلام ، وكيف كان قتله ؟ فجعل عروة ابن المغيرة يحدّث عن ذلك ، فقال متمثلا بقول سليمان بن قَتَّة :

وإنّ الألُى بالطفّ من آل هاشمٍ تأسَّوْا فَسَنُّوا للكرامِ التأسّيا (١)

قال عُروة : فعلمت أن مصعبا لا يفرّ .

لما كان يوم السَّبَخة ، وعسكر الحجاج بإزاء شَبِيب ، قال له الناس : أيّها الأمير ، لو تنحّيت عن هذه السَّبخة، فإنها منتنة الريح ! قال : ماتنحّونَنِى ــ والله ــ إليه أنتن؛ وهل ترك مصعب لكريم مَفرّا ! ثم أنشد قول الكَلْحَبَة :

إذَا المَرْءُ لَمْ يَغْشَ الكَرِيهَةَ أَوْشَكَتْ حِبَالُ الهُوَيْنى بالفتَى أنْ تَقَطَّعا (٢)

***

وروى أبو الفرج فى كتاب "الأغانى" (٣): خطبة عبدالله بن الزبير فى قتل مُصعب برواية هى أتمّ مما ذكرناه نحن فيما تقدم ، قال : لما أتى خبرُ المصعَب إلى مكة ، أضرب عبد الله بن الزبير عن ذكره أياما ؛ حتى تحدث به جميعُ أهلِ مكة فى الطريق ، ثم صعد المنبر فجلس عليه مَلِيًّا لا يتكلم ، فنظر الناس إليه ؛ وإن الكآبة على وجهه لبادية ؛ وإنّ

---

(١) اللسان ١٨ : ٣٧

(٢) المفضليات ٣٢

(٣) الأغانى ١٧ : ١٦٦ (ساسى) ، عيون الأخبار ٢ : ٢٤٠ مع اختلاف فى الروايات .

جبينه ليرشَح عرَقا،فقال واحد لآخر:ماله لايتكلم ؟ أتراه يهابُ النطق ! فوالله إنه لخطيب. فما تراه يهاب ؟ قال : أراه يريد أنْ يذكر قتل المُصعب سيّد العرب ، فهو يقطّع بذلك . فابتدأ فقال : الحمــدُ لله الذى له الخلْق والأمر ، ملِك الدنيا والآخرة ، يعِزّ مَنْ يشاء ، ويُذِلّ مَنْ يشاء ؛ ألا إنّه لايذِلّ مَنْ كان الحق معه وإن كان مفردا ضعيفا ، ولا يعزّ من كان الباطل معــه ؛ وإن كان ذا عدد وكثرة . ثم قال : أتانا خبرٌ من العراق ، بلد الغدر والشقاق ، فساءنا وسرّنا ؛ أتانا أن مُصعبا قتل رحمه الله ؛ فأما الذى أحزنــا من ذلك فأنّ لفراقِ الحميم لَذْعة ولوعة ، يجدها حَميمُه عند المصيبة،ثم يرعوى ذو الرأى والدِّين إلى جميل الصــبر . وأمّا الذى سرّنا منه ؛ فأنّ قتلَه كان له شهادة ؛ وإن الله جاعلٌ لنا وله فى ذلك الخِيرة . ألا إنّ أهلَ العراق باعُوه بأقلّ الأثمــان وأخسرِها ، وأسلموه إسلام النَّعم المخطَّمة (١) فقتل ؛ وإن قُتِل لقد قُتِل أبوه وعمّه وأخوه (٢) ، وكانوا الخيارَ الصالحين ؛ وإنّا والله مانموت حَتْف آنافنا ، مانموت إلا قتلا قتلا ، وقَعْصاً (٣) قَعْصاً ، بين قِصَد (٤) الرماح،وتحت ظلالِ السيوف ؛ ليس كما تموت بنو مَرْوان (٥)؛والله ماقتِل منهم رجل فى جاهلية ولا إسلام ؛ وإنما الدنيا عاريّة من الملِك القهار الذى لا يزول سلطانه ، ولا يَبيد مُلْكه ، فإن تقبل الدنيا علىّ لا آخذها أخذ اللئيم البَطِر ، وإن تدبِرْ عنّى لا أبــكِى عليها بكاء الخرِف (٦) المُهْتَر . ثم نزل .

* * *

---

(١) المخطمة ،من قولهم خطم البعير بالخطام إذا جعله على أنفه ، والخطام : ماوضع على أنف البعير ليقتاد به .

(٢) قتل أبوه عبد الله بن الزبير يوم الجمــل ، قتله عمرو بن جرموز فى صلاته بوادى السباع . وعمــه عبد الرحمن بن العوام بن خويلد ، قتل يوم اليرموك وأخوه المنذر بن الزبير قتل يوم الحرة .

(٣) القعص : الموت السريع ؛ ويقال : مات قعصا ؛ أى أصابته ضربة أو رمية فمات فى مكانه .

(٤) القصدة : القطعة مما يكسر ، وجمعه قصد .

(٥) كذا فى جميع الأصول ، ويرى السيد جاسم أنها « بنو أبى العاص » .

(٦) الخرف : من فسد عقله من الــكبر ، وكذلك المهتر .

وقال الطِّرِمّاح بن حَكيم ، وكان يرى رأى الخوارج :

وإنى لَمُقْتادٌ جَوادِى فقاذفٌ ... به وبِنَفْسى اليوم إحدى المتالفِ (١)

لأ كسِبَ مالا أو أءوب إلى غِنًى ... مِنَ الله يكفينى عِداةَ الخلائفِ (٢)

فيارَبِّ إن حانت وفاتى فلا تكُنْ ... على شَرْجَعٍ يُعْلَى بخُضْرِ المطارفِ (٣)

ولكنَّ قبرى بطن نَسْرٍ مَقِيلُه ... بجوِّ السماء فى نسور عَوَاكِفِ

وأمْسِى شهيدا ثاوياً فى عِصابة ... يُصابون فى فجٍّ من الأرض خائفِ

فوارسُ أشتاتٌ يؤلِّف بينَهُمْ ... هُدَى الله نزّالُونَ عِنْدَ المواقِفِ

قال ابن شُبْرُمة : مررت يوماً فى بعض شوارع الكوفة ، فإذا بنعش حوله رجال، وعليه مُطرف خَزّ أخضر ،فسألت عنه فقيل:الطِّرِمّاح ، فعلمت أنّ الله تعالى لم يَسْتَجِب له.

***

وقال محمد بن هانىء :

ولم أجِدِ الإنسانَ إلا ابنَ سَعْيِهِ ... فَمَنْ كانَ أسْعَى كانَ بالمَجْدِ أجْدَرَا (٤)

وبالهِمّة العلياء تَرْقَى إلى العُلَا ... فمن كانَ أعلى هِمّةً كانَ أظْهَرَا

وَلَمْ يتأخَّرْ مَنْ أرَادَ تَقَدُّماً ... وَلَمْ يتَقَدَّمْ مَنْ أرَادَ تأخُّرا

الرضىّ الموسوىّ رحمه الله تعالى :

وَمَنْ أخَّرَتْهُ نَفْسُهُ مَاتَ عاجِزاً ... وَمَنْ قَدَّمَتْهُ نَفْسُه مَاتَ سَيِّدَا (٥)

---

(١) ديوانه ١٥٥ والأغانى ١٢: ٤٤ ، والشعر والشعراء ٥٧٠ والقود : نقيض السوق ؛ فهو من أمام .
(٢) الخلائف: جمع خليفة ؛ وهو السلطان .
(٣) الشرجع : النعش . وفى الديوان : « أذا العرش إن حانت » .
(٤) ديوانه ٣٦٢
(٥) ديوانه ١٢٧ (طبعة نخبة الأخبار) .

وله رحمه الله :

مَامُقامِي عَلَى الْهَوَانِ وَعِنْدِي ... مِقْــوَلٌ صَارِمٌ وَأَنْفٌ حَمِيٌّ (١)
وإباء محلّق بي عَنِ الضَّيْـــمِ كَمَا زَاغَ طَائِرٌ وَحْشِيٌّ

أبو الطيب المتنبي :

تَقُولِينَ مَافِي النَّاسِ مِثْلُكَ عَاشِقٌ ... جِدِي مِثْلَ مَنْ أحببته تَجِدِي مثلي (٢)
محبٌّ كَنَى بالبيض عَنْ مُرْهَفَاتِهِ ... وبالْحُسْنِ في أجسامِهِنَّ عَنِ الصَّقْلِ (٣)
وبالسُّمْرِ عَنْ سُمْرِ القنا غيْرَ أنَّنِي ... جَنَاهَا أَحِبَّائِي وأطرافُهَا رُسْــلِي
عَدِمْتُ فؤاداً لم يَبِتْ فيه فَضْلَةٌ ... لغَــيْرِ ثنايا الْغُرِّ والحَدَقِ النُّجْلِ
تُرِيدِينَ إدراكَ المعـالِي رَخِيصَــةً ... وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إبَرِ النَّحْلِ

ابن الهبَّارية : الهِمَمُ الْعَلِيَّة ، والمُهَجُ الأبية ، تقرّب المنيّة ، منك أو الأمنيّة .

***

أبو تمام :

فَتَى النَّــكَبَاتِ مَنْ يأوي إذا مَا ... قطفْنَ بِهِ إلى خُلُقٍ وســـاعِ (٤)
يُثِيرُ عَجَاجَةً فِي كُلِّ فَجٍّ ... يَهِيمُ بهـــا عَدِيُّ بن الرِّقَاعِ (٥)
يَخُوضُ مَعَ السِّبَـــاعِ الماءَ حَتَّى ... لَتَحْسِبُه السِّبَاعُ من السِّبَـاعِ (٦)

---

(١) ديوانه ٥٤٦ (مطبعة نخبة الأخبار) . (٢) ديوانه ٣ : ٢٨٩ مع اختلاف في الرواية .
(٣) البيض : النساء . والمرهفات : السيوف .
(٤) ديوانه ٢ : ٣٣٦ .
(٥) يشير إلى ما ذكره عدى بن الرقاع في حمار وأتان :

يتنازعَان من الْغُبَارِ مُلَاءَةً ... في الأرض منشوُها ، هما نسجاها
تطوى إذا فَرَعا بلادا حَزْنَةً ... وإذا أصَابَا سَهْـــلَةً نَشَراها

(٦) رواية الديوان : « أبن مع السباع الماء حتى » .

فَلَبٌّ العَزْمَ إن حاولتَ يوماً بأنْ تَسْتَطِيعَ غَيْرَ المستطاعِ
فلَمْ تَرْكَبْ كناجيةِ المهارِي وَلَمْ تَرْكِبْ هُمُومَكَ كالزِّمَاعِ

وله أيضا :

إنّ خيْراً مما رأيتُ من الصَّفْحِ عن النائباتِ والإغماضِ(١)
غُرْبةٌ تَقتدِي بغُربة قَيْسِ بن زُهَيْرٍ والحارثِ بنِ مُضاضِ(٢)
غرَضَيْ نَكْبتَين مافتئا رأْ يا نخافا عليه نَكْثَ انتقاضِ
مَنْ أبَنّ البيُوتَ أصبح في ثوْ بٍ مِنَ العَيْشِ لَيْسَ بالفَضْفَاضِ(٣)
صَلَتانٌ أعداؤه حَيْثُ حَلُّوا في حديثٍ من ذِكْرِهِ مُسْتَفاضِ(٤)
وَالْفَتَى مَنْ تعرّقته الليالي والفيافي ، كالحيّةِ النَّضْنَاضِ(٥)
كلَّ يَوْمٍ له بصَرْفِ الليالي فَتْكَةٌ مِثْلُ فَتْكَةِ البَرّاضِ(٦)

وله أيضا :

إنْ تَرَيْنِي تَرَيْ حُسَاماً صَقيلاً مَشْرَفِيًّا مِنَ السُّيُوفِ الحِدَادِ
ثانيَ اللَّيْلِ ثالثَ البِيد والسَّيْـ ـرِ نَدِيمَ النُّجُومِ تِرْبَ السُّهادِ

أخذ هذا اللفظ أبو عُبادة البحتريّ فقال :

يانديمَيَّ بالسَّواجِير من شَمْـ ـسِ بن عمرو وبُحتر بن عَتود(٧)

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٠٩

(٢) قيس بن زهير العبسي ؛ بعد حربه ذبيان تنقل فى البلاد؛ وفى آخر عمره لقيه رجل فسأله عن خبره فلما علم أنه قاتل حذيفة وحمل ابنى بدر قتله . والحارث بن مضاض الجرهمى ، كان رئيسا بمكة أيام كان بها قومه ، ويقال : إن خزاعة أجلتهم عنها ؛ وهو القائل :

كأن لم يكن بينَ الحجونِ إلى الصَّفا أنيسٌ ولم يَسْمُر بمكةَ سامِرُ

(٣) يقال : أبن بالموضع إذا أقام به .

(٤) الصلتان : الماضى فى أمره .

(٥) الحية النضناض : التى لا تستقر فى مكان . تعرقته الليالى : أخذت ما عليه من اللحم .

(٦) البراض بن قيس الكنانى ، قتل عروة الرحال فى غير حرب ، فجر ذلك حرب الفجار بين قيس وكنانة .

(٧) ديوانه ١ : ٢٠٥ . وفى الديوان : « ود بن معن » .

اطلبا ثالثاً سوای فإنی ... رابعُ العِيس والدُّجى والبيدِ
لستُ بالعاجز الضعيف ولا القا ... ئل يوماً إنّ الغِنَى بالجدود
وإذا استصعبتْ مقادةُ أمرٍ ... سهَّلتْهُ أيدي المهارِي القُودِ

* * *

وقال الرضيّ رحمه الله تعالى :

ولم أرَ كالرَّجاء اليومَ شيئاً ... تَذِلُّ لَهُ الجماجمُ والرقابُ[(١)]
وبَعْضُ العُدْمِ مأثُرَةٌ وفَخرٌ ... وبعْضُ المالِ مَنقَصةٌ وعابُ
تَنَابَى والعِنانُ إذا نَبَتْ بي ... رُبَا أرْضٍ ، ورِجْلِي والرِّكابُ
وقَدْ عَرَفَتْ تَوَقُّلِيَ اللَّيالي ... كما عَرَفَتْ تَوَقُّلِيَ العِقابُ[(٢)]
لأَمْنَعَ جانِباً وأُفِيدَ عِزّاً ... وعِزُّ المَوْتِ ما عَزَّ الجَنابُ
إذا هَوْلٌ دَعاكَ فَلا تَهَبْهُ ... فَلَمْ يَبْقَ الَّذِينَ أَبَوْا وهَابُوا
كُلَيْبٌ عافَصَتْهُ يَدٌ وأَوْدَى ... عُتَيْبَةَ يَوْمَ أَقْعَصَهُ ذُؤابُ[(٣)]
سَواءٌ مَنْ أقلَّ التُّرْبَ مِنَّا ... وَمَنْ وَارَى مَعَالِمَه التُّرَابُ
وَإنَّ مُزايلَ العيشِ اغْتِبَاطاً ... مُساوٍ للذين بَقُوا وَشَابُوا
وَأَوَّلُنا العَفاءُ إذا طَلَعْنا ... إلى الدنيا ، وآخِرُنا الذَّهابُ
إلى كم ذا التردّد فى الأمانى ... وكم يُلْوِى بِنَاظِرِيَ السَّرَابُ !
وَلا نَقْعٌ يُثارُ وَلَا قَتامٌ ... وَلا طَعْنٌ يُشَبُّ وَلَا ضِرابُ

(١) ديوانه لوحة ٧٩

(٢) التوقل : الصعود . والعقاب : جمع عقبة ؛ وهى المرتقى الصعب فى الجبل ونحوه .

(٣) عافصته : صرعته ، وكليب هو كليب وائل ، وأراد باليد جساس بن مرة الذى قتله . وأودى : هلك . وعتيبة هو ابن الحارث بن شهاب كان فارس بنى تميم قتله ذؤاب بن ربيعة الأسدى . وأقعصه : قتله قتلا سريعاً .

وَلَا خَيْلٌ مُعَقَّـــدَةُ النَّوَاصِى   يَمُوجُ عَلَى شَــكَائِمِهَا اللُّعَابُ
عَلَيْهَا كُلُّ مُلْتَهِبِ الحوَاشِي   يُصِيبُ مِنَ الْعَدُوِّ وَلَا يُصَابُ
سَأَخْطُبُهَا بِحَدِّ السَّيْفِ فِعــلاً   إِذَا لَمْ يُغْنِ قَوْلٌ أَوْ خِطَابُ
وآخُذُهَا وإنْ رَغِمَتْ أُنوفٌ   مغالبـــةً وإنْ ذَلَّتْ رِقَابُ

* * *

قعد سليمان بن عبدالملك يَعْرِض وَيَفْرِض ، فأقبل فتًى من بنى عبس وَسِيم ، فأعجبَه، فقال : ما اسمك ؟ قال : سليمان ، قال : ابن مَنْ ؟ قال : ابنُ عبد الملك ، فأعرض عنه ، وجعل يَفْرِض لمن دونه،فعلم الفتى أنه كره موافقة اسمِهِ واسم أبيه ، فقال : يا أمير المؤمنين لا عدمتَ اسمك ، ولا شَقِيَ اسمٌ يوافق اسمك ! فافْرِضْ ، فإنما أنا سيفٌ بيدك ، إن ضربتَ به قطعت ، وإن أمرتنى أطعت ، وسَهْمٌ فى كنانتك ، أشتدّ إن أُرسِلْت، وأنفُذُ حيث وجِّهت . فقال له سليمان ، وهو يَرُوزه (١) ويختبره : ماقولك يافتى ، لو لقيتَ عدوا ؟ قال:أقول : حسبى الله ونعم الوكيل . قال سليمان : أ كنت مكتفياً بهذا لو لقيت عدوّك دُون ضرب شديد ! قال الفتى : إنما سألتنى يا أمير المؤمنين : ما أنت قائل فأخبرتك ،ولو سألتنى : ما أنتَ فاعل لأنبأتُك ؛ إنه لو كان ذلك لضربتُ بالسيف حتى يتعقّف ؛ ولطعنتُ بالرمح حتى يتقصّف ، ولعلمْتُ إن أَلِمْت فإنهم يألمون ، ولرجوت من الله مالا يرجون . فأعجب سليمان به وألحقه فى العطاء بالأشراف ، وتمثّل :

إذا ما اتّقى اللهَ الفتى ثم لم يكُنْ   عَلَى أهْلِهِ كَلاًّ فقــد كَمَلَ الْفَتَى

---

(١) يروزه : يختبره ويجربه .

السرّ تحت قوله : « ثم لم يكن على أهله كلاً » ، يقال فى المثل : « لاتكن كَلًّا على أهلك فتهلك » .

عدىّ بن زيد :

فَهَلْ مِنْ خالدٍ إمّا هَلَكْنَا وَهلْ بالْموتِ يالَلنّاسِ عَارُ (١)

* * *

الرضىّ الموسوىّ رحمه الله تعالى :

إذَا لمْ يَكُنْ إلا الحِمَامُ فإنّنى سَأُكْرِمُ نَفْسِى عَنْ مَقَالِ اللّوائمِ (٢)
وَأُلبِسُها حَمْراء تَضفُو ذُيُولُهَا من الدم بُعْداً عنْ لِبَاسِ المَلاوِمِ
فَمِنْ قَبْلُ مَا اخْتار ابنُ الأشْعثِ عَيْشَهُ عَلى شَرَفٍ عَالٍ رفيعِ الدّعَائمِ
فطار ذَمِياً قَدْ تقَلّد عارَها بِشَرِّ جَنَاحٍ يومَ دَيْرِ الجَمَاجِمِ (٣)
وَجَاءَهُمُ يَجْرِى البَرِيدُ بِرَأْسِهِ وَلَمْ يُغْنِ إيغَالٌ به فى المزَائمِ
وَقَدْ حاصَ مِنْ خَوْفِ الرّدَى كلَّ حَيْصَةٍ فلم ينجُ والأقدارُ ضَرْبَةُ لَازِمِ (٤)
وَهَذا يزيد بنُ المهلّب نافَرَتْ به الذلَّ أعراقُ الجدود الأكارِمِ (٥)
فَقَالَ وقَدْ عَنّ الفِرارُ أو الرّدَى : لحا اللهُ أخْزَى ذُكْرَةٍ فى المَوَاسِمِ
وَمَا غَمَرَاتُ الموتِ إلّا انْغِمَاسَةٌ ولا ذِى المنايا غيرُ تَهْوِيمِ نائمِ

(١) شعراء النصرانية ٤٥٦
(٢) ديوانه لوحة ١١٠
(٣) وقعة دير الجماجم كانت بين الحجاج الثقفى وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، انتهت بمقتل ابن الأشعث سنة ٨٣
(٤) حاص ، أى حاد وذهب بعيدا .
(٥) يزيد بن المهلب بن أبى صفرة ، من أمراء الدولة الأموية وقوادها ، قتله يزيد بن عبد الملك فى خبر مشهور سنة ١٠٢

رأى أنّ هذا السَّيفَ أهونُ مَحْمَلًا ... من العارِ يَبْقَى وَسْمُه فى الخَاطِمِ
وما قَلَّدَ البِيضَ المباتيرَ عُنْقَهُ ... سوى الخوفِ مِنْ تقليدها بالأداهِمِ
فعافَ الدَّنايا وامْتَطى الموْتَ شامِخًا ... بمارنِ عِزّ لا يذلُّ لِخَاطِمِ
وقَدْ حَلَقَتْ خَوْفَ الهوان بمُصْعَبٍ ... قوادمُ آباء كرامِ القادِمِ
عَلَى حِينَ أعطَوْهُ الأمان فعافَهُ ... وَخُيِّرَ فاختارَ الرَّدى غيرَ نادِمِ
وَفى خِدْرِه غرّاء مِنْ آل طلحةٍ ... عَلاقةُ قَلْبٍ للنَّديمِ المُخالِمِ[1]
تُحِبُّ أيامَ الحياةِ وإنَّها ... لأعْذَبُ مِنْ طَعْم الخلودِ لطاعِمِ
فَفارَقَها والمُلْكَ لمَّا رآهما ... يَجُرَّانِ إذلال النُّفوس الكرائم
وَلمّا ألاحَ الخوفُ فرّانُ مِن الرّدَى ... حَذاه المَخازِى رُمْحُ قَيْسِ بن عاصِم
وَغادَرَها شَنْعاء إنْ ذُكِرَتْ لهُ ... مِنَ العارِ طَاطا رأسَ خَزْيانَ واجِمِ
كذاكَ مُنِى بعْدَ الفرار أميَّةٌ ... بِشِقْشِقَةٍ لَوْثاء مِنْ آل دارِمِ
وَسَلَّ لها سَلَّ الحسامِ ابنُ مَعْمَرٍ ... فَكَرَّ عَلَى أعقابِ نابٍ بصارم
يُرَدِّدُ ذِكْرى كلُّ نَجْدٍ وَغائرٍ ... وَألْجَمَ خوفى كلَّ باغٍ وظالِمِ
وَهَدَّدَنى الأعداء فى المَهْدِ لم يَحِنْ ... نُهوضِى وَلَمْ تُقْطَعْ عقودُ تمائمى
وَعِنْدِى يَوْمٌ لَوْ يَزِيدُ وَمُسْلِمٌ ... بَدَا لَهُما لاستَصْغرا يوْمَ وَاقِمِ
عَلَى العِزِّ مُتْ لا مِيتَةً مُسْتَكِينَةً ... تُزِيلُ عنِ الدُّنيا بِشَمِّ المَراغِمِ
وَخاطِرْ على الجُلَّى خِطارَ ابنِ حُرَّةٍ ... وإنْ زَاحَمَ الأمرُ العظيمُ فزاحِمِ

* * *

---

(١) هى عائشة بنت طلحة ؛ كانت زوجا لعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ؛ ولما هلك تزوجها مصعب بن الزبير ؛ فقتل عنها ، والمخالمة : المصادقة والمغازلة .

ومن أباةِ الضَيْم ومُؤثِرِى الموت على الحياة الذليلة محمد وإبراهيم ، ابنا عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام . لما أحاطتْ عساكر عيسى ابن موسى بمحمد وهو بالمدينة ، قيل له : انجُ بنفسك ، فإنّ لك خَيلاً مُضمَّرة[1] ونجائب سابقة[2]، فاقعد عليها ، والتحق بمكةَ أو باليمن . قال : إنى إذاً لعبد ! وخرج إلى الحرب يباشرها بنفسه وعواليه ، فلما أمسى تلك الليلة وأيقن بالقتل ، أشير عليه بالاستتار ، فقال: إذَنْ يستعرض عيسى أهلَ المدينة بالسيف،فيكونُ لهم[يوم] كيوم الحرّة، لا والله لا أحفظُ نفسى بهلاك أهل المدينة، بل أجعل دمى دون دمائهم. فبذل له عيسى الأمانَ على نفسه وأهله وأمواله ، فأبى ونَهَدَ[3] إلى الناس بسيْفه ، لا يقاربه أحد إلا قتله ، لا والله ما يبقى شيئا ؛ وإنّ أشبَه خَلق الله به فيما ذُكِر هو حمزة بن عبد المطلب . ورَمَى بالسِّهام ، ودَهَمته الخيل ، فوقف إلى ناحية جدارٍ ، وتحاماه الناس فوجد الموت ، فتحامل على سَيْفه فكسره ؛ فالزيديّة تزعم أنه كان سيفَ رسول الله صلى الله عليه وآله ذا الفقار .

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ فى كتاب " مقاتل الطالبيين " أن محمداً عليه السلام ، قال لأخته ذلك اليوم : إنى فى هذا اليوم على قِتال هؤلاء ،فإن زالت الشمس ، وأمطرت السماء فإنى مقتول ،وإن زالت الشمس ولم تُمْطِر السماء ،وهبّت الريح ، فإنى أظفر بالقوم، فأجِّجى التّنانير ، وهيّئى هذه الكتب — يعنى كتب البيعة الواردة عليه من الآفاق — فإن زالت الشمس ، ومطرت السماء فاطْرَحِى هذه الكتب فى التنانير ، فإن قدرتم على بَدَنى

---

(١) ضمر الخيل ؛ إذا ربطها وأكثر ماءها وعلفها حتى تسمن ؛ ثم قلل ماءها وعلفها مدة ؛ ثم ركضها فى الميدان حتى تهزل ؛ ومدة التضمير عند العرب أربعون يوما .
(٢) الخيل السوابق : المجلية فى الجرى .
(٣) يقال نهد لعدوه ؛ إذ برز لقتاله وصمد له .

تخذوه ، وإن لم تقدروا على رأسى تخذوا سائر بدنى ، فأُتُوا به ظُلّة بنى بلية[١] على مقدار أربعة أذرع أو خمسة منها ؛ فاحفروا لى حفيرة ، وادفنونى فيها . فمطرت السماء وقت الزوال ؛ وقتل محمد عليه السلام ؛ وكان عندهم مشهوراً أنّ آية قَتْل النفس الزكيّة أن يسيل دم بالمدينة حتى يدخل بيت عاتكة ، فكانوا يعجبون كيف يسيل الدم حتى يدخل ذلك البيت ! فأمطرت السماء ذلك اليوم ، وسال الدم بالمطر حتى دخل بيت عاتكة ، وأخذ جسده ، لحفر له حفيرة فى الموضع الذى حَدّه لهم ، فوقعوا على صخرة فأخرجوها ، فإذا فيها مكتوب: « هذا قبر الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام » ، فقالت زينب أخت محمد عليه السلام: رحم الله أخى ، كان أعلم حيث أوصى أن يدفن فى هذا الموضع[٢] .

***

وروى أبو الفرج ، قال : قَدِم على المنصور قادم ، فقال: هَرب محمد ! فقال له : كَذبْتَ ! إنا أهلَ البيت لا نفرّ .

***

وأما إبراهيم عليه السلام ، فروى أبو الفرج عن المفضّل بن محمد الضّبىّ ، قال[٣] : كان إبراهيم بن عبدالله بن الحسن متوارياً عندى بالبَصْرة ، وكنت أخرُج وأتركه ، فقال لى: إذا خرجتَ ضاق صدرى ، فأخرج إلىّ شيئا من كتبك أتفرّج به ؛ فأخرجت إليه كتباً من الشعر ، فاختارَ منها القصائد السبعين التى صدّرْت بها كتاب " المفضليات " ، ثم أتممت عليها باقىَ الكتاب .

فلما خرج خرجت معه ؛ فلما صار بِالمرْبدِ ، مرْبد سليمان بن علىّ ، وقف عليهم ، وأمّنهم واستَسْقَى ماء ، فأُتِىَ به فشرب ، فأخرج إليه صبيان من صبيانهم فضمّهم إليه ،

(١) مقاتل الطالبيين : « بنى نبيه » .
(٢) مقاتل الطالبيين ٢٧١ ، ٢٧٢
(٣) ورد الخبر مختصرا فى مقاتل الطالبيين ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

وقال: هؤلاء والله منّا ونحن منهم ؛ لحمنا ودمنا ؛ ولـكن آباءهم انتزَوا على أمرنا ، وابتزّوا حقوقنا ؛ وسفكوا دماءنا ، ثم تمثل :

مَهْلاً بَنى عَمّنا ظُلامَتَنا ... إنّ بنا سَورةً من القَلَقِ[1]

لمثلكم تَحْمِلُ السيوفَ وَلا ... تُغْمَزُ أحسابُنا مِنَ الرَّقَقِ

إنّى لأَنْمِى إذا انتميتُ إلى ... عِزٍّ عَزيزٍ وَمَعْشَرٍ صُدُقِ

بِيضٍ سِباطٍ كأنّ أعْيُنَهُمْ ... تُكْحَلُ يومَ الهِيَاجِ بالعَلَقِ

فقلت له : ما أجودَ هذه الأبيات وأفخلها ! فـلِمَنْ هى ؟ فقال : هذه يقولها ضِرار ابن الخطّاب الفِهْرىّ يومَ عبرَ الخندق على رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وتمثل بها علىّ ابن أبى طالب يوم صِفّين ، والحسين يوم الطّفّ ، وزيد بن على يوم السَّبَخَة ، ويحيى بن زيد يوم الجُوزجان ؛ فتطيّرتُ له من تمثّله بأبيات لم يتمثل بها أحد إلا قُتِل . ثم سرنا إلى باخَمْرَى ، فلما قرب منها أتاه نعىُ أخيه محمد ، فتغيّر لونه وجَرِض بريقه ، ثم أجهش باكيا ، وقال : اللهم إن كنت تعلم أنّ محمداً خرج يطلب مرضاتك ، ويؤثر أن تكون كلمتك العليا ، وأمرُك المتّبع المطاع ؛ فاغفر له وارحمه ، وارض عنه ، واجعل ما نقلته إليه من الآخرة خيرا مما نقلته عنه من الدنيا ؛ ثم انفجر باكيا ثم تمثّل :

أبا المَنازِل يا خيرَ الفوارس مَنْ ... يُفْجَعْ بمثلك فى الدّنيا فقدْ فُجِعا[2]

الله يعلمُ أنى لو خشيتُهُم ... أو آنس القلبُ من خوفٍ لهم فَزَعا

لم يقتلوك ولم أُسلِمِ أخى لهمُ ... حتّى نعيش جميعا ، أو نموت معا

قال المفضّل : فجعلت أعزّيه وأعاتبه على ما ظهر من جزَعه ، فقال : إنى والله فى هذا ، كما قال دُرَيد بن الصِّمّة :

---

(١) من أبيات فى حماسة ابن الشجرى ١٦ ، والأغانى ١٧ : ١٨ (ساسى) ، مع اختلاف فى ترتيب الأبيات وعددها وروايتها .

(٢) الأبيات لراسع بن خشرم يرثى هدبة ، الأغانى ٢١ : ١٧٧ .

يقولُ ألا تَبْكى أخاكَ وقَدْ أرَى ... مكانَ البُكا،لكن بُنيتُ على الصَّبْرِ[1]
لمقتلِ عبـد الله والهالكِ الّذِى ... على الشّرَف الأعلى قتيلِ أبى بكرِ
وعبـد يغوث تحجل الطّيْرِ حَوْلَهُ ... وجلّ مصاباً جَثْوُ قبرٍ على قبر
فإمّا ترينـا لا تزال دماؤنا ... لدى واترٍ يَسْعَى بها آخرَ الدّهر
فإنّا لَلَحْمُ السَّيْف غيْرَ نَكيرةٍ ... ونُلْحِمهُ طوراً ، وليس بذى نُكْرِ
يُغَار علينـا واترين فيُشْتَفَى ... بِنَا إنْ أصِبْنا أو نُغـيرُ على وِتْرِ
بذاك قَسَمْنَا الدهر شطرين بيننا ... فـما ينقضى إلا ونحنُ على شَطْرِ

قال المفضّل : ثم ظهرت لنا جيوش أبى جعفر مثل الجراد ، فتمثّل إبراهيم عليه السلام قوله :

إن يقتلونِىَ لا تُصِبْ أرماحهمْ ... ثأرى ويسعى القوم سَعْياً جاهِدَا
نبئت أنّ بنى جَـذِيمة أجمعت ... أمرا تدبِّره لتقتـلَ خالدَا
أرمى الطريق وإن رُصِدْتُ بضيقِه ... وأنازِلُ البطَلَ الكَمِىّ الحارِدا

فقلت له : مَنْ يقول هذا الشعر يابن رسول الله ؟ فقال : يقوله خالد بن جعفر ابن كلاب يوم شِعْب[2] جبَلة ؛ وهذا اليوم الذى لقيَتْ فيه قيس تميما . قال: وأقبلت عساكر أبى جعفر ، فطعن رجلا وطعنه آخر ، فقلت له : أتُباشر القتال بنفسك ! وإنما العسكر منوط بك ؛ فقال : إليك يا أخا بنى ضَبّة ، فإنى لـكما قال عُويف القوافى :

ألَمّتْ سُعادُ وإلمامُها ... أحاديث نفسٍ وأحلامُها
مُحَجَّبةٌ من بَنِى مالك ... تَطَاوَلُ فى المجدِ أعْلامُها

---

(١) ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ٢ : ٣٠٩ مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات .
(٢) لعامر وحلفائهم من عبس، على تميم وحلفائهم من ذبيان وأسد وغيرهما. الأغانى ١٠ : ٣٣ (ساسى).

وإنّ لنا أصـــلَ جُرثومَةٍ تَرُدُّ الحوادثَ أيامُهـــا
ترد الـكتيبـــة مفلولةً بها أفْنُها وبها ذَامُهـــا

والتحمت الحرب واشتدّت ، فقال : يامفضّل،احكني بشيء ؛ فذكرت أبياتا لعويف القوافي لما كان ذكره هو من شعره ، فأنشدته :

ألَا أيُّهـا الناهِي فَزَارَةَ بَعْدَما أجدّتْ لسيرٍ ، إنّما أنتَ ظَالِمُ
أبى كلُّ حُرٍّ أن يبيت بوَتْرِه وتمنع منـه النوم إذ أنت نائمُ
أقول لفتيانٍ كرامٍ تَرَوّحُوا على الجُرْدِ في أفواهِهِنّ الشَّكائِمُ
قفوا وقفةً من يحيَ لا يَخزَ بعدها ومَنْ يُخْتَرَمْ لا تتبِعْهُ اللوائمُ
وهل أنت إن باعدتَ نفسك عنهمُ لتسلمَ فيما بعـــد ذلك سالمُ

فقال : أعدّ ، وتبينت من وجهه أنه يستقتل ، فانتهيت وقلت : أو غير ذلك ؟ فقال : لا ، بل أعد الأبيات ، فأعدتها،فتمطّى فى ركابَيْه فقطعهما،وحمل فغاب عنّى ؛ وأتاه سهم عائر فقتله ؛ وكان آخر عهدى به عليه السلام .

قلت : فى هذا الخبر مايحتاج إلى تفسير ؛ أما قوله (١) :

* إن بنا سورةً من الغَلَقِ *

فالغلق : الضّجَر وضيق الصدر والحدّة ، يقال : احتدّ فلان فنشب فى حِدّته وغلِق. والسَّوْرة : الوثوب ، يقال : إن لغضبه لسورة ، وإنه لسوّار ، أى وثّاب معربد. وسَوْرة الشراب : وثوبه فى الرأس ؛ وكذلك سَوْرة السمّ،وسورة السلطان : سطوته واعتداؤه.

وأما قوله : « لمثلكم نحمل السيوف » فمعناه أنّ غيركم ليس بكفء لنا لنحمل له السُّيوفَ وإنما نحملها لـكم ، لأنّكم أكفاؤنا ، فنحن نحاربكم على الملك والرياسة ؛ وإنْ كانت أحسابُنا واحدة ، وهى شريفة لا مغمز فيها .

(١) ص ١٠٩

والرَّفق ، بفتح الراء : الضعف ؛ ومنه قول الشاعر :

* لم تلق فى عظمها وَهْناً وَلَا رَفَقاً *

وقوله :

* تُـكحَل يوم الهيَاج بالعلَقِ *

فالعلَق الدم ؛ يريد أن عيونَهم حُمْر لشـدّة الغيظ والغضب ؛ فكأنها كُحِلَتْ بالدم .

وقوله : « لـكن بنيت على الصبر » أى خُلقت وبنيت بِنْيَة تقتضى الصبر . والشرف الأعلى : العالى، وبنو أبى بكر بن كلاب، من قَيْس عيلان ، ثم أحد بنى عامر بن صعصعة.

وأما قوله[1] :

* إن يَقْتُلونىَ لا تُصِب أرماحُهم *

فمعناه أنهم إن قتلونى ثم حاولوا أنْ يصيبوا رجلا آخر مثلى يصلح أن يكون لى نظيرا؛ وأن يجعل دمه بَواء لدمى، وسَعَوا فى ذلك سَعْياً جاهداً ، فإنهم لم يجدوا ولم يقدروا عليه .

وقوله : « أرمى الطريق ... » البيت ، يقول : أسلك الطريق الضّيق ، ولو جعل عَلَىّ فيه الرَّصَد لقتلى .

والحارد : المنفرد فى شجاعته ؛ الذى لا مثل له .

* * *

[غلبة معاوية على الماء بصفين ثم غلبة علىّ عليه بعد ذلك]

فأما حديث الماء وغَلْبُ أصحابِ معاوية على شَرِيعة الفرات بصِفين ، فنحن نذكره من كتاب " صفين " لنصر بن مزاحم .

قال نصر : كان[2] أبو الأعور السُّلَمِىّ على مقدّمة معاوية ، وكان قد ناوَش مقدّمة

(١) ص ٣١٠ . (٢) ص ١٧٥ ومابعدها .

علىّ عليه السلام وعليها الأشتر النَّخَعِىّ مناوشةً ليست بالعظيمة؛ وقد ذكرنا ذلك فيما سبَق من هذا الكتاب ، وانصرف أبو الأعور عن الحرب راجعاً ، فسبق إلى الماء فغلب عليه فى الموضع المعروف بقُناصرين [1] الى جانب صِفّين ، وساق الأشتر يتبعه ، فوجده غالبا على الماء؛ وكان فى أربعة آلاف من مستبصرى [2] أهل العراق، فصدَموا أبا الأعور وأزالوه عن الماء ، فأقبل معاوية فى جَميع الفَيْلق بقضّه وقَضِيضه ، فلما رآهم الأشتر انحاز إلى علىّ عليه السلام ، وغلب معاويةُ وأهل الشام على الماء ، وحالوا بين أهل العراق وبينه؛ وأقبل علىّ عليه السلام فى جُموعه ، فطلب موضعاً لعسكره ، وأمرَ النّاسَ أن يضعوا أثقالهم؛ وهم أكثر من مائة ألف فارس ، فلما نزلوا تسرّع فوارس من فوارس علىّ عليه السلام على خيولهم إلى جهة معاوية يتطاعنون ويرمون بالسهام ، ومعاوية بَعْدُ لم ينزل ، فناوشهم أهلُ الشام القتال ، فاقتتلوا هَوِيًّا .

قال نصر : فحدّثنى عمر بن سعد ، عن سعد بن طَرِيف ، عن الأصبغ بن نُباتة : فكتب معاوية إلى على عليه السلام : عافانا الله وإياك .

ما أحسن العدلَ والإنصاف مِنْ عَمَلِ ... وأقبحَ الطّيْش ثم النَّفْش فى الرَّجُلِ

وكتب بعده :

ارْبِطْ حِمَارَكَ لا تنزعْ سويقتَه ... إذاً يُرَدّ وقَيْدُ العَيْرِ مَكْرُوبُ [3]

ليست ترى السّيدُ زيدًا فى نفوسهمُ ... كما يراه بنو كوزٍ ومرهوب

إن تسألوا الحقّ نُعْطِ الحقّ سائلَه ... والدِّرْع مُحْقَبَةٌ والسّيف مقروبُ

أو تأنفونَ فإنّا مَعْشَرٌ أُنُفٌ ... لا نطعَم الضيم إن السّمّ مشروب [4]

---

(١) قناصرين : موضع بالشام . (القاموس) .

(٢) صفين : « متبصرى أهل العراق » .

(٣) الأبيات لعبد الله بن عنمة الضبى؛ وهى فى المفضليات ٣٨٢ ؛ مع اختلاف فى الرواية .

(٤) المفضليات : « لا نطعم الذل » .

فأمر عليٌّ عليه السلام أن يُوزِعَ[1] الناس عن القتال ، حتى أخذ أهل الشام مصافّهم ثم قال : أيُّها الناس ، إنّ هذا موقفٌ ، مَنْ نَطِفَ[2] فيه نَطِفَ يوم القيامة ، ومن فَلَجَ فيه فلجَ يوم القيامة ، ثم قال لما رأى نزول معاوية بصفين :

لقد أتانا كاشراً عن نابِهِ يُهَمِّطُ النّاسَ على اعتزابِهِ[3]

* فليأتينا الدّهْرُ بما أتى بِهِ *

قال نصر : وكتب علي عليه السلام إلى معاوية جواب كتابه ، أما بعد :

فإنّ لِلْحَرْب عُراماً شَرَرا إنّ عليها قائداً عَشَنْزَرَا[4]

يُنْصِفُ مَنْ أحْجَرَ أوْ تَنَمَّرا عَلَى نواحِيها مِزَجًّا زَمْجَرَا

* إذا وَنَين ساعةً تَغَشْمَرَا[5] *

وكتب بعده .

ألمْ تَرَ قَوْمِي إنْ دَعَاهُمْ أخوهمُ أجابُوا ، وإنْ يَغْضَبْ على القَوْمِ يَغْضَبُوا

هُمُ حفظوا غيبي كما كُنْتُ حافظاً لقومِيَ أُخْرَى مثلها إن يُغَيَّبُوا

بنو الحربِ لم تقعدْ بهم أمّهاتُهُمْ وآباؤهمْ آباء صِدْقٍ فأنْجَبُوا

قال : قد تراجع النّاس كلٌّ من الفريقين إلى معسكرهم ، وذهب شبابٌ من الناس إلى أن يستقوا فمنعهم أهلُ الشام .

* * *

قلت : في هذه الألفاظ ماينبغي أن يشرح .

---

(١) يوزع الناس : يكفون . وفي صفين : « فوزعوا عن القتال حتى تأخذ أهل المصاف مصافهم » .
(٢) نطف : اتهم بريبة .
(٣) يهمط الناس : يقهرهم .
(٤) العشنزر : الشديد .
(٥) تغشمر : تنمر ووثب .

قوله : « فاقتتلوا هَوِيًّا » ، بفتح الهاء ، أى قطعة من الزمان ، وذهب هَوِىٌّ من الليل ، أى فريق منه .

والنَّفْش : كثرة الكلام والدعاوى ، وأصله من نفش الصوف .

والسَّوِيّة : كساء محشوّ بثُمام ونحوه ، كالبرذعة . وكَرَّب القَيْد، إذا ضيّقه على المقيّد ، وقَيْد مكروب ، أى ضيق ؛ يقول : لا تنزع برذعة حمارك عنه واربطه وقيّده ، وإلا أعيد إليك وقيْده ضيّق . وهذا مثل ضَرَبه لعلىّ عليه السلام ، يأمره فيه بأن يردَعَ جيشه عن التسرّع والعجلة فى الحرب .

وزيد المذكور فى الشعر ، هو زيد بن حصين بن ضرار بن عمرو بن مالك بن زيد ابن كعب بن بجالة بن ذُهْل بن مالك بن بكر بن سعد بن ضَبّة بن أدّ بن طابخة ابن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان ؛ وهو المعروف بزيد الخيل ، وكان فارسهم. وبنو السِّيد من ضَبّة أيضا ؛ وهم بنو السِّيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبّة بن أُدّ ابن طابخة . . . إلى آخر النسب ، وبنو السِّيد بنو عمّ زيد الفوارس ؛ لأنه من بنى ذُهل ابن مالك ، وهؤلاء بنو السِّيد بن مالك ، وبينهم عداوة النسب ؛ يقول : إن بنى السِّيد لا يروْن زيدا فى نفوسهم كما تراه أهله الأدْنَوْن منه نَسَبًا ، وهم بنو كوز وبنو مرهوب ؛ فأما بنو كوز فإنهم بنو كُوز بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك ، وأما بنو مَرْهوب ، فإنّهم بنو مَرهوب بن عبيد بن هاجر بن كعب بن بجَالة بن ذُهْل بن مالك ؛ يقول: نحن لا نعظم زيدا ولا نعتقد فيه من الفضيلة مايعتقده أهله وبنو عمه الأدْنَوْن ؛ والمثل لعلىّ عليه السلام ؛ أى نحن لا نرى فى علىّ مايراه أهلُ العراق من تعظيمه وتبجيله .

وقوله :

* والدِّرْعُ مُحْقَبَةٌ والسَّيْفُ مَقْرُوب *

أى والدرع بحالها فى حِقابها ، وهو مايشدّ به فى غلافها ، والسيف بحاله أى فى قرابه،

وهو جَفْنه ؛ يقال : حقبت الدرعَ وقربت السيف ؛ كلاهما ثلاثيان ، يقول : إن سألتم الحق أعطيناكموه من غير حاجة إلى الحرب ؛ بل نجيبكم إليه والدّروع بحالها لم تلبس ، والسيوف فى أجفانها لم تشهر .

وأما إثبات النون فى « تأنفون » فإنّ الأصوب حذفْها لعطف الكلمة على المجزوم قبلها ؛ ولكنه استأنف ولم يعطف ، كأنه قال : أو كنتم تأنفون ؛ يقول : وإن أنفتم وأبيتم إلا الحرب ؛ فإنا نأنف مثلكم أيضا ، لا نطعم الضيم ولا نقبله . ثم قال : إنّ السمّ مشروب ؛ أى أنّ السمّ قد نشربه ولا نشرب الضيم ؛ أى نختار الموت على الضيم والذلة . ويروى :

وإن أنفتم فإنا معشر أُنُفٌ ... لا نَطْعَمُ الضّيم إن الضّيْم مرهوب

والشعر لعبد الله بن عَنَمة الضبىّ ؛ من بنى السَّيِّد ، ومن جماته :

وقد أرُوح أمامَ الحىّ يقدُمنى ... صافِى الأديم كُمَيْت اللّوْن مَنْسُوبُ[1]

مُحَنَّبٌ مثل شاةِ الرَّبْلِ مُحْتَفِزٌ ... بالقُصْرَيَيْنِ عَلَى أولاه مَصْبُوبُ[2]

يَبُذّ ملجَمَهُ هادٍ له تَلَعٌ ... كأنه من جُذوع العين مَشْذُوبُ

فذاك ذُخرى إذا ما خيلهمْ رَكَضَتْ ... إلى الثَّوْبِ أومَقّاء سُرْحُوبُ[3]

فأما قوله عليه السلام : « هذا موقفُ مَنْ نَطِف فيه نَطِف يوم القيامة » ، أى مَنْ تلطخ

---

(١) من هذه القطعة أبيات ، نسبها أبو عبيدة فى كتاب الخيل إلى يزيد بن عمرو الحنفى .

(٢) المحنب من الخيل : المعطف العظام ، وهو مدح فى الخيل . والربل : نبت . ويحتفز : يجتهد فى مد يديه . والقصريان : ضلعان يليان الترقوتين . وقوله : « على أولاده مصبوب » ، يقول : يجرى على جريه الأول لا يحول عنه ؛ كذا فسره صاحب اللسان (٧ : ٣٠٣) .

(٣) المقاء من الخيل : الواسعة الأرفاغ . والسرحوب : الطويلة على وجه الأرض ؛ ورواية البيت فى كتاب الخيل .

فذاك عندى إذا ما خيلهمْ رُكِبَتْ ... إلى المثوب أو شقّاء سُرْحوبُ

فيه بعيب من فِرار أو نـكول عن العدوّ . يقال : نَطِف فلان بالـكسر ؛ إذا تدنس بعيب . ونَطُف أيضا إذا فسد ؛ يقول : مَنْ فسدت حاله اليوم فى هذا الجهاد فسدت حاله غدا عند الله .

قوله : « مَنْ فَلَج فيه » بفتح اللام ، أى مَنْ ظهر وفاز ، وكذلك يكون غدا عند الله ، يقال ؛ فَلَج زيدٌ على خصمه ، بالفتح ، يفلُج ، بضمّ اللام ؛ أى ظهرتْ حجته عليه ، وفى المثل : من يأت الحَـكَم وحده يفلُج .

قوله : « يهمّط الناس » ؛ أى يقهرهم ويخبطهم ، وأصله الأخذ بغير تقدير .

وقوله : « على اعتزابه » أى على بعده عن الإمارة والولاية على الناس . والعُرَام ، بالضم : الشّرَاسة والهَوَج . والعشنزر : الشديد القوىّ .

وأحجر : ظلم الناس حتى ألجأهم إلى أن دخلوا حجرهم أو بيوتهم . وتَنَمَّر ، أى تنكر حتى صار كالنّمر ؛ يقول : هذا القائد الشديد القوىّ ينصف مَنْ يظلم الناس ويتنـكّر لهم ، أى ينصف منه ، فحذف حرف الجر كقوله : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمه ﴾ ، أى من قومه .

والمِزَجّ ، بكسر الميم : السريع النفوذ ، وأصله الرمح القصير ، كالمزْراق .

ورجل زمجر ، أى مانع حوزته ، والميم زائدة . ومن رواها « زَمْخَرا » بالخاء ، عَنَى به المرتفع العالى الشأن ، وجعل الميم زائدة أيضا ، من زَخَر الوادى ، أى علا وارتفع .

وغَشْمَر السيل : أقبل ، والغشْمرة : إثبات الأمر بغير تثبيت ، يقول : إذا أبطأْنَ ساقَهنّ سَوْقًا عنيفا .

والأبيات البائية لربيعة بن مقروم الطائىّ .

* * *

قال نصر : حدّثنا عمر بن سعد ، عن يوسف بن يزيد ، عن عبد الله بن عوف بن

الأحمر ، قال : لما [1] قدمنا على معاوية وأهلِ الشام بصِفِّين ، وجَدْناهم قد نَزَلُوا منزلًا اختاروه مستويا بساطا واسعاً ، وأخذوا الشَّرِيعة فهى فى أيديهم ؛ وقد صفّ عليها أبو الأعور الخيلَ والرَّجّالة،وقدم الرّامية ومعهم أصحابُ الرّماح والدَّرَق ، وعلى رءوسهم البِيض ، وقد أجمعوا أن يمنعونا الماء ، ففزعْنا إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبرناه بذلك ، فدعا صَعْصَعَةَ بن صُوحان فقال : ائت معاوية وقلْ له : إنا سِرْنا إليك مسيرَنا هذا وأنا كَرِهٌ لقتالكم [2] قبل الإعذار إليكم ، وإنك قدّمت خيلك ، فقاتلتنا قبل أنْ نقاتلك ، وبدأتنا بالحرب ؛ ونحن مِمن رأينا الكَفَّ حتى ندعوَك ونحتجّ عليك ؛ وهذه أخْرَى قد فعلتموها،قد حُلْتُمْ بين النّاس وبين الماء ؛ فخلّ بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم ؛ وفيما قدمنا له وقدمتم له ؛ وإنْ كان أحبَّ إليك ، أن ندع ماجئنا له ، وندعَ الناس يقتتلون حتى يكونَ الغالب هو الشارب ، فعَلْنا .

فلما مضى صعصعة برسالته إلى معاوية ، قال معاوية لأصحابه : ماترون ؟ فقال الوليد ابن عُقْبة : امنعهم الماء كما منعوه ابن عفان ، حَصَرُوه أربعين يوما يمنعونه بَرْد الماء ولين الطعام ، اقتلْهم عطشاً ، قتلهم الله !

وقال عمرو بن العاص : خَلِّ بين القوم وبين الماء ؛ فإنهم لن يعطشوا وأنت رَيّان ، ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم .

فأعاد الوليد مقالتَه .

وقال عبد الله بن سَعيد بن أبى سَرْح ــ وكان أخا عثمان من الرضاعة ــ : امنعْهم الماء إلى الليل؛فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا ، وكان رجوعُهم هزيمَتَهم ، امنعهم الماء،منعَهم

(١) كتاب صفين المنقرى ١٧٩ ، ١٨٠ .
(٢) صفين : « وأنا أكره قتالكم » .

الله يوم القيامة ! فقال صعصعة بن صُوحان : إنما يمنعه الله يوم القيامة الفَجَرة الكَفَرة ، شَرَبة الخمر ؛ ضَرْبك وضَرْب[1] هذا الفاسق ـ يعني الوليد بن عقبة .

فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهدّدونه ، فقال معاوية : كُفّوا عن الرجل ؛ فإنما هو رسول.

قال عبد الله بن عوف بن أحمر : إن صعصعة لمّا رجع إلينا حدّثنا بما قال معاوية ، وما كان منه ومارَدّه عليه ؛ قلنا : وماالذى ردّه عليك معاوية ؟ قال : لما أردتُ الانصراف من عنده ، قلت : ماترد علىّ ؟ قال: سيأتيكم رأيى ، قال : فوالله ماراعنا إلا تسوية الرجال والصُّفوف والخيل ؛ فأرسل إلى أبى الأعور : امنعهم الماء ؛ فازدلفنا والله إليهم ، فارتمينا واطّعنّا بالرماح ، واضطربنا بالسيوف ، فطال ذلك بيننا وبينهم حتى صار الماء فى أيدينا ؛ فقلنا : لا والله لا نسقيهم. فأرسل إلينا علىّ عليه السلام أن خذوا من الماء حاجتكم، وارجعوا إلى معسكركم ، وخلّوا بينهم وبين الماء ، فإن الله قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم .

* * *

وروى نصر بن محمد بن عبد الله ، قال : قام[2] ذلك اليوم رجل من أهل الشام من السَّكون ، يعرف بالشّليل[3] بن عمر إلى معاوية ، فقال :

اسْمع اليوم مايقُول الشّليلُ ... إنّ قولى قولٌ له تأويلُ

امنعِ الماءَ من صحابِ علىٍّ ... أن يذوقوه، فالذّليل ذليلُ

واقتُلِ القوم مِثلَ ماقُتِل الشيـ ... ـخ صدًى فالقصاصُ أمرٌ جميل[4]

إنّنا والذى تُساق له البُـدْ ... نُ هَدَايَا كأنهنّ الفيُول[5]

[لو علىٌّ وصحبه وردوا المـا ... ء لمـا ذقتموه حتى تقولوا][6]

---

(١) ضربك ، أى مثلك .

(٢) صفين ١٨١ (٣) صفين : « السليل » .

(٤) صفين : « ظلما والقصاص أمر جميل » .

(٥) صفين : « هدايا لنحرها تأجيل » .

(٦) تكملة من صفين .

قَدْ رَضِينا بأمرِكُمْ وعلينَا بَعْدَ ذاكَ الرِّضَا جِلادٌ ثَقِيلُ
فامْنَعِ القوم ماءَكُمْ ، ليس لِلقَوْ مِ بقاء وإن يكنْ فقليل

فقال معاوية: أمّا أنت فتدرِي ماتقول ـ وهو الرأى ـ ولـكنّ عمراً لايدرى .فقال عمرو : خلّ بينهم وبين الماء ؛ فإن عليا لم يكن ليظمأ وأنت ريّان ، وفى يده أعنّة الخيل، وهو ينظر إلى الفرات حتى يشرب أو يموت ، وأنت تعلم أنّه الشجاع المُطْرِق [ومعه أهل العراق وأهل الحجاز][1] ، وقد سمعته أنا مرارا وهو يقول : لو استمكنْتُ من أربعين رجلا [2] يعنى فى الأمْر الأول[2] !

* * *

ورَوَى نَصْر ، قال : [3] لـما غَلَبَ أهلُ الشام على الفُرات ، فرِحُوا بالغَلبة ، وقال معاوية : ياأهلَ الشام ؛ هذا والله أوّلُ الظَّفَر ، لا سَقَانى الله ولا أبا سفيان إن شربوا منه أبدا حتى يُقْتَلوا بأجمعهم عليـه ؛ وتباشر أهلُ الشام ، فقام إلى معاويةَ رجُلٌ من أهل الشام هَمْدانىّ ، ناسِكٌ يتألّه ويكثر العبادة، يعرف بمعرّىّ بن أقبل ، وكان صديقالعمرو ابن العاص وأخا له ، فقال : يامعاوية ، سبحان الله ! لأنْ سبقتُمُ القومَ إلى الفرات فغلبتموهم عليه ، تمنعونهم الماء ! أمَا والله لوسبقُوكم إليه لسقوْكُم منه. أليس أعظم ماتنالون من القوم أنْ تمنعوهم الفرات فينزلوا على فُرْضَةٍ أخرى ويجازوكم بمـا صنعتم ! أما تعلمون أنّ فيهم العبد والأمة والأجير والضعيف ، ومَنْ لاذنب له . هذا والله أول الجوْر ! لقد شجّعتَ الجبان ، ونَصَرْتَ المرتاب ، وحَمَلت من لا يريد قتالك على كتِفَيْك . فأغلظ له معاوية ، وقال لعمرو : اكفِنِى صديقك . فأتاه عمرو فأغلظ له ، فقال الهمدانىّ فى ذلك شعرا :

لعمْر أبِى معاويةَ بن حربٍ وعَمْـــرٍو ، ما لدائهما دَوَاء

---

(١) تـكملة من صفين .

(٢-٢) فى صفين : « فذكر أمراً ؛ يعنى لو أن معى أربعين رجلا يوم فتش البيت ـ يعنى بيت فاطمة »

(٣) صفين ١٨٢ .

سِوَى طَعْنٍ يحارُ العقل فيــهِ ... وضربٍ حــين تختلطُ الدِّمَاء
ولست بتــابعٍ دينَ ابنِ هِنْدٍ ... طَوَالَ الدّهر ماأرْسَى حِرَاء
لَقَدْ ذهبَ العِتاب فلا عتــابٌ ... وَقَدْ ذهبَ الوَلَاء فلا وَلَاء
وقولى فى حوادث كلِّ خَطب[1] : ... على عمرٍو وصاحبــه العَفَاء
ألا لله دَرُّك يابنَ هنــدٍ ... لَقدْ بَرِح الخفــاء فَلَا خَفَاءَ[2]
أتحمون الفرات على رجالٍ ... وفى أيديهمُ الأســلُ الظِّمَاء
وَفى الأعْناقِ أسْيَافٌ حِــدَادٌ ... كَأنّ القومَ عِنــدَ هُمُ نِسَاء
أترجُو أنْ يجــاورَكُمْ علىٌّ ... بــلاَ ماء وللأحزابِ ماء
دعاهم دعوةً فأجاب قومٌ ... كجُرْبِ الإبْل خَالَطها الهِنَاء

قال : ثم سار الهمدانىّ فى سواد الليل حتى لحق بعلىّ عليه السلام .

***

قال : [3] ومكث أصحابُ على عليه السلام بغير ماء ، واغتمّ علىّ عليه السلام بما فيه أهل العراق :

قال نصر : وحدّثنا محمد بن عبد الله ، عن الجرجانىّ ، قال : لما اغتم علىّ بما فيه أهلُ العراق من العطش ، خرج ليلا قبل رايات مذحِج ، فإذا رجل ينشد شعرا :

أيمنعُنــا القومُ ماءَ الفُراتِ ... وَفِينَا الرِّمَاحُ وَفينَا الحَجَفْ[4]
وَفينَا الشَّوازبُ مِثْل الوَشِيجِ ... وَفينَا السُّيُوفُ وَفينَا الزَّغفْ[5]

(١) صفين : « كل أمر » .
(٢) برح الخفاء بكسر الراء وفتحها ، أى ظهر ما كان خافياً .
(٣) صفين ١٨٣ ، ١٨٤
(٤) الحجف : جمع حجفة ؛ وهى الترس من جلود الإبل يطارق بعضها فى بعض .
(٥) الشوازب : الخيل الضامرة ؛ والوشيج فى الأصل : شجر الرماح ؛ ويريد به هنا الرماح ؛ شبهها الخيل فى ضمرها . والزغف : الدروع الواسعة .

وَفِينَا عَلِيٌّ لَهُ سَوْرَةٌ إذا خَوَّفُوهُ الرَّدَى لم يَخَفْ
ونحنُ الذين غداةَ الزُّبَيْرِ وطَلْحَةَ خُضْنَا غِمَارَ التَّلَفْ(١)
فما بالُنا أمسِ أُسْدَ العرينِ وما بالُنا اليومَ شَاءَ النَّجَفْ(٢)
فما لِلْعِرَاقِ وَمَا لِلْحِجَازِ سِوَى الشَّامِ خَصْمٌ فَصُكُّوا الهَدَفْ(٣)
وَثُورُوا عَلَيْهِم كَبُزْلِ الجِمَالِ دُوَيْنَ الذَّمِيلِ وَفَوْقَ القَطَفْ(٤)
فإمَّا تَفُوزُوا بِمَاءِ الفُرَاتِ وَمِنَّا وَمِنْهُمْ عَلَيْهِ جِيَفْ
وإما تموتُوا عَلَى طَاعَةٍ تُحِلّ الجِنَانَ وَتَحْبُو الشرفْ
وإلّا فأنتُمْ عَبِيدُ العَصَا وَعَبْدُ العَصَا مُسْتَذَلٌّ نَطِفْ(٥)

قال : فحرَّك ذلك عليًّا عليه السلام ، ثم مضى إلى رايات كِنْدة ، فإذا إنسانٌ يُنْشِد إلى جانب منزل الأشعث ، وهو يقول :

لَئِنْ لَمْ يُجَلِّ الأشعثُ اليومَ كُرْبَةً مِنَ الموتِ فيها للنفوسِ تعنّتُ(٦)
فنشربَ مِنْ ماءِ الفُراتِ بسَيْفِهِ فَهَبْنَا أناساً قَبْلَ ذاك فموّتوا(٧)
فإنْ أنتَ لم تجمعْ لَنَا اليومَ أمْرَنَا وتَنْضُ الّتي فيهَا عَلَيْكَ المَذَلّةُ(٨)

---

(١) يشير إلى وقعة الجمل ، والغمار : جمع غمرة ؛ وهى الشدة .
(٢) العرين : مأوى الأسد ، والشاء : جمع شاة ، والنجف : الحلب الجيد حتى ينفض الضرع ، ويقال: انتجفت الغنم ؛ إذا استخرجت أقصى ماق الضرع من لبن ، والبيت من شواهد الكافية ؛ على أن «أسد العرين» و « شاء النجف » حالان ؛ إما على تقدير مثل ؛ وإما على تقديرهما بوصف . وانظر خزانة الأدب للبغدادى ١ : ٥٢٨ ، والمسعودى ٢ : ٣٨٥
(٣) صكوا : اضربوا ، وفى صفين : « سوى اليوم يوم » .
(٤) الذميل والقطف : ضربان من السير . والبازل : البعير الذى انشق نابه بدخوله فى التاسعة ، وجمعه بزل . وفى صفين : « فدبوا إليهم » .
(٥) عبيد العصا ؛ أى أذلاء . والنطف : المعيب .
(٦) فى المسعودى ٢ : ٣٨٥ « تفلت » .
(٧) صفين والمسعودى : « كانوا فوتوا » .
(٨) صفين : « وتلق التى فيها عليك التشتت » .

فَمَنْ ذَا الَّذِى تُثْنَى الخَنَاصِرُ بِاسْمِهِ   سِوَاكَ ؛ وَمَنْ هــــذا إليه التَّلفتُ!
وَهَلْ مِنْ بقاءٍ بَعْـــدَ يومٍ وَلَيْلَةٍ   نَظَلّ خُفوتاً وَالعَدُوّ يُصَوِّتُ!(١)
هَلُمّوا إلى ماءِ الفُرَاتِ وَدُونَهُ   صُدُورُ العَوَالِى وَالصَّفِيحُ المشتّتُ
وَأَنْتَ امرؤٌ مِنْ عُصْبَةٍ يمنيَّـــةٍ   وكلّ امرئٍ من سِنْخِهِ حِينَ يَنْبُتُ(٢)

قال : فلمـا سمع الأشعث قولَ الرجل ، قام فأتى عليا عليـه السلام ، فقال : ير المؤمنين ، أيمنعنا القوم ماء الفُرات ، وأنت فينا ، والسيوفُ فى أيدينا ! خلّ عنّا ن القوم ، فوالله لا نرجعُ حتى نرِدَه أو نموت ؛ وَمُرِ الأشتَرفليعلُ بخَيله ، ويقفَ حيث ره . فقال علىّ عليه السلام : ذلك إليكم .

فرجع الأشعثُ فنادَى فى النَّاس : مَنْ كان يريد الماء أو الموت فميعاده موضع كذا؛ ى ناهض . فأتاه اثنا عشر ألفا من كِنْدةوأفناء قَحْطان ،واضعى سيوفهم على عواتقهم، دّ عليـه سلاحه(٣) ونهضَ بهم ؛ حتّى كاد يخالط أهل الشام ، وجعل يُلْقى رمحه ، ول لأصحابه : بأبى وأمّى أنتم ! تقدّموا إليهم قابَ رُمْحِى(٤) هذا ؛ فلم يزل ذلك دأبَهُ؛ ى خالط القوم ، وحسر عن رأسه ، ونادى : أنا الأشعث بن قيس ! خلّوا عن المـاء . دى أبو الأعور : أما [والله](٥) حتى لاتأخذَنا وإياكم السيوفُ . فقال الأشعث :

---

١) صفين : « عطاشا والعدو يصوت » .
٢) السنخ : الأصل ، وفى صفين : « من غصنه » .
٣) صفين : وشد عليه سلاحه ، وهو يقول :

مِيعادُنَا اليومَ بَيَاضُ الصُّبْحِ   هَلْ يَصْلُحُ الزّادُ بِغيرِ مِلْحِ !
لالا ، ولَا أمْرٌ بغيرِ نُصْحِ   دِبُّوا إلى القَوْمِ بِطَعْنٍ سَمْحِ
مثـلِ العَزَالِى بطعانٍ نَفْحِ   لَا صُلْحَ لِلْقَوْمِ، وَأَيْنَ صُلْحِى !
* حَسْبِى مِنَ الإقْحَامِ قَابُ رُمْحِ *

٤) قاب رمحى : قدر رمحى .
٥) من صفين .

قد والله أظنّها دَنَتْ منّا ومنكم . وكان الأشتر قد تعالَى بخيله حيث أمره علىّ ، فبعث إليه الأشعث: أقحِم الخيلَ ؛ فأقحمَها حتى وضعت سنابكَها في الفرات ، وأخذت أهلَ الشام السيوف ، فولوا مدبرين .

* * *

قال نصر : [1] وحدثنا عمرو بن شمِر ، عن جابر ، عن أبي جعفر وزيد بن الحسن ، قال: فنادى الأشعث عَمْرو بن العاص ، فقال : ويحك يا بنَ العاص ! خَلِّ بيننا وبين الماء ، فوالله لئن لم تفعل لتأخذُنا وإياكم السيوف ؟ فقال عمرو : والله لا نخلِّى عنه حتى تأخذَنا السيوف وإياكم ، فيعلَم ربُّنا: أيّنا أصبرُ اليوم . فترجّل الأشعث والأشتر ، وذَوُو البصائر من أصحاب علىّ عليه السلام ، وترجّل معهما اثنا عشر ألفا، فحملوا على عمرو وأبي الأعور ومَنْ معهما من أهلِ الشام ، فأزالوهم عن الماء ، حتى غمست خيلُ علىّ عليه السلام سنابكَها في الماء .

قال نصر : فروى عمر بن سعد أنّ عليًّا عليه السلام قال ذلك اليوم : هذا يوم نصرتم فيه بالحميّة [2] .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، قال : [3] سمعت تميمًا الناجىّ يقول : سمعت الأشعث يقول : حال عمرو بن العاص بيننا وبين الفُرات ، فقلت له : ويحَك ياعمرو ! أما والله إن كنتُ لأظنّ لك رأيا ؛ فإذا أنت لا عَقْل لك . أترانا نخلّيك والماء! تَرِبَتْ يداك [4] ! أما علمْتَ أنّا معشر عرب ! ثكلتْك أمّك وهبلتك ! لقد رُمتَ أمرا عظيما . فقال لي عمرو : أما والله لتعلَمنّ اليومَ أنّا سنَفِي بالعهد ، ونُحْكِم العَقْد ، ونلقاكم

---

(١) صفين ١٨٧ (٢) صفين ١٨٧
(٣) صفين ١٨٩ ، ١٩٠. (٤) صفين : « يداك وفك »

بصبر وجِدّ . فنادى به الأشتر : يابنَ العاص ؛أمَا والله لقد نزلْنا هذه الفُرْضة ، وإنالنريد القتال على البصائر والدين ، وماقِتالُنا سائر اليوم إلّا حمِيّة .

ثم كبّر الأشتر وكبّرنا معه وحَمَلْنا ، فما ثار الغُبار حتى انهزم أهل الشام .

قالوا : فَلَقِيَ عَمْرو بن العاص بعد انقضاء صِفِّين الأشعث ، فقال له : ياأخا كِنْدَة ، أما والله لقد أبصرت صواب قولك يوم الماء ، ولكن كنت مقهوراً على ذلك الرأى ، فكابرتُك بالتهدّد والوعيد ، والحرب خُدْعة .

قال نصر : ولقد كان من رأى عَمْرو التّخلِيَةُ بين أهل العراق والماء . ورجع معاوية بأَخَرة إلى قوله بعد اختلاط القوم فى الحرب ؛ فإن عَمْراً ـ فيما روينا ـ أرسل إلى معاوية: أنْ خَلِّ بين القوم وبين الماء ، أترى القوم يموتون عطشا وهم ينظرون إلى الماء ! فأرسل معاوية إلى يزيد بن أسد القسرىّ : أن خَلِّ بين القوم وبين الماء ياأبا عبد الله ، فقال يزيد ـ وكان شديدَ العثمانية ـ : كلّا والله لنقتلنّهم عطشا كما قتلوا أمير المؤمنين .

***

قال : فحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر، قال : خطب علىّ عليه السلام يوم الماء فقال: « أمّا بعد ؛ فإنّ القوم قد بَدَءوكم بالظلم ، وفاتحوكم بالبغى ، واستقبلوكم بالعدوان ، وقد استطعموكم القتال حيث منعوكم الماء ، فأقِرّوا على مذلّة وتأخير مهلة ..... » الفصل إلى آخره .

قال نصر :وكان[1] قد بلغَ أهلَ الشامأنّعليًّا عليه السلام جعل للناس إن فتح الشام أن يَقْسِم بينهم التبر والذهب ـ وهما الأحمران ـ وأنْ يعطِىَ كلاًّ منهم خمسمائة كما أعطاهم بالبصرة ، فنادى ذلك اليوم منادى أهل الشام : ياأهل العراق ؛ لماذا نزلتم بمَجاج

(١) صفين ١٨٧ ، ١٨٨ .

من الأرض ! نحن أزدُ شَنُوءة لاأزْدُ عمان ، ياأهلَ العراق :

لاخَمسَ إلا جَنْدلُ الأحرِّين[1] والخمسُ قَدْ تُجشِّمُكَ الأمَرِّيْن[2]

* * *

قال نصر : فحدّثنى عمرو بن شمر ،عن إسماعيل السّدىّ ، عن بكر بن تغلب ، قال : حدّثنى[3] مَن سَمع الأشعث يوم الفُرات ــ وقد كان له غَناء عظيم مِنْ أهل العراق ، وقَتَل رجالاً من أهل الشام بيده ، وهو يقول : واللهِ إنْ كنتُ لَكارِهاً قتال أهلِ الصلاة ، ولكن معى مَنْ هو أقدَمُ منّى فى الإسلام ، وأعلم بالكتاب والسنّة ، فهو الّذى يَسْخَى بنفسه .

* * *

---

(١) لا خمس ، أراد لا خمسمائة . والجندل : الحجارة والأحرين : جمع حرة ، وهى الحجارة السوداء .

(٢) الأمرين : الشر والأمر العظيم ، وفى اللسان (٥ : ٢٥٢) بعد شرح كلمة « الأحرين » : أنشد ثعلب لزيد بن عناهية التيمى ، وكان زيد المذكور لما عظم البلاء بصفين قد انهزم ولحق بالكوفة ، وكان على رضى الله عنه قد أعطى أصحابه يوم الجمل خمسمائة من بيت مال البصرة ، فلما قدم زيد على أهله قالت له ابنته : أين خمس المائة ؟ فقال :

إنّ أباكَ فرّ يوم صِفّينْ لما رأى عَكًّا والأشعريينْ

وقيس عيلان الهوازنيّينْ وابن نميرٍ فى سراة الكنديّين

وذا الكَلاَع سيّد اليانينْ وحابساً يستنّ فى الطائيّينْ

قال لنفس السوء : هل تفرين؟ لاخمس إلا جندل الأحرّينْ

والخمس قد جشمْنك الأمرِّينْ جَمْزاً إلى الكوفة من قنَّسْرينْ

ويروى : «قد تجشمك» ، و «قد يجشمنك» . وقال ابن سيده : معنى « لاخمس » ماورد فى حديث صفين أن معاوية زاد أصحابه يوم صفين خمسمائة ، فلما التقوا بعد ذلك قال أصحاب على رضى الله عنه :

* لاخَمس إلا جندل الأحَرّين *

أرادوا : لا خمسمائة .

(٣) صفين ١٩١ ـ ١٩٢

قال نصر : وحمل[1] ظَبْيان بن عُمارة التميمىّ على أهل الشام ، وهو يقول :

هَلْ لَكَ ياظَبْيَانُ مِنْ بَقَاء ... فى سَاكِنى الأرْضِ بِغَيْرِ ماء!
لاَ وإلهِ الأرْضِ والسَّماء ... فاضْرِبْ وُجُوهَ الغُدُرِ الأعداء
بالسَّيْفِ عِنْدَ حَمَس الهَيْجَاء[2] ... حَتى يُجِيبُوكَ إلى السَّوَاء

قال : فَضَرَبَهُمْ والله حتى خَلَّوْا له الماء .

* * *

قال نصر : ودعا[3] الأشتر بالحارث بن همام النَّخعىّ ، ثم الصُّهبانىّ ، فأعطاه لواءه ، وقال له : ياحارث ،لولا أنى أعلم أنك تصبر عند الموت لأخذت لوائى منك ، ولم أحْبُك بكرامتى ، فقال : والله يامالك لأسُرَّنك أو لأموتَنّ ، فاتَّبِعنى . ثمّ تقدّم باللواء وارتجز ، فقال :

يَاأخَا الخَيْرات ياخَيْرَ النَّخَعْ ... وَصَاحِبَ النَّصْر إذا عَمّ الفَزَعْ
وكاشِفَ الخَطْبِ إذا الأمْرُ وَقَعْ ... ماأنْتَ فى الحرْبِ العَوانِ بالجَذَعْ[4]
قد جَزِعَ القومُ وعُمُّوا بالجزَعْ ... وجُرِّعُوا الغيظ وغَصُّوا بالجُرَعْ
إنْ تَسقنا المـاء فليست بالبِدَعْ ... أو نعطش اليوم فجُنْد مُقْتَطَعْ

* مَا شِئْتَ خُذْ مِنْها وَمَا شِئْتَ فَدَعْ *

فقال الأشتر : ادْنُ منّى ياحارث ؛ فدنا منه فقبّل رأسه ، فقال : لايتبعُ رأسَه اليومَ إلّا خَيْرٌ ؛ ثم صاح الأشتر فى أصحابه :فدتكُمْ نفسى اشُدّوا شدّةَ المحرَجِ الرّاجى للفرَج ، فإذا نالتكم الرماح فالتووا فيها ، فإذا عضتكم السيوف فليعضّ الرجُلُ على نواجذه ، فإنّه أشد لشئون[5] الرأس ؛ ثم استقبلُوا القوْمَ بهامِكم .

(١) صفين ١٩٢ .
(٢) الحمس : الشدة فى القتال ، وفى صفين : حمس الوغاء » .
(٣) صفين ١٩٣ ، والمسعودى ٢ : ٣٨٦
(٤) الحرب العوان : التى قوتل فيها مرة بعد مرة ؛ كأنهم جعلوا الأولى بكرا . والجذع : الصغير السن .
(٥) الشئون هنا : جمع شأن ؛ وهو موصل قبائل الرأس .

قال : وكان الأشتر يومئذ على فَرَس له مَحْذوف[١] أدْهم ، كأنه حَلَكُ الغُراب ، وقتل بيده مِنْ أهل الشام من فرسانهم وصناديدهم سبعة : صالح بن فيروز العَكّى ، ومالك بن أدهم السَّلمانى ، ورِيَاح بن عَتِيك الغسانى ، والأجلح بن منصور الكِنْدى — وكان فارس أهل الشام — وإبراهيم بن وضّـاح الجُمَحِىّ ، وزامل بن عبيد الحزامى ، ومحمد ابن روضة الجمحى .

قال نصر : فأول قتيل قتله الأشتر بيده ذلك اليوم صالح بن فيروز ، ارتجز على الأشتر وقال له :

يا صَاحِبَ الطِّرْفِ الحصان الأدْهَمِ　　أقْـدِمْ إذا شئت علَيْنا أقْدِمِ
أنا ابنُ ذى العزّ وذِى التّكرُّمِ　　سَيِّدُ عَكٍّ كُلُّ عَكٍّ فاعلمِ

قال : وكان صالح مشهوراً بالشدّة والبأس ، فارتجز عليه الأشتر ، فقال له :

أنا ابنُ خيرِ مَذْحِجٍ مركبَا　　وخَيْرُها نَفْساً وأمّا وأبَا
آليتُ لا أرجعُ حتى أضرِبَا　　بسيفىَ المصقولِ ضَرْباً مُعْجِبا

ثم شدّ عليه فقتله ، فخرج إليه مالك بن أدهم السَّلمانى — وهو من مشهوريهم أيضا ، فحَمَلَ على الأشتر بالرمح ، فلما رَهَقَه[٢] التوى الأشتر على فرسه ومارَ السنان[٣] فأخطأه ، ثم استوى على فرسه ، وشدّ على الشامىّ فقتله طعنًا بالرمح ، ثم قتل بعده رياح بن عقيل[٤] وإبراهيم بن وضاح ، ثم برز إليه زامل بن عَقِيل — وكان فارسا — فطعن الأشتر فى موضع الجَوْشن[٥] فصرَعه عن فرسه ، ولم يصب مقتلا ، وشدّ عليه الأشتر بالسيف راجلا فكشف قوائم فرسه ، وارتجز عليه فقال :

---

(١) المحذوف : المقطوع الذنب .
(٢) رهقه : غشيه .
(٣) مار السنان : اضطرب .
(٤) صفين : « رياح بن عتيك » .
(٥) الجوشن : الصدر .

لَا بُدّ مِنْ قتـلِي أو مِنْ قَتْلِـكَا   قتلتُ منكم أرْبَعًا من قبلكا(١)

* كلّهم كانُوا حُمَاةً مِثْلَكَا *

ثم ضربه بالسيف وهما راجلان فقتله ، ثم خرج إليه محمد بن روضة ، فقال ، وهو يضرب فى أهل العراق ضَرْبا منكرا :

يَاسَاكِنِي الـكُوفَةِ يَاأَهْلَ الفِتَنْ   يَاقَاتِلِي عُـثْمَانَ ذَاكَ المُؤْتَمَنْ

أورث قلبي قتله طُولَ الحَزَنْ   أضربُكم وَلَا أرَى أبا حَسَنْ !

فشدّ عليه الأشتر فقتله ، وقال :

لايبعِد اللهُ سِوَى عُثْمَانَا   وَأَنْزَلَ اللهُ بِكُمْ هَوَانَا

* وَلَا يُسَلِّي عَنْكُمُ الأَحْزَانَا(٢) *

ثم برز إليه الأجلح بن منصور الكندىّ ــ وكان من شجعان العرب وفُرسانها ــ وهو على فرَس له اسمه لاحق ، فلما استقبله الأشتر ، كره لقاءه واستحيا أن يرجعَ عنه ، فتضاربا بسيفيهما ، فسبقه الأشتر بالضّرْبة فقتله ، فقالت أخته ترثيه :

ألا فابْـكِي أخا ثِقَةٍ   فقَدْ واللهِ أبْـكِينَا

لقتلِ المَاجِد القَمْقَا   م لا مِثْلَ له فينا(٣)

أتانا اليومَ مقتلُه   فقد جُزّتْ نَوَاصِينَا

كريمٌ ماجِدُ الجدّيْـ   ـنِ يَشْفِي مِنْ أعادِينَا

شفانا اللهُ من أهل الـ   ـعراقِ فقد أبادُونَا

أمَا يخشَوْنَ رَبّهُمُ   ولَمْ يرعَوْا له دينا !

---

(١) صفين : « قتلت خمسة »

(٢) بقية الرجز كما فى صفين :

مخالفٌ قَدْ خَالَفَ الرّحْمَانَا   نَصَرْتُمُوهُ عابداً شيطـانا

(٣) القمقام : السيد الكثير العطاء .

قال : وبلَغ شعرُها عليًّا عليه السلام ، فقال : أما إنهُنَّ ليس بمَلْـكهن ّ مارأيتم من الجزَع ، أما إنهم قد أضرُّوا بنسائهم ، فتركوهن ّ أيامَى حزَانى[1] بائسات . قاتل الله معاوية ! اللهم حَمّله آثامهم وأوزَارا وأثقالا مع أثقاله ! اللهم لاتعفُ عنه !

***

قال نصر : وحدثنا[2] عمرو بن شمر، عن جابر ، عن الشعبيّ ، عن الحارث بن أدهم، وعن صعصعة ، قال: أقبل الأشترُ يوم الماء ، فضرب بسيفه جمهورَ أهل الشام حتى كشفهم عن الماء ، وهو يقول :

لَاتذْكُروا ماقَدْ مَضَى وَفَاتَا وَاللهِ رَبِّي الباعثِ الأمْوَاتَا

مِنْ بَعْدِ ماصاروا كَذَا رُفَاتَا[3] لأوردَنْ خَيْلِي الفُرَاتَا

* شُعْثَ النَّواصِي أو يقالَ ماتا *

قال :وكان لواءالأشعث بن قيس مع معاوية بن الحارث، فقال له الأشعث: للهأبوك! ليست النَّخَع بخيرٍ مِنْ كِنْدة ، قَدِّم لواءك فإنَّ الحظّ لمن سبق . فتقدم لواء الأشعث ، وحملت الرجال بعضُها على بعض ، وحمل فى ذلك اليوم أبو الأعور السلمّى؛ وحمل الأشترُ عليه ، فلم ينتصف أحدُهما من صاحبه ، وحمل شُرحبيل بن السِّمْط على الأشعث ، فكانا كذلك ، وحمل حَوْشبذو ظليم على الأشعث أيضا ، وانفصلا ولم ينلْ أحدهما من صاحبه أمرا ، فما زالوا كذلك حتى انكشفَ أهلُ الشامعن الماء ، وملكأهلُ العراق المشرَعة .

***

قال نصر : فحدّثنا محمد بن عبد الله ، عن الجرجانى ، قال : قال[4] عمرو بن العاص لمعاوية لما ملك أهلُ العراق الماء : ماظنّك يامعاوية بالقوم إن منعوك اليوم المـاء كما منعتَهم

(١) صفين : « خزايا » .
(٢) صفين ٢٠١
(٣) صفين : « صدى فراتا » .
(٤) صفين ٢٠٨

أمس ! أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه ! ماأغنى عنك أن تكشف لهم السوءة .
فقال معاوية : دع عنك مامضى ، فما ظنّك بعليّ ؟ قال : ظنى أنه لا يستحلّ منك ما استحللت منه ، وأنّ الذى جاء له غير الماء . قال : فقال له معاوية قولا أغضبه ، فقال عمرو :

أمرتك أمراً فسخّفتَه   وخالفنى ابن أبى سَرْحَه (١)
وأغمضتَ فى الرّأى إغماضةً   ولم ترَ فى الحرب كالفُسْحَهْ
فكيف رأيتَ كِباشَ العِراقِ   ألم ينطحوا جَمْعَنا نَطْحَهْ !
فإن ينطحونا غداً مثلها   نَكُنْ كالزبيريّ أوطلْحَهْ
أظنّ لها اليومَ مابعدَها   وميعادُ ما بيننا صُبْحَهْ
وإن أخروها لِمَا بَعْدَها   فقد قدّموا الخبْطَ والنَّفْحَهْ
وقد شرب القومُ ماءَ الفراتِ   وَقَلّدَكَ الأشترُ الفَضْحَهْ

قال نصر : فقال أصحاب علىّ عليه السلام له : امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك . فقال : لا ، خلّوا بينهم وبينه ، لا أفعل مافعله الجاهلون ، سنعرض عليهم كتابَ الله ، وندعوهم إلى الهدى ، فإن أجابوا ؛ وإلا ففى حدّ السيف مايغنى إن شاء الله .

قال : فوالله ماأمسى الناس حتى رأوا سُقاتهم وسقاةَ أهل الشام وَرواياهم وروايا أهل الشام يزدحمون على الماء ، مايؤذى إنسانٌ إنسانا .

(١) يريد بابن أبى سرحة عبد الله بن سعد بن أبى سرح .

(٥٢)(*)

ومن خطبة له عليه السلام ، وقد تقدم مختارها برواية ، ونذكر ما نذكره هنا برواية أخرى ، لتغاير الروايتين :

الأَصْلُ :

أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَرَّمَتْ وَآذَنَتْ بِانْقِضَاء ، وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا وَأَدْبَرَتْ حَذَّاء ، فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ سُكَّانَهَا ، وَتَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرَانَهَا ، وَقَدْ أَمَرَّ فِيهَا مَا كَانَ حُلْواً ، وَكَدِرَ مِنْهَا مَا كَانَ صَفْواً ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا سَمَلَةٌ كَسَمَلَةِ الْإِدَاوَةِ ، أَوْ جُرْعَةٌ(١) كَجُرْعَةِ الْمَقْلَةِ ، لَوْ تَمَزَّزَهَا الصَّدْيَانُ لَمْ يَنْقَعْ .

فَأَزْمِعُوا عِبَادَ اللَّهِ الرَّحِيلَ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ الْمَقْدُورِ عَلَى أَهْلِهَا الزَّوَالُ ، وَلَا يَغْلِبَنَّكُمْ فِيهَا الْأَمَلُ ، وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ فِيهَا(٢) الْأَمَدُ . فَوَاللَّهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنِينَ الْوُلَّهِ الْعِجَالِ ، وَدَعَوْتُمْ بِهَدِيلِ الْحَمَامِ ، وَجَأَرْتُمْ جُؤَارَ مُتَبَتِّلِي الرُّهْبَانِ ، وَخَرَجْتُمْ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ؛ الْتِمَاسَ الْقُرْبَةِ إِلَيْهِ فِي ارْتِفَاعِ دَرَجَةٍ عِنْدَهُ ، أَوْ غُفْرَانِ سَيِّئَةٍ أَحْصَتْهَا كُتُبُهُ ، وَحَفِظَتْهَا رُسُلُهُ لَكَانَ قَلِيلاً فِيمَا أَرْجُو لَكُمْ مِنْ ثَوَابِهِ ، وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقَابِهِ .

وَ بِاللَّهِ لَوِ انْمَاثَتْ قُلُوبُكُمْ انْمِيَاثاً ، وَسَالَتْ عُيُونُكُمْ مِنْ رَغْبَةٍ إِلَيْهِ أَوْ رَهْبَةٍ مِنْهُ دَماً ، ثُمَّ عُمِّرْتُمْ فِي الدُّنْيَا – مَا الدُّنْيَا بَاقِيَةٌ – مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ – وَلَوْ لَمْ تُبْقُوا شَيْئاً مِنْ جُهْدِكُمْ – أَنْعُمَهُ عَلَيْكُمُ الْعِظَامَ ، وَهُدَاهُ إِيَّاكُمْ لِلْإِيمَانِ .

(*) انظر الخطبة رقم ٢٨ الجزء الثاني ص ٩١

(١) مخطوطة النهج : « وجرعة » .

(٢) كلمة « فيها » ساقطة في مخطوطة النهج .

الشرح

تصرّمت: انقطعت وفنيت. وآذنت بانقضاء: أعلمَت بذلك، آذنته بكذا، أي أعلمته. وتنكّر معروفها: جُهِل منها ما كان معروفا.

والحذّاء: السريعة لذهاب، ورحِم حذاء: مقطوعة غير موصولة. ومن رواه «جذّاء» بالجيم، أراد منقطعة الدرّ والخير.

وتحفز بالفناء سكانها: تُعجلهم وتسوقهم. وأمَرّ الشيء: صار مُرّا. وكدر الماء، بكسر الدال، ويجوز كَدُر بضمها. والمصدر من الأوّل كَدَراً، ومن الثاني كُدُورة.

والسَّمَلة، بفتح الميم: البقيّة من الماء تَبقى في الإناء.

والمَقْلة، بفتح الميم وتسكين القاف: حصاة القَسْم التي تلقى في الماء ليعرف قَدْر ما يُسقى كلّ واحد منهم؛ وذلك عند قلة الماء في المفاوز، قال:

قَذَفُوا سَيِّدَهُمْ في ورطةٍ قَذْفَكَ المَقْلَةَ وَسْطَ المعترَك[1]

والتمزّز: تمصّص الشراب قليلا قليلا. والصديان: العطشان.

ولم ينقع: لم يَرْوَ؛ وهذا يمكنُ أن يكونَ لازما، ويمكن أن يكون متعدِّيًا، تقول: نقع الرجل بالماء، أي روى وشفى غليله، ينقع. ونقع الماء الصدىَ ينقع، أي سكّنه.

فأزمعوا الرحيل، أي اعزموا عليه، يقال: أزمعت الأمر، ولا يجوز أزمعت على الأمر؛ وأجازه الفرّاء.

قوله: «المقدور على أهلها الزوال»، أي المكتوب، قال:

واعلم بأنّ ذا الجلال قد قَدَرْ في الصحف الأولى الذي كان سُطِرْ

---

(١) اللسان ١٤ : ١٥٠، ونسبه إلى يزيد بن طعمة الخطمى.

أى كتب. والوُلَّه العجال : النُّوق الوالهة الفاقدة أولادَها ، الواحدة عَجُول، والوَلَه: ذهاب العقل وفقد التمييز .

وهدِيل الحمام : صوت نوحه . والجؤار: صوت مرتفع. والمتبتِّل : المنقطع عن الدنيا. وانماث القلب ، أى ذاب .

وقوله : « ولو لم تبقوا شيئا من جُهْدكم » اعتراض فى الكلام .

وأنعمه ، منصوب لأنه مفعول « جزت » .

***

وفى هذا الكلام تلويح وإشارة إلى مذهب البغداديّين من أصحابنا فى أنّ الثواب على فعل الطاعة غير واجب ؛ لأنه شكر النعمة، فلا يقتضى وجوبَ ثواب آخر ؛ وهو قوله عليه السلام : « لو انماثت قلوبكم انمياثا .... » ، إلى آخر الفصل .

وأصحابنا البصريون لا يذهبون إلى ذلك، بل يقولون: إنّ الثواب واجب على الحكيم سبحانه ، لأنه قد كلّفنا ما يشقّ علينا ، وتكليف المشاقّ كإنزال المشاقّ ، فكما اقتضت الآلام والمشاقّ النازلة بنا من جهته سبحانه أعواضاً مستحقّة عليه تعالى عن إنزالها بنا، كذلك تقتضى التكليفات الشاقة ثوابا مستحَقّاً عليه تعالى عن إلزامه إيانا بها ، قالوا : فأما ما سلف من نعمه علينا فهو تفضُّل منه تعالى ، ولا يجوز فى الحكمة أن يتفضّل الحكيم على غيره بأمر من الأمور ، ثم يُلزمه أفعالا شاقة ويجعلها بإزاء ذلك التفضُّل ؛ إلا إذا كان فى تلك الأمور منافع عائدة على ذلك الحكيم، فكان ما سلَف من المنافع جاريا مجرى الأجرة ؛ كمن يدفع درهما إلى إنسان ليَخِيط له ثوبا، والبارئ تعالى منزّه عن المنافع ؛ ونعمه علينا منزهة أن تجرى مجرى الأجرة على تكليفنا المشاقّ .

وأيضا فقد يتساوى اثنان من الناس فى النعم المنعَم بها عليهما ، ويختلفان فى التكاليف،

فلو كان التكليف لأجل ما مضى من النعم لوجب أن يقدر بحسبها . فإن قيل : فعلَى ماذا يُحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وفيه إشارة إلى مذهب البغداديين ؟

قيل: إنه عليه السلام لم يصرح بمذهب البغداديين ؛ ولكنه قال : لو عبدتموه بأقصى ماينتهى الجُهْد إليه ماوَفيتم بشكر أنعمِه ؛ وهذاحقٌّ غيرُ مختلف فيه، لأنّ نعم البارئ تعالى لاتقوم العباد بشكرها، وإن بالغوا فى عبادته والخضوع له والإخلاص فى طاعته؛ ولا يقتضى صدق هذه القضية وصحتها صحةَ مذهب البغداديين فى أنّ الثواب على الله تعالى غيرُ واجب؛ لأنّ التكليف إنما كان باعتبار أنه شكر النعمة السالفة .

***

[ما قيل من الأشعار فى ذمّ الدنيا]

فأما ما قاله الناس فى ذمّ الدنيا وغرورها وحوادثها وخطوبها وتنكّرها لأهلها ، والشكوى منها، والعتاب لها والموعظة بها ، وتصرمها وتقلّبها ، فكثير؛ من ذلك قول بعضهم :

هىَ الدُّنيَا تَقُولُ بملْءِ فِيهـا ... حَذَارِ حَذَارِ مِنْ بَطْشِى وَفَتْكِى(1)
فلا يغرُرْكُمُ حُسْنُ ابتسامى ... فَقَوْلِى مُضْحِكٌ والفعل مُبْكِ

وقال آخر :

تنحَّ عَنِ الدُّنيَا وَلَا تَطْلُبَنَّهـا ... وَلَا تَخْطُبَنْ قتّالةً مَنْ تُنَاكِحُ
فَلَيْسَ يَفِى مَرْجُوُّهَا بمَخُوفِهـا ، ... وَمَكْرُوهُهَا إمّا تأمّلتَ رَاجِحُ
لَقَدْ قالَ فيهـا القائلون فأكْثَرُوا ... وَعِنْدِى لها وصفٌ لَعَمْرُكَ صالِحُ
سُلافٌ ، قُصَاراها ذُعَافٌ ، ومركبٌ ... شهىٌ إذا استلذذته فهو جامِحُ
وَشَخْصٌ جَمِيلٌ يُعْجِبُ النَّاسَ حُسْنُه ... ولكنْ له أفعـالُ سُوءٍ قبائحُ

---

(1) لأبى الفرج الساوى ، معاهد التنصيص ٤ : ٢٤١ .

وقال أبو الطيّب :

أبداً تَسْتَرِدُّ ما تَهَبُ الدُّنيَا فيَالَيْتَ جُودَها كانَ بُخْلاَ (١)
وَهْيَ مَعْشُوقَةٌ عَلَى الْغَدْرِ لاَتَحْـفَظُ عَهْدًا ولا تتمّم وَصْلاَ
كلُّ دَمْع يَسِيلُ مِنْهـا عَلَيْهَا وبفكّ اليدَيْنِ عَنْهَا تُخَلَّى
شِيَمُ الغانيَاتِ فِيهـا ولا أدْ رِى لذا أنّثَ اسمَهَا الناسُ أم لا !

وقال آخر :

إنّمـا الدّنيـا عَوَارٍ والعوارِى مُسْتَرَدَّهْ (٢)
شدّة بعد رَخَاء ورخاء بعد شِدّه

وقال محمد بن هانىء المغربىّ :

وَما النّاسُ إلّا ظَاعِنٌ فَمُوَدِّعٌ وثاوٍ قريحُ الجفْنِ يَبْـكِى لرَاحلِ (٣)
فما الدّهر إلا كالزمان الّذِى مَضَى ولا نحنُ إلا كالقرُون الأوائل
نُسَاقُ من الدُّنيا إلى غير دائمٍ ونبكى من الدنْيَا على غيرِ طائلِ
فما عاجلٌ نَرجوه إلّا كآجلٍ ولا آجلٌ نَخْشَاهُ إلا كعاجلِ

وقال ابن المظفّر المغربىّ :

دُنْيَاكَ دَارُ غُرورٍ ونعمــةٌ مُسْتَعَارَهْ
ودَارُ أكْلٍ وَشُرْبٍ وَمَكْسَبٍ وَتِجَارَهْ
ورأس مالك نَفْسٌ نخفْ عليها الخساره

---

(١) ديوانه ٣ : ١٣١
(٢) محاضرات الأدباء ٢ : ١٢٦ من غير نسبة .
(٣) ديوانه ٥٨٧ (طبعة المعارف) .

ولا تَبِعْهَا بأكلٍ وطيب عَرْفٍ وَشَارَهْ
فإنَّ مُلْكَ سليما نَ لا يفي بشَرارَهْ

***

وقال أبو العتاهية :

ألا إنما التقوى هِيَ البرُّ والكَرَمْ وَحُبُّكَ للدُّنيا هو الفَقْرُ والعَدَمْ[1]
وَليس عَلَى عَبْدٍ تَقِيٍّ غضاضَةٌ إذا صَحَّحَ التَّقْوى وإن حاكَ أو حَجَمْ[2]

وقال أيضاً :

تَعَلَّقْتَ بآمالِ طوالٍ أيَّ آمالِ
وأقبَلْتَ على الدُّنيا مُلِحّاً أيَّ إقبالِ
أيا هَذا تَجَهَّزْ لِـ فِراقِ الأهلِ والمالِ
فلا بدَّ مِنَ المَوْتِ عَلَى حالٍ مِنَ الحالِ

وقال أيضاً :

سَكَنٌ يَبْقَى لَهُ سَكَنُ مَا بِهَذَا يُؤْذِنُ الزَّمَنُ[3]
نَحْنُ في دارٍ يُخَبِّرُنا بِبَلاها ناطِقٌ لَسِنُ
دَارُ سُوءٍ لم يدم فَرَحٌ لامرئٍ فيها وَلَا حَزَنُ
في سبيل الله أنفُسُنا كُلُّنا بالموْتِ مُرْتَهَنُ
كلّ نفسٍ عِنْدَ مَوْتَتِها حَظُّها مِنْ مالِها الكَفَنُ
إنَّ مالَ المرء ليس له مِنْهُ إلا ذِكْرُهُ الحسنُ

(١) ديوانه ٢٤٣
(٢) ديوانه ٢١٣
(٣) ديوانه ٢٥٢

وقال أيضاً :

أَلَا إِنَّنَا كُلنـا بَائِدُ وأىّ بَنِى آدمٍ خَالدُ ا(١)
وَبَدْؤُهُمُ كَانَ مِنْ رَبِّهِمْ وَكُلٌّ إلى رَبِّهِ عَائِدُ
فواعجباً كيف يَعْصِى الإلـ ـهَ أمْ كيف يَجْحَدُهُ الجاحِدُ
وفى كلّ شيء له آيةٌ تَدُلّ على أنّه الواحِـدُ

وقال الرضى المُوسوىّ :

يا آمنَ الأيام بادِرْ صَرْفَهـا واعْلَمْ بأنّ الطّالِبينَ حِثاثُ(٢)
خُذْ مِنْ تُرَاثِكَ مَا اسْتَطَعْتَ فإنّما شُرَكاؤكَ الأيامُ والوُرّاثُ
لَمْ يَقْضِ حَقّ المَالِ إلّا مَعْشَرٌ نَظَرُوا الزّمانَ يَعيثُ فيه فعَاثُوا
تَحثو على عَيْبِ الغَنىِّ يَدُ الغِنَى وَالْفقْرُ عَنْ عَيبِ الْفَتَى بَحّاثُ
المَالُ مَالُ الْمَرْءِ مابلغت به الشَّهَوَاتُ أو دُفِعَتْ به الأحـداثُ
مَا كَانَ مِنْـهُ فَاضِلًا عَنْ قُوتِهِ فليعلمنّ بأنّه مِـيرَاثُ
مالى إلى الدنيا الدنيّـة حاجةٌ فَلْيَجْنِ ساحرَ كيدها النَّفّاثُ
طَلّقْتُها ألفاً لأحْسِمَ دَاءها وطلاقُ مَنْ عَزَمَ الطَّلَاقَ ثَلَاثُ
وَثَبَاتُهَا مَرْهُوبَةٌ، وَعِدَاتُهـا مَكْذُوبَةٌ ، وحبالها أنكاثُ
أمّ المصائب لاتزال تَرُوعُنـا مِنْهـا ذُكُورُ حَوادِثٍ وإناثُ
إنّى لَأعْجَبُ للذين تَمَسّكُوا بحبائلِ الدُّنيَا ، وَهُنّ رِثَاثُ
كنزوا الكُنوز وأعقلوا شهواتِهم فالأرضُ تَشْبَعُ والبطونُ غِرَاثُ
أتُراهُمُ لَمْ يَعْلَمُوا أنّ التقى أزْوَادُنا ، وديارنا الأجْـدَاثُ!

---

(١) ديوانه ٦٩
(٢) ديوانه لوحة ١٢٣ ، وفيه : « يا آمن الأقدار » .

وقال آخر :

هذهِ الدنيا إذا صَرَفَتْ وَجْهَهَا لم تنفع الحِيَلُ
وإذا ماأقبَلَتْ لِعَمٍ بَطَّرَتْهُ كَيْفَ يفتعِلُ
وإذا ما أدْبَرَتْ لِذَكِي غَابَ عَنْهُ السَّهلُ والجَبَلُ
فَهْيَ كالدُّولابِ دَائِرَةٌ تَرْتقِي طَوْراً وَتَسْتَفِلُ
فِي زَمَانٍ صَارَ ثَعْلَبُهُ أَسَداً واسْتَذْأَبَ الحَمَلُ
فالذُّنَابَى فيه ناصيــةٌ والنَّواصِي خُشَّعٌ ذُلُلُ
فاصْبِرِي يَانَفْسُ واحْتَمِلِي إنَّ نَفْسَ الحرِّ تَحْتَمِلُ

وقال أبو الطيب :

نُعِدُّ المشرَفِيَّــةَ والعَوالِي وتَقْتُلُنَا المَنُونُ بِلا قِتَالِ(١)
وَنَرْتَبِطُ السَّوابِقَ مُقْرَبَاتٍ وَمايُنجِينَ مِنْ خَبَبِ اللَّيَالِي(٢)
وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنيا قديماً وَلَكِنْ لاسَبِيلَ إلى الوِصَالِ !
نصيبُك في حياتك مِن حَبِيبٍ نَصِيبُكَ في منامك مِنْ خَيالِ
رَمَانِي الدَّهْرُ بالأرْزاء حَتَّى فُؤادِي في غِشَــاءٍ مِنْ نِبالِ
فصِرْتُ إذَا أصَابَتْنِي سِهامٌ تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ
وَهَانَ فَمَــا أبالي بالرَّزَايا لأنِّي مَا انْتَفَعْتُ بِأنْ أبَالِي
يُدَفِّنُ بَعْضُنَا بَعْضــاً وَيَمْشِي أواخِرُنا عَلَى هَامِ الأوَالِي
وَكَمْ عَيْنٍ مُقَبَّــلَةِ النَّواحِي كَحِيلٍ في الجنــادِلِ والرمالِ

(١) ديوانه ٣ : ٨٠ ، المشرفية : السيوف ، والعوالى : الرماح .
(٢) المقربات من الخيل : الكرام التي تربط لكرامتها على أصحابها .

وَمُغْضٍ كانَ لا يُغضِى لخطبٍ   وبالٍ كان يُفكرُ فى الهزالِ

***

وقال أبو العتاهية فى أرجوزته المشهورة فى ذم الدنيا وفيها أنواع مختلفة من الحكمة :

مَازَالَتِ الدُّنيَا لنَا دَارَ أذَى   ممزوجةَ الصَّفْو بألوانِ القَذَى (١)

الخيرُ والشَّرُّ بهَا أزْوَاجُ   لِذَا نِتَاجٌ ، ولِذا نِتَاجُ

مَنْ لَكَ بالمَحْضِ وَلَيسَ مَحْضُ   يَخْبُثُ بَعضٌ وَيَطِيبُ بَعضُ

لِكلِّ إنسانٍ طَبِيعَتَانِ   خَيْرٌ وَشَرٌّ وَهُمَا ضِدَّانِ

والخيرُ والشَّرُّ إذا ماعُدَّا   بينهمَا بَونٌ بعيدٌ جِدّا

إنَّك لَوْ تَسْتَنْشِقُ الشَّحِيحَا   وَجَدْتَهُ أنْتَنَ شىءٍ رِيحَا

حَسْبُك مِمَّا تبتغيهِ القُوتُ   مَا أَكْثَرَ القُوتَ لِمَنْ يَمُوتُ !

الفَقْرُ فِيمَا جَاوَزَ الكَفَافَا   مَنِ اتَّقَى اللهَ رَجَا وخَافَا

هِىَ المَقَادِيرُ فَلُمْنِى أوْ فَذَرْ   إنْ كنتُ أخطأتُ فمَا أخطا القَدَرْ

لِكلِّ مايؤذِى وإنْ قلَّ ألَمْ   مَاأطْوَلَ اللَّيْلَ عَلَى مَنْ لَمْ يَنَمْ !

ما انتفعَ المرءُ بمثلِ عَقْلِهِ   وَخَيْرُ ذُخْرِ المرءِ حُسْنُ فِعلِهِ

إنَّ الفسادَ ضِدُّهُ الصلاحُ   وربَّ جِدٍّ جَرَّهُ المُزاحُ

مَنْ جَعَلَ النَّمام عَيْناً هَلَكَا   مُبلغك الشَّرَّ كباغِيهِ لَكَا

إنَّ الشَّبابَ وَالفَرَاغَ والجِدَهْ   مَفْسَدَةٌ للمرءِ أىَّ مَفسَدَهْ

يُغْنِيكَ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ تَرْكُهُ   قَدْ يُوهِن الرَّأىَ الأصيلَ شَكُّهُ

مَاعَيْشُ مَنْ آفَتُهُ بَقَاؤُهُ   نَغَّصَ عَيْشاً نَاعِماً فَنَاؤُهُ (٢)

---

(١) ديوانه ٣٤٦ مع اختلاف فى ترتيب الأبيات .

(٢) الديوان : « بقاؤه » ، « فناؤه » .

يَارُبَّ مَنْ أَسْخَطَنَا بِجُهْدِهِ　　قَدْ سَرَّنَا اللهُ بِغَيْرِ حَمْدِهِ
مَاتَطْلُعُ الشَّمْسُ وَلَا تَغِيبُ　　إِلَّا لأَمْرٍ شَأْنُهُ عَجِيبُ
لِكُلِّ شيءٍ قَدَرٌ وَجَوْهَرُ　　وَأَوْسَطٌ وَأَصْغَرٌ وَأَكْبَرُ
وَكُلُّ شيءٍ لاحقٌ بجوهرِهِ　　أَصْغَرُهُ مُتَّصِلٌ بأَكْبَرِهِ
مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَكُلٌّ مُمْتَزِجْ　　وَسَاوِسٌ فِي الصَّدْرِ مِنْكَ تَعْتَلِجْ
عجبتُ واستغرقنى السُّكُوتُ　　حَتَّى كَأَنِّى حائرٌ مَبْهُوتُ
إذا قضى الله فكيف أصْنَعُ　　والصَّمْتُ إن ضاق الكلامُ أوْسَعُ

وقال أيضاً :

كلٌّ عَلَى الدُّنيا لَهُ حِرْصُ　　والحادِثَاتُ أَنَاتُهَا قَرْصُ(١)
وكأنَّ مَنْ وارَوْه فى جَدَثٍ　　لم يَبْدُ مِنْهُ لِنَاظِرٍ شَخْصُ
يَهْوَى مِنَ الدُّنيـا زيادتَهَـا　　وزيادةُ الدُّنيا هِيَ النَّقْصُ
لِيَدِ الْمَنِيَّـةِ فى تَلَطُّفِهَـا　　عَنْ ذُخْرِ كلِّ نَفِيسَةٍ فَحْصُ

وقال أيضاً :

أَبْلَغَ الدَّهْرُ فِي مواعظِـه بَلْ　　زادَ فِيهِنَّ لِي من الإبْلَاغِ(٢)
أىّ عَيْشٍ يكونُ أطيبَ من عيـشٍ　　كَفَافِ قوتٍ بقَدْرِ الْبَلَاغِ
غصبتنِىَ الأيامُ أهْلِى ومالى　　وشبـابى وصحتى وفَرَاغى
صَاحِبُ الْبَغْيِ لَيْسَ يَسْلَمُ مِنْهُ　　وَعَلَى نفسِهِ بَغَى كُلُّ باغ
رُبَّ ذِى نعمة تعرض مِنْهَا　　حائلٌ بَيْنَهُ وبَيْنَ المساغ

***

(١) ديوانه ١٣٦ .
(٢) ديوانه ١٦٤ .

وقال ابن المعتز :

حَمْداً لِرَبِّى وَذمًّا للزَّمَانِ فَمَا أقلَّ فِى هَـذِهِ الدُّنْيَا مَسَرَّاتِى !
كفت يَدِى أملِى عن كلِّ مُطَّلَبٍ وَأَغْلَقَتْ بَابَهَا مِنْ دُونِ حاجَاتى

وله أيضاً :

ألستَ ترى يا صاح ما أعجبَ الدَّهْرَا فَذَمًّا لَهُ ، لَـكِنَّ لِلْخالِقِ الشُّـكْرَا
لَقَدْ حَبَّبَ الموتَ البقاءُ الَّذِى أرَى فَيَا حَبَّذَا مِنِّى لِمَنْ سَكَنَ القَبْرَا
وَسُبْحانَ رَبِّى راضياً بقضـائِهِ وَكَانَ اتِّقَائِى الشرَّ يُغْرِى بِىَ الشَّرَّا

وله :

قُلْ لدنياك : قدْ تمكَّنْتِ منِّى فَافْعَلِى مَا أرَدْتِ أن تفعلِى بِى
واخرقى كيف شئت خَرْقَ جَهُولٍ إن عندى لك اصطبارَ لَبِيبِ

وقال أبو العلاء المَعرِّىّ :

والدهْرُ إبْرَامٌ ونَقْضٌ وَتَفْـرِيق وَجَمْعٌ وَنَهَارٌ وَلَيْلْ[(١)]
لو قال لى صاحبه سمِّـــــه ما جزت عن ناجية أو بديلْ

وقال آخر :

والدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَالَةٍ لا بُدَّ أنْ يُدْبِرَ أوْ يُقْبِلاَ

وقال أبو الطيب :

فما لى وللدُّنيا طلابى نجومُها وَمَسْعَاىَ مِنْهَا فى شدوقِ الأَرَاقِمِ[(٢)]

---

(١) سقط الزند ١٦١ .
(٢) ديوانه ٤ : ١١١ . الأراقم : الحيات .

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ مَا الأيام إلّا مُعارَةٌ فما اسْطَعْتَ مِنْ مَعْرُوفِهَا فتزوّدِ

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ ما الأيّام إلا كما ترى رزيّة مالٍ ، أو فِرَاقُ حَبِيب

الوزير المهلبيّ :

أَلَا مَوْتٌ يُباعُ فأشْـــتَرِيهِ فَهٰذَا ٱلعَيْشُ مَالَا خَـيْرَ فِيهِ(١)
أَلَا رَحِمَ المهيمنُ نَفْسَ حُرٍّ تصدّقَ بالمماتِ عَلَى أَخِيهِ

وله :

أشْـكُو إِلَى اللهِ أحْداثاً من الزَّمَنِ يَبْرِينَنِي مثل بَرْىِ القِدح بالسَّفَنِ
لَمْ يَبْقَ بالعيشِ لى إلا مرارتُه إذا تَذَوّقتُهُ ، والحلو مِنْهُ فَنِى
لا تَحْسَبَنْ نِعَمًا سَرَّتْكَ صُحْبَتُها إلا مفاتيحَ أبوابٍ من الحَزَنِ

عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

أَلا أيُّها الدَّهر الذى قَـدْ مللتُهُ سألتُك إلا ما سَلَلْتَ حَيَاتى
فقد وجلالِ الله حَبَّبْتَ جاهِداً إلَىَّ ـ عَلَى كُرْهِ المماتِ ـ مَمَاتى

وله :

أَلَمْ تَرَ أنّ الدَّهْرَ يَهْـدِمُ مَا بَنَى وَيَسْلُبُ ما أعْطَى وَيُفْسِدُ ما أَسْدَى
فَمَنْ سَرّهُ أَلّا يَرَى ما يَسُـــوءهُ فَلَا يَتَّخِـذْ شيئاً يخافُ لَهُ فَقْـدَا

البحتريّ .

كَأنّ اللّيـالى أغْرِيَتْ حَادِثَاتُها بِحُبِّ الّذِى نأْبَى ، وبغضِ الّذِى نَهْوَى(٢)

---

(١) ابن خلكان ١ : ١٤٢
(٢) ديوانه ١ : ١٠

وَمَنْ عرَفَ الأيّام لَمْ يرَ خَفْضها نعيما ولم يعدُدْ مضرّتها بَلْوَى

أبو بكر الخوارزمىّ :

مَا أثقَلَ الدّهْرَ عَلَى مَنْ رَكِبَهْ
حَـدّثنى عَنْهُ لِسَانُ التّجْرِبَهْ
لا تَشْـكُرِ الدّهْرَ لخير سَبّبَهْ
فإنّه لم يتعمّـــــدْ بالْهِبَهْ
وإنمـــا أخطأ فيكَ مَذْهَبَهْ
كالسَّيْلِ قَدْ يَسْقِى مَكاناً أخْرَبَهْ
والسُّمّ يَسْتَشْفِى به مَنْ شَرِبَهْ

وقال آخر :

يَسْعى الْفَتَى فى صَلَاحِ الْعيشِ مُجْتَهِداً والدّهْرُ مَا عَاشَ فى إفسادِهِ سَاعى

آخر :

يَغُرّ الْفَتَى مَرُّ الليالى سَليمَة وَهُنّ بِهِ عَمّا قَلِيـــلٍ عَوائِرُ

آخر :

إذَا ما الدّهْرُ جرّ على أناسٍ كلاكِلَه أناخَ بآخَرِينا
فَقُلْ للشّامِتِين بِنا أفِيقُوا سَيَلْقَى الشّامِتُونَ كما لَقِينا

آخر :

قُلْ لِمَنْ أنـكَرَ حَالاً مُنْكَرَهْ وَرَأى مِنْ دَهْرِهِ ماحَيّرَهْ
لَيْسَ بالمنْـكَرِ ما أنـكَرْتَهُ كلُّ مَنْ عَاشَ رَأى مالَمْ يرَهْ

ابن الرومىّ :

سَـكَنَ الزّمانُ وَتحتَ سَـكْنَتِهِ دَفعٌ مِنَ الْحرَكَاتِ والْبَطْشِ

كَالْأُفْعُوَانِ تَرَاهُ مُنْبَطِحاً بالأرْضِ ثُمَّ يَثُورُ لِلنَّهْشِ

أبو الطيب :

إنَّا لَفِي زَمَنٍ تَرْكُ الْقَبِيحِ بِهِ مِنْ أكْثَرِ النَّاسِ إحْسَانٌ وإجْمَالُ(١)

ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ مَافَاتَهُ ، وَفُضُولُ الْعَيْشِ أشْغَالُ

وقال آخر :

جَارَ الزَّمَانُ عَلَيْنَا فِي تَصَرُّفِهِ وأيُّ حُرٍّ عَلَيْهِ الدَّهرُ لَمْ يَجُرِ ا

عِنْدِي مِنَ الدَّهرِ مالو أنَّ أيْسَرَهُ يُلْقَى عَلَى الفلكِ الدَّوارِ لم يَدُرِ

آخر :

هَذَا الزَّمانُ الَّذِي كُنَّا نُحاذِرُه فِيما يحدّث كَعْبٌ وابنُ مسعودِ

إنْ دَامَ هَذَا ولم تعقب لَهُ غِيَرٌ لَمْ يُبْكَ مَيْتٌ ، وَلَمْ يُفْرَحْ بمولودِ

آخر :

يازَمَاناً ألْبَسَ الأحْـــرَارَ ذُلًّا ومَهانَهْ

لَسْتَ عِنْدِي بِزَمَانٍ إنما أنْتَ زَمانَه

أجُنُونٌ ما نراه مِنْكَ يَبْدُو أمْ مَجَانَهْ !

الرضيّ الموسويّ :

تَأْبَى اللَّيالي أنْ تُدِيمـــا بُؤْساً لِخَلْقٍ أوْ نعيما(٢)

والمَرْءُ بالإقْبالِ يَبْـ لُغُ وادِعاً خَطَراً جَسِيماً

فإذا انقَضَى إقبالُهُ رَجَعَ الشفيعُ لَهُ خَصِيما

---

(١) ديوانه ٣ : ٢٨٧

(٢) ديوانه لوحة ٦٤

وَهوَ الزَّمَانُ إذَا نبَا ... سَلَبَ الّذِى أعْطَى قَدِيما
كَالرِّيحِ ترْجِعُ عاصِفاً ... مِنْ بَعْدِ مَا بَدَأتْ نَسِيما

أبو عثمان الخالدىّ :

أَلِفْتُ مِنْ حَادِثَاتِ الدهْرِ أكْبَرَها ... فَمَا أعادى عَلَى أحداثها الصُّغَرِ
تَزِيدُنى قَسْوَةُ الأيام طِيبَ ثنًا ... كأنّنى المِسْكُ بين الفِهْرِ والْحَجَرِ

السرىّ الرّفّاء :

تَنَكَّدَ هذا الدَّهْرُ فيمَا يَرُومُهُ ... عَلَى أنّه فِيمَا نُحَاذِرُهُ نَدْبُ(1)
فَسَيْرُ الذى نَرْجُوهُ سيْرٌ مقيَّدٌ ... وَسيْر الّذى نَخْشَى غَوَائِلَهُ وَثْبُ

ابن الرومىّ :

ألَا إنّ فى الدنيَا عَجَائِبَ جَمّـةً ... وَأعْجَبُها ألّا يشِيبَ وَلِيـدُهَا
إذا ذَلّ فى الدُّنيا الأعِزّاء واكْتَسَتْ ... أذِلّتُهـا عِزًّا وساد مَسُودُهَا
هُنَاكَ فَلاَ جَادَتْ سماء بصَوْبِهـا ... وَلاَ أمْرَعَتْ أرضٌ، ولا اخضرّ عُودُها
أرى النّاسَ مَخْسُوفاً بِهِمْ غَيْرَ أنّهُمْ ... على الأرْضِ لَمْ يُقلبْ عَلَيْهِمْ صَعيدُهَا
وَمَا الْخَسْفُ أن يُلْفَى أسافلُ بلدةٍ ... أعَالِيَها ؛ بل أنْ يَسُودَ عَبِيـدُهَا

السرى الرفاء :

لَنَا من الدَّهرِ خَصْمٌ لَا نُطالِبُهُ ... فما على الدّهرِ لَوْ كَفّتْ نوائبُهُ(2)!
يَرْتَدُّ عَنْهُ جَرِيحًا مَنْ يُسالِمُهُ ... فـكَيْفَ يَسْلَمُ مِنْهُ مَنْ يُحَارِبُهُ!
وَلَوْ أمِنْتُ الّذِى تجْنِى أراقِمُهُ ... علىّ هانَ الّذى تجْنِى عَقَارِبُهُ

---

(١) ديوانه ٣٦

(٢) ديوانه ٥٤ ، وفيه : « خصم لا نغالبه » .

أبو فراس بن حمدان :

تَصَفَّحتُ أحوالَ الزّمانِ ولَمْ يَكُنْ ... إلى غَيرِ شاكٍ للزّمانِ وُصُولُ[1]
أكلّ خليلٍ هكذا غيرُ منصِفٍ ... وكلُّ زمانٍ بالكرام بخيلُ !

ابن الرومىّ :

رَأَيْتُ الدّهرَ يرْفعُ كلَّ وَغدٍ ... وَيخفِضُ كلّ ذِى شِيَمٍ شَرِيفهْ
كَمِثْلِ البَحْرِ يَغرَقُ فيه حَىّ ... وَلَا يَنفكّ تَطفُو فيه جِيفَهْ
أو الميزان يخفِضُ كلّ وافٍ ... وَيَرْفعُ كلَّ ذى زِنَةٍ خَفِيفَهْ

ابن نُباتة :

وأصغَرُ عيبٍ فى زَمانِك أنّه ... به العِلمُ جَهلٌ ، والعفافُ فُسُوقُ
وَكَيفَ يُسَرّ الحرُّ فيه بمَطْلَبٍ ... وما فيه شىء بالسرور حَقِيقُ !

***

أبو العتاهية :

لِتَجذِبنّى يَدُ الدّنيا بِقُوّتها ... إلى المنايا ، وإنْ نازَعْتُها رَسَنِى[2]
لله دُنيا أناسٍ دائبينَ لَهَا ... قد ارتَعَوْا فى غِياض الغَىِّ والفِتَنِ
كسائماتٍ روايِعَ تبتغى سِمَنًا ... وحَتْفُها لَوْ دَرَتْ فى ذَلِكَ السِّمَنِ

وله أيضا :

أنساكَ مَحْيَاكَ المماتا ... فطَلَبْتَ فى الدّنيا الثباتا[3]

---

(١) ديوانه ٣١٥ (نشرة سامى الدهان) .
(٢) ديوانه ٢٨٨
(٣) ديوانه ٥٣ .

وَوَثِقْتَ بالدُّنيا وأنـتَ ترى جَمَاعَتَها شَتَاتَا
وَعَزَمْتَ وَيْكَ عَلَى الحَيا ةِ وَطُولِها عَزْماً بَتَاتَا
يامَنْ رَأَى أَبَوَيْهِ ـ فِيمَنْ قَدْ رَأَى ـ كَانَا فَمَاتَا
هل فيهما لك عِبْرَةٌ أم خِلْتَ أنَّ لكَ انفلاتا !
ومن الذى طلب التَّفَلُّتَ مِن مَنِيَّتِهِ فَفَاتَا !
كلٌّ تُصَبِّحُهُ المنيَّةُ أو تُبَيِّتُهُ بَيَاتَا

وله :

أرى الدُّنيا لِمَنْ هِيَ فى يَدَيْهِ عذَاباً ، كُلَّمَا كَثُرت لَدَيْهِ (١)
تُهِينُ المُكرِمِينَ لَهَا بِصُغْرٍ وتُكْرِمُ كلَّ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ
إذا استَغْنَيْتَ عَنْ شيءٍ فَدَعْهُ وَخُذْ ما أَنْتَ مُحتَاجٌ إِلَيْهِ

وله :

أَلَمْ تَرَ رَيْبَ الدَّهْرِ فى كلِّ ساعَةٍ لَهُ عارِضٌ فيه المنيَّةُ تَلْمَعُ (٢)
أَيَا بَانِيَ الدُّنيا لِغَيْرِكَ تَبْتَنِى وَيَاجَامِعَ الدُّنيا لغيركَ تَجْمَعُ
أَرَى المرْءَ وَثَّاباً عَلَى كلِّ فُرْصَةٍ وَلِلمرءِ يوماً لاَ مَحَالَةَ مَصْرَعُ
يُنازِلُ ما لاَ يَمْلِكُ الملكَ غَيْرُهُ مَتَى تَنقَضِى حَاجَاتُ مَنْ لَيسَ يَشْبَعُ !
وأىّ امرئٍ فى غايةٍ ليس نفسه إلى غايةٍ أُخْرَى سِوَاها تَطَلَّعُ !

وله :

سَلِ الأيَّامَ عَنْ أُمَمٍ تَقَضَّتْ سَتُخْبِرُكَ المَعَالِمُ والرُّسُومُ (٣)

---

(١) ديوانه ٢٨٨
(٢) ديوانه ١٤٤
(٣) ديوانه ٢٤٦

تَرُومُ الْخُلْدَ فى دارِ التَّفَانى وَكَمْ قَدْ رَامَ قَبلَكَ ما تَرُومُ !
لأمرٍ ما تَصَرَّمَتِ اللَّيَالى وأمرٍ ما تَقَلَّبَتِ النُّجُومُ
تَنَامُ وَلَمْ تَنَمْ عَنكَ المنَـايَا تَنَبَّـهْ لِلْمَنِيَّةِ يا نئومُ
إلى دَيَّانِ يَوْمِ الدِّين نَمضِى وَعِنْدَ الله تجتمع الْخُصُومُ

* * *

حسبنا الله وحده ، وصلواته على خيرته من خلقه سيدنا محمد وآله الطاهرين .

* * *

تم الجزء الثالث

ويليه الجزء الرابع وأوله فى ذكر يوم النحر وصفة الأضحية

فهرس الخطب

فهرس الموضوعات

صفحة

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الرابع

دار الجيل

بيروت

طبعة ثانية

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل الحكيم ، وصلى الله على رسوله الكريم .

* * *

ومنها[1] فى ذكر يوم النحر وصفة الأضحية :

وَمِنْ تَمَامِ ٱلْأُضْحِيَةِ اسْتِشْرَافُ أُذُنِهَا ، وَسَلَامَةُ عَيْنِهَا ، فَإِذَا سَلِمَتِ ٱلْأُذُنُ وَٱلْعَيْنُ سَلِمَتِ ٱلْأُضْحِيَةُ وَتَمَّتْ ، وَلَوْ كَانَتْ عَضْبَاءَ الْقَرْنِ تَجُرُّ رِجْلَهَا إِلَى ٱلْمَنْسَكِ .

* * *

قال الرضىّ رحمه الله :

والمَنْسَكُ هاهنا : المَذْبَحُ .

الشَّرْحُ :

الأضحية : مايذبح يوم النحر ، ومايجرى مجراه أيام التشريق من النَّعم . واستشراف أذنها : انتصابها وارتفاعها ، أذن شَرْفاء أى منتصبة .

والعضباء : المكسورة القرن . والتى تجرّ رجلها إلى المَنْسَك ، كناية عن العَرْجاء ، ويجوز المَنسِك ، بفتح السين وكسرها .

* * *

[اختلاف الفقهاء فى حكم الأضحية]

واختلف الفقهاء فى وجُوب الأضحية ، فقال أبو حنيفة : هى واجبة على المقيمين من أهل

(١) تتمة الخطبة الثانية والخمسين ؛ الجزء السابق ص ٣٣٣ .

الأمصار ، ويعتبر في وُجُوبها النصاب ، وبه قال مالك والثوري ؛ إلا أن مالكا لم يعتبر الإقامة .

وقال الشافعي : الأضحيّة سُنّة مؤكدة ، وبه قال أبو يوسف ومحمد وأحمد .

واختلفوا في العَمْياء ؛ هل تجزئ أم لا ؟ فأكثر الفقهاء على أنها لا تجزئ ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل يقتضي ذلك ؛ لأنه قال : إذا سَلِمت العين سلمت الأضحية ، فيقتضي أنّه إذا لم تسلم العين لم تسلم الأضحيّة . ومعنى انتفاء سلامة الأضحية انتفاء أجزائها .

وحكي عن بعض أهل الظاهر أنه قال : تُجزئ العمياء .

وقال محمد بن النعمان المعروف بالمفيد رضي الله تعالى عنه ، أحد فقهاء الشيعة في كتابه المعروف " بالمقنعة " : إنّ الصادق عليه السلام سُئِل عن الرّجل يُهْدِي الهدْيَ أو الأضحية وهي سمينة ، فيصيبها مرض ، أو تفقأ عينُها أو تنكسر ، فتبلغ يوم النحر وهي حية، أتجزئ عنه ؟ فقال : نعم .

فأما الأذن ، فقال أحمد : لا يجوز التضحية بمقطوعة الأذن ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضي ذلك . وقال سائر الفقهاء : تجزئ إلا أنه مكروه .

وأما العضباء ، فأكثر الفقهاء على أنها تجزئ ، إلا أنه مكروه ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضي ذلك ، وكذلك الحكم في الجَلْحاء ، وهي التي لم يخلق لها قَرْن ، والقَصْماء : وهي التي انكسر غلاف قَرْنها ، والشرقاء : وهي التي انثقبتْ أذنها من الكَيّ ، والخرقاء : وهي التي شُقّت أذنها طولا .

وقال مالك : إن كانت العَضْباء يخرج من قرنها دم لم تجزئ .

وقال أحمد والنَّخعي : لا تجوز التضحية بالعَضْباء .

فأما العرجاء التى كنى عنها بقوله : « تجرّ رجلَها إلى المنسَك » ؛ فأكثر الفقهاء على أنها لا تجزئ ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضى أنها تجزئ . وقد نقل أصحاب الشافعىّ عنه فى أحد قوليه أنّ الأضحية إذا كانت مريضة مرضا يسيرا أجزأت .

وقال الماوردىّ من الشافعيّة فى كتابه المعروف بـ « الحاوى » : إن عجزت عن أن تجرّ رجلها خِلْقةً أجزأت ، وإن كان ذلك عن مرض لم تجزئ .

(٥٣)

ومن كلام له عليه السلام فى ذكر البيعة :

الأصلُ :

فَتَدَاكُّوا عَلَيَّ تَدَاكَّ الْإِبِلِ الْهِيمِ يَوْمَ وِرْدِهَا ، وَقَدْ أَرْسَلَهَا رَاعِيهَا ، وَخُلِعَتْ مَثَانِيهَا ؛ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَاتِلِيَّ ، أَوْ بَعْضُهُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ . وَقَدْ قَلَّبْتُ هَذَا الْأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ حَتَّى مَنَعَنِي النَّوْمَ ، فَمَا وَجَدْتُنِي يَسَعُنِي إِلَّا قِتَالُهُمْ أَوِ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم ؛ فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ الْقِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ الْعِقَابِ ، وَمَوْتَاتُ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتَاتِ الْآخِرَةِ .

الشَّرحُ :

تداكّوا : ازدحموا . والهيم : العِطاش . ويوم وِرْدها : يوم شربها الماء . والمثانى : الحِبال ، جمع مَثناة ومِثناة بالفتح والكسر ، وهو الحبل .

وجهاد البُغاة واجب على الإمام ، إذا وجد أنصارا ، فإذا أخلّ بذلك أخلّ بواجب ، واستحقّ العقاب .

فإن قيل : إنه عليه السلام قال : « لم يسعنى إلا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلّم » ؛ فكيف يكون تارك الواجب جاحداً لما جاء به النبيّ صلى الله عليه وآله !

قيل : إنه فى حكم الجاحد ؛ لأنه مخالف وعاصٍ ؛ لاسيما على مذهبنا فى أنّ تارك الواجب يخلّد فى النار وإن لم يجحد النبوة .

[بيعة علىّ وأمر المتخلفين عنها]

اختلف الناس فى بيعة أمير المؤمنين عليه السلام ، فالذى عليه أكثرُ الناس وجمهورُ أرباب السِّيَر أنّ طلحة والزبير بايعاه طائعيْن غيرمكرهيْن ، ثم تغيّرت عزائمهما ، وفسدت نيّاتهما ، وغدرًا به .

وقال الزبيريون ، منهم عبدُ الله بن مصعب ، والزبير بن بكّار وشيعتهم ومَنْ وافق قولَهم من بنى تَيْم بن مرة ، أرباب العصبيّة لطلحة : إنهما بايعا مكرهيْن ، وإنّ الزبير كان يقول : بايعتُ واللُّجّ على قَفَىّ ، واللُّجّ سيف الأشتر ، وقَفَىّ لغة هُذَليّة؛ إذا أضافوا المقصور إلى أنفسهم قلبوا الألف ياء ، وأدغموا إحدى الياءين فى الأخرى ؛ فيقولون : قد وافق ذلك هوىّ ، أى هَوَاىَ ، وهذه عصىّ ، أى عصاىَ .

***

وذكر صاحبُ[1] كتاب "الأوائل" أنّ الأشتر جاء إلى علىّ عليه السلام حين قتل عثمان ، فقال : قم فبايع الناس ، فقد اجتمعوا لك ، ورغِبوا فيك ؛ والله لئن نَكَلْتَ عنها لتعصِرَنّ عليها عينيك مرة رابعة ، فجاء حتى دخل بئر سكن ، واجتمع الناس ، وحضر طلحة والزُّبَيْر ، لا يشكّان أنّ الأمر شورى ، فقال الأشتر : أتنتظرون أحداً ! قم ياطلحة فبايع ، فتقاعس ، فقال : قم يابن الصَّعْبة — وسلّ سيفه — فقام طلحة يجرّ رجله ؛ حتى بايع ، فقال قائل : أولُ مَنْ بايعه أشلّ ! لايتم أمره ، ثم لا يتمّ ، قال : قم يازبير ، والله لاينازع أحد إلاوضربت قُرْطَه بهذا السيف ، فقام الزبير فبايع ؛ ثم انثال الناسُ عليه فبايعوا .

وقيل : أوّلُ مَنْ بايعه الأشتر ، ألقى خَمِيصَةً كانت عليه ، واخترطَ سيفه ، وجذَب يد علىّ عليه السلام فبايعه وقال للزبير وطلحة : قوما فبايعا ؛ وإلا كنتما الليلة عند عثمان ، فقاما يعثران فى ثيابهما لا يرجوان نجاةً ، حتى صَفَقَا بأيديهما على يده ، ثم قام بعدهما البصريّون ؛

---

(١) هو أبو هلال العسكرى .

وأولهم عبد الرحمن بن عديس البلوىّ ، فبايعوا . وقال له عبد الرحمن :

خُذْهَا إليكَ واعْلَمَنْ أبا حَسَنْ أنَا نُمِرّ الأمرَ إمرارَ الرَّسَنْ

وقد ذكرنا نحن فى شرح الفصل[1] الذى فيه أن الزبير أقرّ بالبيعة ، وادّعى الوليجة أن بيعة أمير المؤمنين لم تقع إلا عن رضا جميع أهل المدينة ، أولهم طلحة والزبير ، وذكرنا فى ذلك ما يبطل رواية الزبير .

وذكر أبو مخنف فى كتاب " الجمل " أنّ الأنصار والمهاجرين اجتمعوا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ، لينظروا مَنْ يولّونه أمرَهم ، حتى غَصّ المسجدُ بأهله ، فاتفق رأىُ عمار وأبى الهيثم بن التَّيِّهان ورفاعة بن رافع ومالك بن عجلان وأبى أيوب خالد بن يزيد على إقعاد أمير المؤمنين عليه السلام فى الخلافة ، وكان أشدَّهم تهالكا عليه عمّار ، فقال لهم : أيها الأنصار ، قد سار فيكم عثمان بالأمس بما رأيتموه ، وأنتم على شَرَف من الوقوع فى مثله إن لم تنظروا لأنفسكم ، وإنّ عليا أولَى الناس بهذا الأمر ، لفضله وسابقته ، فقالوا : رضينا به حينئذ ، وقالوا بأجمعهم لبقية الناس من الأنصار والمهاجرين : أيّها الناس ، إنا لن نألوَكم خيرا وأنفسَنا إن شاء الله ، وإن عليًّا مَنْ قد علمتم ، وما نعرف مكانَ أحد أحمل لهذا الأمر منه ، ولا أولَى به . فقال النـاس بأجمعهم : قد رضِينا ، وهو عندنا ما ذكرتم وأفضل . وقاموا كلّهم ، فأتوا عليا عليه السلام ، فاستخرجوه من داره ، وسألوه بَسْط يده ، فقبضها فتداكُّوا عليه تداكَّ الإبل الهِيم على وِرْدها ، حتى كاد بعضُهم يقتل بعضا ؛ فلما رأى منهم ما رأى ، سألهم أن تكونَ بيعتُه فى المسجد ظاهرة للناس . وقال : إن كرِهَنى رجل واحد من الناس لم أدخل فى هذا الأمر .

فنهض الناس معه حتى دخل المسجد ، فكان أوّل من بايعه طلحة . فقال قبيصة بن ذؤيب الأسدىّ : تخوفت ألّا يتم له أمرُه ، لأنّ أوّل يد بايعته شلّاء ، ثم بايعه الزبير ،

(١) الجزء الأول ص ٢٣٠ ، الوليجة : الأمر يسر ويكتم .

وبايعه المسلمون بالمدينة إلا محمد بن مسلمة ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، وسعد ابن أبى وقاص ، وكعب بن مالك وحسان بن ثابت ، وعبدالله بن سلّام .

فأمر بإحضار عبد الله بن عمر ، فقال له : بايع ، قال : لا أبايع حتى يبايعَ جميعُ الناس ، فقال له عليه السلام : فأعطنى حَمِيلا ألّا تبرح ، قال : ولا أعطيك حَمِيلا ، فقال الأشتر : ياأمير المؤمنين ؟ إنّ هذا قد أمِنَ سوطك وسيفك ، فدعْنى أضرب عنقَه ؛ فقال : لست أريد ذلك منه على كُرْه ، خلُّوا سبيله ، فلما انصرف قال أمير المؤمنين : لقد كان صغيراً وهو سيء الخلق ، وهو فى كِبَره أسوأ خُلُقًا .

ثم أتى بسعد بن أبى وقّاص ، فقال له بايع ، فقال : ياأبا الحسن خَلّنى ، فإذا لم يبق غيرى بايعتك ، فوالله لايأتيك مِنَ قِبَلى أمر تكرهه أبدا ، فقال : صدق ، خلُّوا سبيلَه . ثم بعث إلى محمد بن مسلمة ، فلما أتاه قال له : بايع ، قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أمرَنى إذا اختلف الناسُ وصاروا هكذا ــ وشبّك بين أصابعه ــ أن أخرج بسيفى فأضرب به عُرض أحد فإذا تقطّع أتيتُ منزلى ، فكنت فيه لا أبرحه حتى تأتيَنى يد خاطية ، أو منّية قاضية . فقال له عليه السلام : فانطلق إذاً ، فكن كما أمِرْت به .

ثم بعث إلى أسامة بن زيد ، فلما جاء قال له : بايع ، فقال : إنى مولاك ولا خلافَ منى عليك ، وستأتيك بيعتى إذا سكن الناس . فأمره بالانصراف ، ولم يبعث إلى أحد غيره .

وقيل له : ألا تبعث إلى حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن سلام ! فقال : لا حاجةَ لنا فيمن لا حاجةَ له فينا .

فأما أصحابُنا فإنهم يذكرون فى كُتُبهم أنّ هؤلاء الرّهط إنما اعتذروا بما اعتذروا به .

لما ندبهم إلى الشخوص معه لحرب أصحاب الجمل ، وأنهم لم يتخلفوا عن البَيْعة، وإنما تخلّفوا عن الحرب .

وروى شيخنا أبو الحسين رحمه الله تعالى فى كتاب " الغرر " أنهم لما اعتذروا إليه بهذه الأعذار ، قال لهم : ما كلّ مفتون يعاتَب ، أعندكم شكّ فى بيعتى ؟ قالوا : لا، قال: فإذا بايعتم فقد قاتلتم . وأعفاهم من حضور الحرب .

فإن قيل : رويتم أنه قال : إن كَرِهَنى رجل واحد من الناس لم أدخل فى هذا الأمر، ثم رويتم أنّ جماعة من أعيان المسلمين كرهوا ولم يقف مع كراهتهم .

قيل : إنما مراده عليه السلام أنّه متى وقع الاختلاف قبل البيعة نفضتُ يدى عن الأمر ولم أدخل فيه ، فأما إذا بويع ثم خالف ناس بعد البيعة ، فلا يجوز له أن يرجع عن الأمر ويتركه ؛ لأن الإمامة تثبت بالبيعة ، وإذا ثبتت لم يجزْ له تركها .

وروى أبو مخنف عن ابن عباس ، قال : لما دخل علىّ عليه السلام المسجدَ ، وجاء الناس ليبايعوه خِفْتُ أن يتكلّم بعض أهل الشنآن لعلىّ عليه السلام ممن قتل أباه أو أخاه، أو ذا قرابته فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فيزهد علىّ فى الأمر ويتركه ، فكنت أرصُد ذلك وأتخوّفه ، فلم يتكلم أحد حتى بايعه الناس كلهم راضين مسلمين غيرَ مكرهين .

* * *

لما بايع الناس عليا عليه السلام ، وتخلّف عبد الله بن عمر ، وكلّمه علىّ عليه السلام فى البيعة فامتنع عليه ، أتاه فى اليوم الثانى ، فقال : إنى لك ناصح ، إنّ بيعتَك لم يرض بها كلهم، فلو نظرت لدينك ورددْت الأمر شورى بين المسلمين ! فقال علىّ عليه السلام: ويحك! وهل ما كان عن طلب منى له ! ألم يبلغْك صَنِيعُهم؟ قم عَنّى يا أحمق ، ما أنت وهذا الكلام!

فلما خرج أتى عليا فى اليوم الثالث آتٍ ، فقال: إنّ ابن عمر قد خرج إلى مكة يفسد الناس عليك ، فأمر بالبَعْث فى أثره ، فجاءت أمُّ كلثوم ابنته ، فسألته وضرِعت إليه فيه ، وقالت : يا أمير المؤمنين ، إنما خرج إلى مكة ليقيم بها ، وإنه ليس بصاحب سلطان ولاهو من رجال هذا الشأن ، وطلبت إليه أن يقبل شفاعَتها فى أمره ؛ لأنه ابنُ بعلها . فأجابها وكفّ عن البَعثة إليه ، وقال : دعوه وما أراده .

(٥٤)

ومن كلام له عليه السلام وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم فى القتال بصفين.

الأصْلُ:

أَمَّا قَوْلُكُمْ: أَ كُلَّ ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ! فَوَاللهِ مَا أُبَالِي؛ دَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ. وَأَمَّا قَوْلُكُمْ شَكّاً فِي أَهْلِ الشَّامِ! فَوَاللهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِي، فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا؛ وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا.

* * *

الشَّرْحُ:

من رواه: «أ كُلَّ ذلك» بالنصب فمفعول فعل مقدر، أى تفعل كلَّ ذلك، وكراهية منصوب لأنه مفعول له ومن رواه «أ كُلُّ ذلك» بالرفع أجاز فى «كراهية» الرفع والنصب، أما الرفع فإنه يجعل «كلّ» مبتدأ، وكراهية خبره؛ وأما النصب فيجعلها مفعولًا له كما قلنا فى الرواية الأولى، ويجعل خبر المبتدأ محذوفا، وتقديره: أ كلّ هذا مفعول! أو تفعله كراهية للموت! ثم أقسم أنه لا يبالى أتعرّض هو للموت حتى يموتَ، أم جاءه الموت ابتداء من غير أن يتعرّض له.

وعشا إلى النار يَعْشُو: استدلّ عليها ببصر ضعيف، قال:

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ ... تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ[1]

(١) للحطيئة، ديوانه ٢٥

وهذا الكلام استعارة ، شبه مَنْ عساه يلحق به من أهل الشام بمن يعشو ليلا إلى النار ؛ وذلك لأن بصائرَ أهل الشام ضعيفة ؛ فهم من الاهتداء بهداه عليه السلام كمن يعشُو ببصرٍ ضعيف إلى النار فى الليل ، قال : ذاك أحبّ إلىّ من أن أقتلهم على ضلالهم ، وإن كنتُ لو قتلتهم على هذه الحالة لباءوا بآثامهم ، أى رجعوا ، قال سبحانه : ﴿إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ ﴾(١) أى ترجع .

***

[من أخبار يوم صفين]

لما ملك أمير المؤمنين عليه السلام الماء بصفين ثم سَمَح لأهلِ الشام بالمشاركة فيه والمساهمة ، رجاء أن يعطفوا إليه ، واستمالةً لقلوبهم وإظهارا للمعدلة وحسن السيرة فيهم ، مكث أياما لا يُرسِل إلى معاوية ، ولا يأتيه مِنْ عند معاويةَ أحدٌ ، واستبطأ أهل العراق إذنه لهم فى القتال ، وقالوا : ياأميرَ المؤمنين ، خَلَّفْنا ذرارينا ونساءنا بالكوفة ، وجئنا إلى أطراف الشام لنتّخذها وطنا ، ائذن لنا فى القتال ، فإنّ الناس قد قالوا . قال لهم عليه السلام : ماقالوا ؟ فقال منهم قائل : إنّ الناس يظنون أنك تكرهُ الحرب كراهيةً للموت ، وإن من الناس من يظن أنك فى شكّ مِنْ قتال أهلِ الشام . فقال عليه السلام : ومَتَى كنتُ كارها للحرب قطّ ! إنّ من العجب حُبّى لها غلاما ويَفَعا ، وكراهيتى لها شيخا بعد نفادِ العمر وقرب الوقت ! وأما شكّى فى القوم فلو شككت فيهم لشككتُ فى أهل البصرة ، والله لقد ضربتُ هذا الأمر ظهراً وبطناً ، فما وجدت يسعُنى إلا القتال أو أن أعصىَ الله ورسوله ، ولكنى أستأنى بالقوم ، عسى أن يهتدوا أو تهتدى منهم طائفة ، فإن

---

(١) سورة المائدة ٢٩ .

رسول الله صلى الله عليه وآله قال لى يوم خيبر : لأنْ يهدىَ الله بك رجلاواحداً خيرلك مِمّا طلعت عليه الشمس .

* * *

قال نصربن مزاحم: حدثنا[١] محمد بن عبيدالله عن الجرجانىّ ، قال : فبعث علىّ عليه السلام إلى معاوية بشير بن عمرو بن مِحْصَن الأنصارىّ، وسعيد بن قَيْس الهَمْدانِىّ وشَبَث ابن الرِّبْعىّ التميمىّ ، فقال : ائتوا هذا الرجل ، فادعوه [إلى الله عز وجلّ ، و][٢] إلى الطاعة والجماعة ، وإلى اتباع أمر الله سبحانه . فقال له شَبَث : ياأمير المؤمنين ، ألا تطمِعهُ فى سلطان تولّيه إياه ، ومنزلةٍ يكون له بها أثَرَة عندك إن هو بايعك ؟ فقال :ائتوه الآن والقَوْه واحتجّوا عليه ، وانظروا مارأيُه فى هذا[٣] .

فأتوه فدخلوا عليه ، فحمِد أبوعمرو بن مِحْصَن الله وأثنى عليه، وقال:أمّا بعد يامعاوية فإن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة ، وإن الله مجازيك بعملِك ومحاسبُك بما قدّمت يداك ، وإننى أنشدُك الله ألّا تفرّق جماعةَ هذه الأمة ، وألّا تسفِك دماءها بينها . فقطع معاويةُ عليه الكلامَ وقال : فهلّا أوصيتَ صاحبك ! فقال : سبحان الله ! إنّ صاحبى لايوصَى ، إنّ صاحبى ليس مِثلَك ، صاحبى أحقّ الناس بهذا الأمر فى الفضلِ والدين والسابقة فى الإسلام والقرابة من الرسول . قال معاوية: فتقول ماذا ؟ قال : أدعوكَ إلى تقوى ربّك ، وإجابة ابنِ عمك إلى مايدعُوك إليه من الحق ، فإنه أسلم لك فى دينك ، وخير لك فى عاقبة أمرك . قال : ويُطَلّ دم عثمان ! لا والرحمنِ لا أفعل ذلك أبدا .

---

(١) صفين ٢٠٩ ومابعدها

(٢) تكملة من صفين .

(٣) صفين : « وانظروا مارأيه ـ وهذا فى شهر ربيع الآخر ـ فأتوه » .

فذهب سعيد بن قيس يتكلّم ، فبدره شَبَث بن الرّبعىّ ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال: يامعاوية ، قد فهمتُ ماردَدْت على ابن مِحْصَن ؛ إنه لا يخفى علينا ماتقرّ وما تطلب ، إنك لا تجدُ شيئا تستغوِى به الناس، ولا شيْئاتستميل به أهواءهم ؛ وتستخلِص به طاعتهم إلا أن قُلْتَ لهم : قُتِل إمامُكم مظلوما ، فهلُمّوا نطلب بدمه ؛ فاستجاب لك سفهاء طَغام رُذَال ، وقد علمنا أنّك أبطأتَ عنه بالنّصر ، وأحببت له القتل ؛ لهذه المنزلة التى تطلب ؛ وربّ مبتغٍ أمراً ، وطالبٍ[١] له يحولُ الله دونه ، وربّما أوتى المتمنِّى أمنيّته، وربمالم يؤْتَها ، ووالله مَالكَ فى واحدة منهماخير؛ والله لئن أخطأك ماترجُو إنك لَشرُّ العرب حالا ، ولئن أصبت ماتتمناه لا تصيبهُ حتّى تستحقّ صَلَى النار ؛ فاتق الله يامعاية ، ودَعْ ما أنتَ عليه ، ولا تنازِع الأمر أهلَه .

فحمِد معاوية الله وأثنى عليه، وقال :

أما بعد فإنّ أولَ ماعرفتُ به سفهك وخفّة حِلْمك قطعُك على هذا الحسيب الشريف سيِّد قومه منطقه . ثم عتبتَ بعدُ فيما لا علم لك به ، ولقد كَذَبت ولَوُمت[٢] أيها الأعرابىّ الجِلْف الجافى فى كلّ ماوصفت [وذكرت][٣] . انصرفوا من عندى فإنّه ليس بينى وبينكم إلا السيف .

وغضب .فخرج القوم وشَبَث يقول : أعلينا تَهُوّل بالسيف! أما والله لنعجلَنّه إليك ، [فأتوا عليا عليه السلام ، فأخبروه بالذى كان من قوله ، وذلك فى شهر ربيع الآخر][٣] .

قال نصر : وخَرّجَ قراءُ أهلِ العِراق ، وقراءُ أهل الشام فعسكروا ناحيـة صِفّين ثلاثين ألفا .

---

(١) صفين : « وطالبه » .

(٢) صفين : « ولويت » .

(٣) تكملة من صفين .

قال : وعسكر علىٌّ عليه السلام على الماء ، وعسكر معاوية فوقَه على الماء أيضا ، ومشت القُرّاء فيما بين علىّ عليه السلام ومعاوية ، منهم عَبيدة السّلمانىّ ، وعلقمة بن قَيْس النَّخَعِىّ ، وعبد الله بن عتبة ، وعامر بن عبد القيس — وقد كان فى بعض تلك السواحل — فانصرف إلى عسكر علىٍّ عليه السلام ؛ فدخلوا على معاوية فقالوا : يامعاوية ، ماالذى تطلب؟ قال : أطلب بدم عثمان ، قالوا : ممّن تطلب بدم عثمان ؟ قال : أطلبه من علىّ ، قالوا : وعلىّ قتله ؟ قال : نعم هو قتله ، وآوى قَتلته ، فانصرفوا من عنده فدخلوا على علىّ عليه السلام ، فقالوا : إن معاوية يزعُمُ أنك قتلت عثمان ، قال : اللهمّ لكَذَب فيما قال ، لم أقتله .

فرجعوا إلى معاوية فأخبروه ، فقال لهم : إنه إن لم يكن قَتَله بيده فقد أمر ومالأ ، فرجعوا إلى علىّ فقالوا : إن معاوية يزعم أنك إن لم تكنْ قتلتَ بيدك ، فقد أمرت ومالأت على قَتْل عثمان ، فقال : اللهم لَكَذَب فيما قال ، فرجعوا إلى معاوية ، فقالوا : إنّ عليا يزعم أنه لم يفعل ، فقال معاوية : إن كان صادِقا فليُقِدْنا[1] من قَتَلةِ عثمان ، فإنهم فى عسكره وجنده وأصحابه وعَضُده . فرجعوا إلى علىّ عليه السلام ، فقالوا : إنّ معاويةَ يقول لك : إنْ كنتَ صادقا فادفع إلينا قَتَلة عثمان أو مكِّنّا منهم ، فقال لهم : إنّ القوم تأوّلوا عليه القرآن ، ووقعت الفرقة ، فقتلوه فى سلطانه ، وليس على ضَرْبهم قَوَد ؛ فَخَصَمَ[2] علىّ معاوية .

* * *

— قلت : على ضَرْبهم هاهنا ، على مثلهم ؛ يقال : زيدٌ ضَرْب عمرو ومِنْ ضَرْبه ، أى مِثله ومِنْ صِنفه ، ولا أدرى لِمَ عَدَل عليه السلام عن الحجّة بما هو أوضح من هذا الكلام ؛ وهو أنْ يقول : إنّ الذين باشروا قتله بأيديهم كانوا اثنين وهما قُتيرة بن وهب وسُودان ابن حُمران ، وكلاهما قُتل يوم الدار ، قَتلهما عبيد عثمان ، والباقون الذين هم جندِى وعَضُدى

(١) صفين : « فليمكنا » (٢) خصمه ، أى غلبه بالحجة .

كما تزعمون ، لم يقتلوا بأيديهم ؛ وإنما أغرَوْا به ، وحصروه وأجْلَبُوا عليه، وهَجَمُوا على داره ، كمحمد بن أبى بكر والأشتر وعمرو بن الحَمِق وغيرهم ؛ وليس على مثل هؤلاء قَوَد .

قال نصر : فقال لهم معاوية: إنْ كان الأمرُ كما تزعمون ؛ فلِمَ ابتزّ الأمْرَ [١] دوننا على غير مشورة مِنّا ولا ممن هاهنا معنا ؟ فقال علىّ عليه السلام : إنّ الناس تَبَع المهاجرين والأنصار ، وهم شهود للمسلمين فى البلاد على ولاتهم وأمراء دينهم ، فرضُوا بى وبايعونى، ولست أستحلّ أن أدع ضَرْب [٢] معاوية يحكم بيده على الأمة ويركبهم ويشُقّ عصاهم .

فرجعوا إلى معاوية فأخبروه بذلك ، فقال : ليس كما يقول ، فما بالُ مَنْ هاهنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا فى هذا الأمر ويؤامَرُوا فيه [٣] !

فانصرفوا إلى علىّ عليه السلام،فأخبروه بقوله ، فقال : وَيْحكم ! هذا للبدريّين دون الصحابة ، ليس فى الأرض بَدْرِىّ إلا وقَدْ بايعنى وهو معى ، أو قد قام ورَضِىَ ، فلا يغرّنّكم معاوية من أنفسكم ودينكم .

قال نصر : فتراسلوا بذلك ثلاثة أشهر : ربيع الآخر ، وجُمادَيَيْن ؛ وهم مع ذلك يَفْزَعون الفَزْعة فيما بينهما ، فيزحف بعضهم إلى بعض ، وتحجز القرّاء بينهم .

قال : فزعوا فى ثلاثة أشهر خمسا وثمانين فَزْعة ؛ كلُّ فزعة يزْحَفُ بعضهم إلى بعض، وتحجز القراء بينهم لا يكون بينهم قتال .

قال نصر : وخرَج أبو أمامة الباهلىّ وأبو الدرداء ، فدخلا على معاوية ـ وكانا معه ـ فقالا : يامعاوية ، علامَ تقاتل هذا الرجل ؟ فوالله لهو أقْدَمُ منك إسلاما [٤]، وأحقّ بهذا

---

(١) صفين : « فأنه ابتز الأمر دوننا » ؟

(٢) ضرب معاوية : شبيهه .

(٣) المؤامرة : المشاورة ، وفى صفين : « ويؤامروه » .

(٤) صفين : « سلما » ، وهما بمعنى .

الأمر ؛ وأقرب من رسول الله صلى الله عليه وآله ، فعلام تقاتله ؟ فقال : أقاتله على دَمِ عثمان، وأنه آوى قَتلته ، فقولوا له : فَلْيُقِدْنا مِنْ قتلته وأنا أوّل من بايعه من أهل الشام.

فانطلقوا إلى علىّ عليه السلام فأخبروه بقول معاوية ، فقال : إنما يطلب الذين تَرَوْن، فخرج عشرون ألفا أو أكثر متسربلين الحديد ؛ لا يُرى منهم إلا الحَدَق ، فقالوا : كُلّنا قتله؛ فإن شاءوا فَلْيَرُوموا ذلك منّا. فرجع أبو أمامة وأبو الدرداء فلم يشهَدا شيئاً من القتال.

قال نصر : حتى إذا كان رجب ، وخَشِى معاوية أن يتابع القرّاء عليًّا عليه السلام ، أخذ فى المكْر ، وأخذ يحتال للقراء لكيما يُحجموا ويكفُّوا حتى ينظروا .

قال : فكتب فى سهم : مِنْ عبد الله الناصح ؛ إنى أخبركم أنّ معاوية يريد أن يُفَجِّر عليكم الفرات فيغرِقكم ، فخذوا حذركم . ثم رمى بالسهم فى عسكر علىّ عليه السلام، فوقع السهم فى يَدِ رجل فقرأه ثم أقرأه صاحبَه، فلما قرأه وقرأته الناس وأقرأه مَن أقبل وأدبر، قالوا: هذا أخ لَنَا ناصح ؛ كتب إليكم يخبركم بما أراد معاوية ؛ فلم يزل السَّهْم يُقرأ ويرتفع حتى رُفع إلى علىّ عليه السلام ؛ وقد بعث معاوية مائتى رجل من العَمَلة إلى عاقول[1] من النهر، بأيديهم المرور والزُّبُل[2] يحفرون فيها بحيال عسكر علىّ عليه السلام. فقال علىّ عليه السلام : ويحكم ! إن الذى يعالج معاوية لا يستقيم له، ولا يقوى عليه ؛ إنما يريد أن يُزيلكم عن مكانكم ؛ فانتهوا عن ذلك، فقالوا له : لا نَدَعهم والله يحفِرون، فقال علىٌّ عليه السلام: لا تكونوا ضَعْفى ، ويحكم ! لا تغلبونى على رأيى. فقالوا : والله لنرتحلنّ، فإن شئت فارتحل، وإن شئت فأقم ؛ فارتحلوا وصعدوا بعسكرهم مليًّا ، وارتحل علىٌّ عليه السلام فى أخريات الناس ، وهو يقول :

---

(١) عاقول النهر : ما اعوج منه

(٢) المرور : جمع مر ؛ وهو المسحاة . والزبل : جمع زبيل وهو القفة .

فَلَوْ أنى أَطِعْتُ عصمتُ قومى إلى رُكْن اليمامة أو شَمَامِ [(١)]

ولكنّى مَتَى أبْرَمْتُ أمراً مُنِيتُ بخُلْف آراء الطَّغَامِ

قال : وارتحل معاوية حتى نزل معسكر علىّ عليه السلام الذى كان فيه، فدعا علىّ عليه السلام الأشتر ، فقال : ألم تغلبنى على رأيى [(٢)] أنت والأشعث ! فدونكما. فقال الأشعث: أنا أكفيك يا أمير المؤمنين، سأداوى ما أفسدتُ اليوم من ذلك، فجمع كِنْدة فقال لهم: يا معشر كِنْدة ، لا تفضحونى اليوم ولا تخزونى ؛ فإنى إنما أقارع بكم أهل الشام ، فخرجوا معه رجّالة يمشون، وبيده رمح له يلقيه على الأرض، ويقول : امشوا قِيد رمحى هذا، فيمشون، فلم يزل يَقِيس لهم الأرض برمحه ، ويمشون معه رَجّالة حتى لَقِىَ معاويةَ وسط بنى سُلَيْم واقفا على الماء ، وقد جاءه أدانى عسكره، فاقتتلوا قتالا شديدا على الماء ساعة، وانتهى أوائل أهل العراق فنزلوا، وأقبل الأشتر فى خَيْل من أهل العراق ، فحمل على معاوية، والأشعث يحارب فى ناحية أخرى؛ فانحاز معاوية فى بنى سُلَيم ، فردّ وجوه إبله قدر ثلاثة فراسخ، ثم نزل ووضع أهل الشام أثقالهم ، والأشعث يهدِرُ ويقول : أرضيتك يا أمير المؤمنين ! ثم تمثل بقول طَرَفة بن العبد :

ففداء لبَنِي سَعْــــد عَلَى ما أصاب الناس من خَيْرٍ وَشَرْ [(٣)]

ما أقلّت قدماى إنّهم نِعمَ الساعون فى الحَىّ الشُّطُرْ [(٤)]

وَلَقَـــدْ كُنْتُ عليكم عاتباً فعقَبْتُم بذَنوب غَيْرِ مُرْ [(٥)]

---

(١) صفين : « عصيت قومى » . وشمام : جبل لباهلة .

(٢) صفين : « على رائى » ، والرائى والرأى بمعنى .

(٣) ديوانه ٧٢ وروايته : « لبنى قيس ... من سر وضر »

(٤) الشطر : جمع شطير ؛ وهو الغريب البعيد

(٥) عاتبا : واجدا ، وعقبتم ، أى جدتم عقب ذلك . ومر : نقيض حلو ؛ قال شارح الديوان : « أى عقبتم عتبى عليكم بعطاء حلو » .

كنت فيكم كالمغطِّى رأسَه فانجلَى اليوم قِناعى وَخُمُرْ (١)
سادراً أحسب غيِّ رَشَداً فتناهيتُ وقد صابت بِقُرْ (٢)

وقال الأشتر : ياأمير المؤمنين؛ قد غلب الله لك على الماء،فقال علىّ عليه السلام : أنما كما قال الشاعر :

تلاقِينَ قَيْساً وأشياعَــــهُ فيُوقد لِلحَــرْب نَاراً فنَارَا
أخُو الحرب إن لَقِحَتْ بازِلًا سَماَ للعلا وأجــــلّ الخطارا (٣)

قال نصر : فكان كلّ واحدٍ من علىّ ومعاوية يُخرِج الرجلَ الشريفَ فى جماعة ، فيقاتل مثله؛وكانوا يكرهون أن يتزاحفُوا بجميع الفَيْلق مخافة الاستئصال والهلاك،فاقتتل الناسُ ذَا الحجّة كلّه ، فلما انقضَى تداعوْا إلى أن يكفّ بعضُهم عن بعض إلى أن ينقضىَ المحرّم ؛ لعلّ الله أن يُجرِى صلحا أو إجماعا ، فكفّ الناس فى المحرّم بعضُهم عن بعض .

***

قال نصر : حدثنا عمر بن سعد ، عن أبى المجاهد عن المحلّ بن خليفة ، قال (٤) : لما توادَعُوا فى المحرّم ، اختلفت الرسل فيما بين الرجلين رجاء الصُّلح ، فأرسل علىّ عليه السلام إلى معاوية عدىّ بن حاتم الطائىّ وشَبَث بن رِبعىّ التميمىّ ويزيد بن قَيْس وزياد ابن خَصَفة ، فلما دخلوا عليه ، حَمِد الله تعالَى عدىّ بن حاتم الطائىّ وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ، فإنّا أتيناك لندعوَك إلى أمرٍ يجمع الله فيه كلمتنا وأمّتنا ، ويحقن به دماء

(١) المغطى : اسم فاعل من التغطية. وانجلى : انكشف . وخمر : جمع خمار.
(٢) السادر : الذى لايهتم ولا يبالى ماصنع . وتناهيت ، أى انتهيت من سفهى .
(٣) البعير البازل : الذى طعن فى التاسعة ، والخطار : المخاطرة .
(٤) صفين ٢٢١ ، تاريخ الطبرى ٥ : ٥

المسلمين . ندعُوكَ إلى أفضلِ الناس سابقة ، وأحسنِهم فى الإسلام آثارا ؛ وقد اجتمع إليه[1] الناس ، وقد أرشدهم الله بالذى رَأَوْا وأتوا ، فلم يبق أحدٌ غيرُك وغيرُ مَنْ معك ؛ فانته يا معاوية من قبل أن يصيبك الله وأصحابك بمثل يوم الجمل .

فقال له معاوية : كأنّك إنما جئت مُهَدِّدا ، ولم تأت مصلحا ! هيهات يا عدىّ ! إنى لابنُ حرب ! ما يُقعقَعُ لى بالشِّنان[2] . أما والله إنك من المجلبين على عثمان ، وإنّك لَمِنْ قَتَلته ؛ وإنى لأرجو أن تكون ممن يقتُله الله .

فقال له شَبَث بن رِبعىّ وزياد بن خَصَفة ، وتنازعا كلاما واحدا : أتيناك فيما يصلِحنا وإياك ، فأقبلتَ تضرب لنا الأمثال ؛ دع ما لا ينفعُ من القول والفعل ؛ وأجِبْنا فيما يعمّنا وإياك نفعُه .

وتكلّم يزيد بن قيس الأرحبىّ ، فقال : إنا لم نأتك إلا لنبلّغك ما بعثنا به إليك ، ولنؤدّى عنك ما سمعنا منك ؛ ولم نَدَعْ أن ننصح لك ، وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حُجّة ، أو أنه راجع بك إلى الألفة والجماعة إن صاحبَنا مَنْ قد عرَفْتَ وعرف المسلمون فضلَه ، ولا أظنه يخفى عليك ؛ إنّ أهلَ الدين والفضل لا يعدِلُونك بعلىّ ، ولا يميّلون[3] بينك وبينه ، فاتق الله يا معاوية ولا تخالف عليا ؛ فإنا والله ما رأينا رجلا قطّ أعملَ بالتقوى ، ولا أزهد فى الدنيا ، ولا أجمع لخصال الخير كلّها منه .

فحمِد الله معاوية وأثنى عليه ؛ وقال : أما بعد ، فإنكم دعوتم إلى الجماعة والطاعة ؛ فأمّا الجماعة التى دعوتُم إليها فنِعِمّا هى ! وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها ؛ إنّ صاحبكم قتل خليفتنا ، وفرّق جماعتنا ، وآوى ثأرنا وقتَلتنا ؛ وصاحبكم يزعُم أنه لم يقتله ؛ فنحن

---

(١) صفين : « اجتمع له الناس » . الطبرى : « استجمع له الناس » .

(٢) الشنان : جمع شن ؛ وهو القربة الخلق ؛ كانوا يحركونها للابل إذا أرادوا حثها على السير ؛ والكلام على التمثيل .

(٣) التمثيل : الترجيح بين الشيئين .

لا نردّ ذلك عليه أرأيتم قَتَـلَةَ صاحبنا ! ألستم تعلمون أنهم أصحابُ صاحبكم ؛ فايدفعْهم إلينا فلْنقتلهم به ؛ ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة .

فقال له شَبَث بن رِبْعِيّ : أيسرّك بالله يا معاوية أنْ أُمكِنْتَ من عمـار بن ياسر فقتلته ! قال : وما يمنعُنى من ذلك ! والله لو أمكننى صاحِبُكم من ابن سُمَيّة ما قتلته بعثمان ؛ ولكنى كنت أقتلُه بنائل مولى عثمان !

فقال شَبث : وإله السماء ما عَدَلْتَ معدِلا ، ولا والذى لا إله إلا هو : لا تصل إلى قتل ابن ياسر حتى تُنْدَرَ الهامُ عن كواهل الرجال ، وتضيق الأرضُ الفضاء عليك برُحْبها .

فقال معاوية : إنه إذا كان ذلك كانت عليك أضيَق .

ثم رجع القوم عن معاوية ، فبعث إلى زياد بن خَصَفة من بينهم ، فأدخل عليه ، فحمد معاوية الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد يا أخا ربيعة ، فإن عليا قطع أرحامنا ، وقتل إمامنا ، وآوى قتلةَ صاحبنا ، وإنى أسألك النُّصرة بأسرتك وعشيرتك ، ولك علىّ عهد الله وميثاقه إذا ظهرت أن أوليَّك أىّ المصرين أحببت .

قال أبو المجاهد : فسمعت زياد بن خصفة يحدّث بهذا الحديث .

قال : فلما قضى معاوية كلامه ، حَمِدت الله وأثنيت عليه ، ثم قلت : أما بعدُ ، فإنى لَعَلَى بيِّنةٍ من ربى وبما أنعم عَلَيّ ، فلن أكون ظهيرا للمجرمين ، ثم قمت .

فقال معاوية لعمرو بن العاص — وكان إلى جانبه — : مالهم عَضَبهم[1] الله ! ماقلبهم إلا قلب رجل واحد !

* * *

قال نصر : وحدثنا سليمان بن أبى راشد ، عن عبد الرحمن بن عبيد أبى الكَنُود ،

(١) العضب : القطع ؛ وهو دعاء عند العرب .

قال(١) : بعث معاوية حبيب بن مَسْلمة الفِهْرِىّ إلى علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وبعث معه شُرَحْبيل بن السِّمط ومعن بن يزيد بن الأخنس السُّلَمىّ ، فدخلوا على علىّ عليه السلام فتكلّم حبيب بن مسلمة ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال :

أما بعدُ فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهديًّا ، يعمل بكتاب الله ويُنيب إلى أمر الله ، فاستثقلتم حياته ، واستبطأتم وفاته . فعدوتم عليه فقتلتموه ؛ فادفع إلينا قتلَة عثمان نقتلهم به ؛ فإن قلت : إنك لم تقتله ، فاعتزل أمرَ الناس ، فيكونَ أمرُهم هذا شورى بينهم ، يولّى الناس أمرَهم مَنْ أجمع عليه رأيهم .

فقال له علىّ : وما أنت لا أمّ لك والولايةَ والعزل والدخول فى هذا الأمر ! اسكت فإنك لست هناك ، ولا بأهلٍ لذاك ! فقام حبيب بن مسلمة وقال : أما والله لتريَنّى حيثُ تكره . فقال له عليه السلام : وما أنتَ ! ولو أجلَبْتَ بخيلك ورَجِلك . اذهب فصوّب وصعّد ما بدا لك ، فلا أبقى الله عليك إن أبقيت !

فقال شُرَحْبيل بن السِّمط : إنْ كلمتك ، فلعَمْرى ما كلامى لك إلا نحو كلام صاحبى ، فهل لى عندك جواب غير الجواب الذى أجبتَه به ؟(٢) فقال : نعم ، قال : فقله(٢) ؛ فحمد الله علىٌّ عليه السلام ، وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ؛ فإنّ الله سبحانه بعث محمدا صلى الله عليه فأنقذ به من الضّلالة ، ونعَش(٣) به من الهلكة ، وجمع به بعد الفُرقة ، ثم قبَضه الله إليه ؛ وقد أدّى ما عليه ؛ فاستخلف النّاس أبا بكر ، ثم استخلف أبو بكر عمر ؛ فأحسَنا السيرة ، وعدَلا فى الأمّة ؛ ووجَدْنا

(١) وقعة صفين ٢٢٥ ، وتاريخ الطبرى ٥ : ٧

(٢-٢) وقعة صفين : « فقال على عليه السلام : عندى جواب غير الذى أجبته به ، لك ولصاحبك » . وفى الطبرى : « نعم لك ولصاحبك جواب غير الذى أجبته به » .

(٣) الطبرى : « وانتاش به من الهلكة » .

عليهما أن توليا الأمر دوننا ، ونحن آلُ الرسول ، وأحقُّ بالأمر ؛ فغفرنا ذلك لهما ، ثم وَلِيَ أمرَ الناس عثمان ، فعمِل بأشياء عابها الناس عليه ، فسار إليه ناسٌ فقتلوه ، ثم أتانى الناس وأنا معتزل أمرَهم ، فقالوا لى : بايع ، فأبيْتُ عليهم ، فقالوا لى : بايع ، فإنَّ الأمة لاترضَى إلا بك ، وإنا نخاف إنْ لم تفعلْ أن يفترق الناس ؛ فبايعتُهم فلم يرُعْنى إلّا شقاق رجلين قد بايعا[١] ، وخلاف معاوية إياى الذى لم يجعل الله له سابقة فى الدين ، ولا سلفَ صِدْق فى الإسلام ، طَليق ابن طليق ، وحزب من الأحزاب ؛ لم يزَل لله ولرسوله وللمسلمين عدوا هو وأبوه حتى دخلاَ فى الإسلام كارهين مكرهين ، فيا عجبا[٢] لكم ، ولإجلابكم معه ، وانقيادكم له ؛ وتدعون آل بيت نبيِّكم الذين لاينبغى لكم شقاقهم ولا خلافهم ؛ ولاتعدلوا بهم أحدا من الناس ؛ إنى أدعوكم إلى كتاب ربكم وسنة نبيكم ، وإماتة الباطل ، وإحياء معالم الدين ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لنا ولكلّ مؤمن ومؤمنة ، ومسلم ومسلمة.

فقال له شُرَحْبِيل ومَعْن بن يزيد : أتشهدُ أنّ عثمان قُتِل مظلوما ؟ فقال لهما : إنّى لاأقول ذلك ؛ قالا : فمَنْ لم يشهد أنّ عثمان قتل مظلوما ، فنحن برآء منه ، ثم قاما فانصرفا. فقال على عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[٣].

ثم أقبل على أصحابه ، فقال : لايكن هؤلاء فى ضلالتهم بأولَى بالجدّ منكم فى حقكم وطاعة إمامكم . ثم مكث النَّاسُ متوادعين إلى انسلاخ المحرّم ، فلما انسلخ المحرّم واستقبل الناس صَفَراً من سنة سبع وثلاثين ، بعث علىّ عليه السلام نَفَراً من أصحابه ؛ حتى إذا كانوا

---

(١) صفين : « قد بايعانى »
(٢) صفين : « فعجبنا لكم » . وفى الطبرى : « فلا غرو إلا خلافكم معه » .
(٣) سورة النمل ٨٠ ، ٨١ .

من معسكر معاوية بحيث يسمعونهم الصوت ، قام مَرْثَد بن الحارث الجُشَمِيّ ، فنادى عند غروب الشمس : ياأهلَ الشام إنّ أميرَ المؤمنين عليا وأصحابَ رسول الله صلى الله عليه وآله يقولون لكم : إنّا لم نَكُفَّ عَنكم شكّاً فى أمركم ؛ ولا إبقاء عليكم ؛ وإنما كَفَفْنا عنكم لخروج المحرّم ، وقد انسلخ ؛ وإنا قد نَبَذْنا إليكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين .

قال : فتحاجز الناس وثارُوا إلى أمرائهم .

* * *

قال نصر: فأما[1] رواية عمرو بن شَمِر ، عن جابر ، عن أبي الزبير أنّ نداء مَرْثَد بن الحارث الجُشَمِيّ ، كانت صورته: ياأهلَ الشام، ألّا إنّ أميرَ المؤمنين يقول لكم : إنى قد استدمتُكم واستأنيْتُ بكم ، لتراجِعوا الحقّ ، وتثُوبوا إليه ، واحتججت عليكم بكتاب الله ، ودعوتكم إليه ، فلم تتناهَوْا عن طغيان ، ولم تجيبوا إلى حَقّ ، وإنى قد نبذتُ إليكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين .

قال : فثار الناس إلى أمرائهم ورؤسائهم .

قال نصر : وخرج معاويةوعمرو بن العاص يكتّبان الكتائب ، ويُعبّيان العساكر ، وأوقدُوا النيران ،وجاءوا بالشموع، وباتَ علىٌّ عليه السلام تلك الليلةَ كلّها ، يعبّى الناس، ويُكتّبُ الكتائب ، ويدور فى الناس ويحرّضهم .

* * *

قال نصر : حدّثنا عمر بن سعد ، بإسناده عن عبد الله بن جُندب ، عن أبيه أن[2] عليًّا عليه السلام كان يأمرنا فى كل موطن لقينا معه عدوّه ؛ فيقول :

(١) صفين ٢٢٨ (٢) وقعة صفين ٢٢٩ وتاريخ الطبرى ٥ : ١٠ ، ١١

لاتقاتلوا القوم حتى يبدءوكم ؛ فهيَ حُجّة أخرى لكم عليهم ؛ فإذا قاتلتموهم فهزمتُموهم فلا تقتلوا مُدبِراً ، ولا تُجهزوا على جَريح ، ولا تكشفوا عوْرة ، ولا تُمَثّلوا بقتيل ؛ فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتِكوا سِترا ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن ؛ ولا تأخذوا شيئا من أموالهم إلا ماوجدتم فى عسكرهم ، ولا تَهيجوا امرأةً ، وإنْ شتَمْنَ أعراضكم ، وتناوَلْنَ أمراءكم وصلحاءكم ؛ فإنهنّ ضِعاف القوى والأنفس والعقول ؛ ولقد كُنّا وإنا لنؤمر بالكفّ عنهنّ وهن مشركات ، وإن كان الرجلُ ليتناول المرأة فى الجاهلية بالهراوة أو الحديد فيعيَّر بها عَقِبه من بعده .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن إسماعيل بن يزيد — يعنى ابن أبى خالد — عن أبى صادق ، أنّ عليا[1] عليه السلام حَرّض الناس فى حروبه ، فقال :

عبادَ الله ، اتقوا الله وغُضُّوا أبصاركم ، واخفضُوا الأصوات ، وأقلّوا الكلام ، ووطّنوا أنفسكم عَلَى المنازلة والمجاولة والمبارزة والمعانقة ؛ واثبتوا : ﴿ وَٱذْكُرُوا ٱللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2] ؛ ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ ﴾[3] . اللهم ألهِمْهم الصبر ، وأنزِل عليهم النصر ، وأعظِم لهم الأجر .

* * *

قال نصر : وكان[4] ترتيب عسكر علىّ عليه السلام ، بموجب مارواه لنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن محمد بن على ، وزيد بن حسن ، ومحمد بن عبد المطلب : أنّه جَعَلَ عَلَى الخيل عَمّار بن ياسر ، وعلى الرجّالة عبد الله بن بُدَيل بن ورقاء الخزاعىّ ، ودفع اللواء

(١) وقعة صفين ٢٣٠ .
(٢) سورة الأنفال آية ٤٥ .
(٣) سورة الأنفال آية ٤٦
(٤) وقعة صفين ٢٣١

إلى هاشم بن عُتْبة بن أبي وقّاص الزّهريّ ، وجعل على الميمنة الأشعث بن قيس ، وعَلَى الميسرة عبدَ الله بن العباس ، وجعل عَلَى رَجّالة الميمنة سليمان بن صُرَد الُخزاعيّ ، وعَلَى رَجّالة الميسرة الحارث بن مرة العبديّ ، وجعل القَلْبَ مُضَر الكوفة والبصرة ، وجعل عَلَى مَيمنة القلب اليمن وعلى ميسرته ربيعة ، وعقد ألوية القبائل ، فأعطاها قوماً منهم بأعيانهم؛وجعلهم رؤساءهم وأمراءهم،وجعل عَلَى قريش وأسد وكنانة عبدَ الله بن عباس، وعَلَى كِنْدة حُجْر بن عديّ الكنديّ ، وعَلَى بَكْر البصرة الُحصين بن المنذر الرقاشيّ، وعَلَى تميم البصرة الأحنف بن قيس ، وعَلَى خُزاعة عمرو بن الحِق ، وعَلَى بَكْر الكوفة نُعَيْم بن هُبيرة،وعَلَى سَعْد البصرة وربابها جارية بن قُدامة السعديّ ، وعَلَى بَجيلة رفاعة ابن شدّاد ، وعلى ذُهْل الكوفة رُوَيْماً الشيبانيّ - أو يزيد بن رُويم - وعلى عمرو البصرة وحَنظلَتِها أعْيَن بن ضُبَيْعَة ، وعلى قُضاعة وطيئ عديّ بن حاتم الطائيّ ، وعلى لهازم الكوفة عبدالله بن حَجَل العجْليّ،وعلى تميم الكوفة عُمير بن عطارد،وعلى الأزْد واليمن جُندَب بن زهير ، وعلى ذُهْل البصرة خالد بن المعمَّر السّدوسيّ ، وعلى عَمْرو الكوفة وحَنْظلتها شَبَث بن رِبْعِيّ ، وعلى هَمْدان سعيد بن قيس ، وعلى لهازم البصرة حُرَيث ابن جابر الُجعفيّ(١)،وعلى سعد الكوفة وربابها الطُّفيل أبا صُرَيْمة،وعَلَى مَذْحِج الأشتر ابن الحارث النَّخَعِيّ ، وعَلَى عبدالقيس الكوفة صَعْصعة بن صُوحان ، وعَلَى عبد القيس البصرة عمرو بن حنظلة ، وعَلَى قيس الكوفة عبد الله بن الطُّفَيْل البَكّائيّ ، [وعَلَى قريش البصرة الحارث بن نوفل الهاشميّ](٢) وعَلَى قيس البصرة قبيصة بن شدّاد الهلاليّ ، وعَلَى اللفيف من القواصي القاسم بن حَنْظلة الُجهَنيّ .

وأما معاوية فاستعمل عَلَى الخيل عُبيد الله بن عمر بن الخطاب ، وعَلَى الرجّالة مسلم ابن عقبة المرّيّ ، وجعل عَلَى الميمنة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعَلَى الميسرة حبيب

(١) صفين : « الحنفي » .

(٢) من صفين .

ابن مسلمة الفهريّ ، وأعطى اللواء عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وجعل عَلَى أهل دمشق ـ وهم القلب ـ الضحاك بن قيس الفِهرىّ ، وعلى أهل حِمْص ـ وهم الميمنة ـ ذا الكَلاع الحِميرىّ ، وعلى أهل قِنَّسرين ـ وهم في الميمنة أيضاً ـ زُفَر بن الحارث الكِلابىّ ، وعلى أهل الأردنّ ـ وهم الميسرة ـ سفيان بن عمرو أبا الأعور السُّلَمىّ ، وعلى أهل فلسطين ـ وهم في الميسرة أيضا ـ مسلمة بن مَخْلد ، وعلى رجّالة أهل دمشق بُسْر بن أبي أرطاة العامرىّ بن لؤىّ بن غالب ، وعلى رجّالة أهل حِمْص حَوْشبا ذا ظُلَيم ، وعلى رَجّالة قيس طريف بن حابس الألهانىّ ، وعلى رَجّالة الأردن عبد الرحمن بن قيس القَيْنىّ ، وعلى رجّالة أهل فلسطين الحارث بن خالد الأزدىّ ، وعلى رجّالة قيس دمشق همام بن قَبِيصة ؛ وعلى قضاعة حِمْص وإيادها بلال بن أبى هُبيرة الأزدىّ ، [وحاتم بن المعتمر الباهلىّ][1] ، وعلى رجّالة الميمنة حابس بن سعيد الطائىّ ، وعلى قُضاعة دمشق حسّان بن بَحْدل الكلبىّ ، وعلى قُضاعة عباد بن يزيد الكلبىّ ، وعلى كِنْدة دمشق حسان بن حوىّ السَّكسكىّ ، وعلى كِندة حِمْص يزيد بن هبيرة السَّكونىّ ، وعلى سائر اليمن يزيد بن أسد البَجَلىّ ، وعلى حِمْيَر وحضرموت اليمان بن غفير ، وعلى قضاعة الأردنّ حبيش بن دُلجة القَيْنىّ ، وعلى كنانة فلسطين شريكا الكنانىّ ، وعلى مذحِج الأردنّ المخارق بن الحارث الزُّبيدىّ ، وعلى جُذام فلسطين ولخمها ناتل بن قيس الجذامىّ ، وعلى هَمْدان الأردنّ حمزة بن مالك الهمدانىّ ، وعلى الخثعم حَمَل بن عبد الله الخثعمىّ ، وعلى غسان الأردنّ يزيد بن الحارث ، وعلى جميع القواصى القعقاع بن أبرهة الكَلاعِىّ ؛ أصيب في المبارزة أول يوم تراءت فيه الفئتان .

***

قال نصر : فأما رواية الشعبىّ التى رواها عنه إسماعيل بن أبى عُمَيرة[2] ؛ فإنّ عليا

(١) من صفين .

(٢) صفين ٢٣٤ .

عليه السلام بعث على ميمنته عبد الله بن بُدَيل بن وَرْقاء الخزاعيّ ، وعلى ميسرته عبد الله بن العباس ، وعلى خيل الكوفة الأشتر ، وعلى البصرة سهل بن حُنيف ، وعلى رجّالة الكوفة عمّار بن ياسر ، وعلى رجّالة أهل البصرة قيس بن سعد - كان قد أقبل من مصر إلى صِفّين - وجعل معه هاشم بن عُتبة ، وجعل مسعود بن فدكى التميميّ على قراء أهل البصرة ؛ وأما قرّاء أهل الكوفة فصاروا إلى عبد الله بن بُدَيل ، وعمار بن ياسر .

* * *

قال نصر : وأما[1] ترتيب عسكر الشام - فيما رواه لنا عمر بن سعد ، عن عبد الرحمن ابن يزيد بن جابر ، عن القاسم مولى يزيد بن معاوية - فإن معاوية بعث على ميمنته ذا الكَلَاع ، وعلى ميسرته حبيبَ بن مَسْلَمَة الفِهريّ ، وعلى مقدّمته من يوم أقبل من دمشق أبا الأعور السُّلَميّ ، وكان على خَيْل دمشق كلّها عمرو بن العاص ، ومعه خيول أهل الشام بأسرها ، وجعل مسلم بن عُقْبة المُرّيّ على رجالة دمشق ، والضحاك بن قيس على سائر الرجّالة بعد .

* * *

قال نصر :[2] وتبَايَع رجال من أهل الشام على الموت وتحالفوا عليه وعَقّلوا أنفسهم بالعمائم ، وكانوا صُفوفا خمسة [معقّلين][3] ، كانوا يخرجون فيصطفّون أحدَ عشر صفا ، ويخرجُ أهلُ العراق فيصطفّون أحدَ عشر صفا أيضا .

قال نصر : فخرجوا أولَ يوم من صفر من سنة سبع وثلاثين ، وهو يوم الأربعاء ، فاقتتلوا ، وعَلى مَنْ خرج يومئذ من أهل الكوفة الأشتر ، وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة

---

(١) صفين ٢٣٩ .

(٢) صفين ٢٣٩ .

(٣) من صفين .

فاقتتلوا قِتالا شديدا جُلَّ النهار ، ثم تراجعوا وقد انتصفَ بعضُهم من بعض . ثم خرج في اليوم الثاني هاشم بن عُتْبة في خَيْل ورجال حَسَنٍ عددها وعُدَّتها ؛ فخرج إليه من أهل الشام أبو الأعور السُّلَمىّ ، فاقتتلوا يومهم ذلك ، تحمِلُ الخيل على الخيل والرجال على الرجال. ثم انصرفوا وقد صَبَرَ القومُ بعضُهم لبعض ؛ وخرج في اليوم الثالث عَمّار بن ياسر ، وخرج إليه عمرو بن العاص ؛ فاقتتل الناس كأشدّ قتال كان ، وجعل عمّار يقول : ياأهل الشام ، أتريدون أنْ تنظُروا إلى مَنْ عادى الله ورسوله وجاهـدهما ، وبغى على المسلمين ، وظاهر المشركين . فلما أراد الله أنْ يُظهر دينَه ، وينصر رسوله أتى إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فأسلم ، وهو والله فيما يرى راهبٌ غير راغب . ثم قبض الله رسولَهُ ، وإنا والله لنعرفه بعداوة المسلم ؛ ومودّة المجرم ! ألا وإنه معاوية ، فقاتلوه والعنوه ؛ فإنه ممّن يطفئُ نور الله ، ويظاهر أعداء الله .

قال : وكان مع عَمّار زيادُ بن النضر على الخيل ، فأمره أن يحمل في الخيل ، فحمل فصبروا[1] له ، وشدّ عمار في الرَّجّالة ، فأزال عمرو بن العاص عن مَوْقفه ؛ وبارز يومئذ زياد بن النضر أخا له[2] من بني عامر يعرف بمعاوية بن عمرو العُقيليّ ؛ وأمهما هند الزبيديّة ؛ فانصرف كلُّ واحد منهما عن صاحبه بعد المبارزة سالما ، ورجع الناس يومهم ذلك ؛

* * *

قال نصر : وحدثني [3] أبو عبد الرحمن المسعوديّ قال : حدثني يونس بن الأرقم ؛ عمّن حدثه من شيوخ بَكْر بن وائل ؛ قال : كنا مع عليّ عليه السلام بصِفّين ؛ فرفع عمرو ابن العاص شُقّة خَميصةٍ سوداء في رأس رُمْح ؛ فقال ناس : هذا لواء عَقَده له رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فلم يزالوا يتحدّثون حتى وصل ذلك إلى عليّ عليه السلام ؛ فقال:

(١) في الأصول : « فصبر » ، والصواب ما أثبته من صفين .
(٢) في الطبري : « لأمه » .
(٣) صفين ٢٤١ .

أتدرُون ما أمرُ هذا اللواء ! إنّ عدوّ الله عَمْراً أخرج له رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الشُّقَّة ، فقال : مَنْ يأخذها بما فيها ؟ فقال عمرو : وما فيها يارسول الله ؟ قال : فيها ألّا تقاتل بها مسلما ، ولا تقرّبها من كافر ؛ فأخذها ؛ فقد والله قرّبها من المشركين ، وقاتل بها اليوم المسلمين ؛ والّذِى فَلَقَ الحبّة ، وبرأ النَّسَمة ؛ ما أسلموا ولكنهم استسلموا وأسرّوا الكفر ؛ فلما وجدوا عليه أعوانا أظهروه .

* * *

وروى نصر ، عن أبى عبد الرحمن المسعودىّ ، عن يونس بن الأرقم ، عن عوف ابن عبد الله ، عن عمرو بن هند البَجَلىّ ، عن أبيه ، قال [1] : لما نظر علىّ عليه السلام إلى رايات معاوية وأهل الشام ، قال : والذى فَلَقَ الحبّة ، وبرأ النسمة ؛ ما أسلموا ولكن استسلموا ، وأسرُّوا الكفر ؛ فلما وجدوا عليه أعوانا ، رجعوا إلى عَدَاوتهم لنا ؛ إلا أنّهم لم يتركوا الصلاة .

* * *

وروى نصر ، عن عبد العزيز بن سياه ، عن حبيب بن أبى ثابت ، قال : [1] لما كان قتال صِفّين ، قال رجل لعمّار : يا أبا اليقظان ؛ ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « قاتلوا الناس حتى يُسلموا ؛ فإذا أسلموا عَصَموا منّى دماءهم وأموالهم » ؟ قال : بلى ، ولكن والله ما أسلموا ؛ ولكن استسلموا ، وأسرّوا الكفر حتى وَجَدُوا عليه أعوانا .

* * *

وروى نصر ، عن عبد العزيز عن حبيب بن أبى ثابت ، عن منذر الثورىّ ، قال : قال محمد بن الحنفيّة : لما [1] أتاهم رسول الله صلى الله عليه وآله مِنْ أعلى الوادى ومن أسفله ،

---

(١) صفين ٢٤١ ، ٢٤٢

وملأ الأودية كتائب – يعني يوم فتح مكة – استسلموا حتى وجدوا أعوانا .

وروى نصر ، عن الحكم بن ظهير عن إسماعيل،عن الحسن ، قال : وحدثنا الحكم أيضا عن عاصم بن أبي النَّجُود ، عن زرّ بن حبيش عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا رأيتم معاوية بن أبي سفيان يخطُب على مِنبَرى فاضربوا عنقه » ، فقال الحسن : فوالله مافعلوا ولا أفلحوا [1] .

(١) صفين ٢٤٣

(٥٥)

ومن كلام له عليه السلام :

الأصل :

وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا ، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ؛ وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقَمِ ، وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الْأَلَمِ ، وَجِدًّا[1] فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ .وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلَانِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ ،يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا ؛ أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا ، وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا، فَلَمَّا رَأَى اللهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ مُلْقِيًا جِرَانَهُ ، وَمُتَبَوِّئًا أَوْطَانَهُ .

وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ ، وَلَا اخْضَرَّ لِلْإِيمَانِ عُودٌ . وَايْمُ اللهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَمًا ، وَلَتُتْبِعُنَّهَا نَدَمًا !

***

الشرح :

لَقَمُ الطريق : الجادّة الواضحة منها . والمَضَض : لذع الألم وبرحاؤه . والتّصاول : أنْ يحمل كلٌّ واحد من القِرنين على صاحبه . والتخالس : التسالُب والانتهاب . والكبت : الإذلال . وجِران البعير : مقدّم عنقه . وتبوّأت المنزل : نزلته . ويقال لمن أسرف في الأمر : لتحتلِبَنّ دما ، وأصله الناقة يُفْرَط في حَلْبها فيحلب الحالب الدم .

(١) ساقطة من مخطوطة النهج .

وهذه ألفاظ مجازية من باب الاستعارة ؛ وهى :

قوله: «استقرّ الإسلامُ ملقياجِرانه»، أى ثابتامتمكّنا، كالبعير يلقى جِرانه على الأرض.

وقوله : « متبوئاً أوطانه » ، جعله كالجسم المستقرّ فى وطنه ومكانه .

وقوله : « ماقام للدين عمود » ، جعله كالبيت القائم على العُمُد .

وقوله : « ولااخضرّ للإيمان عود » ، جعله كالشّجرة ذات الفروع والأغصان .

فأما قتلهم الأقاربَ فى ذات الله فكثير ؛ قتلَ علىّ عليه السلام الجمّ الغفير من بنى عبد مناف وبنى عبد الدار فى يوم بَدْر وأُحُد ؛ وهم عشيرته وبنو عمّه ، وقتَل عمرُ ابن الخطاب يومَ بَدْر خاله العاص بن هشام بن المغيرة ، وقتل حمزةُ بن عبد المطلب شيبةَ ابن ربيعة يوم بَدْر ، وهو ابنُ عمه؛ لأنهما ابنا عبدِ مناف ؛ ومثل ذلك كثير مذكورفى كتب السيرة .

وأما كَوْنُ الرجل منهم وقِرْنِه يتصاولان ويتخالسان ؛ فإنّ الحال كذلك كانت ؛ بارز علىّ عليه السلام الوليدَ بن عُتْبة ، وبارز طلحةَ بن أبى طلحة ، وبارز عمرو بن عبدوَدّ؛ وقتل هؤلاء الأقران مبارزة ، وبارز كثيرا من الأبطالِ غيرهم وقتَلهم ؛ وبارز جماعةٌ من شُجْعان الصحابة جماعةً من المشركين ؛فمنهم مَنْ قُتِل ، ومنهم مَنْ قَتَل ، وكتب المغازى تتضمّن تفصيل ذلك .

***

[فتنة عبد الله بن الحضرمىّ بالبصرة]

وهذا الكلام قاله أميرالمؤمنين عليه السلام فى قصة ابن الحضرمىّ حيث قدم البَصْرة من قِبَل معاوية ، واستنهض أميرُ المؤمنين عليه السلام أصحابه إلى البصرة ؛ فتقاعدوا .

قال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفى فى كتاب ''الغارات'' :

حدّثنا محمد بن يوسف ، قال : حـدثنا الحسن بن على الزّعفرانىّ ، عن محمد بن عبـد الله ابن عثمان ، عن ابن أبى سيف ، عن يزيد بن حارثة الأزدىّ ، عن عمرو بن محصن ، أن معاوية لما أصابَ محمد بن أبى بكر بمصر وظهر عليها ، دعا عبد الله بن عامر الحضرمىّ ، فقال له : سرْ إلى البصرة ؛ فإن جلّ أهلها يروْن رأينا فى عثمان ، ويعظّمون قتلَه ، وقد قُتِلوا فى الطلب بدمِه ، فهم موتورون حَنِقون لما أصابهم ؛ ودُّوا لو يجدون مَنْ يدعوهم ويجمعهم وينهض بهم فى الطلب بدم عثمان ؛ واحذرْ ربيعة ، وانزل فى مُضَر ، وتوددِ الأزْد ؛ فإنّ الأزْدَ كلَّها معك إلا قليلًا منهم ؛ وإنهم إن شاء الله غيرُ مخالفيك .

فقال عبد الله بن الحضرمىّ له : أنا سهمٌ فى كنانتك ، وأنا مَنْ قد جرَّبت ، وعدوّ أهل حربك ، وظهيرك على قتلة عثمان ؛ فوجّهْنِى إليهم متى شئت . فقال : اخْرُج غـدا إن شاء الله . فودّعه وخرج من عنده .

فلما كان الليل جَلس معاوية وأصحابه يتحدّثون ، فقال لهم معاوية: فى أىّ منزل ينزل القمر الليلة ؟فقالوا : بسعد الذّابح ؛ فـكرِه معاوية ذلك ،وأرسل إليه ألّا تبرح حتى يأتيَك أمرى . فأقام .

* * *

ورأى معاوية أن يـكتبَ إلى عمرو بن العاص وهو يومئذ بمصر ، عاملُه عليهـا ، يستطلع رأيه فى ذلك ، فـكتب إليه ؛وقد كان تَسمَّى بإمْرةالمؤمنين بعد يوم صِفِّين ،وبعد تحـكيم الحـكمين :

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص :

سلام عليك ، أما بعـد ؛ فإنى قد رأيتُ رأيًا هممتُ بإمضائه ، ولم يخذُلنى عنـه

إلّا استطلاع رأيك ؛ فإن توافقني أحمد الله وأمضه ؛ وإن تخالفني فإني أستخير اللهَ وأستهديه . إني نظرتُ في أمرِ أهل البصرة فوجدتُ معظَم أهلِها لنا وليًّا ولعليٍّ وشيعته عدوًّا؛ وقد أوقعَ بهم عليٌّ الوَقْعة التي علمت ، فأحقاد تلك الدماء ثابتة في صدورهم لا تبرح ولا تريم ؛ وقد علمتَ أنّ قتلَنا ابن أبي بكر ، ووقعتنا بأهل مصر قد أطفأتْ نيران أصحاب عليٍّ في الآفاق ، ورفعت رءوس أشياعنا أينما كانوا من البلاد ؛ وقد بلَغ مَنْ كان بالبصرة على مثلِ رأينا من ذلك ما بلغ الناس ، وليس أحد ممّن يرى رأينا أكثرَ عددا ، ولا أضرّ خلافًا على عليٍّ من أولئك ؛ فقد رأيتُ أن أبعث إليهم عبد الله بن عامر الحضرميّ ، فينزل في مُضَر ويتودّد الأزد ، ويحذر ربيعة ، ويبتغي دم ابن عفان ، ويذكّرهم وقعة عليٍّ بهم؛ التي أهلكتْ صالحي إخوانهم وآبائهم وأبنائهم . فقد رجوتُ عند ذلك أن يفْسِدَ على عليٍّ وشيعته ذلك الفَرْج من الأرض ؛ ومتى يُؤْتَوْا من خَلْفهم وأمامهم يضلّ سعيهم ، ويبطل كيدُهم . فهذا رأيي . فما رأيك ؟ فلا تحبس رسولي إلا قَدْر مضيّ الساعة التي ينتظرُ فيها جواب كتابي هذا. أرشدنا الله وإياك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فكتب عمرو بن العاص إلى معاوية :

أما بعدُ ، فقد بلغني رسولُك وكتابك ، فقرأته وفهمتُ رأيَكَ الذي رأيتَه ، فعجبت له ، وقلت : إنّ الذي ألقاه في روعِك ، وجعله في نفسك هو الثائر بابن عفان ، والطالب بدمه ؛ وإنه لم يك مِنك ولا مِنّا منذ نهضنا في هذه الحروب وبادينا أهلها[1] ، ولا رأى الناس رأيا أضرّ على عدوك ، ولا أسرّ لوليّك مِنْ هذا الأمر الذي ألهمتَه، فامض رأيَك مسدّدا ؛ فقد وَجّهْتَ الصّليب الأريب الناصح غير الظّنين والسلام .

***

(١) كذا في ج ، وفي ا ، ب : « وناديناً »

فلما جاءه كتاب عمرو دعا ابن الحضرمىّ ـ وقد كان ظنّ حين تركه معاوية أياماً لا يأمرُه بالشخوص، أن معاوية قد رجع عن إشخاصه إلى ذلك الوجه ـ فقال: يابنَ الحضرمىّ، سِرْ على بركة الله إلى أهل البصرة فانزل فى مُضَر، واحْذَرْ ربيعة، وتودّد الأزْد، وانْعَ ابن عفان، وذكّرهم الوَقْعة التى أهلكتْهم، ومَنِّ لمن سمع وأطاع دُنْيا لا تفنى، وأثَرَةً[1] لا يفقدها حتى يفقدنا أو نفقده.

فودعه ثم خرج من عِنده، وقد دفع إليه كتاباً، وأمره إذا قدم أن يقرأه على النّاس.

قال عمرو بن محصن: فكنتُ معه حين خرج، فلما خرجْنا سرنا ماشاء الله أن نَسِير، فسنَحَ لنا ظبى أعْضب[2] عن شمائلنا، فنظرت إليه؛ فوالله لرأيتُ الكراهيَة فى وجهه؛ ثم مضينا حتى نزلنا البصرة فى بنى تميم، فسمعَ بقُدُومنا أهلُ البصرة؛ فجاءنا كلّ مَنْ يرى رأى عثمان، فاجتمع إلينا رءوس أهلها؛ فحمد الله ابنُ الحضرمىّ وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد؛ أيها الناس؛ فإن إمامكم إمام الهدى عثمان بن عَفّان، قتله علىّ بن أبى طالب ظلْماً، فطلبتم بدمه، وقاتلتم مَنْ قَتَله، فجزاكم الله مِنْ أهل مصر خيرا؛ وقد أصيبَ منكم الملأُ الأخيار؛ وقد جاءكم الله بإخوان لكم؛ لهم بأسٌ يُتّقى، وعدد لا يُحصى؛ فَلَقوا عدوّكم الذين قتلوكم؛ فبلغوا الغاية التى أرادوا صابرين، ورجعوا وقد نالوا ماطلبوا، فمالئوهم وساعدوهم، وتذكروا ثأرَكم لتَشفوا صدورَكم من عدوّكم.

فقام إليه الضحاك بن عبدالله الهلالىّ، فقال: قَبّح الله ماجئتنا به، وما دعوتنا إليه! جئتَنا والله بمثل ماجاء به صاحباك طلحة والزبير؛ أتَيَانا وقد بايعْنا عليا، واجتمعنا له، فكلمتنا واحدة ونحن على سبيل مستقيم، فدعوانا إلى الفرقة، وقاما فينا بزُخرف القول؛ حتى ضربْنَا بعضَنا ببعض عُدوانا وظلما؛ فاقتتلنا على ذلك، وايمُ الله، ما سلمْنا من عظيم وبال

---

(١) فى اللسان: «فلان أثير عند فلان، وذو أثرة، إذا كان خاصا».

(٢) الأعضب: مكسور أحد القرنين؛ وكانوا يتشاءمون منه

ذلك ؛ ونحن الآن مجمعون على بَيْعة هذا العبد الصالح الذى أقال العَثْرة ، وعفا عن المسىء وأخذ بيعة غائبنا وشاهدنا . أفتأمرنا الآن أن نختلع أسيافنا من أغمادها، ثم يضرب بعضنا بعضا ، ليكون معاويةُ أميرا ، وتكون له وزيرا، ونعدل بهذا الأمر عن علىّ! والله لَيومٌ من أيام علىّ مع رسول الله صلى الله عليه وآله خيرٌ من بلاء معاوية وآل معاوية لو بقوا فى الدنيا ؛ ما الدنيا باقية .

فقام عبد الله بن خازم السُّلَمِىّ ، فقال للضحاك : اسكت ؛ فلست بأهلٍ أنْ تتكلم فى أمرِ العامة . ثم أقبل على ابن الحضرمىّ ، فقال : نحن يدُك وأنصارك ؛ والقول ماقلت ؛ وقد فهمنا عنك ؛ فادعنا أنى شئت ! فقال الضّحاك لابن خازم : يابن السوداء ؛ والله لا يعِزّ من نصرت ، ولا يذِلّ بخذلانك مَنْ خذلت ؛ فتشاتما .

***

قال صاحب كتاب الغارات : والضحاك هذا هو الذى يقول :

يأيّهذا السائِلى عن نَسَبِى بين ثقيفٍ وهلال منصِبى

* أمِّىَ أسماء وضَحّاكٌ أبى *

قال : وهو القائل فى بنى العباس :

مَا وَلَدَتْ من ناقة لفحلٍ فى جَبَلٍ نعلمُه وَسَهْلِ
كستة مِنْ بَطْنِ أم الفضلِ أكْرِمْ بهامن كَهْلَةٍ وكَهْلِ
عمّ النبىّ المصطفى ذى الفضلِ وخاتم الأنبياء بعد الرُّسْلِ

قال : فقام عبدُ الرحمن بن عمير بن عثمان القرشىّ ثم التّيمىّ ، فقال : عباد الله ؛ إنا لم ندعكم إلى الاختلاف والفُرْقة ، ولا نريد أنْ تقتتلوا ولا تتنابزوا ؛ ولكنا إنّما ندعوكم إلى أنْ تجمَعُوا كلمتكم ، وتوازروا إخوانكم الذين هم على رأيكم ، وأنْ تَلُمُّوا شعَثَكم

وتُصلِحوا ذاتَ بينكم ؛ فمهلا مهلا ! رحمكم الله ، استمعوا لهذا الكتاب، وأطيعوا الذى يقرأ عليكم .

ففضوا كتابَ معاوية وإذا فيه : مِنْ عبدالله معاوية أمير المؤمنين ، إلى من قرئ كتاب هذا عليه من المؤمنين والمسلمين من أهل البصرة :

سلام عليكم . أما بعدُ، فإنّ سَفْكَ الدماء بغير حلّها، وقتل النفوس التى حرّم الله قتلها هلاكٌ موبق ، وخسران مبين ؛ لا يقبل الله مِمّن سَفَكها صَرْفا ولا عَدْلا ؛ وقد رأيتم رحمكم الله آثار ابن عفّان وسيرتَه ، وحُبّه للعافية ، ومَعْدَلته ،وسَدّه للثغور، وإعطاءه فى الحقوق ، وإنصافه للمظلوم ، وحُبّه الضعيف ؛ حتى توثّب عليه المتوثبون ؛ وتظاهر عليه الظالمون ، فقتلوه مسلماً محرما ، ظمآن صائما ، لم يسفِكْ فيهم دما ، ولم يقتُلْ منهم أحدا ولا يطلبونه بضربة سيف ولا سوط ، وإنما ندعوكم أيها المسلمون إلى الطلب بدمه ، وإلى قتال مَنْ قتله ؛ فإنا وإياكم على أمرِ هُدًى واضح ، وسبيل مستقيم . إنكم إن جامعتمونا طفئت النائرة، واجتمعت الكلمة ، واستقام أمرُ هذه الأمة ، وأقرّ الظالمون المتوثبون الذين قتلوا إمامهم بغير حق ، فأخِذُوا بجرائرهم وما قدّمت أيديهم . إنّ لكم أنْ أعمَل فيكم بالكتاب ، وأنْ أعطيَكم فى السَّنَة عطاءين ، ولا أحتمل فضلًا من فيئكم عنكم أبدًا . فسارعوا إلى ما تُدْعون إليه رحمكم الله ! وقد بعثتُ إليكم رجلًا من الصالحين؛ كان من أمناء خليفتكم المظلوم ابن عفان وعماله وأعوانه على الهدى والحق ؛ جعلنا الله وإياكم ممّن يجيب إلى الحق ويعرفه ، ويُنكِر الباطل ويَجْحَده ، والسلام عليكم ورحمة الله .

قال : فلما قُرِئ عليهم الكتاب ، قال معظمهم : سمعنا وأطعنا .

قال : وروى محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن علىّ ، عن أبى زهير ، عن أبى مِنْقر الشيبانىّ ، قال :قال الأحنف لما قرئ عليهم كتاب معاوية : أمّا أنا فلا ناقةَ لى فى هذا ولا جَمَل . واعتزل أمرهم ذلك .

وقال عمرو بن مرجوم ، من عبدالقيس : أيّها الناس ، الزموا طاعتَكم ، ولاتنكثُوا بيعتَكم ، فتقع بكم واقعة وتصيبكم قارعة ؛ ولا يكن بعدها لكم بقيّة ؛ ألا إنّى قد نصحتُ لكم ؛ ولكن لا تحبون الناصحين .

* * *

قال إبراهيم بن هلال : وروى محمد بن عبدالله ، عن ابن أبى سيف ، عن الأسود بن قيس، عن ثعلبة بن عبّاد ، أن الذى كان سَدّدَ لمعاوية رأيه فى تسريح ابن الحضرمىّ كتاب كتبه إليه عبّاس بن ضحّاك العبدىّ ، وهو ممن كان يرى رأى عثمان ، ويخالف قومَه فى حبهم عليًّا عليه السلام ونصرتهم إياه ؛ وكان الكتاب :

أما بعد، فقد بلغنا وقعتُك بأهل مصر؛ الذين بَغَوْا على إمامهم ، وقتلوا خليفتَهم طمَعاً وبَغْيا ، فقرّت بذلك العيون ، وشُفِيت بذلك النفوس ؛ وبردت أفئدة أقوامٍ كانوا لقتل عثمان كارهين ، ولعدوّه مفارقين ؛ ولكم موالين ، وبك راضين ؛ فإن رأيتَ أن تبعثَ إلينا أميراً طيبا ذكيا ذا عَفاف ودين ، إلى الطلب بدم عثمان فَعَلْت ؛ فإنى لاأخال الناس إلا مجمعين عليك ؛ وإن ابن عباس غائب عن المصر . والسلام .

قال : فلما قرأ معاوية كتابه قال : لا عزمتُ رأياً سوى ما كتب به إلىّ هذا ، وكتب إليه جوابه :

أما بعد ؛ فقد قرأتُ كتابَك ، فعرفت نصيحتَك ، وقبلت مشورتك ، رحمك الله وسددك ، اثبُتْ هداك الله على رأيك الرشيد ، فكأنّك بالرجل الذى سألت قد أتاك، وكأنّك بالجيش قد أطلّ عليك فسررت وحبيت ؛ والسلام .

* * *

قال إبراهيم : وحدثنا محمدبن عبدالله ، قال: حدثنى على بن أبى سيف عن أبى زهير

قال : لما نزل ابن الحضرمىّ فى بنى تميم أرسل إلى الرءوس فأتوه ، فقال لهم: أجيبونى إلى الحقّ ، وانصرونى على هذا الأمر .

قال : وإنّ الأميرَ بالبصرة يومئذ زياد بن عبيد قد استخلفه عبد الله بن عباس ، وقدم على علىّ عليه السلام إلى الكوفة يعزّيه عن محمد بن أبى بكر ، قال : فقام إليه ابن ضَحّاك ، فقال : إى والذى له أسعى ، وإياه أخشى ، لننصرنّك بأسيافنا وأيدينا .

وقام المثنّى بن مخرمة العبدىّ فقال : لا والذى لا إله إلا هو ، لئن لم ترجع إلى مكانك الذى أقبلت منه لنجاهدنّك بأسيافنا وأيدينا ، ونبالنا وأسنّة رماحنا . نحن نَدَع ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسيد المسلمين ، وندخل فى طاعة حزب من الأحزاب طاغ ! والله لا يكون ذلك أبدا حتى نسيّر كتيبة ، ونفلّق السيوف بالهام .

فأقبل ابنُ الحضرمىّ على صَبْرة بن شَيْمان[1] الأزدىّ فقال : ياصَبْرة ، أنت رأسُ قومك ، وعظيمٌ من عظماء العرب ، وأحد الطّلبة بدم عثمان ، رأينا رأيُك ، ورأيُك رأيُنا ، وبلاء القوم عندك فى نفسك وعشيرتك ماقد ذقت ورأيت ، فانصرنى وكُنْ من دونى . فقال له : إن أنت أتيتَنى فنزلت فى دارى نصرتُك ومنعتك . فقال : إنّ أمير المؤمنين معاوية أمرَنى أنْ أنزل فى قومه من مُضر ، فقال : اتّبع ماأمرَكَ به .

وانصرف من عنده ، وأقبل الناسُ إلى ابن الحضْرمىّ ، وكثر تَبَعَهُ ، ففزع لذلك زياد وهَالَهُ وهو فى دار الإمارة ، فبعث إلى الُحضَين بن المنذر ومالك بن مِسْمَع ، فدعاهما ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد فإنكم أنصارُ أمير المؤمنين وشيعتهُ وثقته ، وقد جاءكم هذا الرجل بما قد بلغكم ، فأجيرونى حتى يأتيَنى أمْرُ أمير المؤمنين ورأيُه .

فأما مالك بن مسمع ، فقال : هذا أمر فيه نَظَر ، أرجع إلى مَنْ ورائى ، وأنظر وأستشير فى ذلك . وأمّا الحضين بن المنذر فقال ، نعم ، نحن فاعلون ، ولن نخذُلَكَ ولن نُسلِمك .

---

(١) ب : « سليمان » ، تحريف .

فلم يرَ زياد من القوم مايطمئنّ إليه ، فبعث إلى صَبْرة بن شَيْمان الأزدىّ ، فقال : يابن شَيمان ، أنت سيدُ قومك ، وأحد عظماء هذا المِصْر ، فإن يكن فيه أحدٌ هو أعظم أهله فأنت ذاك ؛ أفلا تجيرنى وتمنعُنى ، وتمنع بيتَ مال المسلمين ! فإنما أنا أمين عليه . فقال : بَلى ، إن تحمّلت حتى تنزل فى دارى منعتُك ، فقال : إنى فاعل .

فارتحل ليلا حتى نزل دار صَبْرة بن شَيْمان ، وكتب إلى عبد الله بن عباس — ولم يكن معاوية ادّعى زياداً بعد ؛ لأنه إنما ادّعاه بعد وفاة علىّ عليه السلام :

للأمير[1] عبد الله بن عباس من زياد بن عبيد .

سلام عليك ، أما بعدُ فإنّ عبدَ الله بن عامر بن الحضرمىّ أقبل مِنْ قِبَل معاوية حتى نزل فى بنى تميم ، ونَعى ابنَ عفّان ، ودعا إلى حرب ، فبايَعه جُلُّ أهلِ البصرة، فلما رأيت ذلك استجرتُ بالأزْد ، بصَبْرَة بن شَيْمان وقومه لنفسى ولبيت مال المسلمين، ورحلتُ من قصر الإمارة فنزلت فيهم ، وإنّ الأزْد معى ، وشيعة أمير المؤمنين مِن فُرسان القبائل تختلف إلىّ وشيعة عثمان تختلف إلى ابن الحضرمىّ ؛ والقصر خالٍ منّا ومنهم ، فارفع ذلك إلى أمير المؤمنين ، لِيَرَى فيه رأيه ، وأعجِل إلىّ بالذى ترى أن يكون منه فيه . والسلام عليك وَرحمة الله وبركاته .

قال : فرفع ذلك ابنُ عباس إلى علىّ عليه السلام ، وشاع فى الناس بالكوفة ما كان من ذلك ، وكانتْ بنو تميم وقيس ، ومَنْ يرى رأى عثمان قد أمرُوا ابن الحضرمىّ أن يَسير إلى قصر الإمارة حين خَلّاه زياد ، فلما تهيّأ لذلك ودعا أصحابَه ، ركبت الأزد ، وبعثت إليه وإليهم : إنا والله لا نَدَعكم تأتونَ القصر فتنزلون فيه مَنْ لا نَرْضَى ، ومَنْ نحن له كارهون؛ حتى يأتىَ رجل لنا ولكم رضا، فأبى أصحابُ ابن الحضرمىّ إلا أنْ يسيروا إلى القصر، وأبت الأزد إلا أن يمنعوهم . فركب الأحنف ، فقال لأصحاب ابنِ الحضرمىّ : إنكم والله

(١) ب : « للأمين » .

ما أنتم أحقّ بقصر الإمارة من القوم ، وما لكم أن تؤمِّروا عليهم مَنْ يكرهونه ، فانصرفوا عنهم : ففعلوا ، ثم جاء إلى الأزد ، فقال : إنه لم يكن ما تكرهون ، ولا يُؤْتَى إلّا ما تُحِبّون ؛ فانصرفوا رحمكم الله ، ففعلوا .

***

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبد الله بن أبي سيف ، عن الكلبيّ ، أنّ ابن الحضرميّ لما أتى البصرة ، ودخلها نزل في بني تميم في دار سنبيل[1] ، ودعا بني تميم وأخلاط مُضَر ، فقال زياد لأبي الأسود الدؤليّ : أما ترى ما صَغَى[2] أهلُ البصرة إلى معاوية ؛ وما في الأزْد لي مطمع ؛ فقال : إن كنتَ تركتهم لم ينصروك ، وإن أصبحت فيهم منعوك .

فخرج زيادٌ من ليلته ، فأتى صَبْرة بن شَيْمان الحُدانيّ الأزديّ ، فأجاره ، وقال له حين أصبح : يا زياد ؛ إنه ليس حسنا بنا أن تقيم فينا مختفياً أكثر من يومك هذا ؛ فأعدّ له منبرا وسريرا في مسجد الحُدّان ، وجعل له شُرَطاً ، وصلى بهم الجمعة في مسجد الحُدّان .

وغلب ابنُ الحضرميّ على ما يليه من البصرة وجَباها ، وأجمعت الأزد على زياد ، فصعِد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا معشر الأزد ، إنكم كنتم أعدائي فأصبحتم أوليائي ، وأوْلى الناس بي . وإني لو كنت في بني تميم وابنُ الحضرميّ فيكم لم أطمعْ فيه أبدا وأنتم دونه ، فلا يطمع ابنُ الحضرميّ فيّ وأنتم دوني ، وليس ابنُ آكلةِ الأكباد في بقية الأحزاب وأولياء الشيطان بأدْنَى إلى الغلبة من أمير المؤمنين في المهاجرين والأنصار ؛ وقد أصبحت فيكم مضمونا ، وأمانة مؤدّاة ، وقد رأينا وقْعتكم يوم الجمل ، فاصبِروا مع الحقّ صبرَكم مع الباطل ؛ فإنكم لا تُحْمَدون إلا على النجدة ، ولا تُعْذَرون على الجبن .

فقام شَيْمان أبو صبرة — ولم يكن شهد يوم الجمل ، وكان غائبا — فقال : يامعشرَ الأزد ،

(١) في الأصول : « سبيل » ، والصواب ما أثبته من تاريخ الطبري ٥ : ١١٢ .
(٢) ب : « صغو أهل البصرة » .

ما أبقت عواقب الجمل عليكم إلا سوء الذكر ، وقد كنتم أمس على علىّ عليه السلام ، فكونوا اليوم له ، واعلموا أنّ إسلامكم له ذلّ ، وخذلانكم إياه عار ، وأنتم حىٌّ مضماركم الصبر ، وعاقبتكم الوفاء ؛ فإن سار القوم بصاحبهم فسيرُوا بصاحبكم ، وإن استمدُّوا معاوية ، فاستمدّوا عليا عليه السلام ، وإن وَادَعُوكم فوادِعُوهم .

ثم قام صبرة ابنه ، فقال : يا معشر الأزْد ، إنا قلنا يومَ الجمل : نمنع مِصْرنا ، ونطيع أمّنا ، نطلب دم خليفتنا المظلوم ، فجَدَدْنا فى القتال ، وأقمنا بعد انهزام الناس ، حتى قُتِل منا مَنْ لا خير فينا بعده ، وهذا زياد جارُكم اليوم ، والجار مضمون ، ولسنا نخاف من علىّ ما نخاف من معاوية ، فهَبُوا لنا أنفسكم ، وامنعوا جاركم أو فأبلِغوه مأمنه .

فقالت الأزد : إنما نحن لكم تبع فأجيروه . فضحك زياد ، وقال : ياصبرة ، أتخشون ألاّ تقوموا لبنى تميم ! فقال صبرة : إن جاءونا بالأحنف جئناهم بأبى صَبْرة ، (١) وإن جاءونا بالحباب جئت أنا ؛ وإن كان فيهم شباب كثير (١) . فقال زياد : إنما كنت مازحا .

فلما رأت بنو تميم أنّ الأزدَ قد قامت دون زياد بعثتْ إليهم : أخرجوا صاحبكم ونحن نخرج صاحبنا ، فأىّ الأميرين غَلَب — علىّ أو معاوية — دخلنا فى طاعته ، ولا نهلِك عامّتنا .

فبعث إليهم أبو صبرة : إنما كان هذا يُرْجى عندنا قبل أن نجيره ، ولعمرى ما قَتْل زياد وإخراجه إلا سواء ؛ وإنكم لتعلمون أنّا لم نُجِرْه إلا كرما ، فالهوا عن هذا .

* * *

قال : وروى أبو الكَنود أنّ شَبث بن رِبعىّ قال لعلىّ عليه السلام : ياأميرالمؤمنين ، ابعث إلى هذا الحىّ من تميم ، فادْعُهم إلى طاعتك ، ولزوم بيعتك ، ولا تسلّط عليهم أزْدَعُمان البُعداء البُغضاء ؛ فإن واحدا من قومك خيرٌ لك من عشرة من غيرهم .

(١ــ١) كذا فى الأصول ، وفى العبارة غموض .

فقال له مِخْنَف بن سليم الأزدىّ : إن البعيد البغيض ، من عَصَى الله وخالف أمير المؤمنين ، وهم قومك ، وإن الحبيب القريب مَنْ أطاع الله ونصر أمير المؤمنين ، وهم قومى ، واحدُهم خيرٌ لأمير المؤمنين من عشرة من قومك .

فقال أمير المؤمنين عليه السلام : مه ! تناهوْا أيها الناس، وليردَعْكم الإسلام ووقارُه عن التباغى والتهاذى ، ولتجتمِع كلمتكم ، والزَموا دينَ الله الذى لا يقبل من أحد غيره، وكلمة الإخلاص التى هى قوام الدين ، وحجة الله على الكافرين ؛ واذكروا إذ كنتم قليلاً مشركين متباغضين متفرّقين ، فألّف بينكم بالإسلام فكثُرتم ، واجتمعتم وتحاببتم . فلا تفرّقوا بعد إذ اجتمعتم، ولا تتباغضوا بعد إذ تحاببتم؛ وإذا رأيتم الناس بينهم النائرة[1] وقد تداعَوا إلى العشائر والقبائل؛ فاقصِدوا لهامهم ووجوههم بالسّيف حتى يفزَعوا إلى الله، وإلى كتابه وسنة نبيّه ؛ فأمّا تلك الحميّة من خَطَرات الشياطين فانتهوا عنها ، لا أبا لكم تفلحوا وتنجحوا !

ثم إنه عليه السلام دعا أعْيَن بن ضُبَيعة المجاشعىّ ، وقال : يا أعْيَن ، ألم يبلغك أن قومَك وثبوا على عاملى مع ابن الحضرمىّ بالبصرة ، يَدْعُون إلى فراق وشقاق ويساعدون الضُّلاّل القاسطين علىّ !

فقال : لَا تُسَأْ يا أمير المؤمنين ، ولا يكن ماتكره . ابعثنى إليهم ؛ فأنا لك زعيم بطاعتهم وتفريق جماعتهم ، ونَفْىِ ابن الحضرمىّ من البصرة أو قتله .

قال : فاخرج الساعة .

فخرج من عنده ومضى حتى قدم البصرة .

---

(١) النائرة : الفتنة .

هذه رواية ابن هلال صاحب كتاب الغارات .

* * *

وروى الواقدىّ أن عليا عليه السلام،استنفرَ بنى تميم أياماً لينهض منهم إلى البصْرة مَنْ يكفيه أمرَ ابن الحضرمىّ ، ويردّ عادية بنى تميم الذين أجاروه بهـا ، فلم يُجبه أحد ، فخطبهم ، وقال : أليس من العَجَب أن ينصرَنى الأزد ، وتخذُلَنى مضر ! وأعجب من ذلك تقاعدُ تميم الكوفة بى ، وخلاف تميم البَصْرة علىّ ، وأن أستنجد بطائفة منها ، تشخص إلى إخوانها فتدعوهم إلى الرشاد ، فإن أجابت وإلّا فالمنابذة والحرب . فـكأنى أخاطبُ صُماً بُـكماً لايفقهون حِواراً ، ولايجيبون نداء ؛ كلُّ هذا جبناً عن البأس،وحُبًّا للحياة ؛ لقد كنا مع رسول الله صـلى الله عليـه وآله نقتُل آباءنا وأبنـاءنا . . . . . . الفصل إلى آخره .

قال : فقام إليه أعين بن ضُبَيْعة المجاشعىّ ، فقال : أنا ــ إنْ شاء الله ــ أكفيك يأمير المؤمنين هذا الخَطْب، وأتـكفّلُ لك بقتل ابن الحضرمىّ ، أو إخراجه عن البصرة. فأمره بالتّهَيّؤ للشخوص ؛ فشَخص حتى قدم البصرة .

* * *

قال إبراهيم بن هلال : فلما قدمها دخلَ على زياد وهو بالأزْد مقيم،فرحّب به وأجلسه إلى جانبه ، فأخبره بما قال له علىّ عليه السلام ، وما رَدّ عليه ، وما الذى عليه رأيه ؛ فإنه إذ يكلّمه جاءه كتاب من علىّ عليه السلام فيه :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى زياد بن عبيد :

سلام عليك ، أما بعـد ؛ فإنى قد بعثت أعْين بن ضُبيعة ، ليفرّق قومَه عن ابن الحضرمىّ ، فارقُبْ ما يكون منه ؛ فإن فعل وبلغ من ذلك مايظنّ به ، وكان فى ذلك تفريق تلك الأوباش فهو مانحبّ ، وإن ترامت الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان ،

فانبذْ بمن[1] أطاعك إلى مَنْ عصاك ؛ فجاهدْهم ، فإن ظهرتَ فهو ماظننت ، وإلّا فطاوِلْهم وماطِلْهم ؛ فكأنّ كتائب المسلمين قد أطلّت عليك ، فقَتَل الله المفسدين الظالمين ، ونصر المؤمنين المحقّين ، والسلام .

فلما قرأه زياد أقرأه أعين بن ضُبَيعة ، فقال له : إنى لأرجو أن يُكفَى هذا الأمر إن شاء الله . ثم خرج من عنده ؛ فأتى رَحْله ، فجمع إليه رجالا من قومه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ياقوم ، على ماذا تقتلون أنفسكم ، وتُهريقون دماءكم على الباطل مع السفهاء الأشرار ! وإنى والله ماجئتُكم حتّى عَبَّيْت إليكم الجنود ؛ فإن تُنيبوا إلى الحقّ يقبل منكم ، ويكفّ عنكم ؛ وإن أبيتم فهو والله استئصالكم وبَوَارُكم .

فقالوا : بل نسمع ونطيع . فقال : انهضوا الآن على بركة الله عزّ وجل . فنهض بهم إلى جماعة ابن الحضرمىّ ، فخرجوا إليه مع ابن الحضرمىّ فصافّوه وواقفهم[2] عامة يومه يُناشدهم الله ، ويقول : ياقوم لا تنكُثُوا بَيْعتكم ، ولا تخالفوا إمامَكم ، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا ؛ فقد رأيتم وجرَّبتم كيفَ صنع الله بكم عند نَكْثكم بيعتكم وخلافِكم .. فكفّوا عنه ، ولم يكن بينه و بينهم قتال ؛ وهم فى ذلك يشتمونه وينالون منه ، فانصرف عنهم وهو منهم منتصف . فلما أوى إلى رحله تَبعه عشرة نفر يظنّ الناس أنّهم خوارج ، فضربوه بأسيافهم وهو على فراشه ، ولا يظن أنّ الذى كان يكون ، فخرج يشتدّ عُريانا ، فلحقوه فى الطريق فقتلوه ، فأراد زياد أن يناهضَ ابنَ الحضرمى حين قتل أعين بجماعة مَنْ معه من الأزد وغيرهم من شيعة علىّ عليه السلام ، فأرسل بنو تميم إلى الأزد : والله ماعرضْنا لجاركم إذ أجرتموه ، ولا لمالٍ هُوَ لَهُ ، ولا لأحدٍ ليس على رأينا ؛ فما تريدون

---

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « من » .
(٢) صافوه ؛ أى وقفوا صفوفا ويقال : واقفه فى الحرب ؛ أى وقف كل منهما مع الآخر .

إلى حرْبنا وإلى جارنا ! فكأنّ الأزد عند ذلك كَرِهَتْ قتالهم .

فكتب زياد إلى علىّ عليه السلام : أما بعد ياأميرَ المؤمنين ، فإن أعْيَن بن ضُبيعة قدِم علينا مِنْ قِبَلك بجدّ ومناصحة وصدق ويقين ، فجمع إليه مَنْ أطاعه من عشيرته ، فحثهم على الطاعة والجماعة، وحذّرهم الخلاف والفرقة ، ثم نهض بمَنْ أقبل معه إلى مَنْ أدبر عنه ، فواقفهم عامّة النهار ، فهالَ أهلَ الخلاف تقدُّمُه ، وتصدّع عن ابن الحضرمىّ كثير ممّنْ كان يريد نُصرته ، فكان كذلك حتى أمسى ، فأتى فى رَحْله فبيّته نفر من هذه الخارجة المارقة ، فأصيب رحمه الله تعالى ، فأردتُ أنْ أناهضَ ابنَ الحضرمى عند ذلك، فحدث أمرٌ ، قد أمرتُ صاحب كتابى هذا أن يذكره لأمير المؤمنين، وقد رأيتُ إنْ رأى أميرُ المؤمنين مارأيت ، أن يبعث إليهم جارية بن قُدامة ، فإنه نافذ البصيرة ، ومطاع فى العشيرة ، شديدٌ على عدوّ أمير المؤمنين ، فإنْ يقدُم يفرّق بينهم بإذن الله . والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فلما جاء الكتاب ، دعا جارية بن قُدامة ، فقال له : يابنَ قدامة ، تمنع الأزد عاملى وبيت مالى ، وتشاقّنى مضر وتنابذنى ! وبنا ابتدأها الله تعالى بالكرامة ، وعرّفها الهدى، وتداعَوْا إلى المعشر الذينَ حادّوا الله ورسوله ، وأرادوا إطفاء نور الله سبحانه ، حتى علَتْ كلمة الله ، وهلك الكافرون .

فقال : ياأمير المؤمنين ، ابعثنى إليهم ، واستَعِنْ بالله عليهم . قال : قد بعثتك إليهم، واستعنت بالله عليهم .

***

قال إبراهيم : فحدثنا محمد بن عبد الله ، قال : حدثنى ابنُ أبى السيف ، عن سليمان ابن أبى راشد ، عن كعب بن قُعين ، قال : خرجتُ مع جارية من الكوفة إلى البَصْرة

فى خمسين رجلا من بنى تميم ، ما كان فيهم يمانىٌّ غيرى ، وكنتُ شديدَ التشيُّع ، فقلت لجارية : إن شئتَ كنتُ معك ، وإن شئتَ ملتُ إلى قومى ! فقال : بل معى ؛ فوالله لوَدِدْت أنّ الطير والبهائم تنصرُنى عليهم ، فضلا عن الإنس .

***

قال : وروى كعب بن قعين أنّ عليًّا عليه السلام كتب مع جارية كتابا ، وقال : اقرأه عَلَى أصحابك ، قال : فمضينا معه ، فلمادخلْنا البصرة ، بدأ بزياد ، فرحّب به وأجلَسه إلى جانبه ، وناجاهساعة وساءلَهُ ، ثم خرج فكان أفضلَ ماأوصاه به أنْ قال : احذَرْ على نفسك ، واتّقِ أن تَلْقَى مالقِيَ صاحبُك القادمُ قَبْلك .

وخرج جارية من عنده ، فقام فى الأزد ، فقال : جزاكم الله من حَىّ خيرا ! ماأعظَمَ غَناءكم ، وأحسنَ بلاءكم ، وأطوَعكم لأميركم ! لقد عرفتم الحقّ إذ ضَيّعه مَنْ أنكره ، ودَعَوْتم إلى الهدى إذ تركه مَنْ لم يعرفه . ثم قرأ عليهم وعلى مَنْ كان معه من شيعة علىّ عليه السلام وغيرهم ــ كتابَ علىٍّ عليه السلام ، فإذا فيه :

من عبد الله علىٍّ أميرالمؤمنين إلى مَنْ قرئَ عليه كتابى هذا من ساكِنى البصرةمن المؤمنين والمسلمين :

سلام عليكم ، أما بعد فإنّ الله حَليم ذو أناةٍ ، لايَعْجَلُ بالعقوبة قَبْل البيّنة،ولا يأخذ المذنب عند أول وَهْلة ، ولكنه يقبل التوبة ، ويستديم الأناة ، ويرضى بالإنابة ؛ليكون أعظمَ للحجّة ، وأبلغ فى المعذرة ؛ وقد كان من شقاق جُلّكم أيها الناس مااستحققتم أنْ تعاقَبوا عليه، فعفوت عن مجرمكم ،ورفعت السّيْفَ عن مُدْبركم ، وقبلت من مُقْبلكم، وأخذت بيعتكم ، فإن تَفُوا ببيْعتى ، وتقبلُوا نصيحتى ، وتستقيموا على طاعتى ، أعملْ

فيكم بالكتاب والسنة وقَصْد الحق ، وأُقِمْ فيكم سبيل الهدى ، فو الله ما أعلم أنّ والياً بعد محمد صلى الله عليه وآله أعلمُ بذلك منّي ، ولا أعمل بقولى . أقول قولى هذا صادقاً ، غيرَ ذامٍّ لمن مضى ، ولا منتقصاً لأعمالهم ، وإن خَبَطَتْ(١) بكم الأهواء المُرْدِية ، وسَفَهُ الرأى الجائر إلى منابذتى ، تريدون خلافى ! فها أنا ذا قرّبْتُ جيادى ، وَرَحَلْت ركابى ، وايمُ الله لئن ألجأتمونى إلى المسير إليكم لأُوقِعَنّ بكم وَقْعَةً ، لا يكون يوم الجمل عندها إلا كلَعْقَةِ لاعق ، وإنى لظانّ ألّا تجعلوا — إن شاء الله — على أنفسكم سبيلا . وقد قدّمت هذا الكتاب إليكم حجة عليكم ، ولنْ أكتبَ إليكم من بعده كتابا ، إن أنتم استغششتم نصيحتى ، ونابذْتُم رسولى ، حتى أكونَ أنا الشّاخص نحوكم ، إن شاء الله تعالى . والسلام .

قال : فلما قرئ الكتاب على الناس قام صَبْرة بن شَيْمان ، فقال : سمعنا وأطعنا ، ونحن لمنْ حارب أمير المؤمنين حَرْب ، ولمن سالم سِلْم ؛ إن كَفيْتَ ياجارية قومَك بقومك فذاك ، وإن أحببت أنْ ننصرك نصرناك .

وقام وجوه الناس فتكلموا بمثل ذلك ونحوه ، فلم يأذن لأحدٍ منهم أن يسير معه ، ومضى نحو بنى تميم .

فقام زياد فى الأزد ، فقال :

يا معشر الأزد ، إنّ هؤلاء كانوا أمس سِلما ، فأصبحوا اليوم حربا ، وإنكم كنتم حَرْبا فأصبحتم سلما ، وإنى والله ما اخترتكم إلا على التجربة ، ولا أقمت فيكم إلا على الأمل ، فما رضيتم أن أجرتمونى ، حتى نصبتم لى منبرا وسريرا ، وجعلتم لى شُرَطا وأعوانا ، ومناديا وجمعة ، فما فقدت بحضرتكم شيئا إلا هذا الدرهم ، لا أجْبِيهِ اليوم ، فإن لم أجْبِه اليوم أجْبِه غدا إن شاء الله . واعلموا أنّ حربكم اليومَ معاوية أيسر عليكم فى الدنيا والدين من حربكم أمس عليًّا ، وقد قدم عليكم جارية بن قدامة ، وإنما أرسله علىّ

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « خطت » .

ليصدَع أمرَ قومه،والله ماهو بالأمير المطاع،ولو أدرك أمله فى قومه لرجع إلى أمير المؤمنين أو لـكان لى تبعًا ، وأنتم الهامةُ العظمى ، والجرة[1] الحامية ، فقدِّموه إلى قومه ، فإن اضطر إلى نصركم فسيروا إليه ، إن رأيتم ذلك .

فقام أبو صبرة شَيْمان فقـال : يازياد ، إنى والله لو شهدتُ قومى يومَ الجمل ، رجوتُ ألّا يقاتلوا عليا ، وقد مضى الأمرُ بما فيـه . وهو يوم بيوم ، وأمْر بأمر ، والله إلى الجزاء بالإحسان أسرعُ منه إلى الجزاء بالسّيِّء ، والتوبة مع الحقّ ، والعفو مع الندم، ولو كانت هذه فتنة لدعوْنا القوم إلى إبطال الدماء ، واستئناف الأمور ، ولـكنها جماعة دماؤها حرام ، وجرُوحها قصاص ، ونحن معك نحبّ ما أحببتَ .

فعجب زياد من كلامه ، وقال : ما أظنّ فى الناس مثل هذا .

ثم قام صبرة ابنه ، فقال : إنا والله ما أُصِبْنا بمصيبة فى دين ولا دنيا كما أُصِبْنا أمس يوم الجمل ، وإنا لنرجو اليوم أن نُمَحّص ذلك بطاعة الله وطاعة أمير المؤمنين ، وأمّا أنتَ يازياد ، فوالله ما أدركت أمَلك فينا ، ولا أدركْنا أملنا فيك دُون رَدّك إلى دارك ، ونحن رادّوك إليها غدا إن شاء الله تعالى ، فإذا فعلنا فلا يكن أحدٌ أوْلَى بك مِنّا ، فإنك إلا تفعل لم تأت مايشبهك[2] ، وإنا والله نخاف من حرب علىّ فى الآخرة ، مالا نخاف من حرب معاوية فى الدنيا ، فقدّم هواك وأخِّر هوانا ، فنحن معك وطوعك .

ثم قام خنفَر[3] الحمانىّ ، فقال:أيُّها الأمير،إنّك لو رضيت مِنّا بما ترضى به من غيرنا، لم نرض ذلك لأنفسنا،سِرْ بنا إلى القوم إن شئت،وايمُ الله مالقينا قومًا[4] قطّ إلا اكتفينا بعفونا دون جَهْدنا ؛ إلا ما كان أمس .

(١) الجرة : كل جماعة انضموا فصاروا يداً واحدة ولم يحالفوا غيرهم .
(٢) ج : « تشبهه » .
(٣) كذا فى ب ، وفى ج : « حيقن » .
(٤) ب : « يوما » .

قال إبراهيم : فأمّا جارية، فإنّه كلّم قومه فلم يجيبوه ، وخرج إليه منهم أوباشٌ[1] فناوشوه بعد أنْ شتموه وأسمعوه ، فأرسل إلى زياد والأزْد ، يستصرِخهم ويأمرهم أن يسيروا إليه ، فسارت الأزْد بزياد ، وخرج إليهم ابنُ الحضرمىّ ، وعلى خيله عبد الله بن خازم السُّلمىّ ، فاقتتلوا ساعة ، وأقبل شريك بن الأعور الحارثىّ ـ وكان من شيعة علىّ عليـه السلام ، وصديقا لجارية بن قدامة ـ فقال : ألا أقاتل معك عدوّك ؟ فقال : بلى ؛ فما لبثت بنو تميم أنْ هزموهم واضطروهم إلى دار سنبيل السعدى ؛ فحصروا ابنَ الحضرمىّ وحدّوه ، فأتى رجل من بنى تميم ، ومعه عبد الله بن خازم السلمىّ ، فجاءت أمه وهى سوداء حبشية اسمها عجلى ، فنادته ، فأشرف عليها ، فقالت : يا بُنَىّ ، انزل إلىّ ، فأبى فكشفت رأسها وأبدت قِناعها ، وسألته النزول فأبى ، فقالت : والله لتنزلنّ أو لأتعرّينّ ، وأهوت بيدها إلى ثيابها[2] ، فلما رأى ذلك نزَل ، فذهبت به ، وأحاط جارية وزياد بالدّار ، وقال جارية : علىّ بالنار ، فقالت الأزد : لسنا من الحريق بالنار فى شىء ؛ وهم قومُك وأنت أعلم ، فحرّق جارية الدّار عليهم ، فهلك ابنُ الحضرمىّ فى سبعين رجلا ؛ أحدهم عبدالرحمن بن عمير بن عثمان القرشى التيمىّ ؛ وسُمِّىَ جارية منـذ ذلك اليوم محرِّقا ؛ وسارت الأزْد بزياد حتى أوطئوه قصر الإمارة ؛ ومعه بيت المال ، وقالت له : هل بقى علينا مِنْ جوارك شىء ؟ قال : لا ، قالوا : فبرّئنا منـه ؟ فقال : نعم ؛ فانصرفوا عنـه . وكتب زياد إلى أمير المؤمنين عليه السلام :

أما بعد ، فإن جارية بن قدامة العبد الصالح قَدِم من عندك ، فناهَضَ جَمْع ابن الحضرمىّ بمن نصره وأعانه من الأزد ، ففضّه واضطره إلى دارٍ مِنْ دور البصرة فى عدد كثير من أصحابه ، فلم يخرج حتى حكم الله تعالى بينهما ، فقتِل ابنُ الحضرمى وأصحابه ، منهم من أحرق بالنار ؛ ومنهم من أُلقى عليه جدار ؛ ومنهم من هُدِم عليه البيت من أعلاه ؛ ومنهم من قُتِل بالسيف ، وسلم

(١) الأوباش : الأخلاط والسفلة من الناس .
(٢) ا ، ب : « ساقها » .

منهم نفر أنابوا وتابوا ، فصفح عنهم ، وبعداً لمن عصى وغوى ! والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فلما وصل كتاب زياد قرأه علىّ عليه السلام على الناس ، وكان زياد قد أنفذه مع ظَبْيان بن عُمارة ، فسرّ على عليه السلام بذلك وسُرّ أصحابه ، وأثنى على جارية وعلى الأزد ، وذمّ البصرة فقال : إنها أول القُرى خرابا ؛ إما غرقا وإما حرقا ؛ حتى يبقى مسجدها كجؤجؤ سفينة . ثم قال لظَبْيان : أين منزلك منها ؟ فقال : مكان كذا ، فقال : عليك بضواحيها .

وقال ابن العرندس الأزدىّ يذكر تحريق ابن الحضرمىّ ، ويعيِّر تميما بذلك :

رَدَدْنا زيـــاداً إلى دَارِهِ ... وجار تميم ينادى الشَّجَبْ (١)
لحا الله قوماً شَوَوْا جـــارهم ... لَعَمْرِى لبئس الشِّواء الشُّصُبْ (٢)
ينادى الخناق وأبنـــــاءها ... وقد شَيَّطُوا رأسها باللَّهَبْ

والخناق لقب قوم بنى تميم .

---

(١) الشجب : الهلاك
(٢) الشصب : الشاة المسلوخة .

(٥٦)

ومن كلام له عليه السلام لأصحابه :

الأصْلُ :

أما إنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجلٌ رَحْبُ البُلْعُوم ، مُنْدَحِقُ البَطْنِ ، يأكُلُ مَا يَجِدُ ، وَيَطْلُبُ مَا لَا يَجِدُ ، فَاقْتُلوه ـ وَلَنْ تَقْتُلوه . أَلَا وَ إِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بسبِّي والبَرَاءةِ مِنِّي ؛ فأمَّا السَّبُّ فَسُبُّونِي ؛ فإنَّهُ لِي زَكَاةٌ وَلَكُمْ نَجاةٌ ، وَأَمَّا البَرَاءةُ فَلَا تَتَبَرَّءُوا مِنِّي ؛ فإنِّي وُلِدْتُ عَلَى الفِطْرَةِ ، وَسَبَقْتُ إلى الْإِيمانِ وَالْهِجْرَةِ .

الشَّرْحُ :

مُنْدَحق البطن : بارزها ، والدَّحُوق من النوق : التي يخرج رَحِمها عند[1] الولادة . وسيظهر : سيغلب . ورحْب البُلعوم : واسعه .

وكثير من الناس يذهب إلى أنه عليه السلام عَنَى زيادا، وكثير منهم يقول : إنّه عَنَى الحجّاج . وقال قوم : إنه عَنَى المغيرة بن شعبة ؛ والأشبه عندى أنه عَنَى معاوية ، لأنه كان موصوفا بالنَّهَم وكثرة الأكل ، وكان بطينا ، يقعُد بطنُه إذا جلس على فَخِذَيه ، وكان معاوية جواداً بالمال والصِّلات ، وبخيلا على الطعام ؛ يقال : إنه مازح أعرابيًّا على طعامه ، وقد قُدِّم بين يديه خروف ، فأمعن الأعرابيّ فى أكله ، فقال له : ماذنبه إليك ، أنطحك أبوه ؟ فقال الأعرابيّ : وما حُنُوُّك عليه ؟ أأرضعتْك أمه !

وقال لأعرابيّ يأكلُ بين يديه ، وقد استعظم أكله : ألا أبغيك سكّينا ؟ فقال :

---

(١) ج : « بعد » .

كلّ امرىء سِكّينُه فى رَأْسِه ، فقال : ما اسْمُك ؟ قال : لُقيم ، قال : منها أُتيت .

كان معاوية يأكل فيكثر ، ثم يقول : ارفعوا ، فوالله ما شبعت ولكن مَلِلْت وتعبت .

تظاهرت الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه وآله دَعَا عَلَى معاوية لَمّا بعث إليه يستدعيه ، فوجده يأكل ، ثم بعث فوجده يأكل ، فقال : « اللهم لا تُشْبِع بطنه » ، قال الشاعر :

وَصَاحِبٍ لِي بَطْنُهُ كَالْهَاوِيَهْ كَأَنَّ فِي أَحْشَائِهِ مُعَاوِيَهْ

* * *

وفى هذا الفصل مسائل :

الأولى : فى تفسير قوله عليه السلام : « فاقتلوه ولن تقتلوه » فنقول : إنه لاتنافىَ بين الأمر بالشيء والإخبار عن أنه لايقع ، كما أخبر الحكيم سبحانه عَنْ أنّ أبا لَهب لايؤمن وأمَره بالإيمان ، وكما قال تعالى : ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1] ، ثم قال : ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا ﴾[2] ، وأكثر التكليفات على هذا المِنْهاج .

* * *

[مسألة كلامية فى الأمر بالشيء مع العلم بأنه لا يقع]

واعلم أن أهل العدل والمجبرة لم يختلفوا فى أنه تعالى قَدْ يأمر بما يعلم أنه لايقع ، أو يخبر عن أنه لايقع ؛ وإنما اختلفوا : هل يصحّ أن يريدَ مايعلم أنه لا يقع ، أو يخبر عنه أنه لايقع؟ فقال أصحابنا : يصحّ ذلك ، وقال المجبرة : لا يصحّ ؛ لأنّ إرادة مايعلم المريد أنه لايقع قضية متناقضة ، لأن تحت قولنا : « أراد » مفهوم أنّ ذلك المراد مما يمكن حصوله ، لأنّ إرادة المحال ممتنعة . وتحت قولنا : « إنه يعلم أنه لا يقع » مفهوم أن ذلك المراد مما لا يمكن حصوله ، لأنا قد

(١) سورة البقرة ٩٥ .

(٢) سورة الجمعة ٧ .

فرضنا أنه لا يقع وما لا يقع لا يمكن حصوله مع فرض كونه لا يقع ، فقال لهم أصحابنا : هذا يلزمكم فى الأمر ؛ لأنكم قد أجزتم أنْ يأمرَ بما يعلم أنّه لا يقع ، فقالوا فى الجواب : نحن عندنا أنه يأمر بما لا يريد ، فإذا أمر بما يعلم أنه لا يقع ، أو يخبر عن أنه لا يقع ، كان ذلك الأمر أمراً عاريا عن الإرادة ، والمحال إنما نشأ من إرادة ما علم المريد أنه لا يقع ، وها هنا لا إرادة .

فقيل لهم : هب أنكم ذهبتم إلى أن الأمر قد يَعْرَى من الإرادة مع كونه أمرا ، ألستم تقولون : إن الأمر يدلّ على الطلب ، والطلب شىء آخر غير الإرادة ! وتقولون: إن ذلك الطلب قائم بذات البارئ ، فنحن نُلزمكم فى الطلب القائم بذات البارئ ، الذى لا يجوز أن يَعْرَى[1] الأمر منه ما ألزمتمونا فى الإرادة .

ونقول لكم : كيف يجوز أن يطلب الطالب ما يعلم أنّه لا يقع ! أليس تحت قولنا: طلب مفهوم؛ أن ذلك المطلوب مما يمكن وقوعه ! فالحال فى الطلب كالحال فى الإرادة ، حَذْو النّعل بالنعل . ولنا فى هذا الموضع أبحاث دقيقة ذكرناها فى كتبنا الكلامية .

***

[فصل فيما روى من سبّ معاوية وحزبه لعلىّ]

المسألة الثانية : فى قوله عليه السلام : «يأمركم بسبِّى والبراءة منى» ، فنقول : إن معاوية أمر الناس بالعراق والشام وغيرهما بسبّ علىّ عليه السلام والبراءة منه .

وخطب بذلك على منابر الإسلام ، وصار ذلك سنة فى أيام بنى أمية إلى أنْ قام عمر ابن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه فأزاله . وذكر شيخنا أبو عثمان الجاحظ أن معاوية كان يقول فى آخر خطبة الجمعة : اللهم إنّ أبا تراب ألحد فى دينك ، وصدّ عن سبيلك

(١) ا : «يتعرى» .

فالعنه لعنا وبيلا ، وعذبه عذابا أليما . وكتب بذلك إلى الآفاق ، فكانت هذه الكلمات يُشاربها على المنابر ؛ إلى خلافة عمر بن عبد العزيز .

وذكر أبو عثمان أيضاً أنّ هشام بن عبد الملك لما حجّ خطب بالموسم ، فقام إليه إنسان ، فقال: ياأمير المؤمنين ، إن هذا يومٌ كانت الخلفاء تستحبّ فيه لعنَ أبي تراب ، فقال : اكفف ، فما لهذا جئنا .

وذكر المبرّد في "الكامل" أن خالد بن عبد الله القسريّ لمّا كان أمير العراق في خلافة هشام ، كان يلعن عليّا عليه السلام على المِنْبر ، فيقول : اللهمّ الْعن عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، صهر رسول الله صلى عليه وآله على ابنته ، وأبا الحسن والحسين ! ثم يقبل على الناس ، فيقول هل كَنَّيت[1] !

وروى أبو عثمان أيضاً أنّ قوماً من بني أميّة قالوا لمعاوية : ياأمير المؤمنين ، إنّك قد بلغتَ ماأمّلت ، فلو كففت عن لَعْن هذا الرجل ! فقال : لا والله حتى يربوَ عليه الصغير ، ويهرم عليه الكبير ، ولا يذكر له ذاكرٌ فضلا !

وقال أبو عثمان أيضاً : وما كان عبد الملك — مع فَضْله وأناته وسَدَاده ورُجْحانه — ممن يخفى عليه فضلُ عليّ عليه السلام ، وأنّ لعنه على رءوس الأشهاد ، وفي أعطاف الخطب، وعلى صَهَوات المنابر مما يعود عليه نقصه ، ويرجع إليه وهنه ؛ لأنهما جميعا من بني عبد مناف؛ والأصل واحد، والجرثومة منبت لهما ، وشرف عليّ عليه السلام وفضله عائد عليه، ومحسوب له ، ولكنه أراد تشييدَ الملك وتأكيدَ مافعله الأسلاف ، وأن يقرّر في أنفُس الناس أنّ بني هاشم لاحَظّ لهم في هذا الأمر ، وأنّ سيّدَهم الذي به يصولون ، وبفخره يفخرون ،

(١) الكامل ٤١٤ (طبع أوربا) .

هذا حاله وهذا مقداره ، فيكون مَنْ ينتمِي إليه ويُدْلِى به عن الأمر أبعد ، وعن الوصول إليه أشْحَط وأنزَحَ .

وروى أهل السِّيرة أن الوليد بن عبد الملك فى خلافته ذكر عليا عليه السلام ،فقال : لعنه « اللهِ — بالجر — كان لص ابن لص » .

فعجب النـاس من لَحْنه فيما لا يلحن فيه أحد ، ومِنْ نسبته عليـا عليه السلام إلى اللصوصّية وقالوا : ماندرى أيّهما أعجب ! وكان الوليد لّحانا .

وأمر المغيرة بن شعبة — وهو يومئذ أمير الـكوفة مِنْ قِبَل معاوية — حُجْر بن عدىّ أن يقوم فى الناس ، فليلعنَ عليا عليه السلام ، فأبى ذلك ، فتوعده ، فقام فقال : أيّهـا الناس ، إن أميركم أمرنى أن ألعن عليا فالعنوه فقال أهل الـكوفة : لعنه الله ، وأعاد الضمير إلى المغيرة بالنية والقصد .

وأراد زياد أن يَعْرِض أهلَ الـكوفة أجمعين على البراءة من علىّ عليه السلام ولعنه وأن يقتُلَ كلَّ من امتنع من ذلك ، ويُخرِّب منزله ، فضربه الله ذلك اليوم بالطاعون ، فمات — لا رحمه الله — بعد ثلاثة أيام ، وذلك فى خلافة معاوية .

وكان الحجاج — لعنه الله — يلعنُ عليًّا عليه السلام ، ويأمر بلعنه . وقال له متعرِّض به يوماوهو راكب : أيها الأمير ، إن أهلِى عقّونى فسمّونى عليا ، فغيِّر اسمى ، وصِلْنى بماأتبلّغ به فإنى فقير . فقال : لِلُطف ماتوصلت به قد سمّيتُك كذا ، ووليتك العمل الفلانىّ فاشْخَصْ إليه .

***

فأما عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فإنه قال : كنت غلاما أقرأ القرآن على بعض ولد عُتبة بن مسعود ، فمرّ بى يوما وأنا ألعب مع الصبيان ، ونحن نلعنُ عليًّـا ،

فكره ذلك ودخل المسجد، فتركت الصبيان وجئت إليه لأدرس عليه وردي ، فلما رآني قام فصلّى وأطالَ في الصلاة ـ شِبْه المعرض عَنِّي ـ حتى أحسست منه بذلك ، فلما انفتل من صلاته كَلَح في وجهي ، فقلت له : مابال الشيخ ؟ فقال لي : يابنيّ ، أنت اللاعن عَليًّا منذ اليوم ؟ قلت : نعم ، قال: فمتى علمتَ أن الله سَخِط على أهل بدر بعد أن رَضِيَ عنهم! فقلت : يا أبت ، وهل كان عليّ من أهل بدر ! فقال : ويحك ! وهل كانت بدر كلُّها إلا له ! فقلت: لا أعود ، فقال : اللهَ أنك لاتعود ! قلت : نعم فلم ألعنه بعدها . ثم كنتُ أحضر تحت مِنْبر المدينة ، وأبي يخطب يوم الجمعة ـ وهو حينئذ أمير المدينة ـ فكنت أسمع أبي يمر في خُطَبه تهدِر شقاشقه، حتى يأتيَ إلى لعن عليّ عليه السلام فيجمْجِمُ، ويعرض له من الفهاهة والحصَر ماالله عالم به ، فكنت أعجب من ذلك، فقلت له يوما : ياأبتِ ، أنت أفصحُ الناس وأخطبهم ، فما بالِي أراك أفصحَ خطيب يوم حَفْلك ، حتى إذا مررت بلعن هذا الرجل، صِرْتَ ألكن عايًّا ! فقال : يابنيّ ، إنّ مَنْ ترى تحت منبرنا من أهل الشام وغيرهم ، لو علموا من فضل هذا الرجل مايعلمه أبوك لم يتبعنا منهم أحد . فوقرت كلمتُه في صدري ؛ مع ما كان قاله لي معلمي أيام صِغَري ، فأعطيت الله عهدا ؛ لئن كان لي في هذا الأمر نصيب لأغيِّرنه ، فلما منّ الله عليّ بالخلافة أسقطت ذلك ، وجعلت مكانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) ، وكتب به إلى الآفاق فصار سنّة .

وقال كثيّر بن عبد الرحمن يمدح عُمَرَ ويذكر قطعه السبَّ :

وَليت فلم تشتِم عليًّا ولم تُخِفْ ... بريًّا ولم تقبَلْ إساءةَ مُجْرِم (٢)

وكفّرت بالعفو الذنوب مع الذي ... أتيتَ فأضحى راضياً كلُّ مسلِم

---

(١) سورة النحل ٩٠

(٢) الأغاني ٩ : ٢٥٨ (طبعة الدار) مع اختلاف في الرواية .

ألا إنما يكفى الفتى بعد زيغه   من الأود البادى ثقافُ المقوّمِ
وما زلتَ توّاقا إلى كلّ غاية   بلغت بهـا أعلى العلاء المقدّمِ
فلما أتاك الأمر عفواً ولم يكنْ   لطالبِ دنيا بعدَهُ مِنْ تكلّمِ
تركتَ الذى يفنَى لأنْ كانَ بائدا   وآثرت ما يَبْقى برأيِ مصمّمِ

وقال الرضىّ أبو الحسن رحمه الله تعالى :

يابْنَ عَبْدِالعَزِيزِ لَوْ بَكَتِ العَيْـنُ فَتًى مِنْ أُمَيَّةٍ لَبَكَيْتُكْ (١)
غَيرَ أنى أقول إنّكَ قَدْ طِبْـتَ وإن لم يَطِبْ ولَمْ يَزْكُ بيتُكْ
أنتَ نزّهتَنا عن السبّ والقذْ   فِ؛ فلو أمكنَ الجزاء جزَيْتُكْ
ولو أنّى رأيت قـبرك لاستحـيتُ مِنْ أن أرَى وَمَا حَيّيْتُكْ
وقليـلٌ أنْ لو بذلْتُ دماء الـبُدن صِرْفًا على الذُّرا وَسَقَيْتُكْ
دَيْرَ سَمْعان: فيك مأوى أبى حفـ   صٍ بودّى لو أننى آويتُكْ
دَيْرَ سَمْعَانَ ، لا أغبَّك غيثٌ   خَيْرُ مَيْتٍ من آل مَرْوَانَ مَيْتُكْ (٢)
أنْتَ بالذِّكْرِ بَيْنَ عَيْنِى وَقَلْبِى   إنْ تدانيتُ مِنْكَ أو إنْ نأيتُكْ
وإذا حرّك الحشـا خاطرٌ منـك توهّمتُ أنّنِى قد رأيتُكْ
وعجيب أنى قَلَيْتُ بَنِى مَرْ   وان طُرًّا وأنّنِى ما قليتُكْ
قرّب العدلُ منك لما نأى الجوْ   رُ بهم فاجتويتُهمْ واجْتَبيتُكْ
فَلَوَ أنّى ملكتُ دفعـا لمانا   بك من طارقِ الردى لفَدَيْتُكْ

* * *

---

(١) ديوانه لوحة ١٢٤
(٢) دير سمعان ، بكسر السين وفتحها ؛ دير بنواحى دمشق عنده قبر عمر بن عبد العزيز. (ياقوت)

وروى ابن الكلبيّ ، عن أبيه ، عن عبد الرحمن بن السائب ، قال : قال الحجاج يوما لعبد الله بن هانىء ، وهو رجل من بنى أوْد — حيّ من قَحْطان — وكان شريفا فى قومه ، قد شهد مع الحجاج مشاهده كلّها ، وكان من أنصاره وشيعته : والله ما كافأتك بعد ! ثم أرسل إلى أسماء بن خارجة سيّد بنى فزارة : أنْ زَوِّجْ عبد الله بن هانئ بابنتك ، فقال : لا والله ولا كرامة ! فدعا بالسياط ، فلما رأى الشرّ قال : نعم أزوّجه ، ثم بعث إلى سعيد بن قيس الهَمْدانىّ رئيس اليمانية : زَوِّج ابنتك من عبد الله بن أوْد ، فقال : ومَنْ أوْد ! لا والله لا أزوّجه ولا كرامة ! فقال : علىّ بالسيف ، فقال : دَعْنِى حتى أشاور أهلى ، فشاورهم ، فقالوا : زَوِّجْه ولا تعرِّض نفسك لهذا الفاسق ، فزوّجه . فقال الحجاج لعبد الله : قد زوّجْتُك بنت سيّد فزارةَ وبنت سَيّد همدان ، وعظيم كهلان وما أوْدٌ هناك ! فقال : لا تَقُلْ أصلح الله الأمير ذاك ! فإنّ لنا مناقبَ ليست لأحدٍ من العرب ، قال : وما هى ؟ قال : ما سُبَّ أمير المؤمنين عبد الملك فى نادٍ لنا قطّ ، قال : منقبة والله ، قال : وشهد مِنّا صِفِّين مع أمير المؤمنين معاوية سبعون رجلا ، ما شهد منا مع أبى تراب إلا رجل واحد ، وكان والله ما علمته امْرَأ سوء ، قال : منقبة والله ، قال : ومنّا نسوة نَذَرْن : إن قتل الحسين بن على أنْ تنحر كلّ واحدة عشر قلائص ، ففعلن ، قال : منقبة والله ، قال : وما مِنّا رجل عُرِضَ عليه شَتْم أبى تراب ولعنه إلا فعل وزاد ابنيْه حسنا وحسينا وأمهما فاطمة ، قال : منقبة والله ؛ قال : وما أحدٌ من العرب له من الصباحة والملاحة مالنا ، فضحك الحجاج ، وقال : أما هذه يا أبا هانئ فدعها . وكان عبدُ الله دميا شديد الأُدْمة [1] مجدورا ، فى رأسه عَجَر ، مائل الشِّدق ، أحوَل ، قبيح الوجه ، شديد الحوَل .

* * *

وكان عبد الله بن الزبير يُبْغض عليا عليه السلام ، وينتقِصه وينال من عِرْضه .

(١) الأدمة : السمرة .

(٢) عجر ؛ أى نتوء .

وروى عمر بن شبّة وابنُ الكلبيّ والواقديّ وغيرهم من رواة السير ، أنه مكث أيامَ ادّعائه الخلافة أربعين جمعة لا يصلِّى فيها على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقال : لا يمنعنى من ذِكْره إلا أن تشمَخَ رجال بآنافها .

وفى رواية محمد بن حبيب وأبى عبيدة معمر بن المثنى : أنّ له أُهَيْلَ سوء يُنغِضون رءوسهم عند ذكره .

وروى سعيد بن جُبير أن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن عباس : ما حديثٌ أسمعه عنك ؟ قال : وما هو ؟ قال : تأنيبى وذمّى ! فقال : إنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بئس المرء المسلم يَشْبَع ويجوعُ جاره » ، فقال ابن الزبير : إنى لأكتُم بغضَكم أهلَ هذا البيت منذ أربعين سنة . وذكر تمام الحديث .

وروى عمر بن شبّة أيضا عن سعيد بن جُبير ، قال: خطب عبدُالله بن الزبير ، فنال من علىّ عليه السلام ، فبلغ ذلك محمد بن الحنفيّة ، فجاء إليه وهو يخطُب ، فوضِع له كرسىّ ، فقطع عليه خطبتَه ، وقال : يامعشرَ العرب ، شاهت الوجوه ! أيُنتقصُ علىّ وأنتم حضور ا إنّ عليًّا كان يدَ الله على أعداء الله ، وصاعقةً من أمره أرسله على الكافرين والجاحدين لحقّه، فقتلهم بكفرهم فشنئوه وأبغضوه ، وأضمروا له الشّنَف[1] والحسد ، وابن عمه صلى الله عليه وسلّم حىّ بعدُ لم يمت ؛ فلما نقله الله إلى جواره ، وأحبّ له ما عنده ، أظهرتْ له رجال أحقادها ، وشفَتْ أضغانها ، فمنهم مَن ابتزّ حقه ، ومنهم من ائتمر به ليقتله ، ومنهم مَنْ شتمه وقذفه بالأباطيل ؛ فإن يكن لذريّته وناصرى دعوته دولة تنشر عظامهم ، وتحفِر على أجسادهم ؛ والأبدانُ منهم يومئذ بالية ، بعد أن تقتل الأحياء منهم ، وتذلّ رقابهم ، فيكون الله عزّ اسمُه قد عذّبَهُم بأيدينا وأخزاهم ؛ ونصرنا عليهم ، وشفَا صدورَنا منهم ؛ إنّه والله ما يشتم عليا إلا كافر يُسِرّ شتم رسول الله صلى الله عليه وآله ويخاف أن يبوحَ به ،

(١) الشنف : البغض ، وفى ب : « السيف » .

فيكفى بشتم علىّ عليه السلام عنه . أما إنّه قد تخطّت المنيةُ منكم مَن امتدّ عمره ، وسمع قولَ رسول الله صلى الله عليه وآله فيه : « لا يحبّك إلا مؤمن ولا يُبغضك إلا منافق ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » ، فعاد ابنُ الزبير إلى خطبته ، وقال : عذرتُ بنى الفواطم يتكلّمون ؛ فما بالُ ابن أم حنيفة ! فقال محمد : يابن أمّ رُومان[1] ؛ ومالى لا أتكلم ! وهل فاتنى من الفواطم إلا واحدة ! ولم يفتنى فخرها ؛ لأنّها أمّ أخوىّ . أنا ابن فاطمة بنت عمران بن عائذ بن مخزوم ، جدة رسولِ الله صلى الله عليه وسلّم ، وأنا ابن فاطمة بنت أسد بن هاشم ، كافلة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، والقائمة مقام أمّه ؛ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ماتركتُ فى بنى أسد بن عبد العزى عظما إلا هشمته ! ثم قام فانصرف.

* * *

[فصل فى ذكر الأحاديث الموضوعة فى ذم على]

وذكر شيخُنا أبو جعفر[2] الإسكافىّ رحمه الله تعالى ـ وكان من المتحقّقين بموالاة علىّ عليه السلام ، والمبالغين فى تفضيله ؛ وإن كان القولُ بالتفْضيل عاما شائعا فى البغداديين من أصحابنا كافة ؛ إلا أنّ أباجعفر أشدّهم فى ذلك قولاً ، وأخلصهم فيه اعتقادا ـ أنّ معاويةَ وضعَ قوما من الصحابة وقوما من التابعين على رواية أخبار قبيحة فى علىّ عليه السلام ، تقتضى الطعنَ فيه والبراءة منه ؛ وجعل لهم على ذلك جُعلا يُرْغَبُ فى مثله ؛ فاختلقوا ما أرضاه ، منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، ومن التابعين عروة بن الزبير .

روى الزهرىّ أن عروة بن الزبير حدّثه ، قال : حدثتْنى عائشة ، قالت : كنتُ عند

(١) كذا فى ا ، ب ، وفى ج : « قتيلة » .

(٢) هو أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافى ؛ من متكلمى المعتزلة وأحد أئمتهم ؛ وإليه تنسب الطائفة الإسكافية منهم ؛ وهو بغدادى أصله من سمرقند ؛ قال ابن النديم : كان عجيب الشأن فى العلم والذكاء والصيانة ونبل الهمة والنزاهة ؛ بلغ فى مقدار عمره مالم يبلغه أحد ؛ وكان المعتصم يعظمه . وله مناظرات مع الكرابيسى وغيره. توفى سنة ٢٤٠ ، لسان الميزان ٥ : ٢٢١

رسول الله إذ أقبل العباس وعليّ ، فقال : ياعائشة ، إن هذين يموتان على غير ملّتي– أو قال ديني .

وروى عبد الرزاق عن معمر ، قال : كان عند الزهريّ حديثان عن عُروة عن عائشة في عليّ عليه السلام ؛ فسألتُه عنهما يوما ، فقال : ماتصنع بهما وبحديثهما ! الله أعلم بهما ؛ إنّي لأتّهمهما في بني هاشم .

قال : فأمّا الحديث الأول ؛ فقد ذكرناه ؛ وأما الحديث الثاني فهو أن عُروة زعم أن عائشة حدثته ، قالت : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلّم إذ أقبل العباس وعليّ ، فقال : « ياعائشة ؛ إن سَرّكِ أن تنظري إلى رجلين من أهل النار فانظري إلى هذين قد طلعا » ، فنظرت ، فإذا العباس وعليّ بن أبي طالب .

وأما عمرو بن العاص ، فروى عنه الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما مسنداً متصلا بعمرو بن العاص ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : « إنّ آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء إنّما وليّي الله وصالح المؤمنين » .

وأما أبو هريرة ، فروى عنه الحديث الذي معناه أن عليا عليه السلام خطبَ ابنة أبي جهل في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فأسخطه ، فخطب على المنبر ، وقال : لاها الله ! لا تجتمع ابنة وليّ الله وابنة عدو الله أبي جهل ! إنّ فاطمة بَضعة[1] مني يؤذيني مايؤذيها ؛ فإن كان عليّ يريد ابنةَ أبي جهل فليفارق ابنتي ، وليفعل مايريد » ، أو كلاما هذا معناه ، والحديث مشهور من رواية الكرابيسيّ .

قلت : هذا الحديث أيضا مخرج في صحيحي مسلم والبخاري عن المِسْوَر بن مخرَمة الزهريّ ؛ وقد ذكره المرتضى في كتابه « المسمى تنزيه الأنبياء والأئمة » ، وذكر أنه رواية

---

(١) بضعة ، أي قطعة .

حسين الكرابيسي[1] ، وأنه مشهور بالانحراف عن أهل البيت عليهم السلام، وعداوتهم والمناصبة لهم ، فلا تقبل روايتُه .

ولشياع هذا الخبر وانتشاره ذكره مرْوان بن أبي حفصة في قصيدة يمدح بها الرشيد، ويذكر فيها ولد فاطمة عليهم السلام ويُنْحِي عليهم ، ويذمّهم ، وقد بالغ حين ذمّ عليا عليه السلام ونال منه ، وأولها :

سَلَامٌ على جُمْلٍ ، وهَيْهَاتَ مِنْ جملِ ... وياحبّذا جملٌ وإن صَرَمَتْ حَبْلِي

يقول فيها :

عليّ أبو كُمْ كان أفضلَ منكمُ ... أباه ذوُو الشورى وكانوا ذَوِي الفَضْلِ

وساء رسولَ الله إذ ساء بنتَه ... بخِطْبته بنتَ اللعين أبي جهلِ

فذمّ رسول الله صهر أبيكمُ ... على مِنْبَرٍ بالمنطق الصادع المُضْلِ

وحكّم فيها حاكِمَين أبو كُمُ ... هما خلعاه خَلْعَ ذِي النَّعْلِ للنعلِ

وقد باعها من بعده الحسنُ ابنُه ... فقد أُبطلت دعوا كُمُ الرثّةُ الحبْلِ

وخلّيتموها وهي في غيرِ أهلها ... وطالبتُموها حين صارتْ إلى أهلِ

وقد رُوي هذا الخبر على وجوه مختلفة ، وفيه زيادات متفاوتة ؛ فمن الناس من يروي فيه : « مهما ذممنا من صهر فإنا لم نذمّ صهر أبي العاص بن الربيع » ، ومن الناس من يروي فيه : « ألا إن بني المغيرة أرسلوا إلى عليّ ليزوجوه كريمتهم ... » وغير ذلك .

وعندي أن هذا الخبر لو صحّ لم يكن على أمير المؤمنين فيه غضاضة ولا قَدْح ، لأنّ

---

(١) هو أبو علي الحسين بن علي بن يزيد الكرابيسي البغدادي ؛ صاحب الإمام الشافعي ، وأشهرهم بارتياد مجلسه وأحفظهم لمذهبه ؛ وله تصانيف كثيرة في أصول الفقه وفروعه . توفي سنة ٢٤٨ . ابن خلكان ١ : ١٤٥

الأمة مجمعة على أنّه لو نكح ابنةَ أبى جهل، مضافا إلى نكاح فاطمة عليها السلام لجاز، لأنه داخل تحت عموم الآية المبيحة للنساء الأربع؛ فابنةُ أبى جهل المشارُ إليها كانت مسلمة، لأنّ هذه القصة كانت بعد فتح مكة، وإسلام أهلها طوعا وكرها، ورواة الخبر موافقون على ذلك؛ فلم يبق إلا أنه إنْ كان هذا الخبر صحيحا فإن رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا رأى فاطمة عليها السلام قد غارت، وأدركها مايدرك النساء، عاتب عليا عليه السلام عتابَ الأهل، وكما يستثبت الوالد رأى الولد، ويستعطفه إلى رضا أهله وصلح زوجته. ولعلّ الواقع كان بعض هذا الكلام فحُرّف وزيد فيه. ولو تأملت أحوال النبيّ صلى الله عليه وآله مع زوجاته، وما كان يجرى بينه وبينهنّ من الغضب تارة، والصلح أخرى، والسخط تارة والرضا أخرى، حتى بلغ الأمرُ إلى الطلاق مرة، وإلى الإيلاء مرة، وإلى الهَجْر والقطيعة مرة، وتدبرت ماورد فى الروايات الصحيحة مما كُنّ يلقَيْنَه عليه السلام به، ويُسْمِعْنه إياه؛ لعلمت أنّ الذى عاب الحسَدة والشانئون عليًّا عليه السلام به بالنسبة إلى تلك الأحوال قطرة من البحر المحيط، ولو لم يكن إلا قصة مارية وما جرى بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين تَيْنِك الامرأتين من الأحوال والأقوال؛ حتى أنزل فيهما قرآن يُتْلَى فى المحاريب، ويكتَب فى المصاحف، وقيل لهما ما لا يقال للإسكندر ملك الدنيا لو كان حيا، منابذاً الرسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾[1]، ثم أردف بعد ذلك بالوعيد والتخويف: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ . . . ﴾[1] الآيات بتمامها. ثم ضرب لهما مثلا امرأة نوح وامرأة لوط اللتين خانتا بعلَيْهما، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا؛ وتمام الآية معلوم. فهل ماروى فى الخبر من تعصّب فاطمة على علىّ عليه السلام

(١) سورة التحريم ٤، ٥

وغَيْرتها من تعريض بنى المغيرة له بنكاح عقيلتهم ، إذا قُويس إلى هذه الأحوال وغيرها مما كان يجرى إلّا كنسبة التأفيف[١] إلى حرب البسوس اولكنّ صاحب الهوى والعصبية لا علاج له .

* * *

ثم نعود إلى حكاية كلام شيخنا أبى جعفر الإسكافىّ رحمه الله تعالى . قال أبو جعفر : وروى الأعمش ، قال : لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عامَ الجماعة ، جاء إلى مسجد الكوفة ، فلما رأى كثرة مَن استقبله من الناس جثا على ركبتيه ، ثم ضرب صَلْعته مراراً ، وقال : يا أهل العراق ، أتزعمون أنّى أكذب على الله وعلى رسوله ، وأحرق نفسى بالنار ! والله لقد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إنّ لكل نبىّ حَرَماً ، وإنّ حَرَمى بالمدينة ، مابين عَيْر إلى ثور ، فمن أحدث فيها حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » ، وأشهد بالله أن عليا أحدث فيها : فلما بلغ معاوية قولُه أجازه وأكرمه وولّاه إمارة المدينة .

قلت : أمّا قوله : « مابين عَيْر إلى ثور[٢] » ، فالظاهر أنّه غلط من الراوى ، لأن ثوراً بمكة وهو جبل يقال له : ثَوْر أطحل ، وفيه الغار الذى دخله النبى صلى الله عليه وآله وأبو بكر ؛ وإنما قيل : « أطحل » لأن أطحل بن عبد مناف بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مُضر بن نزار ابن عدنان كان يسكنه . وقيل : اسم الجبل أطْحَل ، فأضيف « ثور » إليه ؛ وهو ثَوْر بن عبد مناف ، والصواب : « مابين عَيْر إلى أُحُد »[٣] .

فأما قول أبى هريرة : « إنّ عليا عليه السلام أحدَث فى المدينة » ، فحاش لله ! كان علىّ عليه السلام أتقى لله من ذلك ؛ والله لقد نَصَر عثمان نصرا لو كان المحصورُ جعفر بن أبى طالب لم يبذُلْ له إلا مثله .

قال أبو جعفر : وأبو هريرة مدخول عند شيوخنا غير مرضىّ الرواية ، ضربَه عمر

(١) ج : « التأفف » .

(٢) عير : جبل بالحجاز . (٣) معجم البلدان ٦ : ٢٤٦ : « وهما بالمدينة » .

بالدِّرة، وقال : قد أكثرتَ من الرواية وأحْرِ بك أن تكون كاذباً على رسول الله صلى الله عليه !

وروى سفيان الثوريّ عن منصور ، عن إبراهيم التيميّ، قال : كانوا لا يأخذون عن أبي هريرة إلّا ما كانَ من ذِكْر جنة أو نار .

وروى أبو أسامة عن الأعمش ، قال : كان إبراهيمُ صحيحَ الحديث ، فكنتُ إذا سمعت الحديث أتيتُه فعرضتُه عليه ، فأتيته يوما بأحاديث من حديث أبي صالح عن أبي هريرة ، فقال : دعني من أبي هريرة ، إنهم كانوا يتركون كثيرا من حديثه .

وقد روى عن عليّ عليه السلام أنه قال : ألّا إنّ أكذبَ الناس ـ أو قال : أكذب الأحياء ـ على رسول الله صلى الله عليه وآله أبو هريرة الدَّوْسيّ .

وروى أبو يوسف ، قال:قلت لأبي حنيفة : الخبر يجيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يخالف قياسَنا ماتصنع به؟ قال : إذاجاءت به الرواةالثقاتُ عَمِلْنا به وتركنا الرأى، فقلت : ماتقول فى رواية أبي بكر وعمر ؟ فقال : ناهيك بهما ! فقلت : عليّ وعثمان،قال: كذلك ، فلما رآنى أعُدّ الصحابة قال : والصحابةُ كلّهم عدول ماعدَا رجالًا ، ثم عدّ منهم أبا هريرة وأنس بن مالك .

وروى سُفيان الثوريّ ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن عمر بن عبد الغفار ، أنّ أبا هريرة لما قدِم الكوفة مع معاوية ،كان يجلس بالعشِيّات بباب كِنْدة ، ويجلس الناس إليه ، فجاء شابٌّ من الكوفة ، فجلس إليه ، فقال : يا أبا هريرة ، أنشُدُك الله ، أسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعليّ بن أبي طالب : « اللهمّ والِ مَنْ والاه وعاد من عاداه » ! فقال : اللهم نعم ، قال : فأشهد بالله ، لقد واليتَ عدوّه ، وعاديت وليّه ! ثم قام عنه .

وروت الرواة أنّ أبا هريرة كان يؤاكل الصبيان فى الطريق ، ويلعب معهم ، وكان يخطُب وهو أمير المدينة ، فيقول : الحمد لله الذى جعل الدّين قياما ، وأبا هريرة إماما ؛ يُضحك الناس بذلك . وكان يمشى وهو أمير المدينة فى السُّوق ، فإذا انتهى إلى رجل يمشى أمامه ، ضرب برجليه الأرض ، ويقول : الطريق الطريق ! قد جاء الأمير ! يعنى نفسه .

قلت قد ذكر ابن قتيبة هذا كله فى كتاب " المعارف "[1] فى ترجمة أبى هريرة ، وقوله فيه حجّة لأنه غيرُ متّهم عليه .

***

قال أبو جعفر : وكان المغيرة بن شعبة يلعَنُ عليا عليه السلام لعنا صريحا على منبر الكوفة ، وكان بلغه عن علىّ عليه السلام فى أيام عمر أنه قال : لئن رأيتُ المغيرة لأرجُمَنّه بأحجاره — يعنى واقعة الزنا بالمرأة التى شهد عليه فيها أبو بَكْرة ، ونَكَل زياد عن الشهادة — فكان يُبغضه لذلك ولغيره من أحوال اجتمعت فى نفسه .

قال : وقد تظاهرت الرواية عن عروة بن الزبير أنه كان يأخذه الزَّمَع[2] عند ذكر علىّ عليه السلام فيسبه ويضرب بإحدى يديه على الأخرى ، ويقول : وما يغنى أنه لم يخالف إلى ما نُهِى عنه ، وقد أراق مِنْ دماء المسلمين ما أراق !

***

قال : وقد كان فى المحدّثين مَنْ يُبغضه عليه السلام ، ويروى فيه الأحاديثَ المنكرة ؛ منهم حَرِيز بن عثمان ، كان يُبغضه وينتقصه ، ويروى فيه أخبارا مكذوبة . وقد روى

(١) المعارف ص ١٢١

(٢) الزمع : الرعدة .

المحدِّثون أنّ حَرِيزا رُئِيَ فى المنام بعد موته ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : كاد يغفر لى لولا بغض علىّ .

قلت : قد روى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرى فى كتاب "السقيفة" قال : حدثنى أبو جعفر بن الجنيد ، قال : حدثنى إبراهيم بن الجنيد ، قال : حدثنى محفوظ ابن المفضل بن عمر ، قال : حدثنى أبو البُهلول يوسف بن يعقوب ، قال : حدثنا حمزة ابن حسان ـ وكان مولًى لبنى أمية ، وكان مؤذِّنا عشرين سنة ، وحجّ غير حجة ، وأثنى أبو البهلول عليه خيرا ـ قال : حضرت حَرِيز بن عثمان ، وذكر علىّ بن أبى طالب ، فقال : ذاك الذى أحلّ حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى كاد يقع .

قال محفوظ : قلت ليحيى بن صالح الوُحاظىّ : قد رويت عن مشايخ مِنْ نظراء حَرِيز ، فما بالك لم تحمِلْ عن حَرِيز ! قال : إنى أتيته فناولنى كتابا ، فإذا فيه : حدثنى فلان عن فلان أنّ النبى صلى الله عليه وسلّم لما حضرتْه الوفاة أوصى أن تُقطعَ يدُ علىّ ابن أبى طالب عليه السلام ، فرددت الكتاب ، ولم أستحل أنْ أكتب عنه شيئا .

قال أبو بكر : وحدّثنى أبو جعفر ، قال : حدّثنى إبراهيم ، قال : حدّثنى محمد ابن عاصم ، صاحب الخانات ، قال : قال لنا حريز بن عثمان : أنتم يا أهل العراق تحبُّون علىّ بن أبى طالب عليه السلام ونحن نُبغضه ، قالوا : لم ؟ قال : لأنه قتل أجدادى .

قال محمد بن عاصم : وكان حَرِيز بن عثمان نازلًا علينا .

***

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى : وكان المغيرة بن شعبة صاحبَ دنيا ، يبيع دينه بالقليل النَّزر منها ويُرضِى معاوية بذكر علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، قال يوما فى مجلس معاوية : إن عليا لم يُنْكِحْه رسولُ الله ابنته حبًّا ؛ ولكنه أراد أن يكافىء بذلك إحسان أبى طالب إليه .

قال : وقد صح عندنا أن المغيرة لعنَه على منبر العراق مراتٍ لا تحصى ؛ ويروى أنه لما مات ودفنوه ، أقبل رجل راكب ظَلِيما ، فوقف قريبا منه ثم قال :

أمن رَسْمِ دارٍ من مغــيرة تعرفُ   عليها زوانى الإنس والجن تَعْزِفُ
انْ كنتَ قد لاقيتَ فِرْعَوْنَ بَعْدَنا   وهامان فاعلم أن ذا العرش منصِفُ

قال : فطلبوه فغاب عنهم ولم يَرَوْا أحدا ، فعلموا أنه من الجنّ .

***

قال : فأما مروان بن الحكم فأحقر وأقلّ من أن يذكر فى الصحابة الذين قد غمصْناهم وأوضحنا سوء رأينا فيهم ؛ لأنه كان مجاهرا بالإلحاد هو وأبوه الحكم بن أبى العاص ؛ وهما الطَّريدان اللعينان ، كان أبوه عدوّ رسول الله صلى الله عليه وآله يحكيه فى مَشْيه ، ويغمز عليه عينَه ، ويُدْلِع[1] له لسانه ويتهكم به ، ويتهانف[2] عليه ؛ هذا وهو فى قبضته وتحت يده ، وفى دار دَعْوته بالمدينة ؛ وهو يعلم أنه قادر على قتله أىّ وقت شاء من ليل أو نهار ، فهل يكون هذا إلا من شانىء شديد البغْضة ، ومستحكم العداوة ؛ حتى أفضى أمرُه إلى أن طرده رسول الله صلى الله عليه وآله عن المدينة ، وسيّره إلى الطائف !

وأما مَرْوان ابنُه فأخبثُ عقيدةً ، وأعظم إلحادا وكفرا ؛ وهو الذى خطب يوم وصل إليه رأس الحسين عليه السلام إلى المدينة ؛ وهو يومئذ أمير ها وقد حمل الرأس على يديه فقال :

يا حبّذا بردُك فى اليدَيْنِ   وَحُمْرَةٌ تجرى عَلَى الخدَّيْنِ
* كأنّما بِتّ بمسجدين *

(١) يدلع لسانه : يخرجه .
(٢) التهانف : الضحك مع الاستهزاء .

ثم رمى بالرأس نحو قبر النبيّ ، وقال : يا محمد ، يوم بيوم بدر . وهذا القول مشتق من الشعر الذى تمثّل به يزيد بن معاوية وهو شعر ابن الزِّبَعْرَى يوم وصل الرأس إليه . والخبر مشهور[1] .

قلت : هكذا قال شيخنا أبو جعفر ؛ والصحيح أنّ مروان لم يكن أميرَ المدينة يومئذ بل كان أميرَها عمرو بن سعيد بن العاص ، ولم يحمَل إليه الرأس ؛ وإنما كتب إليه عُبيد الله بن زياد يبشّره بقتْل الحسين عليه السلام ، فقرأ كتابه على المنبر ، وأنشد الرجز المذكور ، وأومأ إلى القبر قائلا : يوم بيوم بَدْر ، فأنكر عليه قوله قومٌ من الأنصار . ذكر ذلك أبو عُبيدة فى كتاب " المثالب ".

قال : وروى الواقدىّ أن معاوية لما عادَ من العراق إلى الشام بعد بَيْعة الحسن عليه السلام واجتماع الناس إليه خطب فقال : أيها الناس ، إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال لى : « إنك ستلِى الخلافة من بعدى ، فاختر الأرض المقدسة ، فإن فيها الأبدال ، وقد اخترتكم ، فالعنوا أبا تراب . فلعنوه ، فلما كان من الغد كتب كتابا ، ثم جمعهم فقرأه عليهم ، وفيه : هذا كتابٌ كتبه أمير المؤمنين معاوية ، صاحب وحى الله الذى بعثَ محمدا نبيا ، وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، فاصطفى له مِنْ أهله وزيراً كاتبا أمينا ، فكان الوحى ينزلُ على محمد وأنا أكتبه ، وهو لا يعلم ما أكتب ، فلم يكن بينى وبين الله أحدٌ من خَلْقِه . فقال له الحاضرون كلهم : صدقت يا أمير المؤمنين .

---

(١) ذكر أبو الفرج الأصفهانى فى مقاتل الطالبيين ١١٩ : « وقيل : إنه تمثل أيضا والرأس بين يديه بقول عبد الله بن الزبعرى :

لَيْتَ أشْيَاخِى بِبَدْرٍ شَهِدُوا جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الأَسَلْ
قَدْ قَتَلْنَا الْقَرْمَ مِنْ أَشْيَاخِهِمْ وَعَدَلْنَاهُ بِبَدْرٍ فاعْتَدَلْ

والبيتان من قصيدة أنشدها يوم أحد ؛ فى الحيوان ٥ : ٥٦٤ ، وسيرة ابن هشام ٣ : ١٤٤ ، وطبقات الشعراء لابن سلام ١٩٩ ، ٢٠٠

قال أبو جعفر : وقد روى أن معاوية بَذل لِسَمُرة بن جُنْدَب مائة ألف درهم حتى يروِىَ أن هذه الآية نزلت فى علىّ بن أبى طالب: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾(١)،وأنّ الآية الثانية نزلت فى ابن مُلجم،وهى قوله تعالى:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾(٢)، فلم يقبل،فبذل له مائتى ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف فلم يقبل،فبذل له أربعمائة ألف فقبل ، وروى ذلك .

قال : وقد صحّ أنّ بنى أميّة مَنَعُوا من إظهار فضائل علىّ عليه السلام،وعاقبوا [على] ذلك الراوى له؛ حتى إنّ الرجلَ إذا رَوَى عنه حديثا لا يتعلّق بفضله بل بشرائع الدِّين لا يتجاسرُ على ذكر اسمه ؛ فيقول : عن أبى زينب .

وروى عطاء ، عن عبد الله بن شداد بن الهاد ، قال : ودِدْت أن أترَك فأحدِّثَ بفضائل علىّ بن أبى طالب عليه السلام يوما إلى الليل ؛ وأنّ عُنُقى هذه ضربت بالسيف.

قال : فالأحاديث الواردة فى فضله لو لم تكن فى الشهرة والاستفاضة وكثرة النقل إلى غاية بعيدة ، لانقطع نقلُها للخوف والتقيّة من بنى مروان مع طول المدّة، وشدة العداوة؛ ولولا أنّ لله تعالى فى هذا الرجل سرًّا يعلمه مَنْ يعلمه لم يُرْوَ فى فضله حديث، ولا عُرِفَتْ له منقبة؛ألا ترى أنّ رئيس قرية لو سخِط على واحد من أهلها،ومنع النّاسَ أن يذكروه بخير وصلاح لخمل ذكرُه ، ونسى اسمه، وصار وهو موجود معدوما ، وهو حىٌّ ميتا ! هذه خلاصة ماذكره شيخنا أبو جعفر رحمه الله تعالى فى هذا المعنى فى كتاب التفضيل .

* * *

(١) سورة البقرة ٢٠٤ ، ٢٠٥
(٢) سورة البقرة ٢٠٧

[فصل فى ذكر المنحرفين عن علىّ]

وذكر جماعة من شيوخنا البغداديين أنّ عدة من الصحابة والتابعين والمحدّثين كانوا منحرفين عن علىّ عليه السلام،قائلين فيه السوء ، ومنهم من كتم مناقبه وأعان أعداءه ميلا مع الدنيا ، وإيثارا للعاجلة ؛ فمنهم أنس بن مالك ، ناشد علىّ عليه السلام الناسَ فى رَحَبة القصر — أو قال رحبة الجامع بالكوفة — : أيّكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « مَنْ كنت مولاه فعلىّ مولاه » ؟ فقام اثنا عشر رجلا فشهدوا بها ، وأنس بن مالك فى القوم لم يقم ، فقال له : يا أنس ، مايمنعك أن تقوم فتشهد ، ولقد حضرتَها ! فقال : ياأمير المؤمنين، كبرتُ ونسيت ، فقال : اللّهم إن كان كاذبا فارمه بها بيضاء لا تواريها العمامة . قال طلحة بن عمير : فوالله لقد رأيتُ الوَضَح به بعد ذلك أبيض بين عينيه .

وروى عثمان بن مُطرِّف أنّ رجلا سأل أنس بن مالك فى آخر عمره عن علىّ بن أبى طالب ، فقال : إنى آليتُ ألّا أكتم حديثا سئلت عنه فى علىّ بعد يوم الرّحبة ؛ ذاك رأسُ المتقين يوم القيامة، سمعته والله من نبيكم .

* * *

وروى أبو إسرائيل عن الحكَم عن أبى سليمان المؤذن،أنّ عليا عليه السلام نَشَد الناس مَنْ سمع رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، يقول : « مَنْ كنت مولاه فعلّى مولاه »، فشهد له قوم وأمسك زَيْد بن أرقم ،فلم يَشْهَد — وكان يعلمها — فدعا علىّ عليه السلام عليه بذهاب البصر فعمِىَ ، فكان يحدّث الناس بالحديث بعد ما كُفّ بصره .

* * *

قالوا : وكان الأشعث بن قيس الكندىّ وجرير بن عبد الله البَجَلِىّ يُبغضانه؛ وهدم علىّ عليه السلام دار جرير بن عبد الله .

قال إسمعيل بن جرير : هدم علىّ دارَنا مرتين .

وروى الحارث بن حصين، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله دفع إلى جرير بن عبدالله نَعْلَيْن من نعاله ، وقال : احتفظ بهما ، فإن ذهابَهما ذهاب دينك ؛ فلما كان يومُ الجمل ذهبت إحداهما ، فلما أرسله علىّ عليه السلام إلى معاوية ذهبت الأخرى ؛ ثم فارق عليا واعتزل الحرب .

***

وروى أهل السيرة أنّ الأشعث خطب إلى علىٍّ عليه السلام ابنته ، فزَبَرَه، وقال: يابن الحائك ، أغرك ابنُ أبى قحافة !

وروى أبو بكر الهذلىّ عن الزّهرى ، عن عبيدالله بن عدىّ بن الخيار بن نوفل بن عبد مناف ، قال : قام الأشعث إلى على عليه السلام، فقال : إنّ الناس يزعمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إليك عَهْدا لم يعهده إلى غيرك؛ فقال : إنه عهد إلىّ ما فى قراب سيفى ؛ لم يعهد إلىّ غير ذلك. فقال الأشعث: هذه إن قلتها فهى عليك لا لك؛ دَعْها ترحل عنك، فقال له : وما علمك بما علىّ مما لى ! منافق ابن كافر ، حائك ابن حائك ! إنى لأجد منك بَنّة[1] الغزْل . ثم التفت إلى عبيد الله بن عدى بن الخيار ، فقال : ياعبيدالله ، إنك لتسمع خلافا وترى عجبا ، ثم أنشد[2] :

أصبحت هُزْءا لراعى الضأن أتبعُه[3] ماذا يَريبك منى راعىَ الضأن !

وقد ذكرنا فى بعض الروايات المتقدمات أنّ سبب قوله : « هذه عليك لا لك » ، أمر آخر ، والروايات تختلف .

وروى يحيى بن عيسى الرملىّ، عن الأعمش: أن جريراً والأشعث خرجا إلى جبّان[4] الكوفة ، فمرّ بهما ضبّ يعدو ، وهما فى ذمّ علىّ عليه السلام ، فناداه : يا أبا حِسْل ؛ هلم

(١) البنة : الرائحة ؛ وأهل اليمن معروفون بالغزل والحياكة .
(٢) البيت لكلاب بن أمية بن الأسكر ؛ من أبيات له فى ذيل الأمالى ١٨٠
(٣) ج : « أصبحت فردا » .
(٤) الجبان فى الأصل : الصحراء ، وأهل الكوفة يسمون المقبرة جبانة ، وفى ، ا : « إلى الجبال» . وانظر مراصد الاطلاع .

يدك نبايعك بالخلافة ، فبلغ عليًّا عليه السلام قولهما ، فقال : أما إنهما يحشران يوم القيامة وإمامهما ضبّ .

* * *

وكان أبو مسعود الأنصاريّ منحرفا عنه عليه السلام ، روى شريك ، عن عثمان ابن أبى زُرْعة،عن زيد بن وهب ، قال : تذاكرنا القيام إذا مرّت الجنازة عند علىّ عليه السلام ، فقال أبو مسعود الأنصاريّ : قد كنا نقوم ، فقال علىّ عليه السلام : ذاك وأنتم يومئذ يهود .

وروى شعبة ، عن عبيد بن الحسن ، عن عبد الرحمن بن معقل ، قال : حضرتُ عليا عليه السلام،وقد سأله رجل عن امرأة تُوفِّيَ عنها زوجها وهى حامل ، فقال : تتربّصُ أبْعَدَ الأجَلَيْن ، فقال رجل : فإن أبا مسعود يقول : وضعُها انقضاء عدّتها ، فقال علىّ عليه السلام : إن فروجا لا يعلم ؛ فبلغ قوله أبا مسعود ، فقال : بلى ، والله إنى لأعلم أنّ الآخر شرّ .

* * *

وروى المنهال،عن نعيم بن دجاجة،قال : كنت جالسا عند على عليه السلام ، إذ جاء أبو مسعود، فقال علىّ عليه السلام : جاءكم فرّوج ، فجاء فجلس،فقال له علىّ عليه السلام: بلَغنى أنك تُفتى الناس ، قال : نعم ، وأخبرهم أن الآخر شرّ ، قال : فهل سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلّم شيئا؟قال : نعم ، سمعته يقول : «لا يأتى على الناس سنة،مائة وعلى الأرض عين تطرف » ، قال : أخطأت استُك الحفْرة ، وغلطت فى أول ظنك ؛ إنما عَنَى مَنْ حضره يومئذ ، وهل الرخاء إلا بعد المائة !

* * *

وروى جماعة من أهل السِّيَر أن عليا عليه السلام كان يقول عن كعب الأحبار : إنه لكذّاب ؛ وكان كعب منحرفا عن علىّ عليه السلام . وكان النعمان بن بشير الأنصارىّ منحرفا عنه ، وعدوًّا له ، وخاض الدماء مع معاوية خوضاً ، وكان من أمراء يزيد ابنه حتى قتل وهو على حاله.

وقد روى أنّ عمران بن الحصين كان من المنحرفين عنه عليه السلام ، وأنّ عليا سيّره إلى المدائن ؛ وذلك أنه كان يقول : إن مات علىّ فلا أدرى ما موته ، وإن قتل فعسى أنّى إن قتل رجوت له .

ومن الناس من يجعل عمران فى الشيعة .

* * *

وكان سَمُرة بن جندب من شرطة زياد ، روى عبد الملك بن حكيم عن الحسن ، قال: جاء رجل من أهل خُراسان إلى البصرة ، فترك مالاً كان معه فى بيت المال ، وأخذ براءة، ثم دخل المسجد فصلّى ركعتين، فأخذه سَمُرة بن جُنْدَب ، واتّهمه برأى الخوارج ، فقدّمه فضرب عنقه ؛ وهو يومئذ على شُرْطة زياد ، فنظروا فيما معه فإذا البراءة بخط بيت المال ، فقال أبو بَكْرة[1] : ياسَمُرة ، أما سمعت الله تعالى يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾[2] فقال : أخوك[3] أمرنى بذلك.

وروى الأعمش ، عن أبى صالح ، قال : قيل لنا : قد قَدِم رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيناه فإذا هو سَمُرة بن جَنْدَب ، وإذا عند إحدى رجليه خَمْر ، وعند الأخرى ثَلْج ، فقلنا : ماهذا ؟ قالوا : به النِّقْرِس ، وإذا قوم قد أتوه ، فقالوا ياسَمُرة ،

---

(١) هو أبو بكرة الثقفى ، واسمه نفيع بن مسروح (٢) سورة الأعلى ١٤ ، ١٥ .
(٣) يريد زياد بن أبيه ، وكان أخا أبى بكر لأمه سمية .

ماتقول لربك غدا ؟ تؤتى بالرجل فيقال لك : هو من الخوارج فتأمر بقتله ، ثم تؤتى بآخر فيقال لك : ليس الذى قتلتَه بخارجىّ ، ذاك فتى وجدناه ماضياً فى حاجته ، فشبّه علينا ، وإنما الخارجىّ هذا ، فتأمر بقتل الثانى ا فقال سَمُرة : وأىّ بأس فى ذلك ! إن كان من أهل الجنة مضى إلى الجنة ؛ وإن كان من أهل النار مضى إلى النار !

***

وروى واصل مولى أبى عيينة ، عن جعفر بن محمد بن علىّ عليه السلام عن آبائه ، قال : كان لسمُرة بن جُنْدَب نخل فى بستان رجل من الأنصار ، فكان يؤذيه ، فشكا الأنصارىّ ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فبعث إلى سَمُرة ، فدعاه فقال له : بع نخلك من هـذا ، وخذ ثمنه ، قال : لاأفعل ، قال : فخذ نخلا مكان نخلك ، قال : لاأفعل ، قال : فاشترِ منه بستانه ، قال : لاأفعل ، قال : فاترك لى هـذا النخل ولك الجنة ، قال : لا أفعل ، فقال صلى الله عليه وسلم للأنصارىّ : « اذهب فاقطع نخله ، فإنه لاحق له فيه » .

***

وروى شريك قال : أخبرنا عبد الله بن سعد عن حُجْر بن عدى ، قال : قدمت المدينة فجلست إلى أبى هريرة ؛ فقال : ممن أنت ؟ قلت : من أهل البصرة ؛ قال : مافعل سَمُرة ابن جندب ؟ قلت : هو حىّ ، قال : ماأحدٌ أحبّ إلىّ طول حياة منه . قلت : ولم ذاك ؟ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى وله ولحذيفة بنْ اليمان : « آخركم موتا فى النار » ؛ فسبَقنا حذيفة ؛ وأنا الآن أتمنّى أن أسبِقَه ، قال : فبقى سَمُرة بن جندب حتى شهد مقتل الحسين .

وروى أحمد بن بشير عن مسعر بن كدام ، قال : كان سَمُرة بن جندب أيام مسير

الحسين عليه السلام إلى الكوفة على شُرْطة عبيد الله زياد ، وكان يحرّض الناس على الخروج إلى الحسين عليه السلام وقتاله .

* * *

ومن المنحرفين عنه، المبغضين له عبد الله بن الزبير؛ وقد ذكرناه آنفا ؛ كان عليّ عليه السلام يقول : مازال الزبير منّا أهلَ البيت حتى نشأ ابنُه عبد الله ، فأفسده .

وعبد الله هو الذى حَمَل الزبيرَ على الحرب ؛ وهو الذى زيّن لعائشة مسيرَها إلى البصرة ؛ وكان سبّابا فاحشا ، يُبغض بنى هاشم ، ويلعن ويسبّ علىّ بن أبى طالب عليه السلام . وكان علىّ عليه السلام يقنُت فى صلاة الفجر وفى صلاة المغرب ، ويلعن معاوية ، وعَمْرًا ، والمغيرة، والوليد بن عقبة ،وأبا الأعور ، والضحاك بن قيس ؛ وبُسْر بن أرطاة ، وحبيب بن مسلمة ، وأبا موسى الأشعرى ، ومَرْوان بن الحكم ؛ وكان هؤلاء يقنُتون(١) عليه ويلعنونه .

* * *

وروى شيخُنا أبو عبدالله البصرىّ المتكلم رحمه الله تعالى ، عن نصر بن عاصم الليْثى ، عن أبيه ، قال : أتيت مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ، والناس يقولون : نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله ! فقلت : ماهذا ؟ قالوا : معاوية قام الساعة ، فأخذ بيد أبى سفيان ، فخرجا من المسجد ،فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : «لعن الله التابع والمتبوع؛ رب يوم لأمّتى من معاوية ذى الأستاه » ، قالوا : يعنى الكبير العَجُز .

وقال : روى العلاء بن حريز القشيرىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاوية : « لتتخذَنّ يامعاوية البدْعة سنة ، والقبح حسنا ، أكلُك كثير ، وظلمك عظيم » .

قال : وروى الحارث بن حَصِيرة ، عن أبى صادق ، عن ربيعة بن ناجذ ، قال :قال

(١) يقنتون عليه ، يدعون عليه .

عليٌّ عليه السلام : نحن وآل أبي سفيان قوم تعادَوْا في الأمر ، والأمر يعود كما بدا .

قلت : وقد ذكرنا نحن في تاخيص نقض " السفيانية " مافيه كفاية في هذا الباب.

* * *

وروى صاحب كتاب الغارات عن أبي صادق ، عن جُندب بن عبد الله ،قال: ذُكِر المغيرة بن شُعبة عندَ عليّ عليه السلام وجدّه مع معاوية ، قال : وما المغيرة ! إنما كان إسلامه لفجْرةٍ وغَدْرة غدرها بنفر من قومه فتك بهم؛ وركبها منهم، فهرب منهم ؛ فأتى النبي صلى الله عليه وآله كالعائذ بالإسلام ؛ والله ما رأى أحدٌ عليه منذ ادّعى الإسلام خُضوعا ولا خشوعا ، ألا وإنه يكون[1] من ثَقيف فراعنة قبل يوم القيامة يجانبون الحق ،ويسعّرون نيران الحرب ويوازرون الظالمين؛ ألا إن ثقيفا قوم غُدُر ، لا يوفون بعهد، يبغضون العرب كأنهم ليسوا منهم؛ ولربّ صالح قد كان منهم .فمنهم عروة بن مسعود وأبو عُبيد بن مسعود المستشهد يوم قُس النّاطف . وإن الصالح في ثقيف لغريب .

* * *

قال شيخنا أبو القاسم البلخي : من المعلوم الذي لا ريبَ فيه لاشتهار الخبر به؛ وإطباق الناس عليه ، أنّ الوليد بن عُقْبة بن أبي مُعَيط كان يُبغِض عليا ويشتمه ، وأنه هو الذي لاحَاهُ في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ونابذه ، وقال له : أنا أثبتُ منك جَنانا ، وأحدّ سنَانا ، فقال له عليّ عليه السلام : اسكت يافاسق ، فأنزل الله تعالى فيهما : ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ ...﴾[2] الآيات المتلوة ؛ وسمّي الوليد بحسب ذلك في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله الفاسق ؛ فكان لا يُعرَفُ إلا بالوليد الفاسق .

---

(١) ب : « كائن من ثقيف » .

(٢) سورة السجدة ١٨ .

وهذه الآية من الآيات التى نزل فيها القرآن بموافقة علىّ عليه السلام ، كما نزل فى مواضع بموافقة عمر ؛ وسماه الله تعالى فاسقا فى آية أخرى ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾[١] ، وسبب نزولها مشهور ؛ وهو كذبه على بنى المصطلق، وادّعاؤه أنّهم منعوا الزكاة وشهروا السيف؛ حتى أمر النبى صلى الله عليه وآله بالتجهز[٢] للسير إليهم؛ فأنزل الله تعالى فى تكذيبه وبراءة ساحة القوم هذه الآية[٣] .

وكان الوليد مذموما معيبا عند رسول الله صلى الله عليه وآله يشنؤه ويُعرِض عنه ؛ وكان الوليد يُبغِض رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً ويشنؤه، وأبوه عُقْبة بن أبى مُعيط هو العدوّ الأزرق بمكة ، والذى كان يؤذى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى نفسه وأهله ؛ وأخباره فى ذلك مشهورة ، فلما ظفر به يوم بَدْر ضرب عنقَه . وورث ابنُه الوليد الشنآن والبِغضة[٤] لمحمد وأهله ؛ فلم يزل عليهما إلى أن مات .

قال الشيخ أبو القاسم : وهو أحد الصبية الذين قال أبو عُقْبة فيهم ، وقد قُدِّم ليُضرَب عنقه : مَنْ للصبية يا محمد ؟ فقال : « النار ، اضربوا عنقه » .

قال : وللوليد شعر يقصد فيه الردّ على رسول الله صلى عليه وآله حيث قال : « إن تولوها عليًّا ، تجدوه هاديا مهديا » . قال : وذلك أن عليا عليه السلام لما قتِل قصد بنوه أن يُخْفُوا قبَره خوفا من بنى أمية أن يحدِثوا فى قبره حَدَثا ، فأوهموا الناس فى موضع قبره تلك الليلة — وهى ليلة دفنه — إيهامات مختلفة ، فشدّوا على جمل تابوتا موثَقا بالحبال، يفوح منه روائح الكافور ، وأخرجوه من الكوفة فى سواد الليل صحبة ثقاتهم ؛ يُوهمون أنهم يحملونه إلى المدينة فيدفنونه عند فاطمة عليها السلام ؛ وأخرجوا بَغْلاً وعليه جِنازة[٥] مغطاة؛

(١) سورة الحجرات ٦

(٢) ج : «التجهيز» .

(٣) أسباب النزول ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٤) البغضة : شدة البغض .

(٥) الجنازة ؛ بالكسر ويفتح : الميت .

يوهمون أنهم يدفنونه بالحيرة، وحفروا حفائر عِدّة ، منها بالمسجد ، ومنها برحبة القصر؛ قصر الإمارة ، ومنها فى حجرة من دور آل جعدة بن هبيرة المخزومىّ ؛ ومنها فى أصل دار عبد الله ابن يزيد القَسْرى بحذاء باب الورّاقين مما يلى قبلة المسجد ، ومنها فى الكُنَاسة ، ومنها فى الثَّوِيّة ، فعمِىَ عَلَى الناس موضع قبره؛ ولم يَعْلَم دفنه على الحقيقة إلا بنوه والخواصّ المخلصون من أصحابه ؛ فإنهم خرجوا به عليه السلام وقت السَّحر فى[1] الليلة الحادية والعشرين من شهر رمضان ، فدفنوه على النَّجف ، بالموضع المعروف بالغرِىّ ، بوصاة منه عليه السلام إليهم فى ذلك ، وعهدٍ كان عهد به إليهم ، وعمِىَ موضع قبره على الناس ؛ واختلفت الأراجيف فى صبيحة ذلك اليوم اختلافا شديدا ، وافترقت الأقوال فى موضع قبره الشريف وتشعّبت، وادّعى قوم أنّ جماعة من طيِّئ وقعوا على جملٍ فى تلك الليلة ، وقد أضلّه أصحابه ببلادهم ، وعليه صندوق ، فظنُّوا فيه مالاً ، فلما رأوا ما فيه خافوا أن يُطْلَبوا به ، فدفنوا الصندوق بما فيه، ونحروا البعير وأكلوه ، وشاع ذلك فى بنى أمية وشيعتهم ؛ واعتقدوه حقا ؛ فقال الوليد بن عُقْبة من أبيات يذكره عليه السلام فيها :

فإن يكُ قَدْ ضَلّ البعيرُ بحمْله فمَا كان مَهْدِيًّا ولا كان هاديا

وروى الشيخ أبو القاسم البلخِىّ أيضاً ، عن جرير بن عبد الحميد ، عن مغيرة الضبىّ ، قال : مرّ ناس بالحسن بن علىّ عليه السلام ، وهم يريدون عيادة الوليد بن عقبة ، وهو فى عِلّة له شديدة ، فأتاه الحسن عليه السلام معهم عائدا ، فقال للحسن : أتوب إلى الله تعالى مما كان بينى وبين جميع الناس ؛ إلّا ما كان بينى وبين أبيك ، فإنى لا أتوب منه .

قال شيخنا أبو القاسم البلخىّ : وأكّدَ بُغْضَه له ضربه إياه الحدّ فى ولاية عثمان ، وعزْله عن الكوفة .

---

(١) ج : « من الليلة » .

وقد اتفقت الأخبار الصحيحة التي لا ريب فيها عند المحدّثين ؛ على أن النبي صلى الله عليه وآله قال : « لا يُبغضك إلا منافق ، ولا يحبّك إلا مؤمن » .

قال : وروى حَبّة العُرَني ، عن عليّ عليه السلام أنه قال : إن الله عز وجل أخذ ميثاق كلّ مؤمن على حُبّي وميثاق كل منافق على بغضي ، فلو ضربتُ وجه المؤمن بالسيف ما أبغضني ، ولو صببت الدنيا على المنافق ما أحبّني .

وروى عبد الكريم بن هلال ، عن أسلم المكيّ ، عن أبي الطفيل ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، وهو يقول : لو ضربتُ خياشيمَ المؤمن بالسيف ما أبغضني ولو نثرت[1] على المنافق ذهبا وفضة ما أحبّني ؛ إن الله أخذ ميثاق المؤمنين بحبّي ، وميثاق المنافقين ببغضي ، فلا يُبغضني مؤمن ، ولا يحبّني منافق أبدا .

قال الشيخ أبو القاسم البلخيّ : وقد روى كثير من أرباب الحديث عن جماعة من الصحابة ، قالوا : ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ببغض عليّ بن أبي طالب .

* * *

ذكر إبراهيم بن هلال صاحب كتاب "الغارات" فيمن فارق عليا عليه السلام والتحق بمعاوية يزيد بن حُجَيّة التيميّ ، من بني تيم بن ثعلبة بن بكر بن وائل ، وكان عليه السلام قد استعمله على الرّيّ ودَسْتَبَى[2] ، فكسرَ الخوارج ، واحتجن المال لنفسه ، فحبسه عليّ عليه السلام ، وجعل معه سعدا مولاه ، فقرّب يزيد ركائبه ، وسعد نائم ، فالتحق بمعاوية ، وقال :

---

(١) ج : « صببت » .
(٢) دستبى ، بالفتح ، ثم السكون وفتح التاء : كورة كانت مشتركة بين الري وهمذان .

خادَعْتُ سَعْداً وارْتَمَتْ بِي ركائبي ... إلى الشَّام واخْتَرْتُ الَّذِي هو أفْضَلُ
وغادرتُ سعدا نائمـــا في عباءة[1] ... وسعدٌ غـــلامٌ مُسْتَهامٌ مُضَلَّلُ

ثم خرج حتى أتى الرَّقة ، وكذلك كان يصنع مَنْ يفارق عليا عليه السلام ، يبدأ بالرَّقة حتى يستأذِن معاوية في القدوم عليه ، وكانت الرَّقة والرُّها وقَرْقِيسيا[2] وحرَّان من حَيِّز معاوية ؛ وعليها[3] الضحاك بن قيس ، وكانت هِيت وعَانات ونصيبين ودارا وآمِد وسِنْجار من حَيِّز عليّ عليه السلام ؛ وعليها الأشتر ، وكانا يقتتلان في كل شهر .

وقال يزيد بن حُجَيَّة وهو بالرَّقة يهجو عليا عليه السلام :

يا طولَ لَيْـــلِيَ بالرَّقَاتِ لَمْ أَنَمِ ... مِنْ غَيْرِ عِشْقٍ صَبَتْ نَفْسِي وَلَا سَقَمِ
لـكنْ لذِكرِ أمورٍ جَمَّــةٍ طَرَقَتْ ... أخْشَى على الأَصْلِ مِنْها زَلَّةَ القَدَمِ
أخشى عَلِيًّا عليهم أن يــكون لَهُمْ ... مثلَ العَقُور الذى عَفَّى عَلَى إِرَمِ

وبعد ذلك ما لا نذكره .

قال إبراهيم بن هلال : وقد كان زياد بن خَصَفة التيميّ ، قال لعليّ عليه السلام يوم هرب يزيد بن حُجَيَّة : ابعثني يا أمير المؤمنين في أثره أردّه إليك ؛ فبلغ قوله يزيد بن حُجَيَّة ، فقال في ذلك :

أبلـــغ زياداً أنَّني قد كَفيتُهُ ... أموري وَخَلَّيت الَّذِي هُوَ عاتِبُهْ
وَبَابٌ شديدٌ مُوثَقٌ قد فتحتُه ... عليك ، وقد أعْيَتْ عَلَيْكَ مَذَاهِبُهْ
هُبِلْتَ أمَا ترجو غَنائي ومشهدِي ... إذِ الخصم لم يُوجَدْ لَهُ مَنْ يُجاذِبُهْ ![3]

---

(١) كذا في ج ، وفي ا ، ب « عباية » .
(٢) قرقيسياء : بلد على الخابور عند مصبه . (٣) في الأصول : « عليهم » .
(٣) يجاذبه ، أي يحوله عن طريقه .

فأقسِمُ لولا أنّ أمّكَ أمُّنا   وأنك مولًى ما طفقتُ أعاتبُهْ
وأقسم لو أدركْتَنِي مارَدَدْتَنِي   كلانا قد اصطفّت إليه جلائبُهْ

قال ابن هلال : وكتب إلى العراق شعرا يذمّ فيه عليا عليه السلام ، ويخبره أنه من أعدائه ، فدعا عليه وقال لأصحابه عَقِيبَ الصلاة : ارفعوا أيديَكم فادعُوا عليه ، فدعا عليه وأمّن أصحابُه .

قال أبو الصلت التيمىّ : كان دعاؤه عليه : اللهمّ إن يزيد بن حُجَيّة هرب بمال المسلمين ولحق بالقوم الفاسقين ، فاكفِنا مكره وكيدَه واجْزِه جزاء الظالمين .

قال : ورفعَ القومُ أيديَهم يؤمّنون ، وكان فى المسجد عِفاق بن شُرَحْبيل بن أبى رهم التَّيمىّ شيخا كبيرا ، وكان يعدّ ممن شهد على حُجْر بن عدىّ حتى قتله معاوية ، فقال عِفاق : على مَن يدعو القوم ؟ قالوا : على يزيد بن حُجَيّة ، فقال : تربَتْ أيديكم ! أعَلَى أشرافنا تدعُون ! فقاموا إليه فضربوه حتى كاد يهلك . وقام زياد بن خَصَفَة ـ وكان من شيعة علىّ عليه السلام ـ فقال : دعوا لى ابن عمّى ، فقال علىّ عليه السلام : دعوا للرَّجُل ابن عمّه ، فتركه الناس ، فأخذ زياد بيده فأخرجه من المسجد ، وجعل يمشى معه يمسح التراب عن وجهه ، وعِفاق يقول : والله لا أحبّكم ما سعيت ومشيت ، والله لا أحبّكم ما اختلفت الدِّرّة والجِرّة ؛ وزياد يقول : ذلك أضرّ لك ، ذلك شرٌّ لك .

وقال زياد بن خَصَفة يذكر ضرب الناس عِفاقا :

دعوت عِفاقا للهُدَى فاستغشَّنِي   وولّى فَرِيًّا قوله وَهْوَ مُغْضَبُ
ولولا دفاعى عن عِفَاقٍ ومشهدِى   هوت بعِفاقٍ ـ عَوْضُ ـ عنقاءُ مُغْرِبُ[1]

(١) عوض ، معناه أبدا . وعنقاء مغرب ، قال فى اللسان : « العنقاء المغرب : كلمة لا أصل لها ؛ ويقال إنها طائر عظيم لا نرى إلا فى الدهور ؛ ثم كثر ذلك حتى سموا الداهية عنقاء مغربا ومغربة » .

أنبئْه أنّ المدى فى اتّباعنا ... فيأبى ، ويُغْرِيه المراء فيشغَبُ[1]
فإن لا يشايعنا عِفاقُ فإننا[2] ... على الحق ما غنّى الحمام المطرِّبُ
سيُغْنى الإله عن عِفاق وَسَعْيه ... إذا بعثت للناس جأواء تُحْرَبُ[3]
قبائل من حَيَّىْ معدّ ومثلُها ... يمانية لا تنثنى حين تُنْدَبُ[4]
لهم عَدَدٌ مثلُ التراب وطاعةٌ ... تودّ ، وبأس فى الوغى لا يؤنَّبُ

فقال له عِفاق : لو كنتُ شاعرا لأجبتك ؛ ولكنى أخبركم عن ثلاث خصال كنّ منكم ؛ والله ما أرى أن تُصيبوا بعدهنّ شيئا مما يسرّكم :

أمّا واحدة ، فإنكم سرتُم إلى أهل الشام حتى إذا دخلتم عليهم بلادهم قاتلتموهم ؛ فلما ظنّ القومُ أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف ، فسخِروا بكم فردّوكم عنهم ، فلا والله لا تدخلونها بمثل ذلك الجِدّ والحدّ والعدد الذى دخلتم به أبدا .

وأما الثانية ، فإنكم بعثتم حَكَما وبعث القوم حَكَما ؛ فأما حكَمُكم فخلعكم ، وأمّا حَكَمهم فأثبتهم ، فرجع صاحبهم يُدْعَى أميرَ المؤمنين ، ورجعتم متلاعنين متباغضين ؛ فو الله لا يزال القوم فى عَلاء ، ولا تزالون فى سِفال .

وأما الثالثة ، فإنه[5] خالفكم قُرّاؤكم وفُرسانكم فعدَوْتم عليهم فذبحتموهم بأيديكم ؛ فو الله لا تزالون بعدها متضعضعين[6] .

قال : وكان يمرّ عليهم بعد ، فيقول : اللهم إنى منهم برىء ، ولابن عفان ولىّ ! فيقولون : اللهم إنّا لعلىّ أولياء ، ومن ابن عفان برآء ، ومنك يا عِفاق !

---

(١) الشغب : الشر .
(٢) ج : « يتابعنا » .
(٣) كتيبة جأواء : هى التى يعلوها لون السواد لكثرة الدروع .
(٤) تندب : تدعى فتخف للدعوى .
(٥) ج : « فإنكم » .
(٦) تضعضع : خضع وذل .

قال : فأخذ لا يُقلِـع ؛ فدعوا رجلا منهم له سجاعة كسجاعة الكهان،فقالوا :ويحك! أما تـكفينا بسجْعك وخطبك هذا ! فقال : كفيتـكم ، فمرّ عِفاق عليهم ، فقال كما كان يقول ، فلم يمهله أن قال له : اللهم اقتُل عِفاقا ، فأنه أمرّ نفاقا ، وأظهر شِقاقا ، وبيّن فراقا ، وتلوّن أخلاقا .

فقال عِفاق : وَيْحَكم ! من سَلّط علىّ هذا ؟ قال : الله بعثنى إليك ، وسلّطنى عليك لأقطع لسانك ، وأُنصِل سِنامك(١) ، وأطرد شيطانك .

قال : فلم يك يمرّ عليهم بعد ؛ إنما يمرّ على مزَينة .

***

وممن فارقه عليه السلام عبد الله بن عبد الرحمن بن مسعود بن أوس بن إدريس بن مُعَتّب الثقفىّ ، شهد مع علىّ عليه السلام صفين ، وكان فى أول أمره مع معاوية ؛ ثم صار إلى علىّ عليه السلام ، ثم رجع بعد إلى معاوية ، وكان علىّ عليه السلام يسميه المجنّع ، والمجنّع : الطويل .

***

ومنهم القعقاع بن شُور ، استعمله علىّ عليه السلام على كَسْكَر ، فنقَم منه أمورا؛منها أنه تزوّج امرأة فأصدقها مائة ألف درهم ؛ فهرب إلى معاوية .

***

ومنهم النجاشىّ الشاعر من بنى الحارث بن كعب ، كان شاعرَ أهل العراق بصفّين ، وكان علىّ عليه السلام يأمره بمحاربة شعراء أهل الشام ، مثل كَعْب بن جُعَيل وغيره ، فشرب الخمر بالكوفة ، فحدّه علىّ عليه السلام ، فغضب ولحق بمعاوية ؛ وهجا عليا عليه السلام .

(١) أنصل السنان : جعل له سنا ؛ ونزعه عنه : من الأضداد .

حدث ابن الكلبيّ عن عَوانة ، قال : [١] خرج النجاشيّ فى أول يوم من شهر رمضان، فمرّ بأبى سَمّال الأسدىّ،وهو قاعدبفناء داره،فقال له : أين تريد ؟ قال: أردت الكُناسة . فقال : هل لك فى رءوس وأليات قد وُضِعت فى التنُّور من أول الليل، فأصبحت قد أينعت وقد تهرّأت ؟ قال : وَيْحك ! فى أول يوم من رمضان ! قال : دعنا مما لا نَعرف ، قال : ثم مه ، قال : أسقيك من شراب كالوَرْس ، يُطَيِّب النفس ، ويجرى فى العِرْق ،ويزيد فى الطَّرْق ، يهضم الطعام ، ويُسَهِّل للفدْم[٢] الكلام ؛ فنزل ؛ فتغدّيا ، ثم أتاه بنبيذ فشرباه، فلما كان آخر النهار علت أصواتُهما ، ولهما جارٌ من شيعة علىٍّ عليه السلام ، فأتاه فأخبره بقصّتهما ، فأرسل إليهما قوما فأحاطوا بالدار ، فأما أبو سَمّال فوثَب إلى دُور بنى أسد فأفلت ؛ وأخذ النجاشىّ فأُتى عليه السلام به ، فلما أصبح أقامه فى سراويل ، فضربه ثمانين ، ثم زاده عشرين سوطا ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أما الحدّ فقد عرفته ، فما هذه العِلاوة[٣] ؟ قال : لجراءتك على الله ، وإفطارك فى شهر رمضان . ثم أقامه فى سراويله للناس ، فجعل الصبيان يصيحون به : خَرِىَ النجاشىّ ، خرى النجاشى ! وجعل يقول : كلاّ إنها يمانية وِكاؤها شعر .

قال : ومرّ به هند بن عاصم السّلولىّ ، فطرح عليه مُطرَفا ، فجعل الناس يمرّون به ويطرحون عليه المطارف ؛ حتى اجتمعت عليه مطارف كثيرة ، فمدح بنى سَلُول فقال :

إذا الله حَيّا صالحًا من عباده تقيًّا فحيّا الله هِندَ بْنَ عاصمِ
وكلّ سَلُولِىٍّ إذا مادعوتَه سريع إلى داعى العلا والمكارم
هم البيضُ أقداما وديباجُ أوجهٍ جلوهاإذا اسودّتْ وجوهُ اللائمِ
ولايأ كل الكلبالسّروق نعالَهُمْ ولا يبتغى المخّ الذى فى الجماجِمِ

(١) الخبر فى الشعر والشعراء ٢٨٩ والخزانة ٤ : ٣٦٨

(٢) الفدم : العَيِى .

(٣) العلاوة ، بالكسر : كل مازاد عن الشيء

ثم لحق معاوية ، وهجا علياً عليه السلام ، فقال :

أَلَا مَنْ مبلغٌ عَنِّي عَلِيًّا ... بأنّى قَدْ أمِنْتُ فلا أخَافُ
عَمِدْتُ لمستقرّ الحقّ لَمَّا ... رأيتُ أمورَكُمْ فيها اختِلافُ

وروى عبد الملك بن قُرَيب الأصمعىّ ، عن ابن أبى الزّناد ، قال : دخل النجاشىّ على معاوية ، وقد أذن للناسَ عامة ، فقال لحاجبه : ادعُ النجاشىّ ، والنجاشىّ بين يديه ، ولكن اقتحمته عينه ، فقال : هأنذا النجاشىّ بين يديك يا أمير المؤمنين ؛ إنّ الرجال ليست بأجسامها ؛ إنّما لك من الرجل أصغراه : قلبه ولسانه ، قال : ويحك ! أنت القائل[1] :

ونَجّى ابنَ حَرْبٍ سابحٌ ذو عُلالةٍ ... أجشّ هزيمٌ والرِّماحُ دَوانِى[2]
إذا قلتُ أطراف الرماح تَنُوشُه ... مَرَتْه بِهِ الساقان والقَدَمانِ[3]

ثم ضرب بيده إلى ثَدْيه[4] ، فقال : ويحك ! إنّ مثلى لا تعدُو به الخيل ؛ فقال : ياأمير المؤمنين ؛ إنى لم أعنِك ؛ إنما عنيتُ عُتْبَة .

وروى صاحب كتاب " الغارات " أن عليا عليه السلام لما حدّ النجاشىّ غضبت اليمانية لذلك ، وكان أخصّهم به طارق بن عبد الله بن كعب النَّهْدِىّ ، فدخل عليه فقال: ياأمير المؤمنين ، ما كنّا نرى أنّ أهل المعصية والطاعة ، وأهل الفرقة والجماعة عند ولاة العدل ومعادن الفضل سِيّان فى الجزاء ؛ حتى رأينا ما كان من صنيعك بأخى الحارث ،

---

(١) البيتان فى الأغانى ١٣ : ٢٦٠ (طبعة الدار) ، والأول مع الخبر فى الشعر والشعراء ٢١٩
(٢) السابح : الفرس السريع كأنه يسبح بيديه والعلالة هنا بقية جرى الفرس . والأجش الغليظ الصوت فى صهيله ؛ وهو مما يحمد فى الخيل . والهزيم : الفرس الشديد الصوت .
(٣) مرته : استدرت جريه .
(٤) فى الشعر والشعراء : « ثندوتيه » ، والثندوة : اللحم الذى حول الثدى .

فأوغرتَ صدورنا، وشتّتَّ أمورنا، وحملتنا على الجادّة[1] التى كنا نرى أن سبيل مَنْ ركبها النار . فقال علىّ عليه السلام : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾[2] ؛ يا أخا نَهْد ، وهل هو إلا رجل من المسلمين انتهك حُرمة من حُرَم الله ، فأقمنا عليه حدّاً كان كفارته! إن الله تعالى يقول : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾[3] قال : فخرج طارق من عنده ، فلقيه الأشتر ، فقال : ياطارق ؛ أنتَ القائل لأمير المؤمنين : « أوْ غرتَ صدورنا ، وَشتّتَّ أمورنا » ؟قال طارق : نعم، أنا قائلها ، قال : والله ماذاك كما قلتَ ؛ إنّ صدورنا له لسامعة ، وإن أمورنا له لجامعة . فغضب طارق وقال : ستعلم يا أشتر أنه غيرُ ماقلت ؛ فلما جَنّه الليل هَمَس[4] هو والنجاشىّ إلى معاوية، فلما قدما عليه ، دخل آذنه فأخبره بقدومهما ، وعنده وجوه أهل الشام ، منهم عمرو بن مره الجهنىّ وعمرو بن صيفىّ وغيرهما ، فلما دخلا نظر إلى طارق ، وقال : مرحبا بالمورق غصنه، والمعرق أصلُه ، المسوّد غير المسود ؛ من رجل كانت منه هفوة ونبوة ، باتّباعه صاحبَ الفتنة ، ورأس الضلالة والشبهة ، الذى اغترز فى ركاب الفتنة حتى استوى على رَجْلها ، ثم أوجف فى عَشْوة ظُلْمتها وتيه ضلالتها ، واتبعه رجرجة[5] من الناس ، وأشبابةٌ[6] من الحثالة لا أفئدة لهم : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[7]

فقام طارق ، فقال : يامعاوية إنى متكلّم فلا يسخطك ، ثم قال : وهو متكئ على سيفه : إنّ المحمود على كلّ حال ربٌّ علا فوق عباده ، فهم منه بمنظر ومسمع ؛ بعث فيهم

---

(١) الجادة : معظم الطريق ، وأوسطه .

(٢) سورة البقرة ٤٥ .

(٣) سورة المائدة ٨

(٤) الهمس : السير بالليل

(٥) الرجرجة : الجماعة الكثيرة من الناس

(٦) الأشابة : أخلاط الناس

(٧) سورة محمد ٢٤

رسولا منهم ، يتلو كتابا لم يكن من قبله ولا يخطّه بيمينه ؛ إذاً لارتاب المبطلون ؛ فعليه السلام من رسولٍ كان بالمؤمنين برًّا رحيما ! أما بعد ، فإنّ ما كنا نُوضِع فيما أوْضَعنا فيه بين يدى إمام تقيٍّ عادل ، مع رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ أتقياء مرشدين ، مازالوا مناراً للهدى ، ومعالم للدين ، خلفاً عن سلف مهتدين ، أهل دين لا دنيا ، كلّ الخير فيهم ، واتّبعهم من الناس ملوك وأقيال ، وأهلُ بيوتات وشرَف ، ليسوا بناكثين ولا قاسطين،فلم يكن رغبةُ مَنْ رغب عنهم وعن صحبتهم إلا لمرارة الحقّ حيث جُرِّعُوها ، ولوعورته حيث سلكوها ؛ وغلبت عليهم دنيا مؤثَرة ، وهو متّبع ، وكان أمر الله قدرا مقدورا؛وقد فارق الإسلام قبلنا جَبَلة بن الأيهم فرارا من الضيم،وأنَفا[(١)] من الذِّلة ، فلا تفخرَنّ يامعاوية ؛ إن شَدَدْنا نحوك الرحال ، وأوْضَعْنا إليك الركاب . أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولجميع المسلمين .

فعظُم على معاوية ماسمعه وغضب ، لكنه أمسك[(٢)] ؛ وقال : ياعبد الله ؛ إنا لم نُرِدْ بما قلناه أن نوردَك مَشْرَع ظمأ ، ولا أن نُصدرك عن مَكْرَع رِيّ ؛ ولكنّ القول قد يجرى بصاحبه إلى غير ما ينطوى عليه من الفعل ، ثم أجلسه معه على سريره ، ودعا له بمقطّعات وَبُرود فصبّها عليه ؛ وأقبل نحوه بوجهه يحدّثه حتى قام .

وقام معه عمرو بن مرة وعمرو بن صيفيّ الجهنيّان ، فأقبلا عليه بأشدّ العتاب وأمضّه، يلومانه فى خطبته ، وما واجه به معاوية .

فقال طارق : والله ماقمت بما سمعتماه حتى خُيِّل لى أنّ بطن الأرض خير لى من ظهرها عند سماعى ما أظهرَ من العيب والنقص لمن هو خير منه فى الدنيا والآخرة ، وما زهَتْ به نفسُه ، وملَكَه عجبه ، وعاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله واستنقصهم ، فقمت مقاما أوجب الله علىّ فيه ألّا أقول إلّا حقا ، وأىّ خير فيمن لا ينظر مايصير إليه غدا !

(١) ج : « وأنفة من الذلة » .
(٢) ج : « تماسك » .

فبلّغ عليًّا عليه السلام قولُه ، فقال : لو قُتل النهدىّ يومئذ لقتل شهيدا .

وقال معاوية للهيثم بن الأسود أبى العُريان ــ وكان عُثمانيا ، وكانت امرأته عَلَوِيّة الرأى ، تكتب بأخبار معاوية فى أعنّة الخيل وتدفَعُها إلى عسكر علىّ عليه السلام بِصِفّين فيدفعونها إليه ــ فقال معاوية بعد التحكيم : ياهيثم ، أهلُ العراق كانوا أنصحَ لعلىّ فى صِفّين أم أهل الشام لى ؟ فقال : أهل العراق قبل أن يُضْرَبوا بالبلاء كانوا أنْصَحَ لصاحبهم ؛ قال : كيف قلت ذلك ؟ قال : لأنّ القوم ناصحوه على الدّين ، وناصَحَكَ أهل الشام على الدنيا، وأهل الدين أصْبَرُ ، وهم أهل بصيرة، وإنما أهل الدنيا أهلُ طمع ؛ ثم والله مالبث أهلُ العراق أنْ نبذُوا الدّين وراء ظهورهم ، ونظروا إلى الدنيا ، فالتحقوا بك .

فقال معاوية: فما الذى يمنع الأشعثَ أن يقدَم علينا، فيطلب ما قِبَلنا ؟ قال: إن الأشعث يكرِم نفسَه أن يكون رأسا فى الحرب ، وذَنَبًا فى الطمع .

* * *

ومن المفارقين لعلىّ عليه السلام أخوه عَقِيل بن أبى طالب ؛ قَدِم على أمير المؤمنين بالكوفة يسترفِدُه[1] ، فعرَض عليه عطاءه ، فقال : إنما أريدُ من بيت المال ، فقال : تقيم إلى يوم الجمعة ، فلما صلّى عليه السلام الجمعة ، قال له : ماتقولُ فيمن خان هؤلاء أجمعين ؟ قال بئس الرجل ! قال : فإنك أمرتَنِى أن أخونهم وأعطيَك، فلما خرج من عنده شخَص إلى معاوية ، فأمر له يوم قدومه بمائة ألف درهم، وقال له : ياأبا يزيد ، أنا خيرلك أم علىّ؟ قال : وجدت عليًّا أنظَرَ لنفسه منهُ لى ، ووجدتك أنظر لى منك لنفسك .

وقال معاوية لعَقِيل : إنّ فيكم يابنى هاشم لينـاً ، قال : أجل إنّ فينا لينًا من غير

---

(١) يسترفده : يطلب عطاءه .

ضَعْف ، وعِزًّا من غير عُنْف ، وإن لينَكم يامعاوية غَدْر ، وسلمكم كُفْر . فقال معاوية: ولا كلّ هذا ياأبا يزيد !

وقال الوليد بن عُقْبة لعقيل فى مجلس معاوية : غَلبك أخوك يا أبا يزيد على الثَّرْوة ! قال : نعم ، وسبقنى وإياك إلى الجنة ، قال : أما والله إن شِدْقَيْه لمضمومان من دم عثمان ، فقال : وما أنتَ وقريش ! والله ما أنتَ فينا إلا كنطيح التَّيْس . فغضب الوليد وقال : والله لو أنّ أهل الأرض اشتركوا فى قتله لأُرهِقُوا صَعُودا(١)، وإن أخاك لأشدّ هذه الأمة عذابا ، فقال : صه ! والله إنا لنرغب بعبدٍ من عبيده عن صُحْبة أبيك عُقْبة ابن أبى مُعَيْط .

وقال معاوية يوما ــ وعنده عَمْرو بن العاص، وقد أقبل عَقِيل:لأضحكنّك من عَقِيل، فلما سلّم قال معاوية:مرحبا برجل عمّه أبو لهب،فقال عَقِيل : وأهلا برجل عمّته : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾(٢) ؛ لأنّ امرأة أبى لهب أمّ جميل بنت حرب ابن أمية .

قال معاوية : ياأبا يزيد ماظنّك بعمك أبى لهب ! قال : إذا دخلت النارَ فَخُذ على يسارك تجدْه مفترشا عمّتك حمالةَ الحطب ؛ أفناكحٌ فى النار خيرٌ أم منكوح ! قال : كلاهما شرّ ، والله .

***

وممن فارقه عليه السلام حنظلة الكاتب ، خرج هو وجرير بن عبد الله البَجَلِيّ من الكوفة إلى قرقيسيا ؛ وقالا : لا نقيمُ ببلدة يُعاب فيها عثمان .

***

(١) الصعود : العقبة الشاقة .
(٢) المسد : حبل من ليف المقل .

وممن فارقه وائل بن حجر الحضرمىّ ، وخبره مذكور فى قصة بُسْر بن أرطاة .

* * *

وروى صاحب كتاب " الغارات " عن إسماعيل بن حكيم، عن أبى مسعود الجريرىّ، قال : كان ثلاثة من أهل البصرة يتواصلون على بُغْض علىّ عليه السلام: مطرِّف بن عبد الله ابن الشِّخِّير ، والعلاء بن زياد ، وعبد الله بن شقيق .

قال صاحب كتاب " الغارات " : وكان مطرِّف عابدا ناسكا ؛ وقد روى هشام بن حسان عن ابن سيرين : أن عمّار بن ياسر دخل على أبى مسعود وعنده ابن الشِّخِّير ، فذكر عليا بما لا يجوز أن يُذْكَر به، فقال عمار : يافاسق وإنك لهاهنا ! فقال أبو مسعود: أذكِّرك الله يا أبا اليقظان فى ضَيْفِى !

قال: وأكثر مبغضيه عليه السلام أهل البصرة كانوا عثمانيّة، وكانت فى أنفسهم أحقاد يوم الجمل، وكان هو عليه السلام قليل التألّف للناس ، شديدا فى دين الله ، لا يبالى مع علمه بالدين ؛ واتباعه الحقّ مَنْ سخط ومَنْ رضِىَ .

قال : وقد روى يونس بن أرقم، عن يزيد بن أرقم، عن أبى ناجية ، مولى أم هانئ، قال : كنت عندَ علىّ عليه السلام، فأتاه رجل عليه زِىُّ السَّفر . فقال : يا أمير المؤمنين، إنى أتيتك من بلدة ما رأيت لك بها محبًّا ، قال : منْ أين أتيتَ ؟ قال : من البصرة ، قال : أما إنهم لو يستطيعون أن يحبُّونى لأحبونى ؛ إنى وشيعتى فى ميثاق الله لا يزاد فينا رجلٌ ولا ينقص إلى يوم القيامة .

* * *

وروى أبو غسّان البصرىّ ، قال : بَنَى عبيد الله بن زياد أربعة مساجد بالبصرة تقوم على بغض علىّ بن أبى طالب والوقيعة فيه : مسجد بنى عدىّ ، ومسجد بنى مجاشع،

ومسجد كان فى العلاّفين على فُرْضَة البصرة ، ومسجد فى الأزد .

* * *

ومما قيل عنه إنه يبغض عليا عليـه السلام ويذمّه ، الحسن بن أبى الحسن البصرىّ أبو سعيد؛ وروى عنه حماد بن سلمة أنه قال: لو كان علىّ يأكل الحَشَف[1] بالمدينة لـكان خيراً له مما دخل فيه . ورواه عنه أنه كان من المخذّلين عن نصرته .

وروى عنه أنّ عليا عليه السلام رآه وهو يتوضأ للصلاة ـ وكان ذا وسوسة ـ فصبّ على أعضائه ماء كثيرا ، فقال له : أرَقْتَ ماء كثيرا يا حسن ؛ فقال : ما أراق أمير المؤمنين من دماء المسلمين أكثر ! قال : أو ساءك ذلك ؟ قال : نعم . قال : فلا زلت مسوءاً .

قالوا : فما زال الحسن عابسا قاطبا مهموما إلى أن مات .

فأما أصحابنا فإنهم يدفعون ذلك عنه وينكرونه ويقولون : إنه كان من محبّى علىّ ابن أبى طالب عليه السلام والمعظّمين له .

وروى أبو عمر بن عبد البر المحدّث فى كتابه المعروف بـ " الاستيعاب فى معرفة الصحاب " أنّ إنسانا سأل الحسن عن علىّ عليه السلام ، فقال : كان والله سهماً صائبا من مرامِى الله على عَدُوِّه ، وربانىّ هذه الأمة وذا فضلها ، وذا سابقتها ، وذا قرابتها من رسول الله صلى الله عليـه وآله ؛ لم يكن بالنُّوَمة عن أمر الله ، ولا بالملومة فى دين الله ، ولا بالسَّرُوقة لمال الله ، أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مُونقة ، ذلك علىّ بن أبى طالب يالُكَع!

وروى الواقدىّ ، قال : سئل الحسنُ عن علىّ عليه السلام ـ وكان يظنّ به الانحراف عنه ، ولم يكن كما يظنّ ـ فقال : ما أقول فيمنْ جَمع الخصال الأربع : ائتمانه على براءة ،

---

(١) الحشف : أردأ التمر .

وما قال لَهُ الرسول فى غزاة تَبُوك ، فلو كان غير النبوّة شيء يفوته لاستثناه، وقول النبيّ صلى الله عليه وآله : «الثقّلان كتاب الله وعِترتى» ، وإنه لم يؤمّر عليه أمير قطّ وقد أمَّرت الأمراء على غيره .

وروى أبَان بنُ عياش، قال : سألتُ الحسن البصرىّ عن علىّ عليه السلام ، فقال: ما أقولُ فيه ! كانت له السابقة ، والفضل والعلم والحكمة والفقه والرأى والصُّحبة والنَّجْدة والبلاء والزهد والقضاء والقرابة ، إن عليًّا كان فى أمره عليًّا ، رحم الله عليًّا ، وصلى عليه! فقلت : ياأباسعيد، أتقول: «صلّى عليه» لغير النبيّ ! فقال : ترحَّمْ على المسلمين إذا ذُكِروا ، وصلّ على النبيّ وآله وعلى خير آله . فقلت : أهو خيرٌ مِنْ حمزة وجعفر ؟ قال : نعم ، قلت : وخيرٌ من فاطمة وابنيها ؟ قال : نعم ، والله إنه خيرُ آل محمد كلِّهم ، ومَنْ يَشُكّ أنه خير منهم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « وأبوهما خير منهما » ! ولم يجرِ عليه اسمُ شِرْك ، ولا شرب خمر ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام : « زوّجتُك خيرَ أمتى » ، فلو كان فى أمته خيرٌ منه لاستثناه ، ولقد آخى رسولُ الله صلى الله عليه وآله بين أصحابه ، فآخى بين علىّ ونفسه ، فرسول الله صلى الله عليه وآله خيرُ الناس نفسا ، وخيرُهم أخا . فقلت : يا أبا سعيد ، فما هذا الذى يقال عنك إنّك قلته فى علىّ ؟ فقال : يابن أخى ، أحقِنُ دمى من هؤلاء الجبابرة ، ولولا ذلك لشالَت[1] بى الخُشُب .

* * *

قال شيخُنا أبو جعفر الإسكافىّ رحمه الله تعالى، ووجدته أيضا فى كتاب " الغارات " لإبراهيم بن هلال الثقفى : وقد كان بالكوفة من فقهائها مَنْ يعادى عليا ويُبغضه، مع غَلبة التشيّع على الكوفة ، فمنهم مرّةُ الهمدانىّ .

---

(١) ب : « لسالت » .

وروى أبو نعيم الفضل بن دُكَيْن عن فِطْر بن خليفة ، قال : سمعت مُرَّة يقول : لأَنْ يكون عليٌّ جملًا يَستَقِي عليه أهلُه خير له مما كان عليه .

وروى إسماعيل بن بَهرام ، عن إسماعيل بن محمد ، عن عمرو بن مرة ، قال : قيل لمرّة الهَمْدانيّ : كيف تخلّفت عن عليّ ؟ قال[1] : سَبَقَنا بحسناته ، وابتُلينا بسيئاته .

قال إسماعيل بن بَهْرام : وقد روينا عنه أنه قال أشدَّ فُحْشاً من هذا ؛ ولكنا نتورّع عن ذكره .

وروى الفضل بن دُكَين ، عن الحسن بن صالح ، قال : لم يصلِّ أبو صادق على مُرّة الهَمْدانيّ .

قال الفضلُ بن دُكين : وسمعتُ أنّ أبا صادق قال في أيام حياة مُرّة : والله لا يظلّني وإياه سَقْفُ بيتٍ أبدا .

قال : ولما مات لم يحضُره عمرو بن شُرَحبيل ، قال : لا أحضُره لشيء كان في قلبه على عليّ بن أبي طالب .

قال إبراهيم بن هلال : حدّثنا المسعوديّ ، عن عبدالله بن نُمَير بهذا الحديث . قال : ثم كان عبد الله بن نُمير يقول ـ وكذلك أنا ؛ والله لو مات رجلٌ في نفسه[2] شيء على عليّ عليه السلام لم أحضُرْه ، ولم أصلِّ عليه .

* * *

ومنهم الأسود بن يزيد ومَسْروق بن الأجدع ؛ روى سَلَمة بن كُهيل : أنّهما كانا يمشيان إلى بعض أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيقَعان في عليّ عليه السلام ؛ فأمّا الأسود فمات على ذلك ؛ وأما مسروق فلم يَمُتْ حتى كانَ لا يصلِّي لله تعالى صلاةً

(١) : ب « فقال » .
(٢) ب « في قلبه .

إلا صلّى بعدها عَلَى عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، لحديث سمعه من عائشة في فضله .

وروى أبو نعيم الفضل بن دُكين ، عن عبد السلام بن حَرْب ، عن ليث ابن أبي سُلَيم ، قال : كان مسروق يقول : كان عليّ كحاطب ليل ؛ قال: فلم يمت مسروق حتى رجع عن رأيه هذا .

وروى سَلَمة بن كُهَيل ، قال : دخلتُ أنا وزُبيد اليامىّ على امرأةِ مسروق بعد موته ؛ فحدثتنا ، قالت : كان مسروق والأسود بن يزيد يُفْرِطان في سبّ على ابن أبي طالب ، ثم ما مات مسروق حتى سمعتُه يصلّي عليه ، وأما الأسود فمضى لشأنه .

قال : فسألناها : لم ذلك ؟ قالت : شيء سمعه مِنْ عائشة تَرْوِيه عن النبيّ صلى الله عليه وآله فيمن أصابَ الخوارج .

وروى أبو نعيم ، عن عمرو بن ثابت ، عن أبي إسحاق ، قال : ثلاثة لا يؤمَنُون عَلَى على ابن أبي طالب : مسروق ، ومُرّة ، وشُريح .

وروى أنّ الشعبيّ رابعهم .

وروى عن هيثم ، عن مجالد ، عن الشعبيّ ، أنّ مسروقا ندِم عَلَى إبطائه عن عليّ ابن أبي طالب عليه السلام .

وروى الأعمش ، عن إبراهيم التّيميّ ؛ قال : قال عليّ عليه السلام لشريح ؛ وقد قضى قضيّة نَقَم عليه أمرَها : والله لأنفينّك إلى بانِقيا[1] شهرين تقضى بين اليهود ، قال : ثم قُتِل عليّ عليه السلام ومضى دهر ؛ فلما قام المختار بن أبي عبيد قال لشُرَيح : ما قال لك أميرُ المؤمنين عليه السلام يوم كذا ؟ قال: إنه قال لي كذا ، قال : فلا والله لا تقعد، حتى تخرج إلى بانِقيا تقضى بين اليهود . فسيّره إليها فقضى بين اليهود شهرين .

***

(١) بانقيا ، بكسر النون : ناحية من نواحي الكوفة كانت على شواطئ الفرات (مراصد الاطلاع) .

ومنهم أبو وائل شقيق بن سلمة ، كان عثمانيا يقع فى علىّ عليه السلام ، ويقال : إنه كانَ يرى رأيَ الخوارج ، ولم يختلف فى أنه خرج معهم ؛ وأنّه عاد إلى علىّ عليه السلام مُنيبا مقلِعاً .

روى خلف بن خليفة، قال: قال أبو وائل: خرجنا أربعة آلاف، نخرج إلينا علىّ ، فمازال يكلّمنا حتى رجع منا ألفان .

وروى صاحب كتاب " الغارات " ، عن عثمان بن أبى شيبة ، عن الفَضْل ابن دُكَيْن ، عن سفيان الثورىّ ، قال : سمعت أبا وائل يقول : شهدت صِفِّين وبئس الصُّفوف كانت !

قال : وقد روى أبو بكر بن عياش، عن عاصم بن أبى النَّجُود ، قال : كان أبو وائل عثمانيا ، وكان زِرُّ بن حُبَيش عَلَوِيًّا .

***

ومن المبغضين القالين : أبو بُرْدة بن أبى موسى الأشعرىّ ، ورِث البِغْضة له ، لا عن كلالة[1] .

وروى عبد الرحمن بن جُندَب، قال : قال أبو بُرْدة لزياد : أشهد أن حُجْر بن عدىّ قد كفر بالله كفرة أصْلَع ، قال عبد الرحمن : إنّما عَنَى بذلك نِسْبَة الكفر إلى علىّ ابن أبى طالب عليه السلام ؛ لأنّه كان أصلع .

قال : وقد روى عبد الرحمن المسعودىّ ، عن ابن عياش المنتوف، قال: رأيت أبا بُرْدة قال لأبى العادية الجُهَنىّ قاتل عمار بن ياسر: أأنت قتلتَ عمار بن ياسر ؟ قال : نعم، قال: ناولنى يدَك ؛ فقبّلها ، وقال : لا تمسّك النار أبدا .

---

(١) يقال : لم يرثه كلالة ، أى لم يرثه عن عرض بل قرب ؛ يريد أنه ورث البغض عن أبيه أبى موسى الأشعرى .

وروى أبو نُعيم عن هشام بن المغيرة ، عن الغضبان بن يَزيد ، قال : رأيت أبا بُرْدة قال لأبى العادية قاتلِ عمار بن ياسر : مرحبا بأخى ها هنا ! فأجلسه إلى جانبه .

***

ومن المنحرفين عنه عليه السلام أبو عبد الرحمن السُّلَمِىّ القارئ ؛ روى صاحب كتاب " الغارات " عن عطاء بن السائب ، قال : قال رجل لأبى عبد الرحمن السُّلمىّ : أنشُدُكَ بالله ، إن سألتُك لتخبرَنّى ؟ قال : نعم ، فلما أكّد عليــــه قال : بالله هل أبغضتَ عليًّا إلا يوم قسم المال فى الكوفة فلم يصلْك ولاأهلَ بيتك منه بشىء ! قال : أما إذْ أنشَدْتَنى بالله ، فلقد كان كذلك .

قال : وروى أبو عمر الضّرير ، عن أبى عوانة ، قال : كان بين عبد الرحمن بن عطية وبين أبى عبد الرحمن السُّلمِىّ شىء فى أمر علىّ عليه السلام ؛ فأقبل أبو عبد الرحمن على حَيّان ، فقال : هل تَدْرِى ماجَرّأ صاحبَك عَلَى الدماء ؟ يعنى عليا ، قال : وماجَرّأه لا أبالغيرك ! قال : حدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأهل بدر : «اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » ، أو كلاما هذا معناه .

***

وكان عبدالله بن عُكَيْم عُثْمانيا ؛ وكان عبد الرحمن بن أبى ليلى عَلَوِيًّا ، فروى موسى الجهنىّ ، عن ابنة عبدالله بن عُكَيْم ، قالت : تحدثنا يوما ، فسمعت أبى يقول لعبد الرحمن : أما إن صاحبَك لو صَبَرَ لأتاه الناس .

***

وكان سهم بن طريف عثمانيًّا ، وكان علىّ بن ربيعة عَلَوِيًّا ، فضرب أمير الكوفة عَلَى الناس بعثا ، وضرب عَلَى سهم بن طريف معهم ، فقال سهم لعلىّ بن ربيعة : اذهب إلى الأمير فكلِّمْه فى أمرى ليُعْفِيَنى ، فأتى علىّ بن ربيعة الأمير ، فقال : أصلحك الله !

إن سهما أعمى فأعْفِه ، قال : قد أعفيتُه ، فلما التقيا قال : قد أخبرتَ الأميرَ أنك أعمى ؛ وإنما عنيت عمى القلب .

***

وكان قيس بن أبي حازم يُبْغِض عليًّا عليه السلام ؛ روى وكيع ، عن إسمعيل ابن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم ، قال : أتيت عليا عليه السلام ليكلّم لي عثمان في حاجة ، فأبَى فأبغضتُه .

قلت : وشيوخنا المتكلّمون - رحمهم الله - يُسقِطون روايته عن النبي صلى الله عليه وآله : « إنكم لترَوْنَ ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » ، ويقولون : إنه كان يُبغِض عليا عليه السلام ؛ فكان فاسقا ، ونقلوا عنه أنه قال : سمعت عليا عليه السلام يخطب على المنبر ، ويقول : « انفروا إلى بقية الأحزاب » ، فدخل بغضُه في قلبي .

***

وكان سعيد بن المسيّب منحرفا عنه عليه السلام ، وجبّهه عُمر بن عليّ عليه السلام في وجهه بكلام شديد .

روى عبد الرحمن بن الأسود ، عن أبي داود الهمدانيّ ، قال : شهدت سعيد ابن المسيّب - وأقبل عمر بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فقال له سعيد : يابن أخي ، ما أراك تكثِر غِشيان مسجد رسول الله صلى الله عليه كما يفعل إخوتك وبنو أعمامك ! فقال عمر : يابن المسيّب ، أكلما دخلت المسجد أجيء فأشهِدَك ! فقال سعيد : ما أحبّ أن تغضب ، سمعت أباك يقول : إنّ لي من الله مقاما لهو خيرٌ لبني عبد المطلب ممّا على الأرض من شيء . فقال عمر : وأنا سمعت أبي يقول : ما كلمة حكمة

فى قلب منافق فيخرج من الدنيا ، حتى (١) يتكلم بها . فقال سعيد : يابن أخى ، جعلتنى منافقا ! قال : هو ما أقول لك . ثم انصرف .

***

وكان الزهرىّ من المنحرفين عنه عليه السلام .

وروى جرير بن عبد الحميد ، عن محمد بن شيبة ، قال : شهدتُ مسجد المدينة ، فإذا الزهرىّ وعُروة بن الزبير جالسان يذكران عليا عليه السلام ، فنالا منه ، فبلغ ذلك علىّ ابن الحسين عليه السلام ؛ فجاء حتى وقف عليهما،فقال : أمّا أنتَ ياعُروة ، فإن أبى حاكم أباكِ إلى الله ، فحكَم لأبى على أبيك ؛ وأما أنت يازهرىّ ، فلو كنتَ بمكة لأريتُك كِيرَ أبيك .

وقد روى من طرق كثيرة ، أنّ عروة بن الزبير كان يقول : لم يكن أحدٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه يزهو إلا علىّ بن أبى طالب وأسامة بن زيد .

وروى عاصم بن أبى عامر البَجَلىّ ، عن يحيى بن عروة ، قال : كان أبى إذا ذكر عليا نال منه .

وقال لى مرّة : يابنى،والله ما أحجمَ الناسُ عنه إلا طلبا للدنيا ، لقد بعَثَ إليه أسامة ابن زيد أن ابعثْ إلىّ بعطائى ، فوالله إنّك لتعلم أنك لو كنتَ فى فم أسدٍ لدخلتُ معك . فكتب إليه : إنّ هذا المال لمن جاهد عليه ؛ ولكنّ لى مالًا بالمدينة فأصِبْ منه ماشئت .

قال يحيى : فكنت أعجبُ من وصفه إياه بما وصفه به ، ومن عيبه له وانحرافه عنه .

***

وكان زيد بن ثابت عُثمانيا شديداً فى ذلك ، وكان عمرو بن ثابت عثمانيا ، من أعداء علىّ عليه السلام ومُبغضيه، وعمرو بن ثابت هو الذى روى عن أبى أيوب الأنصارىّ حديثَ : « ستة أيام من شوّال » .

(١) ب : « إلا » .

روى عن عمرو أنه كان يركب ويدور القرى بالشام ويجمع أهلها ، ويقول : أيّها الناس ، إنّ عليا كان رجلا منافقا ، أراد أن ينخس برسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة ، فالعنوه ، فيلعنه أهلُ تلك القرية ؛ ثم يسير إلى القرية الأخرى، فيأمرهم بمثل ذلك، وكان فى أيام معاوية .

***

وكان مكحولٌ من المبغضين له عليه السلام ، روى زهير بن معاوية عن الحسن بن الحرّ، قال : لقيت مكحولا؛ فإذا هو مطبوع — يعنى مملوءا — بغضا لعلىّ عليه السلام — فلم أزل به حتّى لان وسكن .

وروى المحدّثون عن حماد بن زيد ، أنه قال : أرى أن أصحاب علىّ أشدُّ حبًّا له من أصحاب العِجْل لعجلهم . وهذا كلام شنيع .

وروى عن شبابة بن سوّار أنه ذكر عنده ولد علىّ عليه السلام ، وطلبهم الخلافة فقال : والله لا يصِلُون إليها أبدا ، والله ما استقامت لعلىّ ، ولا فرح بها يوما ، فكيف تصير إلى ولده ! هيهات هيهات ! لا والله لا يذوقُ طعمَ الخلافة مَنْ رضِيَ بقتل عثمان .

***

وقال شيخنا أبو جعفر الإسكافىّ : كان أهلُ البصرة كلّهم يُبغضونه ، وكثير من أهل الكوفة وكثير من أهل المدينة ؛ وأما أهلُ مكة فكلّهم كانوا يُبغضونه قاطبةً ، وكانت قريش كلها على خلافه ، وكان جُمهور الخلق مع بنى أميّة عليه .

وروى عبد الملك بن عمير ، عن عبد الرحمن بن أبى بَكْرة ، قال: سمعتُ عليا عليه السلام ، وهو يقول : مالقِيَ أحدٌ من الناس مالقيت ! ثم بكى عليه السلام .

وروى الشعبىُّ ، عن شريح بن هانئ ، قال: قال علىّ عليه السلام : اللهم إنى أستعديك

على قريش ؛ فإنهم قطعوا رَحِمِى ، وأصغوا[١] إنائى ، وصَغَّروا عظيم منزلتى ، وأجمعوا على منازعتى .

وروى جابر عن أبى الطفيل ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، يقول : اللهم إنى أستعديك على قريش ؛ فإنهم قطعوا رَحِمى ، وغصَبُونى حَقِّى ، وأجمعوا على منازعتى أمراً كنت أولى به ، ثم قالوا : إنّ من الحق أن نأخذه ، ومن الحق أن نتركه .

وروى المسيّب بن نَجَبة الفزارىّ ، قال : قال علىٌّ عليه السلام : من وجدتموه من بنى أميّة فى ماء فغطُّوا على صماخه ، حتى يدخل الماء فى فيه .

وروى عمرو بن دينار ، عن ابن أبى مُليكة ، عن المِسْوَر بن مخرمة ، قال : لقى عبد الرحمن ابن عوف عمرَ بن الخطاب ، فقال : ألم نكن نقرأ من جملة القرآن : قاتلوهم فى آخر الأمر كما قاتلتموهم فى أوله ؟ قال : بلى ؛ ولكن ذاك إذا كان الأمراء بنى أمية والوزراء بنى مخزوم !

وروى أبو عمر النّهدىّ ، قال : سمعت علىّ بن الحسين يقول : ما بمكة والمدينة عشرون رجلا يحبُّنا .

وروى سفيان الثورىّ ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى البَخْترىّ ، قال : أثنى رجلٌ على علىّ بن أبى طالب فى وجهه ـ وكان يُبغضه ـ فقال علىّ : أنا دون ما تقول ، وفوق ما فى نفسك .

وروى أبو غسان النهدىّ ، قال : دخل قوم من الشيعة على علىّ عليه السلام فى الرّحَبة ، وهو على حَصير خَلَق ، فقال : ماجاء بكم ؟ قالوا : حبُّك يا أمير المؤمنين ، قال : أما إنه مَنْ أحبّنى رآنى حيث يحبّ أن يرانى ، ومن أبغضنى رآنى حيث يكره أن يرانى ، ثم قال : ماعَبَد اللهَ أحدٌ قبلى إلا نبيه عليه السلام ؛ ولقد هَجَم أبو طالب علينا وأنا وهو ساجدان ، فقال : أو فعلتموها ! ثم قال لى وأنا غلام : وَيْحَكَ ، انصر ابنَ عمك ! وَيْحك لا تخذله ،

---

(١) يقال : أصغى فلان إناء فلان إذا أماله ونقصه حقه . (اللسان) .

وجعل يحتنى على مؤازرته ومكانفته ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « أفلا تصلّى أنت معنا ياعمّ ! » فقال : لاأفعل يابن أخى ، لاتعلونى استى . ثم انصرف .

وروى جعفر بن الأحمر، عن مسلم الأعور، عن حبّة العُرَنىّ، قال: قال علىّ عليه السلام: مَنْ أحبّنى كان معى ؛ أما إنكَ لو صُمْتَ الدهر كلّه ، وقمت الليل كله ، ثم قُتلت بين الصفا والمروة — أوقال بين الرُّكن والمقام — لما بعثك الله إلا مع هواك بالغا مابلغ ؛ إنْ فى جنة ففى جنة ، وإن فى نار ففى نار .

وروى جابر الجعفىّ ، عن علىّ عليه السلام أنه قال : مَنْ أحبّنا أهلَ البيت فليستعدّ عدة للبلاء .

وروى أبو الأحوص، عن أبى حيّان عن علىّ عليه السلام : يهلِكُ فىّ رجلان، محبّ غالٍ ، ومبغض قالٍ.

وروى حماد بن صالح، عن أيوب ، عن كهمس؛ أنّ عليا عليه السلام قال : يهلِكُ فىّ ثلاثة: اللاعن والمستمع المقرّ ، وحامل الوِزْر، وهو الملك المترَف، الذى يُتقرّب إليه بلعنى، ويبرأ عنده من دينى ، وينتقص عنده حسبى ؛ وإنما حَسَبى حسب رسول الله صلى الله عليه وآله ، ودينى دينه . وينجو فىّ ثلاثة : مَنْ أحبنى، ومَنْ أحبّ محبّى ، ومَنْ عادى عدوى؛ فمن أشرب قلبُه بغضى أوَ ألّب على بغضى ؛ أو انتقصنى ؛ فليعلم أنّ الله عدوه وخصمه(١)؟ والله عدو للكافرين .

وروى محمد بن الصَّلْت ، عن محمد بن الحنفيّة ، قال : مَنْ أحبّنا نفعه الله بحبّنا ، ولو كان أسيرا بالدَّيْلم .

وروى أبو صادق ، عن ربيعة بن ناجد ، عن علىّ عليه السلام ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ فيك لَشَبَهًا من عيسى بن مريم ، أحبّته النصارى حتى أنزلته بالمنزلة التى ليست له ، وأبغضته اليهود حتى بهتَتْ أمّه » .

---

(١) ج : « وجبريل خصمه » .

ورَوَى صاحب كتاب " الغارات " حديثَ البراءة على غَـيْرِ الوجه المذكور في كتاب " نَهْج البلاغة "، قال: أخبرنا يوسف بن كليب المسعوديّ، عن يحيى بن سليمان العبديّ، عن أبي مريم الأنصاريّ، عن محمد بن عليّ الباقر عليه السلام، قال: خطب عليٌّ عليه السلام على مِنْبر الكوفة، فقال: سيُعرَض عليكم سَبّي، وستذبحون عليه؛ فإن عُرِض عليكم سَبّي فسُبّوني، وإن عرض عليكم البراءة مني، فإني على دين محمد صلى الله عليه وسلّم؟ ولم يقل: « فلا تبْرَءوا مني ».

وقال أيضا: حدّثني أحمد بن مفضل، قال: حدثني الحسن بن صالح، عن جعفر بن محمد عليه السلام. قال: قال عليّ عليه السلام: والله لتُذبحنّ على سَبّي — وأشار بيده إلى حَلْقه — ثم قال: فإن أمَرُوكم بسبّي فسبُّوني؛ وإن أمرُوكم أن تبرءوا مني فإنّي على دين محمد صلى الله عليه وآله. ولم ينههم عن إظهار البراءة.

وروى شيخُنا أبو القاسم البلخيّ رحمه الله تعالى، عن سلمة بن كُهيل، عن المسيّب بن نَجَبة، قال: بينا عليّ عليه السلام يخطُب إذ قام أعرابيّ، فصاح: وامظلمتاه! فاستدناه عليّ عليه السلام، فلما دنا قال له: إنما لك مظلمة واحدة، وأنا قد ظُلِمت عدد المدَر والوبر. قال: وفي رواية عباد بن يعقوب، أنّه دعاه فقال له: وَيحك! وأنا والله مظلوم أيضا؛ هات فلندْعُ عَلَى مَنْ ظلمَنا.

وروى سَدِير الصيرفيّ، عن أبي جعفر محمد بن عليّ، قال: اشتكى عليّ عليه السلام شَكاة، فعاده أبو بكر وعمر، وخرجا من عنده، فأتيا النبيّ صلى الله عليه وآله، فسألهما: مِنْ أين جئتما؟ قالا: عُدْنا عليًّا، قال: كيف رأيتماه؟ قال: رأيناه يُخاف عليه مما به، فقال: « كلا إنه لن يموت حتى يُوسَع غدرا وبغياً، وليكوننّ في هذه الأمة عبرةً يعتبر به الناس من بعده ».

وروى عثمان بن سعيد ، عن عبد الله بن الغنوىّ ، أن علياعليه السلام خطب بالرّحبة، فقال : أيها الناس ؛ إنكم قد أبيتم إلا أن أقولها ! وربّ السماء والأرض ، إنّ من عهد النبيّ الأمىّ إلىّ : « إنّ الأمة ستغدر بك بعدى » .

وروى هيثم بن بشير، عن إسماعيل بن سالم مثله؛ وقد روى أكثر أهل الحديث هذا الخبر بهذا اللفظ أو بقريب منه .

وروى أبو جعفر الإسكافى أيضاً أنّ النبى صلى الله عليه وآله دخل عَلَى فاطمة عليها السلام ، فوجد علياً نائما ، فذهبت تنبّهه ، فقال : « دعيه فربّ سهرٍ له بعدى طويل ، ورب جفوة لأهل بيتى مِنْ أجله شديدة » فبكت ؛ فقال : « لا تبكى فإنكما معى ، وفى موقف الكرامة عندى » .

وروى الناس كافة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له : « هذا ولىّ وأنا وليّه عاديت مَنْ عاداه ؛ وسالمت من سالمه » ، أو نحو هذا اللفظ .

وروى أيضا محمد بن عبيد الله بن أبى رافع ، عن زيد بن على بن الحسين عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلىّ عليه السلام : « عدوك عدوّى وعدوّى عدوّ الله عزّ وجلّ » .

وروى يونس بن حباب ، عن أنس بن مالك ، قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وعلىّ بن أبى طالب معنا ، فمررنا بحديقة ، فقال علىّ : يارسول الله ، ألا ترَى ماأحسن هذه الحديقة ! فقال : « إن حديقتك فى الجنّة أحسن منها » ؛ حتى مررْنا بسبع حدائق ، يقول علىّ ماقال ، ويجيبه رسول الله صلى الله عليه وآله بما أجابه . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله وَقف فوقفنا ، فوضع رأسه عَلَى رأس علىّ وبكى ، فقال علىّ : مايبكيك يارسول الله ؟ قال : « ضغائن فى صدور قوم لا يُبدُونها لك حتى يفقدونى » ،

فقال : يارسول الله ، أفلا أضع سيفى عَلَى عاتقى فأبيدَ خضراءهم ! قال : بل تصبر ، قال : فإن صبرتُ ! قال : تلاقى جهدا ، قال : أفى سلامةٍ من دينى ؟ قال : نعم ، قال : فإذاً لاأبالى .

وروى جابر الجعفىّ ، عن محمد بن علىّ عليه السلام ، قال : قال علىّ عليه السلام : مارأيت منذ بعث الله محمدا صلى الله عليه وآله رخاء ، لقد أخافتنى قريش صغيرا ، وأنصبتنى كبيراً ؛ حتى قبض الله رسوله ، فكانت الطامّة الكبرى ، والله المستعان على ماتصفون !

وروى صاحب كتاب " الغارات " عن الأعمش ، عن أنس بن مالك ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : سيظهر عَلَى الناس رجل من أمتى ، عظيم السرْم ، واسع البُلعوم ، يأكل ولا يشبع ، يحمل وزرَ الثّقَلين ، يطلب الإمارة يوما ، فإذا أدركتموه فابقروا بطنَه ، قال : وكان فى يد رسول الله صلى الله عليه وآله قضيب، قدوضع طرفه فى بطن معاوية .

قلت : هذا الخبرمرفوع مناسب لما قاله علىعليه السلام فى " نهج البلاغة " ، ومؤكِّد لاختيارنا أنّ المراد به معاوية ، دون ماقاله كثير من الناس أنّه زياد والمغيرة .

وروى جعفر بن سليمان الضبعىّ ، عن أبى هارون العبدىّ ، عن أبى سعيد الخدرىّ قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله يوما لعلىّ مايلقى بعدَه من العَنَت فأطال ، فقال له عليه السلام : أنشدك الله والرَّحِمَ يارسول الله لما دعوت الله أن يقبِضَنى إليه قبلك! قال : كيف أسأله فى أجلٍ مؤجّل ! قال : يارسول الله ، فعلام أقاتل مَنْ أمرتنى بقتاله ؟ قال : عَلَى الحدَث فى الدين .

وروى الأعمش ، عن عمار الدُّهنىّ ، عن أبى صالح الحنفىّ ، عن علىّ عليه السلام ، قال :

* * *

قال لنا يوماً : لقد رأيت الليلة رسول الله صلى الله عليه وآله فى المنام ، فشكوت إليه مالقيتُ حتى بكيت ، فقال لى : انظر ، فنظرت فإذا جلاميد ، وإذا رجلان مصفّدان ـ قال الأعمش : هما معاوية وعمرو بن العاص ـ قال : فجعلتُ أرضخُ رءوسهما ثم تعود ، ثم أرضخُ ثم تعود ؛ حتى انتبهت .

وروى نحو هذا الحديث عمرو بن مُرّة، عن أبى عبدالله بن سلمة، عن علىّ عليه السلام، قال : رأيتُ الليلة رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، فشكوت إليه ، فقال : هذه جهنّم ، فانظر مَنْ فيها، فإذا معاوية وعمرو بن العاص معلّقين بأرجلهما منكّسين ، تُرْضَخ رءوسهما بالحجارة ـ أو قال : تُشدَخ .

وروى قيس بن الربيع، عن يحيى بن هانئ المرادىّ ، عن رجل من قومه يقال له زياد ابن فلان، قال : كنا فى بيتٍ مع علىّ عليه السلام نحن شيعته[1] وخواصّه، فالتفت فلم ينكرْ منّا أحداً، فقال : إن هؤلاء القوم سيظهرون عليكم فيقطعون أيديَكم ويَسْمُلون أعينَكم ، فقال رجلٌ منّا : وأنت حىّ يا أمير المؤمنين ؟ قال : أعاذنى الله من ذلك ؛ فالتفتَ فإذا واحدٌ يبكى ، فقال له : يابنَ الحمقاء ، أتريد اللذات فى الدنيا والدرجات فى الآخرة ! إنما وعد الله الصابرين .

وروى زرارة بن أعين عن أبيه، عن أبى جعفر محمد بن علىّ عليه السلام ، قال : كان علىّ عليه السلام إذا صلى الفجر لم يزلْ معقّبا إلى أنْ تطلع الشمس؛ فإذا طلعت اجتمع إليه الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس ؛ فيعلّمهم الفقه والقرآن ؛ وكان له وقت يقوم فيه من مجلسه ذلك؛ فقام يوما فمرّ برجل ، فرماه بكلمة هُجْر ـ قال : لم يسمّه محمد بن علىّ عليه السلام ـ فرجع عَوْدَه على بدئه حتى صعِد المنبر ، وأمر فنودىَ : الصلاة جامعة ؛ فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ثم قال : أيّها الناس ، إنه ليس شىء أحبَّ إلى الله ولا أعمّ نفعا من

(١) ب : « نحن وشيعته وخواصه » .

حِلْم إمام وفقهه ؛ ولا شيء أبغض إلى الله ولا أعمّ ضررا من جهل إمام وخُرْقه ، ألا وإنه مَنْ لم يكن له من نفسه واعظ لم يكن له من الله حافظ ؛ ألَا وإنه من أنصَف من نفسه لم يزِدْه الله إلا عزًّا ؛ ألَا وإنّ الذلّ في طاعة الله أقربُ إلى الله من التعزّز في معصيته . ثم قال : أين المتكلّم آنفا ؟ فلم يستطع الإنكار ، فقال : هأنذا يا أمير المؤمنين ، فقال : أما إني لو أشاء لقلت ، فقال : إن تعف وتصفح ، فأنت أهل ذلك ؛ قال : قد عفوت وصفحت ؛ فقيل لمحمّد بن عليّ عليه السلام : ماأراد أن يقول ؟ قال : أراد أن ينسبه .

وروى زرارة أيضاً ، قال : قيل لجعفر بن محمد عليه السلام : إن قوما هاهنا ينتقصون عليًّا عليه السلام ، قال : بمَ ينتقصونه لا أبا لهم ! وهل فيه موضع نقيصة ! والله ماعَرَض لعليّ أمران قطّ كلاهما لله طاعة إلا عمِل بأشدّهما وأشقّهما عليه ، ولقد كان يعمل العمل كأنّه قائم بين الجنة والنار ، ينظر إلى ثواب هؤلاء فيعمل له ، وينظر إلى عقاب هؤلاء فيعمل له ؛ وإن كان ليقوم إلى الصلاة ، فإذا قال : وجّهت وجهيَ تغيّر لونه ؛ حتى يعرف ذلك في وجهه[(١)] ؛ ولقد أعتق ألف عبد من كدّ يده ؛ كلّ منهم[(٢)] يعرق فيه جبينه ، وتحفى فيه كفّه ، ولقد بُشِّرَ بعين نَبَعَتْ في ماله مثل عنق الجزور ، فقال : بشّر الوارث بِشرّ ، ثم جعلها صدقة على الفقراء والمساكين وابن السبيل إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها ، ليصرف الله النار عن وجهه ، ويصرف وجهه عن النار .

وروى القنّاد ، عن أبي مريم الأنصاريّ ، عن عليّ عليه السلام : لايحبني كافر ولا ولد زنا.

وروى جعفر بن زياد ، عن أبي هارون العبديّ ، عن أبي سعيد الخدريّ ، قال : كنا بنور إيماننا نحبّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فمن أحبّه عرفنا أنه منا .

* * *

---

(١) ج : « لونه » .　　(٢) ب : « كلهم » .

[فصل فى معنى قول علىّ : « فسبّونى فإنه لى زكاة »]

المسألة الثالثة :

فى معنى قوله عليه السلام : «فسبّونى،فإنه لى زكاة،ولكم نجاة»،فنقول:إنه أباح لهم سبّه عند الإكراه ، لأنّ الله تعالى قد أباح عند الإكراه التلفّظ بكلمة الكفر ؛ فقال : ﴿ إلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ ، والتلفّظ بكلمة الكفر أعظم من التلفظ بسبّ الإمام .

فأما قوله : « فإنه لى زكاة ولكم نجاة » ؛ فمعناه أنكم تنجون من القتل إذا أظهرتم ذلك ، ومعنى الزكاة يحتمل أمرين:أحدهما ماورد فى الأخبار النبويّة أن سبّ المؤمن زكاة له وزيادة فى حسناته .

والثانى : أن يريد به أن سبّهم لى لا ينقص فى الدنيا مِنْ قدرى ، بل أزيد به شَرَفًا وعُلُوّ قدر،وشياع ذكر ؛ وهكذا كان ، فإن الله تعالى جعل الأسباب التى حاول أعداؤه بها الغضّ منه عللا لانتشار صيته فى مشارق الأرض ومغاربها .

وقد لمح هذا المعنى أبو نصر بن نُباتة ، فقال للشريف الجليل محمد بن عمر العَلَوىّ :

وأبوكَ الوصىّ أوّلُ من شا   دَ منار الهدى وَصَامَ وَصَلَّى
نشرت حبله قريش فأعطتْـــهُ إلى صُبْحَة القيـامة فَتْلاَ

واحتذيت أنا حذوه ، فقلت لأبى المظفرهبة الله بن موسى الموسوىّ رحمه الله تعالى: فى قصيدة أذكر فيها أباه :

أمّكَ الدرة التى أنجبت من   جَوْهَرِ المجـــدِ راضياً مَرْضِيًا
وأبوكَ الإمامُ موسى كظيم الـــغيظِ حتى يُعيـــدَهُ مَنْسِيًا

وأبوه تاج الهُدَى جَعْفَرُ الصا ... دق وَحْياً عن الغُيوب وَحِيّا
وأبوه محمد باقرُ العِلْم مَضَى لَنا هادِياً مَهْدِيّا
وأبوه السجاد أتقى عباد الـ ... لـه لله مخلصاً ووفيّا
والحسين الذى تخير أن يَقْضِي عَزيزاً ولا يعيشَ دنيّا
وأبوه الوصِيّ أولُ مَنْ طا ... فَ وَلَبّى سَبْعاً وساقَ الهديّا
طامَنَتْ مجده قريش فأعطتْهُ إلى سِدْرَةِ السَّماء رقيّا
أخْلَدَتْ صيتَه فطَار إلى أن ... مَلأ الأفْقَ ضَجَّةً وَدَوِيّا
وأبو طالب كفيلُ أبى القاسِم كَهْلاً وَيافِعاً وَفَتِيّا
وَلِشَيْخِ البَطْحاء تاجُ مَعَدّ ... شيبةِ الحَمْدِ هل علمت سَمِيّا !
وأبو عمر العُلا هاشِمُ الجو ... دِ ومَنْ مثلُ هاشم بَشَرِيّا !
وأبوه الهمامُ عبد مناف ... قُلْ تقُلْ صادقاً وتُبْدِى بَدِيّا
ثم زيدٌ — أعنى قصىّ الذى لمْ ... يكُ عن ذِرْوَةِ العَلاء قَصيّا
نسبٌ إن تلفّع النسب المحـ ... ضُ لِفاعاً كان السليبَ العَرِيّا
وإذا أظلمت مُناسخة الأنْـ ... ـساب يوماً كان المُنير الجَليّا
يالَه مَجْدَة عَلَى قِدَمِ الدَّهْـ ... ـرِ وقد يَفْضُلُ العَتِيقُ الطَّرِيّا

وذكرنا هاهنا ماقبل المعنى ومابعده ؛ لأنّ الشعر حديث ، والحديث — كما قيل — يأخذ بعضه برقاب بعض ؛ ولأنّ ماقبل المعنى ومابعده مكمّل له ، وموضح مقصده .

فإن قلت : أىّ مناسبة بين لفظ « الزكاة » وانتشار الصيت والسّمع ؟

قلت : لأنّ الزكاة هى النماء والزيادة؛ومنه سميت الصدقة المخصوصة زكاة لأنها تنمى المال للمزكى ، وانتشار الصيت نماء وزيادة .

[فصل فى اختلاف الرأى فى معنى السبّ والبراءة]

المسألة الرابعة :

أن يقال : كيف قال عليه السلام : « فأمّا السبُّ فسُبُّونى فإنه لى زكاة ولكم نجاة ، وأما البراءة فلا تبرءوا منى » ؟ وأىّ فرق بين السبّ والبراءة ؟ وكيف أجاز لهم السبّ ومنَعهم عن التبرّؤ ، والسبّ أفحش من التبرّؤ !

والجواب ؛ أما الذى يقوله أصحابنا فى ذلك فإنه لا فرق عندهم بين سبّه [1] والتبرّؤ منه ، فى أنّهما حرام وفسق وكبيرة ، وأنّ المكرَه عليهما يجوز له فعلُهما عند خَوْفه على نفسه ، كما يجوز له إظهار كلمة الكفر عند الخوف .

ويجوز ألّا يفعلهما وإن قتل ، إذا قصد بذلك إعزاز الدين ، كما يجوز له أن يُسلم نفسه للقتل ولا يُظهر كلمة الكفر إعزازا للدين ، وإنما استفحش عليه السلام البراءة لأنّ هذه اللفظة ما وردت فى القرآن العزيز إلا عن المشركين ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ [2] ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ .. أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىءٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ [3] ، فقد صارت بحسب العرْف الشرعىّ مطلَقة على المشركين خاصّة ؛ فإذَنْ يُحمل هذا النهى على ترجيح تحريم لفظ البراءة على لفظ السبّ ، وإن كان حكمهما واحدا ؛ ألا ترى أنّ إلقاء المصحف فى القذر أفحشُ من إلقاء المصحف فى دَنّ الشراب ؛ وإن كانا جميعا محرّمين ، وكان حكمهما واحداً !

فأما الإمامية فتروى عنه عليه السلام أنه قال : إذا عُرِضتم على البراءة منّا فمدّوا الأعناق .

ويقولون : إنه [4] لا يجوز التبرّؤ منه ؛ وإن كان الحالف صادقا ، وإنّ عليه الكفارة .

(١) ج : « السب » .
(٢) سورة التوبة ١ .
(٣) سورة التوبة ٣ .
(٤) ساقطة من ا .

ويقولون : إنّ حكم البراءة من الله تعالى ومن الرسول ومنه عليه السلام ومن أحد الأئمة عليهم السلام ، حكم واحد .

ويقولون : إنّ الإكراه على السبّ يُبيح إظهاره ؛ ولا يجوز الاستسلام للقتل معه ، وأما الإكراه على البراءة ؛ فإنه يجوز معه الاستسلام للقتل ويجوز أن يظهر التبرّؤ ، والأَوْلى أن يستسلم للقتل .

* * *

[فصل فى معنى قول علىّ : « إنى ولدت على الفطرة »]

المسألة الخامسة :

أن يقال : كيف عَلّل نهيَه لهم على البراءة منه عليه السلام ، بقوله : « فإنى ولِدْت على الفطرة » ؛ فإن هذا التعليل لا يختص به عليه السلام ، لأن كلّ أحدٍ[1] يولَد على الفطرة ؛ قال النبى صلى الله عليه وآله : « كلّ مولودٍ يولد على الفطرة ؛ وإنما أبواه يهوّدانه وينصرانه » .

والجواب ، أنه عليه السلام عَلّل نهيه لهم عن البراءة منه بمجموع أمور وعلل ؛ وهى كونه ولد على الفطرة ، وكونه سبق إلى الإيمان والهجرة ؛ ولم يعلل بآحاد هذا المجموع ، ومراده ها هنا بالولادة على الفطرة أنه لم يولَدْ فى الجاهلية ؛ لأنه ولد عليه السلام لثلاثين عاما مضت من عام الفيل ؛ والنبىّ صلى الله عليه وآله أرسِل لأربعين سنة مضت من عام الفيل ؛ وقد جاء فى الأخبار الصحيحة أنه صلى الله عليه وآله مكث قبل الرسالة سنين عشراً يسمع الصوت ويرى الضوء ، ولا يخاطبه أحد ؛ وكان ذلك إرهاصاً لرسالته عليه السلام فحُكم تلك السنين العَشْر حكم أيام رسالته صلى الله عليه وآله ؛ فالمولود فيها إذا كان فى حجره وهو المتولّى لتربيته مولود فى أيام كأيام النبوّة ، وليس بمولود فى جاهلية محضة ، ففارقت حالُه حالَ مَنْ يدعى له من الصحابة مماثلته فى الفضل . وقد روى أنّ السّنَة التى ولد فيها على

(١) ج : « واحد » .

عليه السلام هى السنة التى بدئ فيها برسالة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأسمع الهُتاف من الأحجار والأشجار ، وكشف عن بصره ، فشاهد أنواراً وأشخاصا ؛ ولم يخاطَب فيها(١) بشىء . وهذه السَّنَة هى السنة التى ابتدأ فيها بالتبتّل والانقطاع والعزلة فى جبل حراء ، فلم يزل به حتى كُوشِف بالرسالة ، وأنزل عليه الوحى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتيمّن بتلك السنة وبولادة عَلِيّ عليه السلام فيها ، ويسمّيها سَنَة الخير وسنة البركة ؛ وقال لأهله ليلة ولادته ، وفيها شاهد ما شاهد من الكرامات والقدرة الإلهية ، ولم يكن مِنْ قبلِها شاهد من ذلك شيئا : « لقد وُلِد لنا الليلة مولود يَفْتَحُ الله علينا به أبوابا كثيرة من النعمة والرحمة » ، وكان كما قال صلوات الله عليه ، فإنه عليه السلام كان ناصره والحامىَ عنه وكاشف الغمّاء(٢) عن وجهه ؛ وبسيفه ثبتَ دينُ الإسلام ، ورست دعائمه ، وتمهّدت قواعده عليه السلام .

وفى المسألة تفسير آخر ؛ وهو أن يعنى بقوله عليه السلام : « فإنى ولدتُ على الفطرة » ، أى على الفِطْرة التى لم تتغيّر ولم تَحُلْ ، وذلك أن معنى قول النبى صلى الله عليه وآله : « كلّ مولودٍ يولد على الفِطْرة » أنّ كلّ مولود فإنّ الله تعالى قد هيّأه بالعقل الذى خلقه فيه وبصحّة الحواس والمشاعر لأنْ يعلَمَ التوحيد والعدْل ، ولم يجعل فيه مانعا يمنعه عن ذلك ؛ ولكن التربية والعقيدة فى الوالدين والإلْف لاعتقادهما وحسن الظنّ فيهما يصدّه عما فُطِر عليه ؛ وأميرُ المؤمنين عليه السلام دون غيره ، وُلِد على الفطرة التى لم تَحُلْ ولم يصدّ عن مقتضاها مانع ؛ لا من جانب الأبوين ولا من جهة غيرهما ، وغيره ولد على الفِطْرة ، ولكنه حال عن مقتضاها ، وزال عن موجبها .

ويمكن أن يفسر بأنه عليه السلام أراد بالفِطْرة العِصْمة ؛ وأنّه منذ ولد لم يواقع قبيحا ؛

---

(١) ج : « منها » .
(٢) ج : « الغم » .

ولا كانَ كافرا طَرْفَةَ عين قطّ ، ولا مخطئا ولا غالطا فى شىء من الأشياء المتعلّقة بالدين .

وهذا تفسير الإمامية .

***

[فصل فيما قيل من سبْق علىٍّ إلى الإسلام]

المسألة السادسة :

أن يقال : كيف قال : « وسبقتُ إلى الإيمان » ، وقد قال قوم (١) من الناس : إنّ أبا بكر سَبَقه ، وقال قوم : إن زيد بن حارثة سبَقه ؟

والجواب ، أنّ أكثر أهل الحديث وأكثر المحقّقين من أهل السيرة رَوَوْا أنه عليه السلام أوّل من أسلم ؛ ونحن نذكر كلام أبى عمر يوسف بن عبد البرّ ، المحدّث فى فى كتابه المعروف " بالاستيعاب " .

قال أبو عمر فى ترجمة (٢) على عليه السلام : المروىّ عن سلْمان وأبى ذَرّ والمقداد وخَبّاب وأبى سعيد الخدرىّ وزيد بن أسلم أن عليا عليه السلام أول من أسلم ؛ وفَضّله هؤلاء على غيره .

قال أبو عمر : وقال ابن إسحاق : أوّل من آمن بالله وبمحمد رسول الله صلى عليه وآله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ؛ وهو قول ابن شِهاب ؛ إلا أنه قال : « من الرجال بعد خديجة » .

قال أبو عمر : وحدّثنا أحمد بن محمد ، قال : حدثنا أحمد بن الفَضْل ، قال : حدثنا محمد بن جرير ، قال : حدّثنا على بن عبد الله الدِّهقان ، قال : حدّثنا محمد بن صالح ، عن سماك بن حرب، عن عِكْرمة ، عن ابن عباس ، قال: لعلىّ عليه السلام أربع خصال ، ليست

(١) ب : « كثير » ، وما أثبته من ج . (٢) الاستيعاب ١٠٨٩ وما بعدها .

لأحد غيره : هو أوّل عربىّ وعجمىّ صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو الذى كان معه لواؤه فى كل زَحْف ، وهو الذى صبر معه يوم فرّ عنه غيره ؛ وهو الذى غسّله وأدخله قبره.

قال أبو عمر : ورُوِى عن سلمان الفارسىّ أنه قال : أوّل هذه الأمة ورُودا على نبيّها صلى الله عليه وآله الحوضَ ، أولها إسلاما : عَلِىّ بن أبى طالب. وقد رُوِى هذا الحديث مرفوعاً عن سلمان عن النبىّ صلى الله عليه وآله ، أنه قال : « أوّل هذه الأمة وروداً عَلَىّ الحوض أوّلُها إسلاما : عَلِىّ بن أبى طالب » .

قال أبو عمر : ورفعه أوْلى ، لأن مثله لا يُدْرَك بالرأى .

قال أبو عمر : فأما إسناد المرفوع ؛ فإن أحمد بن قاسم ، قال : حدثنا قاسم بن أصبغ قال : حدثنا بن الحارث بن أبى أسامة ، قال : حدثنى يحيى بن هاشم ، قال : حدثنا سفيان الثورىّ ، عن سلمة بن كُهَيل ، عن أبى صادق ، عن حَنَش بن المعتمِر ، عن عُلَيم[1] الكِندىّ ، عن سلمان الفارسىّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أوّلكم واردا عَلَىّ الحوض أوّلكم إسلاما ؛ عَلِىُّ بن أبى طالب » .

قال أبو عمر : وروى أبو داود الطيالسىّ ، قال : حدثنا أبو عوانة ، عن أبى بَلْج ، عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عباس أنه قال : أول مَنْ صلى مع النبى صلى الله عليه وآله بعدَ خديجة عَلِىُّ بن أبى طالب .

قال أبو عمر : وحدثنا عبد الوارث بن سفيان ، قال : حدثنا قاسم بن أصبَغ ، قال : حدثنا أحمد بن زهير بن حرب ، قال : حدثنا الحسن بن حماد ، قال : حدثنا أبو عوانة ، عن أبى بَلْج عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عباس ، قال : كان عَلِىٌّ أول من آمن من النّاس بعد خديجة.

قال أبو عمر : هذا الإسناد لا مطعن فيه لأحد ؛ لصحته وثقة نَقَلَته ؛ وقد عارض[2]

(١) فى الأصول : « عكيم » ، وما أثبته عن الاستيعاب .

(٢) ج . « عورض » ، والاستيعاب : « وهو يعارض » .

ماذكرنا فى باب أبى بكر الصديق ، عن ابن عباس : والصحيح فى أمرِ أبى بكر أنه أول مَنْ أظهر إسلامه، كذلك قاله مجاهد وغيره ، قالوا : ومنعه قومه .

قال أبو عمر : اتفق ابنُ شهاب ،وعبد الله بن محمد بن عَقِيل، وقتادة ، وابن إسحاق عَلَى أنّ أول من أسلم[1] من الرجال علىّ. واتفقوا على أن خديجة أوّل من آمن بالله ورسوله وصدّقه فيما جاء به ، ثم علىٌّ بعدها .

وروى عن أبى رافع مثل ذلك .

قال أبو عمر : وحدّثنا عبد الوارث ، قال : حدثنا قاسم ، قال : حدثنا أحمد بن زهير ، قال : حدثنا عبد السلام بن صالح ، قال : حدثنا عبد العزيز بن محمد الدراوردىّ ، قال : حدثنا عُمر مولى غُفْرة ، قال : سئل محمد بن كعب القرظىّ عن أول مَنْ أسلم : علىّ أم أبى بكر ؟ فقال : سبحان الله ! عَلىٌّ أوّلهما إسلاما ؛ وإنما شُبِّه على الناس ؛ لأنّ عليا أخْفَى إسلامه من أبى طالب ، وأسلم أبو بكر ، فأظهر إسلامه .

قال أبو عمر : ولا شك عندنا أنّ عليا أوّلهما إسلاما ، ذكر عبدالرزاق فى جامعه، عن مَعْمر ، عن قتادة ، عن الحسن وغيره قالوا : أول مَنْ أسلم بعد خديجة علِىٌّ بن أبى طالب عليه السلام .

وروى معمر ، عن عثمان الجزرىّ ، عن مِقْسَم[2] ، عن ابن عباس، قال : أوّل مَنْ أسلم عَلىٌّ بن أبى طالب .

قال أبو عمر : وروى ابنُ فضيل عن الأجلح ، عن حَبّة بن جوين العُرنىّ ، قال : سمعت عليًّا عليه السلام ، يقول : لقد عبدتُ الله قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأمة خمس سنين .

قال أبو عمر : وروى شُعبة ، عن سلمة بن كُهَيل ، عن حَبّة العرنىّ ، قال : سمعت عليا يقول : أنا أوّل مَنْ صلى مع رسول الله صلى الله عليه .

(١) ج : « آمن » .

(٢) هو مقسم بن بجرة . ويقال : نجدة .

قال أبو عمر : وقد روى سالم بن أبى الجعْد ، قال : قلت لابن الحنفيّة : أبو بكر كان أولهما إسلاما ؟ قال : لا .

قال أبو عمر : وروى مسلم الملائى ، عن أنس بن مالك ، قال : استنبئ النبىّ صلى الله عليه وآله يوم الاثنين ، وصلّى علىٌّ يوم الثلاثاء .

قال أبو عمر : وقال زيد بن أرقم : أوّلُ مَنْ آمن بالله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله علىّ بن أبى طالب .

قال : وقد روى حديث زيد بن أرقم من وجوه ، ذكرها النسائى وأسلم بن موسى وغيرهما ؛ منها ما حدثنا به عبد الوارث ، قال : حدثنا قاسم ، قال : حدثنا أحمد بن زهير ، قال : حدثنا علىّ بن الجعْد ، قال : حدثنا شعبة ، قال : أخبرنى عمرو بن مرة ، قال : سمعت أبا حمزة الأنصارىّ قال : سمعت زيد بن أرقم يقول : أوّل مَنْ صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وآله علىّ بن أبى طالب .

قال أبو عمر : [وحدثنا عبد الوارث ، حدثنا قاسم ، حدثنا أحمد بن زهير بن حرب،(١)] ، حدثنا أبى ، قال : حدّثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد ، قال : حدثنا ابن إسحاق قال : حدثنا يحيى بن أبى الأشعث ، عن إسماعيل بن إياس بن عفيف الكندىّ ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال : كنت امرأ تاجرا ، فقدمت الحجّ ، فأتيت العبّاس ابن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة ــ وكان امرأ تاجرا ــ فوالله إنّى لعنده بمنى . إذْ خرج رجل من خِباء قريب منه ، فنظر إلى الشمس ، فلما رآها قد مالت قام يصلّى ، ثم خرجت امرأة من ذلك الخِباء الذى خرج منه ذلك الرجل ، فقامتْ خلفه تصلى ، ثم خرج غلام حين راهقَ الحلُمَ من ذلك الخباء ، فقام معه يصلّى ، فقلتُ للعباس : ماهذا ياعباس ؟ قال : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، ابن أخى ، قلتُ : مَنْ هذه المرأة ؟

---

(١) من الاستيعاب .

قال : امرأته خديجة بنت خويلد ، قلت : ماهذا الفتى ؟ قال : علىّ بن أبى طالب ابن عمه ، قلت : ماهذا الذى يصنع ؟ قال : يصلّى ، وهو يزعم أنه نبىّ ، ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابنُ عمه هذا الغلام ؛ وهو يزعم أنه سيفتح على أمته كنوزَ كسرى وقيصر ، قال : فكان عُفَيف الكندىّ يقول ـ وقد أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه : لوكان الله رزقنى الإسلام يومئذ كنتُ أكون ثانيا مع علىّ .

قال أبو عمر : وقد ذكرنا هذا الحديث من طُرق فى باب عفيف الكندىّ من هذا الكتاب .

قال أبو عمر : ولقد قال علىّ عليه السلام : صلّيت مع رسول الله صلى الله عليه وآله كذا وكذا ، لا يصلّى معه غيرى إلا خديجة .

فهذه الروايات والأخبار كلها ، ذكرها أبو عمر يوسف بن عبد البرّ فى الكتاب المذكور ، وهى كما تراها تكاد تكون إجماعا .

قال أبو عمر : وإنما الاختلافُ فى كمّية سنّه عليه السلام يوم أسلَم ، ذكر الحسن ابن علىّ الحلوانىّ فى كتاب " المعرفة " له ، قال : حدّثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنا الليث ابن سعد ، عن أبى الأسود محمد بن عبد الرحمن ، أنه بلغه أنّ عليا والزبير أسلما وهما ابنا ثمانى سنين . كذا يقول أبو الأسود يتيم عروة ؛ وذكره أيضا ابنُ أبى خيثمة عن قُتيبة بن سعيد ، عن الليث بن سعد ، عن أبى الأسود ؛ وذكره عمر بن شبّة ، عن الحزامىّ ، عن أبى وهب ، عن الليث ، عن أبى الأسود ، قال الليث : وهاجرا وهما ابنا ثمان عشرة سنة .

قال أبو عمر : ولا أعلم أحدا قال بقول أبى الأسود هذا .

قال أبو عمر : وروى الحسن بن على الحلوانىّ ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، قال : حدثنا مَعْمَر ، عن قتادة ، عن الحسن ، قال : أسلم علىّ وهو ابن خمس عشرة سنة .

قال أبو عمر : وأخبرَنا أبو القاسم خلَف بن قاسم بن سهل ، قال: حدّثنا أبو الحسن عليّ بن محمد بن إسماعيل الطوسيّ ، قال : أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق بن إبراهيم السرّاج ، قال : حدثنا محمد بن مسعود ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قَتادة ، عن الحسن، قال : أسلم عليّ ـ وهو أول مَنْ أسلم ـ وهو ابن خمس عشرة سنة ، أو ستّ عشرة سنة .

قال أبو عمر : قال ابنُ وضّاح : وما رأيت أحدا قطّ أعلم بالحديث من محمد بن مسعود، ولا بالرأى من سُحنون .

قال أبو عمر : قال ابن إسحاق : أول ذكرٍ آمن[1] بالله ورسوله عليّ بن أبي طالب عليه السلام ؛ وهو يومئذ ابن عشر سنين .

قال أبو عمر : والروايات فى مَبلغ سنّه عليه السلام مختلفة ، قيل : أسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة . وقيل : ابن اثنتىْ عشرة سنة . وقيل : ابن خمسَ عشرةَ سنة . وقيل : ابن ستّ عشرةَ . وقيل : ابن عشر . وقيل : ابن ثمان .

قال أبو عمر : وذكر عُمر بن شَبّة، عن المدائنيّ ، عن ابن جَعْدة، عن نافع، عن ابن عمر قال : أسلم عليّ وهو ابن ثلاثَ عشرةَ سنة .

قال : وأخبرنا إبراهيم بن المنذر الحِزاميّ ، قال: حدثنا محمد بن طلحة، قال : حدثنى جدى إسحاق بن يحيى ، عن طلحة ، قال : كان عليّ بن أبى طالب عليه السلام والزبير ابن العوام وطَلْحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص أعمارا واحدة .

قال : وأخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن ، قال : حدثنا إسماعيل بن عليّ الخطبيّ ، قال : حدّثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل ؛ قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنا حُجَيْن أبو عمر ، قال: حدثنا حِبّان، عن معروف، عن أبى معشر، قال: كان عليّ عليه السلام وطلحة والزبير فى سنٍّ واحدة .

(١) ج : « أسلم » .

قال : وروى عبد الرزاق ، عن الحسن وغيره : أنّ أوّلَ مَنْ أسلم بعد خديجة علىّ ابن أبى طالب عليه السلام ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، أو ستّ عشرة .

قال أبو عمر : وروى أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدثنا شريح بن النعمان ، قال : حدثنا الفُرات بن السائب ، عن ميمون بن مِهران ، عن ابن عمر ، قال : أسلم علىّ وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة .

قال أبو عمر : هذا أصحّ ماقيل فى ذلك والله أعلم .

انتهى حكاية كلام أبى عمر فى كتاب " الاستيعاب " .

***

واعلم أنّ شيوخنا المتكلّمين لا يكادُون يختلفون فى أنّ أوّل الناس إسلاما علىّ ابن أبى طالب عليه السلام ؛ إلا مَنْ عساه خالف فى ذلك من أوائل البصريين ، فأما الذى تقررت المقالةُ عليه الآن فهو القول بأنه أسبقُ الناس إلى الإيمان ، لا تكاد تجد اليوم فى تَصانيفهم وعند متكلميهم والمحققين منهم خلافا فى ذلك .

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام مازال يدّعى ذلك لنفسه ، ويفتخر به ، ويجعله فى أفضليّته عَلَى غيره ، ويصرّح بذلك ، وقد قال غير مرة : أنا الصدّيق الأكبر ، والفاروق الأوّل ، أسلمت قبل إسلام أبى بكر ، وصلّيت قبل صلاته .

وروى عنه هذا الكلام بعينه أبو محمد بن قتيبة فى كتاب " المعارف "[1] وهو غير متّهم فى أمره .

ومن الشعر المرويّ عنه عليه السلام فى هذا المعنى الأبيات التى أولها :

محمد النبىّ أخى وصِهْرِى وحمزة سيّدُ الشهداء عَمِّى

ومن جملتها :

سبقتكمُ إلى الإسلام طرًّا غلاما ما بلغتُ أوَانَ حِلمى

(١) المعارف ١٦٧

والأخبار الواردة فى هذا الباب كثيرة جدا لا يتسع هذا الكتاب لذكرها ، فلتُطلَبْ من مظانّها .

ومن تأمل كتب السِّيَر والتورايخ عرَف مِنْ ذلك ماقلناه .

فأمّا الذاهبون إلى أنّ أبا بكر أقدَمهما إسلاما فنفر قليلون ؛ ونحن نذكر ما أورده ابن عبد البرّ أيضا فى كتاب " الاستيعاب " فى ترجمة أبى بكر[1] .

قال أبو عمر : حدثنى خالد بن القاسم ، قال : حدثنا أحمد بن محبوب ، قال: حدثنا محمد ابن عبدوس ، قال : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، قال : حدثنا شيخ لنا ، قال : أخبرنا مجالد ، عن الشعبى ، قال : سألت ابنَ عباس ـ أو سئل : ـ أىّ الناس كان أوّل إسلاما؟ .فقال : أما سمعتَ قول حسان بن ثابت :

إذا تذكّرْتَ شَجْواً مِنْ أخِى ثقةٍ　　　فاذكُرْ أخاكَ أبا بكرٍ بما فعلا[2]
خَيرَ البريّة أتقاها وأعدلَها　　　بعدَ النبىّ وأوفاها بما حَمَلا
والثانىَ التالىَ المحمودَ مَشْهَدُه　　　وأوّلُ الناس منهم صَدّقَ الرسلا

ويُرْوَى أن النبى صلى الله عليه وآله ، قال لحسان : « هل قلت فى أبى بكر شيئا؟» ، قال : نعم ؛ وأنشده هذه الأبيات ، وفيها بيت رابع :

وثانىَ اثنين فى الغار المنيفِ وَقَدْ　　　طاف العدوُّ به إذ صَعّدُوا الجَبَلا

فسُرّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : « أحسنتَ ياحسان »؛ وقد روى فيها بيت خامس :

وَكَانَ حِبَّ رسولِ الله قد علمُوا　　　من البريّةِ لم يَعْدِلْ بهِ رَجُلَا

---

(١) كتاب الاستيعاب ص ٩٦٤

(٢) ديوانه ٢٩٩ ، ٣٠٠ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات .

وقال أبو عمر : وروى شُعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن إبراهيم النَّخعِىّ ، قال : أوّل مَنْ أسلم أبو بكر .

قال : وَرَوى الجريرىّ،عن أبى نصر ، قال:قال أبو بكر لعلىّ عليه‌السلام:أنا أسلمت قبلك ؛ فى حديث ذكره فلم ينكِرْه عليه .

قال أبو عمر : وقال فيه أبو مِحْجَن الثّقفىّ :

وَسُمِّيتَ صِدِّيقاً وكلُّ مهاجر   سواك يسمّى باسمه غير منكَرِ
سبقتَ إلى الإسلام واللهُ شاهدٌ   وكنتَ جليساً بالعريش المُشَهَّرِ
وبالغار إذ سُمِّيت خِلاً وصاحباً   وكنت رفيقاً للنبىّ المطهَّرِ

قال أبو عمر : وروينا من وجوه ، عن أبى أمامة الباهلىّ ، قال : حدثنى عمرو ابن عَبَسة،قال:أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله؛وهو نازل بعُكَاظ،فقلت : يارسولَ الله ، من اتَّبعَكَ عَلَى هذا الأمر ؟ فقال : حرّ وعبد : أبو بكر وبلال . قال : فأسلمت عند ذلك ، وذكر الحديث .

هذا مجموع ماذكره أبو عمر بن عبد البرّ فى هذا الباب فى ترجمة أبى بكر ؛ ومعلوم أنّه لا نسبة لهذه الروايات إلى الروايات التى ذكرها فى ترجمة علىّ عليه‌السلام الدالّة عَلَى سَبْقه؛ ولا ريب أنّ الصحيح ماذكره أبو عمر أنّ عليًّا عليه السلام كان هو السابق،وأن أبا بكر هو أوّلُ من أظهر إسلامَه ، فظنّ أن السبق له ..

وأما زيد بن حارثة ؛ فإنّ أبا عمر بن عبد البرّ رضى الله تعالى عنه ذكر فى كتاب " الاستيعاب " ؛ أيضاً فى ترجمة زيد بن حارثة،قال : ذكر معمَر بن شبّة فى جامعه عن الزهرىّ أنه قال : ماعلمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة [١] .

---

(١) الاستيعاب ٢ ٥٤٢

قال عبد الرزّاق : وما أعلم أحداً ذكره غير الزهرىّ .

ولم يذكر صاحب " الاستيعاب " مايدلّ على سبق زيد إلا هذه الرواية؛ واستغربها؛ فدلّ مجموع ماذكرناه أنّ عليا عليه السلام أوّلُ الناس إسلاما، وأن المخالف فى ذلك شاذّ، والشاذّ لا يعتدّ به .

* * *

[فصل فيما ذكر من سبْق علىّ إلى الهجرة]

المسألة السابعة :

أن يقال: كيف قال : « إنه سبق إلى الهجرة » ومعلوم أنّ جماعة من المسلمين هاجروا قبله، منهم عثمان بن مظعون وغيره ؛ وقد هاجر أبو بكر قبله، لأنه هاجر فى صحبة النبىّ صلى الله عليه وآله؛ وتخلف علىّ عليه السلام عنهما[1]، فبات على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله؛ ومكث أياما يردّ الودائع التى كانتْ عنده ، ثم هاجر بعد ذلك ؟

والجواب، أنّه عليه السلام لم يقل : « وسبقت كلّ الناس إلى الهجرة » ؛ وإنما قال: « وسبقت » فقط ؛ ولا يدلّ ذلك على سَبْقه للناس كافة ؛ ولا شبهة أنّه سبق معظم المهاجرين إلى الهجرة ، ولم يهاجر قبلَه أحد إلا نفر يسير جدا .

وأيضا فقد قلنا إنه علّل أفضليّته وتحريم البراءة منه مع الإكراه بمجموع أمور : منها ولادته على الفِطْرة، ومنها سبقه إلى الإيمان ، ومنها سَبْقه إلى الهجرة؛ وهذه الأمور الثّلاثة لم تجتمع لأحد غيره ؛ فكان بمجموعها متميّزا عن كلّ أحد من الناس .

وأيضاً فإنّ اللام فى « الهجرة » يجوز ألّا تكون للمعهود السابق ، بل تكون للجنس، وأميرُ المؤمنين عليه السلام سبق أبا بكر وغيره إلى الهجرة التى قبل هِجْرة المدينة؛ فإنّ النبىّ صلى الله عليه وآله هاجرَ عن مكة مرارا يطوف على أحياء العرب ، وينتقل من

(١) ج : « عنه » .

أرض قوم إلى غيرها ؛ وكان علىٌّ عليه السلام معه دون غيره .

أما هجرته إلى بنى شيبان ؛ فما اختلف أحد من أهل السيرة أنّ عليا عليه السلام كان معه هو وأبو بكر ، وأنّهم غابوا عن مكة ثلاثة عشر يوما وعادوا إليها ، لمّا لم يجدوا عند بنى شيبان ما أرادوه من النُّصْرَة .

وروى المدائنيّ فى كتاب " الأمثال " عن المفضّل الضبيّ ؛ أنّ[1] رسول الله صلى الله عليه وآله لما خرج عن مكة يعرِض نفسه على قبائل العرب ، خرج إلى ربيعة ، ومعه علىٌّ عليه السلام وأبو بكر ، فدفعوا إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدّم أبو بكر — وكان نسّابة — فسلّم فردُّوا عليه السلام ؛ فقال : ممّن القوم ؟ قالوا : من ربيعة ، قال : أمِنْ هامتها أم من لَهَازمها ؟[2] قالوا : من هامتها العظمى ، فقال : مِنْ أىّ هامتها العظمى أنتم ؟ قالوا : من ذُهْل الأكبر ، قال : أفمنكم عَوْف الذى يقال له : لا حُرّ بوادى عوف ؟ قالوا : لا ، قال : أفمنكم بِسطام ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟ قالوا : لا ، قال : أفمنكم جَسّاس حامِى الذّمار ومانع الجار ؟ قالوا : لا ، قال : أفمنكم الحوْفَزان ، قاتل الملوك وسالبها أنفسها ؟ قالوا : لا ، قال : أفمنكم المزدَلِف صاحب العمامة الفَرْدة ؟ قالوا : لا ، قال : أفأنتم أخوالُ الملوك من كِنْدة ؟ قالوا : لا ، قال : فلستم إذن ذُهْلا الأكبر ؛ أنتم ذُهْل الأصغر . فقام إليه غلام قد بَقَل[3] وجهه ، اسمه دَغْفَل ، فقال :

إنّ على سائِلنا أنْ نَسْأَلَهْ　　والعِبْء لا تعرِفُه أو تحمِلَهْ

---

(١) الخبر فى مجمع الأمثال ١٧ ، ١٨

(٢) فسره صاحب اللسان فقال : « وفى حديث أبى بكر والنسابة : « أمن هامتها أو لهازمها » ؛ أى من أشرافها أنت أو من أوساطها ؛ واللهازم أصول الحنكين ؛ واحدتها لهزمة بالكسر ؛ فاستعارها لوسط النسب والقبيلة » .

(٣) بقل وجهه ؛ أى خرج شعره .

ياهذا ، إنك قد سألتنا فأجبناك ، ولم نكتمك شيئا ، فمّن الرجل ؟ قال : من قريش ، قال : بخٍ بخٍ ! أهل الشرف والرّياسة ؛ فمِنْ أىّ قريش أنت ؟ قال : من تَيْم بن مرّة ، قال : أمكنتَ والله الرامى من الثُّغْرة(١) ؛ أمِنكم قصىّ بن كِلاَب الذى جَمَع القبائل من فِهْر فكان يدعى مجمِّعا ؟ قال : لا ، قال : أفمنكم هاشم الذى هَشَم لقومه الثريدَ ؟(٢) قال : لا ، قال : أفمنكم شيبةُ الحمد ، مُطعم طير السّماء ؟(٣) قال : لا ، قال : أفمن المفيضين بالناس أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمِنْ أهل النَّدْوة أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمِنْ أهل الرِّفادة(٤) أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمِن أهل الحِجابة أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمِن أهل السِّقاية ؟ قال : لا ، قال : فاجتذب أبو بكر زِمام ناقته ، ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله هاربا من الغُلام ؛ فقال دَغْفل :

* صادَفَ دَرْءَ السيل دَرْءٌ يصدعه(٥) *

أما والله لو ثبتَّ لأخبرتُكَ أنك من زَمَعات(٦) قريش ؛ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله . وقال علىّ عليه السلام لأبى بكر : لقد وقعتَ يا أبا بكر من الأعرابىّ على باقعة ؛ قال : أجل ؛ إن لكل طامّة طامّة والبلاء موكّل بالمنطق ، فذهبت مثلا .

* * *

وأما هجرته صلى الله عليه وآله إلى الطائف ، فكان معه علىّ عليه السلام وزيد بن

---

(١) فى مجمع الأمثال : « من صفاء الثغرة » .

(٢) بعده فى مجمع الأمثال : « ورجال مكة مسنتون عجاف » .

(٣) بعده فى مجمع الأمثال : « الذى كان فى وجهه قمر يضىء ليل الظلام الداجى » .

(٤) فى اللسان : « الرفادة شىء كانت قريش تترافد به فى الجاهلية ؛ فيخرج كل إنسان مالا بقدر طاقته ، فيجمعون من ذلك مالا عظيما أيام الموسم ، فيشترون به للحاج الجزر والطعام والزبيب فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضى أيام الموسم ، وكانت الرفادة والسقاية لبنى هاشم والسدانة واللواء لبنى عبدالدار ؛ وكان أول من قام بالرفادة هاشم بن عبد مناف » .

(٥) درأ الوادى بالسيل ، دفعه ؛ وأورد المثل صاحب اللسان وفسره بقوله : « يقال للسيل إذا أتاك من حيث لا تحتسبه : سيل دره ؛ أى يدفع هذا ذاك وذاك هذا » .

(٦) الزمعة فى الأصل : التلعة الصغيرة ، أى لست من أشرافهم . وانظر اللسان (زمع) .

حارثة فى رواية أبى الحسن المدائنى ، ولم يكن معهم أبو بكر . وأما رواية محمد بن إسحاق ؛ فإنه قال : كان معه زيد بن حارثة وَحْدَه ، وغاب رسول الله صلى الله عليه وآله عن مكة فى هذه الهجرة أربعين يوما ؛ ودخل إليها فى جوار مُطْعِم بن عدى .

* * *

وأما هجرته صلى الله عليه وآله إلى بنى عامر بن صعصعة وإخوانهم من قَيْس عيلان ؛ فإنه لم يكن معه إلا علىّ عليه السلام وَحْدَه ؛ وذلك عَقِيب وفاة أبى طالب ؛ أوحِى إليه صلى الله عليه وآله : اخرج منها ؛ فقد مات ناصرُك ، فخرج إلى بنى عامر بن صعصعة ؛ ومعه عَلِىّ عليه السلام وحدَه ، فعرض نفسَه عليهم وسألهم النصر ، وتلا عليهم القرآن فلم يجيبوه ؛ فعادا عليهما السلام إلى مكة ؛ وكانت مدة غيبته فى هذه الهجرة عشرة أيام ؛ وهى أوّل هجرة هاجرها صلى الله عليه وآله بنفسه .

فأما أوّل هجرة هاجرها أصحابه ولم يهاجر بنفسه فهجرةُ الحبشة ؛ هاجر فيها كثيرٌ من أصحابه عليه السلام إلى بلاد الحبشة فى البحر ؛ منهم جعفر بن أبى طالب عليه السلام ؛ فغابوا عنه سنين ؛ ثم قدم عليه منهم مَنْ سلم وطالت أيامه[1] وكان قدوم جعفر عليه عامَ فتح خَيْبر ؛ فقال صلى الله عليه وآله : « ما أدرى بأيّهما أنا أسَرّ ؛ أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر » !

---

(١) ج : « مدته » .

(٥٧)

ومن كلام له عليه السلام كلم به الخوارج :

الأصل:

أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ ، وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آبِرٌ . أَبَعْدَ إِيمَانِي بِاللهِ ، وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكُفْرِ ! لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ . فَأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ ، وَارْجِعُوا عَلَى أَثَرِ الْأَعْقَابِ .

أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلًّا شَامِلًا ، وَسَيْفًا قَاطِعًا ، وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً .

* * *

قال الرضيّ رحمه الله :

قوله عليه السلام : « وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آبِرٌ » ، يُرْوَى على ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها أن يكونَ كما ذكرناهُ : « آبِر » بالرّاء ؛ من قولهم : رَجُلٌ آبِرٌ ؛ للذي يَأْبُرُ النَّخل ، أي يُصْلِحُهُ .

وَيُرْوَى : « آثِرٌ » بالثّاء ، بثلاث نقطٍ ، يُرَاد به الذي يَأْثِرُ الحديثَ ، أي يرويه ويحكيه ؛ وهو أصحُّ الوُجُوه عندِي ، كأنهُ عليهِ السلام قال : لا بَقِيَ منكم مُخْبِرٌ .

وَيُرْوَى : « آبِزٌ » بالزّاي المعجمة ، وهو الوَاثِبُ ، والهالِكُ أيضاً يُقَالُ له : آبِزٌ .

* * *

الشرح :

الحاصب : الريح الشديدة التى تُثير الحصباء ؛ وهو صغار الحصى ؛ ويقال لها أيضا حَصِبَة ، قال لَبيد :

جَرَّتْ عَلَيْهَا إذْ خَوَتْ من أهْلِهَا أذيالَها كلُّ عَصُوفٍ حَصِبَة[١]

فأما التفسيرات التى فَسّر بها الرضى رحمه الله تعالى قوله عليه السلام : « آبر » فيمكن أن يزاد فيها ، فيقال : يجوز أن يريد بقوله : « ولا بقى منكم آبِر » أى نَمّام يفسد ذات البين ؛ والمِئْبَرَة : النميمة ، وأبر فلان ، أى نَمّ ، والآبر أيضا : مَنْ يبغى القوم الغوائل خفْيَةً ، مأخوذ من أبَرْتُ الكلب إذا أطعمتَه الإبرة فى الخبز ؛ وفى الحديث : « المؤمن كالكلب المأبور » ؛ ويجوز أنْ يكون أصلُه « هابر » ؛ أى مَنْ يضرب بالسيف فيقطع ؛ وأبدلت الهاء همزة ، كما قالوا فى : « آل » أهل ؛ وإن صحّت الرواية الأخرى « آثر » بالثاء بثلاث نقط ، فيمكن أن يريد به ساجى باطن خُفّ البعير ؛ وكانوا يَسْجُون باطن الخفّ بحديدة ليقتصّ أثره ؛ رجل آثر وبعير مأثور .

وقوله عليه السلام : « فأوبوا شرّ مآب » ، أى ارجعوا شرّ مرجع . والأعقاب : جمع عَقِب بكسر القاف ؛ وهو مؤخّر القدم ، وهذا كله دعاء عليهم ، قال لهم أوّلا : أصابكم حاصِب ، وهذا من دعاء العرب ، قال تميم بن أبى مُقْبل :

فَإذَا خَلَتْ من أهْلِهَا وقطينِها فأصابَها الحصْباء والسّفّانُ

ثم قال لهم ثانيا : « لا بقى منكم مخبر » . ثم قال لهم ثالثا : « ارجعوا شرّ مرجع » ، ثم قال لهم رابعاً : « عودوا على أثر الأعقاب » : وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿وَنُرَدُّ[٢]

---

(١) ديوانه ٣٥٥ البيت أيضاً فى اللسان ١ : ٣١٠

(٢) سورة الأنعام ٧١

عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا ٱللَّهُ ﴾ ؛ والمراد انعكاس حالهم؛ وعودهم من العزّ إلى الذلّ ؛ ومن الهداية إلى الضلال .

وقوله عليه السلام : « وأثَرَة يتّخذها الظالمون فيكم سنّة » فالأثَرَة ها هنا الاستبداد عليهم بالفيء والغنائم واطّراح جانبهم، وقال النبيّ صلى الله عليه وآله للأنصار : « ستلقون بعدى أَثَرَةً فاصبروا حتى تلقونى » .

[أخبار الخوارج وذكر رجالهم وحروبهم]

واعلم أن الخوارجَ عَلَى أمير المؤمنين عليه السلام كانوا أصحابَه وأنصارَه في الجمل وصِفّين قبل التحكيم ؛ وهذه المخاطبة لهم ، وهذا الدعاء عليهم ؛ وهذا الإخبار عن مستقبل حالهم ، وقد وقع ذلك ، فإنّ الله تعالى سَلّط عَلَى الخوارج بعده الذلّ الشامل ، والسيف القاطع ، والأثرة من السلطان ، وما زالت حالُهم تضمحلّ ؛ حتى أفناهم الله تعالى وأفنى جُمهورهم ؛ ولقد كان لهمْ من سيف المهلّب بن أبى صفرة وبنِيه الحتْف القاضى ، والموت الزؤام .

ونحن نذكر من أخبار الخوارج وحروبهم هاهنا طرفا .

***

[عروة بن حدير]

فمنهم عُروة بن حُدَيْر أحد بنى ربيعة بن حنظلة من بنى تميم ؛ ويعرف بعُرْوة ابن أدَيّة ، وأديّة جدة له جاهليّة ؛ وكان له أصحاب وأتباع وشيعة ، فقتله زياد فى خِلافة معاوية صبرا .

***

[نجدة بن عويمر الحنفيّ]

ومنهم نجدة بن عُويمر[1] الحنفيّ ، كان من رؤسائهم ؛ وله مقالة[2] مفردة من مقالة الخوارج

---

(١) وهو نجدة بن عامر ؛ وانظر الكامل ٣ : ١٨٤ .
(٢) انظر الملل والنحل للشهرستانى ١ : ١١٠ — ١١٢

وله أتباع وأصحاب ؛ وإليهم أشار الصَّلَتَان العبدىّ بقوله[١] :

أرى أمَّـةً شَهَرَتْ سيفَهـــا ... وقد زِيدَ فى سوطِها الأصبحِى[٢]
بنجديّة أو حَـــرُورِيّةٍ ... وأزرق يـــدعو إلى أزْرقِ
فملّتنا أنّنـــا مسلمونَ ... على دِين صدّيقنـــا والنّبى
أشابَ الصغيرَ وأفنَى الكبيـ ... ـيرَ مَرُّ الغَدَاةِ وكَرُّ العَشِى
إذا ليـــلة أهْرَمَتْ يومَها ... أتى بعـــد ذلك يوم فَتِى
نرُوح ونغـــدو لحاجاتِنـــا ... وحاجــةُ مَنْ عَاشَ لا تنقضِى
تموت مع المرء حاجاتُـــــه ... وتبـــقى له حاجة ما بَقِى

وكان نجدة يصلّى بمكة بحذاء عبدالله بن الزبير فى جمعه [فى كلّ جُمْعَةٍ][٣] ، وعبدالله يطلب الخلافة ، فيمسكان عن القتال من أجل الحرَم .

وقال الراعى يخاطب عبد الملك[٤] :

إنى حَلَفتُ عَلَى يمينٍ بَرّةٍ ... لا أكذبُ اليومَ الخليفةَ قيلاَ
ما إن أتيتُ أبا خُبَيْبٍ وافداً ... يوماً أريدُ لبيعتى تبـــديلا[٥]
ولَمّـا أتيت نُجيدة بن عُوَيْمرٍ ... أبغِى الهُدَى فيزيدُنى تضليلا
مِنْ نعمةِ الرحمن لامِنْ حيلتِى ... أنّى أعـــدُّ لهُ عَلَىّ فُضُولا !

واستولى نَجْدة على اليمامة ، وعظُم أمره ؛ حتى ملك اليمن والطائف وعُمان والبحرين ووادِى تميم وعامر ؛ ثم إن أصحابه نَقَموا عليه أحكاماً أحدثهافى مذهبهم ؛ منهاقوله: إنّ

(١) الأبيات فى ديوان الحماسة ٣ : ١٩١ — بشرح التبريزى ومعاهد التنصيص ١ : ٧٣ ، ٧٤ ، والكامل ٦ : ١٠١ — بشرح المرصفى مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات وترتيبها .
(٢) السوط الأصبحى : منسوب إلى ذى أصبح الحميرى ؛ وكان أول من اتخذ هذه السياط التى يعاقب عليها السلطان . وانظر الكامل ٢ : ٢٤٦ — بشرح المرصفى
(٣) من كتاب الكامل بشرح المرصفى ٦ : ١٠٢
(٤) من ملحمته فى جمهرة أشعار العرب ١٧٤
(٥) أبو خبيب : كنية ابن الزبير .

المخطىء بَعْد الاجتهاد معذور ، وإن الدين أمران : معرفة الله ومعرفة رسوله ؛ وما سوى ذلك فالناس معذورون بجهله ؛ إلى أن تقوم عليهم الحُجّة ؛ فمن استحلّ محرّما من طريق الاجتهاد فهو معذور ؛ حتى إنّ مَنْ تزوّج أخته أو أمه مستحلًّا لذلك بجهالة فهو معذور ومؤمن ؛ فخلعوه وجعلوا اختيار الإمام إليه ؛ فاختار لهم أبافُدَيك، أحد بنى قيس بن ثعلبة؛ فجعله رئيسهم . ثم إن أبافُدَيك أنفذ إلى نَجْدة بعدُ مَنْ قتله ، ثم تولاه بعد قتله طوائف من أصحابه بعد أن تفرّقوا عليه ؛ وقالوا : قتل مظلوما .

***

[المستورد بن سعد التميمىّ]

ومنهم المستورد بن سعد أحد بنى تميم ؛ كان ممن شهد يوم النُّخَيلة ونجا بنفسه فيمن نجا من سيفِ علىّ عليه السلام ؛ ثم خرج بعد ذلك بمدّة على المغيرة بن شعبة، وهو والى الكوفة لمعاوية بن أبى سفيان فى جماعة من الخوارج ؛ فوجّه المغيرة إليه معقِل بن قيس الرّياحىّ ، فلما توافقا دعاه المستورد إلى المبارزة ، وقال له :علام تقتل الناس بينى وبينك؟ فقال معقل: النَّصَفَ سألت ، فأقسم عليه أصحابُه، فقال : ما كنت لآبىَ عليه؛ فخرج إليه فاختلفا ضربتين ، خرّ كلّ واحد منهما من ضربة صاحِبه قتيلا .

وكان المستورد ناسكا كثير الصلاة ؛ وله آداب وحكم مأثورة [١] .

***

[حوثرة الأسدىّ]

ومنهم حَوْثرة الأسدىّ ، خرج على معاوية فى عام الجماعة فى عِصابة من الخوارج ؛ فبعث إليه معاوية جيشا من أهل الكوفة ، فلما نظر حَوْثرة إليهم ، قال لهم : يا أعداءالله؛ أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدُّوا سلطانه ؛ وأنتم اليوم تقاتلون معه لتشدُّوا سلطانه! فلما

(١) الكامل ٥٧٧ (طبعة أوربا) ؛ وأورد من كلامه : إذا أفضيت بسرى إلى صديق فأفشاه لم ألمه؛ لأنى كنت أولى بحفظه . لاتفش إلى أحد سرا وإن كان مخلصا إلا على وجه المشاورة . كن أحرص الناس على حفظ سر صاحبك منك على حقن دمك .

التحمت الحرب قتِل حوثرة ، قتَله رجل من طيّئ ، وفضّت جموعه[١] .

***

[قريب بن مرة وزحّاف الطائىّ]

ومنهم قُريب بن مرّة الأزدىّ ؛ وزَحّاف الطائىّ ، كانا عابدين مجتهديْن من أهل البصرة ، فخرجا فى أيام معاوية فى إمارة زياد ؛ واختلف الناس : أيّهما كان الرئيس ؟ فاعترضا الناس ، فلقيا شيخا ناسكا من بنى ضُبيعة من ربيعة بن نزار فقتلاه — وكان يقال له رُؤْبة الضُّبَعى — وتنادى الناس ، فخرج رجل من بنى قَطيعة ، من الأزد ، وفى يده السّيْف ، فناداه الناس من ظهور البيوت الحروريّة : انجُ بنفسك ؛ فنادوْه : لسنا حَرُورية ، نحن الشُّرَط [فوقف][٢] فقتلوه ؛ فبلغ أبا بلال مرداس بن أُدَيّة خبرُهما ، فقال : قريب ، لاقرّبه الله ! وزحّاف لاعفا الله عنه ! ركباها عَشْواء مظلِمة — يريد اعتراضهما الناس — ثم جعلا لا يمرّان بقبيلة إلا قَتَلا مَن وجدا ؛ حتى مَرّا على بنى علىّ بن سُود ، من الأزد ؛ وكانوا رماة ، كان فيهم مائة يُجيدون الرمى ؛ فرموهم رَمْياً شديداً فصاحوا : يا بنى علىّ ، البقيا ، لا رِماء بيننا . فقال رجل من بنى علىّ بن سود :

لَا شَىْءَ للقوم سِوَى السِّهامِ   مشحوذةً فى غَلَسِ الظَّلامِ

فمرّد عنهم الخوارج[٣] ، وخافوا الطلب ، واشتقّوا مقبرة بنى يشكُر حتى نفذُوا إلى مُزَيْنَة ينتظرون مَنْ يلحق بهم من مُضَر وغيرها ، فجاءهم ثمانون ، وخرجت إليهم بنو طاحِيَة ، من بنى سُود ، وقبائلُ من مُزَيْنة وغيرها ، فاستقتلت الخوارج ، وحاربت حتى قُتِلت عن آخرها ، وقُتِل قُرَيب وزَحّاف[٤] .

---

(١) الكامل ٥٧٩ (طبع أوربا) .
(٢) من كتاب الكامل
(٣) عردوا ، من التعريد وهو الفرار .
(٤) الكامل ٥٨١ ، ٥٨٢ (طبع أوربا) .

ومنهم أبو بلال مرداس بن أديّة ، وهو أخو عروة بن حُدير الذى ذكرناه أولا ، خرج فى أيام عُبيدالله بن زياد ، وأنفذ إليه ابنُ زياد عباسَ بن أخضر المازنىّ ، فقتله وقتل أصحابه، وحُمل رأسه إلى ابن زياد ، و كان أبو بلال عابدا ناسكا شاعرا، ومن قدماء أصحابنا مَنْ يدّعيه ، لِمَا كان يذهب إليه من العَدْل وإنكار المنكر ، ومن قدماء الشيعة من يَدّعيه أيضاً .

* * *

[نافع بن الأزرق الحنفىّ]

ومنهم نافع بن الأزرق الحنفىّ ، وكان شجاعا مقدما فى فقه الخوارج ، وإليه تنسب الأزارقة، وكان يفتِي بأنّ الدار دار كفر، وأنهم جميعا فى النار، وكلّ مَنْ فيها كافر، إلا من أظهر إيمانه ، ولا يحلّ للمؤمنين أن يجيبوا داعياً منهم إلى الصلاة ، ولا أن يأكلوا مِنْ ذبائحهم ، ولا أن يناكحوهم ، ولا يتوارث الخارجىّ وغيره ، وهم مثل كفّار العرب وعَبَدة الأوثان ، لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والقعَد بمنزلتهم، والتقيّة لا تحلّ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾[1]،وقال فيمن كان على خلافهم : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾[2]، فتفرّق عنه جماعة من الخوارج ؛ منهم نجدة بن عامر ، واحتج نَجْدة بقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ ،[3] فسار نَجْدَة وأصحابه إلى اليمامة، وأضاف نافع إلى مقالته التى[4] قدّمناها ، استحلاله الغدر بأمانته لمن خالفه ، فكتب نَجْدة إليه :

(١) سورة النساء ٧٧
(٢) سورة المائدة ٥٤
(٣) سورة غافر ٢٨
(٤) ب : « مقالة » .

أمّا بعدُ ؛ فإنّ عهدى بك وأنت لليتيم كالأبِ الرحيم ، وللضّعيف كالأخ البرّ ، تعاضد قوىّ المسلمين ، وتصنع للأخرق منهم ؛ لاتأخذُك فى الله لومة لائم ؛ ولا ترى معونةَ ظالم ؛ كذلك كنتَ أنت وأصحابك ، أولا[1] تتذكر قولك : لولا أنى أعلمُ أنّ للإمام العادل مثل أجر رعيته ماتوليت أمر رجلين من المسلمين ! فلما شَرَيْتَ نفسَك فى طاعة ربّك ابتغاء مرضاته ، وأصبت من الحقّ فَصّه[2] ، وصبَرْتَ على مُرّه ، تجرّدَ لك الشيطان ؛ ولم يكن أحدٌ أثقلَ عليه وطأة منك ومن أصحابك ؛ فاستمالك واستهواك ؛ وأغواك فغويت ، وأ كفرت الذين عَذَرهم الله تعالى فى كتابه ، من قَعَدة المسلمين وضَعَفتهم ، قال الله عزّ وجلّ ، وقوله الحقّ ، ووعده الصدق : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَى وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَايُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾[3] : ثم سماهم تعالى أحسن الأسماء فقال : ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾[4] ثم استحللت قتل الأطفال ، وقد نهى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن قتلهم ، وقال الله جل ثناؤه : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾[4] ، وقال سبحانه فى القَعَدة خيرا ، فقال : ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[5] فتفضيله المجاهدين على القاعدين لايدفع منزلة مَنْ هو دون المجاهدين ، أوَما سمعت قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِى ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى ٱلضَّرَرِ ﴾[6] فجعلهم من المؤمنين . [وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم][7] ثم إنك لاتؤدى أمانةً إلى مَنْ خالفك ، والله تعالى قد أمرَ أنْ تؤدّى الأمانات إلى أهلها . فاتق الله فى نفسك ، واتّقِ يوماً لايجزى فيه والدٌ عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ؛ فإن الله بالمرصاد ، وحكمُه العدل ، وقولُه الفصل . والسلام[8] .

(١) الكامل : « أما » (٢) فصه : كنهه
(٣) سورة التوبة ٩١
(٤) سورة الإسراء ١٥
(٥) سورة النساء ٩٥
(٦) سورة النساء ٩٥
(٧) من كتاب الكامل
(٨) الكامل ٦١٢ (طبع أوربا) .

فكتب إليه نافع :

أما بعـــد ، أتانى كتابُك تعظُنى فيه ، وتذكِّرنى وتنصحُ لى وتزجرنى ، وتصفُ ما كنتُ عليه من الحق ، وما كنت أوثره من الصواب ، وأنا أسألُ الله أن يجعلنى من القوم الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه .

وعبتَ علىّ مادِنْتُ به ، من إكفار القَعَدةِ وقتْل الأطفال ، واستحلالِ الأمانةمن المخالفين ، وسأفسر لك إن شاء الله . . .

أما هؤلاء القَعَدةُ ، فليسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه، لأنهم كانو بمكةمقهورين محصورين لايجدون إلى الهرب سبيلا ،ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا ، وهؤلاء قد تفقّهوا فى الدين ، وقرءوا القرآن ، والطريقُ لهم نَهْجٌ واضح . وقد عرفت ماقال الله تعالى فيمن كان مثلَهم ، إذ قالوا : ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾(١) فقال : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾(١)، وقال سبحانه : ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ ٱللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللهِ ﴾(٢)، وقال : ﴿ وَجَاءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾(٣) فخبّر بتعذيرهم ،وأنهم كذَّبوا الله ورسوله، ثم قال : ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٣) فانظر إلى أسمائهم وسماتهم .

وأما الأطفـال ، فإن نوحا نبىّ الله كان أعلَم بالله منّى ومنك ، وقد قال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾(٤) ، فسماهم بالكفر وهم أطفال ، وقبل أن يولدوا ، فكيف كان ذلك

---

(١) سورة النساء ٩٧

(٢) سورة التوبة ٨١

(٣) سورة التوبة ٩٠

(٤) سورة نوح ٢٦ ، ٢٧

فى قوم نوح ، ولاتقوله فى قومنا[1] ؛ والله تعالى يقول : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾[2] ، وهؤلاء كمشركى العرب ، لايقبل منهم جِزْية ، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام .

وأمّا استحلال أمانات مَنْ خالفنا فإنّ الله تعالى أحلّ لنا أموالهم ، كما أحلّ دماءهم لنا ، فدماؤهم حَلال طِلْق[3] ، وأموالهم فىء للمسلمين ؛ فاتّقِ الله وراجع نفسكَ، فإنه لاعذرَ لك إلا بالتوبة ؛ ولن يسعَك خِذلاننا والقعود عنّا وترك ما نهجناه لك من مقالتنا ، والسلام على من أقرّ بالحقّ وعمل به[4] .

وكتب إلى مَنْ بالبصرة من المحكّمة : أما بعد فإنّ الله اصطفى لكم الدين فلاتموتنّ إلا وأنتم مسلمون. إنّكم لتعلمون أنّ الشريعة واحدة ، والدين واحد ، ففيم المقام بين أظهر الكفّار ترون الظلم ليلا ونهارا ، وقد ندبكم الله عز وجل إلى الجهاد ، فقال : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾[5] ، ولم يجعلْ لكم فى التخلّف عذرا فى حالٍ من الأحوال ، فقال : ﴿ انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً ﴾[6] وإنما عذر الضعفاء والمرضى ، والذين لايجدون ماينفقون ، ومَن كانت إقامتُه لِعلّة ، ثم فضّل عليهم مع ذلك المجاهدين فقال : ﴿ لا يستوى الْقَاعِدُونَ من المؤمنين غَيْرُ أولى الضَّرَرِ والمجاهدُون فى سبيل الله ﴾[7] ، فلا تغتروا وتطمئنوا إلى الدنيا ، فإنها غرّارة مكّارة ، لذّتها نافدَة ، ونعيمها بائد ، حُفّتْ بالشهوات اغترارا ، وأظهرت حَبْرَة[8] وأضمرت عَبْرة ، فليس آكلٌ منها أُكْلَةً تسرّه ، ولا شاربٌ منها شربة تؤنقه[9] إلا ودنابها درجَة إلى أجله ، وتباعد بها مسافة من أمله ، وإنما جعلها الله دار المتزوّد منها ، إلى النعيم المُقيم ، والعيش السليم ، فليس يرضى بها حازم داراً ولاحكيم قرارا ، فاتقوا الله وتزوّدوا،

---

(١) الكامل : ولا نكون نقوله فى قومنا » . (٢) سورة القمر ٤٣

(٣) يقال : حل طلق ، أى حلال طيب .

(٤) الكامل للمبرد ٦١٣ (طبع أوربا) .

(٥) سورة التوبة ٣٦

(٦) سورة التوبة ٤١ (٧) سورة النساء ٩٥

(٨) الحبرة : النعمة .

(٩) تؤنقه : تعجبه .

فإن خير الزاد التقوى ، والسلام على من اتبع الهدى[١].

فلما أظهر نافعٌ مقالَته هذه ، وانفرد عن الخوارج بها ، أقام في أصحابه بالأهواز يستعرض الناس ، ويقتُل الأطفال، ويأخذ الأموال ، ويَجْبِي الخراج، وفشا عُمّاله بالسواد ، فارتاع لذلك أهلُ البصرة، واجتمع منهم عشرة آلاف إلى الأحنف، وسألوه أن يؤمِّر عليهم أميرا يحميهم من الخوارج ، ويجاهدَ بهم ؛ فأتى عبدَ الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهو المسمّى بَبّة ، فسأله أن يؤمِّر عليهم ـ وببّة يومئذ أميرُ البصرة من قِبَل ابن الزبير ـ فأمّر عليهم مسلم بن عبيس بن كُرَيْز ، وكان ديِّنا شُجاعا ، فلما خرج بهم من جِسْر البصرة ، أقبل عليهم ، وقال: أيّها الناس ، إني ما خرجت لامتيار[٢] ذهب ولا فضة ، وإني لأحارب قوما إن ظفرتُ بهم فما وراءهم إلا السيوف والرماح ، فمن كان شأنه الجهاد ، فلينهضْ ، ومَنْ أحبَّ الحياةَ فليرجع .

فرجع نفرٌ يسير ، ومضى الباقُون معه ، فلما صاروا بدُولاب[٣] خرج إليهم نافع وأصحابُه ، فاقتتلوا قتالا شديدا حتى تكسّرت الرماح : وعُقِرت الخيل : وكثُر الجراح والقتل ، وتضاربوا بالسيوف والعَمَد[٤] ، فقتِل ابنُ عُبيْس أمير أهل البصرة ، وقتِل نافع بن الأزرق أمير الخوارج :وادّعَى قَتْلَه سلامة الباهليّ ، وكان نافع قد استخلف عبيد الله ابن بشير بن الماحُوز السّليطي اليربوعيّ ، واستخلف ابن عُبَيْس الربيع بن عمرو الأجذم الغُدانيّ اليربوعيّ ، فكان الرئيسان من بني يَرْبُوع ، فاقتتلوا بعد قتل ابن عُبيس ونافع قتالا شديدا نَيِّفا وعشرين يوما ؛ حتى قال الربيع لأصحابه :إنّي رأيت البارحة كأنّ يدي

(١) الكامل ٦١٥ (طبع أوربا) .
(٢) امتيار : مصدر امتار لأهله ؛ أي جلب لهم الميرة ، والميرة : الطعام .
(٣) دولاب : قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ .
(٤) العمد ، بفتحتين ، أو بضمتين جمان للعمود .

التى أصيبت بكابُل انحطت من السماء ، فاسْتَشْلَتْنى(١)، فلما كان الغد قاتلهم إلى الليل. ثم عاودهم القِتال، فقتِل ، فتدافع أهلُ البصرة الراية ، حتى خافوا العَطَب ، إذ لم يكن لهم رئيس . ثم أجمعوا على الحجاج بن رباب الحِيرىّ ، فأباها ، فقيل له: ألا ترى رؤساء العرب قد اختاروك من بينهم ! فقال : إنها مشئومة ، لا يأخذها أحدٌ إلا قتل ، ثم أخذها فلم يَزَلْ يقاتل القوم بدُولاب حتى التقى بعمران بن الحارث الراسبىّ ، وذلك بعد أن اقتتلوا زُهاء شهر ، فاختلفا ضربتين ، فخرّا ميّتين(٢).

وقام حارثة بن بدر الغُدانىّ بأمر أهل البصرة بعده ؛ وثبت بإزاء الخوارج يناوشهم القتال مناوشةً خفيفة ؛ ويزجى الأوقات انتظاراً لقدوم أمير من قبل ببّة على حَرْب الخوارج : وهذه الحرب تسمى حرب دُولاب: وهى من حُروب الخوارج المشهورة، انتصف فيها الخوارج من المسلمين ، وانتصف المسلمون منهم ، فلم يكن فيها غالب ولا مغلوب .

* * *

[عبيد الله بن بشير بن الماحوز اليربوعىّ]

ومنهم عبيد الله بن بشير بن الماحُوز اليربوعىّ ، قام بأمر الخوارج يوم دُولاب بعد قَتْل نافع بن الأزرق : وقام بأمر أهل البصرة عمر بن عبيد الله بن معمر التيمىّ : ولاه عبدالله بن الزُّبير ذلك ، ولقيه كتابُه بالإمارة وهو يريد الحج ، وقد صار إلى بعض الطريق، فرجع فأقام بالبصرة ، وولى أخاه عثمان بن عبيد الله بن معمر محاربة الأزارقة ، فخرج إليهم فى اثنى عشر ألفا ، فلقيه أهلُ البصرة الذين كانوا فى وجه الأزارقة ، ومعهم حارثة بن بدر الغُدانىّ ، يقوم بأمرهم عن غير ولاية ، وكان ابن الماحوز حينئذ فى سوق الأهواز، فلما عبر

(١) استشلتنى ؛ قال المبرد : استشلتنى ؛ أى أخذتنى إليها واستنقذتنى ؛ يقال : استشلاه واشتلاه .
(٢) الكامل ٦١٦ – ٦١٧ (طبع أوربا) .

عثمان إليهم دُجَيلا ، نهضت إليه الخوارج ، فقال عثمان لحارثة : ماالخوارج إلا ماأرى ؟ فقال حارثة : حسبك بهؤلاء ! قال : لاجَرَم ! لا أتغدّى حتى أناجزهم ، فقال حارثة : إنّ هؤلاء القوم لايقاتلون بالتعسّف ، فأبق على نفسك وجندك ، فقال: أبيتم ياأهلَ العراق إلا جُبْنا ! وأنت ياحارثة ماعلمك بالحرب ! أنت والله بغير هذا أعلم - يعرِّض له بالشراب، وكان حارثة بن بدر صاحب شراب - فغضب حارثة ، فاعتزل ، وحاربهم عثمان يومه إلى أن غربت الشمس، فأجلت الحرب عنه قتيلا ،وانهزم الناس ، وأخذ حارثة بن بدر الراية، وصاح بالناس :أنا حارثة بن بدر ! فثاب إليه قوم فعبر بهم دجيلا، وبلغ قتل عثمان البصرة، فقال شاعر من بنى تميم :

مضى ابن عُبَيْسٍ صابراً غيرَ عاجزٍ ... وأعقبَنا هـذا الحجازىّ عثمانُ(١)

فأرعد من قبل اللقاء ابنُ مَعْمَرٍ ... وأبرق ، والبرقُ اليمانىّ خَوّانُ(٢)

فَضَحْتَ قريشاً غَثَّها وسمينَها ... وقيل بنو تيم بن مرةَ عُزلانُ(٣)

فلولا ابنُ بدرٍ للعراقَيْنِ لم يَقُمْ ... بما قام فيه للعراقَيْنِ إنسانُ

إذا قيل مَنْ حامى الحقيقة ؟ أومأت ... إليه مَعَدٌّ بالأكفّ وقحطان

ووصل الخبر إلى عبد الله بن الزبير بمكة ، فكتب إلى عمر بن عبيد الله بن مَعْمَر بعزله ، وولى الحارث بن عبدالله بن أبى ربيعة المخزومىّ المعروف بالقُباع(٤) البصرة،فقدمها ، فكتبَ إليه حارثة بن بدْر يسأله الولاية والمدد ، فأراد توليتَه ،فقال له رجل من بَكْرِ بن

---

(١) الأبيات فى الكامل ٦٢٥ (طبعة أوربا)

(٢) قال المبرد : قوله : « فأرعد » زعم الأصمعى أنه خطأ . . . وأنه لايقال إلا رعد وبرق . . . وروى غير الأصمعى : أرعدوأبرق على ضعف . وقوله : والبرقاليمانى خوان ، يريد : والبرقاليمانى يخون

(٣) كذا فى الكامل : وفى ا ، ج : « غيلان » ، وفى ب : « غرلان » . وعزلان : جمع أعزل ؛ وهو من لا سلاح معه .

(٤) قال المبرد : « وإنما سمى الحارث بن عبد الله القباع ؛ لأنه ولى البصرة ؛ فغير على الناس مكاييلهم ؛ فنظر إلى مكيال صغير فى مرآة العين ؛ وقد أحاط بدقيق استكثره ؛ فقال : إن مكيالكم هـذا لقباع ؛ والقباع : الذى يخفى أو يخفى مافيه . الكامل ٧ : ٤٣ - بشرح المرصفى .

وائل : إن حارثة ليس بذلك ؛ إنما هو صاحب شراب ، وكان حارثة مستهترا بالشراب ، معاقراً للخمر ؛ وفيه يقول رجل من قومه [(١)] :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ حَارِثَةَ بْنَ بَدْرٍ يُصَلِّي وهُوَ أَكْفَرُ مِنْ حِمَارِ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ للفتيانِ حَظًّا وحظُّكَ في البغايا والعُقَارِ [(٢)]

فكتب إليه القُباع : تَكْفِى حربَهم إن شاء الله . فأقام حارثة يُدافعهم حتى تفرّق أصحابه عنه وبقى فى خِفٍّ منهم ؛ فأقام بنهر تِيرَى، فعبرت إليه الخوارج، فهرب مَنْ تخلّف معه من أصحابه ؛ وخرج يركض حتى أتى دُجَيلا ، فجاس فى سفينة ، وأتبعه جماعة من أصحابه ؛ فكانوا معه فيها ؛ ووافاه رجلٌ من بنى تميم ، عليه سلاحه والخوارج وراءه ؛ وقد توسّط حارثة دُجَيلا ، فصاح به : ياحارثة ، ليس مثلى يضيع ! فقال للملّاح : قرّب ، فقرّب إلى جُرُف [(٣)]، ولا فُرْضة هناك ، فطَفَر [(٤)] بسلاحه فى السفينة، فساخت بالقوم جميعا ، وهلك حارثة [(٥)] .

* * *

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ فى كتاب " الأغانى الكبير " أن [(٦)] حارثة لما عقدوا له الرئاسة ، وسلّموا إليه الراية ، أمرهم بالثّبات ، وقال لهم : إذا فتح الله عليكم فللعرب زيادة فريضتين ، وللموالى زيادة فريضة ، وندَب الناس ، فالتقوْا وليس بأحدٍ منهم طِرْق [(٧)] قد فشت فيهم الجراحات ، وما تطأ الخيلُ إلّا على القتلى ؛ فبيناهم كذلك ، إذ أقبل جمعٌ

---

(١) نقل المرصفى فى رغبة الآمل أن البيتين نسبا إلى علقمة بن معبد المازنى .
(٢) العقار : الخمر .
(٣) الجرف : ما أكله السيل من أسفل سن الوادى والنهر .
(٤) طفر : وثب .
(٥) الكامل ٦٢٦ وما بعدها (طبعة أوربا)
(٦) الأغانى ٦ : ١٤٦ وما بعدها (طبعة الدار) . مع اختلاف فى الرواية .
(٧) طرق ، أى قوة .

من الشراة من جهة اليمامة ، ـ يقول المكثّر : إنهم مائتان ، والمقلّل : إنهم أربعون ـ فاجتمعوا وهم مُريحون مع أصحابهم، فصاروا كَوْكَبَةً(١) واحدة ، فلما رآهم حارثة بن بدر ركض برايته منهزما ، وقال لأصحابه :

كَـــرْنِبُوا وَدَوْلِبُوا أَوْ حَيْثُ شِئْتُمْ فاذْهَبُوا(٢)

وقال :

أيْرُ الحمار فريضةٌ لعبيدِكُمْ والخصيتَان فريضة الأعراب

قال : كَرنبوا ، أى اطلبوا كرنبَى، وهى قرية قريبة من الأهواز ، ودَوْلِبوا : اطلبوا دُولاب ، وهى ضيعة بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ .

قال : فتتابع الناس عَلَى أثره منهزمين ، وتبعتهم الخوارج ، فألقى الناس أنفسَهم فى الماء ، فغرق منهم بدُجَيل الأهواز خلق كثير .

***

[الزبير بن علىّ السّليطىّ وظهور أمر المهلّب]

ومنهم الزُّبير بن على السليطىّ التّميمى ، كان على(٣) مقـدمة ابن الماحوز ، وكان ابن الماحوز يخاطَب بالخلافة ، ويخاطَب الزبير بالإمارة . ووصل الزبير بعـد هلاك حارثة ابن بدر ، وهرب أصحابُه إلى البصرة ، فخافه الناس خوفًا شديدا ، وضجّ أهلُ البصرة إلى الأحنف ، فأتى القُباع ، فقال : أصلح الله الأمير ! إنّ هذا العدوّ قد غَلبنا على سوادنا وفيئنا ، فلم يبق إلا أن يحصُرَنا فى بلدنا حتى نموت هُزالا . قال : فسمُّوا إلىّ رجلا يلى الحرب،فقال الأحنف : لا(٣)أرى لها رجلا إلا المهلّب بن أبى صُفرة؛ فقال : أو هذا رأى

(١) الكوكبة : الجماعة ، وفى الأغانى « كبكبة » وهما بمعنى .
(٢) الكامل للمبرد ٨ : ١٠ وما بعدها ـ بشرح المرصفى .
(٣) فى الكامل قبل هذه الكلمة : « أن الرأى لايخيل » ، أى لا يشكل ولا يشتبه .

جميع أهـل البصرة ؟ اجتمعوا إلىّ فى غد لأنظر . وجاء الزبير حتى نزل على البصرة ، وعَقَد الجسْرَ ليعبُر إليها ، فخرج أكثرُ أهل البصْرة إليه ، وانضمّ إلى الزبير جميع كُوَر الأهواز وأهلها رغبة ورهبة،فوافاه البصريون فى السُّفُن وعلى الدّواب(١) ، فاسودّت بهم الأرض،فقال الزبير لما رآهم:أبى قومُنا إلا كفراً ؛ وقطع الجسر ، وأقام الخوارج بإزائهم، واجتمع الناس عند القُباع ، وخافوا الخوارج خوفا شديدا، وكانوا ثلاث فرق : سمّى قومٌ المهلّب ، وسمّى قوم مالك بن مِسْمع ، وسمّى قوم زياد بن عمرو بن أشرف العتكىّ ، فاختبر القُباع ماعند مالك وزياد ، فوجدهما مُتثاقلين عن الحرب ، وعاد إليه مَنْ أشار بهما، وقالوا : قد رجعْنا عن رأينا ؛ مانرى لها إلا المهلّب ، فوجّه إليه القُبَاع فأتاه ، فقال له : يا أبا سعيد ، قد ترى ماقد رَهِقَنا من هذا العدوّ ، وقد أجمع أهلُ مصرك عليك ؛ وقال له الأحنف : يا أبا سعيد ، إنّا والله ما آثرناك ، ولـكنّا لم نَرَ مَنْ يقوم مقامك .

ثم قال القُبَاع ـ وأومأ إلى الأحنف ـ : إنّ هذا الشيخَ لم يسمّك إلا إيثاراً للدّين والبقيا(٢) وكلُّ مَنْ فى مِصْرك مادٌّ عينَه إليك ، راجٍ أن يكشف الله عنـه هذه الغمّة بك ، فقال المهلّب:لاحول ولا قوة إلابالله،إنّى عند نفسى لدون ماوصفتم،ولست آبِى مادعوتم إليه؛ لـكنّ لى شروطا أشترطها ؛ قالوا : قل،قال:على أن أنتخب مَنْ أحببت!قال الأحنف : ذاك لك،قال : وَلِى إمرَة كلّ بلد أغلب عليه!قالوا : لك ذلك،قال : ولى فَىْء كلّ بلد أظفر به! قال الأحنف : ليس ذاك لك ولا لنا ؛ إنما هو فَىْء للمسلمين ؛ فإنْ سلبتَهم إياه كنت عليهم كعدوّهم ، ولـكن لك أن تعطىَ أصحابك من فىء كلّ بلد تغلب عليه ماأحببت ، وتُنفق منه على محاربة عدوّك ؛ فما فَضَل عنكم كان للمسلمين ؛ فقال المهلّب : لاحول ولا قوة إلا بالله ! فمنْ لى بذلك ؟ قال الأحنف : نحن وأميرك وجماعة أهلِ مصرك ، قال : قد قبلت. فـكتبوا بينهم بذلك كتابا ، وَوُضِـع على يدى الصَّلْت بن حُرَيث بن جابر الجعفىّ ، وانتخب المهلّب من جميع الأخماس ، فبلغت نُخْبَته اثنى عشر ألفا ، ونظروا فى بيت المال،

(١) فى الـكامل بعد هذه الـكلمة : « ورحالة » .
(٢) كذا فى ج . وفى ا ، ب : « التقى » ، وهى ساقطة من الـكامل .

فلم يكن إلا مائتي ألف درهم ، فعجزتْ . فبعث المهلّب إلى التّجار ، فقال : إنّ تجاراتِكم منذ حول قد فَسَدت بانقطاع موادّ الأهواز وفارس عنكم ، فهلمّوا فبايعوني واخرُجوا معي أوفِّكم حقوقَكم . فبايعوه وتاجروه ، فأخذ منهم من المال ما أصلَح به عسكَره ، واتخذ لأصحابه الخفاتين[1] والرّانات المحشوّة بالصوف؛ ثم نهض ـ وكان أكثر أصحابه رَجّالة ـ حتى إذا صار بحذاء القوم أمر بسفُن فأصلحت وأحضرت ، فما ارتفع النهار حتى فَرَغ منها ، ثم أمر الناس بالعُبور ، وأمّر عليهم ابنه المغيرة ، فخرج الناس ، فلما قاربوا الشطّ خاضت إليهم الخوارج ، فحاربوهم وحاربهم المغيرة ، ونَضَحهم[2] بالسهام حتى تنحّوْا ، وصار هو وأصحابه على الشطّ ، فحاربوا الخوارج ، فكشفوهم وَشَغلوهم حتى عقد المهلب الجسْر وعبر ، والخوارج منهزمون ، فنهى الناس عن اتباعهم ، ففي ذلك يقول شاعر من الأزد :

إنّ العراق وأهلَه لم يخبُرُوا   مثلَ المهلّب في الحروب فسلّموا

أمضى وأيْمَن في اللِّقاء نقيبةً   وأقلّ تَهليلاً إذا ما أحجمُوا

وأبلى مع المغيرة يومئذ عطية بن عمرو العنبريّ ، من فرسان تميم وشجعانهم . ومن شعر عطية[3] :

يُدْعى رجالٌ للعَطاء وإنما   يُدْعَى عطيّة للطِّعان الأجردِ

وقال فيه شاعر من بني تميم :

وما فارسٌ إلّا عطيةُ فَوْقَهُ   إذا الحربُ أبْدَتْ عَنْ نَواجذِها الفَمَا

به هَزَم الله الأزارقَ بَعْدَ مَا   أباحُوا مِنَ المِصْرَيْنِ حِلاًّ ومُحَرَّمَا

فأقام المهلّب أربعين ليلة يَجْبِي الخراج بكُور دَجْلة ، والخوارج بنهر تِيرَى ، والزبير ابن عليّ منفرِد بعسكره عن عسكر ابن الماحُوز ؛ فقضى المهلب التجار ، وأعطى أصحابه ،

---

(١) الخفتان : ثوب من القطن يلبس فوق الدرع . الألفاظ الفارسية ٥٦

(٢) نضحهم : رشقهم ورماهم .   (٣) الكامل : « فقال عطية » .

فأسرع الناس إليه رغبة فى مجاهدة العدوّ وطمعا فى الغنائم والتجارات ، فكان فيمن أتاه محمد بن واسع الأزدىّ وعبد الله بن رباح ومعاوية بن قُرّة المُزَنىّ ، وكان يقول : لو جاءت الديلم من هاهنا والحرورية من هاهنا لحاربتُ الحرورية ، وجاءه أبو عمران الجَوْنى . وكان يروى عن كعب أنّ قتيل[1] الحرُورية يفضُل قتيل[1] غيرهم بعشرة أبواب .

ثم أتى المهلّب إلى نهر تيرى ، فتنحوّا عنه إلى الأهواز ، وأقام المهلّب يَجْبِى ما حواليه من الكُوَر ، وقد دسّ الجواسيس إلى عسكر الخوارج يأتونه بأخبارهم ومَنْ فى عسكرهم ؛ وإذا حُشوَة[2] ؛ ما بين قَصّاب وحَدّاد وداعر[3] . فخطب المهلب الناس ، وذكر لهم ذلك ؛ وقال: أمثل هؤلاء يغلبونكم على فيئكم ! ولم يزل مقيما حتى فَهِمهم ، وأحكم أمرهم وقوّى أصحابه، وكثُرت الفرسان فى عسكره ، وتتامّ[4] أصحابُه عشرين ألفا .

ثم مضى يؤمّ كُوَر الأهواز ، فاستخلَفَ أخاه المعارك بن أبى صُفرة على نهر تيرَى، وجعل المغيرة على مقدّمته ، فسار حتى قاربهم ، فناوشهم وناوشوه ، فانكشف عن المغيرة بعضُ أصحابه ، وثبت المغيرة نفسُه بقية يومه وليلته يوقد النيران ، ثم غاداهم فإذا القوم قد أوقدوا النيران فى بقية متاعهم ، وارتحلوا عن سوق الأهواز ، فدخلها المغيرة ، وقد جاءت أوائل خيل المهلّب ، فأقام بسوق الأهواز ، وكتب بذلك إلى الحارث القُباع كتابا يقول فيه :

أما بعد ؛ فإنا مذخَرَجْنا نؤمّ العدوّ ، فى نعم من فضل الله متّصلة علينا ، ونِقَم متتابعة عليهم ، نُقْدِم ويحجمون ، ونَحُلّ ويرتحلون ، إلى أن حَلَلْنا سوقَ الأهواز، والحمد لله ربّ العالمين ، الذى من عنده النصر ، وهو العزيز الحكيم .

---

(١) ب « فتك » ، وما أثبته من ا ، ج والكامل .
(٢) الحشوة : رذال الناس .
(٣) الداعر : الخبيث المفسد . وفى الكامل : « ما بين قصار وصباغ وداعر وحداد »
(٤) ج : « والتأم » .

فكتب إليه الحارث :

هنيئا لك أخا الأزد الشّرف فى الدنيا والأجر فى الآخرة ، إن شاء الله .

فقال المهلّب لأصحابه : ما أجفَى أهل الحجاز أما ترونه عرف[(١)] اسمى وكنيتى واسم أبى!

قالوا : وكان المهلّب يبُثّ الأحراس فى الأمن ، كما يبثّهم فى الخوف ، ويُذْكِى[(٢)] العيون فى الأمصار كما يذْكيها فى الصحارى ، ويأمر أصحابَه بالتحرّز ، ويخوّفهم البيَات[(٣)] ، وإن بَعُدَ منه العدوّ، ويقول[(٤)] : احذروا أنْ تُكَادُوا كما تكيدون ، ولا تقولوا : هَزمناهم وغَلَبناهم ، والقوم خائفون وجِلون ، فإن الضرورة تفتح باب الحيلة .

ثم قام فيهم خطيبا ، فقال : أيها النّاس ، قد عرفتُم مذهب هؤلاء الخوارج ، وأنهم إن قَدَرُوا عليكم فتنُوكم فى دينكم ، وسفكوا دماءكم ، فقاتلوهم على ماقاتلهم عليه أوّلكم علىّ بن أبى طالب ، لقد لقيهم[(٥)] الصابر المحتسب مسلم بن عُبَيس، والعَجِل المفرّط عثمان بن عبيد الله ، والمعصىّ المخالف حارثة بن بدر ، فقَتَلوا جميعا وقُتلوا ، فالقوم بحدّ وَجِدّ فإنما هم مَهَنتكم وعبيدكم ، وعارٌ عليكم ونقص فى أحسابكم وأديانكم أنْ يغلبكم هؤلاء على فيئكم ، ويطأوا حريمكم .

ثم سار يريدهم وهم بمَنَاذر[(٦)] الصغرى ، فوجه عبيد الله بن بشير بن الماحُوز رئيسُ الخوارج رجلا يقال له واقد ، مولًى لآل أبى صُفْرة مِنْ سَبْىِ الجاهلية ، فى خمسين رجلا ، فيهم صالح بن مخراق إلى نهر تِيرى ، وبها المارك بن أبى صُفْرة ، فقتلوه وصلبوه ، فنُمِىَ

(١) الكامل : « يعرف » .
(٢) العيون : الجواسيس ؛ وإذكاؤها إرسالها .
(٣) البيات : اسم من « بيت القوم والعدو تبييتا » ؛ أوقع بهم ليلا وهم غارون .
(٤) ج : « فإن بعد منه العدو يقول » .
(٥) الكامل : « لقيهم قبلكم » ، وفى ب « لقيتم » ، وما أثبته من ج
(٦) مناذر الصغرى ، وكذلك مناذر الكبرى : كورتان من كور الأهواز

الخبر إلى المهلّب ، فوجّه ابنَه المغيرة ، فدخل نهر تِيرى ، وقد خرج واقد منها ، فاستنزله عمّه فدفنَه ، وسكّن النـــاس ، واستخلف بها ورجع إلى أبيه ، وقد نزل بسُولاف(١) والخوارج بها ، فواقعهم ،وجعل على بنى تميم الحريش بن هلال ، فخرج رجلٌ من أصحاب المهلّب ، يقال له عبد الرحمن الإسكاف ، فجعل يحضُّ الناس ويهوّن أمرَ الخوارج ، ويختالُ بين الصَّفّين ، فقال رجل من الخوارج لأصحابه : يامعشر المهاجرين ، هل لـكم فى قِتلة فيهـا الجنّة ! فحمل جماعة منهم على الإسكاف فقاتلهم وحده فارسا ، ثم كَبَا به فرسُه ، فقاتلهم راجلا قائما وباركا ، ثم كَثُرت به الجراحات فذبّب بسيفه ، ثم جعل يحثو فى وجوههم التراب ، والمهلّبُ غيرُ حاضر ، فقُتِلَ ؛ ثم حضر المهلب فأعلم ، فقال للحريش ولعطية العنبرىّ : أسلمتُمَا سيدَ أهل العراق(٢) ، لم تُعيناه ولم تستنقذاه حَسداً له، لأنه رجل من الموالى ، ووبّخهما .

وحمل رجلٌ من الخوارج على رجل من أصحاب المهلّب فقتله ، فحمل عليه المهلّب فطعنه فقتله ، ومال الخوارجُ بأجمعهم على العسكر ، فانهزم الناس ، وقتل منهم سبعون رجلا ، وثبت المهلّب وابنه المغيرة يومئذ ، وعرف مكانه .

ويقال : حاص(٣) المهلب يومئذ حَيْصة . ويقول الأزد : بل كان يردّ المنهزمة ويحمى أدبارهم ، وبنو تميم تزعم أنه فرّ ، وقال شاعرهم :

بِسُولَافِ أَضَعْتَ دماء قومى وَطِرْتَ عَلَى مُواشِـكَةٍ دَرُورِ(٤)

وقال آخر من بنى تميم :

تبعنا الأعْوَرَ الـكَذّابَ طَوْعاً يُزَجِّى كلَّ أربعة حمـــــارا(٥)

---

(١) سولاف ، بضم السين : قرية فى غرب دجيل ؛ قرب مناذر الـكبرى .
(٢) كذا فى ا ، ج ، وفى ب والـكامل : « سيد أهل العسكر » .
(٣) حاص حيصة : جال جولة .
(٤) قال المبرد : مواشـكة ، يريد سريعة ، ودرور ، « فعول » ، من در الشىء إذا تتابع .
(٥) يزجى : يسوق .

فياندى عَلَى تَرْكِى عَطَـائى معايَنَةً وأطلبُــــه ضِمارا[1]
إذا الرحمـــن يَسّر لى قُفُولًا فحَرّقَ فى قُرَى سولاف نارا

قوله : « الأعور الـكذاب » ، يعنى به المهلّب ، كانت عينه عارَتْ بسهم أصابها ، وسَمَّوْه الـكذّاب ، لأنه كان فقيها ، وكان يتأوّل ماورد فى الأثر من أنّ كلّ كذب يكتَب كذبا إلا ثلاثة : الـكذب فى الصلح بين رجلين ، وكذب الرجل لامرأته بوعْد ، وكذب الرجل فى الحرب بتوعّد وَتَهدُّد[2] . قالوا : وجاء عنه صلى الله عليه وآله : « إنما أنت رجل فخذِّل عنّا ما استطعت » . وقال : « إنمـا الحرب خُدعـة » ، فـكان المهلّب ربما صنع الحديث ليشدّ به من أمر المسلمين ماضعف ، ويضعِّف به من أمر الخوارج مااشتدّ ، وكان حَىّ من الأزد يقال لهم النّدَب ، إذا رأوا المهلب رائحا إليهم قالوا : راح ليكذبِ ، وفيه يقول رجل منهم :

أنت الفتى كلّ الفتَى لو كنت تصدقُ ماتقول

فبات المهلب فى ألفين ، فلما أصبح رجع بعضُ المنهزمة ، فصاروا فى أربعة آلاف ، فخطب أصحابه ، فقال : والله مابكم من قلّة ، وماذهب عنـكم إلا أهل الجُبْن والضعف والطّبَع[3] والطمع ، فإن يمسسكم قَرْح فقدْ مَسّ القَوم قَرْح مثله ؛ فسيروا إلى عدوِّكم على بركة الله .

فقام إليه الحريش بن هلال ، فقال : أنشدك الله أيها الأمير أنْ تقاتلهم ، إلا أن يقاتلوك ؛ فإن فى أصحابك جراحا ، وقد أثخنتْهم هذه الجولة .

فقبل منه ، ومضى المهلب فى عشرة فأشرف على عسكر الخوارج ، فلم ير منهم أحدا

---

(١) الضمار : الغائب الذى لايرتجى . (٢) الـكامل : « يتوعد ويتهدد » .
(٣) الطبع فى الأصل : الصدأ يـكثر على السيف وغيره ؛ ثم استعير فيما يشبه ذلك من الأوزار والآثام

يتحرك ، فقال له الحريش : ارتحل عن هذا المنزل ، فارتحل ، فعبر دُجَيلا وصار إلى عاقول[1] لا يؤتى إلا من جهة واحدة ، فأقام به، وأقام الناس ثلاثا مستريحين .

وفى يقوم سُولاف يقول ابن قيس الرقيات :

ألا طَرَقت من آل مَيّةَ طَارِقَهْ ‏ عَلَى أنّها معشوقة الدَّلِّ عاشِقَهْ[2]

تراءت وأرض السُّوس بينى وبينها ‏ ورستاق سولافٍ حَمَتْه الأزارِقهْ

إذا نحن شئنا صادفتنا عِصابة ‏ حَرُورِيّة فيها من الموت بَارِقَهْ

أجازت علينا العسكرينِ كِلَيْهما[3] ‏ فباتت لنا دُون اللِّحافِ معانِقَهْ

فأقام المهلب فى ذلك العَاقُول ثلاثة أيام ثم ارتحلَ ، والخوارج بسِلّى وسِلّبْرَى فنزل قريبا منهم ، فقال ابن الماحُوز لأصحابه : ما تنتظرون بعدوّكم وقد هزمتموهم بالأمس ، وكسرتم حدهم ! فقال له واقد مولى أبى صفرة : يا أميرَ المؤمنين ، إنما تفرّق عنهم أهل الضعف والجُبْن ، وبَقِىَ أهل النَّجدة والقوة ، فإن أصبتهم لم يكن ظفراً[4] هيّنًا ، لأنى أراهم لا يُصابون حتى يصيبوا ، وإن غَلَبوا ذهب الدين . فقال أصحابه : نافَق واقد ، فقال ابن الماحوز : لا تعجلوا على أخيكم ، فإنه إنما قال هذا نظرا لكم .

ثم وجّه الزبير بن علىّ إلى عسكر المهلّب ، لينظرَ ما حالُهم ، فأتاهم فى مائتين فحَزَرهم ورجع . وأمر المهلب أصحابه بالتحارُس ، حتى إذا أصبح ركب إليهم فى تعبئة ، فالتقوا بسلّى وسلّبْرى ، فتصافّوا ، فخرج من الخوارج مائة فارس ، فركزوا رماحهم بين الصفين ، واتكأوا عليها ، وأخرج إليهم المهلّب أعدادهم ، ففعلوا مثل ما فعلوا ، لا يرعوْن إلا الصلاة ، حتى إذا أمسوْا رجع كلّ قوم إلى معسكرهم ، ففعلوا هكذا ثلاثة أيام .

---

(١) العاقول : منعطف الوادى .

(٢) ديوانه ١٦٢ .

(٣) فى الكامل : « أجازت إلينا » ، وفى الديوان : « أجازت إلى » .

(٤) « ظفرك » .

ثم إن الخوارج تطاردُوا لهم فى اليوم الثالث ، فحمَل عليهم هؤلاء الفرسان ، فجالوا ساعة ، ثم إنّ رجلاً من الخوارج حمل على رجل فطعنه ، فحمل عليه المهلّب فطعنه ، فحمل الخوارج بأجمعهم ، كما صنعُوا يوم سُولاف فضعضعُوا الناس ، وفُقِد المهلّب وثبت المغيرة فى جمع أكثرهم أهل عُمَان .

ثم نَجَم[1] المهلّب فى مائة ، وقد انغمسَ كُمّاه[2] فى الدم ، وعلى رأسه قلنسوَة مربعة فوق المِغفر محشوة قزًّا وقد تمزّقتْ ، وإنّ حشوَها ليتطاير وهو يَلْهث ، وذلك فى وقت الظهر ، فلم يزل يحاربُهم حتى أتى الليل ، وكَثُر القتلى فى الفريقين ، فلما كان الغد غاداهم ، وقد كان وجّه بالأمس رجلا من طاحيةَ بن سود بن مالك بن فَهْم ، من الأزْد من ثقاته وأصحابه ، يردُّ المنهزمين ، فمرّ به عامر بن مِسْمَع فردّه ، فقال : إنّ الأمير أذن لى فى الانصراف ، فبعث إلى المهلب ، فأعلمه ، فقال : دَعْه فلا حاجة لى فى مثله من أهل الجبن والضعف . ثم غاداهم المهلّب فى ثلاثة آلاف ، وقد تفرّق عنه أكثر الناس ، وقال لأصحابه : ما بكُم من قِلّة ! أيعجز أحدُكم أن يلقى رمحه ثم يتقدم فيأخذه ! ففعل ذلك رجل من كِنْدة ، واتبعه قوم ؛ ثم قال المهلّب لأصحابه : أعدّوا مخالىَ فيها حجارة ، وارْمُوا بها فى وقت الغفلة ، فإنها تصدّ الفارس ، وتصرَعُ الراجل ، ففعلوا . ثم أمر منادياً ينادى فى أصحابه ، يأمرهم بالجدّ والصّبْر ، ويطمعهم فى العدوّ ، ففعل ذلك حتى مرّ ببنى العدَوّية ، من بنى مالك بن حنظلة ، فنادى فيهم فضربوه ، فدعا المهلّب بسيِّدهم ــ وهو معاوية بن عمرو ــ فجعل يركُلُه[3] برجله ، فقال : أصلح الله الأمير ! اعفنى من أمّ كَيْسان ــ والأزْد تسمى الركبة أم كَيْسان ــ ثم حمل المهلب وحملوا ، واقتتلوا قتالا شديدا ، فجهد الخوارج ، ونادى مناد منهم : ألا إن المهلب قد قُتِل .

---

(١) نجم : ظهر .

(٢) الكامل : « كفاه » .

(٣) الركل : الضرب بالرجل خاصة .

فركب المهلب برْذونا وَرْداً(١) ، وأقبل يركُض بين الصَّفَّين ؛ وإنّ إحدى يديه لفى القَباء ، وما يشعر لها ، وهو يصيح : أنا المهلب ! فسكن الناس بعد أن كانوا قد ارتاعوا وظنُّوا أن أميرهم قد قتل ، وكَلّ الناس مع العصْر ، فصاح المهلّب بابنه المغيرة : تقدّم ؛ ففعل وصاح بذكْوان مولاه : قدِّم رايتك ؛ ففعل ، فقال له رجل من ولده : إنك تغرِّر بنفسك ، فزَبره وزجَره ، وصاح : يا بنى سلمة ، آمركم فتعصوننى ! فتقدّم وتقدم الناس فاجتلدوا أشد جِلاد ، حتى إذا كان مع المساء قتل ابن الماحُوز ، وانصرف الخوارج ولم يشعر المهلب بقتله ، فقال لأصحابه : ابغوا لى رجلاً جَلْدا يطوف فى القتلى ، فأشاروا عليه برجل من جَرْم ، وقالوا : إنا لم نر قطّ رجلّا أشدّ منه ؛ فجعل يطوف ومعه النيران ، فجعل إذا مرّ بجريح من الخوارج ، قال : كافر وربّ الكعبة ! فأجهز عليه ، وإذا مرّ بجريح من المسلمين أمر بسقيه وحَمْله ، وأقام المهلب يأمرهم بالاحتراس ؛ حتى إذا كان فى نِصْف الليل ، وجّه رجلا من اليَحْمَد(٢) فى عشرة ، فصاروا إلى عسكر الخوارج ، فإذا هم قد تحمّلوا إلى أرَّجان ، فرجع إلى المهلب فأعلمه ، فقال لهم : أنا الساعة أشدّ خوفاً ، احذروا البَيات .

ويروى عن شعبة بن الحجاج أنّ المهلب قال لأصحابه يوما : إنّ هؤلاء الخوارج قد يئسوا من ناحيتكم إلا من جهة البيات ؛ فإن يكن ذلك فاجعلوا شِعاركم : « حم لا يُنصرون » فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأمر بها .

ويروى أنه كان شعار أصحاب علىّ بن أبى طالب عليه السلام .

فلما أصبح القوم غَدَوْا على القتلى ؛ فأصابوا ابن الماحُوز قتيلا ، ففى ذلك يقول رجل من الخوارج :

---

(١) الكامل : « برذونا قصيرا أشهب » .
(٢) اليحمد : بطن من الأزد .

بِسِلَّى وسِلَّبْرى مَصارع فتيـــةٍ ... كِرامٍ وعَقْرَى من كُمَيْتٍ ومن وردِ(١)

وقال آخر :

بِسِلى وسِلبْرى جماجم فتيـــةٍ ... كرام وصَرْعى لم توسَّد خدودها(٢)

وقال رجل من موالى المهلّب : لقد صرعت يومئذ بحجر واحـد ثلاثة ، رميت به رجلا فصرعته ، ثم رميت به رجلا فأصبت به أصل أذنه فصرعته ، ثم أخذت الحجر وصرعت به ثالثا ؛ وفى ذلك يقول رجل من الخوارج :

أتانا بأحجَار ليَقتلنا بها ... وهَل يُقْتَلُ الأبطالُ وَيْحَكَ بالحجَرْ !

وقال رجل من أصحاب المهلب فى يوم سِلَّى وسِلَّبْرَى وقتل ابن الماحوز :

ويوم سِلّى وسِلّبْرى أحاطَ بهم ... مِنّا صواعقُ لا تُبْـقِي ولا تَذَرُ(٣)

حتى تركنا عُبيد الله مُنْجَدِلا ... كما تجدّل جِذْعٌ مالَ مُنْقَعِرُ(٤)

ويروى أن رجلاً من الخوارج يوم سِلّى حمل على رجـل من أصحاب المهلب ؛ فطعنه ، فلمـا خالطه الرّمح صاح : يا أمّتاه ! فصـاح به المهلب : لا كَثّر الله منك فى المسلمين(٥) ! فضحك الخارجىّ ، وقال :

أُمُّكَ خَيْرٌ لك منّى صاحباَ ... تَسقيك مَحْضاً وتَعُلّ رائبا

وكان المغيرة بن المهلب إذا نظر إلى الرماح قد تَشاجرت فى وجهه ، نَـكَس(٦) عَلَى

---

(١) نقل المرصفى عن ابن برى أنه لأبى المقدام بيهس بن صهيب الحنفى . وعقرى : جمع عقير ، بمعنى معقور ؛ من عقر الفرس والبعير ، إذا قطع قوائمه .

(٢) سلى وسلبرى ، ضبطهما المبرد بكسر السين ؛ وقال الأخفش بفتحهما ؛ وقال : موضعان بالأهواز

(٣) قال المبرد : « تقول العرب : صاعقة وصواعق ؛ وهو مذهب أهل الحجاز ؛ وبه نزل القرآن ، وبنو تميم يقولون : صاقعة وصواقع » .

(٤) المنقعر : المقلع من أصله .

(٥) كذا فى ج ، وفى ب : « مثلك » ، وفى الـكامل : « بمثلك المسلمين » .

(٦) نـكس : طأطأ .

قَرَبُوس(١) السَّرْج ، وحَمَل من تحتها ، فبراها بسيفه ، وأثّر فى أصحابها ، فتحُوميت الميمنة من أجله ، وكان أشدّ ما تكونُ الحربُ استعاراً أشَدّ ما يكون تبسما . وكان المهلّب يقول : ما شَهِد معى حَرْباً قطّ إلا رأيت البُشْرَى فى وجهه !

وقال رجل من الخوارج فى هذا اليوم :

فإنْ تَكُ قَتْلَى يَوْمَ سِلَّى تتابعت ... فكَمْ غادرتْ أسيافُنامِنْ قُماقِمِ(٢)

غَدَاةَ تَكُرُّ المشرَفِيَّةَ فِيهِمُ ... بِسُولافَ يومَ المأزِقِ المُتَلاحِمِ(٣)

فكتب المهلب إلى الحارث بن عبدالله بن أبى ربيعة القُباع(٤) :

أما بعد ، فإنا لقينا الأزارقة المارقة بحَدٍّ وجِدّ ، فكانت فى الناس جَوْلة ، ثم ثابَ أهلُ الحِفاظ والصّبر بِنيّات صادقة ، وأبدانٍ شداد ، وسيوف حِدَاد ، فأعقب الله خيرَ عاقبة ، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل ، فصاروا دريئةً(٥) رماحنا ، وضرائبَ(٦) سيوفنا ، وقتل الله أميرهم ابنَ الماحوز ، وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأوّلها . والسلام .

فكتب إليه القُباع :

قد قرأتَ كتابَك يا أخا الأزد ، فرأيتك قد وُهِب(٧) لك شرفُ الدنيا وعِزُّها ، وذُخِر لك إن شاء الله ثوابُ الآخرة وأجرُها ، ورأيتُك أوثقَ حصون المسلمين ، وهادّ

---

(١) قربوس السرج : مقدمه ؛ ولكل سرج قربوسان مقدم ومؤخر .

(٢) القماقم ، بضم أوله : السيد الكثير الواسع الفضل ؛ كالقمقام .

(٣) المأزق : الموضع الضيق يقتتلون فيه ، والمتلاحم ، من قولهم : شجة متلاحمة ؛ وهى التى تشق اللحم دون العظم ثم تتلاحم فلا يجوز فيها المسبار . والمشرفية : السيوف نسبت إلى المشارف من أرض الشام .

(٤) فى الكامل : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد . . . » .

(٥) الدريئة : حلقة يتعلم عليها الطعن .

(٦) الضرائب : جمع ضريبة ؛ وهو كل ماضربت بسيفك

(٧) الكامل : « وهب الله لك . . . وذخر لك . . . » .

أركان المشركين ، وذا الرياسة وأخا السّياسة ، فاستدِم الله بشكره ، يتمّ عليك نعمه . والسلام .

وكتب إليه أهل البصرة يهنئونه ، ولم يكتب إليه الأحنف ، ولكن قال : اقرءوا عليه السلام وقولوا : أنا لك على مافارقتك عليه . فلم يزل يقرأ الكتب وينظر فى تضاعيفها ، ويلتمس كتاب الأحنف فلا يراه ، فلما لم يرَه ، قال لأصحابه : أما كتب أبو بحر ؟ فقال له الرسول : إنّه حمّلنى إليك رسالة ، فأبلغه ، فقال : هذا أحبّ إلىّ من هذه الكتب .

واجتمعت الخوارج بأرّجان ، فبايعوا الزبير بن علىّ ، وهو من بنى سَليط بن يربُوع ، من رهْط ابن الماحُوز ، فرأى فيهم انكساراً شديداً ، وضعفا بيّنا ، فقال لهم : اجتمعوا ، فاجتمعوا ، فحمِد الله وأثنى عليه وصلى على محمد رسوله صلى الله عليه وآله ؛ ثم أقبل عليهم فقال : إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجر ، وهو على الكافرين عقوبة وخِزْى ، وإن يُصَب منكم أميرُ المؤمنين ، فما صار إليه خيرٌ مما خلفَ ، وقد أصبتم منهم مسلم بن عُبَيْس وربيعا الأجذم والحجاج بن رباب [١] وحارثة بن بدر ، وأشجَيْتُم المهلّب وقتلتم أخاه المعارك ، والله يقول لإخوانكم المؤمنين : ﴿ إنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُه وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [٢] ، فيوم سِلّى كان لكم بلاء وتمحيصا ، ويوم سُولاف كان لهم عقوبة ونكالا ، فلا تُغْلَبنّ على الشُّكر فى حينه ، والصبر فى وقته ، وثقوا بأنكم المستخلَفون فى الأرض ، والعاقبة للمتقين .

ثم تحمّل للمحاربة نحو المهلّب ، فنفحهم المهلّب نفحة فرجعوا وأكْمَنُوا للمهلّب — فى غَمْض [٣] من غُموض الأرض يقرُب من عسكره — مائة فارس ليغتالُوه ، فسار المهلّب

---

(١) الكامل : « باب » .
(٢) سورة آل عمران ١٤٠
(٣) الغمض : المطمئن من الأرض

يوما يُطِيف بعسكره ، ويتفقّد سوادَه ، فوقف على جبل ، فقال : إنّ من التدبير لهذه المارِقة أنْ تكون قدأ كْمَنَتْ فى سفح هذا الجبل كمينا؛ فبعث المهلّب عشرة فوارس، فاطّلعوا على المائة ، فلما علموا بهم قطَعُوا القنطرة ونجوْا وانكشفت الشمس فصاحوا : ياأعداء الله ، لو قامت القيامة لجددنا ونحن فى جهادكم [1] .

ثم يئس الزُّبير من ناحية المهلب ، فضرب إلى ناحية أصبهَان ، ثم كرّ راجعا إلى أرَّجان ، وقدجمع جموعا؛ وكان المهلّب يقول : كأنى بالزبير وقد جمع لكم ؛ فلا تَرْهبوهم؛ فتنخبَ [2] قلوُبكم ، ولا تغفلوا الاحتراسَ فيطمعوا فيكم . فجاءوه من أرّجان ، فلقوه مستعدًّا آخذاً بأفواه الطُّرق ، فحاربهم فظهر عليهم ظهوراً بيّنا ، ففى ذلك يقول رجل من بنى يربوع :

سَقَى اللهُ المهلّبَ كُلَّ غَيْثٍ مِنَ الوَسْمِيّ يَنْتَحِرُ انتِحَارَا [3]
فمـــا وَهَنَ المهلّب يوم جاءتْ عوابس خيلهمْ تبغى الغِوارا [4]

وقال المهلب يومئذ : ما وقفْتُ فى مضيق من الحرب إلا رأيت أمامى رجالاً من بنى الهُجَيم بن عمرو بن تميم يجالِدُون ، وكأنّ لحاهم أذناب العَقَاعق [5] و [كانوا] [6] صبروا معه فى غير مواطن .

وقال رجل من أصحاب المهلّب من بنى تميم :

---

(١) فى الكامل : « لجددنا فى جهادكم » .
(٢) تنخب : تضعف ، وفى الكامل : « تخبث » .
(٣) ... ى : مطر الربيع الأول ، سمى به لأنه يسم الأرض بالنبات ؛ وانتحر الوسمى ، أى انبعق بماء كثير ؛ ومنه قول الراعى :

فَمَرّ عَلَى مَنازلها وَأَلْقَى بِهاَ الأَثْقَالَ وانْتَحَر انتِحَارَا

(٤) الغوار : مصدر غاور العدو مغاورة وغوارا ؛ أغار عليه .
(٥) العقاعق : جمع عقعق ؛ وهو طائر ذو لونين : أبيض وأسود طويل الذنب .
(٦) من الكامل .

أَلَا يَامَنْ لِصَبٍّ مُسْتَهَامٍ(١) قَرِيحِ الْقَلْبِ قَدْ مَلَّ الْمَزُونَا(٢)
لهــــان على المهلَّب مالقينـا إذا ما راح مسروراً بطينـــا(٣)
نَجُرَّ الســـابِرِىَّ وَنَحْنُ شُعْثٌ كأنّ جلودنا كُسِيَتْ طَحِينـــا(٤)

وحمل يومئذ الحارث بن هلال على قيس الإكاف؛ وكان من أنجدِ فُرسان الخوارج، فطعنَه فدَقَّ صلبه؛ وقال:

قيس الإكاف غَدَاةَ الرَّوْعِ يَعْلَمُـنِى ثَبْتَ الْمَقَـامِ إذا لاقيتُ أقْرَانِى

وقد كان بعض جيش المهلب يوم سِلَّى وسِلَّبْرى صاروا إلى البصرة، فذكروا أنّ المهلب قد أصيبَ، فهمّ أهل البصرة بالنُّقلة إلى البادية، حتى ورد كتابُه بظَفَرِه، فأقام الناس؛ وتراجع مَنْ كان ذهب منهم؛ فعند ذلك قال الأحنف: البَصْرة بَصْرةُ المهلّب. وقدم رجل من كِنْدة يعرف بابن أرقم، فنعى ابنَ عمّ له، وقال: إنى رأيت رجلاً من الخوارج، وقد مكّن رمحه من صُلبــه، فلم ينشب أنْ قدم المنعىّ سالمــا، فقيل له ذلك، فقال: صدق ابن أرقم، لمّا أحسَسْتُ برمحه بين كتفىّ صِحْت به: البَقيّة، فرفعه، وتلا: ﴿ بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(٥). ووجّه المهلّب بعقب هذه الوقعة رجلاً من الأزْد، برأس عبيدالله بن بشير بن الماحُوز إلى الحارث بن عبدالله، فلمــا صار بكُرْبُج(٦) دينار لقيته إخوة عبيد الله: حَبيب وعبـد الملك وعلىّ بنو بشير بن الماحُوز

(١) الكامل: «مستحن»، من استحنه الشوق إلى وطنه؛ أى استطربه.
(٢) قال المبرد: المزون: عمان؛ وهو اسم من أسمائها، قال الكميت:

فأمّا الأزْدُ أزدُ بنى سَعِيدٍ فأكْرَهُ أن أُسَمِّيهَا الْمَزُونَا

وقال جرير:

وأطْفَأتَ نيرانَ المزونِ وأهْلَهَا وَقَدْ حَاولوها فِتْنَةً أن تُسَعَّرَا

(٣) البطين: عظيم البطن
(٤) السابرى من الثياب: ما كان رقيقا.
(٥) سورة هود ٨٦
(٦) كربج: موضع قرب سوق الأهواز.

فقالوا : ما الخبر ؟ وهو لا يعرفهم ؛ فقال : قتل الله ابن الماحُوز المارق ، وهذا رأسُه معى ؛ فوثبوا عليه فقتلوه وصلبوه ، ودفنوا رأس أخيهم عُبيد الله ، فلما ولِىَ الحجاج دخل عليه علىّ ابن بشير ، وكان وَسيما جسيما ، فقال : مَنْ هذا ؟ فخبّره ، فقتله ووهب ابنَه الأزهر وابنَته لأهل الأزدىّ المقتول ، وكانت زينب بنت بشير لهم مواصلة ، فوهبوهما لها .

* * *

قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد فى كتاب " الكامل "[1] : ولم يزل المهلّب يقاتل الخوارج فى ولاية الحارث القُباع ، حتى عُزل وولىَ مصعب بن الزبير ، فكتب إلى المهلّب أن أقدِم علىّ ، واستخلف ابنَك المُغيرة . ففعل بعد أن جمع الناس ، وقال لهم : إنّى قد استخلفتُ المغيرة عليكم ، وهو أبو صغيركم رقّةً ورحمةً ، وابنُ كبيركم طاعةً وبرًّا وتبجيلا ، وأخو مثله مواساةً ومناصحة ، فلتحسُنْ له طاعتُكم ، وليلِنْ له جانبُكم ، فوالله ما أردتُ صوابًا قطّ إلا سبقنى إليه .

ثم مضى إلى مصعب ، فكتب مصعب إلى المغيرة بولايته ، وكتب إليه : إنك إن لم تكن كأبيك ، فإنك كافٍ لما وليت[2] ، فشمّر وائتزر[3] ، وجِدّ واجتهد .

ثم شَخَص المصعب إلى المَزار ، فقتل أحمر بن شُمَيط ، ثم أتى الكوفة فقتل المختار ، وقال للمهلب : أشِرْ علىّ برجل أجعله بينى وبين عبد الملك ، فقال له : اذكر واحداً من ثلاثة : محمد بن عمير بن عُطارد الدارمىّ ، أو زياد بن عمرو بن الأشرف العتكىّ ، أو داود ابن قَحْذَم ، قال : أو تكفينى أنت ؟ قال : أكفيك إن شاء الله . فشخَص فولّاه الموصل فخرج إليها ؛ وصار مُصعب إلى البصرة لينفِر إلى أخيه بمكة . فشاور الناس فيمن يستكفيه

---

(١) الكامل ٦٤٣ وما بعدها (طبع أوربا)
(٢) الكامل : « وليتك »
(٣) الكامل : « واتزر »

أمرَ الخوارج ،فقال قوم : وَلِّ عبد الله بن أبى بَكْرة ،وقال قوم : وَلِّ عمر بن عبيدالله بن معمر ،وقال قوم :ليس لهم إلّا المهلّب فاردده إليهم ؛وبلغت المشورةُ الخوارج فأداروا الأمرَ بينهم ، فقال قطرىّ بن الفُجاءة المازنىّ ـ ولم يكن أمّروه عليهم بَعْدُ ـ : إن جاءكم عبدالله بن أبى بَكْرة أتاكم سَيِّدٌ سَمْح كريم جواد مُضيع لعسكره ، وإن جاءكم عُمر بن عبيد الله أتاكم فارس شُجاع ، بطل جادّ ، يقاتل لدينه ولملكه ، وبطبيعة لم أرَ مثلها لأحد ؛ فقد شهدته فى وقائع ؛ فما نُودِىَ فى القوم لحربٍ إلا كان أولَ فارس ؛ حتى يَشُدّ على قِرنه ويضربه ؛ وإن رُدّ المهلّب فهو مَنْ قد عرفتموه ، إذا أخذتم بطرف ثوب أخذ بطرفه الآخر ، يمدّه إذا أرسلتموه، ويُرسله إذا مددتموه، لا يبدؤكم إلا أن تبدءوه ؛ إلا أن يرى فرصة فينتهزها ، فهو الليث المبِرّ[1] ،والثعلب الرّواغ ، والبلاء المقيم .

فولّى مصعبٌ عليهم عمر بن عبيد الله بن مَعْمر ، وولّاه فارس ، والخوارجُ بأرَّجان يومئذ ،وعليهم الزُّبير بن علىّ السَّليطىّ ، فشخص إليهم فقاتلهم،وألحّ عليهم حتى أخرجهم منها ، فألحقهم بأصبهانَ ، فلما بلغ المهلب أنّ مصعبا ولّى حربَ الخوارج عمرَ بن عبيدالله ، قال : رماهُمْ بفارس العرب وفتاها . فجمع الخوارج له ، وأعدّوا واستعدّوا ، ثم أتوا سابور[2]. فسار إليهم حتى نزل منهم على أربعة فراسخ ، فقال له مالك بن أبى حَسّان الأزدىّ : إنّ المهلب كان يُذْكى العيون ، ويخاف البَيات ، ويرتقب الغَفْلة ، وهو على أبعد من هذه المسافة منهم .

فقال عمر : اسكُتْ ، خَلَع الله قلبَك ! أتراكَ تَمُوتُ قبلَ أجلِك ! وأقام هناك ، فلما كان ذات ليلة بيّته الخوارج ، فخرج إليهم فحاربهم حتى أصبح ، فلم يظفروا منه بشىء . فأقبل على مالك بن أبى حسان ، فقال : كيف رأيت ؟ فقال : قد سلّم اللهُ ، ولم يكونوا

---

(١) المبر : الغالب ؛ من أبر عليه ؛ إذا غلبه .

(٢) سابور : كورة مشهورة بأرض فارس ، بينها وبين شيراز خمسة وعشرون فرسخاً .

يطمعُون فى مثلِهـا من المهلّب ، فقال : أما إنّـكم لو ناصحتُمونى مناصحَتَـكم المهلّب ، لرجوت أنْ أنفِيَ هذا العدوّ ، ولـكنّـكم تقولون: قرشيّ حجازيّ ، بعيدُ الدار خيرُه لغيرنا ، فتقاتلون معى تعذيراً (١) . ثم زحف إلى الخوارج من غَد ذلك اليوم ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، حتى ألجأهم إلى قنطرةٍ ، فتـكاثف الناسُ عليها حتى سقطت ، فأقام حتى أصلحها (٢) ، ثم عبَر ، وتقدّم ابنه عبيدُ الله بن عمر ــ وأمّه من بنى سَهْم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب ــ فقاتلهم حتى قُتِل ، فقال قطرىّ للخوارج : لاتقاتلوا عُمَر اليوم ؛ فإنه موتور ، قد قتلتم ابنَه ــ ولم يعلم عمرُ بقتلِ ابنه حتى أفضَى إلى القوم ؛ وكان مع ابنه النّعمان بن عباد ــ فصاحَ به عمر : يانعمان ، أين ابنى ؟ قال : احتَسِبْه فقد استشهد صابراً مقبلاً غـير مدبر ؛ فقال: إنا لله وإنّا إليْهِ رَاجِعون ! ثم حَمَل على الخوارج حملة لم يُرَ مثلُها ، وحمل أصحابُه بحمْلته ؛ فقتلوا فى وجههم ذلك تسعين رجلا من الخوارج ، وحملَ على قَطَرِيّ فضربَه على جبينه ففلَقه ، وانهزمت الخوارجُ وانتهبها ؛ فلما استقرُّوا ورأى مانزلَ بهم ، قال : ألم أشِرْ عليـكم بالانصراف ! فجعلوه حينئذ من (٣) وجُوههم ؛ حتى خرجوا من فارس ، وتاقّاهم فى ذلك الوقت الفِزْر بن مِهزم العبدىّ ، فسألوه عن خبره ، وأرادوا قتله ، فأقبل على قطرىّ ، وقال: إنى مؤمن مهاجر ؛ فسأله عن أقاويلهم فأجاب إليها ؛ فخلّوْا عنـه ، ففى ذلك يقول فى كلمة له :

فشدّوا وَثاقى ثم ألجوْا خُصُومَتى   إلى قطرىّ ذِى الجبين المفلّقِ
وحاججتُهم فى دينهم فحججتُهُمْ   وما دينهم غيرُ الهوَى والتخلّقِ

ثم رجعوا وتـكانَفوا (٤) ، وعادوا إلى ناحيـة أرّجان ، فسار إليهم عمر بن عبيد الله ، وكتب إلى مصعب :

(١) تعذيرا ؛ أى تقاتلون معى من غير تمام أو مبالغة .
(٢) ج : « فأصلحها » .
(٣) كذا فى ب ، وفى ا ، ج والـكامل بحذف كلمة « من » .
(٤) فى زيادات الأخفش على الـكامل : « تـكانفوا ؛ أعان بعضهم بعضا واجتمعوا وصار بعضهم فى كنف بعض » .

أما بعد ، فإنى لقيت الأزارقة ؛ فرزق الله عزّ وجل عُبيدالله بن عمر الشهادة ،ووهب له السعادة ، ورزقنا بعدُ عليهم الظَّفَر ، فتفرقوا شَذَرَ مَذَرَ(١) . وبلغنى عنهم عودةٌ فيمّمْتُهم ؛ وبالله أستعين ؛ وعليه أتوكل .

فسار إليهم ومعه عطية بن عمرو، ومُجّاعة بن سُمْر فالتقوا، فألحّ عليهم عمر حتى أخرجهم، وانفرد من أصحابه، فعمد إلى أربعة عشر رجلا من مَذْكوريهم وشجعانهم ؛ وفى يده عمود، فجعل لايضرب رجلاً منهم ضربة إلا صَرَعه ، فركض إليه قطرىّ على فرس طِمِرّ(٢) ، وعمر على مُهْر ، فاستعلاه قطرىّ بقوة فرسه ؛ حتى كاد يصرعُه ، فبَصُرَ به مجّاعة ،فأسرع إليه ، فصاحت الخوارج : ياأبا نعامة ، إنّ عـدوّ الله قد رَهِقك(٣) . فانحطّ قطرىّ على قَرَبُوسه وطعنـه مُجّاعة ؛ وعلى قطرىّ دِرْعان فهتَكهما وأسرع السِّنان فى رأس قَطَرِىّ ، فـكشط جلدَه ونجا ، وارتحل القوم إلى أصفَهان ، فأقاموا بُرهة ، ثم رجعوا إلى الأهواز ؛ وقد ارتحل عمر بن عبيد الله إلى إصْطَخْر(٤) ، فأمر مُجّاعة لجَبَى الخراج أسبوعا ؛ فقال له : كم جبيت ؟ قال : تسعمائة ألف ، فقال : هى لك .

وقال يزيد بن الحكم لمُجّاعة :

وَدَعَاكَ دَعْوَةَ مُرْهَقٍ فأجبْتَهُ ... عُمَرٌ وقد نَسِيَ الحياةَ وَضَاعَا(٥)
فَرَدَدْتَ عَادِيَةَ الكَتِيبةِ عَنْ فَتًى ... قد كادَ يُتْرَكُ لَحْمُهُ أَوْزَاعا(٦)

قال : ثم عُزِل مُصْعبُ بن الزُّبير ؛ وولّى عبدُ الله بن الزبير العراقَ ابنه حمزة

(١) شذر ، مذر ؛ بالتحريك فيهما : ذهبوا فى كل وجه ؛ ومذر : إتباع .
(٢) فرس طمر ؛ هو الطويل القوائم الخفيف ، أو هو المستفز للوثب والعدو ؛ والأنثى طمرة .
(٣) رهقك : غشاك .
(٤) إصطخر : بلد من أعيان بلاد فارس .
(٥) المرهق : هو الذى أدرك ليقتل ؛ من أرهق الرجل إذا قتله . و « عمر » فاعل : « دعاك » .
(٦) العادية : الخيل تعدو ، أو الرجال يعدون . وأوزاعا : قطعا .

ابن عبد الله بن الزبير ؛ فمكث قليلا ؛ ثم أعيد مُصعب إلى العراق ، والخوارج بأطراف أصبهان ، والوالي عليها عَتّاب بن وَرْقاء الرِّياحيّ ؛ فأقام الخوارج هناك يجبون شيئا من القرى ، ثم أقبلوا إلى الأهواز من ناحية فارس ؛ فكتب مُصعب إلى عمر بن عبيدالله: ماأنصفتنا ! أقمتَ بفارس تَجْبي الخراج ؛ ومثل هذا العدوّ يجتاز بك لاتحاربه ! والله لوقاتلتَ ثم هُزِمت لكان أعْذَرَ لك !

وخرج مُصعب من البصرة يريدهم ؛ وأقبل عمرُ بن عبيدالله يريدهم ، فتنحّى الخوارج إلى السُّوس ، ثم أتوا إلى المدائن ؛ وبسطوا فى القتل ؛ فجعلوا يقتلون النساء والصبيان ؛ حتى أتوا المذار[1] ؛ فقتلوا أحمر طيّئ ؛ وكان شجاعا ، وكان من فرسان عُبيد الله بن الحرّ ؛ وفى ذلك يقول الشاعر :

تَرَكْتُمْ فَتَى الْفِتْيَانِ أَحْمَرَ طَيِّئٍ بِسَابَاطَ لَمْ يَعْطِفْ عَلَيْهِ خَلِيلُ[2]

ثم خرجوا عامدين إلى الكوفة ، فلما خالطوا سوادَها — وواليها الحارث القُباع — تثاقل عن الخروج ، وكان جَبانا ؛ فذَمره[3] إبراهيم بن الأشتر ، ولامه الناس ؛ فخرج متحاملا حتى أتى النُّخيلة ، ففى ذلك يقول الشاعر :

إنّ القُباع سارَ سَيْراً نُكُرَا يَسِيرُ يوماً ويُقِيم عَشْرا

وجعل يعد الناس بالخروج ولا يخرج ؛ والخوارج يَعيثون ؛ حتى أخذوا امرأة ، فقتلوا أباها بين يديها ، وكانت جميلة ، ثم أرادوا قتلَها ، فقالت : أتقتلون مَنْ يُنَشَّأ فى الحِلْية وهو فى الخصام غير مبين ! فقال قائل منهم : دعوها ، فقالوا : قد فتنتْك ، ثم قدموها فقتلوها .

---

(١) المذار : بلدة فى ميسان بين واسط والبصرة .
(٢) ساباط : موضع بالمدائن ؛ يقال له : ساباط كسرى .
(٣) ذمره ، أى حضه مع لوم ليجد .

وقربوا امرأة أخرى وهم بإزاء القُباع ، والجسْر معقود بينهم ؛ فقطعه القُباع وهو فى ستة آلاف ، والمرأة تستغيث به وهى تُقْبل ؛ وتقول : علام تقتلونَنى ! فوالله مافسَقْت ، ولا كَفَرت ، ولا زَنَيْت[١] ، والناس يتفلّتون إلى القتال ، والقُباع يمنعهم .

فلما خاف أن يعصُوه أمر عنــد ذاك بقَطْع الجسر ، فأقام بين دَبيرى ودَباها[٢] خمسة أيام ، والخوارج بقُرْبه ، وهو يقول للناس فى كل يوم : إذا لقيتُم العدوَّ غــدا ، فأثْبتوا أقدامَــكم واصبروا ؛فإن أوّل الحرب الترامِى، ثم إشراع الرِّماح ، ثم السلّة[٣] ؛ فثَــكلت رجلا أمُّه فرَّ من الزحف !

فقال بعضهم لما أ كثر عليهم : أما الصِّفَة فقد سمعناها ، فمتى يقع الفعل ؟

وقال الراجز :

إن القُبَاعَ سَارَ سَيْراً ملْسَا[٤] ... بَيْنَ دَبَاها ودَبِيرَى خمسا

وأخذ الخوارج حاجتَهم ، وكان شأن القُباع التحصُّنَ منهم ؛ ثم انصرفوا ورجع إلى الــكوفة ؛ وساروا منفورهم إلى أصبَهان ،فبعثَ عتّاب بن وَرْقاء الرياحىّ إلى الزُّبير بن على : أنا ابنُ عَمّك ، ولست أراك تقصد فى انصرافك من كلّ حَرْب غيرى . فبعثإليه الزبير : إنّ أدنَى الفاسقين وأبعدَهم فى الحقّ سواء .

فأقام الخوارجُ يُقَادُونَ عتّاب بن وَرْقاء القتال ويُراوِحُونه ، حتى طال عليهم المقام ، ولم يظفروا بكبير شىء ؛ فلما كَثُر عليهم ذلك انصرفوا ؛ لايمرّون بقريةٍ بين أصبَهان والأهواز إلا استباحوها ، وقتلوا مَنْ فيها . وشاوَر المُصعَبُ النَّاس فيهم ؛ فأجمع رأيُهم على

---

(١) الكامل : « ارتددت » .

(٢) دبيرى ودباها ، بفتح الدال فيهما : قريتان من نواحى بغداد .

(٣) السلة : استلال السيوف .

(٤) الملس : السير الشديد .

المهلّب، فبلغ الخوارجَ مُشاوَرتُهم ؛ فقال لهم قَطَرِىّ : إنْ جاءكم عَتّاب بن وَرْقاء ؛ فهو فاتِكٌ يطلع فى أول المِقْنَب[1] ولا يظفَر بكثير[2] ، وإن جاءكم عمر بن عُبيدالله ففارس يُقدِم ؛ إما عليه وإمّا لَهُ ؛ وإن جاءكم المهلّب فرجلٌ لا يُناجِزُكم حتى تُناجزوه ؛ ويأخذُ منكم ولا يُعطيكم ؛ فهو البَلاء اللازِم ، والمكروه الدائم .

وعزم مُصعَب على توجِيه المهلّب ، وأن يشخَص هو لحرب عبد الملك . فلما أحسّ به الزُّبير خرج إلى الرّىّ - وبها يزيد بن الحارث بن رويم - فحارَبه ثم حصَره ؛ فلما طال عليه الحِصار خرج إليه ؛ فكان الظَّفرُ للخوارج ، فقتل يزيد الحارث بن بن رُوَيم ؛ ونادى يزيد ابنه حَوْشبا ، ففرّ عنه وعن أمّه لطيفة [وكان علىّ بن أبى طالب عليه السلام دخل على الحارث بن رويم يعود ابنه يزيد ، فقال : عندى جارية لطيفة الخدمة أبعث بها إليك، فسمّاها يزيد لطيفة][3] ، فقتِلت مع بَعْلها[4] يزيد يومئذ . وقال الشاعر :

مواقِفُنا فى كلّ يوم كَرِيهَةٍ ... أسَرّ وأشْفى مِنْ مواقِف حَوْشَبِ
دعاه أبوهُ والرِّماح شَوَارِعٌ[5] ... فلم يستجِبْ بل رَاغ تَرْوَاغَ ثَعلَب
وَلَوْ كَانَ شَهْمَ النَّفْسِ أوْذَا حَفِيظَةٍ ... رَأَى مارأى فى الموت عِيسى بنُ مُصْعَبِ

وقال آخر :

نَجّى حَلِيلتَه وأسْلَمَ شَيْخَهُ ... نَصْبَ الأسِنَّة حَوْشَبُ بْنُ يَزيدِ[6]

---

(١) المقنب : جماعة الخيل .
(٢) كذا فى ا ، ج . وفى ب والكامل : « بكبير » .
(٣) تكملة من كتاب الكامل .
(٤) الكامل : « فقتلت معه » .
(٥) كذا فى ا ، ج والكامل ، وفى ب : « تنوشه » .
(٦) نصب الأسنة ؛ أى محاذيها .

قال : ثم(١) انحطّ الزُّبير على أصفهان ، فحَصر بهـا عتّاب بن ورقاء سبعة أشهر ؛ وعتّاب يُحاربه فى بعضهنّ ؛ فلما طال به الحِصار قال لأصحابه : ما تنتظرون ! والله ماتُؤْتَوْن من قِلّة ؛ وأنـكم لَفُرْسان عشائركم ؛ ولقد حاربتموهم مرارا فانتصفتم منهم ؛ وما بَقِيَ مع هذا الحصـار إلا أن تَفْنَى ذخائركم ، فيموتَ أحدكم ، فيـدفنه أخوه ، ثم يموت أخوه فلا يجدُ مَنْ يدفنه ؛ فقاتلُوا القوم وبكم قُوّة من قبْل أن يَضْعُفَ أحدُكم عن أن يمشيَ إلى قِرْنه .

فلمـا أصبَح صلّى بهم الصبح ؛ ثم خرج إلى الخوارج وهم غارُّون(٢) ، وقد نصبَ لواء لجارية له يقال لها ياسمين ، فقال : مَنْ أرادالبقاء فليلْحق بلواءياسمين ؛ ومن أرادالجهاد فليخرج معى ؛ فخرج فى ألفين وسبعمائة فارس؛ فلم يشعر بهم الخوارج حتى غَشُوهم ،فقاتلوهم بجدّ لم تر الخوارجُ منهم مثله ؛ فعقروا منهم خَلْقا كثيرا وقُتل الزبير بن علىّ ، وانهزمت الخوارج ، فلم يتبعهم عتّاب ، ففى ذلك يقول القائل :

وَيَوْمٌ بجَيٍّ تلافيتَه(٣) وَلَوْلَاكَ لَاصْطُلِمَ العَسْكرُ(٤)

وقال آخر :

خَرَجْتُ من المدينة مُسْتَميتاً ولم أكُ فى كَتيبَةِ يَاسَمينـــا

---

(١) فى الـكامل قبل هذا الـكلام : « وقال ابن حوشب لبلال بن أبى بردة يعيره بأمه ـ وبلال مشدود عند يوسف بن عمر : يابن حوراء ! فقال بلال ـ وكان جلدا : إن الأمة تسمى حوراء وجيداء ولطيفة . وزعم الـكلبي أن بلالا كان جلدا حيث ابتلى . قال الـكلبي : ويعجبنى أن أرى الأسير جلداً . قال: وقال خالد بن صفوان له بحضرة يوسف : الحمد لله الذى أزال سلطانك ، وهد ركنك ، وغير حالك ؛ فوالله لقد كنت شديد الحجاب ، مستخفاً بالشريف ، مظهرا العصبية ؛ فقال له بلال : إنما طال لسانك يا خالد لثلاث معك هن على : الأمر عليك مقبل وهو عنى مدبر ؛ وأنت مطلق وأنا مأسور ، وأنت فى طينتك وأنا فى هذا البلد غريب ـ وإنمـا جرى إلى هذا لأنه يقـال : إن أصل آل الأهتم من الحيرة ، وأنهم أشابة دخلت فى بنى منقر من الروم » .

(٢) غارون : غافلون .

(٣) جى : اسم مدينة كانت ناحية أصبهان ، والبيت لأعشى همدان (ياقوت) .

(٤) اصطلم : أبيد .

أَلَيْسَ مِنْ الفضائل أنّ قَومِى غَدَوْا مستلئِمين مجاهدينـــا[١]

قال : وتزعم الرواة أنّهم فى أيام حصارهم كانوا يتواقفون ، ويحمل بعضُهم على بعض، وربما كانت مُواقفة[٢] بغير حَرْب ، وربما اشتدّت الحرب بينهم ؛ وكان رجلٌ من أصحاب عَتّاب ـ يقــال له : شريح ، ويكنى أبا هُريرة ـ إذا تحاجَز[٣] القومُ مع المساء نادى بالخوارج والزبير بن علىّ :

يابنَ أبى الماحُوز والأشْرَارِ كَيْفَ تَرَوْنَ يَا كِلاَبَ النَّارِ
شــدَّ أبى هُرَيْرَةَ الهرّارِ يَهُرُّكُمْ باللَّيــل والنَّهارِ
ألم تَرَوا جَيًّا على المِضْمار تُمْسى من الرّحْمن فى جِوَار

فغاظهم ذلك، فكَمَن له عبيدة بن هِلال، فضربه بالسّيف، واحتمله أصحابه ،وظنت الخوارج أنه قد قتل؛ فكانوا إذا تواقفوا نادوْهم: مافعل الهرّار ؟ فيقولون: ما به من بأس ؛ حتى أبلّ من عِلّته، فخرج إليهم، فقال : يا أعداء الله ، أترَوْن بى بأسا ؟ فصاحوا به: قد كنا نرى أنك قد لحِقْت بأمّك الهاوية ، إلى النار الحامية .

***

[قطرىّ بن الفُجاءة المازنىّ]

ومنهم قَطَرِىّ بن الفجاءة المازنى ، قال أبو العباس[٤] :

لما قتِل[٣] الزّبير بن علىّ أدارت الخوارجُ أمرَها، فأرادوا توليَةَ عبيدة بن هلال ؛ فقال: أدلّـكم على مَنْ هو خيرٌ لـكم منى ؟ مَنْ يطاعِن فى قُبُل ، ويحمى فى دُبُر ؛ عليـكم

(١) مستلئمين : لابسين اللأمة ؛ وهى الدرع ، وفى ج : « مستسلمين » .
(٢) المواقفة فى الحرب والخصومة : أن يقف كل من الطرفين أمام الآخر .
(٣) ج : « تأخر » .
(٤) الكامل ٦٥٢ وما بعدها (طبعة أوربا) .

بقَطَرِىّ بن الفُجاءة المازنىّ . فبايعوه . وقالوا : ياأمير المؤمنين ؛ امضِ بنا إلى فارس، فقال: إنّ بفارس عمر بن عبيد الله بن مَعْمر ؛ ولـكن سير إلى الأهواز ؛ فإن خرج مُصعب من البصرة دخلناها، فأتوا الأهواز ثم ترفّعوا عنها على إيذَج(١) ـ وكان المُصعب قد عَزَم على الخروج إلى باجُميرا(٢) ـ وقال لأصحابه : إنّ قَطَرِيًّا المُطِلٌّ علينا ؛ وإن خرجنا عن البصرة دخَلها ، فبعث إلى المهلّب فقال : اكْفِنا هذا العدوّ ؛ فخرج إليهم المهلّب ؛ فلما أحسّ به قطرىّ يمّم نحو كِرْمان ، وأقام المهلّب بالأهواز ، ثم كرّ عليـه قَطَرىّ ، وقد استعدّ ، وكانت الخوارج فى حالاتهم أحسَن عُدّة ممن يقـاتلهم بكثرة السلاح وكثرة الدواب ، وحَصَانة الجُنَن(٣) . فحارَبَهُم المهلّب ، فدفعهم فصاروا إلى رَامَهُرْمُز ؛ وكان الحارث بن عُميرة الهمدانىّ قد صار إلى المهلب مراغِماً لعتّاب بن ورقاء، ويقال : إنّه لم يُرضِه عن قتله الزبيرَ بن علىّ ، وكان الحارث بن عُميرة ، هو الذى قتله وخاض إليه أصحابه ،ففى ذلك يقول أعشى هَمْدان :

إنّ المـكارمَ أكمِلَتْ أسبابُها ... لابن اللُّيوثِ الغُرّ مِنْ هَمْدَانِ(٤)
للفارسِ الحامِى الحقيقة مُعلِماً ... زادِ الرِّفاق وفارسِ الفُرْسانِ(٥)

---

(١) إيذج ، بكسر الهمزة وفتح الذال : بلد بين خوزستان وأصبهان .

(٢) باجميرا ، بضم الجيم وفتح الميم وياء ساكنة : موضع دون تكريت .

(٣) الجنن : جمع جنة ؛ وهى الدرع .

(٤) ديوان الأعشى ٣٤٣ ، وروايته : « من قحطان » ، وهى رواية الـكامل أيضا .

(٥) ديوان الأعشى والـكامل : « زاد الرفاق إلى قرى نجران » ؛ قال المبرد : وتأويله أن الرفقة إذا صحبها أغناها عن التزود ؛ كما قال جرير ـ وأراد ابن له سفرا ، وفى ذلك السفر يحيى بن أبى حفصة ؛ فقال لأبيه : زودنى ؛ فقال جرير :

أزاداً سوى يحيى تريد وصاحباً ... ألا إن يحيى نعم زاد المسافرِ
فماتُنْـكِرُ الـكَوْماءُ ضربةَ سيفهِ ... إذا أرملوا أو خَفَّ ما فى الغرائرِ

وزاد فى الديوان بعد هذا البيت :

حتى تدارَكَهُمْ أغرُّ سَمَيْدَعٌ ... فحماهُمُ إن الـكريمَ يمانـ

الحارث بن عَميرةَ اللَّيث الَّذِى يحمى العراق إلى قُرَى نَجْرانِ[١]
وَدّ الأزراقُ لو يصابُ بطعنــةٍ ويموتُ مِنْ فرسانهم مائتـــان

قال أبوالعباس : وخرج مُصعب إلى باُجَمْيْرَا ، ثم أتى الخوارج خبرُ مقتله بمَسْكِن ، ولم يأتِ المهلّب وأصحابه، فتواقفوا يوما براَمَهُرْمُز على الخندق، فناداهم الخوارج :ماتقولون فى مُصعب؟ قالوا : إمام هدًى ، قالوا : فما تقولون فى عَبْد الملك ؟ قالوا: ضالٌ مضلٌ ،فلما كان بعدَ يومين أتى المهلّبَ قتلُ المصعب؛ وأنّ أهل العراق قد اجتمعوا على عبد الملك،وورد عليه كتاب عبد الملك بولايته؛.فلماتواقفوا ناداهم الخوارج : ماتقولُون فى المصعب ؟قالوا : لانخبركم ،قالوا : فما تقولون فى عبد الملك ؟ قالوا : إمام هدى ، قالوا : يا أعداء الله، بالأمس ضالٌ مضلٌ ، واليوم إمام هدى ! يا عبيدَ الدنيا عليكم لعنة الله !

***

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ فى كتاب " الأغانى الكبير " ، قال :[٢] كان الشُّراة والمسلمون فى حرب المهلّب وقطرىّ يتواقفون ويتساءلون بينهم عن أمر الدين وغير ذلك ، على أمانٍ وسكون ، لا يَهِيج بعضُهم بعضا ، فتواقف يوماً عبيدة بن هلال اليشكرىّ ، وأبو حُزابة[٣] التميمىّ ، فقال عبيدة : يا أبا حُزابة ، إنى أسألك عن أشياء، أفتصدُقنى عنها فى الجواب ؟ قال : نعم ، إن ضمنت لى مثلَ ذلك ، قال : قد فعلت،قال : فسَلْ عمّا بدالك ، قال : ماتقولون فى أئمتكم ؟ قال : يبيحون الدم الحرام، قال :ويحك ! فكيف فعلُهم فى المال ؟ قال : يَجْبُونه من غير حلّه ، ويُنفقونه فى غير وجهه ، قال : فكيف فعلُهم فى اليتيم؟ قال : يظلمونه ماله ، ويمنعونه حقّه، ويَنيكون أمّه ، قال:ويحك يا أبا حُزابة ! أمثل هؤلاء تتّبع ! قال : قد أجبتك ، فاسمع سؤالى ، ودع عتابى على رأيى،

(١) الديوان : « إلى قرى كرمانِ » .
(٢) الأغانى ٦ : ١٤٩ وما بعدها (طبعة الدار) .
(٣) هو الوليد بن حنيفة أحد شعراء الدولة الأموية .

قال : سل ، قال: أىّ الخمر أطيب، خمر السّهل أم خَمْر الجبل ؟ قال : ويحك ! أمثلى يُسألُ عن هذا ! قال : قد أوجبتَ على نفسك أن تجيب ، قال : أمّا إذ أبيت ؛ فإنّ خمر الجبل أقوى وأسكر ، وخمر السهل أحسن وأسلس ، قال : فأىّ الزّوانى أفره ؟ أزوانى رَامَهُرمز ، أم زوانى أرّجان ؟ قال : ويحك ! إنّ مثلى لا يسأل عن هذا ، قال : لا بدّ من الجواب أو تغـدر .

قال: أمّا إذ أبيت فزوانى رَامهُرمز أرقّ أبشارا، وزوانى أرّجان أحسن أبدانا .قال : فأىّ الرجلين اشعر ، جرير أم الفرزدق ؟ قال : عليك وعليهما لعنة الله ، قال : لا بدّ أن تجيب ، قال : أيّهما الذى يقول :

وطوى الطِّرادُ مع القِياد بطونَها ... طَىَّ التِّجار بحضْرَمَوْتَ بُرودا

قال : جرير ، قال : فهو أشعرُها .

قال أبو الفرج : وقد كان الناسُ تجادلوا فى أمر جرير والفرزدق فى عسكر المهلّب ؛ حتى تواثبوا ، وصاروا إليه محكِّمين له فى ذلك ، فقال: أتريدون أن أحكُم بين هذين الـكلْبين المتهارشين، فيمضغانى ! ما كنت لأحكم بينهما ، ولـكنى أدلّـكم على مَنْ يحكم بينهما ، ثم يَهونُ عليه سِبابهما ، عليكم بالشُّراة ، فاسألوهم إذا توافقتم ؛ فلما توافقُوا سأل أبو حُزابة عبيدة بن هلال عن ذلك ، فأجابه بهذا الجواب .

***

وروى أبو الفرج أنّ[1] امرأةً من الخوارج كانت مع قطرىّ بن الفُجاءة ، يقال لها مّ حكيم ، وكانت مِنْ أشجع الناس وأجملهم وجها ، وأحسنهم بالدِّين تمسكا ، وخطبها

(١) الأغانى ٦ : ١٥٠ (طبعة الدار) .

جماعة منهم فردّتهم ولم تجبْهم ؛ فأخبر مَنْ شاهدها فى الحرب أنّها كانت تحمل على الناس وترتجز ، فتقول :

أَحمِلُ رأساً قدْ سَئِمْتُ حَمْلَهْ   وَقدْ مَلِلْتُ دَهْنَهُ وَغَسْلَهْ

* ألا فتًى يَحمِلُ عَنّى ثِقْلَهْ *

والخوارج يفدّونها بالآباء والأمّهات ؛ فما رأينا قبلها ولا بعدها مثلها .

***

وروى أبو الفرج[1]، قال : كان عبيدة بن هلال ، إذا تكافّ الناسُ ناداهم : ليخرجْ إلىّ بعضُكم ؛ فيخرج إليه فِتْيانٌ من عَسْكر المهلّب ؛ فيقول لهم : أيّما أحبّ إليكم ؟ أقرأ عليكم القرآنَ أم أنشِدكم الشّعر ؟ فيقولون له : أمّا القرآن فقد عرفناه مثل معرفتِك ؛ ولكن تنشدنا ، فيقول : يافَسَقة ؛ قد والله علمت أنّكم تختارون الشعر على القرآن ، ثم لايزال يُنشِدُهم ويستنشدهم حتى يَملّوا ويفترقوا .

***

قال أبو العباس[2]: وولّى خالد بن عبد الله بن أُسيد فقدم فدخلَ البصرة ، فأرادعزل للمهلّب ، فأشير عليه بألّا يفعل ؛ وقيل له : إنّما أمِنَ [أهل][3] هذا المِصْر ؛ لأن المهلّب بالأهواز وعمر بن عبيد الله بفارس ؛ فقد تنحّى عمر ، وإن نَحّيتَ المهلّب لم تأمَنْ على البصرة . فأبى إلّا عَزْله ، فقدم المهلّب البصرة ، وخرج خالد إلى الأهواز ؛ فاستصحبه[4]، فلما صار بكُرْبَج دينار لقيه قطرىّ ، فمنعه حطّ أثقاله ، وحاربه ثلاثين يوما .

ثم أقام قطرىّ بإزائه ، وخندقَ على نفسه ، فقال المهلّب لخالد : إنّ قَطرِيًّا ليس

---

(١) الأغانى ٦ : ١٥١ (طبعة الدار) .

(٢) الكامل ٦٥٤ (طبعة أوربا) .

(٣) من الكامل .

(٤) الكامل : « فأشخصه » .

بأحقّ بالخندق منك ، فعبر دُجَيلا إلى شق نهر تِيرَى ، واتبعه قطرىّ فصار إلى مدينة نهر تِيرَى ، فبنَى سورَها ، وخندق عليها ، فقال المهلّب لخالد : خَنْدق على نفسك ، فإنى لاآمنُ البيَات ، فقال : ياأبا سعيد ، الأمر أعجل من ذاك ، فقال المهلّب لبعض ولده : إنى أرَى أمراً ضائعا، ثم قال لزياد بن عمرو : خندق علينا ، فخندَق المهلّب على نفسه(١) ، وأمر بسفنه ففرّغتْ ، وأبى خالد أن يفرّغ سفنَه ، فقال المهلّب لفيروز حصين : صِرْ معنا؛ فقال : ياأبا سعيد ، إن الحزم ماتقول ، غير أنى أكره أنْ أفارِق أصحابى ، قال : فكن بقُرْبنا ، قال : أمّا هذه فنعم .

وقد كان عبد الملك كتبَ إلى بشر بن مروان يأمره أن يمدّ خالداً بجيش كثيف ، أميرُه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث : ففعل ، فقدِم عليه عبد الرحمن ، فأقام قَطَرِىّ يُغاديهم القتال ويُراوِحهم أربعين يوما ؛ فقال المهلّب لمولى أبى عيينة : سِرْ(٢) إلى ذلك الناوس ، فبتْ عليه كلّ ليلة، فمتى أحسست خَبَراً للخوارج ، أو حركةً أو صهيلَ خيل، فاعجَل إلينا .

فجاءه ليلة ، فقال : قد تحرّك القومُ ، فجلس المهلب بباب الخندق ، وأعدّ قَطَرِىٌّ سفنا فيها حطب وأشعلها ناراً ، وأرسلها على سُفن خالد ، وخرج فى أدبارها حتى خالَطهم ، لايمرُّ برجلٍ إلا قتَله ، ولا بدابّة إلا عَقَرها ، ولا بفُسطاط إلا هَتَكه ؛ فأمر المهلّب يزيد ابنه ، فخرج فى مائة فارس . فقاتل ، وأبْلَى عبدُ الرحمن بن محمد ابن الأشعث يومئذ بلاءً حسنا ، وخرج فيروز حصين فى مواليه ؛ فلم يزل يرميهم بالنُّشّاب هو ومن معه ، فأثّر أثراً جميلا ، وصُرِع يزيد بن المهلب يومئذ ، وصُرِع عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث ؛ فحامى عنهما أصحابُهما حتى ركبا ، وسقط فيروز حُصين فى

(١) كذا فى الأصول ، وهى ساقطة من الكامل .
(٢) كذا فى ب ، وفى ج : « شد » ، وفى الكامل : « انتبذ » ، أى سر إليه منفردا . والناوس فى الأصل : مقابر النصارى .

الخندق ، فأخذ بيده رجل من الأَزْد ؛فاستنقذه ؛ فوهب له فيروز عشرة آلاف ، وأصبح عسكر خالد كأنه حرّة سوداء[1] ، فجعل لا يرى إلا قتيلا أو جريحا ؛ فقال للمهلب : ياأبا سعيد ، كدنا نفتضح ! فقال : خَنْدِق على نفسك ؛ فإن لم تفعل عادوا إليك ، فقال : اكفنى أمرَ الخندق ، فجمع له الأخماس[2] فلم يبق شريف إلا عمل فيه ، فصاح بهم الخوارج : والله لولا هذا الساحر المَزُونى ، لكان الله قد دمّر عليكم ـ وكانت الخوارج تسمّى المهلّب الساحر ـ ، لأنهم كانوا يدبّرون الأمرَ فيجدون المهلّب قد سبق إلى نقض تدبيرهم .

وقال أعشى هَمْدان لابن الأشعث، يذكّره بلاء القحطانيّة عنده ؛ فى كلمة طويلة[3]:

وَيَوْمَ أهوازِكَ لَا تَنْسَهُ ليس الثَّنا والذِّكْرُ بالبائد

ثم مضى قَطَرِىٌّ إلى كِرْمان ؛ وانصرف خالد إلى البصرة ؛ وأقام قطرىّ بكِرْمان شهراً ، ثم عَمَد لفارس ، فخرج خالد إلى الأهواز وندَب الناس للرحيل ؛ فجعلوا يطلُبون المهلب ، فقال خالد : ذهب المهلّب بحظّ هذا المِصر ؛ إنى قد ولّيت أخى قتال الأزارقة . فولى أخاه عبد العزيز ، واستخلف المهلّب على الأهواز فى ثلاثمائة ؛ ومضى عبد العزيز والخوارج بدرا بجِرد وهو فى ثلاثين ألفا ، فجعل عبد العزيز يقول فى طريقه : يزعم أهلُ البصرة أنّ هذا الأمر لا يتمّ إلا بالمهلّب ؛ سيعلمون !

قال صقعب[4] بن يزيد : فلمّا خرج عبد العزيز عن الأهواز ، جاءنى كُرْدُوس ،

---

(١) الحرة : أرض ذات حجارة سوداء نخرة ؛ كأنها أحرقت بالنار .

(٢) الأخماس : هم جند البصرة .

(٣) ديوان الأعشين ٣٤ ؛ ومطلعها :

هَلْ تَعْرِفُ الدَّارَ عَفَا رَسْمُهَا بالحضْرِ فالروضة من آمدِ

دارٌ لخوْدٍ طفلةٍ رَوْدَةٍ بانتْ فأمسَى حبُّها عامدِى

(٤) الكامل : « صعب بن زيد » .

حاجب المهلّب ، فدعانى ، فجئت إلى المهلب وهو فى سطح ، وعليه ثياب هَرَوِيّة ، فقال : ياصَقْعب ؛ أنا ضائع كأنى أنظر إلى هزيمة عبد العزيز ، وأخشى أن توافيَنى الأزارقة ولا جند معى ، فابعث رجلا من قِبَلك يأتينى بخبرهم سابقا إلىّ به ، فوجّهت رجلاً من قِبَلى يقال له عمران بن فلان ؛ وقلت له : اصحب عسكر عبد العزيز ، واكتب إلىّ بخبر يوم فيوم ؛ فجعلت أورده على المهلّب ، فلما قاربهم عبد العزيز وقف وقفة ، فقال له الناس : هذا منزل ، فينبغى أن تنزِل فيه أيّها الأمير ؛ حتى نطمئنّ ثم نأخذ أهبّتنا ، فقال : كلاّ ، الأمر قريب ؛ فنزل الناس عن غير أمره ، فلم يستتمّ النزول ؛ حتى ورد عليه سعد الطلائع فى خمسمائة فارس ؛ كأنهم خَيْط ممدود ، فناهضهم عبدُ العزيز فواقفوه ساعة ، ثم انهزموا عنه مكيدة ، واتّبعهم فقال له الناس : لا تتبعهم ؛ فإنّا على غير تعبية ، فأبى ؛ فلم يزل فى آثارهم حتى اقتحموا عَقَبة ، فاقتحمها وراءهم والناس ينهوْنه ويأبى ، وكان قد جعل على بنى تميم عَبْس بن طَلْق الصَّريمىّ الملقّب عَبْس الطّعان ، وعلى بكْر بن وائل مقاتل بن مِسْمَع ، وعلى شُرْطته رجلا من بنى ضُبيعة بن ربيعة بن نِزار . فنزلوا عن العَقَبة ، ونزل خلفهم و [كان][1] لهم فى بطن العَقبة كمين ، فلما صاروا من ورائها ؛ خرج عليهم الكَمين ، وعطف سعد الطلائع ، فترجّل عبس بن طلْق ، فقتِل وقتِل مقاتل بن مسمع ، وقتل الضُّبيعىّ ، صاحب شُرْطة عبدالعزيز ، وانحاز عبدُ العزيز واتّبعهم الخوارج فرسخيْن يقتلونهم كيف شاءوا ، وكان عبد العزيز قد أخرج معه أمّ حفص بنت المنذر ابن الجارُود امرأته ، فسَبَوْا النساء يومئذ ، وأخذُوا أسارَى لا تحصى ، فقذفُوهم فى غار بعد أنْ شدُّوهم وَثاقا ، ثم سدُّوا عليهم بابه ، حتى ماتوا فيه .

وقال بعض مَنْ حضر ذلك اليوم : رأيتُ عبد العزيز ، وإنّ ثلاثين رجلا ليضربُونه

---

(١) من الكامل .

بسيوفهم ؛ فما تَحِيكُ في جَنْبه(١) ، ونودى على السَّبي يومئذ ، فغُولِيَ بأمّ حَفْص ، فبلغ بها رجل سبعين ألفا ، وكان ذلك الرجل من مجوس كانوا أسلموا ، ولحِقوا بالخوارج ، ففرَضوا لكلّ رجل منهم خمسمائة ، فكاد ذلك الرجل يأخذُ أمّ حفص ، فشَقّ ذلك على قَطَرِيّ ، وقال : ما ينبغى لرجل مسلم أن يكون عنده سبعون ألفا ؛ إنّ هذه لفِتْنة ! فوثب عليها أبو الحديد العبديّ فقتلها ؛ فأُتِيَ به قطريّ ، فقال : مَهْيَم(٢) يا أبا الحديد ! قال : يا أمير المؤمنين ؛ رأيت المؤمنين تزايدوا فى هذه المشركة فخشيت عليهم الفتنة ، فقال قطريّ : أحسنت ، فقال رجل من الخوارج :

كَفَانَــا فِتْنَةً عَظُمَتْ وَجَلَّتْ ... بحمد الله سيفُ أبى الحديدِ
أهابَ المسلمون بهــا وقالُوا ... على فَرْطِ الهوى هَلْ من مزيد !(٣)
فزادَ أبو الحديد بنصلِ سَيْفٍ ... رقيقِ الحدّ فصــلَ فتًى رشيدِ

وكان العَلاء بن مطرّف السعدى ابنَ عم عمرو القنا ، وكان يحب أن يلقاه فى صدر مبارزة(٤) ، فلحقه عمرو القنا يومئذ ؛ وهو منهزم ، فضحك منه وقال متمثّلا :

تَمنَّانِى لِيَلْقَانِى لَقِيــطٌ ... أعام لك ابن صعصعة بن سعدِ(٥)

ثم صاح به : انج يا أبا المصدّى(٦) ، وكان العلاء بن مطرّف قد حمل معه امرأتين :

---

(١) قال المبرد : « يقال : ما أحاك فيه السيف ، وما يحيك فيه ؛ وما حاك ذا الأمر فى صدرى ، وما حكى فى صدرى ، وما احتكى فى صدرى . ويقال : حاك الرجل فى مشيته يحيك إذا تبختر » .
(٢) مهيم : حرف استفهام ، معناه : ما الخبر ؟ وما الأمر ؟ فهو دال على ذلك محذوف الخبر .
(٣) أهاب به : أعان .
(٤) الكامل : « فى تلك الحروب مبارزة » .
(٥) البيت من شرح سيبويه ١ : ٣٢٩ ، فى باب المنادى ، ونسبه لشريح بن الأحوص ، ونسبه المبرد فى الكامل إلى يزيد بن الصعق وفى شرح الشواهد للأعلم : « الشاهد فى قوله : « لك » ، والمعنى : ياعامر ، دعائى لك ، والمعنى معنى التعجب ؛ كما تقول : يالك فارسا ! ؛ أى ياهذا دعائى لك من فارس ؛ أى أعجب لك فى هذه الحال . . . وكان لقيط بن زرارة التميمى قد توعد الأحوص أبا شريح الكلابى ، وتمنى أن يلقاه فيقتله ؛ فقال هذا متعجبا لقومه من بنى عامر من تمنيه لقتله وتوعده له . . . وأراد عامر ابن صعصعة فرخم » .
(٦) هى كنية عمرو القنا .

إحداها من بنى ضَبّة ، يقال لها أمّ جميل ، والأخرى بنت عمه ؛ يقال لها فلانة بنت عَقِيل فطلّق الضبِّيّة ، وحملها أولا ، وتخلص بابنة عمه ، فقال فى ذلك :

ألستُ كريماً إذْ أقولُ لِفِتْيَتِى قِفُوا فاحملُوها قبل بنتِ عَقِيلِ
ولو لم يكن عُودِى نُضاراً لأصْبَحتْ تجُرّ على المَتْنَيْن أمّ جميـــل[1]

قال الصقعب بن يزيد : وبعثنى المهلب لآتيه بالخبر ، فصرت إلى قنطرة أرْبك[2] عَلَى فرس اشتريته بثلاثة آلاف درهم ؛ فلم أحسّ خبرا ، فسرت مُهَجِّراً[3] إلى أن أمسيت ؛ فلما أمسينا وأظلمْنا ، سمعتُ كلامَ رجل عرفتُه من الجهاضم ، فقلت : ماوراءك ؟ قال : الشرّ ، قلت : فأين عبد العزيز ؟ قال : أمامك ، فلما كان آخر الليل ، إذا أنا بزُهاء خمسين فارسا معهم لواء ، فقلت : لواء مَنْ هذا ؟ قالوا : لواء عبد العزيز ، فتقدّمت إليه ، فسلّمت عليه ، وقلت : أصلح الله الأمير ! لا يكْبُرَنّ عليك ما كان ، فإنك كنت فى شرّ جند وأخبثه ، قال لى : أو كنت معنا ؟ قلت : لا ، ولكن كأنى شاهد أمرك ، ثم أقبلت إلى المهلّب وتركته ، فقال لى : ما وراءك ؟ قلت : ما يسرّك ، هُزِم الرجلُ وفَلّ جيشه ، فقال : وَيْحك ! ومايسرّنى من هزيمة رجل من قُرَيش وفَلّ جيشٍ من المسلمين ! قلت : قد كان ذلك ، ساءك أو سرّك ، فوجّه رجلا إلى خالد يخبره بسلامة أخيه . قال الرجل : فلما خبرت خالدا ، قال : كَذَبْتَ ولَؤُمت ، ودخل رجل من قريش فكذّبنى ، فقال لى خالد : والله لقد هممتُ أنْ أضرب عنقك ، فقلت : أصلح الله الأمير ! إن كنت كاذبا فاقتلنى ، وإن كنت صادقا فأعطنى مُطْرَف هذا المتكلم ، فقال خالد : لبئس ماأخطرت به دَمَك ! فما برحتُ حتى دخل عليه بعض الفلّ ، وقدم عبد العزيز سوق الأهواز ، فأكرمه المهلّب وكساه ، وقدم معه على خالد ، واستخلف المهلّب ابنَه حبيبا ، وقال له :

(١) الكامل : « تجر على المتنين » .
(٢) أربك : قرية بخوزستان .
(٣) مهجرا : وقت الهاجرة .

تجسّس الأخبار ، فإن أحسست بخيل الأزارقة قريباً منك فانصرف إلى البصرة على نهر تيرى . فلما أحسّ حبيب بهم ، دخل البصرة وأعلم خالدا بدخوله ، فغضب وخاف حبيب منه ، فاستتر فى بنى عامر بن صعصعة ، وتزوّج هناك فى استتاره الهلالية ، وهى أمّ ابنه عبّاد بن حبيب . وقال الشاعر لخالد يُفَيِّل(١) رأيه :

بعثتَ غلاماً من قريش فَروقَةً وتتركُ ذا الرأى الأصيلَ المهلبا(٢)
أبَى الذّمّ واختارَ الوفاء وأحكمَت قُواهُ ، وقَدْ ساس الأمورَ وَجرّبا

وقال الحارث بن خالد المخزومىّ :

فرّ عبد العزيز إذ رَاء عِيسى وابنَ داودَ نازلاً قَطَرِيّا(٣)
عاهَدَ الله إن نجا مِلمَنايا لَيعودنّ بعـدَها حُرْمِيّا(٤)
يسكُنُ الخلّ(٥) والصِّفاح فغوريـنا مِرَاراً ومَرّةً نَجْدِيّا
حَيْثُ لا يشهد القِتَال ولا يسـمع يوماً لكَرِّ خَيْلٍ دَوِيّا

وكتب خالد إلى عَبْد الملك بعُذْر عبد العزيز ، وقال للمهلب : ماترى أميرَ المؤمنين صانعاً بى ؟ قال : يعزِلك ، قال : أترَاه قاطعاً رَحِمِى ! قال : نعم ، قد أتَتْه هزيمةُ أميةَ أخيك(٦) ففعل — يعنى هرب أمية من سِجِسْتَان — فكتب عبد الملك إلى خالد :

---

(١) يفيل رأيه : يخطئه .
(٢) الفروقة : شديد الفزع .
(٣) فى الكامل :
فرّ عبدُ العزيز لما رأى الأبطَـالَ فى السَّفح نَازَلُـوا قَطَرِيّا
(٤) قال المبرد : العرب تنسب الحرم فيقولون : حِرْمِىّ وَحُرْمِىّ .
(٥) الخل والصفاح وغورين مواضع ، ورواية البيت فى الكامل :
يَسْكُنُ الخلّ والصِّفاحَ فَرا نَ وسَلْعاً وتارةً نجـديا
(٦) عبارة الكامل : «أتته هزيمة أمية أخيك من البحرين وتأتيه هزيمة أخيك عبد العزيز من فارس ! » .

أما بعد ؛ فإنى كنت حَدَدْت لك حَدًّا فى [أمر](١) المهلّب ؛ فلمّا ملكتَ أمرك، نبذتَ طاعتى وراءك ، واستبدَدْت برأيك ؛ فولّيْتَ المهلّبَ الجبـاية ، وولّيت أخاك حَرْب الأزارقة؛فقَبّح الله هذا رأيا ! أتبعثُ غلاماً غِرًّا لم يجرِّب الأمور والحروب للحرب؛ وتترك سيِّدا شجاعاً مدبِّرا حازما قد مارَس الحروب فَفَلَج(٣)؛ فشغلته بالجباية! أما لو كافأتك على قدْر ذنبك لأتاك من نـكيرى مالا بقيّةَ لك معه! ولـكن تذكّرتُ رحِمك فـكفّتنى عنك ؛ وقد جعلت عقوبتَك عَزْلك . والسلام .

قال : وولّى بشر بن مروان الإمارة وهو بالـكوفة ؛ وكتب إليه :

أما بعـد ؛ فإنّك أخو أمير المؤمنين ؛ يجمعُك وإياه مروان بن الحـكم ؛ وإنّ خالداً لايجتمع له مع أمير المؤمنين دون أمية،فانظر المهلّب بن أبى صُفْرة ، فولّه حرْب الأزارقة؛ فإنه سيّد بطل مجرَّب ، وامدده من أهل الـكوفة بثمانية آلاف رجل ؛ والسلام .

فشقّ على بِشْر ماأمرَه به فى المهلّب؛وقال : والله لأقتلنّه ، فقال له موسى بن نصير: أيها الأمير ؛ إنّ للمهلّب حِفاظا ووفاء وبلاء .

وخرج بِشْر بن مَرْوان يريد البصرة ؛ فـكتبَ موسى بن نُصير وعِكْرمة بن رِبْعىّ إلى المهلّب أنْ يتلقاه لقاء لا يعرفه به ؛ فتلقاه المهلّب على بَغْلٍ ، وسـلّم عليـه فى غُمار (٤) الناس ؛ فلمّا جلس بِشْر مجلسه،قال : مافعل أميركم المهلّب ؟ قالوا : قد تلقّاك أيّها الأمير، وهو شاكٍ .

فهمّ بِشْر أنْ يولِّىَ حربَ الأزارِقة عمر بن عبيد الله بن مَعْمر ؛ وشَدَّ عَزْمه أسماء

(١) من الـكامل .
(٢) ج : « فاستبددت » .
(٣) فلج : ظفر وانتصر .
(٤) غمار ، بكسر الغين : جمع غمرة ؛ والغمرة : المزدحم . وفى الـكامل : « خمار الناس » ، وخمـار الناس كثرتهم وزحمتهم وجماعتهم .

ابن خارجة ، وقال له : إنما ولّاك أميرُ المؤمنين لترى رأيك ؛ فقال له عِكْرِمة بن ربْعيّ : اكتُب إلى أمير المؤمنين فأعلمه علّة المهلّب ، فكتب إليه بذلك ، وأنّ بالبَصْرة مَنْ يغنى غناءه ، ووجّه بالكتاب مع وفد أوفدهم إليه ، رئيسهم عبد الله بن حكيم المُجاشعيّ .

فلما قرأ عبدُ الملك الكتاب خَلاَ بعبدِ الله ، فقال له : إنّ لك دينًا ورأيًا وحزمًا ، فمَنْ لقتال هؤلاء الأزارقة ؟ قال : المهلّب ؛ قال : إنه عليل ، قال : ليست علّتُه بمانعة[1] ؛ فقال عبد الملك : لقد أراد بِشْر أن يفعل مافعل خالد ؛ فكتب إليه يعزم عليه أن يولّيَ المهلّب الحربَ ، فوجّه إليه ، فقال : أنا عليل ، ولا يمكننى الاختلاف ؛ فأمَر بِشْر بحمْل الدّواوين إليه ؛ فجعل ينتخب ، فعزم عليه بِشْرٌ بالخروج ؛ فاقتطع أكثر نخبته ، ثم عزم عليه ألّا يقيم بَعْد ثالثة ، وقد أخذت الخوارج الأهواز وخلّفوها وراء ظهورهم ؛ وصاروا بالفرات ، فخرج المهلّب حتى صار إلى شَهارطاق ؛ فأتاه شيخ من بنى تميم ، فقال : أصلح الله الأمير ! إنّ سنّى ماترَى ، فهَبْنِي لعيالى ، فقال[2] : على أن تقول للأمير إذا خَطَب فحثّكم على الجهاد : كيف تحثّنا على الجهاد ؛ وأنت تحبس عَنْه أشرافنا ، وأهلَ النَّجْدة منا ! ففعل الشيخُ ذلك ؛ فقال له بشْر : وما أنت وذاك ! ثم أعطى المهلّبُ رجلاً ألفَ درهم ، على أن يأتيَ بِشراً فيقول له : أيُّها الأمير ، أعِنِ[3] المهلّب بالشُّرْطة والمقاتِلة ؛ ففعل الرجل ذلك ؛ فقال له بشر : وما أنت وذاك ؟ فقال : نصيحةٌ حضرتْنِي للأمير والمسلمين ؛ ولا أعود إلى مثلها ، فأمدّه بِشْر بالشُّرطة والمقاتلة ، وكتب إلى خليفته على الكوفة أن يعقِد لعبد الرحمن بن مِخْنف على ثمانية آلاف ، من كلّ رُبْع ألفين ، ويوجّه بهم مدداً للمهلّب .

---

(١) الكامل : « بما نعته » .
(٢) ساقطة من ج .
(٣) ب : « أغن » .

فلما أتاه الكتاب ، بعث إلى عبد الرحمن بن مِخْنف الأزْدِيّ يعقد [١] له ، واختار من كلّ رُبْع ألفين ، فكان على رُبْع أهل المدينة بِشْر بن جَرِير بن عبدالله البَجَليّ ، وعلى رُبْع تميم وهَمْدان محمد بن عبدالرحمن بن سعيد بن قيس الهَمْدانيّ ، وعلى رُبْع كِنْدة محمد ابن إسحاق بن الأشعث بن قَيْس الكِنْديّ ، وعلى رُبْع مَذْحِج وأسد زَحْر بن قيس المَذْحِجيّ ، فقدموا على بِشْر بن مروان ، فخلا بعبدالرحمن بن مِخْنف ، وقال له : قدعرفتَ رأيي فيك ، وثقتي بك ، فكن عند ظنّي بك ، وانظر إلى هذا المَزُونيّ ، فخالفه في أمره ، وأفسِدْ عليه رأيه .

فخرج عبدُ الرحمن ، وهو يقول : ماأعجبَ ماطلَبَ [٢] منّي هذا الغُلام ! يأمرُني أنْ أصغِّر شأنَ [٣] شيخٍ من مشايخ أهلي ، وسيِّد من ساداتهم ! فلحق بالمهلّب .

فلما أحسّ الأزارقة بدنوّ المهلّب منهم انكشفُوا عن الفُرات ، فاتبعهم المهلّب إلى سوق الأهواز ، فنفاهم عنها ، ثم اتبعهم إلى رَامَهُرْمُز فهزمهم عنها ، فدخلوا فارسَ ، وأبْلَى يزيد ابنه في وقائعه هذه بلاء شديدا ، تقدّم فيه وهو ابنُ إحدى وعشرين سنة .

فلما صار القومُ إلى فارس ، وجّه إليهم ابنَه المغيرة ، فقال له عبد الرحمن بن صالح : أيّها الأمير ، إنه ليس لك برأيٍ قتلُ هذه الأكلُب ، ولئن والله قتلْتهم لتقعدنّ في بيتك ، ولكنْ طاولْهم ، وكُلْ بهم . فقال : ليس هذا من الوفاء ، فلم يلبَثْ برَامَهُرمز إلاشهرا ، حتى أتاه موت بِشْر بن مروان .

فاضطرب الُجند على ابن مِخْنف ، فوجّه إلى إسحاق بن الأشعث وابن زَحْر ، فاستحلفهما ألّا يبرحا ، فحلفا له ولم يفيا ، وجعل الجند من أهل الكوفة يتسلّلون حتى اجتمعوا

---

(١) الكامل : « فعقد » .

(٢) كذا في ا ، ج ، وفي الكامل ، و ب : « طمع » .

(٣) ج : « رأي » .

بسُوق الأهواز ، وأراد أهلُ البصْرة الانسلالَ من المهلّب ، فخطبهم فقال : إنّكُم لستُم كأهل الكُوفة ، إنما تذبّون عن مِصركم وأموالكم وحرَمكم .

فأقام منهم قومٌ ، وتسلّل منهم قومٌ كثير .

وكان خالد بن عبد الله خليفةَ بشر بن مروان ، فوجّه مولًى له بكتاب منه إلى مَنْ بالأهواز ، يحلف بالله مجتهداً : لئن لم يرجعوا إلى مراكزهم ، وانصرفوا عصاةً لا يظفرُ بأحدٍ إلا قتله . فجاءهم مولاه ، فجعل يقرأ عليهم الكتابَ ، ولا يرى في وجوههم قَبولا ، فقال : إني أرى وجوهاً ما القبولُ مِنْ شأنها ، فقال له ابن زَحْر : أيها العبد ، اقرأ مافي الكتاب ، وانصرفْ إلى صاحبك ، فإنك لا تدري مافي أنفسنا . وجعلوا يستحثّونه بقراءته ، ثم قصدوا قَصْد الكوفة ، فنزلوا النُّخَيْلة ، وكتبوا إلى خليفة بشر يسألونه أن يأذن لهم في دخول الكوفة ، فأبى ، فدخلوها بغير إذن .

فلم يزل المهلّب ومَنْ معه من قواده وابن مِخْنف ، في عدد قليل ، فلم يلبثُوا أن ولِيَ الحجّاج العراق .

فدخَل الكوفةقبل البَصْرة ؛ وذلك في سنة خمس وسبعين ؛ فخطبهم الخطبة المشهورة[1] ، وتهدّدهم ؛ ثم نزل فقال لوجوه أهلها : ما كانت الولاةُ تَفعل بالعُصاة ؟ قالوا : كانت تضرب وتحبس ، فقال : ولكن ليس لهم عندي إلا السيف ؛ إنّ المسلمين لو لم يغزوا المشركين لغزاهم المشركون ، ولو ساغت المعصية لأهلها ، ماقوتل عدوّ ، ولا جُبِيَ فَيْء ، ولا عَزّ دين .

ثم جلس لتوجيه الناس ، فقال : قد أجّلتكم ثلاثًا ، وأقسم بالله لا يتخلف أحدٌ من

---

(١) في الكامل : « وقد ذكرنا الخطبة متقدما » ؛ وهي في الكامل ٢١٧ (طبعة أوربا) .

أصحاب ابن مِخنَف بعدَها إلا قتلتهُ . ثم قال لصاحب حَرَسه ولصاحب شُرْطَته (١) : إذا مضت ثلاثة أيام ، فاشحذا (٢) سيوفكما . (٣ فجاءه عُمير بن ضابئ [البرجمىّ] (٤) بابنه فقال : أصلح الله الأمير ! إنّ هذا أنفعُ لكم منّى ؛ وهو أشدّ بنى تميم أبدانا (٥) ، وأجمعهم سلاحا ، وأربطهم جأشا ؛ وأنا شيخٌ كبير عليل ؛ واستشهد [جُلساءه] (٤) ؛ فقال له الحجاج : إنّ عذرك لَواضح ، وإن ضَعفك لَبَيِّن ؛ ولكنى أكره أن يجترئَ بك الناس علىّ ؛ وبعد ، فأنت ابن ضابئ صاحب عثمان ، وأمر به فقتل ٣) ، فاحتَمل النّاس ، وإنّ أحدَهم ليُتّبع بزاده وسلاحه ، ففى ذلك يقول [عبد الله] (٤) بن الزّبير الأسدىّ (٦) :

أقولُ لعبدِ الله يَوْمَ لقيتهُ ... أرَى الأمر أمْسَى مُنْصِباً متشعّبا (٧)

---

(١) الكامل : « شرطه » .

(٢) الكامل : « ماتحذا » .

(٣-٣) وفى رواية أخرى للمبرد ٢١٧ : « فوضع للناس أعطياتهم ؛ فجعلوا يأخذون ، حتى أتاه شيخ برعش كبرا ؛ فقال : أيها الأمير ؛ إنى من الضعف على ماترى ، ولى ابن هو أقوى على الأسفار منى ؛ فتقبله بدلا منى ؛ فقال الحجاج : نفعل أيها الشيخ ؛ فلما ولى قال له قائل (هو عنبسة بن سعيد الأموى) : أتدرى من هذا أيها الأمير ؟ قال : لا ، قال : هذا عمير بن ضابئ البرجمى الذى يقول أبوه :

هَمَمْتُ ولم أفعل وكِدْتُ وليتنى ... تركتُ على عثمان تبكى حلائلُهُ

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولا ؛ فوطئ بطنه ، فكسر ضلعين من أضلاعه . فقال : ردوه ؛ فلما رد قال له الحجاج : أيها الشيخ ؛ هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان بدلا يوم الدار ! إن فى قتلك أيها الشيخ لصلاحاً للمسلمين ؛ ياحرسى ، اضرب عنقه ؛ فجعل الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل ، ويأمر وليه أن يلحقه بزاده ؛ ففى ذلك يقول عبد الله بن الزبير . . . . » الأبيات . وانظر الشعر والشعراء ٣١١ ، وطبقات الشعراء لابن سلام ١٤٥ .

(٤) من الكامل .

(٥) الكامل : « أيدا » .

(٦) نقل المرصفى فى رغبة الآمل ٤ : ٢٧٠ ؛ أنه فى هذه الأبيات يخاطب إبراهيم بن عامر الأسدى ؛ وروى البيت الأول :

أقولُ لإبراهيمَ لمّا لقيتهُ ... أرى الأمر أضحى مُنصبا مُتَشَعّبا

وذكر بعده :

تجهّزْ وأسرِع فالحقِ الجيشَ لَا أرَى ... سوى الجيش إلّا فى المهالكِ مَذْهَبَا

فَمَا إن أرَى الحجّاجَ يغمِدُ سَيْفَهُ ... مَدَى الدّهرِ حَتّى يَتْرُكَ الطّفل أشْيَبَا

(٧) منصبا : معييا مجهدا .

تجهزْ فإما أن تزُورَ ابنَ ضابِئٍ عُمَيراً ، وإمّا أنْ تزُورَ المهلبا

هما خُطّتا خَسْفٍ نجاؤُك منهما رُكُوبُك حَوْلِيًّا منَ الثَّلج أشهَبا(١)

فما إنْ أرَى الحجّاجَ يَغْمِدُ سيفَهُ مَدَى الدَّهرِ حتى يترُكَ الطفلَ أشيَبا

فأضحَى ولو كانَتْ خُراسانُ دُونَهُ رآها مَكانَ السُّوقِ أوْهِيَ أقرَبا(٢)

وهرَبَ سَوّارُ بنُ المُضَرِّبِ السَّعْدِى من الحجاج ، وقال :

أقاتِلِيَ الحجّاجُ إن لم أزُرْ لَهُ دَرَابَ وأترُكْ عِندَ هِندٍ فُؤادِيا(٣)

فى قصيدة مشهورة له .

فخرج الناس عن الكوفة ، وأتى الحجاج البصرة ، فكان أشد عليهم إلحاحا ، وقد كان أتاهم خبره بالكوفة ، فتحمّل الناس قبل قدومه . وأتاه رجل من بنى يَشْكُر ، وكان شَيْخاً أعور ؛ يجعل على عينه العوراء صُوفة ، فكان يلقّب ذا الكُرْسُفَةِ ، فقال :

---

(١) نقل المرصفى بعده :

فكائنْ ترى من مكره الغَزْوِ مُسْمِراً تحمَّمَ حِنْوَ السَّرْجِ حتَّى تحنَّبا

والمسمر : الذى لم ينم ، وتحمم حنو السرج : لزمه ؛ حتى صار كأنه حيم له . وحنو السرج : ماانعطف منه . وتحنّب : تقوس .

(٢) الهاء فى « دونه » عائدة على المهلب ؛ أى لو كانت خراسان قريبة من موضع غزوه ، والسوق : هو سوق حكمة ؛ موضع بنواحى الكوفة . وأقرب مفعول ثان ؛ على أن « رأى » بمعنى « ظن » ، والضمير المرفوع وضع موضع الضمير المنصوب ، و « أو » بمعنى « بل » ؛ وانظر الكامل – بشرح المرصفى ٤ : ٧٩

(٣) دراب ؛ هى دوا بجرد ؛ اقتصر على أحد الجزأين : كورة بفارس وروى المبرد فى الكامل ٢٨٩ (طبع أوربا) بعد هذا البيت :

فإن كانَ لا يُرْضيكَ حتّى تَرُدَّنى إلى قَطَرِيٍّ ما إخالُكَ راضيا

إذا جاوزتْ دَرْبَ المجيزِينَ ناقَتى فباسْتِ أبى الحجاجِ لما ثنانيا

أيرجو بنومَرْوان سمعى وطاعتى وقومى تميمٌ والفلاةُ ورائيا !

أصلح الله الأمير ! إنّ بي فَتْقًا ، وقد عَذَرنى بِشْر بن مروان ؛ وقد رددت العطاء ، فقال : إنك عندى لصادق ؛ ثم أمر به فضربتْ عنقُه ؛ ففى ذلك يقول كعب الأشقرىّ — أو الفرزدق[1] :

لَقَدْ ضَرَبَ الحجّاجُ بالمِصرِ ضَرْبَةً تَقَرْقَرَ منها بَطنُ كلِّ عريفِ[2]

* * *

ويُروى عن أبى البئر[3] ، قال : إنّا لنتغدّى معه يوما ، إذ جاءه رجل من بنى سُلَيم[4] برجل يقوده ، فقال : أصلح الله الأمير ! إنّ هذا عاصٍ ، فقال له الرجل : أنشُدُك الله أيها الأمير فى دمى ! فو الله ما قبَضْتُ ديوانا قطّ ، ولا شهدت عسكرا قطّ ، وإنى لحائك ، أُخِذتُ من تحتِ الحفِ[5] . فقال : اضربوا عُنقَه . فلما أحسّ بالسّيف سجَد ، فلحقه السّيف وهو ساجد ، فأمسكنا عن الأكل ، فأقبل علينا ، وقال : مالى أراكم قد صَفِرتْ أيديكم ، واصفرّت وجوهكم ، وحَدّ نظرُكم من قَتْل رجل واحد ! ألا إنّ العاصىَ يجمع خِلالًا ؛ يُخلُّ بمركزه ، ويَعْصِى أميرَه ، ويغرّ المسلمين ؛ وهو أجيرٌ لهم ؛ وإنما يأخذ الأجرة لِماَ يعمل ، والوالى مخيّر فيه ، إن شاء قتل ، وإن شاء عفا .

ثم كتب إلى المهلب :

أما بعد ، فإن بِشْراً استكره نفسَه[6] عليك ، وأراك غِناه[7] عنك ، وأنا أريك حاجتى إليك ، فأرِنى الجدّ فى قتال عدوك ، ومَنْ خِفْتَه على المعصية مِمّن قِبَلك فاقتله ،

---

(١) انظر ديوان الفرزدق ٢ : ٥٧٠ .
(٢) تقرقر : صوت ، والعريف : النقيب دون الرئيس .
(٣) كذا فى ب ، وفى ا ، ج : « عن أبى السمر » ، وفى الكامل : « ابن أبى ميرة » .
(٤) كذا فى ب والكامل ، وفى ا ، ج : « من بنى تميم » .
(٥) الحف : القصبة التى تجىء وتذهب .
(٦) استكره نفسه : أدارها على الكره منها .
(٧) أى أراك أنه فى غنى عنك .

فإنى قاتل مَنْ قبلى ، ومَنْ كان عندى ممّن هرب عنك ؛ فأعلِمْنى مكانَه ؛ فإنى أرى أن آخذ السّمىّ بالسّمىّ ، والولىّ بالولىّ .

فكتب إليه المهلّب :

ليس قِبَلى إلا مطيعٌ — وإنّ الناسَ إذا [خافوا العقوبة كبّروا الذّنب ، وإذا][1] أمِنوا العقوبة صغّروا الذنب ؛ وإذا يَئِسوا من العفو أكفرهم[2] ذلك ؛ فهب لى هؤلاء الذين سمّيتَهم عصاة ؛ فإنهم فُرسان أبطال ؛ أرجو أن يقتُلَ الله بهم العدوّ — [ونادم على ذنبه][3] .

فلما رأى المهلّب كثرةَ الناس عنده قال : اليوم قُوتل هذا العدوّ .

***

ولما رأى ذلك قَطرىّ ، قال لأصحابه : انهضوا بنا نريد السَّرْدَن[4] ، فنتحصن فيها ، فقال عبيدة بن هلال : أو تأتى[5] سابُور ، فتأخُذَ منها ما نُريد ، وتصير إلى كِرْمان . فأتوْا سابور ، وخرج المهلب فى آثارهم فأتى أرّجان ، وخاف أن يكونوا قد تحصنوا بالسَّرْدَن — وليست بمدينة ، ولكنها جبال مُحدِقة منيعة — فلم يصبْ بها أحداً ، فخرج فعسكر بكَازَرُون[6] ، واستعدّوا لقتاله ، فخندقَ على نفسه ، ووجّه إلى عبد الرحمن

(١) من الكامل .

(٢) أكفرهم : حلهم على الكفر .

(٣) من الكامل و : « نادم » معطوف على « مطيع » .

(٤) السردن : موضع ببلاد فارس إزاء كازرون .

(٥) سابور : كورة بينها وبين شيراز خمسة وعشرون فرسخا .

(٦) كازرون ، بتقديم الزاى : مدينة من أخصب مدن سابور ؛ وذكر ياقوت أن لها ذكرا فى أخبار الخوارج ؛ وروى للنعمان بن عقبة من أصحاب المهلب :

لَيْتَ الْحَوَاصِنَ فى الخُدُورِ شَهِدْنَنَا ... فَيَرَيْنَ مَنْ وَغَلَ الكتيبَةَ أوّلا
وَقَرُوا وكُنّا فى الوَقَارِ كَمِثْلِهِمْ ... إذْ لَيْسَ تَسْمَعُ غَيْرَ قَدِّم أوْ هَلَا
رعدوا فَأَبْرَقْنَا لَهُمْ بِسُيُوفِنَا ... ضَرْباً ترى منهُ السواعِدَ تَخْتَلِى
تركوا الجماجِمَ والرِّماحُ تُجِيلُهَا ... فى كازرون كما تُجِيلُ الحَنْظَلَا

ابن مخنف : خَنْدِق على نفسك . فوجّه إليه : خنادقُنا سيوفُنا ، فوجه المهلّب إليه : إنى لا آمن عليك البَيات ، فقال ابنه جعفر : ذاك أهونُ علينا من ضَرْطة جمل ، فأقبل المهلّب على ابنه المغيرة ، فقال : لم يصيبوا الرأى ، ولم يأخذوا بالوثيقة .

فلما أصبح القومُ عاودوه الحرب ؛ فبعثَ إلى ابن مخنف يستمدّه ، فأمدّه بجماعة؛ جعل عليهم ابنه جعفرا ، فجاءوا وعليهم أقبيةٌ بيض جُدُد ، فأبلَوْا يومئذ حتى عرف مكانَهم المهلّب ، وأبْلَى بنوه يومئذ كبلاء الكوفيين أو أشدّ .

ثم أتى رئيسٌ من الخوارج ، يقال له صالح بن مخراق ، وهو ينتخبُ قوماً من جلّة العَسْكر حتى بلغ أربعمائة ، فقال لابنه المغيرة : ما أراه يُعِدّ هؤلاء إلا للبيات[1] .

وانكشفت الخوارج ، والأمر للمهلّب عليهم ، وقد كَثُر فيهم الجراح والقتل، وقد كان الحجّاج يتفقّد العصاة ، ويوجّه الرجال، وكان يحبسهم نهارا ، ويفتح الحبس ليلًا ، فيتسلّلُ الرجال إلى ناحية المهلّب ، وكأنَّ الحجاج لا يعلم ، فإذا رأى إسراعهم تمثّل :

إنّ لهَا لَسَابِقًا عَشَنْزَرَا   إذا وَثَبْنَ وَثْبَةً تَغَشْمَرا[2]

***

ثم كتب الحجّاج إلى المهلّب يستحثّه :

أما بعد ، فإنه قد بلغنى أنك قد أقبلت على جباية الخراج ، وتركتَ قتال العدو ، وإنى وليّتُك[3] وأنا أرى مكانَ عبد الله بن حكيم المجاشعيّ . وعبّاد بن الحصين الحَبَطيّ ، واخترتك وأنت من أهل عُمان ، ثم رجلٌ من الأزد ؛ فالقهم يوم كذا فى مكان كذا ، وإلا أشرعتُ إليك صدر الرمح .

---

(١) الكامل : « مايعد هؤلاء إلا للبيات » .

(٢) فى الكامل : « إذا وثبن ونية » ، وفيه « العشنزر : الصلب ، والتغشمر : ركوب الرأس ، والمتغشمر : الجاد على ماخيلت » يريد : ماخيلت نفسه ؛ وهم يحذفون فاعل هذا الفعل.

(٣) يريد أبقيتك على ولايتك .

فشاور المهلّب بنيه ، فقالوا : أيها الأمير (١ ، لا تُغلِظ عليه فى الجواب ١) .

فكتب إليه :

وردَ إلىّ كتابك ، تزعُم أنى أقبلتُ على جباية الخراج ، وتركتُ قتال العدوّ ، ومَنْ عَجَزَ عن جباية الخراج ، فهو عن قتال العدو أعجز . وزعمتَ أنك وليتنى ، وأنت ترى مكان عبد الله بن حكيم وعَبّاد بن الحصين ، ولو وليتهما لكانا مستحقَّين لذلك لفضلهما وغَنائهما وبطشهما . وزعمتَ أنك اخترتنى وأنا رجلٌ من الأزد ، ولعمرى إنّ شرًّا من الأزد لقبيلة تنازعتْها ثلاث قبائل ، لم تستقرّ فى واحدة منهنّ . وزعمتَ أنى إن لم ألقَهم يوم كذا فى مكان كذا أشرعتَ إلىّ صدرَ الرمح ، لو فعلتَ لقلبتُ لك ظهر المِجنّ (٢) . والسلام .

قال : ثم كانت الوقعة بينه وبين الخوارج عَقِيب هذا الكتاب .

* * *

فلما انصرف الخوارج تلك الليلة ، قال لابنه المغيرة : إنى أخاف البَيات على بنى تميم ، فانهض إليهم فكن فيهم ، فأتاهم المغيرة ، فقال له الحريش بن هلال . يا أبا حاتم ، أيخاف الأميرُ أن يؤتَى من ناحيتنا ! قُلْ له : فليبت آمنا ، فإنا كافوه ما قِبَلنا إن شاء الله .

فلما انتصف الليل ، وقد رجع المغيرة إلى أبيه ، سرى صالح بن مخراق فى القوم الذين كان أعدّهم للبيات إلى ناحية بنى تميم ، ومعه عبيدة بن هلال ، وهو يقول :

إنى لَمُذْكٍ للشُّراةِ نارَها ومانعٌ مِمَّنْ أتاها دارَها

* وغاسِلٌ بالسيف عنها عارَها *

(١ ـ ١) الكامل : « إنه أمير ، فلا تغلظ عليه فى الجواب » .

(٢) المجن من السلاح : مايتقى به .

فوجد بنى تميم أيقاظاً متحارسين ، وخرج إليهم الحريش بن هلال ، وهو يقول :

وَجَدْتُمُونَا وُقُراً أنجـادَا   لا كُشُفاً مِيلاً ولا أوْغادَا[١]

ثم حمل على الخوارج، فرجعوا عنه، فاتبعهم ثم صاح بهم : إلى أين يا كلاب النار ! فقالوا : إنما أعِدّتْ لك ولأصحابك، فقال الحريش: كلّ مملوك لى حُرّ إن لم تدخلوا النّار ، ما دخلها مجوسىٌّ فيما بين سَفَوان[٢] وخُراسان .

ثم قال بعضهم لبعض : نأتى عسكرَ ابن مِخْنف ، فإنه لا خندق عليه ، وقد بَعَث فرسانهم اليوم مع المهلّب ، وقد زعموا أنّا أهونُ عليهم من ضَرْطة جمل . فأتوْهم فلم يشعر ابن مِخْنف وأصحابه ، إلا وقد خالطُوهم فى عسكرهم .

وكان ابن مخنف شريفا، وفيه يقول رجل من بنى عامر لرجل يعاتبه ، ويضرب بابن مخنَف المثل :

تَرُوحُ وتَغْدُو كلّ يوم مُعَظَّماً   كأنك فينا مِخْنفٌ وابن مِخْنَفِ

فترجّل عبد الرحمن تلك الليلة يجالدهم ، حتى قتل وقتل معه سبعون رجلا من القرّاء ، فيهم نفرٌ من أصحاب علىّ بن أبى طالب، ونفر من أصحاب ابن مسعود . وبلغ الخبرُ المهلّب — وجعفر بن عبد الرحمن بن مِخْنف عند المهلّب — فجاءهم مُغيثا فقاتل حتى ارتُثّ[٣] ، ووجّه المهلّب إليهم ابنه حبيبا ، فكشفهم، ثم جاء المهلّب حتى صلّى على عبد الرحمن بن مِخْنف وأصحابه ، وصار جندُه فى جند المهلّب ، فضمّهم إلى ابنه حبيب ، فعيّرهم البَصريّون ، وسمّوا جعفرا خضفة الجمل .

---

(١) فى الكامل : « قوله » : وجدتم وقرا ، جمع وقور ، والنجد : ضد البليد ؛ وهو المتيقظ الذى لا كسل عنده ولا فتور . والأميل ، فيه قولان : قالوا : الذى لا يستقر على الدابة ؛ وقالوا : الذى لاسيف معه . والأكشف: الذى لا ترس معه والأجم :الذى لارمح معه ، والحاسر: الذى لادرع عليه. والأعزل: الذى لايتقوم على ظهر الدابة . والوغد : الضعيف » . وذكر بعده هذا البيت :

هَيْهَاتَ لَا تُلْفُونَنا رُقَادَا   لَا بلْ إذَا صِيحَ بِنَا آسَادَا

(٢) سفوان ، بفتحتين : ماء على قدر مرحلة من مربد البصرة .

(٣) المرتث : الذى يحمل من المعركة جريحا وبه رمق .

وقال رجل منهم لجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف :

تَرَكْتَ أصحابَكُم تَدْمَى نُحُورُهُمُ وجئتَ تَسْعَى إلينا خَضْفَةَ الجَمَلِ (١)

فلامَ المهلّب (٢) أهلَ البصرة ،وقال : بئسما قلتم ؛ والله ما فرّوا ولا جَبُنوا ؛ ولكنهم خالفوا أميرهم ؛ أفلا تذكرون فِرارَكم بدُولابَ عنّى ، وفرارَكم بدارس (٣) عن عثمان (٤) !

* * *

ووجه الحجّاج البراء بن قبيصة إلى المهلّب يستحثّه فى مناجزة القوم ، وكتب إليه : إنّك تحبُّ بقاءهم لتأكُلَ بهم ، فقال المهلّب لأصحابه : حرِّكوهم ، فخرج فُرسان من أصحابه ، فخرج إليهم من الخوارج جَمْعٌ كثير ،فاقتتلوا إلى الليل : فقال لهم الخوارج : وَيْلَكم! أما تَمَلُّون ! فقالوا : لا ، حتّى تملُّوا ،فقالوا : فمن أنتم؟ قالوا : تميم، فقالت الخوارج : ونحن تميم أيضاً ، فلما أمسَوْا افترقوا ، فلما كان الغد خرج عشرة من أصحاب المهلّب ، وخرج إليهم من الخوارج عشرة ، واحتفر كلُّ واحدٍ منهم حَفيرة ، وأثبت قدميه فيها ، كلّما قُتِل رجل جاء رجل من أصحابه فاجترّه وقام (٥) مكانه حتى أعتموا (٦)، فقال لهم الخوارج : ارجعوا ، فقالوا : بل ارجعوا أنتم ،قالوا لهم : وَيْلكم مَنْ أنتم ! قالوا : تميم ، قالوا: ونحن

---

(١) فى الكامل : « تركت أصحابنا » ، وفيه : قوله : « خضفة الجمل ؛ يريد ضرطة الجمل ؛ يقال : خضف البعير ؛ وأنشدنى الرياشى لأعرابى يذم رجلا اتخذ وليمة :

إنّا وَجَدْنَا خَلَفًا بئْسَ الْخَلَفْ أغلَقَ عَنــا بَابَهُ ثمَّ حَلَفْ

لايُدْخِلُ البوابُ إلّا من عَرَفْ عبدا إذَا ما ناء بِالْحِمْلِ خَضَفْ

(٢) فى الكامل : « فلامهم » .

(٣) فى الأصول : « بفارس » ، وما أثبته عن الكامل . ودارس : موضع ذكره البكرى وقال : إنه فى ناحية مسرقان . ومسرقان : قرية من أعمال البصرة .

(٤) هو عثمان بن قطن بن عبيد الله ؛ أحد بنى الحارث بن كعب ؛ وكان الحجاج بعثه إلى شبيب ؛ فانهزم أصحابه عنه ، وقاتل حتى قتل .

(٥) الكامل : « ووقف » .

(٦) أعتموا : صاروا فى العتمة ، وهى ثلث الليل الأول بعد مغيب الشفق .

تميم أيضاً : فرجع البرَاء بن قبيصة إلى الحجاج فقال له : مَهْيَم ؟(١) قال : رأيت أيها الأمير قوماً لا يعين عليهم إلا الله .

وكتب المهلّب جواب الحجاج : إنّى منتظر بهم إحدى ثلاث : موتا ذريعا ،(٢) أو جُوعاً مُضِرًّا ، أو اختلافا من أهوائهم .

وكان المهلّب لا يتّـكل فى الحراسة على أحد ، كان يتولّى ذلك بنفسه ، ويستعين عليه بولده ، وبمن يحلّ محلهم فى الثقة عنده .

قال أبو حَرْملة العبدىّ يهجو المهلّب ، وكان فى عسكره :

عَـدِمْتُك يامُهَلّبُ من أمـيرِ أما تَنْدَى يمينُك للفقـــير !
بِدُولَابٍ أضعتَ دماءَ قومِى وَطِرْتَ عَلَى مُوَاشِكَةٍ دَرُورِ(٣)

فقال له المهلّب : ويحك ! والله إنّى لأقيـكم بنفسى وولدى ، قال : جعلنى الله فداء الأمير ! فذاك الذى نَـكْره منك ، ما كلّنا يحبّ الموت . قال : ويحك ! وهل عنه مِنْ محيص ! قال : لا ، ولـكنا نكره التعجيل ؛ وأنت تُقْدِم عليه إقداما ، قال المهلّب : وَيلك ! أما سمعت قول الـكَلْحبة اليربوعىّ :

فقلتُ لـكأسٍ ألجِميهـــا فإنّمـا نَزَلْنـا الـكَثِيبَ مِنْ زَرُودَ لنَفْزَعا(٤)

---

(١) مهيم ، كلمة استفهام معناها : ما الخبر وما الأمر ؟ وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى عبدالرحمن بن عوف ، وعليه درع خلق ، فقال : مهيم؟ فقال : تزوجت يارسول‌الله . وفى الـكامل : « مه » وهى بمعنى الاستفهام أيضا .

(٢) ذريع : سريع .

(٣) قال المبرد : قوله : « مواشكة » ، يريد سريعة ، ويقال : نحن على وشك رحيل . ويقال : ذميل مواشك ، إذا كان سريعا ، قال ذو الرمة :

إِذَا مَا رَمَيْنَا رَمْيَةً فى مَفَازَةٍ عرَاقِيبهَا بالشيظمىّ المواشـكِ

و « درور » فعول ، من در الشىء ، إذا تتابع .

(٤) كأس : اسم بنته ، والعرب لاتثق بأحد فى خيلها إلا بأولادها ونسائها . والـكثيب : القطعة =

فقال : بلى ، قد سمعت ، ولكنّ قولى أحبّ إلىّ منه :

وَلَمّا وقفتمْ غُــدوةً وعدوّكُمْ إلى مهجتى وَلّيتُ أعداءكُمْ ظَهْرِى
وطرتُ ولم أحفل ملامَةَ جاهِلٍ يُسَاقِى المنايا بالردينيّة السُّمْرِ (١)

فقال المهلب : بئس حشو الكتيبة أنت والله يا أبا حرملة إنْ شئت أذِنتُ لك فانصرفْتَ إلى أهلك . قال : بل أقيم معك أيها الأمير ، فوهب له المهلب وأعطاه ، فقال يمدحه :

يَرَى حَتْماً عَلَيْــهِ أبُو سَعِيدٍ جِــلَادَ الْقَوْمِ فِي أولَى النَّفِيرِ
إذا نادَى الشُّرَاةُ أبا سعيــدٍ مَشَى فى رِفْلِ محكَمة الْقَتِيرِ (٢)

قال : وكان المهلّب يقول : مايسرّنى أنّ فى عسكرى ألف شجاع مكان بيهس بن صُهيب، فيقال له : أيها الأمير، بَيْهس ليس بشجاع ، فيقول : أجل، ولكنّه سديد الرأى، محكم العقل ، وذو الرأىِ حذر سَئول ، فأنا آمن أن يُغْتَفَل ، ولو كان مكانه ألف شجاع لخلت أنهم يَنْشَامون (٣) حيث يحتاج إليهم .

قال : ومطرت السماء مطراً شديداً وهم بسابور ، وبين المهلب وبين الشُّراة عقبة ، فقال المهلّب : مَنْ يكفينا أمرَ هذه العقبة الليلة ؟ فلم يقم أحد ، فلبس المهلّب سلاحه، وقام إلى العقبة واتّبعه ابنُه المغيرة، فقال رجل من أصحابه : دعانا الأمير إلى ضَبْطِ العقبة ، والحظّ

= المستطيلة من الرمل ، محدودبة . وزرود : موضع . والفزع : هنا الإغاثة وهو من الأضداد . وقبل هذا البيت :

ونادَى منادى الحىّ أن قد أُتيتمُ وقد شرِبتْ ماء المزادةِ أجمعا

وهما من قصيدة مفضلية وفيها :

أمرتــكمُ أمرى بمنعرج اللّوَى وَلَا أَمْرَ للمعصىّ إلا مُضيّعاَ
إذا المرءُ لم يغشَ الكريهةَ أوشكت حبال الهوينى بالفتى أن تقطّعا

(١) الكامل : « ملامة عاجز » ، الردينية : الرماح ؛ منسوبة إلى ردينة ، امرأة كانت تقوم الرماح.
(٢) الرفل بكسر الراء : الذيل ؛ وقد أرفل رفله ؛ أرسل ذيله ، وأما الرفل بفتحها ، فمصدر رفل كنصر : جر ذيله وركضه برجله ، والقتير : رءوس مسامير حلق الدروع.
(٣) ينشامون ، من انشام الشيء دخل فيه واختبأ ، كتشيم ؛ يريد أنهم يكونون بمعزل مخافة أن يقتلوا.

فى ذلك لنا ، فلم نطقه ، ولبس سلاحه واتّبعه جماعة من العسكر ، فصاروا إليه ، فإذا المهلّب والمغيرة ولا ثالثَ لهما ، فقالوا : انصرف أيها الأمير ، فنحنُ نكفيك إن شاء الله ، فلما أصبحُوا إذا هم بالشُّراة على العقبة، فخرج إليهم غلام من أهل عُمان على فرس، فجعل يحملُ وفرسه تزْلق،ويَلقَاه مُدرك فى جماعة معه، حتى ردوهم عن العقبة. فلما كان يوم النّحْر والمهلّب على المنبر يخطب الناس ، إذ الشُّراة قد أكبّوا [٢]، فقال المهلب : سبحان الله ! أفى مثل هذا اليوم ! يامغيرة اكفنيهم؛ فخرج إليهم المغيرة، وأمامه سعد بن نجد القُرْدوسىّ [٣] وكان سعد مقدّما فى شجاعته ، وكان الحجاج [٤] إذا ظن برجل أن نفسه قد أعجبته قال له: لو كنت سعد بن نجد القُرْدُوسىّ ما عدا [٥] ! فخرج أمام المغيرة ، ومع المغيرة جماعة من فُرسان المهلب، فالتقوا ، وأمام الخوارج غلام جامع السلاح ، مديد القامة ، كريه الوجه، شديد الحَمْلة ، صحيح الفروسيّة ، فأقبل يحمل على الناس ، ويرتجز فيقول :

نَحْنُ صَبَحْنَاكُمْ غَـداةَ النَّحْرِ بالخيلِ أمثالِ الوشيجِ تَجْرِى [٦]

فخرج إليه سعد بن نجد القُرْدُوسىّ ، من الأزد ، فتجاولا ساعة ثم طعنه سعد فقتله، والتقى الناس ، فصُرِع المغيرة يومئذ، فحامى عليه سعد بن نجد ودينار السجستانىّ [٧] وجماعة من الفرسان، حتى ركب وانكشف الناس عند سَقطة المغيرة حتى صاروا إلى المهلب ، فقالوا: قُتِل المغيرة ، فأتاه دينار السجستانىّ ، فأخبره بسلامته ، فأعتق كلّ مملوك كان بحضرته.

***

(١) الشراة : الخوارج ؛ قال الجوهرى : سموا بذلك لقولهم : إنا شرينا أنفسنا فى طاعة الله ؛ أى بعناها بالجنة حين فارقنا الأئمة الجائرة .

(٢) الكامل : « تألبوا » .

(٣) فى الأصول : « الفردوسى » ، تصحيف صوابه من الكامل ، وقردوس : قبيلة من الأزد .

(٤) الكامل : « المهلب » .

(٥) أى ماتجاوز إعجابك إعجابه .

(٦) الوشيج : مانبت من شجر الرماح ملتفاً دخل بعضه فى بعض ؛ أو ما صلب فيه .

(٧) الكامل : « السختيانى » .

قال : ووجّه الحجاج الجرّاح بن عبد الله إلى المهلّب يستبطئه فى مناجزة القوم ، وكتب إليه :

أما بعد؛ فإنك جَبَيْت الخراج بالعِلل[١]، وتحصّنت بالخنادق ،وطاولت القوم وأنت أعزُّ ناصرا ، وأكثر عددا ؛ وما أظنّ بك مع هذا معصية ولا جُبْنًا ؛ ولكنّك اتخذتهم أُكْلاً[٢]، وكان بقاؤهم أيسرَ عليك من قتالهم؛ فناجزْهم وإلاأنكرتَنى ، والسلام.

فقال المهلّب للجرّاح : ياأبا عُقْبة ، والله ماتركتُ حيلة إلا احتلتُها ، ولا مكيدةً إلا أعملتُها ؛ وماالعجبُ من إبطاء النُّصْرة[٣] وتراخى الظّفَر ؛ ولكنّ العجب أن يكون الرأىُ لمن يملِكهُ دون مَنْ يُبْصره .

ثم ناهضهم ثلاثةَ أيام ، يغاديهم القتال ، فلا يزالون كذلكَ إلى العصر ، وينصرف أصحابُه وبهم قَرْح ، وبالخوارج قَرْح وَقَتْل . فقال له الجرّاح : قد أعْذَرْت .

فكتب المهلّب إلى الحجاج :

أتانى كتابك تستبطئُنى فى لقاء القوم ؛ على أنّك لاتظنُّ بى معصية ولا جُبْنا ؛ وقد عاتبتَنى معاتبة الجبان[٤]، وأوعدْتَنِي وعيدَ[٥] العاصى ؛ فسلِ الجرّاح . والسلام .

فقال الحجاج للجرّاح : كيف رأيتَ أخاك ؟ قال : والله أيّها الأمير ، مارأيت مثلَه قطّ ، ولا ظننْت أنّ أحدا يبقى على مثلِ ماهو عليه ، ولقد شهدتُ أصحابه أياما ثلاثة يَغْدُون إلى الحرب ، ثم ينصرفون عنها ، وهم يتطاعنون بالرماح ، ويتجالدون بالسيوف؛

---

(١) بالعلل ، أى سترته بالعلل .
(٢) الأكل بالضم : اسم للمأكول .
(٣) الكامل : « النصر » .
(٤) أى معاتبتك للجبان .
(٥) فى الأصول : « وعد » ، وما أثبته من الكامل .

ويتخابطون بالعَمَد ؛ ثم يروحون كأنْ لم يصنعُوا شيئا ، رَوَاحَ قومٍ تلك عادتهم وتجارتهم .

فقال الحجّاج : لشدّ ما مدحتَه[1] أبا عُقْبة ! فقال : الحقّ أوْلَى .

وكانت رُكُبُ الناس[2] قديما من الخشب ، فكان الرّجل يضرب رِكابه فينقطع ، فإذا أراد الضربَ أو الطعن لم يكن له معتمَد؛ فأمر المهلّب بضَرْب[3] الرُّكُب من الحديد : فهو أول من أمَر بطبعها ؛ وفى ذلك يقول عمران بن عصام العنزىّ :

ضَرَبُوا الدّرَاهِمَ فى إمارَتِهِمْ ... وَضَرَبْتَ لِلحَدَثَانِ وَالْحرْبِ

حَلَقاً تَرَى منها مَرَافِقَهُمْ ... كمناكِبِ الجمَالَةِ الجُرْبِ[4]

* * *

قال : وكتبَ الحجّاج إلى عتّاب بن وَرْقاء الرياحىّ ؛ من بنى رياح بن يَرْبوع — وهو والى أصْفهان — يأمره بالسير إلى المهلّب ، وأن يضمّ إليه جندَ عبد الرحمن بن مِخْنف ، فكلُّ بلدٍ يدخلانه من فُتوح أهل البصرة فالمهلّب أميرُ الجماعة فيه ، وأنت على أهل الكوفة، فإذا دخلْتُم بلدا فتَحَهُ أهلُ الكوفة[5] فأنتَ أميرُ الجماعة ، والمهلّب على أهل البصرة .

فقدِم عَتّاب فى إحدى جُمادَيَيْن من سنة ست وسبعين على المهلّب ، وهو بسابور — وهى من فتوح أهل البصرة — فكان المهلّب أميرَ الناس وعَتّاب على أصحاب ابن مخنف، والخوارج بأيديهم كِرْمان ، وهم بإزاء المهلّب بفارس ، يحاربونه من جميع النواحى .

(١) كذا فى ب والكامل ، وفى ا ، ج : « وصفته » .

(٢) رُكب الناس ، الرُّكب ، بضمتين : جمع رِكاب ؛ وهو مايعتمد عليه راكب السرج بقدميه ؛ فأما مايعتمد عليه راكب البعير ؛ فهو الغرز .

(٣) ج : « فضربت » .

(٤) المرافق هنا : معتمدات الأرجل من الحلق ؛ ويريد بمناكب الجمالة الجرب أنها رقيقة الوسط عريضة الطرفين . والجمالة ، مثلثة الجيم مخففة الميم : الطائفة من الجمال .

(٥) الكامل : « فتحه لأهل الكوفة » .

قال : ووجّه الحجّاج إلى المهلّب رَجُلَيْن يستحثّانه لمناجزة القوم : أحدُهما يقال له زياد ابن عبد الرحمن ،من بنى عامر بن صعصعة ، والآخر من آل أبى عَقِيل من رهط الحجاج، فضمّ المهلّب زيادا إلى ابنه حَبيب ، وضمّ الثّقَفِيّ إلى ابنه يزيد ، وقال لهما : خـذا يزيد وحبيبا بالمناجزة ، وغادوا الخوارج . فاقتتلوا أشدّ قتال ؛ فقتِل زياد بن عبـد الرحمن العامرىّ ، وفقد الثقفىّ . ثم باكروهم فى اليوم الثانى ؛ وقد وُجِد الثقفىّ ، فدعا به المهلّب، ودعا بالغداء ، فجعل النّبْل يقع قريبا منهم ويتجاوزهم ، والثقفىّ يَعْجَب من أمر المهلّب ؛ فقال الصّلتان العبدىّ :

ألَا ياصْبَحانِى قَبْلَعَوْقِ الْعَوَائِقِ(١) وَقَبْلَ اخْتِرَاطِ الْقَوْمِ مثل الْعَقَائِقِ(٢)
غـــداةَ حبيبٍ فى الحديد يقودُنا يخوض المنـــايا فى ظلال الخوافِقِ
حَرُونٌ إذا ما الحربُ طَار شَرَارُها(٣) وَهـاجَ عَجَاجُ النَّقْعِ فَوْقَ الْمَفَارِقِ(٤)
فمَنْ مبلـــغُ الحجّاج أنّ أمينَه زياداً أطاحتـــهُ رماحُ الأزارقِ !

فلم يزل عتّاب بن وَرْقاء مع المهلّب ثمانية أشهر حتى ظهر شَبيب بن يزيد ؛ فـكتب الحجّاج إلى عتاب يأمُره بالمصير إليــه ليوجّهه إلى شَبيب ، وكتب إلى المهلّب يأمره أن يرزُق الجندَ ، فرزَق أهلَ البصرة ، وأبى أن يرزُقَ أهل الـكوفة ، فقال له عتّاب : ما أنا ببارحٍ حتى ترْزُق أهلَ الـكوفة، فأبى ، فجرتْ بينهما غِلْظة ،فقال له عتاب:قدكان يبلغنى أنّك شجاع ، فرأيتُك جبَانًا ، وكان يبلغنى أنّك جوادٌ ، فرأيتك بخيلا . فقال له المهلّب : يابن اللّخْناء ؛ فقال له عتّاب : لـكنك مُعَمّ مُخْول !

(١) اصبحانى ؛ من صبحه إذا سقاه صبوحا من خمر أولبن . والعوائق : جمع عائقة ؛ وهى كل ماصرفك عما تريد .

(٢) فى الـكامل : « قوله : وقبل اخترط القوم مثل العقائق ، يعنى السيوف ، والعقائق : جمعقيقة ، يقال : سيف كأنه عقيقة برق ، أى كأنه لمعة برق ، ويقال : انعق البرق إذا تبسم » .

(٣) حرون ، لقب حبيب ،لأنه كان يحرن فىالحرب فلا يبرح ، وذلك مستعار من قولهم :فرس حرون لاينقاد ، وانظر رغبة الآمل ٤ : ٨٨ .

(٤) الـكامل : « البوارق » ، والبوارق : السيوف .

فغضبت بكر بن وائل للمهلّب للحلف ، ووثب نُعَيم بن هُبيرة ، ابن أخى مَصْقلة ابن هُبيرة على عتّاب فشتَمه ، وقد كان المهلّب كارهاً للحلف ، فلما رأى نُصرة بكر ابن وائل له سرّه ، واغتبط به ، فلم يزل يؤكّده ، وغضبت تميم البَصْرة لعتّاب ، وغضبت أزْدُ الكوفة للمهلّب ؛ فلما رأى ذلك المغيرةُ مشى بين أبيه وبين عتّاب ؛ وقال لعتّاب : يا أبا ورقاء ؛ إنّ الأميرَ يصيرُ إلى كلّ ما تحبّ ، وسأل أباه أن يرزُقَ أهل الكوفة ، ففعل فصلَح الأمر ؛ فكانت تميم قاطبةً وعتاب بن ورقاء يَحْمَدون المغيرة بن المهلّب ، وكان عتاب يقول : إنّى لأعرِف فضله على أبيه .

وقال رجلٌ من الأزد ، من بنى إياد بن سُود :

أَلَا أَبْلِـغْ أَبَا وَرْقَاءَ عَنَّا فَلَوْلَا أَنَّنَا كُنَّا غِضَابَا

على الشَّيْخ المهلَّب إذْ جَفانَا لَلَاقَتْ خيلُـكم مِنّا ضِرَابَا

***

قال : وكان المهلّب يقول لبنيه : لا تبدءوا الخوارج بقتال حتى يبدءوكم ، ويَبْغُوا عليكم ، فإنهم إذا بَغَوْا عليكم نُصِرْتُم عليهم .

فشخص عَتّاب إلى الحجاج فى سنة سبع وسبعين ، فوجّهه إلى شبيب فقتله شبيب .

وأقام المهلّب على حربهم ، فلما انقَضَى من مقامه ثمانية عشر شهرا اختلفوا وافترقت كلمتهم . وكان سبب اختلافهم أنّ رجلًا حداداً من الأزارقة ، كان يعمل نِصالًا مسمومة ، فيُرمَى بها أصحابُ المهلّب ؛ فرُفِع ذلك إلى المهلّب ، فقال : أنا أكفيكموه إن شاء الله ، فوجّه رجلا من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطرىّ ، فقال له : ألقِ هذا الكتابَ فى العسكر والدّراهم ، واحذر على نفسك — وكان الحدّاد يقال له أبْزَى — فمضى الرجل. وكان فى الكتاب : أما بعد ، فإن نصالَك قد وصلت إلىّ ، وقدوجّهتُ إليك بألف درهم فاقبِضْها وزدنا من هذه النِّصال .

فوقع الكتاب إلى قَطَرِىّ ، فدعا بأبْزَى ، فقال : ما هذا الكتاب ؟ قال : لا أدرى ، قال : فما هذه الدراهم ؟ قال : لا أعلم ، فأمر به فَقُتِل . فجاءه عبد ربّه الصغير مولى بنى قيس بن ثعلبة ، فقال له : أقتلت رجلًا على غير ثِقة[1] ولاتبين ! قال قطرىّ : فما حال هذه الألف ؟ قال : يجوز أن يكون أمرُها كذبا ، ويجوز أن يكون حقًّا ، فقال قَطَرِىّ : إنّ قتلَ رجُلٍ فى صلاح الناس غير منكر ، وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحا ؛ وليس للرعيّة أن تعترض عليه . فتنكّر له عبدُ رَبّه فى جماعة معه ، ولم يفارقوه .

وبلغ ذلك المهلّب فدسّ إليهم رجُلًا نصرانيًّا ؛ جعل له جُعْلًا يُرْغَب فى مثله ؛ وقال له : إذا رأيتَ قَطَرِيًّا فاسجُدْ له ؛ فإذا نهاك فقل : إنّما سجدتُ لك ؛ ففعل ذلك النّصرانىّ ، فقال قطرىّ : إنما السجود لله تعالى ؛ فقال ما سجدتُ إلا لكَ ، فقال رجل من الخوارج : إنه قد عَبَدَك من دون الله ، وتلا : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾[2] ؛ فقال قطرىّ : إنّ النصارى قد عبدُوا عيسى بن مريم ؛ فما ضرّ عيسى ذلك شيئا . فقام رجل من الخوارج إلى النّصرانىّ فقتله ، فأنكر قطرىّ ذلك عليه ، وأنكر قوم من الخوارج إنكارَه .

وبلغ المهلّب ذلك ، فوجّه إليهم رجلا يسألهم ، فأتاهم الرجل ، فقال : أرأيتم رجُلَيْن خرجا مهاجرَيْن إليكم ، فمات أحدهما فى الطريق ، وبلغ الآخر إليكم فامتحنتموه فلم يَجُزِ المحنة ، ماتقولون فيهما ؟ فقال بعضهم : أمّا الميت فمؤمن من أهل الجنّة ، وأما الذى لم يَجُزِ المحنة فكافر حتى يُجيز المحنة .

وقال قوم آخرون : بل هما كافران حتى يجيز المحنة ؛ فكثر الاختلاف .

وخرج قطَرىّ إلى حدود إصطَخْر ؛ فأقام شهراً ، والقومُ فى اختلافهم . ثم أقبل فقال

---

(١) ج « وثيقة » .
(٢) سورة الأنبياء ٩٨

لهم صالح بن مخراق : يا قوم ، إنكم أقررتم عين عدوكم ، وأطمعتموه فيكم بما يظهر من خلافكم [١] ، فعودوا إلى سلامة القلوب ، واجتماع الكلمة .

وخرج عمرو القنا ـ وهو من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم ـ فنادى: يأيها المحِلّون [٢] ؛ هل لكم فى الطِّرَاد فقد طال عهدى به ! ثم قال :

أَلَمْ تَرَ أَنَّا مُذْ ثلاثين ليلةً جَدِيبٌ وأعداءُ الكتابِ على خَفْضِ [٣]

فتهايج القوم ، وأسرع بعضُهم إلى بعض ؛ وكانت الوقعة ، وأبلى يومئذ المغيرة بن المهلّب ، وصار فى وسط الأزارقة ، فجعلت الرماح تحطُّه وترفعُه ، واعتورتْ رأسَه السيوف ، وعليه ساعد حديد ، فوضع يده على رأسه ؛ فلم يعمل السيف فيه شيئا ، واستنقذه فرسانٌ من الأزد بعد أن صرِع ، وكان الذى صَرَعه عبيدة بن هلال بن يشكر بن بكر بن وائل ، وكان يقول يومئذ :

أنا ابن خيرِ قومِه هلالِ شيخٌ على دينِ أبى بلالِ

* وذاكَ دِينى آخرَ الليالى *

فقال رجلٌ للمغيرة : كنّا نعجب كيف تُصْرَع ، والآن نعجب كيف تنجو ! وقال المهلّب لبنيه : إنّ سَرْحَكُم [٤] لغارّ ، ولست آمنهم عليه ، أفوكّلتم به أحدا ؟ قالوا: لا، فلم يستتمّ الكلام حتى أتاه آتٍ ، فقال : إن صالح بن مخراق قد أغارَ على السَّرْح ، فشقّ على المهلّب ، وقال : كل أمرٍ لا أليه بنفسى فهو ضائع ؛ وتذمّر عليهم ؛ فقال له بشر بن المغيرة : أرِحْ نفسك ؛ فإنْ كنتَ إنما تريد مثلك فوالله مايعدِل خيرُنا شِسْعَ [٥] نعلك ،

(١) ج : « اختلافكم »
(٢) المحلون : الذين لا يحفظون عهدا ولا يرعون حرمة ؛ فكأنما أحلوا أعراضهم وأموالهم أن تستباح.
(٣) الخفض . الدعة ولين العيش .
(٤) السرح : المال السائم فى المرعى من الأنعام ؛ وأراد بالغار الذى يطمع الناس فى أخذه حيث لا راعى له يحفظه .
(٥) الشسع : قبال النعل .

فقال : خذوا عليهم الطريق ، فبادر بشر بن المغيرة ، ومدرك والمفضّل ابنا المهلّب؛ فسبق بشر إلى الطريق ، فإذا رجل أسود من الأزارقة يَشُلّ السَّرْح[١] ، وهو يقول :

نَحْن قَمعناكُمْ بشلِّ السَّرْحِ وَقَدْ نَكَأْنَا الْقَرْحَ بَعْدَ الْقَرْحِ[٢]

ولحقه المفضّل ومدرك ، فصاحا برجل من طيّئ : اكفِنا الأسود؛ فاعتوره الطائىّ وبشر ابن المغيرة فقتلاه ، وأسَرَا رجلًا من الأزارقة من هَمْدان ، واستردّا السَّرْح[٣] .

قال : وكان عيّاش الكندىّ شجاعا بئيسًا[٤]، فأبلى يومئذ ؛ فلما مات على فراشه بعد ذلك ، قال المهلّب : لا وألَتْ[٥] نفسُ الجبان بعد عيّاش ! وقال المهلّب : ما رأيت تالله كهؤلاء القوم ، كلما انتُقِص[٦] منهم يزيد فيهم !

***

ووجّه الحجاج رجلين إلى المهلّب يستحثّانه بالقتال : أحدهما من كَلْب ، والآخر من سُلَيم ، فقال المهلّب متمثّلا بشعر لأوس بن حَجَر :

ومستعجِبٍ مما يرى من أناتِنا وَلَوْ زَبَنَتْهُ الحربُ لَمْ يَتَرَمْرَمِ[٧]

فقال المهلّب ليزيد ابنه : حَرِّك القوم ، فحرّكهم فتهايجوا ؛ وذلك فى قرية من قرى إصطخر ؛ فحمل رجل من الخوارج على رجل من أصحاب المهلّب وطعنه ، فشكّ فخذه بالسَّرْج ، فقال المهلّب للسُّلمىّ والكلبىّ : كيف يُقاتَل[٨] قوم هذا طعنهم ! وحمل

(١) فى الكامل : « يشل السرح ، أى يطرده » .

(٢) فى الكامل : « الشل : الطرد . ويقال : نكأت القرحة ، مهموز ، ونكيت العدو غير مهموز؛ من النكاية ، ونكأت القرحة نكأ ؛ قال ابن هرمة :

ولا أَرَاها تَزَالُ ظالِمةً تُحْدِثُ لِى قَرْحَةً وتَنْكَؤُها

(٣) فى الكامل : « وخلى سبيله » .

(٤) البئيس ، من بؤس الرجل يبؤس ؛ إذا اشتدت شجاعته .

(٥) لا وألت ، أى لا نجت .

(٦) الكامل : « ينقص » .

(٧) قال المبرد : قوله زبنته ؛ يقول : دفعته . ولم يترمرم : لم يتحرك ؛ يقال : قيل له كذا وكذا فما ترمرم .

(٨) الكامل : « نقاتل » .

يزيد عليهم ؛ وقد جاء الرُّقاد ـ وهو من فرسان المهلب ـ وهو أحد بنى مالك بن ربيعة، على فرسٍ له أدْهم ؛ وبه نَيِّف وعشرون جِراحة ، وقد وضع عليها القُطْن ، فلما حمل يزيد ولّى الجمع ، وحَمَاهم فارسان منهم ؛ فقال يزيد لقيس الخُشَنىّ ، مولى العتِيك : مَنْ لهذين ؟ قال : أنا ، فحمل عليهما ، فعطف عليه أحدهما فطعنَه قيس فصرعه ، وحمل عليـه الآخر فتعانقا ، فسقطا جميعا إلى الأرض ، فصاح قيس الخشنىّ : اقتلونا جميعا ، فحملت خيل هؤلاء وخيل هؤلاء ، فحجزُوا بينهما ، فإذا مُعانِق قيس امرأة ، فقام قيس مستحْيِياً،فقال له يزيد : ياأبا بشر ، أمّا أنتَ فبارزتَها علىأنّها رجل ، فقال : أرأيت لو قُتِلْتُ ، أما كان يقال : قتلتهامرأة ! وأبلى يومئذابن المنجِب السّدُوسىّ ، فقال غلام له يقال له خِلاج: والله لوددنا أنا فَضَضْنا عسكرهم حتى نصيرَ إلى مستقرّهم ، فأستلِب مما هناك جاريتين .فقال له مولاه ابن المنجب : وكيف تمنّيت ويحك اثنتين ! فقـال : لأعطيَك إحداهما وآخـذ الأخرى ، فقال ابن المنجب :

أخلاجُ إنكَ لَنْ تعانِقَ طَفْلَةً ... شَرِقًا بها الجِسادىّ كالتِّمْثال(١)
حَتّى تلاقىَ فى الكَتيبة مُعْلِماً ... عَمْرو القَنا وعبيدة بن هلالِ(٢)
وترى المقعطَر فى الفَوارِس مقدِماً ... فى عُصْبَةٍ نَشِطُوا مَلَى الضُّلّالِ(٣)

(١) قال المبرد : « قوله : طفلة ، يقول : ناعمة ؛ وإذا كسرت الطاء فقلت : طفلة ؛ فهى الصغيرة . والجادى : الزعفران » .

(٢) قال المبرد : « الكتيبة : الجيش ؛ وإنما سمى الجيش كتيبة لانضمام أهـله بعضهم إلى بعض ؛ وبهذا سمى الكتاب ؛ ومنه قولهم : كتبت البغلة والناقة، وكتبت القربة ؛ إذا خرزت ذلك الوضع .والمعلم. الذى قد شهر نفسه بعلامة ؛ إما بعمامة صبيغ ؛ أو بعشهرة ، وإما بغير ذلك . . وعمرو القنا من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم ، وعبيدة بن هلال من بنى يشكر بن بكر بن وائل . والذى طعن صاحب المهلب فى فخذه فشكها مع السرج من بنى تميم ؛ قال : ولا أدرى : أعمرو هو أم غيره ؟ » .

(٣) فى الكامل : « قسطوا مع الضلال » . قال : والمقعطر : من عبدالقيس ، وقوله : « قسطوا » ، أى جاروا ؛ يقال: قسط يقسط فهوقاسط ؛ إذاجار ؛ قال الله جل ثناؤه :﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ .

أو أنْ يعلّمك المهلّب غَزْوَهُ وَتَرى جبالاً قد دَنَتْ لجبالِ

قال : وكان بدر بن الهُذيل من أصحاب المهلّب شجاعا ، وكان لحّانة ؛ كان إذا أحسّ بالخوارج ينادى : « يا خيلِ الله ارْ كَبِى » ؛ وإليه يشير القائل :

وَإذَا طَلَبْتَ إلَى المهلّب حَاجَةً عَرَضَتْ توابعُ دُونَهُ وعَبِيدُ[1]

العبـــد كُرْدُسٌ وبَدرٌ مثلُه وعلاجُ باب الأحمرين شَدِيدُ[2]

قال : وكان بشر بن المغيرة بن أبى صُفرة أبلى يومئذ بلاء حسنا عُرِف مكانه فيه ؛ وكانت بينه وبين المهلّب جَفْوة ، فقال لبنيه : يا بنى عمّ ، إنى قد قصرت عن شَكاةِ العاتب[3] ؛ وجاوزتُ شَكاة المستعتِب[4] ؛ حتى كأنى لا موصول ولا محروم ؛ فاجعلوا لى فُرْجَةً أعيش بها ، وهبونى امرأً رجوتم نصره ؛ أو خفتم لسانه . فرجعوا له ووصلوه ، وكلّموا فيه المهلّب ، فوصله .

وولّى الحجاج كَرْدما فارس ، ووجّهه إليها والحرب قائمة ، فقال رجل من أصحاب المهلّب :

وَلَوْ رَآها كَرْدَمٌ لَكَرْدَمَا كَرْدَمَةَ العَيْرِ أحسّ الضَّيْغَمَا[5]

فكتب المهلّب إلى الحجّاج يسأله أن يتجافَى له عن إصطخر ودَارا بجرد لأرزاق الجند ، ففعل . وقد كان قطرىّ هدم مدينة إصطخر ، لأن أهلها كانوا يكاتبون المهلب بأخباره ؛ وأراد مثل ذلك بمدينة فَسا ، فاشتراها منه آزاذ مَرْد بن الهربذ بمائة ألف درهم

---

(١) قال المبرد : توابع ، أراد به الرجال ؛ فجاز فى الشعر ؛ وإنما رده إلى أصله للضرورة ؛ وما كان من النعوت على « فاعل » بجمعه « فاعلون » ؛ لئلا يلتبس بجمع « فاعلة » التى هى نعت » .

(٢) قال المبرد : كردوس : رجل من الأزد ؛ وكان حاجب المهلب . وقوله : « وعلاج باب الأحمرين شديد » ؛ العرب تسمى العجم الحمراء .

(٣) العاتب : الساخط .

(٤) المستعتب : الطالب الرضا .

(٥) فى الكامل : «الضيغم : الأسد ، و الكردمة : النفور» .

فلم يهدمها . فواقعه وجهُ المهلّب فهزمه ، فنفاه إلى كَرْمان ، وأتبعه المغيرة ابنه ؛ وقد كان دفع إليه سيفا وجّه به الحجاج إلى المهلّب ، وأقسم عليه أن يتقلده ، فدفعه إلى المغيرة بعد ما تقلده ، فرجع به المغيرة إليه وقد دمّاه ، فسر المهلّب ، وقال : ما يسرُّنى أن يكونَ كنت دفعته إلى غيرك من ولدى ؛ وقال له : اكفِنى جباية خراج هاتين الكورَتَيْن ، وضم إليه الرُّقاد ، فجعلا يَجْبيان ، ولا يعطيان الجند شيئا ، ففى ذلك يقول رجل من بنى تميم فى كلمة له :

وَلَوْ عَلِم ابنُ يُوسُفَ ما نُلاقِى ... من الآفاتِ والكُرَبِ الشِّدَادِ
لفاضت عينُه جَزَعاً علينـــا ... وأصلح ما استطاع مِن الفسَادِ
ألا قلْ لِلأميرِ جُزِيتَ خَيْراً ... أرِحْنــا مِنْ مُغيرَةَ والرُّقادِ
فمــا رزق الجنودَ بهم قفيزاً ... وقد ساسَتْ مطامِيرُ الحَصادِ[1]

أى وقع فيها السوس[2] .

قال : ثم حاربهم المهلّب بالسِّيرَجان[3] حتى نفــاهم عنهــا إلى جِيرَفْت[4] واتبعهم ونزل قريبا منهم .

* * *

ثم اختلفت كلمة الخوارج ، وكان سبب ذلك أن عبيدة بن هلال اتُّهم بامرأة رجل نجّار ، رأوه يدخل مرارا إليها بغير إذن ، فأتى قَطَرِيًّا فذكروا ذلك له ، فقال لهم : إن عبيدة من الدِّين بحيثُ علمتم ، ومن الجهاد بحيث رأيتم ؛ فقالوا : إنّا لا نقارّ على الفاحشة ، فقال :

---

(١) المطامير : جمع مطمورة ؛ وهى حفرة تحت الأرض يوسع أسفلها ؛ تخبأ فيها الحبوب .
(٢) يقال : ساس الطعام وأساس ؛ إذا وقع فيه السوس .
(٣) السيرجان ، بكسر السين وسكون الياء وفتح الراء : مدينة بين كرمان وفارس .
(٤) جيرفت ، بكسر فسكون ففتح راء وسكون فاء : مدينة بكرمان .

انصرفوا، ثم بعث إلى عبيدة ، فأخبره ، وقال له: أنالاأقارّ على الفاحشة، فقال: بَهَتُونى[1] ياأمير المؤمنين فما ترى ؟ قال : إنى جامع بينك وبينهم ، فلا تخضَعْ خضوع المذنب ، ولا تتطاولْ تطاولُ البرىء ؛فجمع بينهم ، فتكلموا،فقام عبيدة، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ ... حتى تلا الآيات[2]، فبكَوا وقاموا إليه فاعتنقوه ؛ وقالوا : استغفِر لنا. ففعل ؛ فقال عبدُ ربِّه الصغير مولَى بنى قيس بن ثعلبة: والله لقد خدعَكم ، فتابَعَ عبدَ ربّه منهم ناس كثير ؛ ولم يظهروا ، ولم يجدوا على عبَيدة فى إقامة الحدّ ثَبَتاً[3] .

***

وكان قَطَرِىّ قد استعملَ رجلا من الدّهاقين ، فظهرت له أموال كثيرة ، فأتوا قَطَرِيًّا ؛ فقالوا : إنّ عمر بن الخطاب لم يكن يُقارّ عمّاله على مثل هذا ؛ فقال قَطَرِىّ :إنّى استعملْتُه، وله ضياع وتجارات ،فأوغَرَ ذلك صدورَهم؛ وبلغ المهلّبَ ذلك، فقال : اختلافهم أشدُّ عليهم منّى، ثم قالوا لقَطَرِىّ : ألا تخرج بناإلى عَدُوِّنا ؟ فقال : لا، ثم خرج فقالوا:قد كَذَبَ وارتدّ ، فاتبعوه يوما ، فأحسّ بالشرّ ،ودخل دارا مع جماعة من أصحابه ،فاجتمعوا عليه وصاحوا: اخرج إلينا يادابّة ، فخرج إليهم ، فقال :أرجعتم بَعْدِى كفارا ! قالوا:أولستَ دابة ! قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[4]؛ ولكنّك قد كَفَرْت بقولك .« إنا قد رَجَعْنا كفارا »، فتب إلى الله .فشاور عبيدة فى ذلك ،فقال له: إن تبتَ لم يقبلوا منك، فقل : إنّى استفهمت فقلت : « أرجعتم بعدى كفارا؟ »فقال لهم ذلك، فقبلوا منه ، فرجع إلى منزله .

---

(١) بهتونى : قالوا على مالم أفعل .
(٢) سورة النور ١١ ــ ٢٠
(٣) ثبتا ؛ بالتحريك ؛ أى حجة .
(٤) سورة هود ٦ .

[عبد ربّه الصغير]

ومنهم عبد ربِّه الصغير ، أحد موالى قيس بن ثعلبة .

لما[1] اختلفت الخوارج على قطَرىّ بايعه منهم جمع كثير ،وكان قَطَرِىٌّ قد عزم على أن يبايع للمقعطر العبدىّ، ويخلع نفسَه ،فجعله أمير الجيش فى الحرب قبل أن يعهدَ إليه بالخلافة، فـكرهه القوم وأبوْه ، وقال صالح بن مخراق عنهم وعن نفسه : ابغِ لنا غير المقعطَر ، فقال لهم قطَرىّ : إنّى أرى طولَ العهد قد غيّركم ، وأنتم بصدد عدوّ ، فاتقوا الله وأقبلوا على شأنـكم ، واستعدّوا للقاء القوم ؛ فقال صالح : إنّ الناس قَبْلنا قد سألوا عثمان بن عفان أن يعزِل سعيد بن العاصى عنهم ففعل . ويجب على الإمام أن يُعفِىَ الرعيّة مما كرِهتْ . فأبى قَطَرِىّ أن يعزل المقعطر ، فقال له القوم : فإنا قد خلعناك وبايعنا عبد ربه الصّغير ـ وكان عبد ربّه هذا مُعلّمَ كُتّاب ، وكان عبد ربِّه الـكبير بائع رمان : وكلاهما من موالى قيس ابن ثعلبة ـ فانفصل إلى عبـد ربِّه الصغير أكثر من شَطْرِهم : وجلُّهم الموالى والعجم ، وكان منهم هناك ثمانية آلاف وهم القرّاء ، ثم ندم صالح بن مخراق ، وقال لقَطَرِىّ: هذه نفخـة من نفخات الشيطـان فأعفنا من المقعطر ، وسِرْ بنا إلى عـدونا وعدوِّك ، فأبى قطرىّ إلا للمقعطر ، وحمل فتًى من الشُّرَاة على صالح بن مخراق ، فطعنـه فأنفذه ، وأوجرَه الرمح[2] .

فنشبت الحرب بينهم ، فتهايجوا . ثم انحاز كلٌّ قوم إلى صاحبهم ، فلما كان الغـد اجتمعوا ،فاقتتلوا ،فأجلَتِ الحرب عن ألفَىْ قتيل ، فلما كان الغدعاودوا الحرب، فلم ينتصف النّهار حتى أخرجت العجمُ العربَ عن المدينة ، فأقام عبد ربه بها، وصار قَطَرِىٌّ خارجًا من

(١) الـكامل ٣ : ٣٩٢ وما بعدها .

(٢) قال المبرد : « ومعنى أوجره الرمح طعنه وترك الرمح فيه؛ قال عنترة:

وآخرَ منهم أجررت رُمحى وفى البَجلىِّ معبلةٌ وقيعُ

مدينة جِيرفْت بإزائهم ، فقال له عبيدة بن هلال : ياأمير المؤمنين ، إن أقمتَ لم آمن هذه العبيد عليك ؛ إلّا أن تخندق على نفسك ؛فخندَق على باب المدينة وجعل يُناوشهم ، وارتحل المهلّب ، وكان منهم على ليلة، ورسول الحجاج معه يستحثّه ، فقال له : أصلح الله الأمير ! عاجِلْهم قبل أن يصطلحوا ، فقال المهلّب : إنّهم لن يصطلحوا ؛ ولكن دَعْهم فإنهم سيصيرون إلى حال لايفلحون معها ، ثم دسّ رجلا من أصحابه ، فقال: ائت عسكر قَطَرِيّ ، فقل : إنى لم أزل أرى قَطَرِيًّا يصيب الرأى؛ حتى نزل منزله هذا ، فظهر خطؤه : أيقيم بين المهلّب وعبد ربّه، يغاديه القتال هذا ،ويراوحه هذا ! فنُمِيَ الكلام إلى قطرىّ، فقال : صدق: تنحّوْا بنا عن هذا الموضع ، فإن اتّبعَنا المهلّبُ قاتلناه ، وإن أقام على عبد ربّه رأيتم فيه ماتحبّون .

فقال له الصّلت بن مرة : ياأميرَ المؤمنين ، إن كنت إنما تريد الله فأقدِم على القوم ، وإن كنت إنما تريد الدنيا فأعلم أصحابك حتى يستأمنوا ، ثم قال :

قُلْ للمحِلّين قد قرّتْ عيونُكُمُ ... بفرقةِ القومِ والبغضاءِ والهربِ
كنّا أُناساً على دينٍ فغيّرَنا ... طولُ الجدالِ وخَلْطُ الجدِّ باللعبِ
ما كانَ أغنى رجالا قَلّ جيشُهم[(١)] ... عن الجدالِ وأغناهم عن الخُطَبِ
إنّى لأهونُكُم فى الأرض مضطرَباً ... مالى سوى فرسى والرُّمح من نَشَبِ

ثم قال : أصبح المهلّب يرجو منّا ما كنا نطمع منه فيه .

وارتحل قَطرىّ ، وبلغ ذلك المهلّبَ ، فقال لهُزَيم بن أبى طَحْمَة المجاشعىّ : إنى لا آمن أن يكونَ كاذباً بترك موضعه ، اذهب فتعرّف الخبَر، فمضى الهُزَيم فى اثنى عشر فارسا ، فلم يرَ فى المعسكر إلا عبدا وعِلجاً مريضين، فسألهما عن قَطرِىّ وأصحابه،فقالا:

---

(١) الكامل : « ضل سعيهم » .

مضوا يرتادون غير هذا المنزل ، فرجع هُزيم إلى المهلّب ، فأخبره ، فارتحل حتى نزل خندق قطرىّ ، فجعل يقاتل عبدَ ربِّه أحيانا بالغداة ، وأحيانا بالعَشِىّ ، فقال رجل من سَدُوس ، يقال له المعتق ، وكان فارساً :

ليت الحرائرَ بالعراق شَهِدْنَنَا ... ورأيننا بالسَّفح ذى الأجبـــالِ

فنكحن أهل الجِدّ من فرساننا[1] ... والضاربين جَماجم الأبطـــالِ

ووجّه المهلّب يزيدَ ابنَه إلى الحجاج يخبره بأنه قد نزل منزل قَطَرِىّ ، وأنه مقيم على عبد ربِّه ، ويسأله أن يوجِّه فى أثر قطَرِىّ رجلا جَلْدا . فسرّ بذلك الحجاج سروراً أظهره. ثم كتب إلى المهلّب يستحثّه لمناجزة القوم مع عبيد بن موهب :

أما بعد ؛ فإنك تتراخَى عن الحرب حتى تأتيَك رُسُلِى فيرجعون بعذْرِك ؛ وذلك أنك تُمسِك حتى تَبرأ الجراح ، وتُنْسى القتلى ، وتَجمّ الـكالّ[2] ثم تلقاهم ، فتحمل منهم ثِقَل مايحتملون منك من وَحْشة القتل ، وألم الجراح ، ولو كنت تلقاهم بذلك الجدّ لـكان الداء قد حُسِم ، والقَرْن[3] قد قُصِم ؛ ولعمرى ماأنت والقوم سواء ، لأنّ مِنْ ورائك رجالا ، وأمامك أموالًا ؛ وليس للقوم إلا مانعهـد ، ولا يُدْرَك الوجيفُ[4] بالدبيب ، ولا الظفر بالتعذير .

فلما ورد عليه الـكتاب ، قال لأصحابه : ياقوم إن الله قد أراحكم من أمور أربعـة : قطرىّ بن الفجاءة ، وصالح بن مخراق ، وعبيدة بن هلال ، وسعد بن الطلائع ؛ وإنمـا بين أيديكم عبد ربِّه الصغير فى خُشار من خُشار[5] الشيطان ؛ تقتلونهم إن شاء الله تعالى.

---

(١) الـكامل : « أهل الجزء » ؛ والجزء : الغناء والـكفاية فى الحرب .
(٢) الـكامل : « ويجم الناس » .
(٣) قصم القرن ؛ أى كسر ؛ يكنى بذلك عن هلاك القوم .
(٤) الوجيف : ضرب من السير السريع .
(٥) الخشار : الردىء وما لا خير فيه .

فكانوا يتغادون القتال ويتراوحون ، فتصيبهم الجراح ، ثم يتحاجزون ؛ فكأنما انصرفوا عن مجلس كانوا يتحدّثون فيه ؛ يضحك بعضهم إلى بعض؛ فقال عبيد بن موهب للمهلّب : قد بان عذرُك ، فاكتب فإنى مخبرٌ الأمير .

فكتب إلى الحجاج :

أما بعد ؛ فإنى لم أعطِ رُسُلَك على قول الحقّ أجرا ، ولم أحتجْ منهم عن المشاهدة إلى تلقينٍ . ذكرتَ أنى أجِمّ القومَ ؛ ولابُدّ من وقتٍ راحة يستريح فيه الغالب ، ويحتال فيه المغلوب . وذكرتَ أنّ فى الجِمام ماينسى القتلى ، وتبرأ [منه] [1] الجراح ، وهيهات أن يُنسَى مابيننا وبينهم ! تأبَى ذلك قَتْلَى لم تُجَنّ [2] ، وقروح لم تتقرّف [3] ، ونحن والقوم على حالة ، وهم يرقبون مِنّا حالاتٍ ، إن طمعوا حاربوا ، وإن مَلّوا وقفوا ، وإن يئسوا انصرفوا . وعلينا أن نقاتلَهم إذا قاتلوا ، ونتحرّز إذا وقفوا ، ونطلب إذا هربوا ، فإن تركتَنى والرأى ، كان القَرْنُ مقصوما ، والداء بإذن الله محسوما ، وإن أعجلتَنى لم أُطِعْك ولم أعصِك ، وجعلتُ وجْهى إلى بابك ، وأعوذ بالله من سَخَطِ الله ومَقْتِ الناس .

قال : ولما اشتدّ الحصار على عَبْد ربّه ، قال لأصحابه : لا تفتقِروا إلى مَنْ ذهب عنكم من الرجال ؛ فإنّ المسلم لا يفتقر مع الإسلام إلى غيره ، والمسلم إذا صحّ توحيدُه عَزّ بربّه ؛ وقد أراحكم الله من غِلْظة قطَرِىّ ، وعجلة صالح بن مخراق ونخوته ، واختلاط عبيدة بن هلال ، ووكلكم إلى بصائركم ؛ فالقَوْا عدوّكم بصبر ونيّة ؛ وانتقِلوا عن منزلكم هذا ، فمن قُتل منكم قتل شهيدا ، ومن سَلِم من القتل فهو المحروم .

---

(١) من الكامل .
(٢) لم تجن : لم تدفن فى الجنن ؛ وهو القبر
(٣) لم تتقرف : لم تتقشر .

قال : وورد فى ذلك الوقت على المهلّب عبيدُ بن أبى رَبيعة بن أبى الصَّلْت الثَّقَفِيّ من عند الحجاج ، يستحثُّه بالقتال ، ومعه أمينان ، فقال للمهلّب : خالفتَ وصيّة الأمير ، وآثرت المدّافعة والمطاولة . فقال له المهلّب : والله ماتركتُ جهدا .

فلما كان العشىّ خرجت الأزارقة ، وقد حملوا حريمهم وأموالهم ، وخِفّ[1] متاعِهم لينتقلوا ؛ فقال المهلّب لأصحابه : الزموا مَصافّكم ، وأشرِعوا[2] رماحكم ، ودعوهم والذّهاب ؛ فقال له عُبَيْدة بن أبى ربيعة : هذا لعمرى أيسر عليك . فغضب وقال للناس : ردُّوهم عن وجههم ، وقال لبنيه : تفرقوا فى الناس ؛ وقال لعُبيدة بن أبى ربيعة : كُنْ مع [يزيد ، فخذه بالمحاربةِ أشدّ الأخذ ؛ وقال لأحد الأمينَيْن : كن مع][3] المغيرة ، ولا تُرَخّصْ له فى الفُتور .

فاقتتلوا قتالا شديدا ، حتى عُقرت الخيل[4] ، وصُرع الفرسان ، وقُتِلت الرَّجّالة[5] ؛ وجعلت الخوارج تقاتل عن القَدَح[6] يؤخذ منها ، والسَّوْط والعَلَف والحشيش[7] أشدّ قتال .

وسقط رمحٌ لرجل من مُراد ، من الخوارج ، فقاتلوا عليه حتى كَثُر الجراح والقتل ؛ وذلك مع المغرِب ، والمرادىّ يرتجز ، ويقول :

اللّيـــلُ ليلٌ فيـه وَيْلٌ وَيْلُ ... قَدْ سَالَ بالقوم الشّراةِ السَّيْلُ

* إن جاز للأعداء فيناَ قَوْلُ *

---

(١) الخف ، بالكسر : الخفيف ؛ ومنه قول امرئ القيس :

* يزلّ الغلام الخِفّ عن صهواتها *

(٢) أشرع الرمح : رفعه .

(٣) من الكامل .

(٤) الكامل : « الدواب » .

(٥) الكامل : « الرجال » .

(٦) الكامل « على القدح » .

(٧) الكامل : « والعلق الخسيس » .

فلما عظُم الخطب فى ذلك (١) الرمح بعث المهلّب إلى المغيرة : خَلّ لهم عن الرمح ؛ عليهم لعنة الله ! فخلّوا لهم عنه ، ومضت الخوارج ، فنزلت على أربعة فراسخ من جِيرَفْت ، فدخلها المهلّب ، وأمر بجمع ما كان لهم من متاع ، وماخلّفوه من دقيق، وجُثّم عليه هو والثقفىّ والأمينان ، ثم اتبعهم فوجدهم قد نزلوا على ماء وعين لا يشرب منها أحد إلا قوىّ(٢)، يأتى الرجل بالدلو قد شدّها فى طرف رمحه فيستقى بها ، وهناك قرية فيها أهلُها ، فداوم القتال ، وضمّ الثقفىّ إلى ابنه يزيد ، وأحدَ الأمينين إلى المغيرة ، فاقتتل القوم إلى نصف النهار .

وقال المهلّب لأبى علقمة العبدىّ ـ وكان شجاعاً، وكان عانياً هازلاً ـ : أمددنا ياأبا علقمة بخيل اليَحْمَد، وقل لهم : فليعيرُونا جماجهم ساعة ؛ فقال : أيُّها الأمير، إن جماجهم ليست بفخّار فتُعار ، ولا أعناقُهم كَرَادِىَ (٣) فتنبت .

وقال : لحبيب بن أوس : كُرّ على القوم ، فلم يفعل ، وقال :

يقولُ لىَ الأميرُ بغيرِ علمٍ ... تَقَدّمْ حين جَدّ به المِرَاسُ
فمالى إن أطعتُك منْ حياةٍ ... ومالِىَ غيرَ هذا الرأس رَاسُ (٤)

وقال لمعن بن المغيرة بن أبى صُفْرة: احمِلْ ، فقال : لا، إلّا أنْ تزوّجَنِى ابنتك أمّ مالك، فقال : قد زوّجتُك ، فحمل على الخوارج فكشفهم ، وطعن فيهم ، وقال :

لَيْتَ مَنْ يَشْترِى الحياة بمالٍ ... مَلَكَةً كان عندنا فيَرانا (٥)

(١) الكامل : « فيه » .
(٢) الكامل : « على عين لا يشرب منها إلا قوى » .
(٣) فى الأصول : « كراث » ، وصوابه من الكامل ؛ قال أبو الحسن الأخفش : « تقول العرب لأعذاق النخل كراد ؛ وهو فارسى عرب » .
(٤) فى الكامل : نصب « غير » ، لأنه استثناء مقدم .
(٥) رواية الكامل :

لَيْتَ مَنْ يَشْترِى الغداةَ بمال ... هلكه اليوم عندنا فيَرانا

نصِلُ الكرَّ عنـد ذاكَ بطعْنٍ إنَّ للموتِ عنـدنا ألوانا

قوله : « مَلْكَةٌ » ، أى تزويجا ونـكاحا .

قال : ثم جال الناس جولةً عند حَمْلةٍ حَمَلَها عليهم الخوارج ، فالتفت المهلّب ، فقال للمغيرة ابنه : مافعلَ الأمينُ الذى كان معك ؟ قال : قُتِل وهرب الثقفىّ ، فقال ليزيد : مافعل عُبيدبن أبى ربيعة ؟ قال : لم أره منذ كانت الجوْلة،فقال الأمين الآخر للمغيرة:أنت قتلتَ صاحبى ، فلما كان العشىّ رجع الثقفىّ ، فقال رجل من بنى عامر بن صعصعة :

مازلتَ ياثقفىّ تخطُبُ بيننـا وتَغُمُّنا بوَصيّـةِ الحجّاجِ

حتى إذا ماالموتُ أقبل زَاخِراً وَسَمَا لَنَا صِرْفاً بغـيرِ مِزاجِ

وَلّيْتَ ياثقفىُّ غـيْرَ مناظِرٍ تنساب بين أَحِزّةٍ وفجَاجِ [1]

ليست مقارعةُ الكُماة لَدَى الوغى شُرْبَ المُدامة فى إناء زُجاجِ

فقال المهلّب للأمين الآخر : ينبغى أن تتوجّه مع ابنى حبيب فى ألف رجل ؛ حتى تبيِّتُوا عسكرهم ، فقال : ماتريد أيها الأمير إلّا أن تقتلَنى كما فعلت بصاحبى ! فضحك المهلّب،وقال : ذاكَ إليك . ولم يكن للقوم خنادق ، فكان كلٌّ حذِراً من صاحبه ؛ غير أنّ الطعام والعُدّة مع المهلّب ؛ وهو فى زُهاء ثلاثين ألفا ؛ فلما أصبح أشرف على وادٍ فإذا هو برجلٍ معه رمح مكسور مخضوب بالدم ؛ وهو ينشد :

وإنى لَأُغْنِى ذَا الخِمار وصنعتِى إذا راحَ أطواءُ بنىّ الأصاغرُ [2]

---

(١) قال المبرد . « قوله : « بين أحزة » ، هو جمع حزيز ؛ وهو متن ينقاد من الأرض ويغلظ » والفجاج : الطرق ، واحدها فج .

(٢) قال المبرد : « قوله : « ذو الخمار » ، يعنى فرساً ، وكان ذو الخمار فرس مالك بن نويرة ؛ قال جرير يهجو الفرزدق :

بيربوعٍ فخرتُ وآلِ سَعْدٍ فَلاَ مجدِى بَلَغْتَ ولا افتخارِى

بيربوعٍ فوارسُ كلَّ يومٍ يوارِى شمسَـه رَهَجُ الغُبارِ

عُتيْبةُ والأحيمِرُ وأبنُ عمروٍ وَعَتّابٌ وفارِسُ ذى الخِمَارِ =

أُخَادِعُهُمُ عنه لِيَغْبُقَ دُونَهُمْ   وأعْلَمُ غيرَ الظّنِّ إنّى مغـــاوِرُ
كأنّى وأبدانَ السِّلاحِ عشيّـــة   يمرّ بنا فى بَطْنِ فَيْحَانَ طـائرُ(١)

فقال له : أتميمىٌّ أنت ؟ قال : نعم ، قال : أحنظلىّ ؟ قال : نعم ، قال : أيربوعىّ؟ قال: نعم ، قال : أمِنْ آل نُويرة ؟ قال: نعم ، أنا ولد مالك بن نويرة ؛ قال : قد عرفتك بالشِّعر .

قال أبو العباس : وذُو الخمار فرس مالك بن نويرة .

قال : فمكثوا أياما يتحاربون(٢) ودوابُّهم مسرَجة ، ولا خنادقَ لهم ؛ حتى ضَعُف الفريقان ؛ فلما كان الليلةُ التى قُتِل فى صبيحتها عَبْد رَبِّه ، جمع أصحابه ، فقال: يامعشرَ المهاجرين ؛ إن قَطَرِيًّا وعُبيدةَ هربا طلبا للبقاء ، ولا سبيلَ إلى البقاء ، فالقَوْا عدُوَّكم غداً ، فإن غلبوكم على الحياة ، فلا يغلِبُنّكم على الموت ؛ فَتَلَقَّوُا الرِّماح بنحوركم ، والسيوف بوجوهكم ، وهَبُوا أنفسكم لله فى الدنيا يهبْها لكم فى الآخرة .

فلما أصبحوا ، غَادوُا المهلَّب ، فاقتتلوا قتالا شديدا أنسى ما كان قَبْلَه ؛ وقال رجل من الأزد ، من أصحاب المهلّب : مَنْ يُبَايِعُنِى على الموت ؟ فبايعه أربعون رجلا من الأزْد ، فصُرِع بعضهم ، وقتِل بعضهم ، وجرح بعضهم .

= وقوله : «أطواء» ؛ يقال : رجل طوى البطن ؛ أى منطو ؛ يخبر أنه كان يؤثر فرسه على ولده ، فيشبعه وهم جياع ؛ وذلك قوله :

* أخادِعهمْ عنـه ليغبُق دُونَهُمْ *

والغبوق : شرب آخر النهـار ؛ وهو شىء تفتخر به العرب » ، واللهنه : الطعام الذى يتعلل به قبـل الغداء ؛ وفى الـكامل :

جزانِى دِوائِى ذو الخمار وصَنْعَتِى   إذا باتَ أطواءً بَنِىَّ الأصاغِرُ

قال المرصفى : دوائى ، بالـكسر : مصدر دوى الفرس مداواة : سقاه اللبن ، وصنعته الفرس : حسن القيام عليه .

(١) أبدان السلاح : جمع بدن ؛ وهو الدرع القصيرة ، وفيحان : موضع أو واد فى بنى أسد .

(٢) الـكامل : « يتحارسون » .

وقال عبدالله بن رزام الحارثيّ للمهلب : احملوا ، فقال المهلّب : أعرابيّ مجنون — وكان من أهلِ نجْران — لحمل وحْده ؛ فاخترق القوم حتى خرج من ناحية [أخرى] ؛ ثم كرّ ثانية ففعل فَعْلَته الأولى ، وتهايج الناس ، فترجَّلت الخوارج ، وعَقَروا دوابَّهم ، فناداهم عمرو القَنَا — ولم يترجّل هو ولا أصحابه[٢] ، وهم زهاء أربعمائة — فقال : موتوا على ظهور دوابِّكم كراماً ، ولا تعقِرُوها ، فقالوا : إنّا إذا كُنّا على الدواب ذكرنا الفِرار ، [فاقتتلوا][٣] ، ونادى المهلّب بأصحابه : الأرضَ الأرضَ ! وقال لبنيه : تفرّقوا فى الناس ليروْا وجوهكم ، ونادت الخوارج : ألا إنّ العيال لمن غَلَب ؛ فصبَر بنو المهلّب ؛ [٤] وقاتل يزيد بين يدى أبيه قتالا شديدا[٤] ، أبْلَى فيه ، فقال له أبوه : يابنىّ ، إنى أرى موطناً لا ينجُو فيه إلا مَنْ صَبَر ، وما مَرّ بى يوم مثلُ هذا منذ مارستُ الحروب .

وكسرت الخوارجُ أجفانَ سيوفها ، وتجاوَلُوا ، فأجلت جَوْلتهم عن عبد ربّه مقتولا . فهرب عمرو القنا وأصحابُه ، واستأمن قوم ، وأجْلَت الحرب عن أربعة آلاف قتيل وجريح من الخوارج ومأسور ، وأمرَ المهلّب أن يُدفَع كلُّ جريح إلى عشيرته ، وظفِرَ بعسكرهم ، فحوى مافيه ، ثم انصرف إلى جِيرَفْت ، فقال : الحمد لله الّذى رَدّنا إلى الخفضِ والدّعة ، فما كان عيشنا ذلك العيش[٥] .

ثم نظر المهلّب إلى قوم فى عسكرِه ولم يعرفْهم ، فقال : ما أشد عادة السلاح[٦] ! ناولنى دِرْعى ، فلبِسها ، ثم قال : خذوا هؤلاء ؛ فلما صيّرهم إليه ، قال : ما أنتم ؟ قالوا : جئنا لنطلب غِرّتك للفتك[٧] بك . فأمر بهم فقتلوا .

---

(١) من الكامل .
(٢) الكامل : « هو وأصحابه » .
(٣) من الكامل .
(٤ — ٤) الكامل : « وصبر يزيد بين يدى أبيه ، وقاتل قتالا شديدا » .
(٥) الكامل : « فما كان عيشنا بعيش » .
(٦) وكذا فى الكامل ، ويرى السيد جاسم أن الأنسب : « ما أشد عادة لبس السلاح » .
(٧) الكامل : « لنفتك بك » .

[طُرَفٌ من أخبار المهلب وبنيه]

ووجه كعبَ بن مَعدان الأشقرىّ(١) ومرة بن بليد الأزدىّ ، فوردا على الحجاج،فلما طلعا عليه ، تقدم كعب فأنشده (٢) :

* ياحَفْصُ إنّى عَدانِى عنكُم السّفرُ (٣) *

فقال الحجاج : أشاعر أم خطيب ؟ قال : شاعر ؛ فأنشده القصيدة ؛ فأقبل عليه الحجاج، وقال : خبّرنى عن بنى المهلّب ، قال : المغيرة سيدُهم وفارسهم ، وكفى بيزيد فارساشجاعا !

---

(١) الأشقرى : منسوب إلى الأشقر ؛ بطن فى الأزد .

(٢) قصيدة طويلة ؛ يذكر فيها يوم رامهرمز وأيام سابور وجيرفت ، أوردها الطبرى فى تاريخه ٦ : ١٠٤ (٣) وبقيته :

* وقد أرقتُ فآذى عينِىَ السّهرُ *

ومنها :

عُلِّقْتَ يا كعبُ بعدَ الشّيبِ غانيةً ... والشيبُ فيه عن الأهواء مُزْدَجَرُ
أَمُمْسِكٌ أنت عَنْهَا بالّذِى عَهِدَتْ ... أم حَبْلُها إذْ نأتْكَ اليوم منبترُ
عُلِّقْتَ خَوْداً بأعْلَى الطّفِ مَنْزِلُها ... فى غرفةٍ دونها الأبواب والحجَرُ
دُرْماً مَنَاكِبُها رَيّاً مآكِمُها ... تكاد إذ نَهضَتْ للمشى تَنْبتِرُ
وَقَدْ تَرَكْتُ بِشَطِّ الزابِيَيْنِ لَها ... داراً بها يَسْعَدُ البادونَ والحَضَرُ
واخترْتُ داراً بها حَىٌّ أُسَرُّ بهِمْ ... مازال فيهمْ لمن تختارُهُمْ خِيَرُ
لما نبتْ بى بلادى سِرْتُ مُنْتجعاً ... وطالب الخيرِ مرتادٌ وَمُنتَظِرُ
أبا سعيدٍ فإنى جئتُ مُنْتجعاً ... أرجو نوالَكَ لَمّا مَسّنِى الضّرَرُ
لولا المهلّبُ مازرْنا بلادَهُمُ ... مادامَتِ الأرض فيها الماء والشّجَرُ
فما من النّاسِ من حَىٍّ عَلِمتُهُمُ ... إلّا يُرى فيهمُ من سَيْبِكمْ أثَرُ

وجوادُهم وسَخيُّهم قَبيصة ، ولا يستحيِى الشجاعُ أنْ يفِرّ من مُدْرِك ، وعبدُ الملك سمّ ناقع ، وحَبيب مَوت ذُعاف ، ومحمدليثُ غاب ، وكفاك بالفضل نَجْدة ! فقال له : فكيف خلّفتَ جماعة الناس ؟ قال : خلّفتهم بخير ، قد أدركوا ما أمّلوا ، وأمِنوا ماخافوا ، قال : فكيف كان بنو المهلّب فيهم ؟ قال : كانوا حُمَاة السَّرْح فإذا أليلوا ففُرسان البَيات، قال: فأيُّهم كان أنجد ؟ قال : كانوا كالحلْقة المفرَغة ، لا يُدرَى [أين] طرفاها ، قال: فكيف كنتم أنتم وعدوّكم ؟ قال : كنا إذا أخذْنا عفوْنا وإذا أخذوا يئسنا منهم ؛ وإذا اجتَهدنا واجتهدوا طمِعنا فيهم . قال الحجاج : إنّ العاقبة للمتقين ، فكيف أفلتَكم قَطَرِىّ؟قال: [٢] كدناه وظنّ أن قد كادنا ، بأن صِرْنا منه إلى التى نحبّ[٢] . قال : فهلااتبعتموه؟قال: كان حربُ الحاضر آثرَ عندنامن اتباع الفَلّ[٣]،قال : فكيف كان المهلّب لكم وكنتم له ؟ قال : كانَ لنا منه شفقةُ الوالد ، وله منّا برّ الولد ، قال : فكيف كان اغتباطُ الناس به؟ قال : نشأ[٤] فيهم الأمن ، وشَمِلهم النفَل[٥] ، قال : أكنت أعددت [لى][٦] هذا الجواب ؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، قال: هكذا والله تكون الرجال ! المهلب كان أعلمَ بذلك حيث بعثك .

هذه رواية أبى العباس[٧] .

وروى أبو الفرج فى الأغانى[٨] أنّ كعبا لما أوفده المهلب إلى الحجاج أنشده قصيدته التى أولها :

---

(١) من الكامل .
(٢ ــ ٢) الكامل : « كدناه ببعض ما كادنا به ، فصرنا منه إلى الذى نحب » .
(٣) الكامل : « كان الجد عندنا آثر من الفل »
(٤) الكامل : « فشا » .
(٥) النفل : الغنيمة .
(٦) من الكامل .
(٧) الكامل ٦٩٥ (طبع أوربا) .
(٨) الأغانى الجزء الرابع عشر ٢٨٤ ــ ٢٨٥ (طبعة الدار) .

يا حَفْصُ إني عَدَاني عَنكُمُ السَّفَرُ ۔ وقد سهرتُ وآذَى عيـنيَ السَّهَرُ(١)

يذكر فيها حروبَ المهلّب مع الخوارج ، ويصف وقائعه فيهم في بلد ؛ وهي طويلة ، ومن جملتها(٢) :

كنا نهوّن قبل اليوم شأنهمُ ۔ حتى تفاقم أمرٌ كان يُحتقَرُ(٣)

لمّا وَهَنّا وَقَدْ حَلُّوا بساحتِنا ۔ واستنفَرَ الناسُ تاراتٍ فما نفَرُوا(٤)

نَادَى امرؤٌ لا خلافٌ في عشيرتِه ۔ عَنْهُ ، وَلَيْسَ بِهِ عن مثله قِصَرُ

خَبُّوا كمينَهُمُ بالسَّفْحِ إذْ نزلوا ۔ بكازَرُونَ فما عَزُّوا ولا نَصَرُوا(٥)

باتَتْ كتائِبنا تَرْدِي مُسوَّمةً ۔ حَوْلَ المهلّب حتى نوّر القمرُ(٦)

هُنَالِكَ وَلَّوْا خَزَايا بَعْدَ ما هُزِمُوا ۔ وحال دونهمُ الأنهار والجُدُرُ

تأبى علينا حزازاتُ النُّفوس فما ۔ نُبْقِي عَلَيْهِمْ ولا يُبْقُونَ إن قَدَرُوا

فضحك الحجاج ، وقال : إنّك لمنصف يا كعب ، ثم قال له : كيف كانتْ حالكم مع عدوّكم ؟ قال : كنّا إذا لقيناهم بعفوِنا وعفْوهم يئسنا(٧) منهم ، وإذا لقيناهم بجِدّنا وجِدّهم(٨) طمِعْنا فيهم . قال : فكيف كان بنو المهلّب ؟ قال : حماة الحريم نهارا ، وفُرسان الليل تيقظا(٩) ؛ قال : فأين السّماع من العيان ؟ قال : السماع دون العيان ، قال :

---

(١) عداه عن الأمر : صرفه عنه .

(٢) قال أبو الفرج بعد أن أورد أبياتا منها : « وهي قصيدة طويلة ؛ قد ذكرها الرواة في الخبر ؛ فتركت ذكرها لطولها ؛ يقول فيها . . . » وأورد الأبيات .

(٣) في الأغاني قبل هذا البيت :

فَمَا يجاوز باب الجسْر من أحـدٍ ۔ قد عَضَّتِ الحربُ أهل المصر فانجحروا

(٤) استنفر الناس : استنجدهم .

(٥) في الطبري ، « عبوا جنودهم » .

(٦) الكتيبة : جماعة الخيل ، وتردى : تضرب الأرض بحوافرها .

(٧) الأغاني : « نعفوهم تأنيس لهم » .

(٨) الأغاني . « بجهدنا وجهدهم » .

(٩) الأغاني : « أيقاظا » .

صفهم لى رجلا رجلا . قال : المغيرة فارسهم وسيدهم ، نار ذاكية ، وصَعْدَة[١] عالية . وكفى بيزيدَ فارسا شجاعا ! ليثُ غاب ، وبحرٌ جَمّ العُباب . وجوادهم قَبيصة ، ليث المَغار ، وحامى الذِّمار ؛ ولا يستحى الشجاع أن يفِرّ من مُدرِك ؛ وكيف لا يفرّ من مدرك ، وكيف لا يفرّ من الموت الحاضر ، والأسد الخادِر[٢] ! وعبد الملك سَمّ ناقع ، وسيف قاطع ؛ وحبيب الموت الذُّعاف[٣] ، طود شامخ ، وبحر باذخ[٤] ؛ وأبو عيينة البطل الهمام ، والسيفُ الحسام ؛ وكفاك بالمفضّل نَجْدة ، ليثٌ هَدّار وبحر موّار[٥] ! ومحمد ليث غاب ، وحُسام ضِراب . قال : فأيّهم أفضل ؟ قال : هم كالحلْقة المفرَغة لا يعرف طرفاها[٦] ؛ قال : فكيف جماعة الناس ؟ قال : على أحسنِ حال ، أرضاهم العدلُ ، وأغناهم النفَل . قال : فكيف رضاهم بالمهلّب ؟ قال : أحسن رضا ، لا يعدمون[٧] منه إشفاق الوالد ، ولا يعدم منهم برّ الولد[٧] . وذكر تمام الحديث .

وقال : إن الحجاج أمر له بعشرين ألف درهم ، وحمله على فَرَس ، وأوفده على عبد الملك ؛ فأمر له بعشرين ألفا أخرى .

قال أبو الفرج : وكعب[٨] الأشقرىّ من شعراء المهلّب ومادحيه ؛ وهو شاعر مجيد . قال عبد الملك بن مروان للشعراء[٩] : تُشبّهونني مرةً بالأسد ، ومرة بالبازى ، ألا قلتم كما قال كعب الأشقرى للمهلب وولده :

بَرَاكَ اللهُ حِينَ بَرَاكَ بَحْراً وَفَجَّرَ مِنْكَ أنْهــاراً غِزَارا

(١) ذكت النار : اشتد لهبها ، والصعدة : القناة المستوية تنبت كذلك .
(٢) أسد خادر : مقيم فى عرينه داخل فى الخدر .
(٣) الذعاف : السريع.
(٤) الباذخ : العالى .
(٥) موار : مضطرب .
(٦) فى الأصول : « طرفها » ، وما أثبته من الأغانى .
(٧ ـ ٧) الأغانى : « وكيف لايكونون كذلك ؛ وهم لايعدمون رضا الوالد ، ولا يعدم منهم بر الولد»
(٨) الأغانى ١٤ : ٢٨٦ ، ٢٨٧
(٩) الأغانى : « كان يقول للشعراء » .

بَنُوكَ السابِقونَ إلى المعـــالى ... إذا ماأعظمَ النّاسُ الخِطـارا[١]

كأنهمُ نجـومٌ حَوْلَ بَـــدْرٍ ... تـكَمّل إذ تـكَمّل فاستدارا[٢]

مُلوكٌ يـــنزِلُون بكُلِّ ثَغرٍ ... إذا ماالهامُ يَوْمَ الرَّوْعِ طارا[٣]

رِزَانٌ فى الخطوب تَرَى عليهم ... من الشِّيَخ الشمائل والنِّجَارا[٤]

نجومٌ يُهتَـــدَى بهمُ إذا ما ... أخُو الغَمَراتِ فى الظلماء حارا[٥]

قال أبو الفرج : وهـذا الشعر من قصيدة لـكعب ، يمدح بها المهلّب ؛ ويذكر الخوارج[٦]، ومنها :

سَلُوا أهلَ الأباطحِ مِنْ قُرَيْشٍ ... عن المجدِ المؤثّلِ أيْنَ صارَا[٧]

---

(١) الخطار : المراهنة .

(٢) الأغانى :

* درارىٌّ تـكمّل فاستدارا *

(٣) الهام : الرؤس .

(٤) فى الأغانى : « رزان فى الأمور » ، والنجار : الحسب والأصل

(٥) و الأغانى : « أخو الظلماء » .

(٦) ذكر صاحب الأغانى ثلاثة أبيات من أولها ؛ مما فيه غناء :

طَرِبْتُ وَهاجَ لى ذاكَ ادِّكارَا ... بكَسٍّ وقد أطَلْتُ به الحِصَارَا

وكنتُ ألَذُّ بعضَ العَيْشِ حَتّى ... كبِرتُ وصـــار لى هَمّى شعارَا

رأيتُ الغانياتِ كَرِهْن وَصْلِى ... وأبْدَيْنَ الصَّرِيمةَ لى جهارَا

(٧) الأغانى ١٤ : ٢٩٥ ؛ وذكر قبلها :

غرِضْنَ بمجْلِسِى وكرِهْنَ وَصْلى ... أوانَ كُسِيتُ من شَمَطٍ عِذارَا

زَرَيْنَ عَلَىَّ حِـينَ بَدَا مَشيبى ... وَصارَتْ ساحَتِى للهمِّ دارَا

أتانى والحديث له نمـــاء ... مقــالة جائرٍ أحْفَى وجارَا

وذكر بعده :

وَمَنْ يحمى الثُّغور إذا استحرّتْ ... حروبٌ لايَنون لهــا غرارَا

لَقَوْمُ الأَزْدِ فى الغمرات أمضَى وأوفى ذمَّةً وأعـزّ جـارا(١)
هُمُ قادُوا الجيـــــاد عَلَى وجاها من الأمصار يَقذفن المِهارا(٢)
إلَى كِرْمَـانَ يَحْمِلْنَ المَنـايَا بـكُلِّ ثَنِيَّةٍ يُوقِـدْنَ نَارَا(٣)
شَوازب ماأصبنا الشار حتى رددنـاهـا مكلّمـةً مرارا(٤)
غَدَاة تركْنَ مَصرعَ عَبْدِ رَبٍّ نَثَرْنَ عليه مِنْ رَهجٍ غُبارا(٥)
ويوم الزَّحْفِ بالأهواز ظلنَا نُرَوِّى منهمُ الأَسَلَ الحِرَارا(٦)
فقرّت أعـينٌ كانت حَزِينـاً قليـلًا نومُهـا إلا غِرارا(٧)
ولولا الشيـخُ بالمِصْرَينِ يَنْـفِى عـدوّهُمُ لقـد نزلُوا الدِّيارا(٨)
ولـكنْ قارعَ الأبطـال حتّى أصابوا الأمْنَ واحْتَلّوا القرَارا(٩)

(١) الأغانى : « لقومى الأزد » .
(٢) الوجى : الحفى ، وذكر بعده :

بـكلِّ مَفازةٍ وبـكلِّ سَهْبٍ بَسابِسَ لايرَوْنَ لَهَا مَنـارَا

(٣) الثنية : الطريق فى الجبل .
(٤) مكلمة : مجروحة ، وفى الأغانى : « لم يصبن » ، وبعده :

وَيَشْجُرْنَ العَوالى السُّمْرَ حَتّى تَرَى فيهـا عن الأَسَلِ ازورارا

(٥) هو عبد ربه الصغير أمير الأزارقة المذكور قبلا ؛ بعد قطرى . وفى الأغانى : « يثرن عليه من رهج عصاراً » ، والعصار هو الغبار .
(٦) الحرار : جمع حران ؛ وهو العطشان .
(٧) حزين ؛ فعيل ، مما يستوى فيه المفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث ، وفى الأغانى : «حديثا» ، وبعده فى الأغانى :

صنائعنـا السّوابغُ والمذاكِى ومَنْ بالمِصْرِ يحتلبُ العِشارا
فهنَّ يُبحْنَ كلّ حمًى عـزيزٍ ويحمينَ الحقـائقَ والذِّمارا
طُوالاتُ المتُونِ يَصُنّ إلّا إذا سارَ المهلّبُ حيث سارا

(٨) المصران : البصرة والـكوفة . وفى الأغانى : « تركوا الديارا » .
(٩) الأغانى :

* أصابُوا الأمْنَ واجْتَنَبُوا الفِرَارَا *

إذا وَهَنُوا وحَلّ بهم عَظِيمٌ   يَدُقّ العظمَ كانَ لهم جُبارا
وَمُبْهَمةٍ يَحِيدُ الناسُ عنها   تُشَبّ الموت شدّ لها إزارا
شِهابٌ تنجلي الظلماءُ عنه   يَرَى في كلّ مُظْلِمَةٍ منارا[1]
براكَ الله حينَ براكَ بَحْراً   وفجّر منك أنهاراً غِزارا

الأبيات المتقدمة .

* * *

قال أبو الفرج : وحدّثني[2] محمد بن خلف وكيع ، بإسناد ذكره ؛ أنّ الحجّاجَ لما كتب إلى المهلّب يأمُره بمناجزة الخوارج حينئذ ، ويستبطئه، ويضعّفه ويعجّزه من تأخيره أمرَهم ، ومطاولته لهم ، قال المهلّب لرسوله قل له: إنما البلاء أن يكون الأمر لمن يملكه، لا لمن يعرفه ؛ فإن كنتَ نصبتَني لحرب هؤلاء القوم – على أن أدبّرها كما أرى ، فإذا أمكنتْني فرصة انتهزتُها ، وإن لم تمكّنّي توقفت – فأنا أدبِّر ذلك بما يصلحه ؛ وإن أردت أن أعملَ برأيك وأنا حاضر وأنت غائب – فإن كانَ صوابا فلك ، وإن كان خطأً فعليّ – فابعثْ مَنْ رأيتَ مكاني ؛ وكتب من فَوْرِه بذلك إلى عبد الملك ؛ فكتب عبدُ الملك إلى الحجّاج : لا تعارض المهلّب فيما يراه ، ولا تُعجله ودَعْه يدبّرْ أمره .

قال : وقام كعب الأشقريّ إلى المهلب ، فأنشده بحضرة رسول الحجاج :

إنّ ابنَ يوسفَ غرّه من أمرِكُمْ   خَفْضُ المُقام بجانب الأمصارِ[3]
لو شَهِدَ الصَّفَّيْن حيثُ تلاقيا   ضاقتْ عليه رَحِيبَةُ الأقطار
من أرض سابورِ الجنود وخيلُنا   مثلُ القداح بَرَيْتَها بشِفارِ

---

(١) الأغاني : « في كل مظلمة » .
(٢) الأغاني ١٤ : ٢٩٠ ، ٢٩٢
(٣) الأغاني : « غره من غزوكم » .

من كلّ صنديدٍ يُرى بلَبانِه وَقْعُ الظُّباة مع القَنا الخطّار[1]
لَرَأى مُعاوَدَةَ الرِّبَاعِ غَنِيمةً أزمانَ كانَ مخالفَ الإقتار
فدع الحروب لشيبها وشبابها وعليك كلّ غريرةٍ مِعْطار[2]

فبلغت أبياتُه الحجاج ، فكتب إلى المهلّب يأمره بإشخاص كعبِ الأشقرىّ إليه ، فأعلم [المهلب][3] كعبا بذلك، وأوفده إلى عبدالملك من ليلته ، وكتب إليه يستوهبُه منه ؛ فقدم كعب على عبدالملك برسالة المهلّب، فاستنطقه فأعجبه، وأوفدَه إلى الحجاج ؛ وكتب إليه يُقسم عليه أن يصفحَ ، ويعفو عمّا بلغه من شعره ؛ فلما دخلَ قال : إيه يا كعب !

* لَرأى مُعاوَدَةَ الرِّبَاعِ غنيمة *

فقال : أيها الأمير ، والله لودِدْتُ فى بعض ماشاهدتُه من تلك الحروب، وما أوردَناه المهلّب[4] من خطرها ، أنْ أنجُوَ منها وأكون حجّاماً أو حائكا ، قال : أولَى لك ! لولا قَسَمُ أمير المؤمنين ما نفعك ما تقول ؛ الْحَقْ بصاحبك ؛ وردّه إلى المهلب[5] .

* * *

قال أبو العباس : وكان[6] كتاب المهلّب إلى الحجاج ، الذى بشره فيـــــه بالظفر والنصر :

[بسم الله الرحمن الرحيم][7]؛ الحمد لله الكافى بالإسلام فَقْدَ ماسواه ، الحاكم بألّا ينقطع المزيد من فضله حتى ينقطعَ الشكر من عباده ؛ أما بعد :

(١) اللبان هنا : الصدر ، والظباة : جمع ظبة ؛ وهى حدالسيف . ورمح خطار : ذو اهتزاز شديد.
(٢) امرأة معطار : اعتادت أن تتعهد نفسها بالطيب وتكثر منه .
(٣) من الأغانى .
(٤) الأغانى : « يوردناه » .
(٥) الأغانى : « من وقته » .
(٦) الكامل ٣ : ٤٠٤ وما بعدها (طبعة نهضة مصر) .
(٧) من الكامل .

فقد كان من أمرنا ما قد بلَغك ، وكُنّا نحنُ وعدوُّنا على حالَيْن مختلفَيْن ، يسرّنا منهم أكثر مما يسوءنا ، ويسوءهم مِنّا أكثر مما يسرّهم ، على اشتداد شوكتهم ؛ فقد كان عَلا أمرُهم حتى ارتاعت له الفتاة ، ونُوّم به الرّضيع ، فانتهزتُ الفرصة منهم فى وقت إمكانها ؛ وأدنَيتُ السّواد من[1] السواد ، حتى تعارفت الوجوه ؛ فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجلَه ، فقُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين .

فكتب إليه الحجاج :

أمّا بعد ؛ فقد فعل الله بالمسلمين خَيْراً ، وأراحهم من بأسِ الجلاد ، وثِقَلِ الجهاد ؛ ولقد كنت أعلم بما قِبَلك ؛ فالحمدُ لله رب العالمين ؛ فإذا وَرَد عليك كتابى فاقْسِم فى المجاهدين فيئهم ، وَنَفِّل[2] الناس على قدر بلائهم ، وفَضِّل مَن رأيت تفضيلَه ؛ وإن كانت بقيَت من القوم بقية فخلِّف خيلا تقوم بإزائهم ، واستعمِلْ على كِرمان مَنْ رأيت ، وَولّ الخيل شَهماً من ولدك ، ولا ترخّص لأحدٍ فى اللحاق بمنزله دون أن تَقْدَم بهم علىّ ، وعجِّل القدوم إن شاء الله .

فولّى المهلب يزيد ابنه كِرْمان ، وقال له : يا بنىّ ، إنّك اليومَ لست كما كنت ؛ إنما لك من كِرْمان ما فَضَل عن الحجّاج ؛ ولن تحتمل إلا عَلَى ما احتمل عليه أبوك ، فأحْسِنْ إلى مَنْ تبعك ؛ وإن أنكرتَ من إنسان شيئاً فوجِّه إلىّ ، وتفضّل على قومك ، [إن شاء الله][3]

---

(١) أى قربت ما بين الفريقين .

(٢) قال المبرد : قوله : « نفل » أى أقسم بينهم ؛ والنفل : العطية التى تفضل ؛ كذا كان الأصل ؛ وإنما تفضل الله عز وجل بالغنائم على عباده ؛ قال لبيد :

إنّ تقوَى رَبِّنا خَيرُ نَفَلْ ... وبإذنِ الله رَيْثى وَعَجَلْ

وقال جل جلاله له : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عنِ الأَنْفَالِ ﴾ ، ويقال : نَفَّلْتُكَ كذا وكذا؛أى أعطيتك،ثم صار النفل لازما واجبا .

(٣) من الكامل

ثم قدم المهلب على الحجاج ، فأجلسه إلى جانبه ، وأظهر برّه وإكرامه ؛ وقال : يا أهل العراق ، أنتم عَبيدُ قِنّ للمهلب ؛ ثم قال : أنت والله كما لقيط(١) :

فقلّدوا أمرَكم لله درُّكمُ رَحْبَ الذّراع بأمر الحرب مُضْطَلِعا(٢)

لا يطعَم النومَ إلا ريثَ يبعثُه هَمٌّ يكاد حشاه يَقْصِمُ الضِّلَعا(٣)

لا مترَفاً إن رخاء العيش ساعدَهُ ولا إذا عضّ مكروهٌ به خَشَعا(٤)

مازال يحلب هذا الدّهرَ أشطُرَهُ يكون متّبِعاً طوراً ومُتّبَعا(٥)

حتى استمرّتْ على شَزْرٍ مَرِيرَتُه مستحكمَ الرّأي لا قَحْماً ولا ضَرَعا(٦)

وروى أنه قام إليه رجل فقال : أصلح الله الأمير ! والله لكأنى أسمع الساعة قطَريًّا وهو يقول لأصحابه : المهلب والله كما قال لقيط الإيادىّ ، ثم أنشد هذا الشعر . فسُرّ الحجاج حتى امتلأ سروراً ؛ فقال المهلب : أما والله ما كنّا أشدّ من عدوّنا ولا أحدّ ، ولكن دَمَغَ الحقّ الباطل ، وقهرتِ الجماعة الفتنة ، والعاقبة للمتقين(٧) ؛ وكان ما كرهْناه من المطاولة خيراً لنا مما أحببناه من المعاجلة .

---

(١) هو لقيط بن يعمر الإيادى ؛ من قصيدة طويلة ؛ ذكرها ابن الشجرى فى مختاراته ١ — ٦ ؛ أنذر فيها قومه من إياد بغزو كسرى ؛ وكان كاتبا فى ديوانه ؛ وأولها :

يا دارَ عَمْرةَ من محتلها الجرَعا هاجتْ لى الهمّ والأحزان والوجَعا

تامَتْ فؤادى بذات الجزع خِرْعبةٌ مرّتْ تريدُ بذات العذبة البِيَعا

(٢) رحب الذراع : يريد واسع الصدر متباعد ما بين المنكبين ؛ كناية عن قوته وشدة مراسه ، ومضطلعا : أى يحمل الأمر ويقوم عليه .

(٣) ريث يبعثه ، أى مقدار ما يبعثه .

(٤) المترف : المتنعم السادر فى ملاذه .

(٥) يحلب أشطره ؛ أى أنه اختبر ضروب الدهر من خير شر وحلو ومر .

(٦) المريرة من الحبال : ماطال واشتد فتله ؛ واستمرت استحكمت ، والشزر : الفتل إلى فوق ؛ خلاف اليسر ؛ وهو الفتل إلى أيسر ؛ والأول أحكم الفتلين ؛ ضرب ذلك مثلا لاستجماع قوته . والضرع : الصغير الضعيف ، والقحم : آخر سن الشيخ .

(٧) الكامل : « للتقوى » .

فقال الحجاج : صدقت ، اذكر لى القوم الّذين أبلَوْا ، وصف لى بلاءهم ، [فأمر الناس فكتبوا ذلك إلى الحجاج ، فقال لهم المهلب : ماذَخَر الله لكم خيرٌ لكم من عاجل الدنيا إن شاء الله] (١) ، فذكرهم (٢) المهلب على مراتبهم فى البلاء ، وتفاضلهم فى الغَنَاء ، وقدّم بنيه : المغيرة ، ويزيد ، ومدركا ، وحبيبا ، وقَبيصة ، والمفضّل ، وعبد الملك ، ومحمدا ، وقال : والله لو واحد يقدمُهم فى البلاء لقدّمتهُ عليهم ، ولولا أنْ أظلِمهم لأخرتُهم. فقال الحجاج : صدقت ، وما أنت أعلم بهم منى ، وإن حضرتَ وغبتُ إنهم لسيوفٌ من سيوف الله . ثم ذكر مَعن بن المغيرة والرّقاد وأشباههما .

فقال الحجاج : مَن الرُّقاد (٣) ؟ فدخل رجل طويل أجْنأ (٤) ، فقال المهلب : هذا فارس العرب ، فقال الرُّقاد للحجاج : أيها الأمير ، إنى كنت أقاتِل مَعَ غير المهلب فكنت كبعض الناس ، فلما صرتُ مع مَنْ يُلزِمنى الصبر ، ويجعلنى أسوةَ نفسه وولدِه ، ويجازينى على البلاء ، صرت أنا وأصحابى فُرسانا .

فأمر الحجّاج بتفضيل قوم على قوم على قدر بلائهم ، وزاد ولد المهلّب ألفين ألفين ، وفعل بالرُّقاد وبجماعة شبيها بذلك .

وقال يزيد بن حَبْناء من الأزارقة :

دَعِى اللَّوْمَ إنّ الْعَيْشَ ليس بدائِمٍ ولا تعجلى باللَّوْم يا أمَّ عاصِمٍ (٤)
فإنْ عَجِلتْ منك الملامةُ فاسمعِى مقالةَ مَعْنِيٍّ بحقِّك عالِمِ
ولا تعذُلينا فى الهَدِيّة إنما تكونُ الهدايا من فُضُول المغانم

(١) من الكامل .
(٢) الكامل : « ثم ذكرهم » .
(٣) الكامل : « أين الرقاد » .
(٤) أجنأ ، من الجنأ ، بالتحريك ؛ وهو ميل فى الظهر .
(٤) الكامل ٣ : ٤٠٩ ، ٤١٠

وليس بمُهْدٍ مَن يكون نهارُه   جِلاداً ، ويُمسى ليلَه غيرَ نائمِ (١)
يُريد ثوابَ الله يوما بطَعْنَةٍ   غَمُوسٍ كشِدْقِ العنبرىّ ابن سالمِ (٢)
أبيتُ وسِرْبالِى دِلاصٌ حَصينَةٌ   ومِغفَرُها ، والسَّيفُ فوقَ الحيازِمِ (٣)
حلفتُ بربِ الواقِفِين عَشيَّةً   لدى عَرَفَاتٍ حَلْفةَ غيرَ آثِمِ
لقد كانَ فى القوم الذين لقيتُهُمْ   بِسابُورَ شغلٌ عن بُزوز اللَّطائمِ (٤)
تَوَقَّدُ فى أيديهِمُ زاعِبيَّةٌ   ومُرْهَفَةٌ تَفرِى شُؤون الجماجِمِ (٥)

وقال المغيرة الحنظلىّ من أصحاب المهلّب :

إنى امرؤٌ كفَّنى ربِّى وأكرَمنى   عن الأمور التى فى غِبِّها وَخَمُ (٦)
وإنما أنا إنسانٌ أعيشُ كما   عاشتْ رجالٌ وعاشت قبلها أُمَمُ
مَاعَاقَنِى عَنْ قُفُولِ الْجُنْدِ إذ قَفَلُوا   عِىٌّ بما صَنَعُوا حولِى وَلَا صَمَمُ (٧)
وَلَوْ أردتُ قُفُولًا ماتجهَّمَنِى   إذنُ الأمير ولا الكُتَّابُ إذ رَقَمُوا
إنّ المهلّب إن أشتَقْ لرؤيتِهِ   أو أمتدحْهُ فإن الناس قد عَلِمُوا
أنهُ الأريبُ الذى تُرْجَى نوافلُه   والمستنيرُ الّذى تُجْلَى به الظُّلَمُ
والقائلُ الفاعلُ الميمونُ طائره   أبو سعيدٍ إذا ماعُدَّتِ النِّعَمُ
أزمان كَرْمان إذ غصّ الحديدُ بهم   وإذ تَمَنَّى رجالٌ أنّهُمْ هُزِموا

---

(١) قال المبرد : « يريد يمسى هو فى ليله ، ويكون هو فى نهاره ؛ ولكنه جعل الفعل لليل والنهار على السعة ؛ وفى القرآن : ﴿ بل مَكْرُ الليّلِ والنهار ﴾ والمعنى : بل مكركم فى الليل والنهار » .

(٢) قال المبرد : قوله غموس ؛ يريد واسعة ، والعبرى ابن سالم : رجل منهم كان يقال له الأشدق .

(٣) الدلاص : الدرع الملساء اللينة .

(٤) اللطائم ، واحدتها لطيمة ؛ وهى الإبل التى تحمل البز والعطر .

(٥) زاعبية ؛ يعنى الرماح . والزاعبية : منسوبة إلى زاعب ؛ وهو رجل من الخزرج كان يعمل الرماح وتفرى : تقد .

(٦) الكامل . « فى رعيها وخم » .

(٧) الكامل . « عنى بما صنعوا عجز ولا بكم » .

وقال حبيب بن عوف من قواد المهلّب :

أبا سعيدٍ جزاكَ اللهُ صالحةً فقدْ كفيتَ ولمْ تعنُفْ على أحَدِ (١)
داويتَ بالحلمِ أهلَ الجهلِ فانقمَعُوا وكنتَ كالوالدِ الحانِي على الوَلَدِ

وقال عبيدة بن هلال الخارجيّ يذكر رجلا من أصحابه :

يَهْوِى فترفعُه الرِّماحُ كأنّه شِلْوٌ تَنَشَّبَ فى مخالِبِ ضارِ (٢)
يَهْوِى صريعاً والرِّماح تَنُوشه إنّ الشُّراة قصيرة الأعمارِ (٣)

***

[شبيب بن يزيد الشيبانيّ]

ومنهم (٤) شبيب بن يزيد الشيبانيّ ؛ وكان فى ابتداء أمره يصحب صالح بن مسرّح ؛ أحد الخوارج الصُّفْرية ؛ وكان ناسكا مصفرّ الوجه ، صاحب عبادة ، وله أصحاب يقرِئهم القرآن ، ويفقّههم ويقصّ عليهم (٥) ؛ ويقدَم الكوفة ، فيقيم بها الشهرَ والشهرين . وكان بأرض الموصل والجزيرة ؛ وكان إذا فَرَغ من التّحميد والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله ، ذكر أبا بكر فأثنى عليه ، وثنَّى بعُمَر ، ثم ذكر عثمان وما كان من أحداثه ؛ ثم عليا عليه السلام وتحكيمَه الرجالَ فى دين الله ؛ ويتبرّأ من عثمان وعلىّ ، ثم

---

(١) لم تعنف ، من العنف ، وهو الشدة .

(٢) الشلو : العضو .

(٣) الكامل : « فثوى صريعاً » .

(٤) نقل المؤلف أخبار شبيب من تاريخ الطبرى ٥ : ٢١٦ وما بعدها ، أحيانا بنصها ، وأحيانا مع تصرف واختصار .

(٥) فى الطبرى : « فكان قبيصة بن عبد الرحمن حدث أصحابنا أن قصص صالح بن مسرح عنده ، وكان ممن يرى رأيهم ؛ فسألوه أن يبعث بالكتاب إليهم ؛ ففعل ؛ وكان قصصه : الحمد لله رب العالمين ، الذى خلق السموات والأرض . . . . » ؛ ثم أورد نص الكتاب ؛ وآخره : « جعلنا الله وإياكم من الشاكرين الذاكرين الذين يهدون بالحق وبه يعدلون » ؛ وقد أورده المؤلف ملخصا .

يدعو إلى مجاهدة أئمة الضلال ، وقال : تيسَّرُوا ياإخوانى للخروج من دَار الفناء إلى دار البقاء ؛ واللّحاق بإخواننا المؤمنين ؛ الذين باعُوا الدنيا بالآخرة ؛ ولا تجزَعُوا من القتل فى الله ، فإنّ القتلَ أيسرُ من الموت ، والموت نازل بكم ؛ مفرّق بينكم وبين آبائكم وإخوانكم ، وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم ؛ وإن اشتدّ لذلك جزعُكم ؛ ألا فبيعوا أنفسكم طائعين وأموالكم ؛ تدخلوا الجنة ... وأشباه هذا من الكلام .

وكان فيمن يحضرُه من أهل الكوفة سُوَيد والبَطِين ؛ فقال يوما لأصحابه : ماذا تنتظرون ؟ ما يَزيد أئمةُ الجوْر إلا عتوّا وعلوّا ، وتباعداً من الحق ، وجراءةً على الربّ؛ فراسِلوا إخوانكم حتى يأتوكم ؛ وننظر فى أمورنا مانحن صانعون . وأىّ وقت إن خرجنا نحن خارجون .

فبينما هو كذلك إذ أتاه المحلّل بن وائل [1] بكتاب من شبيب بن يزيد ؛ وقد كتب إلى صالح :

أما بعد ؛ فقد [أردت الشخوص ، وقد] [2] كنتَ دعوتَنى إلى أمرٍ أستجيب [3] لك؛ فإن كان ذلك [4] من شأنك ، فإنّك شيخ المسلمين ، ولم يعدِلْ بك منّا أحد [5] ؛ وإن أردت تأخير ذلك أعلمنى [6] ؛ فإن الآجال غادية ورائحة ؛ ولا آمنُ أن تخترِمَنى المنية ؛ ولمّا أجاهد الظالمين ؛ [فياله غبنا وياله فضلا !] [2] ؛ جعلنا الله وإياكم ممن يريد الله بعلمه [ورضوانه والنظر إلى وجهه ، ومرافقة الصالحين فى دار السلام] [2] . والسلام عليك .

---

(١) ب : « قائد » ؛ وما أثبته عن ا ، ج والطبرى .
(٢) تكملة من تاريخ الطبرى .
(٣) الطبرى : « فاستجبت لك » .
(٤) الطبرى : « فإن كان ذلك اليوم » .
(٥) الطبرى : « ولن نعدل بك منا أحدا » .
(٦) الطبرى : « وإن أردت تأخير ذلك اليوم أعلمتنى » .

فأجابه صالح بجواب جميل ؛ يقول فيه [(1)] : إنه لم يمنعنى من الخروج ـ مَعَ ما أنا فيه من الاستعداد ـ إلا انتظارك؛ فاقْدَم علينا ، ثم اخرج بنا، فإنك ممّن لاتقضى الأمور دونَه؛ والسلام عليك [(1)] .

فلما ورد كتابهُ على شَبيب ؛ دعا القرّاء من أصحابه ؛ فجمعهم إليه ؛ منهم أخوه مصاد ابن يزيد ، والمحلّل بن وائل ، والصقر بن حاتم ، وإبراهيم بن حجر وجماعة مثلهم [(2)] ؛ ثم خرج حتى قَدِم على صالح بن مسرّح ؛ وهو بداراتِ [(3)] أرض الموصل ؛ فبثّ صالح رسله ، وواعدهم بالخروج ؛ فى هلال صفر ليلة الأربعاء سنة ست وتسعين .

فاجتمع بعضهم إلى بعض ، واجتمعوا عنده تلك الليلة ؛ فحدّث فَرْوَة بن لَقِيط [(4)] ؛ قال : إنى لمعهم تلك الليلة عند صالح [(5)] ؛ وكان رأيى استعراض الناس ؛ لِمَا رأيتُ من المنكر والفساد فى الأرض ، فقمت إليه ، فقلت : ياأمير المؤمنين ، كيف ترَى السِّيرَة فى هؤلاء الظلمة ؛ أنقتلهم قبل الدعاء ، أم ندعوهم قبل القتال ؟ فإنّى أخبرُك برأيى فيهم قبل أن تخبرنى بذلك ؛ إنا نخرج على قوم طاغين ؛ قد تركوا أمر الله ، أو راضين بذلك، فأرى أن نضعَ السيف ؛ فقال : لا ، بل ندعوهم ؛ ولعمرى لا يجيبُك إلا مَنْ يرى رأيَك ؛ وليقاتلنّك مَنْ يُزْرِى عليك؛والدعاء أقْطَعُ لحجّتهم ، وأبلغ فى الحجّة عليهم لك . فقلت:

(١ ـ ١) الكتاب كما فى الطبرى : « أمابعد ؛ فقد كان كتابك وخبرك أبطأعنى ؛ حتى أهمنى ذلك ؛ ثم إن أميرا من أمراء المسلمين نبأنى بنبأ مخرجك ومقدمك ؛ فنحمد الله على قضاء ربنا ؛ وقد قدم على رسولك بكتابك ؛ فكل مافيه قد فهمته ، ونحن فى جهاز واستعداد للخروج ، ولم يمنعنى من الخروج إلا انتظارك ، فأقبل إلينا ثم اخرج بنا متى أحببت ، فإنك ممن لايستغنى عن رأيه ، ولا تقضى دونه الأمور ، والسلام » .

(٢) فى الطبرى : « وإبراهيم بن حجر أبو الصقير من بنى محلم والفضل بن عامر من بنى ذهل بن شيبان » .

(٣) فى حواشى ج : « الدارة : كل أرض واسعة بين جبال ، ومن الرمل مااستدار معه وجمعه دارات ودور » ، وفى الطبرى : « قدم على صالح بدارا » .

(٤) فى الطبرى : « قال أبو مخنف : فحدثنى فروة بن لقيط » .

(٥) كذا فى الأصول ، وفى الطبرى : « قال ـ أى فروة ـ والله إنى لمع شبيب بالمدائن ، إذ حدثنا عن مخرجهم ، قال : لما هممنا بالخروج اجتمعنا إلى صالح بن مسرح ليلة خرج ، فكان رأيى استعراض الناس . . . . » إلى آخر الخبر مع اختلاف فى الرواية .

وكيف ترى فيمن قاتلنا فظفرنا به ؟ وماتقول فى دمائهم وأموالهم ؟ فقال : إن قتلنا وغنمنا فلنا وإن تجاوزنا وعفونا فموسّع علينا .

ثم قال صالح (١) لأصحابه ليلته (٢) تلك : اتقُوا اللهَ عبادَ الله ، ولا تعجَلُوا إلى قِتالِ أحدٍ من الناس ؛ إلّا أن يكونوا [قوما] (٣) يريدونكم [وينصبون لكم] (٣) ؛ فإنكم إنما خَرَجْتُمْ غَضَباً لله حيث انتُهِكَتْ محارمُه ؛ وعُصِى فى الأرض ، (٤) وسُفِكَت الدماء بغيرَ حقّها ، وأُخذت الأموال غَصْباً (٤) ، فلا تَعيبُوا على قومٍ أعمالا ثم تعملونها (٥) ؛ [فإن كلّ ما أنتم عاملون أنتم عنه مسئولون ، وإن عظمكم رجالة] (٣) ، وهذه دوابّ لمحمد بن مروان فى هذا الرُّستاق (٦) ؛ (٧) ، وابدءوا بها فاحملوا عليها راجلَكم ، وتَقَوَّوْا بها على عدوّكم (٧) .

ففعلوا ذلك ، وتحصّن منهم أهلُ دارا (٨) .

وبلغ خبرُهم محمد بن مروان وهو يومئذ أمير الجزيرة ، فاستخفّ بأمرهم ؛ وبعث إليهم عدىّ بن عميرة فى خمسمائة ، وكان صالح فى مائة وعشرة ؛ فقال عدىّ : أصلح الله

---

(١) الخبر فى الطبرى عن أبى مخنف أيضا عن رجل من بنى محلم .
(٢) الطبرى : « ليلة خرج » .
(٣) من الطبرى .
(٤ ـ ٤) الطبرى : « فسفكت الدماء بغير حلها ، وأخذت الأموال بغير حقها » .
(٥) الطبرى : « تعملون بها » .
(٦) الرستاق ـ فيما ذكره حمزة بن الحسن ـ مشتق من « روذه فستا » ، وروذه : اسم للسطر والصف والسماط . وفستا : اسم للحال ، والمعنى أنه على التسطير والنظام . قال ياقوت : « والذى عرفناه وشاهدناه فى زماننا فى بلاد الفرس أنهم يعنون بالرستاق : كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد » معجم البلدان ١ : ٣٧.
(٧ ـ ٧) الطبرى : « فابدءوا بها ، فشدوا عليها ، فاحملوا أرجلكم ، وتقووا بها على عدوكم » .
(٨) الطبرى : « أهل دارا وأهل نصيبين وأهل سنجار ، وخرج صالح ليلة خرج فى مائة وعشرين ، وقيل : فى مائة وعشرة » .

الأمير ! تبعثنى إلى رأس الخوارج [منذ عشرين سنة](١)، ومعه رجالٌ سُمّوا لى [كانوا يعازّوننا](١) ؛ وإنّ الرجل منهم خير من مائة فارس فى خمسمائة ! فقال له : إنى أزيدُك خمسمائة ، فسرْ إليهم فى ألف فارس .

فسار مِنْ حَرّان فى ألف رجل ؛ وكأنّما يُساقون إلى الموت — وكان عدىّ رجلاً ناسكا (٢) — فلما نزل دَوغان(٣) نزل بالناس ، وأنفذ إلى صالح بن مسرّح رجلاً دسّه إليه فقال : إنّ عديًّا بعثنى إليك يسألك أن تخرُج عن هذا البلد ، وتأتى بلدا آخر فتقاتل أهله ؛ فإنى للقتال كاره ، فقال له صالح : ارجع إليه ، فقل له : إن كنت ترى رأينا، فأرنا من ذلك ما نعرف ، ثم نحن مُدْلِجُون(٤) عنك، وإن كنت على رأى الجبابرة وأئمة السوء، رَأَيْنا رأينا ، فإمّا بدأنا بك ، وإلا رَحَلْنا إلى غيرك .

فانصرف إليه الرسول ، فأبلغه، فقال له عدىّ : ارجعْ إليه فقل له: إنّى والله لا أرى رأيك ، ولكنّى أكره قتالك وقتال غيرك من المسلمين (٥) .

فقال صالح لأصحابه : اركبوا ، فركبوا ، واحتبس الرجلَ عنده ، ومضى بأصحابه حتى أتى عديًّا فى سوق دَوْغَان ؛ وهو قائم يصلِّى الضّحى ، فلم يشعر إلا بالخيل طالعة عليهم ؛ فلما دنا صالح منهم ، رآهم على غير تعبية (٦) ، وقد تنادَوْا ، وبعضُهم يجولُ فى بعض ، فأمرَ شبيبا فحمل عليهم فى كتيبة ، ثم أمرَ سُوَيْداً فحمل فى كتيبة ، فكانت هزيمتُهم ،

---

(١) من الطبرى .
(٢) الطبرى : « يتنسك » .
(٣) دوغان : قرية بين رأس عين ونصيبين ، كانت سوقا لأهل الجزيرة يجتمع إليها أهلها مرة فى كل شهر . (مراصد الاطلاع) .
(٤) الدلج والدلجة : السير آخر الليل .
(٥) فى الطبرى بعدها : « فقاتل غيرى » .
(٦) عبأ الجيش للحرب تعبئة : هيأه وجهزه ، يقال بالهمز وبغير الهمز .

وأتى عدىٌّ بدابَّته فركبها ، ومضَى على وجهه ، واحتوَى صالح على عسكره وما فيه ، وذهب فَلُّ عدىّ حتى لَحِقُوا بمحمّد بن مروان ، فغضِب ، ثم دعا بخالد بن جَزْء السُّلَمِىّ فبعثه فى ألف وخمسمائة ، ودعا الحارث بن جَعْوَنَة فى ألف وخمسمائة ، وقال لهما : اخرجا إلىّ هذه الخارجةَ القليلةَ الخبيثة ، وعجِّلا [الخروج ، وأغِذّا السّير][1] فأيّكما سبَق ، فهو الأمير على صاحبه ، فخرجا وأغذّا[2] فى السير ، وجعلا يسألان عن صالح ، فقيل لهما : توجّه نحو آمِد[3] ،فاتّبعاه حتى انتهيا إليه بآمِد ، فنزلا ليلا، وخندقا وهما متساندان ؛ كلٌّ واحدٍ منهما على حِدَتِه ، فوجّه صالح شبيبا إلى الحارث بن جَعْوَنة فى شطْر أصحابه،وتوجّه هو نحو خالدِ السُّلَمىّ، فاقتتلوا أشدّ قتال اقتتله قوم،حتى حَجَز بينهم الليل ؛ وقد انتصف بعضُهم من بعض .

فتحدّث بعضُ أصحابِ[4] صالح ، قال : كنا إذا حَمَلْنا عليهم استقبلَنا رجالُهم بالرماح، ونَضَحنا[5] رُماتُهم بالنّبل ، وخيلُهم تطاردنا فى خلال ذلك ، فانصرفنا عند الليل ، وقد كَرِهْناهم وكَرِهونا ، فلما رجعنا وصلّينا وتروّحنا وأكلنا من الكِسَر[6] ، دعانا صالح وقال : ياأخِلاّئى ، ماذا تَرَوْن ؟ فقال شبيب : إنّا إن قاتلنا هؤلاء القوم وهم معتصمون بخندقهم ، لم نَنَلْ منهم طائلا ، والرأى أن نَرْحَل عنهم ، فقال صالح : وأنا أرى ذلك ؛ فخرجوا من تحت ليلتهم حتى قطعوا أرض الجزيرة ، وأرض الموصل،ومَضَوْا حتى قطعوا أرض الدَّسْكرة . فلما بلغ ذلك الحجّاج سَرّح عليهم الحارث بن عميرة فى ثلاثة آلاف،

---

(١) من الطبرى .
(٢) أغذ فى السير : أسرع فيه .
(٣) آمد ، بكسر الميم : بلد قديم حصين ، تحيط دجلة بأكثره . مراصد الاطلاع .
(٤) فى الطبرى : « قال أبو مخنف : « فحدثنى المحلمى قال ... » ، وأورد الخبر باختلاف فى الرواية .
(٥) النضح : الرمى بالنبل .
(٦) الكسرة : القطعة من الخبز ، وجمعه كسر .

فسار وخرج صالح نحو جلُولاء وخانِقين (١) واتبعه الحارث حتى انتهى إلى قرية يقال لها المدبج (٢) ، وصالح يومئذ فى تسعين رجلا ، فعبّى الحارث بن عميرة أصحابه ميمنة وميسرة ، وجعل صالح أصحابه ثلاثة كَرادِيس وهو فى كُردوس (٣) ، وشبيب فى مَيْمَنة فى كُرْدُوس ، وسُوَيْد بن سُلَيم فى كُرْدُوس فى ميسرته ؛ فى كلّ كُرْدُوس منهم ثلاثون رجلا ؛ فلما شدّ عليهم الحارث بن عميرة انكشف سويد بن سليم ، وثبت صالح فقُتِل ، وضارب شبيب حتى صُرِع عن فرسه ، فوقع بين رجاله ، فجاء حتى انتهى إلى موقف صالح ، فوجَدَه قتيلا فنادى : إلىّ يامعشر المسلمين ! فلاذوا به ، فقال لأصحابه : ليجعلْ كلُّ رجلٍ منكم ظهرَه إلى ظهر صاحبه ، وليطاعِنْ عدوَّه إذا قدم عليه ؛ حتى ندخل هذا الحِصْن ، ونرى رأينا .

ففعلوا ذلك حتى دخلوا الحِصْن ؛ وهم سبعون رجلا مع شبيب ، وأحاط بهم الحارث بن عميرة ممسياً ، وقال لأصحابه : أحرقوا الباب ، فإذا صار جَمْراً فدَعوه ، فإنهم لايقدرون على الخروج حتى نصبح (٤) فنقتلهم ، ففعلوا ذلك بالباب ؛ ثم انصرفوا إلى معسكرهم .

فقال شبيب لأصحابه : ياهؤلاء ، ماتنتظرون ! فوالله إن صَبَّحوكم غُدْوَة (٥) إنه لهلاكُكم ، فقالوا له : مُرْنا بأمرك ، فقال لهم : [إن الليل أخفى للويل] (٦) ؛ بايعونى إن شئتم ، أو بايعوا مَنْ شئتم منكم ، ثم اخرجوا بنا حتى نشُدّ عليهم فى عسكرهم ، فإنهم آمنون منكم ، وإنى أرجو أنْ ينصرَكم الله عليهم. قالوا : ابسط يدك ، فبايعوه ، فلماجاءوا

---

(١) جلولاء : موضع فى طريق خراسان ، بينه وبين خانقين سبعة فراسخ ، وخانقين : فى نواحى السواد فى طريق همذان .

(٢) فى الطبرى : « المدبج : من أرض الموصل ، على تخوم مابينها وبين أرض جوخى » .

(٣) الكردوس : القطعة من الخيل ، وجمعه كراديس .

(٤) الطبرى : « نصبحهم » .

(٥) صبحوكم : أغاروا عليكم صباحاً .

(٦) من الطبرى .

إلى الباب ، وجدُوه جَمْراً ، فأتوْه باللُّبود [1] فبَلُّوها بالماء ، ثم ألقوْها عليــه وخرجوا ، فلم يشعُر الحارث بن عميرة إلا وشبيب وأصحابه يضربُونهم بالسيوف فى جوف عسكرهم، فضارب الحارث حتى صُرِع ، واحتمله أصحابه ، وانهزموا وخلُّوا لهم المعسكر ومافيه ، ومضَوْا حتى نزلوا المدائن ، وكان ذلك الجيش أولَ جيش هزمه شبيب [2] .

***

[دخول شبيب الكوفة وأمره مع الحجاج]

ثم ارتفع فى أدانى أرض الموصل [3] ، ثم ارتفع إلى نحو أذربيجان يَجْبِى الخراج ، وكان سفيان بن أبى العالية قد أُمِر أن يحارب صاحب طَبَرِسْتَان، فأمر بالقفول نحو شبيب، وأن يصالح صاحب طَبَرِسْتان ، فصالحه ، فأقبل فى ألف فارس ، وقد ورد عليــه كتاب من الحجاج :

[4] أما بعد ، فأقِمْ بالدَّسْكرة فيمن معك؛ حتى يأتيَك جيش الحارث بن عميرة. قاتل صالح بن مسرِّح ، ثم سِرْ إلى شبيب حتى تناجِزه [4] .

ففعل سفيان ذلك، ونزل إلى الدَّسْكرة حتى أتوْه، وخرج مرتحلا فى طلب شبيب، فارتفع شبيب عنهم ، كأنه يكره قتالهم ولقاءهم ؛ وقد أكْمَنَ لهم أخاه مَصاداً فى خمسين رجلا ، فى هَضْم [5] من الأرض ، فلما رأوْا شبيبا جمع أصحابه، ومضى فى سَفْح من الجبل

(١) اللبد : كل شعر أو صوف متلبد ، سمى به لصوق بعضه ببعض ، وجمعه لبود .

(٢) فى الطبرى بعدها : « وأصيب صالح بن مسرح يوم الثلاث لثلاث عشرة بقيت من جمادى الأولى من سنته » .

(٣) فى الطبرى بعدها : « وتخوم أرض جوخى » .

(٤ ــ ٤) الكتاب كما فى الطبرى : « أما بعد فسر حتى تنزل الدسكرة فيمن معك ، ثم أقم حتى يأتيك جيش الحارث بن عميرة الهمدانى بن ذى المشعار ، وهو الذى قتل صالح بن مسرح وخيل المناظر ، ثم سر إلى شبيب حتى تناجزه » .

(٥) الهضم : المكان المطمئن من الأرض ، وفى الطبرى : « هزم من الأرض » ، وهما بمعنى .

مشرقا ، قالوا : هرب عدو الله ، واتبعوه . فقال لهم عَدِىّ بن عميرة الشيبانىّ : أيّها الناس ؛ لاتعجّلوا عليهم حتى نَضْرِب فى الأرض ونستبرئها[١] ؛ فإن يكونوا أكمنوا كمينا حَذِرْناه ؛ وإلا كان طلبُهم بين أيدينا لن يفوتَنا . فلم يسمعوا منه ، فأسرعوا فى آثارهم .

***

فلما رأى شبيب أنّهم قد جازوا الكمين ، عطَف عليهم ، فحَمَل من أمامهم ، وخرج الكمين من ورائهم ؛ فلم يقاتل[٢] أحد ؛ وإنما كانت الهزيمةُ ، وثبت سُفيان بن أبى العالية فى مائتى رجل ؛ فقاتل[٣] قتالا شديدا حتى انتصفَ من شبيب[٣] ؛ فقال سويد بنُ سليم لأصحابه : أمِنكم أحد يعرف أميرَ القوم ابن أبى العالية[٤] ؟ فقال له شبيب : أنا مِنْ أعرف النّاس به ، أما ترى صاحبَ الفرسِ الأغرّ الذى دونه المرامية ! فإنه هو ،[٥] فإن كنتَ تريده فأمهِلْه قليلا .

ثم قال : ياقَعْنَب ، اخرُج فى عشرين ، فأتِهم من ورائهم . فخرج قَعْنَب فى عشرين فارتفع عليهم ، فلما رأوْه يريد أنْ يأتيَهم من ورائهم ، جعلوا ينتقصون ويتسلّلُون ، وحَمَل سويد بن سُلَيم على سُفيان بن أبى العالية يطاعِنُه[٦] ، فلم تصنع رماحُهما شيئا ، ثم اضطرَبا بسيفيهما ، ثم اعتنق كلٌّ واحدٍ منهما صاحبه ، فوقعا إلى الأرضِ يعترِكان ، ثم تحاجزا ، وحَمَل عليهم شبيب ؛ فانكشف مَنْ كان مع سفيان ؛ ونزل غلام له يقال له غَزْوان عن بِرْذَوْنِه ، وقال لسفيان : اركب يامولاى ، فركب سُفيان ، وأحاط به أصحابُ شبيب ، فقاتل دونه غزوان حتى قُتِل ، وكان معه رايته ، وأقبل سفيان منهزما ؛ حتى انتهى

---

(١) يقال : استبرأ أرض بنى فلان ، إذا سار فيها وانتهى إلى آخرها . وفى الطبرى : « نسير بها » .
(٢) الطبرى : « فلم يقاتلهم أحد » .
(٣ ــ ٣) الطبرى : « فقاتلهم قتالا شديدا حسنا حتى ظن أنه انتصف من شبيب وأصحابه » .
(٤) فى الطبرى بعدها : « فوالله لئن عرفته لأجهدن نفسى فى قتله » .
(٥) الطبرى : « فإنه ذلك » .
(٦) الطبرى : « فطاعنه » .

إلى بابل مَهْرُوذ ، فنزل بها ؛ وكتب إلى الحجاج(١) ، وكان الحجاجُ أمَرَ سَوْرة ابن أبجر أن يلحق بسفيان ، فكاتَبَ سورةُ سفيانَ ،وقال له : انتظِرنى ؛ فلم يفعل وعجِل نحو الخوارج ، فلما عرف الحجاج خبرَ سفيان ، وقرأ كتابه ،قال للناس : مَنْ صنع كما صنع هذا وأبلى كما أبلى فقد أحسن . ثم كتب إليه يعذره(٢) ، ويقول : إذا خَفَّ عليكَ الوَجَع فأقبِلْ مأجورا إلى أهلك . وكتب إلى سورة بن أبجر :

(٣) أما بعد يابن أمّ سورة ، فما كنتَ خليقا (٣) أن تجترئَ على تركِ عهدى ،وخذلان جُندى ، فإذا أتاكَ كتابى فابعث رجلا مِمّن معك صَليبا إلى(٤) المدائن ، فلينتخبْ من جندها خمسمائة رجل ، ثم ليقدم بهم عليك ، [ثم سِرْ بهم](٥) حتى تَلْقَى هذه المارقة ، واحزم أمركَ ، وكِدْ عَدُوّك ؛ فإنّ أفضل أمر الحروب حُسْنُ المكيدة . والسلام .

فلما أتى سَوْرةَ كتابُ الحجاج بعث عدىّ بن عمير إلى المدائن ، وكان بها ألف فارس ، فانتخب منهم خمسمائة ، ثم رحل بهم(٦) حتى قدِم على سَوْرة ببابل مَهْرُوذ ،

---

(١) كتابه إلى الحجاج كما فى الطبرى : « أما بعد ؛ فإنى أخبر الأمير أصلحه الله ! إنى اتبعت هذه المارقة حتى لحقتهم بخانقين فقاتلتهم ، فضرب الله وجوههم ونصرنا عليهم ، فبينا نحن كذلك إذ أتاهم قوم كانوا غيبا عنهم ، فحملوا على الناس فهزموهم ، فنزلت فى رجال من أهل الدين والصبر ، فقاتلتهم حتى خررت بين القتلى، فحملت مرتثا، ،فأتى بى بابل مهروذ، فها أنا بها والجند الذين وجههم الأمير وافوا إلا سورة بن أبجر ، فإنه لم يأتنى، ولم يشهد معى، حتى إذا مانزلت بابل مهروذ أتانى يقول مالا أعرف، ويتعذر بغير العذر والسلام » .

(٢) كتاب الحجاج إلى سفيان كما فى الطبرى : « أما بعد ، فقد أحسنت البلاء ، وقضيت الذى عليك ، فإذا خف عنك الوجع فأقبل مأجورا إلى أهلك . والسلام » .

(٣ ـ ٣) الطبرى : « أما بعد فيابن أم سورة ، ما كنت خليقاً أن تجترئ على » .

(٤) الطبرى : « إلى الخيل التى بالمدائن » .

(٥) من الطبرى .

(٦) عبارة الطبرى : « ثم دخل على عبد الله بن أبى عصيفير ، وهو أمير المدائن لإمارته الأولى ، فسلم عليه ، فأجازه بألف درهم ، وحمله على فرس وكساه أثوابا، ثم إنه خرج من عنده ، فأقبل بأصحابه حتى قدم بهم على سورة . . . »

نخرج بهم فى طلب شبيب ، وخرج شبيب يَجُول فى جُوخى[١] ، وسَوْرة فى طلبه، فجاء شَبيب إلى المدائن فتحصّنَ منه أهلُها فانتهب المدائن الأولى ، وأصاب دوابَّ من دوابّ الجند ، وقتل مَنْ ظَهر له ،ولم يدخل البيوت ، ثم أتى فقيل له : هذا سَوْرة قد أقبل إليك ،فخرج فى أصحابه حتى [انتهى إلى النهروان ، فنزلوا به وتوضّئوا وصلوا ، ثم][٢] أتوْا مصارع إخوانهم الذين قتلهم علىّ بن أبى طالب ،فاستغفروا لهم ،وتبرءوا من علىّ وأصحابه،وبكوْا فأطالوا البكاء ، ثم عَبَرُوا جسر النهروان ، فنزلوا جانبه الشرقىّ ، وجاء سَوْرة حتى نزل بنفطرانا[٣] وجاءته عيونه ،فأخبروه بمنزل شبيب بالنهروان ،فدعا سورة رءوس أصحابه، فقال لهم : إنّ الخوارج قَلّما يُلقَوْن فى صحراء أو على ظهرٍ إلا انتصفوا ، وقد حُـدّثت أنّهم لايزيدون على مائة رجل ؛ وقد رأيتُ أنْ أنتخِبكم، وأسير فى ثلاثمائة رجل منكم ، من أقويائـكم وشجعانـكم فأبيّتهم [٤] فإنهم آيسون من بيَاتـكم [٤] ، وإنى والله أرجو أن يصرَعهم الله مَصارع إخوانهم فى النهروان مِن قَبْل ، فقالوا : اصْنَعْ ماأحببت .

فاستعمَل على عسكره حازم بن قُدامة ، وانتخب ثلاثمائةمن شجعان أصحابه ، ثم أقبل بِهِمْ حتى قَرُب من النهروان ، وبات وقد أذْكَى الحرس ، ثم بيّتهم ؛ فلما دنا أصحاب سورةمنهم نَذِروا[٥] بهم ؛ فاستوَوْا على خيولهم، وتعبّوْا تَعْبِيَتهم ؛فلما انتهى إليهم سورة وأصحابه، أصابوهم وقد نذِرُوا ، فحمل عليهم سَوْرة ، فصاح شبيب بأصحابه، فحمل عليهم

---

(١) جوخى ، بالقصر وقد يفتح: نهر عليه كورة واسعة فى سوادبغداد ، بالجانب الشرقى منه الرذان، وهو بين خانقين وخوزستان ، قالوا : ولم يكن ببغداد مثل كورة جوخى ، كان خراجها ثمانين ألف ألف درهم ، حتى صرفت دجلة عنها فخربت ، وأصابهم بعـد ذلك طاعون شيرون فأتى عليهم ، ولم يزل السواد فى إدبار من ذلك الطاعون . مراصد الاطلاع ١ : ٣٥٥

(٢) من الطبرى .

(٣) كذا فى الأصول وفى الطبرى : « قطراثا » .

(٤ ــ ٤) الطبرى : « فآتيهم الآن فإنهم آمنون لبياتـكم » .

(٥) نذروا بهم : علموا بهم . وفى ج : «حذروا » .

حتى تركوا له العَرْصة ، وحمل شبيب ، وجعل يضرب ويقول :

* مَنْ يَنِكِ العَيْرَ يَنِكْ نَيَّا كَا[1] *

فرجع[2] سورة مفلولا ، قد هزم فرسانه وأهل القوّة من أصحابه ، وأقبل نحوَ المدائن ، وتَبِعه شبيب ؛ حتى انتهى سورة إلى بيوت المدائن ؛ وانتهى شَبيب إليهم ، وقد دخل الناس البيوتَ ، وخرج ابن أبى عصيفير ؛ وهو أمير المدائن يومئذ فى جماعة ، فلقيَهم فى شوارع المدائن ، ورماهم النَّاسُ بالنبل والحجارة من فوق البيوت .

ثم سار شبيب إلى تَكْرِيت[2] ، فبينا ذلك الجند بالمدائن إذ أرْجَفَ[3] الناس فقالوا : هذا شبيب قد أقبلَ يريد أن يبيِّت أهل المدائن ، فارتحل عامّةُ الجند ، فلحقوا بالكوفة ،[4] وإنّ شبيبا بتَكْرِيت ، فلما أتى الحجاج[5] الخبرُ ، قال : قبح الله سَوْرة ! ضيّع العسكرَ وخرج يُبَيِّت الخوارج ؛ والله لأسوءنّه[6] .

---

(١) بقيته فى الطبرى :

* جَنْدَلَتَانِ اصْطَكَّتَا اصْطِكَاكَا *

(٢ ـ ٢) الطبرى : « فرجع سورة إلى عسكره ، وقد هزم الفرسان وأهل القوة ، فتحمل بهم حتى أقبل بهم نحو المدائن ، فدفع إليهم وقد تحمل وتعدى الطريق الذى فيه شبيب ، واتبعه شبيب ، وهو يرجو أن يلحقه فيصيب عسكره ، ويصيب بهزيمته أهل العسكر ؛ فأغذ السير فى طلبهم ، فانتهوا إلى المدائن فدخلوها ، وجاء شبيب حتى انتهى إلى بيوت المدائن فدفع إليهم وقد دخل النـاس ، وخرج ابن أبى عصيفير فى أهل المدائن ، فرماهم بالنبل ورموا من فوق البيوت بالحجارة ، فارتفع شبيب بأصحابه عن المدائن ، فمر على كلوذا فأصاب بها دواب كثيرة للحجاج ، فأخذها ، ثم أخذ يسير فى أرض جوخى ثم مضى نحو تكريت ... » .

(٣) أرجف القوم ، أى خاضوا فى الأخبار السيئة ، وذكر الفتن ، على أن يوقعوا فى الناس الاضطراب من غير أن يصح عندهم شىء ، وفى القرآن الكريم : ﴿ وَالْمُرْجِفُونَ فى المدينةِ ﴾ .

(٤) فى الطبرى عن عبد الله بن علقمة الخثعمى : « والله لقد هربوا من المدائن ، وقالوا : نبيت الليلة ، وإن شبيبا لبتكريت ، ولما أتى الفل على الحجاج ، سرح الجزل بن سعيد بن شرحبيل بن عمرو الكندى »

(٥) فى الطبرى : « عن فضيل بن خديج الكندى : أن الحجاج لما أتاه الفل قال . . . »

(٦) فى الطبرى : « وكان قد حبسه ثم عفا عنه » .

ثم دعا الحجاج بالجَزْل ؛ وهو عثمان بن سعيد ، فقال له : تيسّر للخروج إلى هذه المارقة ، فإذا لقيتَهم فلاتعجل عَجَلةَ الخرِق النَّزِق[1] ، ولا تحجم إحجام الوانى الفَرِق[2] ، أفهمت[3] ؟قال : نعم أصلح الله الأمير قد فهمت ؛قال : فاخرج وعَسْكِرْ بدَيْرِ عبدالرحمن حتى يخرج الناس إليك ، فقال : أصلحَ الله الأمير ! لا تبعثْ معى أحداً من الُجند المهزوم المفلول ، فإنّ الرعبَ قد دخل قلوبَهم ، وقد خشيت ألّا ينفعك والمسلمين منهم أحدٌ ، قال : ذلك لك ؛ ولا أراك إلا قد أحسنْتَ الرأى ، ووُفِّقت ؛ ثم دعا أصحابَ الدواوين ، فقال ؛ اضربوا عَلَى النّاسِ البعث ، وأخرجوا أربعةَ آلاف من الناس ،وعجّلوا،فجمعت العُرَفاء ، وجلس أصحابُ الدواوين ، وضَرَبوا البعث ، فأخرجوا أربعة آلاف ، فأمرهم باللّحاق بالعسكر ؛ ثم نودى فيهم بالرحيل ؛ فارتحلوا ، ونادى منادى الحجاج : أنْ بَرِئت الذمّة مِنْ رجل أصبْناه من بعث الَجزْل متخلِّفًا .

فمضى بهم الَجزْل ، [وقد قدّم بين يديه عياض بن أبى لينة الكِندىّ على مقدمته فخرج][4] ؛ حتى أتى المدائن ، فأقام بها ثلاثًا ؛ ثم خرج وبعث إليه ابن أبى عصيفير بفرَس وبِرْذَوْن وألفى درهم ،ووضع للناس من الحطب[5] والعلَف ما كفاهم ثلاثة أيام ، وأصاب الناس ماشاءوا من ذلك .

* * *

ثم إنّ الجزل خرج بالناس إثرَ شبيب ، فطلبه فى أرض جُوخَى ، فجعل شبيب يُرِيه الهيبة ، فيخرج من رُسْتَاق إلى رُسْتاق ، ومن طَسُّوج إلى طَسُّوج [ولا يقيم له][4] ،

---

(١) الخرق : الرجل الأحمق ، والنزق : الطائش الخفيف عند الغضب .
(٢) الفرق : الشديد الفزع .
(٣) فى الطبرى بعدها : « لله أنت ياأخا بنى عمرو بن معاوية » .
(٤) من الطبرى .
(٥) الطبرى : « الجزر » .

يريد بذلك أن يفرّق الجزْل أصحابَه ،ويتعجّل إليه فيَلْقاه فى عَدَدٍ يسير على غيرِ تعبية؛ فجعل الجزْل لا يسير إلّا على تَعْبِيَة ؛ ولا ينزل إلا خَنْدَق على نفسه وأصحابه ؛ فلما طال ذلك على شبيب ، دعا يوما أصحابه ، وهم مائة وستون رجلا ، هو فى أربعين ، ومصاد أخوه فى أربعين ، وسويد بن سليم فى أرْبعين ، والمحلّل بن وائل فى أربعين ، وقد أتته عيونه [فأخبرته][1]، أنّ الجزْل بن سعيد قد نزل ببئر سعيد[2] . فقال لأخيه وللأمراء الذين ذكرناهم : إنى أريد أن أبيِّت الليلة هـذا العسكر ، فأْتِهم أنت يامصاد من قِبَل حُلْوان[3] ، وسآتيهم أنا من أمامهم من قِبَل الكوفة ، وأْتِهمْ أنت ياسُوَيْد من قِبَلِ المشرق ، وأْتِهمْ أنت يامحلّل ، من قِبل المغرب ، ولْيَلِجْ كلُّ امرئ منكم على الجانب الذى يحمل عليه ، ولا تقلعوا عنهم حتى يأتيَكم أمرى .

قال فروة بن لقيط[4] : وكنتُ أنا فى الأربعين الذين كانوا معه[5] ، فقال لجماعتنا : تيسَّرُوا ، وليسِرْ كلُّ امرئٍ منكم مع أميره ، ولْيَنْظُر مايأمره به أميره فليتبعْه ، فلما قضمت دوابّنا ـ وذلك أول ماهدأت العيون ـ خرجنا حتى انتهينا إلى دير الخرارة ، فإذا القوم عليهم مَسْلحة بن أبى لينة ، فما هو إلا أن رآهم مصاد أخو شَبيب حتى حمل عليهم فى أربعين رجلا ؛ وكان شبيب أراد أن يرتفع عليهم حتى يأتيهم من ورائهم ، كما أمره[5] .

---

(١) من الطبرى .

(٢) الطبرى : « بدير يزدجرد » .

(٣) تطلق حلوان على عدة مواضع ، وهى هنا حلوان العراق ، آخر حدود السواد مما يلى العراق ، كانت مدينة عامرة لم يكن بالعراق بعدالبصرة والكوفة ، وواسط بغداد أكبر منها . (مراصدالاطلاع).

(٤) هو راوى الخبر فى الطبرى ، حدثه به عنه أبو مخنف .

(٥ ــ ٥) النص كما فى الطبرى : « حتى إذا قضمت دوابنا ، وذلك أول الليل ، أول ماهدأت العيون، خرجنا حتى انتهينا إلى دير الخرارة ، فإذا للقوم مسلحة ، عليهم عياض بن لينة ، فما هو إلا أن انتهينا إليهم، فحمل عليهم مصاد أخو شبيب فى أربعين رجلا ــ وكان أمام شبيب ــ وقد كان أراد أن يسبق شبيبا حتى يرتفع عليهم ويأتيهم من ورائه كما أمره » .

فلما لَقِىَ هؤلاء قاتلهم ، فصبروا له ساعة وقاتلوه . ثم إنّا دفعنا إليهم جميعا ، فهزمناهم ، وأخذوا الطريق الأعظم ، وليس بينهم وبين عسكرهم بدير يزدَجِرد إلا نحو ميل[1] ، فقال لنا شبيب : اركبوا معاشر المسلمين أكتافهم ؛ حتى تدخلوا معهم عسكرهم إن استطعتم ، فأتبعناهم ملظّين[2] بهم ، ملحّين عليهم ، ما نُرَفِّهُ عنهم وهم منهزمون ، ما لهم همّة إلا عسكرهم .

فنعهم أصحابهم أن يدخلوا عليهم ، وَرَشَقُوهم[3] بالنَّبْل ، وكانت لهم عيون قد أتتهم فأخبرتهم بمكاننا ، وكان الجزل قد خَنْدَق عليهم وتحرّز ، ووضع هذه المسلحة الذين لقيناهم [بدير الخرّارة][4] ، ووضع مسلحة أخرى مما يلي حُلوان .

فلما اجتمعت المسالح ، ورشقوهم بالنبل ، ومنعونا من خَنْدَقهم ، رأى[5] شبيب أنّه لا يصلُ إليهم ، فقال لأصحابه : سيروا ودعوهم ، فلما سار عنهم أَخَذَ على طريق حُلوان ؛ حتى كان منهم على سبعة أميال ، قال لأصحابه : انزلوا فأقضموا دوابّكم ، وقيلوا وتروّحوا ، فصلوا ركعتين ، ثم اركبوا . ففعلوا ذلك . ثم أقبل بهم راجعاً إلى عسكر الكوفة ، وقال : سيروا على تعبيتكم التى التى عبّأتكم عليها أوّل الليل ، وأطيفوا[6] بعسكرهم كما أمرتكم . فأقبلنا[7] معه ، وقد أدخلَ أهلُ العسكر مسالحهم إليهم ، وأمِنُوا ، فما شعروا حتى سَمِعُوا وقع حوافر الخيل ، فانتهينا إليهم قبيل الصبح ، وأحطْنا بعسكرهم ، وصحنا بهم من كل ناحية ، فقاتلونا ، ورمونا بالنَّبْل ؛ فقال شبيب[8] لأخيه مصاد ، وكان يقاتلهم من الجانب

---

(١) الطبرى : « قريب من ميل » .
(٢) ملظين : ملحين .
(٣) الطبرى : « ورشقونا » .
(٤) من الطبرى .
(٥) الطبرى : « ثم أطيفوا بعسكرهم » .
(٦) فى الأصول : « نطر » ، والأجود ما أثبته من تاريخ الطبرى .
(٧) الطبرى : « فأقبلوا » .
(٨) الطبرى : « ثم أن شبيبا » .

الذى يلى الـكوفة : خَلِّ لهم سبيل [طريق] [١] الـكوفة ، فخلى لهم ، وقاتلناهم من [تلك] [١] الوجوه الثلاثة الأخرى إلى الصبح [٢] ، ثم سرنا وتركناهم ، لأنا لم نظفرْ بهم ، فلما سار شبيب سار الجزل فى أثره يطلبه ، وجعل لا يسيرُ إلا على تعبية وترتيب ، ولا ينزل إلا على خندق ؛ وأما شبيب فضرب فى أرض جُوخَى ، وترك الجزل ، فطال أمرُه على الحجاج ، فـكتب إلى الجزل كتاباً قرِئ على الناس وهو :

أما بعد ، فإنى بعثتك فى فرسان [أهل] [١] المِصْر ووجوه الناس ، وأمرتك باتّباع هذه [٣] المارقة ، وألّا تقلع عنها حتى تقتلها وتفنيها [٣] ؛ فجماتَ [٤] التعْرِيس فى القُرى ، والتخييم فى الخنادق ، أهونَ عليك من المضىّ لمناهضتهم ومناجزتهم . [والسلام] [٥] .

قال : فشقّ كتابُ الحجاج على الجزْل ، وأرجف الناس بأمره ؛ وقالوا : سيعزله ، فما لَبِث الناس أنْ بعث الحجاج سعيد بن المجالد أميرا بدله ، وعَهِد إليه : إذا لقى المـارقة أن يزحف إليهم ، ولا يناظرهم ، ولا يطاولهم ، ولا يصنع صُنْع الجزل [٦] ، وكان الجزل يومئذ قد انتهى فى طلب شبيب إلى النّهروان ، وقد لزم عسكره ، وخندق عليهم ؛ فجاء سعيد حتى دخلَ عسكرَ أهل الـكوفة أميراً ، فقام فيهم خطيبا ، فحمِدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا أهلَ الـكوفة ، إنـكم قد عجزتم وَوَهَنْتم ، وأغضبْتم عليكم أميرَكم ، أنتم فى طلب هذه الأعاريب العُجْف منذ شهرين ، قد أخربوا بلادكم ، وكسروا خراجـكم ؛ وأنتم

(١) من الطبرى .
(٢) الطبرى : « حتى أصبحنا » .
(٣ ـ ٣) الطبرى : « المارقة الضالة المضلة ؛ حتى تلقاها فلا تقلع عنها حتى تقتلها وتفنيها » .
(٤) الطبرى : « فوجدت » .
(٥) فى الطبرى ، بعدها : « فقرئ الـكتاب علينا ، ونحن بقطرثا ودير أبى مريم » .
(٦) بعدها فى الطبرى : « واطلبهم طلب السبع ، وحد عنهم حيدان الضبع » .

حَذِرون فى جوف هذه الخنادق لا تُزايلونها إلّا أن يبلغكم أنّهم قد ارتحلوا عنكم ، ونزلوا بلداً سوى بلدكم ؛ اخرجوا على اسم الله إليهم .

ثم خرج وخرج الناس معه[١] ، فقال له الجزْل : ماتريد أن تصنع ؟ قال : أقدمُ على شبيب وأصحابه فى هذه الخيل ؛ فقال له الجزل : أقِمْ أنت فى جماعة الناس[٢] ، فارسهم وراجلهم[٣] ؛ ولا تفرّق أصحابك ، ودعنى أُصْحِرُ له[٤] ؛ فإن ذلك خيرٌ لك وَشرٌّ لهم[٣] . فقال سعيد : بل تَقِفُ أنت فى الصفّ ، وأنا أُصْحِرُ له ، فقال الجزل : إنى برئ من رأيك هذا ؛ سمع الله ومَنْ حضر من المسلمين ! فقال سعيد : هو رأيى ؛ إن أصبتُ فيه ، فالله وَفّقنى ، وإن أخطأتُ[٥] فيه فأنتم برآء .

فوقف الجزل فى صَفّ [أهل][٦] الكوفة ، وقد [أخرجهم من الخندق و][٦] جعل على ميمنتهم عياض بن أبى لينةَ الكِندىّ ، وعلى ميسرتهم عبد الرحمن بن عوف أبا حُميد الراسبىّ[٧] ؛ ووقف الجزْل فى جماعتهم ، واستقدم سعيد بن مجالد فخرج [وأخرج][٦] الناس معه ؛ وقد أخذ شبيب إلى بَرَاز الروز[٨] ، فنزل قَطُفْتَا[٩] ، وأمر دِهقانها أن يشوىَ لهم غنما ، ويعدّ لهم غداء ففعل ، وأغلق مدينة قَطُفْتا ، ولم يفرغ

---

(١) فى الطبرى بعدها : « وجمع إليه خيول أهل العسكر » .
(٢) الطبرى : « الجيش » .
(٣ – ٣) عبارة الطبرى : « وأصحر له ، فوالله ليتقدمن عليك ؛ فلا تفرق أصحابك ؛ فإن ذلك شر لهم وخير لك » .
(٤) أصحر القوم ؛ إذا برزوا فى الصحراء ؛ لايواريهم شيء .
(٥) الطبرى : « وإن يكن غير صواب » .
(٦) من الطبرى .
(٧) فى الأصول : « وأبا حميد » ، والصواب ماأثبته من الطبرى .
(٨) براز الروز ، بالزاى ، وألف ولام وراء مضمومة : من طساسيج السواد ببغداد ؛ من الجانب الشرقى من أستان البهقباذ ، كان للمعتضد به أبنية جليلة . (مراصد الاطلاع) .
(٩) قطفتا : محلة غربى بغداد .

الدِّهقان من طَعامه حتى أحاط بها ابن مجالد ، فصعِد الدِّهقان ، ثم نزل ، وقد تغيَّر لونه ، فقال شبيب : ما بالك ؟ قال : قد جاءك جمع عظيم ، قال : أَبَلَغ[1] شواؤك ؟ قال : لا ، قال : دَعْهُ يبلغ ، ثم أشرف الدِّهقان إشرافة أخرى ، ثم نزل فقال : قد أحاطوا بالجوْسق ، قال : هات شواءك ؛ فجعل يأكل غير مكترِث بهم ولا فَزِع ، فلما فرَغ قال لأصحابه : قوموا إلى الصلاة ، وقام فتوضأ ، فصلى بأصحابه صلاة الأولى ، ولبس درعه ، وتقلّد سيفه ، وأخذ عموده الحديد ، ثم قال : أسرِجُوا لى بغلتى ، فقال أخوه : أفى مثل هذا اليوم تركب[2] بغلة ؟ قال: نعم ، أسْرِجوها ، فركبها ، ثم قال : يافلان ، أنت على الميمنة ، وأنت يا فلان على الميسرة ، وأنت يا مَصاد - يعنى أخاه - على القلب ، وأمر الدِّهقان ففتح الباب فى وجوههم .

فخرج إليهم وهو يحكِّم[3] ، وحمل حملة عظيمة ، فجعل سعيد وأصحابه يرجعون القهقرى ، حتى صار بينهم وبين الدَّيْر ميل ، وشبيب يصيح : أتاكم الموت الزؤام ! فاثبتوا ، وسعيد يَصيح : يامعشر هَمْدان ، إلىّ إلىّ ، أناابن ذى مرّان ! فقال شبيب لمصاد : وَيْحَكَ ! استعرضهم استعراضا ؛ فإنهم قد تقطّعوا ، وإنى حامل على أميرهم ، وأثكَلَنيكَ الله إن لم أُثْكِلْه ولده ؛ ثم حمل على سعيد فعلاه بالعمود ؛ فسقط[4] ميّتا وانهزم أصحابه ، ولم يقتل يومئذ من الخوارج إلا رجل واحد .

وانتهى قتلُ سعيد إلى الجزْل ، فناداهم : أيها الناس ، إلىّ إلىّ ؛ وصاح عياض ابن أبى لينة : أيها الناس ، إن يكن أميركم هذا القادم هَلك ، فهذا أميركم الميمون النقيبة ، أقبلوا إليه ؛ فنهم مَنْ أقبل إليه ، ومنهم مَنْ ركب فرسه منهزما ، وقاتل الجزْل يومئذ قتالا شديدا حتى صُرع ، وحامى عنه خالد بن نَهيك ، وعياض بن أبى لينة ؛ حتى استنقذاه

(١) الطبرى : « أبلغ الشواء » وبلوغ الشواء : نضجه .
(٢) الطبرى : « تسرج » .
(٣) التحكيم : قول الخوارج : « لاحكم إلا لله » .
(٤) فى الأصول : « ثم سقط » ، والأجود ما أثبته من الطبرى .

مرتثًا ، وأقبل النــاس منهزمين حتى دخلوا الـكوفة ، وأتى بالجزْل جريحا حتى دخل المدائن ، فـكتب إلى الحجاج :

أما بعد ؛ فإنى أخبر الأمير ـ أصلحه الله ـ أنى خرَجتُ فيمن قِبَلى من الجند الذى وَجَّهنى فيه إلى عدوّه ، وقد كنتُ حفظتُ عهدَ الأمير إلىّ فيهم ورأيه ؛ فـكنت أخرجُ إلى المارقين[1] إذا رأيت الفرصة ، وأحبس [الناس][2] عنهم إذا خشيت الورْطـة ، فلم أزل كذلك أديرُ الأمر ، وأرفقُ فى التدبير ؛ وقد أرادنى العدوّ بكل مكيدة ، فلم يُصِبْ منى غِرّة ، حتى قدم علىّ سعيد بن مجالد ، فأمرتُه بالتؤدة ، ونهيته عن العَجَلة ، وأمرته ألّا يقاتلهم إلا فى جماعة النــاس عامّة ، فعصانى وتعجَّل إليهم فى الخيل ، فأشهدْتُ الله عليه وأهلَ المِصْرَيْن أنّى برِىء من رأيه الذى رأى ، وأنّى لا أهوَى الذى صنع ، فمضى فقُتِل ، تجاوز الله عنه ! ودَفَع[3] الناس [إلىّ][2] فنزلت ودعوتُهم إلى نفسى[4] ورفعتُ رايتى ، وقاتلت حتى صُرِعت ، فحملنى أصحــابى من بين القتلى ، فـا أفقت إلّا وأنا عَلَى أيديهم ؛ عَلَى رأس ميلٍ من المعركة ، وأنا اليوم بالمـدائن ، وفىّ جِراحات[5] قد يموتُ الإنسان من دونها ؛ وقد يعافَى من مثلها ؛ فليسأل الأميرُ أصلحَه الله عَنْ نصيحتى له ولجنده ، وعن مكايدتى عدوّه ، وعن موقفى يوم البــأس ؛ فإنه سيبين[6] له عند ذلك أنّى صدقتُه ونصحت له . والسلام .

فـكتب إليه الحجّاج :

---

(١) الطبرى : « إليهم » .

(٢) من الطبرى

(٣) دفع الناس ، أى جاءوا مرة مجتمعين .

(٤) الطبرى : « ودعوتهم إلى » .

(٥) الطبرى : « جراحة » .

(٦) الطبرى : « يستبين » .

أما بعد ، فقد أتانى كتابُك وقرأته ، (١) وفهمت كلّ ماذكرتَه فيه من أمر سَعِيدوأمر نفسِك ، وقدصدّقْتُك فى نصيحتك لأميرك وحَيْطتك على أهل مِصْرك، وشدّتك عَلَى عدُوّك ، وقد رضيتُ عَجلةَ سعيد وتؤدّتك (١). فأما عجلتُه فإنها أفضَتْ به إلى الجنة ، وأما تؤدتك (٢) فإنها ما لم تدع الفرصة إذا أمكنت حزم (٢) ؛ وقد أحسنت وأصبت وأجرت ، وأنتَ عندِى من أهل السمع والطاعة والنصيحة ؛ وقد أشخصتُ إليك حيّان بن أبجر (٣) الطبيب ليداوِيَك ، ويعالج جراحاتك ؛ وقد بعثتُ إليك بألفَىْ درهم نفقةً تصرفهـا فى حاجتك وما ينوبك (٤) . والسلام .

وبعث عبد الله بن أبى عصيفر والى المـدائن إلى الجَزْل بألف درهم ؛ وكان يعوده ويتعاهَدُه بالألطاف والهدايا .

وأما شبيب ، فأقبل حتى قَطَع دِجْلة عند الـكَرْخ ، وأخذ بأصحابه نحو الـكوفة .

وبلغ الحجّاج مكانُه بحمّام أعين ؛ فبعث إليـه سويد بن عبد الرحمن السعدىّ ، فجهزه بألفَىْ فارس منتخَبين ، وقال له : اخرُج إلى شبيب فالْقَه ولا تَتْبعه ؛ فخرج بالنـاس بالسَّبَخة (٥) ؛ وبلغه أنّ شبيبا قد أقبل ، فسار نحوه كأنما يُساق إلى الموت هو وأصحابه، وأمر الحجّاج عثمان بن قَطَن ، فعسكر بالنـاس فى السَّبَخة ، ونادى : ألا برِئت الذِّمّةُ من رجل من هذا الجند ، بات الليلة بالـكوفة ؛ ولم يخرج إلى عثمان بن قَطَن بالسَّبَخة ، فبينا سويد بن عبد الرحمن يسيرُ فى الألفين الذين معه ؛ وهو يعبّيهم ويحرّضهم ؛ إذْ قيل له :

(١ـ١) الطبرى : « وفهمت كل ماذكرت فيه ، وقد صدقتك فى كل ماوصفت به نفسك من نصيحتك لأميرك وحيطتك على أهل مصرك وشدتك على عدوك ، وقد فهمت ماذكرت من أمر سعيـد وعجلته إلى عدوه وتؤدتك . »

(٢ ـ ٢) الطبرى : « فإنها لم تدع الفرصة إذا أمكنت ، وترك الفرصة إذا لم تمـكن حزم » .

(٣) ب : « جبار بن الأعز » .

(٤) فى الطبرى بعـدها : « فقدم عليـه حيان بن أبجر الـكنانى ، من بنى فراس ؛ وهم يعالجون الـكى وغيره ، فـكان يداويه » .

(٥) السبخة : موضع بالبصرة .

قد غشيَكَ شبيب؛ فنزل ونزل معه جُلّ أصحابه ، وقدّم رايته ؛ فأخبر أنّ شبيبا لما علم بمكانه تركه ، ووجد مخاضةً(١) فعبر الفرات ؛ يريد الكوفة من غير الوجه الذى سويد ابن عبد الرحمن به ، ثم قيل : أما تراهم ! فنادى فى أصحابه ، فركبوا فى آثارهم ، فأتى شبيب دارَ الرزق فنزلها ، وقيل له : إنّ أهلَ الكوفة بأجمعهم معسكرون ، فلما بلغهم مكانُ شبيب ، ماجَ الناس بعضُهم إلى بعض ، وجالوا وهَمّوا بدخول الكوفة ، حتى قيل: هذا سويد بن عبد الرحمن فى آثارهم قد لحقهم ؛ وهو يقاتلهم فى الخيل ، ومضى شبيب حتى أخذَ عَلَى شاطئ الفرات ، ثم أخذ عَلَى الأنبار ، ثم دخل دَقُوقَاء(٢) ، ثم ارتفع إلى أدانى أذرَبيجان .

وخرج الحجاجُ من الكوفة إلى البصرة حيث بَعُدَ شبيب ، واستخلف على الكوفة عُرْوة بن المغيرة بن شعبة ، فما شعر الناس إلا بكتاب [من](٣) مادارست(٤) ، دِهْقان بابل مهروز إلى عروة بن المغيرة بن شعبة ، أنّ تاجراً من تجار [الأنبار من](٣) أهل بلادى

---

(١) المخاضة : موضع الخوض فى الماء .

(٢) دقوقاء ، بفتح أوله وضم ثانيه وبعد الواو قاف أخرى وألف ممدودة ومقصورة : مدينة بين إربل وبغداد معروفة ؛ قال ياقوت : لها ذكر فى الأخبار والفتوح ، كان بها وقعة للخوارج فقال الجعدى بن أبى حمام الذهلى يرثيهم :

شَبَابٌ أَطَاعُوا اللهَ حَتى أحبَّهُمْ ... وَكُلُّهُمْ شَارٍ يَخَافُ وَيَطْمَعُ
فَلَمَّا تَبَوَّؤا من دَقُوقَا بِمَنْزِلٍ ... لميعَادِ إِخْوَانٍ تَدَاعَوْا فَأَجْمَعُوا
دَعَوْا خَصْمَهُمْ بالمحكمات وبَيَّنُوا ... ضلالتَهُمْ ، واللهُ ذُو الْعَرْشِ يَسْمَعُ
بِنَفْسِيَ قَتْلَى فى دَقُوقَاء غُودِرَتْ ... وَقَدْ قُطِعَتْ مِنْهَا رُءُوسٌ وَأَذْرُعُ
لِتَبْكِ نِسَاءُ المسلمينَ عليهمُ ... وَفِى دُونِ مالاَقَيْنَ مَبْكًى وَمَجْزَعُ

(٣) من الطبرى .

(٤) الطبرى : « ماذ رواسب » .

أتانى يذكر أن شبيباً يريد أن يدخل الكوفة فى أول هـذا الشهر المستقبل ، وأحببت إعلامك [ذلك][(١)] لترى رأيك ؛ [(٢)] وإنى لم ألبث بعد ذلك إذ جاءنى اثنان من جيرانى [(٢)] فحدّثانى أنّ شبيبا قد نزل خانيجار[(٣)] .

فأخذ عروة كتابه فأدرجه وسرّح به إلى الحجاج إلى البصرة. فلما قرأ الحجاج أقبل جادًّا [(٤)] إلى الكوفة ، وأقبل شبيب [يسير] [(١)] حتى انتهى إلى قرية حَرْبَى[(٥)] على شاطئ دجلة ، فعبرها وقال[(٦)] لأصحابه : يا هؤلاء ، إنّ الحجّاج ليس بالكوفة، وليس دون أخذها شىء إن شاء الله . فسيروا بنا ، فخرج يُبادر الحجاج إلى الكوفة ، وكتب عروة إلى الحجاج : إن شبيبا قد أقبل مسرعاً يريد الكوفة ، فالعجلَ العجلَ .

فطوَى الحجاج المنازلَ مسابقا[(٧)] لشبيب إلى الكوفة، فسبقه و نزلها صلاة العصر، ونزل شبيب السَّبَخة صلاة العشاء الآخرة ، فأصاب هو وأصحابه من الطعام شيئا يسيرا ، ثم ركبوا خيولهم ، فدخل شبيب الكوفة فى أصحابه حتى انتهى إلى السوق ، وشدّ حتى ضرب باب القصر بعموده ، فحدّث جماعة[(٨)] أنهم رأوا أثر ضربة شبيب بالعمود بباب القصر ، ثم أقبل حتى وقف عند باب المصطبة ، وأنشد :

---

(١) من الطبرى

(٢ — ٢) الطبرى : « ثم لم ألبث إلا ساعة حتى جاءنى جابيان من جباتى » .

(٣) خانيجار : بليدة قريبة من دقوقاء .

(٤) الطبرى : « جوادا » .

(٥) قال ياقوت : « حربى مقصور ، والعامة تتلفظ به ممالا : بليدة فى أقصى دجيل ، بين بغداد وتكريت مقابل الحظيرة » . .

(٦) فى الطبرى بعدها : « فقال : ما اسم هذه القرية ؟ فقالوا : حربى ، فقال : حرب يصلى بها عدوكم، وحرب (بالفتح) تدخلونه بيوتهم ؛ إنما يتطير من يقوف ويعيف . ثم ضرب رايته ، وقال لأصحابه : سيروا ، فأقبل حتى نزل عقرقوفا ، فقال له سويد بن سليم : يا أمير المؤمنين ؛ لو تحولت بنا من هذه القرية المشئومة الاسم ؟ قال : وقد تطيرت أيضاً ! والله لا أتحول عنها حتى أسير إلى عدوى منها ؛ إنما شؤمها إن شاء الله على عدوكم ، تحملون عليهم فيها فالعقر لهم » .

(٧) « واستبقا إلى الكوفة » .

(٨) الطبرى : « قال أبو المنذر ؛ رأيت ضربة شبيب . . . »

وَكَأَنَّ حَافِرَها بكلِّ ثَنيَّةٍ فَرَقٌ يَكيلُ بِهِ شَحِيحٌ مُعْدِمُ[١]

[٢] ثم أقحم هو وأصحابه المسجد الجامع ، ولا يفارقه قومٌ يصلّون[٢] فيه ، فقتل منهم جماعة، ومرّ هو بدار حَوْشب — وكان هو على شُرْطة الحجاج — فوقف على بابه فى جماعة ، فقالوا: إنّ الأمير — يعنون الحجاج — يدعو حوشبا، وقد أخرج ميمون غلامه برْذَونه ليركب ، [فكأنه أنكرهم ، فظنوا أنه قد اتّهمهم] [٣] فأراد أن يدخل إلى صاحبه ، فقالوا له: كما أنت حتى يخرج صاحبُك إليك، فسمع حوشب الكلام ، فأنكر القوم، وذهب لينصرف فعجِلوا نحوه ، فأغلق الباب دونه ، فقتلوا غلامه ميمونا ، وأخذوا برْذَونه ، ومضوا حتى مرُّوا بالجحّاف بن نبيْط الشيبانىّ، من رهط حَوْشب. فقال له سويد : انزل إلينا ، فقال : ما تصنع بنزولى! فقال : انزل، إنى لم أقضِك ثمن البَكْرة التى ابتعتُها منك بالبادية ، فقال الجحّاف : بئس ساعة القضاء هذه ! وبئس المكان لقضاء الدَّيْن هذا . ويحك ! أماذكرت أداء أمانتك إلا والليل مظلم ، وأنت على مَتْن فرسك ! قبح الله ياسُوَيد دينًا لا يصلُح ولا يتمّ إلا بقتل الأنفس[٤] وسَفْك الدماء . ثم مَرُّوا بمسجد بنى ذُهْل، فلقُوا ذُهل بن الحارث، وكان يصلّى فى مسجد قومه ، فيطيل الصلاة إلى الليل، فصادفوه منصرفا إلى منزله فقتلوه[٥] ثم خرجوا متوجّهين نحو الردمة[٦]؛ وأمر الحجاج المنادى : يا خيل الله اركبى وأبشرى، وهو فوق باب القصر ؛ وهناك[٧] مصباح مع غلام له قائم .

---

(١) الفرق : مكيال يسع ثلاثة آصع ، أو ستة عشر رطلا . وفى الطبرى : « كيل يكيل به » ؛ وبعده :

عَبْدٌ دَعِيٌّ مِنْ ثَمُودِ أَصْلُهُ لَا بَلْ يُقَالُ أبو أبيهمْ يَقْدُمُ

(٢ — ٢) الطبرى : « ثم اقتحموا المسجد الأعظم ؛ وكان لايفارقه قوم يصلون فيه » .

(٣) من الطبرى .

(٤) الطبرى : « بقتل ذوى القرابة وسفك دماء هذه الأمة » .

(٥) فى الطبرى : « فشدوا عليه ليقتلوه ؛ فقال : اللهم إنى أشكو إليك هؤلاء وظلمهم وجهلهم ؛ اللهم إنى عنهم ضعيف فانتصر لى منهم ؛ فضربوه حتى قتلوه » .

(٦) الطبرى : « المردمة » . (٧) الطبرى : « وثم » .

وكان أوّل مَنْ جاء من النّاس عثمان بن قَطَن ، ومعه مواليه وناس من أهله ، وقال : أعلموا الأميرَ مكانى ، أنا عثمان بن قَطَن ، فليأمرنى بأمره . فناداه الغلام صاحب المصباح : قِفْ مكانك حتى يأتيَك أمرُ الأمير ، وجاء الناس من كلّ جانب ، وبات عثمان مكانَه فيمن اجتمع إليه من الناس ؛ حتى أصبح .

وقد كان عبدُ الملك بن مَرْوان بعثَ محمد بن موسى بن طلحة على سِجِسْتانَ ، وكتب له عهدَه عليها ، وكتب إلى الحجاج: إذا قدِم عليك محمد بن موسى الكوفة ، فجهِّز معه ألفَىْ رجل ، وعجِّل سَرَاحَه إلى سِجِسْتَان .

فلما قدم الكوفة ، جعل يتجهّز[1] ؛ فقال له أصحابه ونصحاؤه : تعجَّل أيها الرجل إلى عَمَلك ، فإنك لا تدرى ما يحدث ، وعرض أمرُ شبيب حينئذ ودخولُه الكوفة ، فقيل للحجاج : إنّ محمد بن موسى إن سار إلى سجستان مع نجدته وصِهْره لأمير المؤمنين عبد الملك ، فلجأ إليه أحدٌ ممن تطلبه ، منعك منه. قال : فما الحيلة ؟ قالوا : أنْ تذكُر له أنّ شبيبا فى طريقه وقد أعياك ، وأنك ترجو أن يريح اللهُ منه على يده ، فيكون له ذكر ذلك وشهرته .

فكتب إليه الحجاج : إنّك عامل على كل بلد مررت به ، وهذا شبيب فى طريقك تجاهده ومَن معه ، ولك أجره وذكره وصيته ، ثم تمضى إلى عملك ؛ فاستجاب له .

وبعث الحجاج بشر بن غالب الأسدىّ فى ألفَىْ رجل ، وزياد بن قدامة فى ألفين ، وأبا الضّرِيس مولى تميم فى ألفٍ من الموالى ، وأعين صاحب حمام أعين مولًى لبشر بن مروان فى ألف ، وجماعة غيرهم ؛ فاجتمعتْ تلك الأمراء فى أسفل الفرات ، وترك شبيب الوجهَ الذى فيه جماعة هؤلاء القوّاد ، وأخذ نحو القادسيّة ، فوجه الحجاج زَحْر بن قيس

---

(١) الطبرى : « جعل يتحبس فى الجهاز » ، والتحبس : التوقف والتباطؤ .

فى جَريدة خيل ، نُقاوة[١] ، عدّتها ألف وثمانمائة فارس ، وقال له : اتبع شبيبا حتى تواقعه حيثما أدركته ؛ فخرج زحْر بن قيس حتى انتهى إلى السَّيْلَحِين[٢] ، وبلغ شبيبا مسيرُه إليه فأقبل نحوه ، فالتقيا ، وقد جعل زحْر على ميمنته عبد الله بن كنّاز ، وكان شجاعا ، وعلى ميسرته عدىّ بن عدىّ بن عُميرة الكندىّ ، وجمع شبيب خيله كلها كبْكبة[٣] واحدة ، ثم اعترض بها الصفّ يُوجِف[٤] وجيفا ، حتى انتهى إلى زحْر بن قيس ، فنزل زَحْر ، فقاتل حتى صُرِع وانهزم أصحابه ، وظن أنه قد قتل .

فلما كان الليل وأصابه البرد ؛ قام يمشى حتى دخل قرية ، فبات بها وحُمِل منها إلى الكوفة ، وبوجهه أربع[٥] عشرة ضربة ، فمكث أياما ، ثم أتى الحجّاج ، وعلى وجهه [وجراحه][٦] القطْن ، فأجلسه معه على السرير[٧] . وقال أصحابُ شَبيب لشَبيب ؛

---

(١) نقاوة الشىء : خياره .

(٢) قال ياقوت : « ذكر سيلحين فى الفتوح وغيرها من الشعر يدل على أنها قرب الحيرة ضاربة فى البر قرب القادسية ؛ ولذلك ذكر الشعراء أيام القادسية مع الحيرة والقادسية ؛ فقال سليمان بن ثمامة حين سير امرأته من اليمامة إلى الكوفة :

فرَتْ بِبَاب الْقَادِسِيَّةِ غدْوَةً ... وراحتها بالسَّيْلَحِين العبـــائرُ
فلما انتهتْ دون الخورنقِ عَادَهَا ... وَقَصْرُ بنِى النُّعْمَانِ حيثُ الأواخرُ
إلَى أهْلِ مِصْرٍ أصْلَحَ اللهُ حَالَهُ ... بِهِ المُسْلِمُونَ والجُهُودُ الأكابرُ
فَصَارَتْ إلى أرضِ الجِهَادِ وَبَلْدَةٍ ... مُبَارَكَةٍ والأرضُ فيها مَصَائِرُ
فألْقتْ عصَاهَا واستَقرّ بهاالنّوَى ... كَمَا قرَّ عيْنًا بالإيَابِ المُسَافِرُ

(٣) الكبكبة : الجماعة من الناس

(٤) أوجفت الخيل فى السير : سارت سيرا فسيحا واسعا . وفى الطبرى : « فوجف وجيفاً » .

(٥) الطبرى : « وبوجهه بضع عشرة جراحة ؛ من بين ضربة وطعنة » .

(٦) من الطبرى .

(٧) فى الطبرى بعدها : « وقال لمن حوله : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة يمشى بين الناس وهو شهيد ؛ فلينظر إلى هذا » .

وهم يظنون أنّهم قد قتلوا زَحْراً : قد هزمنا جندهم ؛ وقتلنا أميراً من أمرائهم عظيما ؛ فانصرِفْ بنا الآن موفورين[١] . فقال لهم : [٢] إنّ قتلَكم هذا الرجل[٣] وهزيمتَكم هذا الجند قد أرعب هؤلاء الأمراء[٢] ؛ فاقصِدوا بنا قَصْدهم ؛ فوالله لئن نحن قتلناهم مادون قتْلِ الحجاج وأخْذ الكوفة شيء . فقالوا له : نحن طوعٌ لأمرك ورأيك ، فانقضّ بهم جادًّا[٤] ؛ حتى أتى ناحية عين[٥] التمر ؛ واستخبَر عن القوم، فعرف اجتماعهم في رُوذْبَار[٦] في أسفل الفرات ، على رأس أربعة وعشرين فَرْسخا من الكوفة .

وبلغ الحجاجَ مسير شبيب إليهم ، فبعث إليهم[٧] : إنْ جَمَعَكم قِتال ، فأميرُ الناس زائدة بن قدامة .

فانتهى[٨] إليهم شبيب ، وفيهم سبعة أمراء ، على جماعتهم زائدة بن قدامة، وقد عَبّى كلّ أمير أصحابه على حِدَة ، وهو واقف في أصحابه ، فأشرَف شبيبٌ على الناس ، وهو على فرس أغرّ كُمَيت[٩] ؛ فنظر إلى تعبيتهم ، ثم رجع إلى أصحابه ، وأقبل في ثلاث كتائب يزحف[١٠] بها ، حتى إذا دنا من الناس مضتْ كَتِيبة فيها سويد بن سليم ،

---

(١) الطبرى : وافرين » .

(٢ — ٢) الطبرى : « فقال لهم : إن قتلنا هذا الرجل ؛ وهزيمتنا هذا الجند قد أرعبت هذه الأمراء والجنود التى بعثت فى طلبهم » .

(٣) الطبرى : « مادون الحجاج من شيء وأخذ الكوفة إن شاء الله » .

(٤) الطبرى : « جواداً » .

(٥) فى الطبرى : « نجران الكوفة ناحية عين التمر » . ونجران الكوفة ، على يومين منها ؛ فيابينها وبين واسط « على الطريق ؛ سكنه أهل نجران لما أجلاهم عمر ؛ فسموا الموضع باسمهم . وعين التمر : بلدة فى طرف البادية على غربى الفرات ؛ أكثر نخلها القسب ، ويحمل إلى سائر الأماكن . (مراصد الاطلاع) .

(٦) روذبار ؛ ضبطه صاحب مراصد الاطلاع ، بضم أوله وسكون ثانية وذال معجمة ، وباء موحدة، وآخره راء ؛ قال : ويطلق على عدة مواضع .

(٧) فى الطبرى : « فبعث إليهم عبد الرحمن بن الفرق ، مولى ابن أبى عقيل ، وكان على الحجاج كريما » .

(٨) الكلام فى الطبرى ، عن أبى مخنف عن عبد الرحمن بن جندب .

(٩) الكميت من الخيل : مابين الأسود والأحمر . والأغر : ما كان بجبهته غرة .

(١٠) فى الطبرى : « يوجفون بها » .

فوقفت بإزاء ميمنة زائدة بن قدامة ؛ وفيها زياد بن عمرو العَتَكِيّ ، ومضت كتيبة فيها مصاد أخو شبيب ، فوقفتْ بإزاء الميسرة ، وفيها بشر بن غالب الأسديّ ، وجاء شبيب فى كتيبة ؛ حتى وقف مُقابل القوم فى القَلْب ، فخرج زائدة بن قدامة يسير فى الناس بين الميمنة والميسرة ، يحرِّض الناس ، ويقول : عبادَ الله ؛ إنكم الطَّيِّبون الكثيرون ، وقد نزل بكم الخبيثون القليلون؛ فاصبروا جعلت لكم الفداء ! إنّما هى حَمْلتان أو ثلاث؛ ثم هو النصر ليس دونه شىء؛ ألا ترَوْنهم والله لا يكونون مائتى رجل ، إنما هم أكَلَة رأس[1] وهم السُّرّاق المرّاق ؛ إنما جاءوكم ليُهريقوا دماءكم ، ويأخذوا فيئكم ؛ فلا يكونوا على أخذه أقوى منكم على منعه ؛ وهم قليل وأنتم كثير ؛ وهم أهل فُرْقة وأنتم أهلُ جماعة ، غُضُّوا الأبصار واستقبلوهم بالأسنّة ؛ ولا تحملوا عليهم حتى آمركم .

ثم انصرف إلى موقفه ، فحمل سُويد بن سليم على زياد بن عمرو العَتَكيّ، فكشف صَفّه ، وثبت زياد قليلا ثم ارتفع سويد عنهم يسيرا ثم كرّ عليهم ثانية[2] .

فقال فروة بن لَقِيط الخارجىّ[3] : اطّعَنّا ذلك اليوم ساعة فصبروا لنا حتى ظننت أنهم لن يزولوا ، وقاتل زياد بن عمرو قتالا شديدا[4] ، ولقد رأيت سويد بن سليم يومئذ وإنه لأشدّ العرب قتالا وأشجعهم ؛ وهو واقف لا يعرض لهم ؛ ثم ارتفعنا عنهم ؛ فإذا هم يتقوّضون ، فقال بعض أصحابنا لبعض : ألا ترَوْنهم يتقوّضون! احمِلُوا[5] عليهم، فأرسل إلينا شَبيب : خَلّوهم لا تحمِلُوا عليهم حتى يخفّوا ، فتركناهم قليلا ، ثم حملنا عليهم الثالثة فانهزموا ، فنظرت إلى زياد بن عمرو ، وإنه ليضرَبُ بالسيوف[6] ، وما من سيف يُضرَبُ به

(١) يقولون : هم أكلة رأس ؛ أى هم قليل يشبعهم رأس واحد .
(٢) فى الطبرى بعدها : « فاطعنوا ساعة »
(٣) فى الطبرى : « قال أبو مخنف : فحدثنى فروة »
(٤) فى الطبرى بعدها : « وجعل ينادى : ياخيلى ، ويشد بالسيف ، فيقاتل قتالا شديدا » .
(٥) الطبرى : « احمل عليهم » . (٦) الطبرى : « بالسيف » .

إلّا نَبَا عنه ؛ ولقد اعتوره أكثرُ من عشرين سيفا وهو مجفّف ، فما ضرّه شيء منها ، ثم انهزم (١) .

وانتهينا إلى محمد بن موسى بن طلحة أمير سجِسْتان عند المغرب؛ وهو قائم في أصحابه؛ فقاتلناه قتالا شديدا ، وصَبَر لنا .

ثم إن مصاداً حَمَل (٢) على بِشْر بن غالب في الميسرة فصبَر وكَرُم وأبْلَى ، ونزل معه رجال من أهل البَصْرة نحو خمسين ، فضاربوا بأسيافهم (٣) حتى قتلوا ، ثم انهزم أصحابُه فشدَدْنا على أبي الضريس فهزمناه ، ثم انتهينا إلى موقف أعين ، ثم شددنا على أعْيَن ؛ فهزمناهم حتى انتهينا إلى زائدة بن قدامة ، فلما انتهوْا إليه ، نزل ونادى : ياأهلَ الإسلام ، الأرضَ الأرض ! ألا لايكونُون على كفرهم أصبرَ منكم على إيمانكم . فقاتلوا عامّة الليل إلى السَّحَر .

ثم إن شبيباً شدّ على زائدة بن قدامة في جماعة من أصحابه ، فقتله وقتل رِبْضَةً (٤) حوله من أهل الحفّاظ ، ونادى شبيب في أصحابه : ارفعوا السيف ، وادعُوهم إلى البيعة ، فدعَوْهم عند الفجر إلى البيعة .

قال عبد الرحمن (٥) بن جندب : فكنتُ فيمَنْ تقدّم فبايعه بالخلافة، وهو واقف على

---

(١) في الطبري بعدها. « وقد جرح جراحة يسيرة ؛ وذلك عند المساء ، قال : ثم شددنا على عبد الأعلى ابن عبدالله بن عامر ؛ فهزمناه وما قاتلنا كثير قتال ؛ وقد ضارب ساعة ؛ وقد بلغني أنه كان جرح ثم لحق بزياد بن عمرو فمضيا منهزمين ؛ حتى انتهينا إلى محمد بن موسى . . . » .

(٢) الكلام من هنا في الطبري عن هشام عن أبي مخنف ، عن عبد الرحمن بن جندب وفروة بن لقيط .

(٣) في الطبري بعدها : « حتى قتلوا عن آخرهم ؛ وكان فيهم عروة بن زهير بن ناجذ الأزدي ، وأمه زرارة ؛ امرأة ولدت في الأزد ، فيقال لهم بنو زرارة ، فلما قتلوه وانهزم أصحابه ، مالوا فشدوا على أبي الضريس » .

(٤) في الطبري : « وتركهم ربضة حوله » ، والربضة : كل قوم قتلوا في موقعة واحدة ؛ وفي الحديث : « الذين قتلوا يوم الجماجم كانوا ربضة واحدة » .

(٥) في الطبري بعدها عن أبي مخنف : « وحدثني عبد الرحمن بن جندب قال : سمعت زائدة بن قدامة ليلتئذ رافعا صوته ، يقول : ياأيها الناس ، اصبروا وصابروا ؛ ياأيها الذين آمنوا ، إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . ثم مابرح يقاتلهم مقبلا غير مدبر حتى قتل » .

فرسٍ أغرَّ كُميت ؛ وخيله واقفة دونه وكلُّ مَنْ جاء ليبايعَه يُنزع سيفه عن عاتقه ؛ ويؤخذ سلاحُه ؛ ثم يدنو من شبيب فيسلِّم عليه بإمْرة المؤمنين ؛[١] ثم يبايع ؛ فإنا كذلك إذ أضاء الفجر[٢] ومحمد بن موسى بن طلحة فى أقصى العسكر مع أصحابه ؛ وكان الحجّاج قد جعَل موقفه آخر الناس ، وزائدة بن قدامة بين يديه ، ومقام محمد بن موسى مقام الأمير على الجماعة كلِّها ، فأمر محمد مؤذِّنه فأذّن ؛ فلما سمع شبيب الأذان ، قال : ما هذا ؟ قيل : هذا ابنُ طلحة لم يبرحْ ، قال : ظننتُ أنّ حمقه وخُيلاءه سيحملانه على هذا ، نحُّوا هؤلاء عنّا ، وانزلوا بنا فلنصلِّ ، فنزلَ وأذّن هو ؛ ثم استقدم فصلَّى بأصحابه ، وقرأ : ﴿ وَيلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ ، و ﴿ أرأيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بالدِّين ﴾ ، ثم سلّم وركب[٣] ؛ وأرسل إلى محمد بن موسى بن طلحة : إنك امرؤ مخدوع قد اتّقَى بك الحجاج المنيّة ، وأنت لى جارٌ بالكوفة ، ولك حقٌ فانطلقْ لما أمِرتَ به ؛ ولك الله ألّا أسوءك[٤] ؛ فأبى محاربته[٥] فأعاد عليه الرسول فأبى إلّا قتاله ؛ فقال له شبيب : كأنى بأصحابك لو التقتْ حَلَقتا[٦] البِطان قد أسلمُوك ، وصُرِعتَ مصرَعَ أمثالك ؛ فأطِعْنى وانصرفْ

---

(١) فى الطبرى : « ثم يخلى سبيله » .

(٢) فى الطبرى : « إذ انفجر الفجر » .

(٣) فى الطبرى : « ثم ركبوا فحمل عليهم ، فانكشفت طائفة من أصحابه ، وثبتت طائفة ؛ قال فروة : فما أنسى قوله ؛ وقد غشيناه وهو يقاتل بسيفه ؛ وهو يقول : ﴿ الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ . قال : وضارب حتى قتل ، فسمعت أصحابى يقولون: إن شبيبا هو الذى قتله . ثم إنا نزلنا فأخذنا ما كان فى العسكر من شىء ، وهرب الذين كانوا بايعوا شبيبا ، فلم يبق منهم أحد . . . . » .

(٤) الطبرى : « ولك الله لا آذيتك » .

(٥) الكلام هنا يختلف عما فى الطبرى ؛ بالتقديم والتأخير واختلاف العبارات .

(٦) البطان : حزام الرحل أو القتب الذى يلى البطن ، له حلقتان فى كل طرف حلقة ؛ يصعب التقاؤهما؛ فإذا التقتا ، بلغ الشد غايته ؛ يريدون أن الشدة بلغت منتهاها ؛ وهو مثل ، ومنه قول أوس :

وَإِذَا الْتَقَتْ حَلَقَتَا الْبِطَانِ بِأَقْوَامٍ وَطَارَتْ نُفُوسُهُمْ جَزَعَا

لشأنِك ؛ فإنى أنفسُ بك عن القَتْل ؛ فأبى وخرج بنفسه ؛ ودعا إلى البراز ، فبرز له البَطين ثم قَعنَب بن سويد ؛ وهو يأبى إلا شبيباً . فقالوا لشبيب : إنّه قد رَغِبَ عنّا إليك ؛ قال : فما ظنُّكم بمَنْ يرغب عن الأشراف ! ثم برز له ، وقال له : أنشدك الله يا محمد فى دمك ، فإنّ لك جواراً ! فأبى إلّا قتاله ، فحمل عليه بعموده الحديد ؛ وكان فيه اثنا عشر رِطلًا ، فهشم رأسَه وبيضةً كانت عليه فقتله ؛ ونزل إليــه فــكفّنه ودفنه ، وتَتَبّع ما غنم الخوارجُ من عسكره ؛ فبعث به إلى أهله ، واعتذر إلى أصحابه ، وقال : هو جارِى بالـكوفة ؛ ولى أنْ أهبَ ما غنمت . فقال له أصحابه : ما دون الـكوفة الآن أحد يمنعك ؛ فنظر فإذا أصحابه قد فَشَا فيهم الجِراح ؛ فقال : [1]ليس عليـكم أكثر مما قد فعلتم[1] .

وخرج بهم على نِفَّر[2] ، ثم خرج بهم نحو بغداد[3] ؛ يطلب خَانيجار[4] . وبلَغ الحجّاج أنّ شَبيباً قد أخذ نحو نِفَّر ؛ فظنّ أنّه يريدُ المدائن ؛ وهى باب الـكوفة ؛ ومَنْ أخَذَ المدائن كان ما فى يديه من أرض الـكوفة أكثر ؛ فهالَ ذلك الحجّاج ، وبعثَ إلى عثمان بن قَطَن ، فسرّحه إلى المدائن ، وولّاه مِنبَرها والصلاة ومعونة جُوخَى كلّها ، وخراج الأستان ، فجاء مسرعاً حتى نزل المدائن ، وعزل الحجّاجُ ابنَ أبى عصيفير عن المدائن ، وكان الجزْل مقيماً بها يُدَاوِى جِراحاته ، وكان ابن أبى عصيفير يعوده ويكرمه ، ويُلْطِفه[5] ، فلما قدِم عثمان بن قَطَن لم يكن يتعاهده ولا يُلْطِفُه بشىء ، فـكان الجزل يقول : اللّهم زد ابن أبى عصيفير فَضْلاً وكرما ، وزد عثمان بن قطن ضيقاً وبخلا .

* * *

(١ ــ ١) الـكلام هنا يختلف عما فى الطبرى ، بالتقديم والتأخير واختلاف العبارات .

(٢) نفر ، بكسر أوله وتشديد ثانيه وفتحه وراء : بلدة أو قرية على نهر النرس ، من بلاد الفرس ، عن الخطيب ، فإن كان عنى أنه من بلاد الفرس قديما جاز ، وأما الآن فهو من نواحى بابل بأرض الـكوفة (ياقوت) .

(٣) فى الطبرى : « ثم على الصراة ، ثم على بغداد » .

(٤) بعدها فى الطبرى : « فأقام بها » .

(٥) ألطف فلان فلانا : أكرمه وبره وأتحفه .

ثم إنّ الحجاج دعا عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فقال له : انتخب الناس ؛ فأخرج ستمائة من قومه من كِندَة ؛ وأخرج من سائر الناس ستّة آلاف ، واستحثّه الحجاج على الشخوص ؛ فخرج بعسكره بدير عبد الرحمن ؛ فلما استتمّوا هناك كتب إليهم الحجاج كتاباً قرئ عليهم :

أما بعدُ فقد اعتدتم عادة الأذِلّاء ، ووليتم الدُّبُر يوم الزّحف ؛ دأبَ الكافرين[1] وقد صفحتُ عنكم مَرّةً بعد مرة ، وتارة بعد أخرى ؛ وإنى أقسم بالله قَسَماً صادقاً لئن عُدْتم لذلك لأوقِعَنّ بكم إيقاعاً يكون أشدّ عليكم من هذا العدوّ الذى تنهزمون[2] منه فى بطون الأودية والشّعاب ، وتستترون منه بأثناء[3] الأنهار وألواذ[4] الجبال ؛ فليخَفْ مَنْ كان له معقولٌ[5] على نفسه ، ولا يجعل عليها سبيلا ، فقد أعذَرَ مَنْ أنذر . والسلام .

وارتحل عبدُ الرحمن بالناس حتى مَرّ بالمدائن ، فنزل بها يوماً ليشترِىَ أصحابُه منها حوائجهم ؛ ثم نادى فى الناس بالرحيل ؛ وأقبل حتى دخل على عثمان بن قطن مودّعاً ؛ ثم أتى الجَزْل عائداً ، فسأله عن جِراحته ، وحادثه ، فقال الجزل : يابن عَمّ ؛ إنك تسير إلى فرسان العرب وأبناء الحرب وأحْلاس[6] الخيل ؛ والله لكأنّما خُلِقوا من ضُلوعها ؛ ثم رُبّوا[7] على ظهورها ؛ ثم هم أُسْدُ الأجَم ؛ الفارسُ منهم أشدّ من مائة ؛ إن لم يَبْدأ به

---

(١) الطبرى : « وذلك دأب الكافرين » .
(٢) الطبرى : « تهربون » .
(٣) الأثناء : جمع ثنى ، وهو المنعطف .
(٤) الألواذ : جمع لود ، وهو جانب الجبل .
(٥) المعقول هنا : العقل ، وهو مصدر من المصادر التى وردت على اسم المفعول ، كالمجهود والميسور، وفى المثل : « ماله حول ولا معقول » .
(٦) الحلس فى الأصل : كل شىء ولى ظهر البعير والدابة تحت الرحل والقتب والسرج ، كالمرشحة تكون تحت اللبد . ويقال : فلان من أحلاس الخيل ، أى من راضتها وساستها والملازمين ظهورها ، على التشبيه بالحلس .
(٧) فى الطبرى : « بنوا » .

بدأ هو ، وإن هُجْهِج[1] أقْدَم ؛ وإنى قد قاتلتُهم وبلوتُهم ؛ فإذا أصحرتُ لهم انتصفوا مِنّى ؛ وكان لهم الفضل علىّ ، وإذا خندقتُ أو قاتلت فى مَضِيق نلت منهم ماأحبّ ؛ وكانت لى عليهم ؛ فلا تلْقَهم وأنت تستطيع إلا وأنت فى تعبية أو خندق ؛ ثم ودعه، وقال له: هـذه فرسى الفسيفساء خذها فإنهـا لاتجارَى ؛ فأخذها ثم خرج بالناس نحو شبيب ، فلما دنا منه ارتفع شَبِيب عنه إلى دَقُوقاء وشهرزور ؛ فخرج عبدُ الرحمن فى طلبه ؛ حتى إذا كان على تُخوم تلك الأرض أقام ، وقال : إنّما هو فى أرض الموصل ؛ فليقاتلْ أميرُ الموصل وأهلُها عن بلادهم أو فليدعوا .

وبلغ ذلك الحجّاج ، فـكتب إليه :

أما بعدُ فاطلب شبيبـا واسلُكْ فى أثره[2] أينَ سلك حتى تدرِكه فتقتـله أو تنفيَه عن الأرض ، فإنما السلطانُ سلطانُ أميرِ المؤمنين ، والجند جندُه . والسلام .

فلما قرأ عبدُ الرحمن كتابَ الحجاج خرجَ فى طلب شبيب ، فـكان شبيب يَدَعُه ، حتى إذا دنا منـه ليبيّته فيجده قد خندق وحَذِر ، فيمضى ويتركه ، فيتبعه عبـد الرحمن فإذا بلغ شبيبا أنّه قد تحمّل وسار يطلبه كَرّ فى الخيل نحوه ، فإذا انتهى إليه وجده قد صَفّ خيلَه ورجّالته المرامية ، فلا يصيبُ له غِرّة ولا غفلة[3] ، فيمضى ويَدَعه .

ولما رأى شبيبٌ أنّه لا يصيب غِرّته، ولا يصل إليه، صار يخرج كلّما دنا منه عبدالرحمن، حتى ينزل على مسيرة عشرين فرسخا ،ثم يقيم فى أرض غَلِيظة وَعْرَة، فيجىء عبدُالرحمن فى ثَقَله وخيله، حتى إذا دنا من شبيب ارتحل ، فسار عشرين أو خمسة عشر فرسخا؛ فنزل منزلا غَلِيظاً خشنا، ثم يقيم حتى يبلُغَ عبدُ الرحمن ذلك المنزل ، ثم يرتحل، فعذّب العسكر،وَشَقّ عليهم ، وأحْفَى دوابَّهم ، ولَقُوا منه كلّ بلاء .

---

(١) هجهج : صيح به .

(٢) ج : « واسلك أينما سلك » .

(٣) الطبرى : « ولا له علة » .

فلم يزل عبد الرحمن يتبعه ؛ حتى صار إلى خانِقين وجَلولاء ، ثم أقبل على تامَرّا (١) ، فصار إلى البَتّ (٢) ، ونزل على تُخوم الموصل ليس بينه وبين الكوفة إلا نهر حَوْلَايا (٣) ، وجاء عبدُ الرحمن حتى نزلَ بشرقيّ حَوْلَايا ، وهم في راذان (٤) الأعلى من أرض جُوخَى ، ونزل في عواقيل (٥) من النهر ، ونزلها عبدُ الرحمن حيث نزلها ، وهي تعجبه ، يرى أنّها مثل الخندق الحصين .

فأرسل شبيب إلى عبد الرحمن أنّ هذه الأيام أيام عيد لنا ولكم ؛ فإن رأيتُم أن توادعونا حتى تمضيَ هذه الأيام فعلتم ؛ فأجابه عبد الرحمن إلى ذلك ؛ ولم يكن شيء أحبَّ إلى عبد الرحمن من المطاولة والموادعة ، فكتب عثمان بن قَطَن إلى الحجاج :

أما بعد ؛ فإنّي أخبرُ الأمير أصلحه الله ؛ أنّ عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد حفر جُوخَى كلّها عليه خندقا واحدا ، وخلّى شبيبا ، وكسر خراجها ، فهو يأكل أهلها ، والسلام .

فكتب إليه الحجاج :

قد فهمتُ ماذكرت ؛ وقد لَعمرِي فَعل عبد الرحمن ، فسِرْ إلى الناس ، فأنت أميرُهم ، وعاجل المارِقة حتى تلقاهم ، [فإن الله إن شاء ناصرك عليهم] (٦) ، والسلام .

وبعث الحجاج على المدائن مطرّف بن المغيرة بن شعبة ، وخرج عثمان حتى قدِم على

(١) تامرا ، بفتح الميم وتشديد الراء ، والقصر : نهر كبير تحت بغداد ، شرقيها ، مخرجه من جبال شهرزور . (مراصد الاطلاع) .

(٢) البت : قرية من قرى الموصل (الطبرى) .

(٣) حولايا ، بفتح الحاء وسكون الواو وآخره ياء وألف : قرية كانت بالنهروان خربت بخرابه . (مراصد الاطلاع) .

(٤) في الأصول : « ذاذان » تصحيف ، وصوابه من الطبرى ، قال في مراصد الاطلاع : راذان بعد الألف ذال معجمة وآخره نون : راذان الأعلى وراذان الأسفل : كورتان ببغداد تشتمل على قرى كثيرة .

(٥) العواقيل : جمع عاقول ، وهو منعطف النهر .

(٦) من الطبرى .

عبد الرحمن ومَنْ معه ؛ وهم معسكرون على نهر حولايا ، قريبا من البتّ ؛ وذلك يوم التروية (١) عشاء ؛ فنادى فى الناس ، وهو على تَلْعة (٢) :أيها الناس ،اخرجوا إلى عَدُوِّكم. فوثبوا إليه ، وقالوا: ننشدُك الله اهذا المساء قد غُشِينا،والناس لم يوطِّنوا أنفسَهم على القتال فبتِ الليلة ثم اخرج على تعبية ، فجعل يقول : لأناجِزَنّهم الليلة ، ولتكونَنّ الفرصة لى أو لهم ، فأتاه عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فأخذ بِعنان بَغْلته ، وناشده الله لما نزل، وقال له عقيل بن شَدّاد السلولىّ : إنّ الذى تريدُه من مناجزتِهم الساعة أنت فاعله غدا ، وهو خيرلك وللناس ، إنّ هذه ساعة ريح قداشتدّت مساء ،فانْزل ، ثم أبكِرْ بنا غدوة.

فنزل وسَفَت عليه الريح ، وشقّ عليه الغبار ، فاستدعى صاحب الخراج عُلُوجا ، فبنوْا له قُبّة ، فبات فيها ؛ ثم أصبح نخرج بالناس ؛ فاستقبلتهم ريح شديدة وغَبَرة ، فصاح الناسُ إليه ، وقالوا : ننشدك الله ألّا تخرج بنا فى هذا اليوم ! فإنّ الريح علينا، فأقام ذلك اليوم.

وكان شبيب يخرج إليهم ، فلما رآهم لايخرجون إليه أقام ، فلما كان الغد خرج عثمان يعبِّى الناس على أرباعهم ، وسألهم : مَنْ كان على ميمنتكم وميسرتكم ؟ فقالوا: خالد بن نَهِيك بن قيس الكِندىّ على ميسرتنا ، وعَقيل بن شَدّاد السلولىّ على ميمنتنا ، فدعاهما وقال لهما : قفاقى مواقفكما التى كنتما بها، فقد وليتُكما المُجَنّبتَيْن ، فاثبتا ولا تفرّا،فوالله لاأزولُ حتى تَزُولَ نخيل راذان عن أصولها . فقالا : نحن والله الذى لا إله إلا هو لانفرّ حتى نظفرأو نقتل ؛ فقال لهما: جزاكما الله خيرا ! ثم أقام حتى صلّى بالناس الغداة، ثم خرج بالخيل ، فنزل يمشى فى الرّجال ، وخرج شبيب ومعه يومئذ مائة وأحد وثمانون رجلا ، فقطع إليهم النهر ؛ وكان هو فى ميمنة أصحابه ، وجعل على الميسرة سويد بن سليم ، وجعل فى القلب مصادا أخاه وزحفوا ، وكان عثمان بن قَطَن يقول لأصحابه فيكثر : ﴿ قُلْ لَنْ

---

(١) يوم التروية : الثامن من ذى الحجة .

(٢) التلعة هنا : ماعلا من الجبل ، وفى الطبرى ؛ « على بغلة » .

يَنفَعَكُمُ الفِرارُ إنْ فَرَرْتُمْ مِنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إلا قَلِيلاً ﴾ (١) .

ثم قال شبيب لأصحابه : إني حاملٌ على ميسرتهم ؛ مما يَلِي النهر ؛ فإذا هزمتُها فليحمِلْ صاحبُ ميسرتي على ميمنتهم ، ولا يبرحْ صاحبُ القلب حتى يأتيَه أمري ، ثم حمل في ميمنة أصحابه مما يلي النهر على ميسرة عثمان بن قطن ؛ فانهزموا ، ونزل عقيل بن شدَّاد مع طائفة من أهل الحفاظ ؛ فقاتل حتى قُتِل ، وقتلوا معه (٢) .

ودخل شبيب عسكرَهم ، وحمل سويد بن سليم في ميسرة شبيب على ميمنة عثمان بن قَطَن فهزمها ، وعليها خالد بن نَهِيك الكِنْديّ ، فنزل خالد ، وقاتل قتالا شديدا ، فحمل عليه شبيب مِنْ ورائه ، فلم يَنْثَنِ حتى علاه بالسيف فقتله ، ومشى عُثْمان بن قَطَن ؛ وقد نزلت معه العُرَفاء والفُرْسان وأشرافُ الناس نحو القلب ، وفيه أخو شَبيب في نحو من ستين رجلا ، فلمّا دَنَا منهم عثمان ، شَدَّ عليهم في الأشراف وأهل الصبر ، فضربهم مَصاد وأصحابه ، حتى فَرّقوا بينهم ، وحمل شبيبٌ من ورائهم بالخيل ، فما شعَرُوا إلّا والرِّماح في أكتافهم تَكُبّهم لوجوههم ؛ وعطف عليهم سويد بن سليم أيضاً في خيله ، وقاتل عثْمان فأحسنَ القتال .

ثم إن الخوارجَ شَدُّوا عليهم ؛ فأحاطوا بعُثْمان ، وحَمَل عليه مَصاد أخو شبيب : فضربه ضربةً بالسيف فاستدار لها ، وسقط ، وقال : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللهِ قَدَراً مَقْدُوراً ﴾ (٣) ، فقتل وقُتِل معه العُرَفاء ووجوه الناس ، وقُتِل مِنْ كِنْدة يومئذ مائة وعشرون رجلا ، وقتل مِنْ سائر الناس نحو ألف ، ووقع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى الأرض ، فعرفه

(١) سورة الأحزاب ١٦

(٢) في الطبري : وقتل يومئذ مالك بن عبد الله الهمداني ، ثم الرهبي ، عم عياش بن عبدالله بن عياش المنتوف ، وجعل يومئذ عقيل بن شداد يقول وهو يجالدهم :

لأضرِبنّ بالحُسَامِ الباتِرِ ضَرْبَ غلامٍ من سَلولٍ صابِرِ

(٣) سورة الأحزاب ٣٣

ابن أبي سَبْرة ، فنزل وأركبه ، وصار رديفاً له[1]. وقال له عبدُ الرحمن : نادِ في الناس ، الحقوا بدَيْر ابن أبي مريم ؛ فنادى بذلك ؛ وانطلقا ذاهبين ، وأمر شبيب أصحابَه ، فرفعوا عن الناس السيف ؛ ودعاهم إلى البيعة ، فأتاه مَنْ بقِيَ من الرجال ، فبايعوه ، وبات عبدُ الرحمن بدير اليَعار ، فأتاه فارسان ليلًا ، فخلا به أحدُهما يناجيه طويلا ، وقام الآخر قريبا منهما ، ثم مَضَيا ولم يعرفا ؛ فتحدّث الناس أن المناجِيَ له كان شبيبا ؛ وأنّ الذى كان يرقُبُهما كان مصادا أخاه ؛ واتّهم عبد الرحمن بمكاتبة شبيب من قبل .

ثم خرج عبد الرحمن آخرَ الليل ، فسار حتى أتى دير ابن أبي مريم ؛ فإذا هو بالناس قبلَه قد سبَقوه ، وقد وضع لهم ابن أبي سبرة صُبَرَ الشعير والقتّ[2] كأنها القصور ؛ ونحر لهم من الجزور ماشاءوا ، واجتمع الناس إلى عبد الرحمن ، فقالوا له : إن علم شبيب بمكانك أتاك فكنت له غنيمة ؛ قد تفرّق الناس عنك ، وقُتِل خيارهم ، فالحق أيها الرجل بالكوفة .

فخرج وخرج معه الناس ؛ حتى دخل الكوفةَ مستترا من الحجاج ، إلى أن أخذ له الأمان بعد ذلك .

* * *

ثم إن شبيبا اشتدّ عليه الحرّ وعلى أصحابه ، فأتى ماه بهراذان ، فصيّف[3] بها ثلاثة أشهر ، وأتاه ناسٌ ممن كان يطلب الدنيا والغنيمة كثير ، ولحق به ناسٌ ممن كان يطلبهم

---

(١) فى الطبرى : « فقال عبد الرحمن بن محمد : أينا الرديف ؟ قال ابن أبي سبرة : سبحان الله ! أنت الأمير تكون المقدم ، فركب » .

(٢) فى الأصول : « القيت » ، وما أثبته من الطبرى ، وفيه : « بعضه على بعض » .

(٣) صيف بالمكان : أقام به صيفا ، وفى الطبرى : « تصيف » ، وهما بمعنى .

الحجاج بمال وتبعة (١) ، فمنهم رجل يقال له الحرّ بن عبدالله بن عوف، كان قتل دِهْقانين من أهل نهر درقيط ، كانا أساءا إليه ، ولحق بشبيب حتى شهد معه مواطنه إلى أن هلك ، وله مقام عند الحجاج ، وكلام سَلِم به من القتل ، وهو أنّ الحجاج بعد هلاك شبيب ، أمّن كلّ من خرج إليه ممن كان يطلبهم الحجاج بمالٍ ، أو تبعة ، فخرج إليه الحرّ فيمن خرج ، فجاء أهل الدهقانين يستعدُون عليه الحجّاج ، فأحضره ، وقال : ياعدوّ الله ، قتلت رجلين من أهل الخراج ؟ فقال : قد كان أصلحك الله مِنى ماهو أعظم من هذا ، قال : وما هو ؟ قال : خروجى عن الطاعة ، وفراق الجماعة ، ثم إنك أمّنت كلّ من خرج عليك ، وهذا أمانِى وكتابك لى .

فقال الحجاج : قد لَعَمْرِى فعلتُ ، ذلك أوْلى لك ! وخَلّى سبيله .

ثم لما باخ الحرّ (٢) ، وسكن عن شبيب خرج من ماه نهروان فى نحو من ثمانمائة رجل فأقبل نحو المدائن ، وعليها المطرّف بن المغيرة بن شعبة ، فجاء حتى نزل قناطر حذيفة (٣) بن اليمان فكتب ما ذراسب (٤) وهو عظيم بابل مهروذ إلى الحجاج يخبره خبر شبيب وقدومه إلى قناطر حذيفة ، فقام الحجاج فى الناس وخطبهم ، وقال :

أيها الناس، لتقاتِلُنّ عن بلادكم وفيئكم ، أو لأبعثنّ إلى قوم هم أطوع وأسمع ، وأصبر على البلاء (٥) منكم ، فيقاتلون عدوّكم ويأكلون فيئكم - يعنى جند الشام .

فقام إليه الناس من كلّ جانب ، يقولون : بل نحن نقاتلهم ، ونغيث (٦) الأمير ، فليندبنا إليهم ، فإنّا حيث يسرّه .

---

(١) فى الطبرى : « التباعات » .

(٢) باخ الحر : سكن وفتر . وفى الطبرى : « انفسح » .

(٣) قناطر حذيفة : بسواد بغداد .

(٤) فى الطبرى : « ماذرواسب » .

(٥) الطبرى : « اللأواء » .

(٦) الطبرى : « ونعتب » .

وقام إليه زُهرة بن حَوِيّة ـ وهو يومئذ شيخ كبير لا يَستتمّ قائما ، حتى يؤخذ بيده ـ فقال : أصلح الله الأمير ! إنك إنما تبعث الناس متقطعين ، فاستنفِر إليهم الناس كافة ، وابعث عليهم رجلا متينا شجاعا مجرّبا ، يرى الفِرار هَضْما وعارا ، والصبر مجدا وكرما .

فقال الحجاج : فأنت ذاك ، فاخرج .

فقال : أصلح الله الأمير ! إنّما يصلح لهذا الموقف رجلٌ يحمل الرمح والدِّرْع ، ويَهُزّ السيف ، ويثبُت على مَتْن الفرس ، وأنا لا أطيق ذلك ، قد ضعفت وضَعُف بصرى (١) ولكن ابعثنى مع أميرٍ تعتمده ، فأكون فى عسكره ، وأشير عليه برأيى (١) .

فقال : (٢) جزاك الله عن الإسلام والطاعة خيرا (٢) ، لقد نصحت وصدَقت ، وأنا مخرج الناس كافة ، ألا فسيرُوا أيها الناس .

فانصرف الناس يتجهزون وينتشرون ، ولا يدرون مَنْ أميرهم .

وكتب الحجاج إلى عبد الملك :

أما بعد ، فإنى أخبر أميرَ المؤمنين أكرمه الله ، أنّ شبيبا قد شارفَ المدائن ، وإنما يريدُ الكوفة ، وقد عجَز أهل العراق عن قِتاله فى مواطنَ كثيرة ، فى كلّها تُقتَل أمراؤهم ويُفَلّ خيولهم (٣) وأجنادهم ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إلىّ جندا من جند الشام ليقاتلوا عدوّهم ، ويأكلوا بلادهم فعل إن شاء الله .

فلما أتى عبدَ الملك كتابُه بعث إليه سفيان بن الأبرد فى أربعة آلاف ، وبعث إليه حبيب ابن عبد الرحمن [الحكمىّ] (٤) من (٥) مذحِج فى ألفين وسَرّحهم نحوه حين أتاه الكتاب (٦) .

(١ ـ ١) الطبرى : « ولكن أخرجنى فى الناس مع الأمير ، فإنى إنما أثبت على الراحلة ، فأكون مع الأمير فى عسكره ، وأشير عليه برأيى » .

(٢ ـ ٢) الطبرى : « جزاك الله عن الإسلام وأهله فى أول الإسلام خيرا ، وجزاك الله عن الإسلام فى آخر الإسلام خيرا » .

(٣) الطبرى : « جنودهم » .

(٤) من الطبرى .

(٥) فى الأصول . « ابن » ، وما أثبته من الطبرى .

(٦) بعدها فى الطبرى : « من الحجاج » .

وقد كان الحجّاج بعث إلى عتّاب بن ورقاء الرِّياحيّ ليأتيه ، وكان على خيل الكوفة مع المهلّب، ودعا الحجاجُ أشراف أهل الكوفة ، منهم زُهرة بن حَويّة ، وقبيصة بن والق ، فقال : مَنْ ترون أنْ أبعثَ على هذا الجيش ؟ قالوا : رأيك أيها الأمير أفضلُ ؛ قال: إنّى قد بعثتُ إلى عتّاب بن ورقاء وهو قادم عليكم الليلة ، فيكون هو الذى يسير بالناس ، فقال زُهرة بن حَويّة : أصلَحَ الله الأمير ! رميتَهم بحَجَرهم ، لا والله لا يرجعُ إليك حتّى يظفَر أو يقتل .

فقال قبيصة بن والق : وإنّى مشيرٌ عليك أيها الأمير برأيٍ اجتهدته ، نصيحةً لك ولأمير المؤمنين ولعامّة المسلمين ؛ إنّ الناس قد تحدّثوا أنّ جيشاً قد وَصَل إليك من الشام؛ لأنّ أهل الكوفة قد هُزِموا ، وهان عليهم الفِرار والعار من الهزيمة ، فكأنّما قلوبهم فى صدور قوم آخرين ، فإنْ رأيتَ أنْ تبعثَ إلى الجيش الذى قد أُمدِدْتَ به من أهل الشام، فليأخذوا حذرهم ، ولا يبيتوا بمنزلٍ إلا وهم يرون أنهم يبيتون فعلت،فإن فعلت فإنك إنما تحارب حُوَّلاً قُلّباً مِحْلَاً لاً مظعانا[1] ؛ إنّ شبيبا بينا هو فى أرض إذا هو فى أخرى، ولا آمن أن يأتيهم وهم غارّون ، فإن يهلكوا يهلك العراق كلّه .

فقال الحجاج : لله أبوك ! ماأحسنَ مارأيت ! وما أصحّ ما أشرت به ! فبعث إلى الجيش الوارد عليه من الشام كتاباً قرءوه وقد نزلوا هِيت ؛ وهو :

أما بعد ؛ فإذا حاذيتم هِيت ، فدَعُوا طريق الفرات والأنبار ، وخذوا علَى عين التمر، حتى تقدموا الكوفة ، إن شاء الله[2] .

فأقبل القوم سِراعا ، وقدم عتّاب بن ورقاء فى الليلة الّتى قال الحجاج إنه فيها قادم؛ فأمَره الحجّاج ؛ فخرج بالنّاس ، وعسكر بحمّام[3] أعين ، وأقبل شبيب حتى انتهى

(١) الطبرى : « ظعانا رحالا » .

(٢) فى الطبرى بعدها : « وخذوا حذركم وعجلوا السير ، والسلام » .

(٣) حمام أعين : موضع بالكوفة ، منسوب إلى أعين مولى سعد بن أبى وقاص .

إلى كَلْوَاذى(١) ، فقطع منها دِجْلة ،وأقبل حتى نزل بَهُرَسير(٢) ،وصار بينه وبين مطرّف ابن المغيرة بن شعبة جسر دجلة ، فقطع مطرّف الجسر ، ورأى رأيا صالحا كادَ به شبيبا ؛ حتى حبسه عن وجهه ، وذلك أنّه بعث إليه : أن ابعثْ إلىّ رجالًا من فقهاء أصحابك وقرّائهم ؛ وأظهر له أنّه يريدأن يدارسَهم القرآن، وينظر فيما يدعون إليه ، فإن وجدحقا اتبعه ؛ فبعث إليه شبيب رجالا ؛ فيهم قَعْنب وسويد والمحلّل، ووصّاهم ألّا يدخلواالسفينة حتى يرجع رسولُه من عند مطرّف ، وأرسل إلى مطرّف : أن ابعثْ إلىّ من أصحابك ووجوه فُرسانك بعدّةأصحابى ؛ ليكونوا رَهْنًا فى يدى ، حتى تردّ علىّ أصحابى . فقال مطرّف لرسوله : القه ، وقل له : كيف آمنك الآن على أصحابى ، إذ أبعثهم إليك،وأنت لا تأمنُنى على أصحابك ! فأبلغه الرسول ، فقال : قل له : قد علِمت أنّا لا نستحلّ الغَدْر فى ديننا ، وأنتم قوم غُدُر تستحلّون الغَدْر وتفعلونه . فبعث إليه مطرّف جماعةً من وجوه أصحابه ، فلما صارُوا فى يد شبيب ، سرّح إليه أصحابه ، فعَبَرُوا إليه فى السفينة ، فأتَوْه ، فمكثوا أربعة أيام يتناظرون ، ولم يتفقّوا على شىء ، فلما تبيّن لشبيب أن مطرّفا كاده ، وأنه غير متابع له ، تعبّى للمسير ، وجَمع إليه أصحابه، وقال لهم : إنّ هذا الثقفىّ قطعنى عن رأيى منذ أربعة أيام ، وذلك أنّى هممت أن أخرُج فى جريدة من الخيل ، حتى ألْقَى هذا الجيش المقبل من الشام ، وأرجُو أن أصادِفَ غِرّتَهم قبل أن يحذَرُوا ، وكنت ألقاهم منقطعين عن المِصر ، ليس عليهم أمير كالحجاج يستندون إليه ، ولا لهم مِصْرٌ كالكوفة يعتصمون به ، وقد جاءنى عيون(٣) أنّ أوائلَهم قد دخلوا عَيْن التَّمْر ، فهم الآن قدشارفوا الكوفة ، وجاءنى أيضا عُيون من نحو عتّاب(٣) أنه نزل بحمام أعْيَن بجماعة أهل الكوفة(٤) وأهل البصرة ، فما أقربَ مابيننا وبينهم ! فتيسّرُوا بنا للمسير إلى عتّاب .

---

(١) كلواذى : موضع قرب بغداد .

(٢) بهر سير : من نواحى بغداد قرب المدائن .

(٣) الطبرى . « عيونى » .

(٤) الطبرى : « بجماعة أهل الكوفة المصراة » .

وكان عتاب حينئذ قد أخرَج معه خمسين ألفا من المقاتلة،وهدّدهم الحجاج إن هربوا كعادة أهل الكوفة ، وتوعّدهم ، وعَرَض شبيب أصحابه بالمدائن ، فكانوا ألفَ رجل فخطبهم وقال : يامعشرَ المسلمين ، إنّ الله عَز وجلّ كان ينصركم وأنتم مائة ومائتان ، واليوم فأنتم مئون [ومئون] [١] ، ألَا وَإنّى مصلٍّ الظهر ، ثمّ سائر بكم إن شاء الله .

فصلّى الظهر ، ثم نادى فى النّاس ، فتخلّف عنه بعضُهم .

قال فروة بن [٢]لقيط : فلما جازَ ساباط ، ونزلْنا معه ، قَصّ علينا،وذكّرنا بأيام الله، وزهّدَنا فى الدنيا ، ورَغّبنا فى الآخرة . ثم أذن مؤذنه فصلّى بنا العصر ، ثم أقبل حتى أشرف على عَتّاب بنورقاء ، فلما رأى جيشَ عتاب نزل من ساعته،وأمر مؤذّنه ، فأذّن ثم تقدّم ، فصلّى بأصحابه صلاةَ المغرب [٣] ، وخرج عتّاب بالناس كلّهم فعبّأهم ، وكان قد خندق على نفسه مذ يوم نَزل .

وجعل على ميمنته محمد بن عبدالرحمن بن سعيد بن قيس الهمْدانىّ؛قال له : يابنأخى إنّك شريف ، فاصبر وصابر ، فقال : أما أنا فوالله لأقاتلنّ ماثبَت معى إنسان .

وقال لقبيصة بن والق التغلبىّ[٤] : اكفنى الميسرة ، فقال : ⁽⁵ أنا شيخ كبير،غايتى أنْ أثبتَ تحت رايتى،أما ترانى لاأستطيع القيام إلّا أن أقام،وأخى نعيم بن عليم ذُو غناء، فابعثه على الميسرة . فبعثه عليها ⁵⁾ . وبعث حنظلة بن الحارث الرياحىّ ابن عمه ، وشيخ

---

(١) من الطبرى .

(٢) راوى الخبر فى الطبرى .

(٣) فى الطبرى : « وكان مؤذنه سلام بن سيار الشيبانى » .

(٤) فى الطبرى : « وكان على ثلث بنى تغلب »

(٥ ــ ٥) الطبرى : « أناشيخ كبير ، كثير منى أن أثبت تحت رايتى ، قد انبت منى القيام ، ما أستطيع القيام إلا أن أقام ، ولكن هذا عبيد الله بن الحليس ، ونعيم بن عليم التغلبيان ، وكان كل واحد منهما على ثلث من أثلاث تغلب ، ابعث أيهما أحببت ، فأيهما بعثت فلتبعثن ذا حزم وعزم وغناء ، فبعث نعيم بن عليم على ميسرته » .

أهل بيته على الرجّالة، وبعث معه ثلاثة صفوف: صفٌّ فيه الرجّالة ومعهم السيوف، وصفٌّ هم أصحاب الرماح؛ وصفٌّ فيه المرامية.

ثم سار عَتّاب بين الميمنة والميسرة يمرّ بأهل راية راية؛ فيحرّض مَنْ تحتها على الصّبر؛ ومن كلامه يومئذ: إنّ أعظمَ الناس نصيباً من الجنة الشهداء؛ وليس الله لأحَدٍ أمقتَ منه لأهل البغى؛ ألا ترون عدوّكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه؛ لا يرى ذلك إلا قربةً لهم! فهم شرار أهل الأرض، وكلاب أهل النار. فلم يجبه أحد، فقال: أين القُصّاص يقصّون على الناس، ويحرّضونهم؟ فلم يتكلم أحد، فقال: أين من يَرْوِى شعر عنترة، فيحرّك الناس؟ فلم يجبه أحد ولا ردّ عليه كلمة؛ فقال: لاحول ولا قوة إلا بالله؛ والله لكأنى بكم وقد تفرّقتم عن عتاب وتركتموه تسفِى فى استِه الريح؛ ثم أقبل حتى جلس فى القلب، ومعه زهرة بن حَوِيّة، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث.

وأقبل شبيب فى ستمائة، وقد تخلّف عنه من الناس أربعمائة، فقال: إنّه لم يتخلّفْ عَنّى إلا مَنْ لا أحبّ أنْ أراه معى؛ فبعث سويد بن سليم فى مائتين إلى الميسرة، وبعث المحلّل بن وائل فى مائتين إلى القلب، ومضى هو فى مائتين إلى الميمنة؛ وذلك بين المغرب والعشاء الآخرة؛ حين أضاء القمر؛ فناداهم: لمن هذه الرايات؟ قالوا: رايات هَمْدان. قال: رايات طالمَا نَصرَت الحقّ، وطالما نصرت الباطل؛ لها فى كلٍّ[1] نصيبٌ؛ أنا أبو المدلّه اثبتوا إن شئتم. ثم حمل عليهم؛ وهم على مسنّاة أمام الخندق، ففضّهم، وثبت أصحاب رايات قبيصة بن والق.

فجاء شبيب فوقف عليه، وقال لأصحابه: مَثَل هـذا قوله تعالى: ﴿ وَاْتْلُ عَلَيْهِمْ

---

(١) بعدها فى الطبرى: « والله لأجاهدنكم محتسباً للخير فى جهادكم، أنتم ربيعة وأنا شبيب، أنا أبو المدله لاحكم إلا لله »

نَبَأَ ٱلَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ ، [١]

ثم حمل على الميسرة ففضّها ، وصمد نحو القلب ، وعتّاب جالس على طِنْفِسة ، هو وزهرة ابن حَوِيّة ، فغشيهم شبيب ، فانفضّ الناسُ عن عتاب وتركوه ؛ فقال عتاب : يازُهرة ، هذا يومٌ كَثُر فيه العدد ؛ وقلّ فيه الغَناء ، لهفى على خمسمائة فارسٍ من وُجوه الناس ؛ ألا صابرٌ لعدوه ! ألا مواسٍ بنفسه ! فمضى الناس عَلَى وجوههم ، فلما دنا منه شبيب وَثَب إليه فى عصابة قليلة صبرت مَعَه ، فقال له بعضهم : إنّ عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد هرب ؛ وانصفق معه ناس كثير ، فقال : أما إنه قد فرّ قبل اليوم ، وما رأيت مثل ذلك الفتى ؛ مايبالى ماصنع ، ثم قاتلهم ساعة ، وهو يقول : مارأيتُ كاليوم قطّ موطنا لم أبلَ بمثله ، أقلّ ناصرا ، ولا أكثر هاربا خاذلا ؛ فرآه رجلٌ من بنى تَغْلب من أصحاب شبيب — وكان أصاب دما فى قومه ، والتحق بشبيب : فقال : إنى لأظنّ هذا المتكلّم عتّاب ابن ورقاء ، فحَمَل عليه فطعنه ؛ فوقع وقُتِل ، ووطئت الخيل زُهرة بن حَوِيّة ، فأخذ يذبّب بسيفه ؛ وهو شيخ كبير لايستطيع أن ينهض ؛ فجاءه الفضل بن عامر الشيبانىّ فقتله ، وانتهى إليه شبيب ؛ فوجده صَرِيعا فعرفه ، فقال : مَنْ قتل هذا ؟ قال الفضل : أناقتلته ، فقال شبيب : هذا زَهرة بن حَوِيّة ؛ أما والله لئن كنتَ قُتلتَ عَلَى ضلالةٍ ؛ لربّ يوم من أيام المسلمين قد حَسُن فيه بلاؤك ، وعظم فيه غناؤك ، ولربّ خيلٍ للمشركين هزمتَها ، وسَرِيّةٍ لهم ذعرتَها ، ومدينةٍ لهم فتحتَها ! ثم كان فى علم الله أن تُقتل ناصراً للظالمين .

وقتل يومئذ وجوهُ العرب من عسكر العراق فى المعركة : واستمكن شبيبٌ من أهل العسكر ، فقال : ارفعُوا عنهم السيف ، ودعاهم إلى البَيْعة ، فبايعه الناس عامّة من ساعتهم ؛ واحتوى على جميع مافى العسكر ، وبعث إلى أخيه وهو بالمدائن ؛ فأتاه فأقام بموضع المعركة يومين ، ودخل سفيان بن الأبرد الكلبىّ ، وحبيب بن عبد الرحمن فيمن معهما

---

(١) سورة الأعراف ١٧٥

إلى الكوفة ، فشدُّوا ظهرَ الحجاج ، واستغنى بهم عن أهل العراق ؛ ووصلته أخبار عَتّاب وعسكره ، فَصَعِد المنبر ، فقال : ياأهلَ الكوفة ؛ لا أعزّ الله مَنْ أراد بكم العِزّ ، ولا نَصَر مَنْ أراد منكم النصر ؛ اخرجوا عنا فلا تشهدوا معنا قتالَ عدونا ، والحقوا بالحيرة ، فانزلوا مع اليهود والنصارى ، (١ ولا يقاتلنّ معنا إلّا مَنْ لم يشهد قتال عتّاب بن ورقاء ١) .

وخرج شبيب يريد الكوفة ، فانتهى إلى سورا(٢) ، فقال لأصحابه : أيُّكم يأتيني برأس عاملها ، فانتدب إليه قَطِين ، وقَعْنب ، وسويد ، ورجلان من أصحاب شَبِيب ، فكانوا خمسة ، وساروا حتى انتهوْا إلى دار الخراج ، والعمال فيها ، فقالوا : أجيبوا الأمير ؛ فقال الناس : أيّ أمير ؟ قالوا : أمير قد خرج من قِبَل الحجاج ، يريد هذا الفاسق شبيبا ، فاغترّ بذلك عامل سُورَا ، فخرج إليهم ، فلما خالطهم شَهَرُوا السيوف ، وحكّموا وخَبَطُوه بها حتى قتلوه ، وقبضوا ما وجدوا في دار الخراج من مال ؛ ولحقوا بشبيب .

فلما رأى شبيب البدرَ ، قال : أتيتمونا بفتنة المسلمين ! هلمّ ياغلام الحربة ، فخرّق بها البِدر ، وأمر أن تنخَسَ الدوابّ التي كانت البدَر عليها ، فمرّت رائحة ، والمال يتناثر من البدَر ، حتى وردت الصَّراة ، فقال : إن كان بقيَ شيء فاقذفوه في الماء .

* * *

وقال سفيان بن الأبرد للحجّاج : ابعثني إلى شَبِيب أستقبله قبل أنْ يَرِد الكوفة ، فقال : لا ؛ ما أحبّ أن نفترق حتّى ألقاه في جماعتكم ، والكوفة في ظهرنا ؛ وأقبل شبيب حتّى نزلَ حَمّام أعين ؛ ودعا الحجاج الحارث بن معاوية بن أبي زرعة بن مسعود الثقفيّ فوجّهه في ناس لم يكونوا شهدُوا يوم عتاب . فخرج في ألف رجل ؛ حتى انتهى إلى شبيب ليدفعه عن الكوفة ؛ فلما رآه شبيب حَمَل عليه فقتَله ؛ وفلّ أصحابه . فجاءوا حتى دخلوا

(١ـ١) الطبرى : « ولا تقاتلوا معنا إلا من كان لنا عاملا ، ومن لم يكن شهد قتال عتاب بن ورقاء » .

(٢) سورا : كورة قريبة من الفرات .

الكوفة ، وبعث شبيب البَطِين فى عَشَرة فوارس يرتادون له منزلا على شاطئ الفرات ، فى دار الرزق، فوجّه الحجاج حوشب بن يزيد ، فى جمع من أهل الكوفة، فأخذُوا بأفواه السكك ، فقاتلهم البطين فلم يَقْوَ عليهم ، فبعث إلى شبيب ، فأمدّه بفوارس من أصحابه، فعقروا فرس حَوْشب وهزموه ، فنجا بنفسه ، ومضى البَطِين إلى دار الرزق فى أصحابه ، ونزل شبيب بها ، ولم يوجّه إليه الحجاج أحداً ، فابتنى مسجدا فى أقصى السَّبَخة ، وأقام ثلاثا لم يوجّه إليه الحجاج أحداً ، ولا يخرج إليه من أهل الكوفة ، ولا من أهل الشام أحدٌ ، وكانت امرأته غزالة نَذَرت أن تصلّىَ فى مسجد الكوفة ركعتين ، تقرأ فيهما بالبقرة وآل عمران [1].

***

فجاء شبيبٌ مع امرأته حتى أوفَتْ بنذرها فى المسجد ؛ وأشير على الحجاج أن يخرُج بنفسه إليه ، فقال لقتيبة بن مسلم : إنّى خارج ، فاخرج أنت ، فارتدْ لى معسكرا ، فخرج وعاد ؛ فقال : وجدت المَدَى سهلا ، فسر أيها الأمير على اسم الله والطائر الميمون ؛ فخرج الحجّاج بنفسه ، ومرّ على مكان فيه كناسة وأقذار ؛ فقال: ألقُوا لى هنا بساطا ، فقيل له : إنّ الموضع قَذِر ، فقال : ما تدعونى إليه أقذر ، الأرضُ تحته طيبة ، والسماء فوقه طيبة .

ووقف هناك وأخرج مولى له يعرف بأبى الورد، وعليه تِجْفَاف [2]، وأحاط به غِلمان كثير ؛ وقيل: هذا الحجاج؛ فحمل عليه شبيب فقتله ؛ وقال: إن يكن الحجاج ، فقد أرحْتُ الناس [3] منه ؛ ودلف الحجاج نحوه حينئذ ، وعلى ميمنته مطر بن ناجية ، وعلى ميسرته خالد بن عتاب بن ورقاء ؛ وهو فى زهاء أربعة آلاف ؛ فقيل له : أيها الأمير لا نعرفَ

(١) بعدها فى الطبرى : « ففعلت » .
(٢) التجفاف : آلة للحرب يلبسها الفارس فى الحرب للوقاية ؛ كأنها درع .
(٣) الطبرى : « أرحتكم » .

شبيبا بمكانك ، فتنكّر ، وأخفِى مكانه ، وتشبه به مولى آخر للحجاج فى هيئتـه وزيه ، فحمل عليه شبيب ، فضربه بالعمود فقتله ؛ ويقال إنه قال لما سقط : « أخ » بالخاء المعجمة فقال شبيب : قاتل الله ابن أمّ الحجاج ! اتقى الموت بالعبيد ؛ وذلك أن العرب تقول عند التأوه « أح » بالحاء المهملة .

ثم تشبّه بالحجاج أعْيَن صاحب حَمّام أعيَن ، ولبس لبسته ، فحمل عليه شبيب فقتله ، فقال الحجاج : علىّ بالبغل لأركبه ،فأُتِىَ ببغل محجّل ؛ وقيل : أيها الأمير، أصلحك الله إنّ الأعاجم كانت تتطيّر أن تركب مثل هذا البغل فى مثل هذا اليوم ؛ فقال : أدنوه منى فإنّه أغر محجّل ؛ وهذا يومٌ أغرّ محجّل ، فركبه ، ثم سار فى الناس يمينا وشمالا ثم قال : اطرحوا لى عَباءة ، فطرِحَتْ له ، فنزل فجلس عليها ، ثم قال : ائتونى بكرسىّ ، فأُتِىَ به ، فقام فجلس عليه ، ثم نادى أهلَ الشام ، فقال : ياأهلَ الشام ؛ يا أهلَ السمع والطاعة ، لا يغلِبَنّ باطلُ هؤلاء الأرجاس حقّـكم ؛ غُضُّوا الأبصار ، واجثوا على الرُّكَب ، واستقبلوا القوم بأطراف الأسِنّة ، فجثوا على الرُّكَب ، وكأنهم حرّة سوداء .

ومنذ هذا الوقت ركدت ريح شبيب ، وأذِن الله تعالى فى إدبار أمره ، وانقضاء أيامه فأقبل ، حتى إذا دنا من أهل الشام عَبّى أصحابَه ثلاثة كراديس ، كَتِيبة معه ، وكَتِيبة مع سُويد بن سُليم وكتيبة مع المحلّل بن وائل ، وقال لسُوَيد : احمل عليهم فى خيلك ،فحَمَل عليهم فثبتوا له حتى إذا غَشِى أطراف أسنتهم ، وثبوا فى وجهه ، فقاتلهم طويلا ، فصبروا له ؛ ثم طاعنوه ؛ قُدُما قُدُما ؛ حتى ألحقوه بأصحابه .

فلما رأى شبيب صبرَهم ، نادى : ياسُوَيد ، احمل فى خيلك فى هذه الرايات الأخرى ، لعلّك تزيل أهلها ؛ فتأتِى الحجاجَ من ورائه ، ونحمِل نحن عليه من أمامه . فحمل سويد على تلك الرايات ، وهى بين جدران الـكوفة ، فرمى بالحجارة من سطوح البيوت، ومن أفواه السّـكك ، فانصرف ولم يظفروا .

ورماه عُروة بن المغيرة بن شعبة بالسهام ، وقد كان الحجاج جعله فى ثلاثمائة رامٍ من أهل الشام رِدْءاً له كى لا يؤتى من ورائه ، فصاح شبيب فى أصحابه :

ياأهلَ الإسلام ! إنما شَرَيْتُم لله ، ومن يكن شراؤه لله لم يضرّه ما أصابه من ألم وأذى [١] ، لله أبوكم ! الصبرَ الصبر ، شَدّة كشدّاتكم الكريمة فى مواطنكم المشهورة .

فشدّوا شَدّة عظيمة ، فلم يزُل أهل الشام عن مراكزهم ، فقال شبيب : الأرضَ ! دبّوا دبيبا تحت تِراسكم ، حتى إذا صارت أسِنّة أصحاب الحجاج فوقها ، فأذْلِقوها صُعُداً ، وادخلوا تحتها ، واضرِبُوا سوقهم وأقدامهم ، وهى الهزيمةُ بإذن الله . فأقبلوا يدبُّون دبيبا تحت الحَجَف : صمْدا صمْدا ، نحو أصحاب الحجاج .

فقال خالد بن عتاب بن ورقاء : أيّها الأمير ، أنا موتور ، ولا أتّهم فى نصيحتى [٢] ، فأْذَنْ لى حتى آتِيَهم من ورائهم ، فأغيرَ على معسكرهم وثَقَلِهم ، فقال : افعل ذلك [٣] ، فخرج فى جَمْع من مَواليه وشاكِريّته [٤] وبنى عمّه ، حتى صار من ورائهم ، فالتقى بمصاد أخى شبيب فقتله ، وقتَل غَزالةَ امرأة شبيب ، وألقى النار فى معسكرهم ، والتفت شبيب والحجّاج ، فشاهدا النار ، فأمّا الحجّاج فكبّر وكبّر أصحابُه ، وأما شبيب ، فوثب هو وكلُّ راجل من أصحابه على خيولهم مرعوبين ، فقال الحجّاج لأصحابه : شُدّوا عليهم ، فقد أتاهم ماأرعبهم ؛ فشدُّوا عليهم ، فهزموهم ، وتخلّف شبيب فى خاصّة الناس ، حتى خرج من الجسر ، وتبعه خيل الحجّاج ، وغَشِيه النُّعاس ، فجعل يخفق برأسه ، والخيل تطلبه .

قال أصغر الخارجىّ [٥] : كنت معه ذلك اليوم ، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ، التفتْ

---

(١) الطبرى : « ومن شرى الله لم يكبر عليه ما أصابه من الأذى » .
(٢) الطبرى : « فى نصيحة »
(٣) الطبرى : « ما بدالك » .
(٤) الشاكرية : جمع شاكرى . وهو الأجير .
(٥) فى الطبرى : « قال هشام : فحدثنى أصغر الخارجى ، قال : حدثنى من كان مع شبيب . . . »

فانظر مَنْ خلفك؛فالتفتَ غير مكترث ، وجعل[1] يخفِق برأسه . قال : ودنَوْا منا،فقلت: ياأميرَ المؤمنين ، قد دنا القوم منك ، فالتفت والله ثانيــة غـيرَ مكترث بهم ، وجعل يخفِق برأسه ، وبعث الحجاج خيلا تركُض تقول : دعوه يذهب فى حرق الله ، فتركوه وانصرفوا عنه[2] .

ومضى شبيب بأصحابه ، حتى قطعوا جسر المدائن ، فدخلوا دَيْراً هناك ، وخالد بن عتاب يَقْفُوهم ، فحصرهم فى الدير،فخرج شبيب إليه فهزمه وأصحابه نحوا من فرسخين ، حتى ألْقَى خالد نفسه فى دجلة هو وأصحابه بخيولهم ، فمرّ به شبيب ، فرآه فى دجلة، ولواؤه فى يده ، فقال : قاتله الله فارسا ، وقاتل فرَسه! فرس هذا أشدُّ الناس قوة ، وفرسه أقوى فرس فى الأرض ، وانصرف،فقيل له بعد انصرافه : إنّ الفارس الذى رأيت هو خالد بن عتاب بن ورقاء ، فقال : معرق فى الشجاعة ! لو علمت لأقحمت خَلْفه ، ولو دخل النار .

ثم دخل الحجاج الكوفة بعدهزيمة شبيب ، فصعد المنبر ، وقال:والله ماقُوتل شبيب قطّ قبل اليوم ، ولّى هاربا ، وترك امرأته يُكْسر فى استها القصب .

ثم دعا حبيب بن عبد الرحمن فبعثه فى أثره فى ثلاثة آلاف من أهل الشام ، وقال : احذر بيَاته ، وحيثما لقيته فنازله ؛ فإنّ الله تعالى قد فَلّ حَدّه ، وقصم نابه . فخرج حبيب فى أثره ، حتى نزل الأنبار ، وبعث الحجاج إلى العمال : أن دُسُّوا إلى أصحاب شبيب ؛ مَنْ جاءنا منكم فهو آمن ، فكان كلُّ مَنْ ليست له بصيرة فى دين الخوارج ، ممن هزّه[3] القتال . وكرهه ذلك اليوم يجىءفيؤمن . وقبل ذلك كان الحجّاج نادى يوم هُزِم شبيب : من جاءنا فهو آمن ، فتفرّق عن شبيب ناسٌ كثير من أصحابه .

(١) الطبرى : « ثم أكب يخفق برأسه » .
(٢) الطبرى : « ورجعوا » .
(٣) الطبرى : « هده القتال » .

وبلغ شبيباً منزلُ حبيب بن عبد الرحمن بالأنبار ، فأقبل بأصحابه حتى دنا منه ؛ فقال يزيد السَّكسكى[١] : كنت مع أهل الشام بالأنبار ليلةَ جاءنا شبيب ، فبيّتنا ، فلما أمسينا جمعَنا حبيب بن عبد الرحمن ، فجعلَنا أرباعا ، وجعل على كلّ رُبْع أميرا ، وقال لنا : ليَحْمِ[٢] كلَّ رُبْعٍ منكم جانبَه ، فإن قُتِل هذا الربع فلا يُعِنْهم الرُّبْع الآخر ، فإنه بَلَغنى أنّ الخوارج منكم قريب ؛ فوطّنوا أنفسكم على أنكم مبيّتون فمقاتَلون ، قال : فما زلنا على تعبيتنا حتى جاءنا شبيب تلك الليلة فبيَّتنا ، فشدّ على[٣] رُبْعٍ منّا فصابرهم طويلا ، فما زالت قدمُ إنسان منهم . ثم تركهم وأقبل إلى ربع آخر ، فقاتلهم طويلا فلم يظفر بشىء ، ثم طاف بنا يحمل علينا رُبْعاً رُبْعاً ، حتى ذهب ثلاثة أرباع الليل[٣] ولصِق بنا[٤] حتى قلنا : لا يفارقنا ، ثم ترجّل فنازَلَنا راجلا نِزَالا طويلا هو وأصحابه ، فسقطتْ والله بيننا وبينهم الأيدى والأرجل ، وفُقِئت الأعين ، وكَثُرت القتلى ، فقتلنا منهم نحو ثلاثين ، وقتَلوا منّا نحو مائة ، وايمُ الله لو كانوا أكثر من مائتى رجل لأهلكونا ، ثم فارقونا وقد مَلِلْناهم ومَلّونا ، وكرهناهم وَكرهونا ، ولقد رأيتُ الرجل مِنّا يضرب الرجل منهم بالسيف فما يضرّه من الإعياء والضعف ، ولقد رأيتُ الرجل منّا يقاتل جالساً ينفح بسيفه ما يستطيع أن يقومَ من الإعياء والبُهْر . حتى ركب شبيب ، وقال لأصحابه الذين نزلوا معه : اركَبُوا ؛ وتوجّه بهم مُنْصرِفاً عنا .

فقال فروة بن لقيط الخارجى ـ وكان شهد معه مواطنه كلها ـ قال لنا ليلتئذ ، وقد رأى

---

(١) فى الطبرى : « قال أبو مخنف ، فحدثنى أبو يزيد السكسكى قال » .

(٢) الطبرى : « ليجز كل ربع » .

(٣ ـ ٣) الطبرى : « فشد على ربع منا ، عليهم عثمان بن سعيد العذرى ، فضاربهم طويلا ، فمازالت قدم الإنسان منهم ، ثم تركهم وأقبل على الربع الآخر ، وقد جعل عليهم سعد بن بجل العامرى ، فقاتلهم فما زالت قدم إنسان منهم ، ثم تركهم وأقبل على الربع الآخر ، وعليهم النعمان بن سعد الحميرى ، فما قدر منهم على شىء . ثم أقبل على الربع الآخر وعليهم ابن أقيصر الخثعمى ، فقاتلهم طويلا ، فلم يظفر بشىء ، ثم أطاف بنا يحمل علينا ، حتى ذهب ثلاثة أرباع الليل » .

(٤) الطبرى : « وألز بنا » .

بنا كآبة ظاهرة ، وجراحاتٍ شديدة : ما أشدّ هذا الذى بنا لو كنا نطلب الدنيا ! وما أيسرَ هذا فى طاعة الله وثوابه ! فقال أصحابُه : صدقتَ يا أمير المؤمنين .

قال فَرْوة بن لقيط : وسمعتُه تلك الليلة يحدِّث سوَيد بن سُلَيم ، ويقول له : لقد قتلت منهم أمسِ رَجُلَين من أشجع[1] الناس ، خرجت عشيّة أمس طليعة لكم ، فلقيتُ منهم ثلاثة نفر دخلُوا قرية يشترون منها حوائجهم ، فاشترى أحدُهم حاجته ، وخرج قبل أصحابه فخرجت معه ، فقال لى : أراك لم تشتر عَلَفًا[2] ! فقلت : إنّ لى رُفقاء قد كفونى ذلك ، ثم قلت له : أين ترَى عَدُوّنا [هذا نزل][3] ؟ فقال : بلغنى أنه قد نزل قريبا منّا ، وايمُ الله لوَدِدْتُ أنى لقيتُ شبيبهم هذا ، قلت : أفتحِبّ ذلك ؟ قال : إى والله ، قلت : فخذ حِذْرَك ، فأنا والله شبيب ، وانتضيتُ السيف ، فخرّ والله ميتا [فقلت له : ارتفع ويحك ! وذهبت أنظر فإذا هو قد مات][3] فانصرفت راجعا ، فاستقبلت الآخر خارجاً من القرية ، فقال : أين تذهبُ هذه الساعة التى يرجع فيها الناس إلى معسكرهم ؟ فلم أكلّمه ، ومضيت ، فنفرتْ بى فرسى ، وذهبت تتمطَّر[4] ، فإذا به فى أثَرِى حتى لحقنى ، فعطفت عليه ، وقلت : ما بالك ؟ قال : أظنك والله من عَدُوّنا . قلت : أجل والله ، قال : إذا لا تبرح حتى أقتلك أو تقتلنى ؛ فحملت عليه وحَمَل علىّ ، فاضطربنا بسَيْفينا ساعة ، فو الله ما فَضَلتُه فى شدّة نفَس ولا إقدام ، إلّا أنّ سيفى كان أقطع من سيفه فقتلته .

* * *

وبلغ شبيبا أنّ جند الشام الذى مع حبيب حملوا معهم حَجَراً ، وحلفوا لا يفرّون حتّى يفرّ هذا الحجرُ ، فأراد أن يُكذّبهم ، فعمَد إلى أربعة أفراس ، وربط فى أذنابها تِرَسَة ،

(١) الطبرى : « قتلت منهم أمس رجلين : أحدهما أشجع الناس ، والآخر أجبن الناس » .
(٢) الطبرى : « كأنك لم تشتر علفا » .
(٣) من الطبرى.
(٤) تتمطر : تسرع فى جريها .

فى ذَنَب كل فرس تُرْسين، ثم نَدَب ثمانية نفر من أصحابه ، وغلاما له يقال له حيّان ـ كان شجاعا فاتكا ـ وأمره أن يحمل معه إدَاوةً من ماء ، ثم سار ليلا حتى أتى ناحية من عَسْكر أهل الشام ، فأمر أصحابه أن يكونوا فى نواحى العسكر الأربع ، وأن يكون مع كلّ رجلين فرس : ثم يلبسوها الحديد حتى تجِدَ حَرّه ، ثم يخلّوها فى العسكر ، وواعدهم تَلْعَةً قريبة من العسكر ، وقال : مَنْ نجا منكم ؛ فإن موعدَه التّلعة ؛ فكره أصحابُه الإقدام على ماأمرهم ؛ فنزل بنفسه حتى صَنَع بالخيل ماأمرهم به ؛ حتى دخلتْ فى العسكر ، ودخل هو يتلوها ، ويشدّ خلفها شدًّا محكما ؛ فتفرّقت فى نواحى العسكر ، واضطرب الناس ، فضرب بعضُهم بعضا ، وماجوا ، ونادى حبيبُ بن عبد الرحمن : ويحكم إنها مكيدة ! فالزَموا الأرض حتى يتبين لكم الأمر ؛ ففعلوا ، وحصل شبيب بينهم ، فلزم الأرضَ معهم ، حتى رآهم قد سكنوا ، وقد أصابَتْه ضربة عمود أوْهَنَتْه .

فلما هدأ الناس ورجعوا إلى مراكزهم خرج فى غُمارهم ، حتى أتَى التّلعة ، فإذا مولاه حيّان ؛ فقال : أفرغ وَيْحَك على رأسى مِنْ هـذه الإداوة ! فلمّا مدّ رأسه لِيَصُبّ عليه من الماء هَمّ حيان بضرب عنقه ؛ وقال لنفسه : لاأجِدُ مكرمة لى ، ولاذِكْراً أرْفَعَ من هذا فى هذه الخَلْوة ، وهو أمانى من الحجاج ؛ فأخذته الرّعْدة حين هَمّ بما هَمّ به ؛ فلما أبطأ عليه ، قال له : وَيْحك ! ماانتظارُك بحلّها ! ناولْنِيها ، وتناول السّكين من مَوْزَجه[1] فخرقها به ، ثم ناوله إيّاها ، فأفرغ عليه من الماء ، فكان حيّان بعدذلك يقول : لقد هممت فأخذتنى الرّعدة فجبُنْت عنه ؛ وما كنتُ أعهد نفسى جَبَانًا .

* * *

ثم إنّ الحجاج أخرج الناس إلى شبيب ، وقَسّم فيهم أموالًا عظيمة ، وأعطى الجرْحَى وكلّ ذى بلاء ، وأمر سفيان بن الأبرد أن يسيرَ بهم ، فشقّ ذلك على حبيب

---

(١) الموزج : الخف .

ابن عبد الرحمن ، وقال : تبعث سفيان إلى رجل قد فلّته ، وقتلتُ فرسانَه ! وكان شبيب قد أقام بِكَرْمان حتى جبر ، واستراش هو وأصحابه ؛ فمضى سفيان بالرِّجال ، واستقبله شبيب بدُجيل الأهواز ؛ وعليه جسر معقود ، فعبر إلى سفيان ، فوجده قد نزل بالرجال ، وجعل مهاصر[1] بن صيفيّ على خيله ، وبشر بن حسان[1] الفِهْريّ عَلَى ميمنته ، وعمر بن هبيرة الفزاري على ميسرته ، وأقبل شبيب في ثلاثة كراديس ؛ هو في كتيبة ، وسويد بن سليم في كتيبة ، وقَعنب في كتيبة ، وخلف المحلّل في عسكره ؛ فلما حَمَلَ سُوَيد وهو في ميمنته على ميسرة سُفيان وقَعنب وهو في ميسرته على ميمنة سفيان ، حَمَــل هو على سفيان ، ثم اضطربوا مليًّا ، حتى رجعت الخوارج إلى مكانها الذى كانوا فيه .

فقال يزيد السَّكسكى - وكان من أصحاب سفيان يومئذ : كَرّ علينا شبيب وأصحابه أكثر من ثلاثين كَرّة ، ولا يزول من صفّنا أحدٌ ، فقال لنا سفيان : لاتحملوا عليهم متفرقين ؛ ولكن لتزحفْ عليهم الرجال زحفا ، ففعلنا ، ومازلنا نطاعِنُهم حتى اضطررناهم الى الجسر ، فقاتلونا عليه أشدّ قتال يكون لقوم قَطّ . ثم نزل شبيبٌ ، ونزل معه نحومائة رجل ؛ فما هو إلا أن نَزَلُوا حتى أوْقَعُوا بنا من الضَّرْب والطعن شيئا مارأينا مثله قطّ ؛ ولا ظنناه يكون ؛ فلما رأى سفيان أنّه لايقدر عليهم ، ولا يأمَنُ ظفرهم ، دعا الرّماة فقال : اشقُوهم بالنَّبل ؛ وذلك عند المساء ، وكان الالتقاء ذلك اليوم نصفَ النهار ، فرشقهم أصحابُه ؛ وقد كان سفيان صَفّهم على حِدَة ، وعليهم أمير ، فلما رَشَقُوهم شَدُّوا عليهم ، فشدَدْنا نحن ، وشغلناهم عنهم ، فلما رأوا ذلك ركب شبيبٌ وأصحابه ، وكَرّوا على أصحاب النَّبل كَرّة شديدة ، صرعوا منهم فيها أكثر من ثلاثين راميا ، ثم عطف علينا يُطاعننا بالرماح ، حتى اختلط الظلام ، ثم انصرف عنا ، فقال سفيان بن الأبرد لأصحابه :

---

(١) ب : « مضاض » .

ياقوم ، دعوهم لا تتّبعوهم ؛ ياقوم دَعُوهم لا تَتّبعوهم حتى نُصبِّحَهم . قال : فكففنا عنهم وليس شيء أحبَّ إلينا من أن ينصرفوا عنا .

قال فروة بن لقيط الخارجيّ : فلما انتهينا إلى الجسر ، قال شبيب : اعبرُوا معاشر المسلمين فإذا أصبحنا باكرناهم إن شاء الله تعالى ، قال : فعبرنا أمامه ، وتخلّف فى آخرنا ، وأقبل يعبُر الجسر ، وتحته حصان جَمُوح ، وبين يديه فرس أُنثى ما ذيانة ، فنزا حصانُه عليها وهو على الجسر ؛ فاضطربت الماذيانة ، وزَلّ حافر فرس شبيب عن حَرْف السفينة ، فسقط فى الماء ، فسمعناه يقول لما سقط : ﴿ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولًا ﴾ (١) واغتمس (٢) فى الماء ثم ارتفع فقال : ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (٣) ثم اغتمس فى الماء ، فلم يرتفع .

هكذا روى أكثرُ الناس . وقال قوم : إنه كان مع شبيب رجال كثيرٌ بايعوه فى الوقائع التى كان يهزم الجيش فيها ، وكانت بيعتُهم إياه على غير بصيرة ، وقد كان أصاب عشائرهم وساداتهم ؛ فهم منه موتورون ، فلما تخلّف فى أُخْرَيات الناس يومئذ ، قال بعضهم لبعض : هل لكم أنْ نقطع به الجسر ، فندرك ثأرنا الساعة ! فقالوا : هذا هو الرأى ، فقطعوا الجسر ، فمالت به السفينة ، ففزِع حصانُه ونَفَر ، فسقط فى الماء وغَرِق .

والرواية الأولى أشهر ؛ فحدث قومٌ من أصحاب سُفْيان ، قالوا : سمعنا صوتَ الخوارج يقولون : غَرِق أمير المؤمنين ، فعبَرْنا إلى عسكرهم ، فإذا هو ليس فيه صافر (٤) ولا أثر ؛ فنزلنا فيه ، وطلبنا شَبيبا حتى استخرجناه من الماء ، وعليه الدِّرْع ؛ فيزعم الناس أنهم

---

(١) سورة الأنفال ٤٢

(٢) الطبرى : « ارتمس » ، وهما بمعنى .

(٣) سورة يس ٣٨

(٤) هو مثل ، يقال : « ما بالدار من صافر » أى أحد .

شقوا بطنه وأخرجوا قَلْبَهُ فكان مجتمعا صُلْبا كالصخرة ؛ وأنه كان يضرب به الأرض فينْبُو ، ويثب قامة الإنسان .

ويحكى أن أم شبيب كانت لا تصدّق أحداً نعاه إليها ، وقد كان قيل لها مرارا إنه قد قتل فلا تقبل ، فلما قيل لها : إنه قد غرق بكتْ ؛ فقيل لها فى ذلك ، فقالت : رأيت فى المنام حين ولدتُه أنه خرج من فَرْجى نارٌ ملأت الآفاق ، ثم سقطت فى ماء فخمدت ، فعلمت أنه لا يهلِك إلا بالغرق [1] .

* * *

وهذا آخر الجزء الرابع من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

ويتلوه الجزء الخامس إن شاء الله [2]

---

(١) وفى رواية أخرى ذكرها الطبرى : « كان شبيب ينعى لأمه ، فيقال : قتل ، فلا تقبل ، فقيل لها : إنه غرق ، فقبلت وقالت : إنى رأيت حين ولدته أنه خرج منى شهاب نار ، فعلمت أنه لا يطفئه إلا الماء » .

(٢) هذا آخر ماورد فى نسخة (ج) ، وجاء فى آخر نسخة (ب) : « وهذا آخر الجزء الرابع من شرح نهج البلاغة ، ويتلوه الجزء الخامس إن شاء الله تعالى. والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيد الأنبياء وسند الأصفياء محمد وآله الطيبين الطاهرين » .

فهرس الخطب (*)

(*) وهى الخطب التى وردت فى كتاب نهج البلاغة .

(١) وهى تتمة الخطبة الثانية والخمسين ، وأولها فى الجزء الثالث ص ٣٣٢

فهرس الموضوعات (*)

(*) وهى الموضوعات التى وردت أثناء شرح نهج البلاغة .



